

السيرة الحلبية

وهو الكتاب المسمى

(إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)

علي بن برهان الدين الحلبي

من الكتب المشهورة في السيرة النبوية جمعها من كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس (وذكر أنه أحسن ما ألف في السيرة) واختصر منه الأسانيد، ومن سيرة الشمس الشامي. وحاول تنقية كتابه من الروايات الموضوعية المكذوبة، وحلى كتابه بتوزيع همزية البوصيري بحسب أحداث السيرة، كما يذكر شيئاً من أبيات تائية السبكي، وأبيات ابن سيد الناس في ديوان بشرى اللبيب بذكرى الحبيب. وكثيراً ما ينسب النقول إلى قائلها وكتبهم، والأحاديث إلى مخرجها وأحياناً يحكم عليها. وقد أطلال في آخر الكتاب الكلام على سرايا النبي وشمائله وخصائصه وصفاته

الملف الثالث

«قالت عائشة رضي الله عنها: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش أم المؤمنين عن أمري، يقول: ماذا علمت أو رأيت، فتقول: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري» أي أصون سمعي من أن أقول سمعت ولم أسمع، وأصون بصري من أن أقول أبصرت ولم أبصر «ما علمت إلا خيراً» أي وفي رواية «حاشا سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، والله ما أكلمها، وإني لمهاجرتها، وما كنت أقول إلا الحق. قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله». وفي لفظ «تناصيني» أي تعادلني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في المنزلة والمحبة عنده «فعصمها الله تعالى» أي ولهذا جعلها في النور أفضل نسائه بعد عائشة وخديجة حيث قال: والذي يظهر أن أفضلهن: أي زوجاته بعد خديجة وعائشة زينب بنت جحش.

«وقالت عائشة رضي الله عنها في وصفها: لم أر امرأة قط خيراً من زينب في الدين، وأتقي لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتقرب به إلى الله، ما عدا سورة» أي حدة «تسرع فيها الفيئة» أي ترجع عنها سريعاً «قالت عائشة رضي الله عنها: وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم أي عند استلباث الوحي وتأخره في الناس وخطبهم فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذوني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق» وفي رواية «فاستعذر من عبدالله بن أبي ابن سلول، فقال وهو على المنبر: من يعذرني أن ينصفني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً - يعني صفوان - ما علمت عليه إلا خيراً، أي وزاد في رواية «ولا يدخل بيتي». وفي لفظ «بيتاً من بيوتي إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي يقولون عليه غير الحق. فقام سعد بن معاذ: أي سيد الأوس فقال: يا رسول الله أنا

أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وقد احتملته الحمية» وفي لفظ «أجهلته الحمية. وكان قيل ذلك رجلاً صالحاً»: أي لما ذكر سعد بن معاذ الخزرج الذين هم قوم سعد بن عبادة غضب سعد بن عبادة لأجلهم وحملته الحمية لهم على أن يجهل» أي قال قول الجهل «فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ كما تقدم. فقال لسعد ابن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتله وأنفك راعم. فإنك منافق تجادل عن المنافقين» أي والمراد بكونه منافقاً أنه يفعل فعل المنافقين، ومن ثم لم ينكر ذلك إن كان سمعه، فتار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، لأنه كان بين الحيين قبل الإسلام مشاحنة ومحاربة كما تقدم ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر/ «فلم يزل رسول الله

صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكنوا، قالت: وأنا لا أعلم بشيء من ذلك».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

أقول فيه أن سعد بن معاذ لم يقل إنه إن كان من الخزرج نقتله، بل قال نفعل فيه ما أمر به النبي، فلا يحسن ردّ سعد بن عبادة عليه بما ذكر. ثم رأيت بعضهم ذكر أن الأظهر عندي أن ابن عبادة لم يقل ذلك حمية لقومه، وإنما أراد الإنكار على ابن معاذ في كونه يقتل شخصاً من قومه الذين هم الأوس مع أنه يظهر الإسلام لأنه لم يكن يقتل من يظهر الإسلام، فكأنه قال لا تقل ما لا تفعل ولا تقدر على فعله حيث لم يأمرك بذلك النبي، وإنما انتصر أسيد بن حضير لسعد بن معاذ نصره للنبي في مثل هذه الحالة العظيمة التي طلب النبي صلى الله عليه وسلم فيها من يعذره من ذلك القائل، وإنكاره على سعد بن عبادة إنما هو إنكار ظاهر لفظه وإن كان لباطنه مخلص حسن، وكم من لفظ ينكر إطلاقه على قائله وإن كان في الباطن له مخلص هذا كلامه. ثم رأيت في السيرة الهشامية أن المتكلم أسيد بن حضير، وأنه قال يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرونا أمرك، فوالله إنهم لأهل لأن نضرب أعناقهم، فقام سعد بن عبادة فقال: كذبت لعمر الله، والله ما تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك يعني الأوس ما قلت هذا: أي لأن عبد الله بن أبي ابن سلول من الخزرج، وكذا حسان بن ثابت رضي الله عنه، بناء على أنه كان من أصحاب الإفك.

وفي البخاري «أن سعد بن معاذ قال: ائذن لي يا رسول الله أن أضرب أعناقهم، فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان من رهط ذلك الرجل» أي من الخزرج «فقال: كذبت، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم» وعلى هذه الرواية فلا إشكال.

وقول البخاري «وكانت أم حسان إلي آخره» يشعر بأن حسان لم يكن من الخزرج، وهو يخالف ما تقدم وما سيأتي أنه من الخزرج، إلا أن يقال وصفه بذلك على المسامحة لكون أمه منهم فليتأمل، ولا يخفى أن ذكر المنبر يخالف ما في الأصل من أن اتخاذ المنبر كان في السنة الثامنة، وقصة الإفك كانت في السنة الخامسة أو السادسة. وفي النور: المراد بالمنبر شيء مرتفع، قال: وإلا فالمنبر إنما اتخذ في السنة الثامنة، أي فيكون المراد المنبر الذي اتخذ في السنة الثامنة كان من الطين، والذي كان من خشب إنما اتخذ في السنة الثامنة، وقد بينا ذلك مبسوطاً والله أعلم.

ثم بعد نزول آيات الإفك أي وهي {إن الذين جاءوا بالإفك عصبة} إلى قوله {أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم} خرج إلى الناس وخطبهم وتلا عليهم الآيات وأمر بجلد أصحاب الإفك، أي وهم: عبدالله بن أبي، ومسطح، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وأخوها عبيدالله بالتصغير ابن جحش ويقال له أبو أحمد، كان ضريباً. أي وكان يدور مكة أعلاها وأدناها في أي محل من غير قائد، وكان شاعراً وهو ابن عمه أميمة بنت عبد المطلب عمه النبي . وأما أخوها عبدالله مكبراً فقد قتل يوم أحد كما تقدم، وزاد بعضهم خامساً وهو زيد بن رفاعه. وفيه أنه تقدم أنهم لما قدموا المدينة وجدوه قد مات، إلا أن يقال. إن لهم زيد بن رفاعه غيره فيجوز أن يكون هو ذلك، ويقال وحسان بن ثابت «فجلدوا الحد وهو ثمانون».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

وقال بعضهم: وذكر سعد بن معاذ في هذه الرواية، أي أنه القائل أنا أعذرک وهم من بعض الرواية، وإنما المتكلم بذلك أسيد بن حضير أي كما تقدم عن السيرة الهشامية، لأن سعد بن معاذ مات بعد بني قريظة.

قال في الأصل: لو اتفق أهل المغازي على أن غزوة الخندق وبني قريظة متقدمة على غزوة بني المصطلق لكان الوهم لازماً ولكنهم مختلفون أقول: أي فالوهم لا يلزم إلا من جعل هذه الغزوة التي هي غزوة بني المصطلق متأخرة عن بني قريظة، ويذكر فيها سعد بن معاذ كالأصل. ومن ثم قال ابن إسحاق بأنها بعد بني قريظة. روى عن عائشة بدل سعد بن معاذ أسيد بن حضير. قال في الإمتاع: وهذا هو الصحيح، والوهم لم يسلم منه أحد من بني آدم.

وفيه أن مما يدل على تقدمها، وأن ذكر سعد بن معاذ ليس من الوهم في شيء ما ذكره في الكتاب المذكور الذي هو في الإمتاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث أياماً. ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر حتى دخل على سعد بن عبادة فتحدثوا ساعة وقرب لهم سعد بن عبادة طعاماً فأصابوا منه ثم انصرفوا، فمكث أياماً ثم أخذ بيد سعد بن عبادة في نفر فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ فتحدثوا ساعة وقرب لهم سعد بن معاذ طعاماً فأصابوا منه، ثم خرجوا، فذهب من أنفسهم ما كان، وأن ذكر سعد بن معاذ وقع في الصحيحين وغيرهما والله أعلم.

وذكر أن صفوان بن المعطل رضي الله عنه الذي كان الإفك بسببه ظهر أنه كان حصوراً لا يأتي النساء، أي إنما معه مثل الهدية: أي عنين.

وقد قال الشيخ محيي الدين: الحصور عندنا العنين، أي ويدل له ما في البخاري «أنه رضي الله عنه ما كشف كنيف امرأة قط» أي سترها، لأن الكنيف الساتر.

وقد جاء في تفسير وصف يحيى بن زكريا بحصوراً أنه أهوى إلى الأرض وأخذ قذاة. وقال: كان ذكره - يعني يحيى عليه السلام مثل هذه القذاة، ولعل المراد التشبيه في الارتقاء وعدم الشدة، فلا يخالف ما قبله، لكن في النهي: الحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، أي وربما يؤيد ذلك ما جاء «أربعة لعنوا في الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة. رجل جعله الله ذكراً فأنت نفسه وتشبه بالنساء. وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال. والذي يضل الأعمى. ورجل حصور، ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام» فالحصور وصف مذموم إلا في يحيى عليه السلام خصوصية له دون غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإلا فقد امتنَّ سبحانه على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بقوله {ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية}، قيل وهذا الوصف جاء ليحيى من أثر همة والده زكريا رحمه الله، فإنه لما شهد مريم منقطعة عن الأزواج أحب أن يرزقه الله ولداً: مثلها أي منقطعة عن الزوجات، فجاء يحيى عليه السلام حصوراً، ويؤيد ذلك ما في (أنس الجليل) وكان يحيى عليه السلام لا يأتي النساء لأنه لم يكن له ما للرجال، كذا قيل، وهو غير مرضي.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

وقد تكلم القاضي عياض رحمه الله في الشفاء على معنى كون يحيى حصوراً بما حاصله، أن هذا الذي قيل نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب لا يأتيها، فكأنه حصر عنها، وأنه حصر نفسه عن الشهوات قمعا لها، هذا كلامه فليتأمل.

أي وعلى الأول لا ينافي ذلك كون صفوان كان متزوجاً، لما تقدم أن زوجته شكته للنبي: أي على أن ابن الجوزي نقل عن شيخه ابن ناصر الدين رحمه الله تعالى أن صفوان رضي الله عنه إنما تزوج بعد حديث الإفك.

ومما يدل على أن حسان رضي الله عنه لم يكن من أصحاب الإفك تبرؤه مما نسب إليه في أبيات مدح بها عائشة رضي الله عنها منها:

مهذبة قد طيب الله خيمها
وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم
فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
وكيف وودي ما حبيت ونصرتي
لآل رسول الله زين المحافل

ومن ثم قال ابن عبد البر: وقد أنكروا قوم حسان رضي الله عنه خاض في الإفك، وأنه جلد.

وجاء أن عائشة رضي الله عنها برأته من ذلك. أي فقد ذكر الزبير بن بكار، أنه قيل لعائشة رضي الله عنها وقد قالت في حق حسان رضي الله عنه: إني

لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبه بلسانه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أليس هو ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئاً
ولكنه القائل:
فإن كان ما قد قيل عني قلته
فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
وقد قال مثل هذا البيت أنس بن زميم، وقد بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم
أهدر دمه لما بلغه أنه هجاه، فجاء إليه معترفاً وأنشده أبياتاً منها:
وئبي رسول الله إني هجوته
فلا رفعت سوطي إليّ إذن يدي
ولكن في رواية أنها كانت تاذن لحسان بن ثابت وتلقي له الوسادة وتقول: لا
تقولوا لحسان إلا خيراً، فإنه كان يردّ عن النبي صلى الله عليه وسلم بلسانه.
وقد قال تعالى {والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم} وقد عمي، والعمى
عذاب عظيم، والله قادر على أن يحيل ذلك ويغفر لحسان ويدخله الجنة.
وفيه أنه سيأتي عن عائشة وغيرها أن الذي تولى كبره عبدالله بن أبي ابن
سلول كما تقدم إلا أن يقال كبره مقول بالتشكيك، والذي بلغ فيه الغاية
عبدالله بن أبي ابن سلول فليتأمل.

وعن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ
سورة النور مستلقياً على سريره، فلما بلغ {والذي تولى كبره} جلس ثم قال:
يا أبا بكر من تولى كبره، أليس علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت في
نفسي: ماذا أقول؟ إن قلت لا، لا آمن أن ألقى منه شراً، وإن قلت نعم جئت
بأمر عظيم. ثم قلت لنفسي: لقد عوّدني الله على الصدق خيراً، فقلت لا،
فضرب بقضيبه السرير. قال: فمن؟ يكرر ذلك مراراً، قلت: لكن عبدالله بن
أبي بن سلول.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

ووقع لسليمان بن يسار مع هشام بن عبد الملك نحو ذلك؛ فإن سليمان بن
يسار رحمه الله دخل على هشام بن عبد الملك. فقال له: يا أبا سليمان الذي
تولى كبره من هو؟ قال: عبدالله بن أبي. قال: كذبت هو عليّ، قال: أنا أكذب،
لا أبا لك، لو نادى مناد من السماء إن الله أحل الكذب ما كذبت. حدثني عروة
وسعيد وعبدالله وعلقمة رحمهم الله، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:
الذي تولى كبره عبدالله بن أبي.

وعن عائشة رضي الله عنها «أنه ذكر عندها حسان بسوء فنهتهم، وقالت:
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا
منافق» وفي البخاري «كانت عائشة رضي الله عنها تنكر أن يسب عندها
حسان وتقول: إنه الذي قال:

فإن أبي ووالدتي وعرضي

لعرض محمد منكم وقاء

فبهذا البيت يغفر الله تعالى له.»

وذكر بعضهم أن الذين كانوا يهجون رسول الله صلى الله عليه وسلم من
مشركي قريش عبدالله بن الزبيري، وأبو سفيان ابن عمه، وعمرو بن العاص،
وضرار بن الحارث.

ولما أراد حسان رضي الله عنه أن يهجوهم، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ وكيف تهجو أبا سفيان ابن عمي؟ فقال له: والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين، فقال له أنت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك. فكان يجيء إلى أبي بكر ليوقفه على أنسابهم، فجعل حسان يهجوهم، فلما سمعوا هجوه. قالوا: إن هذا الشعر ما غاب عنه ابن أبي قحافة: وعاش حسان رضي الله عنه مائة وعشرين سنة، نصفها في الجاهلية، ونصفها في الإسلام، وعاش والده مائة وعشرين سنة، وكذا جده ووالد جده.

قال بعضهم: ولا يعرف أربعة تناسلوا وتساوت أعمارهم غيرهم، ولم يشهد حسان مع النبي صلى الله عليه وسلم مشهداً، لأنه كان يخشى الموت، فكان ينسب للجبن. ومن ثم جعل يوم الخندق مع النساء والذراري في الأطام. وما وقع له مع صفية عمته في أمر اليهودي قتلته في ذلك المكان، وما قاله لها يدل على أنه كان جباناً شديداً الجبن.

ويردّ إنكار بعض العلماء كونه جباناً قال: إذ لو صح ذلك لهجى به، فإنه كان يهاجي الشعراء، وكانوا يردون عليه، فما غيره أحد منهم به ولا وسمه به، ولعله كان به علة اقتضت جعله مع الذراري في الأطام منعه من شهود القتال، هذا كلامه.

وقد يقال: على تسليم أنه لم يهج بالجبين يجوز أن يكون لكونه كان لا بتأثر بوصفه بذلك.

وذكر بعضهم أن حسان رضي الله عنه شلت يداه بضربة ضربها له صفوان بسيف لما هجاه فذكر ذلك حسان لرسول الله، فدعا حسان و صفوان، أي وأظهر التغيظ على صفوان بسبب إظهاره السلاح على حسان وضربه به، فقال صفوان: يا رسول الله أذاني وهجاني، فاحتملني الغضب فضربتته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان: يا حسان أحسن فيما أصابك، قال: هي لك. وفي رواية قال: كل حق لي قبل صفوان فهو لك، فقال له: قد أحسنت وقبلت ذلك منك، وأعطاه رسول عوصاً منها حديقة له، يقال لها بئرحا بفتح الراء في الأحوال الثلاثة مع قصرها. قيل لها ذلك لأن الإبل يقال لها إذا وردت وزجرت عن الماء حاء، حاء.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

وفيه أنه كان القياس أن يقال بئرحا بضم الراء في حالة الرفع وحدها، إلا أن يقال المجموع اسم مركب، وكانت هذه البئر لأبي طلحة رضي الله عنه فتصدق بها على رسول الله ليضعها حيث شاء، ثم باعها حسان من معاوية بمال عظيم.

أقول: الذي في البخاري: «كان أبو طلحة رضي الله عنه أكثر أنصاري بالمدينة مالا، وكان أحب أمواله إليه بئرحا، وهي حديقة كانت مستقبله المسجد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويستظل بها ويشرب من ماء فيها طيب. فلما نزلت {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} قام أبو طلحة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن الله

يقول في كتابه {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} وإن أحب أموالي إليّ بئرحا، وإنه صدقة لله أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث شئت، فقال: بخ، ذلك مال رايح، ذلك مال رايح، قد سمعت ما قلت فيها، قد قبلناها منك، ورددناها عليك، وأرى أن تجعلها في الأقربين. قال: أفعّل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه» وفي لفظ آخر في البخاري «قال لأبي طلحة: اجعله لفقراء أقاربك. فجعل لحسان وأبي بن كعب».

وفيه أن أبي بن كعب كان غنياً، وبين في البخاري وجه قرابتهما من أبي طلحة، فذكر أن حسان يجتمع مع أبي طلحة في الأب السادس وأبي يجتمع معه في الأب السادس، وذكر بعضهم أن أبي بن كعب كان ابن عمه أبي طلحة. وفي الإمتاع أنه أعطى حسان تلك الحديقة وأعطاه سيرين جاريتيه أخت مارية أمّ ولده إبراهيم، فجاءت منه بابنه عبد الرحمن، وكان يفتخر بأنه ابن خالة إبراهيم ابن النبي. وقد روت سيرين هذه عن النبي حديثاً قالت «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم خللاً في قبر ابنه إبراهيم فأصلحه وقال: إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه» وأعطاه سعد بن عبادة رضي الله عنه بستاناً كان يتحصل منه مال كثير. وحاصل ما في الإمتاع فيما وقع بين حسان وصفوان: أن حسان رضي الله عنه لما قال:
أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كبروا
وابن القرية أمسى بيضة البلد
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

قال صفوان: ما أراه إلا عناني أي بالجلابيب، وتقدم أن ابن أبي سلول قد قالها في حق المهاجرين، والقرية بالقاف: جدة حسان رضي الله عنه، وقيل أمه. وقرية الشيء: خياره، وقرية القبيلة لسيدها، واستعمل بيضة البلد في الذم بقرينة المقام، وإلا فكما تستعمل في الذم تستعمل في المدح. ويقال: فلان بيضة البلد: أي واحد في قومه عظيم فيهم. فعند ذلك خرج صفوان مصلاًّ السيف وجاء إلى حسان وهو في نادي قومه الخزرج وضربه، فلقي بيده فوقع السيف فيها، فقام قومه وأوثقوا صفوان رباطاً، ثم إنه حلّ وجيء به إلى رسول الله، فقال حسان رضي الله عنه: يا رسول الله شهر عليّ السيف في نادي قومي ثم ضربني ولا أراني إلا ميتاً من جراحتي، فقال لصفوان: ولم ضربته وحملت السلاح عليه؟ وتغيظ لحسان، فقال صفوان ما تقدم. ثم قال لقوم حسان: احبسوا صفوان، فإن مات حسان فاقتلوه به، فحبسوه، فبلغ ذلك سيد الخزرج سعد بن عبادة، فأقبل على قومه ولامهم على حبسه، فقالوا: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبسه وقال لنا: إن مات صاحبكم فاقتلوه. فقال سعد: والله إن أحبّ الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العفو عنه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بالحق، والله لا أبرح حتى يطلق، فاستحيا القوم وأطلقوه، وأخذه سعد وانطلق به إلى منزله وكساه حلة،

وجاء به إلى المسجد، فلما رآه قال: صفوان؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال: من كساه؟ قالوا سعد بن عبادة. قال: كساه الله من ثياب الجنة. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم حسان رضي الله عنه في العفو عن صفوان. فقال: يا رسول الله كل حق لي قبل صفوان فهو لك. فقال: قد أحسنت وقبلت ذلك. ثم أعطاه أرضاً له وسيرين جاريته أخت مارية أم ولده إبراهيم وأعطاه أيضاً سعد ابن عبادة رضي الله عنه حائطاً كان يتحصل منه مال كبير بما عفا عن حقه.

وقيل إنما أعطاه سيرين لذبه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره. فقد قال ابن عبد البر رحمه الله: إعطاء رسول الله سيرين أخت مارية لحسان ابن ثابت يروى من وجوه، أكثرها أن ذلك ليس بسبب ضرب صفوان له بل لذبه بلسانه عن رسول الله .

قيل وكان لسان حسان يصل لجبهته وإلى نحره. وكذلك كان أبوه وجده، وكان حسان رضي الله عنه يقول علي لسانه: والله لو وضعته على صخر لفلقه أو شعر لحلقه. وقد عمي مسطح أيضاً.

أي وقد روى أصحاب السنن الأربعة عن عائشة رضي الله عنها أنه أمر برجلين وامرأة فضربوا حدّهم. قال الترمذي حسن غريب. أي والمرأة حمنة بنت جحش، والرجلان أخوها عبيدالله أبو أحمد ابن جحش ومسطح.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

ولم يحدّ الخبيث عبدالله بن أبي ابن سلول، لأن الحدّ كفارة وليس من أهلها. وقيل لأنه لم تقم عليه البينة بذلك بخلاف أولئك. وقيل لأنه كان لا يأتي بذلك على أنه من عنده بل على لسان غيره.

وفي الطبراني ومعجم النسائي عن عائشة رضي الله عنها أن عبدالله بن أبي ابن سلول جلد مائة وستين أي حدّ حدّين. قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: وهكذا يفعل بكل من قذف زوجة نبيّ. أي ولعل المراد أنه يجوز أن يفعل به ذلك فلا ينافي ما تقدم من أن الحدّ كان ثمانين جلدة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما «ما زنت». وفي لفظ «لم تبغ امرأة نبيّ قط». وأما قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط {فخانتاهما} فالمراد آذناهما. قالت امرأة نوح عليه السلام في حقه إنه لمجنون. وامرأة لوط عليه السلام دلت على أضيافه.

قيل: إنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما السلام، ولم يجز أن تكون فاجرة، أي زانية لأن النبي مبعوث إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه منقص ينفرهم عنه والكفر غير منقص عندهم. وأما الفجور فمن أعظم النقصان.

وفي الخصائص الصغرى: ومن قذف أزواجه فلا توبة له ألبتة، كما قاله ابن عباس وغيره، ويقتل كما نقله القاضي عياض وغيره. وقيل يختص القتل بمن قذف عائشة، ويحد في غيرها حدّين.

وقد وقع أن الحسن بن زيد الراعي من أهل طبرستان. وكان من العظماء، كان

يلبس الصوف ويأمر بالمعروف، وكان يرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرق على أولاد الصحابة. فحضر عنده رجل من أشياع العلويين، فذكر عائشة رضي الله عنها بالقيح. فقال الحسن لغلامه: يا غلام اضرب عنق هذا، فنهض إليه العلويون وقالوا: هذا رجل من شيعتنا. فقال: معاذ الله، هذا طعن على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: {الخبيثات للخبِيثين والخبِيثون للخبِيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات} فإن كانت عائشة رضي الله عنها خبيثة فإن زوجها يكون خبيثاً، وحاشاه من ذلك، بل هو الطيب الطاهر، وهي الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر، فضرب عنقه.

وفي كتاب (الإشارات) للفخر الرازي أنه في تلك الأيام التي تكلم فيها بالإفك كان أكثر أوقاته في البيت، فدخل عليه عمر رضي الله عنه، فاستشاره في تلك الواقعة، فقال: يا رسول الله أنا أقطع بكذب المنافقين، وأخذت براءة عائشة رضي الله عنها من الذباب، لأن الذباب لا يقرب بدنك؛ فإذا كان الله تعالى صان بدنك أن يخالطه الذباب لمخالطته للقاذورات فكيف أهلك؟.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

ودخل عليه عثمان رضي الله عنه فاستشاره، فقال له عثمان: يا رسول الله أخذت براءة عائشة رضي الله عنها من ظلك، إني رأيت الله تعالى صان ظلك أن يقع على الأرض: أي لأن شخصه الشريف كان لا يظهر في شمس ولا قمر، لئلا يوطأ بالأقدام. فإذا صان الله ظلك فكيف بأهلك. أي وقد أشار إلى ذلك الإمام السبكي رحمه الله في تائيته بقوله:

لقد نزه الرحمن ظلك أن يرى
على الأرض ملقى فانطوى لمزبة

وهنا لطيفة لابأس بها: وهي أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان مسافراً وكان يسايره يهودي، فلما أراد المفارقة قال عبدالله رضي الله عنه لليهودي: بلغني أنكم تدينون بإيذاء المسلمين، فهلا قدرت على شيء من ذلك معي وأقسم عليه، فقال: إن أمنتني أخبرتك، فأمنه، فقال: لم أقدر عليك في شيء أكثر من أني كنت إذا رأيت ظلك وطئته بقدمي وفاء بأمر ديننا.

ودخل عليه علي كرم الله وجهه فاستشاره، فقال له علي كرم الله وجهه: أخذت براءة عائشة من شيء هو أنا صلينا خلفك وأنت تصلي بنعليك، ثم إنك خلعت إحدى نعليك فقلنا ليكون ذلك سنة لنا، قلت لا، إن جبريل عليه السلام أخبرني أن في تلك النعل نجاسة، فإذا كان لا تكون النجاسة بنعليك فكيف تكون بأهلك؟ فسرّ بذلك، أي ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن خلع إحدى نعليه في أثناء الصلاة لنجاسة بها واستمر في الصلاة.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال لزوجته أم أيوب: ألا ترين ما يقال: أي من الإفك؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تهّم بسوء لمحرم رسول الله؟ قال لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله، فعائشة خير مني وصفوان خير منك.

وفي السيرة الشامية أن أبا أيوب رضي الله عنه قالت له زوجته أم أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال بلى، وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت: لا، والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.

وجاء أن ابن عباس رضي الله عنهما دخل على عائشة رضي الله عنها في مرض موتها فوجدها وجلة من القدوم على الله، فقال لها: لا تخافي، فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم، فغشي عليها من الفرح بذلك، لأنها كانت تقول متحدثة بنعمة الله عليها: لقد أعطيت تسعاً ما أعطيتها امرأة. لقد نزل جبريل عليه السلام بصورتني في راحته حين أمر رسول الله أن يتزوجني. ولقد تزوجني بكرة وما تزوج بكرة غيري. ولقد توفي وإن رأسه في حجري. ولقد قبر في بيتي وإن الوحي ينزل عليه في أهله فيفرقون منه، وإن كان لينزل عليه وأنا معه في لحاف واحد، وأبي رضي الله عنه خليفته وصديقه. ولقد نزلت براءتي من السماء، ولقد خلقت طيبة عن طيب. ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

قيل وفي هذه الغزوة فقدت عائشة رضي الله عنها عقدها أيضاً فاحتبسوا على طلبه، أي فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه رجلين من المسلمين أي أحدهما أسيد بن حضير، فحضرت الصلاة أي صلاة الصبح وكانوا على غير ماء. زاد في رواية: وليس معهم ماء فنزلت آية التيمم. وهذا القيل نقله إمامنا الشافعي رضي الله عنه عن عدة من أهل المغازي. أي وعليه يكون سقط عقدها في تلك الغزوة مرتين لاختلاف القضيتين باختلاف سياقهما.

والصحيح أن ذلك كان في غزوة أخرى أي متأخرة عن هذه الغزوة. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان من أمر عقدي ما كان وقال أهل الإفك ما قالوا، فخرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أخرى فسقط أيضاً عقدي حتى حبس التماسه الناس، أي فإنه بعث رجالاً في طلبه، وهو لا يخالف ما سبق أنه أرسل في طلبه رجلين، وطلع الفجر، فلقيت من أبي بكر رضي الله عنه ما شاء الله، أي لأن الناس جاؤوا لأبي بكر رضي الله عنه وشكوا إليه ما نزل بهم، فجاء إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه الشريف على فخذه قد نام، فقال لها: حبست رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء، جعل يطعن بيده في خاصرتها ويقول: يا بنية في كل سفرة تكونين عناء وبلاء وليس مع الناس ماء. قالت: فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي: أي لأنه كان إذا نام لا يوقظه أحد حتى يكون هو يستيقظ، لأنهم لا يدرون ما يحدث له في نومه، فقال حين أصبح. وفي لفظ: فاستيقظ وحضرت الصلاة فالتمس الماء فلم يجد فأنزل الله تعالى الرخصة بالتيمم. وفي لفظ: فأنزل الله تعالى آية التيمم أي التي في المائدة. ففي بعض الروايات فنزلت {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة} الآية.

وقيل المراد بالآية آية النساء، لأن آية المائدة تسمى آية الوضوء، وآية النساء لا ذكر للوضوء فيها، فيتجه تسميتها بآية التيمم، وكلام الواحدي رحمه الله في أسباب النزول يدل عليه. فقال أبو بكر عند ذلك: والله يا بنية إنك كما علمت مباركة، أي وقال لها ما أعظم بركة قلادتك، وقال أسيد بن حضير: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر. أي وفي رواية إنه قال لها جزاك الله خيراً، فما نزل بك

أمر تكرهينه إلا جعل الله منه مخرجاً وللمسلمين فيه خير، أي وهذا ربما يفيد تكرر وقوع ما تكرهه، وأن في ذلك خيراً للمسلمين فليتأمل.

وفي لفظ قال أسيد بن حضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبي بكر، ما أنتم إلا بركة لهم.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وإنما قال أسيد بن حضير ما قال دون غيره، لأنه كان رأس من بعث في طلب العقد، أي بل تقدم في بعض الروايات الاقتصار على بعثه لطلب ذلك. قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، أي أقمناه من مبركه فوجدنا العقد تحته.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583
أقول في النور: أعلم أن العقد سقط مرتين: مرة كان لها ومرة كان لأختها أسماء استعارته. وبهذا يجمع بين الأحاديث التي في المسألة، هذا كلامه فليتأمل وينظر تلك الأحاديث، وما هي أي وكون هذا العقد لأسماء أختها لا يخالف ذلك قولها عقدي، لأن الإضافة تأتي لأدنى ملابس، أي فعقد أسماء كان في المرة الثانية. وفي البخاري أيضاً أن آية التيمم نزلت بعد أن صلوا بلا وضوء.

فعن عائشة رضي الله عنها. «أنها استعارت من أسماء رضي الله عنها قلادة فهلكت: أي ضاعت، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً فوجدها، فأدرکتهم الصلاة وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى رسول الله ، فأنزل الله تعالي آية التيمم». وقد ترجم البخاري عن تلك بقوله باب إذا لم يجد ماء ولا تراباً، وقوله «فبعث رجلاً فوجدها» يجوز أن يكون هذا الرجل هو الذي أقام البعير أو من جملة من أقامه، فلا يخالف ما سبق مما يدل أن الذين بعثهم في طلبه لم يجدوه.

ثم رأيت الحافظ ابن حجر رحمه الله قال: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن أسيداً كان رأس من بعث لذلك، فلذلك سمي في بعض الروايات دون غيره، ولذا أسند الفعل إلي واحد منهم، وكأنهم لم يجدوا العقد أولاً. فلما رجعوا ونزلت آية التيمم، وأرادوا الرحيل وأثاروا البعير وجده أسيد رضي الله عنه هذا كلامه.

قيل وفي هذه الغزوة خرجوا عن الطريق، وأدركهم الليل بقرب واد وعر، فهبط جبريل عليه السلام وأخبره أن طائفة من كفار الجن بهذا الوادي يريدون كيدته وإيقاع الشر بأصحابه، فدعا بعلي كرم الله وجهه وعوده وأمره بنزول الوادي فقتلهم.

قال الإمام ابن تيمية: وهذا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى علي كرم الله وجهه. قال ابن تيمية: ومن هذا ما روي في عام الحديبية أنه قاتل الجن في بئر ذات العلم، وهي بئر في الجحفة، وهو حديث موضوع عند أهل المغازي.

أي وجاء في سبب مشروعية التيمم غير ما ذكر. ففي الطبراني عن أسلع، قال: «كنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرحل له ناقته، فقال لي

ذات يوم: يا أسلع قوم فارحل، فقلت: يا رسول الله أصابتني جنابة أي ولا ماء، فسكت رسول الله، فأتاه جبريل بآية الصعيد: أي التراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا أسلع فتيمة، فأراني التيمم: ضربة للوجه، وضربة لليدين إلى المرفقين، فقامت فتيمة، ثم رحلت له حتى مر بماء، فقال: يا أسلع أمس هذا جلدك».

وفي الإمتاع: نزلت آية التيمم طلوع الفجر، فمسح المسلمون أيديهم بالأرض، ثم مسحوا بأيديهم إلى المناكب، أي ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن هذه الرواية. وفي هذه السنة الخامسة خسف القمر، صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخسوف حتى انجلى القمر، وصارت اليهود تضرب بالطساس ويقولون سحر القمر.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 583

غزوة الخندق

ويقال لها غزوة الأحزاب: أي وهي الغزوة التي ابتلى الله تعالى فيها عباده المؤمنين وثبت الإيمان في قلوب أوليائه المتقين: أي وأظهر ما كان يبطنه أهل النفاق والشقاق والمعاندين.

وسببها أنه لما وقع إجلاء بني النضير من أماكنهم كما تقدم سار منهم جمع من كبرائهم، منهم سيدهم حبي بن أخطب أبو صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، وعظيمهم سلام بن مشكم، ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس، وأبو عامر الفاسق، إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. أي ونكون معكم على عداوته. فقال أبو سفيان: مرحباً وأهلاً. وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد.

زاد في رواية: فقال لهم: لكن لا نأمنكم إلا أن سجدتم لألهتنا حتى نطمئن إليكم ففعلوا. فقالت قريش لأولئك اليهود: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نخلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وفي رواية: نحن أهدى سبيلاً أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى سبيلاً، أي لأنكم تعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية؛ وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، أي فأنتم أولى بالحق منه، فأنزل الله تعالى فيهم { ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت } الآيات، فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطهم لما دعوهم إليه من حرب رسول الله .

وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلاً وتجالفوا، وقد ألقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها، أن لا يخذل بعضهم بعضاً، ويكونون كلهم يداً واحدة على محمد ما بقي منهم رجل، وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية رحمه الله بأبيات ذم فيها اليهود لعنهم الله بأمور بقوله:

لا تكذب أن اليهود وقد زأ

غوا عن الحق معشر لؤماء

جددوا المصطفى وأمن بالطا

غوت قوم هم عندهم شرفاء

قتلوا الأنبياء واتخذوا العج

لألا إنهم هم السفهاء
وسفيه من ساءه المن والسل
وى وأرضاه الفوم والقثاء
ملئت بالخبيث منهم بطون
فهي نار طباقها الأمعاء
لو أريدوا في حال سبت بخير

كان سبتاً لديهم الأربعاء
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628
هو يوم مبارك قيل للتصر
يف فيه من اليهود اعتداء
فبظلم منهم وكفر عدتهم
طيبات في تركهن ابتلاء

أي لا تكذب أن اليهود والحال أنهم قد مالوا عن الحق قوم لؤماء، واللئيم:
الذني الأصل، الشحيح النفس. ومن عظيم لؤمهم أنهم جحدوا نبوته ورسالته
والحال أنه قد آمن بالطاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله؟ مأخوذ من
الطغيان قوم هم عندهم شرفاء وهم كفار قريش.
ورد أن اليهود قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً، ومن جملة من قتلوا زكريا
ويحيى، واتخذوا العجل إلهاً يعبدونه، ومن يفعل ذلك لا سفيه غيره، ومن أرضاه
الفوم والقثاء بدل المن وهو نوع من الحلواء، والسلوى: نوع من الطير، سفيه
بلا شك، ملئت بالحرام كالربا بطون منهم، فبطونهم نار لاشتغالها على ما
يؤدي إلى تلك النار، طباق تلك النار المصارين، ولو أراد الله لليهود في حال
سبتهم الذي اختاروا تعظيمه على ما تقدم خيراً لكان يوم الأربعاء يوم سبتهم
لأنه يوم خلق فيه النور؛ فاختيار يوم السبت دون يوم الأربعاء لسبتهم: أي
سكوتهم عما عدا العبادة دليل على أنه تعالى لم يرد بهم الخير، ويوم السبت
ابتداء الله فيه خلق العالم، خلافاً لهم حيث قالوا إن ذلك أي ابتداء الخلق كان
يوم الأحد، وفرغ من الخلق يوم الجمعة واستراح يوم السبت. قالوا: فنحن
نستريح فيه كما استراح الرب تعالى فيه وقالوا: فإن الله لا يقضي يوم السبت
شيئاً من خلق ولا رزق ولا رحمة ولا عذاب ولا إحياء ولا إماتة، ومن مات يوم
السبت يكون محي اسمه من اللوح المحفوظ قبل ذلك، وقد كذبهم الله تعالى
بقوله {كل يوم هو في شأن} فكان فيه منهم ظلم وعدوان لأجل التصريف فيه
بغير العبادة، فبسبب ظلم وكفر حاصل منهم فيه فاتتهم طيبات كانت حلالاً
لهم، فحرمها الله تعالى عليهم، فكان في ذلك ابتلاء لهم.

ونقل عن ابن حجر الهيتمي رحمه الله، أنه بحث استحباب صوم يوم الأربعاء،
لما ذكر من أنه خلق فيه النور فليتامل.
ثم جاء أولئك إلى غطفان ودعوهم وحرصوهم على حرب رسول الله، وقالوا
لهم: إنا سنكون معكم، وإن قريشاً قد بايعوهم على ذلك، وجعلوا لهم تمر خبير
سنة إن هم نصرههم عليه، فتجهزت قريش، أي وأتباعها من القبائل، وغطفان

أي وأتباعها، وقائد قريش أبو سفيان بن حرب وكانوا أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمائة فرس أي وألف أو خمسمائة بعير، وعقد اللواء في دار الندوة وحمله عثمان بن طلحة بن أبي طلحة المقتول والده الذي هو طلحة يوم أحد، وكذا عمه: أي عما عثمان بن طلحة وهما عثمان بن أبي طلحة وأبو سعيد بن أبي طلحة وعثمان بن أبي طلحة هو أبو شيبه كما تقدم، فشيبه ابن عم عثمان بن طلحة، وقتل يوم أحد أخوه عثمان بن طلحة الأربعة، وهم: مسافع بن طلحة، والحارث بن طلحة، وكلاب بن طلحة؟ والجلال بن طلحة، وعثمان بن طلحة هذا، أي الحامل لواء قريش أسلم بعد ذلك، ويقال له الحجبي لأنه كان من بني عبد الدار وهم سدنة الكعبة، وبنو عبد الدار كان لهم ولأبيهم حمل لواء قريش عند الحرب دون غيرهم كما تقدم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

أي وقائد غطفان عيينة بن حصن الفزاري في بني فزارة أي وهم ألف، وتقدم أن عيينة أسلم بعد ذلك، ثم ارتد بعد إسلامه وأخذ أسيراً في زمن خلافة الصديق رضي الله عنه، ثم أسلم وكان قبل إسلامه يتبعه عشرة آلاف قناة. وكان عنده جفوة وغلظة، ومن ثم قال في حقه «إنه الأحمق المطاع» وقال فيه «إن شر الناس من ودعه الناس اتقاء شره».

أي وقائد بني مرة أي وهم أربعمئة الحارث بن عوف المري، وأسلم بعد ذلك: أي وقيل لم تحضر بنو مرة.

وقائد بني أشجع أبو مسعود بن ربيعة، بضم الراء وفتح الخاء المعجمة وأسلم بعد ذلك.

أي وقائد بني سليم وهم سبعمئة سفيان بن عبد شمس لا يعلم إسلامه.

أي وقائد بني أسد طليحة بن خويلد الأسدي، وأسلم بعد ذلك: أي بعد أن كان ارتد بعد إسلامه، ثم حسن إسلامه، وكانت أشجع وبنو أسد تتمة العشرة آلاف. فقد قال بعضهم: كانت الأحزاب عشرة آلاف، وهم ثلاث عساكر، وملاك أمرها لأبي سفيان: أي المدبر لأمرها والقائم بشأنها.

ولما تهيأت قريش للخروج أتى ركب من خزاعة في أربعة ليال حتى أخبروا رسول الله، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أجمعوا عليه نذب الناس: أي دعاهم، وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم في أمرهم، أي قال لهم: هل نبرز من المدينة أن نكون فيها؟ فأشير عليه بالخذق، أي أشار عليه بذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه. فقال: يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، أي فإن ذلك كان من مكاييد الفرس، وأول من فعله من ملوك الفرس ملك كان في زمن موسى بن عمران صلوات الله وسلامه عليه، فأعجبهم ذلك، فضرب على المدينة الخندق.

أي وعند ذلك ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرساً له ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعاً ينزل له، وجعل سلماً خلف ظهره، وأمرهم بالجد ووعدهم بالنصر إن هم صبروا. فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين، أي وحمل التراب على ظهره الشريف، ودأب المسلمون يبادرون قدوم العدو. قال: واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرارين ومكاتل، وكان من جملة من يعمل في الخندق جعال أو جعيل بن سراقه؛ وكان رجلاً دميماً قبيح الوجه، صالحاً من أصحاب الصفة. وهو الذي

تمثل به الشيطان يوم أحد، وقال إن محمداً قد قتل كما تقدم، فغير اسمه
وسماه عمراً، فجعل المسلمون يرتجزون ويقولون:
سماه من بعد جعيل عمرا
وكان للبائس يوماً ظهرا

وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قالوا عمراً قال عمراً، وإذا قالوا
ظهراً قال ظهراً انتهى، أي وسياق أسد الغابة يدل على أن هذا الذي غير
رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه عمراً غير جعيل المذكور،
وحصل للصحابة رضي الله عنهم تعب وجوع لأنه كان في زمن عسرة وعام
مجاعة.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بأصحابه من النصب والجوع قال
متمثلاً بقول ابن رواحة رضي الله عنه:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة

فارحم الأنصار والمهاجرة

قيل: وإنما قال ابن رواحة لا هم إن العيش من غير ألف ولام فقد غيره على ما
هو عادته كما تقدم، وفي لفظ:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة

فبارك في الأنصار والمهاجرة

وفي لفظ * فأكرم الأنصار والمهاجرة * وتقدم في بناء المسجد:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة

فارحم الأنصار والمهاجرة

زاد في الإمتاع:

اللهم العن عضلاً والقاره

هم كلفوني أنقل الحجاره

وفي لفظ: هم كلفونا نقل الحجاره، قال الحافظ ابن حجر ولعله كان «والعن
إلهي عضلاً والقاره» أي والتغيير منه . وفي لفظ:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة

فارحم المهاجرين والأنصاره

وفي لفظ * فانصر الأنصار والمهاجرة * وأجابوه رضي الله تعالى عنهم
بقولهم:

نحن الذين بايعوا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

وقال متمثلاً بقول ابن رواحة وهو ينقل التراب وقد وارى الغبار جلد بطنه
الشريف:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا

ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا

وثبت الأقدام إذ لاقينا

والمشركون قد بغوا علينا

وإن أرادوا فتنة أبينا

يمد بها صوته مكرراً لها: أينا أينا، ولما بدأ بالحفر في الخندق قال: بسم الإله
وبه بديننا، بكسر الدال:
ولو عبدنا غيره شقيننا
يا حبذا ربا وحب دينا
وفي الإمتاع أنه قال ما تقدم عنه في بناء المسجد وهو:
هذا الحمال لا حمال خبير
هذا أبر ربنا وأطهر

وتقدم الكلام عليه وعلى إنشاده الشعر في الكلام على بناء المسجد.
أي ورأيت «أن عمار بن ياسر رضي الله عنه حين كان يحفر في الخندق جعل
رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح رأسه ويقول: ابن سمية تقتلك الفئة
الباغية» أي كما تقدم له في بناء المسجد، وصار الشخص منهم إذا نابته النائبة
من الحاجة التي لا بد له منها يذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم
ويستأذنه في اللقوق بها، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان عليه من عمله
رغبة في الخير، وتباطأ رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعف، وصار
الواحد منهم يتسلل إلى أهله من غير استئذان له، أي وكان زيد بن ثابت ممن
ينقل التراب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حقه «أما إنه نعم
الغلام» وغلبته عينه فنام في الخندق، فأخذ عمارة بن حزم سلاحه وهو نائم.
فلما قام فزع على سلاحه. فقال له رسول الله «يا بار قد نمت حتى ذهب
سلاحك. ثم قال: من له علم بسلاح هذا الغلام؟ فقال عمارة: أنا يا رسول الله
وهو عندي. فقال: ردّه عليه، ونهى أن يروع المسلم ويؤخذ متاعه لاعباً» وإليه
استند أئمتنا في تحريم أخذ متاع الغير مع عدم علمه بذلك.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

واشتد على الصحابة رضي الله عنهم في حفر الخندق كدية، أي محل صلب،
فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ المعول وضرب فصارت
كثيباً أهيل أو أهيم: أي رملاً سائلاً. وفي رواية «أنه دعا بماء ثم تفل عليه ثم
دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء أي رشه على تلك الكدية» قال
بعض الحاضرين: فوالذي بعثه بالحق لانهايت حتى عادت كالكثيب: أي الرمل،
ما ترد فأبسا ولا مسحاة، وهي المجرفة من الحديد.
أي وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ينقلان التراب في ثيابهما إذا لم يجدا
مكاتل من العجلة.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: ضربت في ناحية من الخندق
فغلظت عليّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني. فلما رأني أضرب
ورأى شدة المكان عليّ نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت
تحت المعول برقة، ثم ضرب به أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به
الثالثة فلمعت برقة أخرى، فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي
رأيت يلمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أو قد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال:
قلت نعم. قال أما الأولى، فإن الله تعالى فتح عليّ بها اليمن وأما الثانية، فإن

الله فتح عليّ بها الشام والمغرب. وأما الثالثة، فإن الله فتح عليّ بها المشرق.
قال: وقد ذكر أن سلمان الفارسي رضي الله عنه تنافس فيه المهاجرون
والأنصار. فقال المهاجرون: سلمان منا. وقالت الأنصار: سلمان منا. فقال
رسول الله «سلمان منا أهل البيت» ولذلك يشير بعضهم بقوله:
لقد رقي سلمان بعد رقه
منزلة شامخة البنيان
وكيف لا والمصطفى قد عده
من أهل بيته العظيم الشان
وإنما وقع التنافس في سلمان رضي الله عنه، لأنه كان رجلاً قوياً يعمل عمل
عشرة رجال في الخندق، أي فكان يحفر في كل يوم خمسة أذرع في عمق
خمسة أذرع حتى أصيب بالعين، أصابه بالعين قيس بن صعصعة فلبط به: أي
بلام مضمومة فموحدة مكسورة فطاء مهملة: صرع فجأة، وتعطل عن العمل،
فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال «مروه فليتوضأ وليغتسل،
ويكفئ الإناء خلفه ففعل، فكانما نشط» أي حل «من عقال» وفي لفظ
«فأمر أن يتوضأ قيس لسلمان ويجمع وضوءه في ظرف ويغتسل سلمان بتلك
الغسالة، ويكفئ الإناء خلف ظهره».

وذكر «أنه لما اشتدت تلك الكدية على سلمان أخذ المعول من سلمان، وقال:
بسم الله، وضرب ضربة فكسر ثلثها، وبرقت برقة، فخرج نور من قبل اليمن
كالمصباح في جوف ليل مظلم، فكبر رسول الله، وقال: أعطيت مفاتيح
اليمن، إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة كأنها أبواب الكلاب. ثم
ضرب الثانية فقطع ثلثاً آخر، فخرج نور من قبل الروم، فكبر رسول الله،
وقال: أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها» أي زاد في رواية
«الحرير. ثم ضرب الثالثة فقطع بقية الحجر، وبرق برقة فكبر، وقال: أعطيت
مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أبواب
الكلاب في مكاني هذا» أي وفي رواية «إني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن،
وجعل يصف لسلمان أماكن فارس، ويقول سلمان: صدقت يا رسول الله، هذه
صفتها، أشهد أنك رسول الله، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه
فتوح يفتحها الله بعدي يا سلمان» اهـ.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

أي وعند ذلك قال جمع من المنافقين. منهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من
محمد يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة
ومدائن كسرى، وأنها تفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق: أي
الخوف، لا تستطيعون أن تبرزوا فأنزل الله تعالى {قل اللهم مالك الملك تؤتي
الملك من تشاء} الآية.

وقيل في سبب نزولها أنه لما فتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم، فقال
المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ وهم
أعز وأمنع من ذلك.

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش ومن
معها، وكانوا عشرة آلاف كما تقدم، فنزلت قريش بمجمع الأسيال وغطفان
ومن معهم إلى جانب أحد، وكان المسلمون ثلاثة آلاف.

أي وقد قال ابن إسحاق: سبعمائة، ووهم في ذلك. وقال ابن حزم: إنه الصحيح الذي لا شك فيه ولا وهم، وعسكر بهم إلى سفح سلع: وهو جبل فوق المدينة، أي فجعل ظهر عسكره إلى سلع كما تقدم، و الخندق بينه وبين القوم، أي وضربت له قبة من آدم.

قال: وكان يعقب فيها بين ثلاثة من نسائه عائشة وأم سلمة وزينب بنت جحش، فتكون عائشة عنده أياماً. أي فإنه مكث في عمل الخندق بضع عشرة ليلة، وقيل أربعاً وعشرين ليلة، أي وقيل عشرين ليلة، وقيل قريباً من شهر، وقيل شهراً.

قال بعضهم: وكونه قريباً من شهر هو أثبت الأقاويل. وقيل أثبت الأقاويل أنها كانت خمسة عشر يوماً، وبه جزم النووي رحمه الله في الروضة، وسائر نسائه في بني حارثة، وجعل النساء والذراري في الأظام، وعرض الغلمان وهو يحفر الخندق وكانوا بأجمعهم من بلغ ومن لم يبلغ يعملون فيه، فلما التحم الأمر أمر من لم يبلغ خمس عشرة سنة أن يرجع إلى أهله، وأجاز من بلغ خمس عشرة سنة.

فمن أجازه عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما، وزيد بن ثابت، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب رضي الله تعالى عنهم اهـ وشبكوا المدينة بالبنيان من كل ناحية، فصارت كالحصن.

وفي كلام بعضهم: كان أحد جوانب المدينة عورة، وسائر جوانبها مشتبكة بالبنيان والنخيل لا يتمكن العدو منه، فاختر ذلك الجانب للخندق.

واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه. وأرسل سليطاً وسفيان بن عوف طليعة للأحزاب فقتلوهما، فأتي بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فدفنهما في قبر واحد، فهما الشهيدان القرينان. وأعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد بن عباد، وبعث مسلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير خوفاً على الذراري من بني قريظة، أي لما بلغه أنهم نقضوا ما بينه وبينهم من العهد كما سيأتي، أي وأنهم يريدون الإغارة على المدينة، فإن حيي بن أخطب أرسل إلى قريش أن يأتيه منهم ألف رجل، وإلى عطفان أن يأتيه منهم ألف رجل أخرى ليغيروا على المدينة، وجاء الخبر بذلك إلى رسول الله، فعظم البلاء، وصار الخوف على الذراري أشد من الخوف على أهل الخندق.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

ولما نظر المشركون إلى الخندق قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، وصار المشركون يتناوبون، فيغدو أبو سفيان في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو جبيرة بن وهب يوماً، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً، فلا يزالون يجيلون خيلهم ويفترقون مرة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي يقربون منهم، ويقدمون رجالهم فيرمون،

ومكنوا على ذلك المدة المتقدمة، ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى.

وفي تلك المدة أقبل نوفل بن عبدالله بن المغيرة على فرس له ليوثبه الخندق فوقع في الخندق فقتله الله: أي اندقت عنقه. أي وفي لفظ: وأما نوفل بن عبدالله، فضرب فرسه ليدخل الخندق فوقع فيه مع فرسه فتحطما جميعاً. وقيل رمي بالحجارة، فجعل يقول: قتلة أحسن من هذه يا معشر العرب؟ فنزل إليه علي كرم الله وجهه فقتله: أي ضربه بالسيف فقطعه نصفين، وكبر ذلك على المشركين، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا نعطيك الدية على أن تدفعه إلينا فندفنه. فردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه خبيث الدية، فلعنه الله ولعن ديته، ولا نمنعكم أن تدفنوه، ولا أرب: أي عرض لنا في ديته. وقيل أعطوا في جثته عشرة آلاف، أي وفي رواية أنهم أرسلوا إليه: أن أرسل إلينا بجسده ونعطيك اثني عشر ألفاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا خير في جثته ولا في ثمنه، ادفعوه إليهم فإنه خبيث الجسد خبيث الدية. وفي لفظ: إنما هي جيفة حمار.

ثم إن عدو الله حبي بن أخطب سيد بني النضير، كان يقول لقريش في مسيره معهم إن قومي بني قريظة معكم وهم أهل حلقة وافرة، وهم سبعمائة مقاتل وخمسون مقاتلاً، فقال له أبو سفيان: أئت قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد، فعند ذلك خرج حبي لعنه الله حتى أتى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة وولي عهدهم الذي عاهدهم عليه رسول الله، أي المتقدم ذكره، فدق عليه باب حصنه، فأبى أن يفتح له وألح عليه في ذلك. فقال له: ويحك يا حبي إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً. فقال له: ويحك افتح لي أكلمك، فقال: ما أنا بفاعل، فغاضه، فقال له: والله ما أغلقت دوني إلا تخوفاً على جيشيتك، أي بالجيم المفتوحة والشين المعجمة - وهي البر يطحن غليظاً، ويقال له الدشيش - أن أكل معك منها ففتح له. فقال له: ويحك يا كعب، جئت بعز الدهر، جئت بك بقريش حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال، وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد، قد عاهدوني وعاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه. فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وكل ما يخشى، فإني لم أر في محمد إلا صدقاً ووفاء. وفي لفظ: جئتني بجهم: أي سحاب قد هراق ماء: أي لا ماء فيه، يرعد ويبرق، وليس فيه شيء، ويحك يا حبي، دعني وما أنا عليه. فلم يزل حبي بكعب حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رجعت قريش وغطفان ولم يقتلوا محمداً أن يكون معه في حصنه وبصبيه ما أصابه، فعند ذلك نقض كعب العهد، وبريء مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد، وجمع رؤساء قومه وهم الزبير بن مطا، وشاس بن قيس، وعزال بن ميمون، وعقبة بن زيد، وأعلمهم بما صنع من نقض العهد وشق الكتاب الذي كتبه رسول الله، فلجم الأمر لما

أراد الله من هلاكهم. وكان حيي بن أخطب في اليهود يشبه بأبي جهل في قريش.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

فلما انتهى الخبر بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي أخبره بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقال: يا رسول الله بلغني أن بني قريظة قد نقضت العهد وحاربت، فاشتد الأمر على رسول الله، وشق عليه ذلك. وأرسل سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج، وأرسل معهما ابن رواحة وخوات بن جبير. وأسقطهما في الإمتاع وذكر بدلتهما أسيد بن حضير. وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه دون القوم، أي وروا وكنوا في كلامكم بما لم يفهمه القوم، أي لئلا يحصل لهم الوهن والضعف، وإلا فاجهروا بذلك بين الناس. فإن اللحن العدول بالكلام عن الوجه المعروف عند الناس إلى وجه لا يعرفه إلا صاحبه؛ كما أن اللحن الذي هو الخطأ عدول على الصواب المعروف، ومنه قول القائل «وخير الحديث ما كان لحناً» فخرجوا حتى أتوا بني قريظة فوجدوهم قد نقضوا العهد ونالوا من رسول الله، أي قالوا من رسول الله؟ تبرؤوا من عقده وعهده، وقالوا لا عهد بيننا وبين محمد، فشتهم سعد بن معاذ وهم حلفاؤه، أي وقيل سعد بن عباد أي وكان فيه حدة وشاتموه أي ولا مانع من وجود الأمرين. وقال سعد بن معاذ لسعد بن عباد: أو بالعكس؟ دع عنك مشاتمهم فما بيننا وبينهم أربى، أي أقوى من المشاتمة. ثم أقبل السعدان، ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنوا له عن نقضهم العهد، أي قالوا عضل والقارة: غدروا كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، وسيأتي خبر ذلك في السرايا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، أي وقال: أبشروا يا معاشر المسلمين نصره الله تعالى وعونه، وتقع بثوبه واضطجع ومكث طويلاً، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رآوه اضطجع ثم رفع رأسه، فقال: أبشروا بفتح الله ونصره، أي ولعل هذا: أي إرسال السعدين ومن معهما كان بعد إرساله الزبير إليهم

ليأتي بخبرهم، هل نقضوا العهد استنباطاً للأمر. فعن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما. قال: كنت يوم الأحزاب أنا وعمرو بن أبي سلمة مع النساء في أطم حسان بن ثابت. أي وكان حسان مع النساء، ومن جملتهم صفية بنت عبد المطلب، واتفق أن يهودياً جعل يطوف بذلك الحصن. فقالت صفية لحسان: يا حسان لا آمن هذا اليهودي أن يدلهم على عورة الحصن فيأتوا إلينا، فانزل فاقتله. قال حسان رضي الله عنه: يا بنت عبد المطلب قد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قالت: فلما أبست منه أخذت عموداً ونزلت ففتحت باب الحصن وأتيت من خلفه فضربت بالعمود حتى قتلتها، وصعدت الحصن فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لم يمنعي من سلبه إلا أنه رجل. فقال: يا بنت عبد المطلب مالي بسلبه حاجة. أي وهذا يدل على ما قيل إن حسان بن ثابت كان من أجبن الناس كما تقدم. قال عبدالله بن الزبير

رضي الله عنهما: فنظرت فإذا الزبير علي فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً. فلما رجعت، قلت يا أبت رأيتك تختلف إلى بني قريظة. قال: رأيتني يا بني؟ قلت نعم. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من يأتي بني قريظة فيأتييني بخبرهم؟ فلما رجعت جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه. فقال: فداك أبي وأمي أخرجه الشيخان. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

أي وفي كلام ابن عبد البر رحمه الله ثبت عن الزبير رضي الله عنه أنه قال: جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه مرتين: يوم أحد، ويوم بني قريظة، فقال: ارم فداك أبي وأمي. وقال ولعل ذلك كان في أحد «إن لكل نبي حوارياً، وإن حوارياً الزبير» وقال «الزبير ابن عمتي وحواري من أمتي» ويذكر أن الزبير رضي الله عنه كان له ألف مملوك يؤدون إليه الخراج. وكان يتصدق بذلك كله ولا يدخل بيته من ذلك درهماً واحداً وذلك من أعلام نبوته. فقد جاء أنه لما نزل قوله تعالى {ثم لتسألن يومئذ عن النعيم} قال له الزبير: يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: أما إنه سيكون، وقد جعله سبعة من الصحابة وصياً على أولادهم، فكان يحفظ على أولادهم ما لهم وينفق عليهم من ماله، وهؤلاء السبعة: منهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، والمقداد، وابن مسعود. وعظم عند ذلك البلاء على المسلمين لما وصل إليهم الخبر: أي خبر نقض بني قريظة العهد. ولا منافاة بين بلوغهم الخبر وما تقدم من عدم الإفصاح به، لأنهم جاءهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المسلمون كل الظن، وأنزل الله تعالى {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر} وظهر النفاق من المنافقين حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً، فأنزل الله تعالى {وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً}. ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة الأمر بعث إلى عيينة بن حصن الفزاري وإلى الحارث بن عوف المري في أن يقطعهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه. فجاءا مستخفيين من أبي سفيان فوافقاه على ذلك، أي بعد أن طلبا النصف فأبى عليهما إلا الثلث، فرضيا وكتبا بذلك صحيفة.

أي وفي رواية: أحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان رضي الله عنه الصلح. فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقع الصلح على ذلك، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد رضي الله عنهما، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فتصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ أي وفي لفظ: إن كان أمراً من السماء فامض له، وإن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه هوى فسمع وطاعة، وإن كان إنما هو الرأي، فما لهم عندنا إلا السيف. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أمرني الله ما شاورتكمما، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد

رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر شوكتهم إلى أمرٍ ما. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم: أي غطفان على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قرى أو بيعاً، أي وإن كانوا ليأكلون العلهز في الجاهلية من الجهد، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نقطعهم أموالنا. أي وفي لفظ: نعطي الدنية ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنت وذاك. فأخذ سعد الصحيفة فمحي ما فيها من الكتابة. أي وهذا إنما يناسب الرواية الأولى، وكذا ما جاء في لفظ. «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شق الكتاب، فشقه سعد، وقال لعبينة و الحارث: ارجعا بيننا وبينكم السيف رافعاً صوته. ثم قال لسعد ليجهدوا علينا». رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

ثم إن طائفة من المشركين أقبلوا: أي وأكروهوا خيولهم على اقتحام الخندق من مضيق به وفيهم عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه، فإنه أسلم بعد ذلك. وفيهم هبيرة بن أبي وهب أي وهو زوج أم هانئ أخت علي كرم الله وجهه رضي الله عنها، وأبو أولادها، مات على كفره. وضرار بن الخطاب وعمرو بن عبد ود. أي قيل ونوفل بن عبدالله، وكان عمرو بن عبد ود عمره إذ ذاك تسعين سنة، فقال: من يبارز، فقام علي كرم الله وجهه وقال: أنا له يا نبي الله. فقال له اجلس إنه عمرو بن عبد ود. ثم كرر عمرو النداء وجعل يوبخ المسلمين ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزن لي رجلاً وأنشد أبياتاً منها

ولقد بحثت من النداء

ع يجمعكم هل من مبارز

إن الشجاعة في الفتى

والجود من خير الغرائز

فقام علي كرم الله وجهه، فقال: أنا له يا رسول الله، فقال: اجلس إنه عمرو

بن عبد ود. ثم نادى الثالثة، فقام علي كرم الله وجهه فقال: أنا له يا رسول

الله، فقال: إنه عمرو فقال وإن كان عمراً، فأذن له رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأنشد سيدنا عليّ أبياتاً منها:

لا تعجلن فقد أتانا

ك مجيب قولك غير عاجز

ذو نية وبصيرة

والصدق منجي كل فائر

وفي رواية أنه أعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه الحديد وعممه بعمامته.

وقال «اللهم أعنه عليه، أي وفي لفظ: اللهم هذا أخي وابن عمي، فلا تذرني

فردا وأنت خير الوارثين».

زاد في رواية «أنه رفع عمامته إلى السماء. وقال: إلهي أخذت عبيدة مني يوم

بدر وحمزة يوم أحد، وهذا عليّ أخي وابن عمي» الحديث، فمشى إليه علي

كرم الله وجهه، فقال له: يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من

قريش إلى إحدى خلتين: أي خلتين إلا أخذتها منه. قال له أجل: أي نعم،

فقال له علي كرم الله وجهه: فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسول الله ، وإلى الإسلام فقال: لا حاجة لي بذلك. قال له علي: فإني أدعوك إلى البراز.

قال وفي رواية: إنك كنت تقول لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاثة إلا قبلتها. قال: أجل، فقال علي: فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتسلم لرب العالمين، فقال: يا ابن أخي أخرجني هذه. قال: وأخري، ترجع إلى بلادك، فإن يك محمد صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن يك كاذباً كان الذي تريد. قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً، كيف وقد قدرت علي استيفاء ما نذرت، أي فإنه نذر لما أفلت هارباً يوم بدر وقد جرح أن لا يمس رأسه دهنًا حتى يقتل محمداً . قال: فالثالثة ما هي؟ قال البراز، فضحك عمرو وقال: إن هذه لخصلة ما كنت أظن أحداً من العرب يروّعني بها أ هـ ثم قال له عند طلب المبارزة: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال علي كرم الله وجهه: ولكنني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك: أي أخذته الحمية.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

وفي رواية أن عمراً قال له: من أنت أي لأن علياً كرم الله وجهه كان مقنعاً بالحديد، قال: علي، قال ابن عبد مناف؟ قال: أنا علي بن أبي طالب، فقال: غيرك يا ابن أخي من أعمامك من هو أشد منك، فإني أكره أن أهرق: أي أسيل دمك، أي وزاد في رواية: فإن أباك كان لي صديقاً، أي وفي لفظ: كنت له نديماً، فقال علي: وأنا والله ما أكره أن أهرق دمك، فغضب، فقال له علي كرم الله وجهه: كيف أقاتلك وأنت على فرسك ولكن أنزل معي، فاقتحم عن فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار، فعقر فرسه وضرب وجهه، وأقبل على علي كرم الله وجهه، فاستقبله علي بدرقته فضربه عمرو فيها ففقدتها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، فضربه علي كرم الله وجهه على حبل عاتقه أي وهو موضع الرداء من العنق فسقط وكبر المسلمون، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير عرف أن علياً كرم الله وجهه قتل عمراً لعنه الله.

أي وذكر بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك قال «قتل علي لعمر بن عبد ود أفضل من عبادة الثقلين» قال الإمام أبو العباس بن تيمية: وهذا من الأحاديث الموضوععة التي لم ترد في شيء من الكتب التي يعتمد عليها ولا بسند ضعيف، وكيف يكون قتل كافر أفضل من عبادة الثقلين الإنس والجن ومنهم الأنبياء. قال: بل إن عمرو بن عبد ود هذا لم يعرف له ذكر إلا في هذه الغزوة.

أقول: ويردّ قوله إن عمرو بن عبد ود هذا لم يعرف له ذكر إلا في هذه الغزوة قول الأصل. وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد فلما كان يوم الخندق خرج معلماً: أي جعل له علامة يعرف بها ليرى مكانه، أي ويرده أيضاً ما تقدم من أنه نذر أن لا يمس رأسه دهنًا حتى يقتل محمداً ، واستدلّاه بقوله وكيف يكون إلى آخره فيه نظر، لأن قتل هذا كان فيه نصرة للدين وخذلان للكافرين.

وفي تفسير الفخر أنه قال لعلي كرم الله وجهه بعد قتله لعمر بن عبد ود «كيف وجدت نفسك معه يا علي؟ قال: وجدتته لو كان أهل المدينة كلهم في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم».

وفي كلام السهيلي رحمه الله: ولما أقبل علي كرم الله وجهه بعد قتله لعمر بن عبد ود على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متهلل، قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلا سلبتك درعه، فإنه ليس في العرب درع خير منها؟ قال: إني حين ضربته استقبلني بسوءته فاستحييت يا ابن عمي أن أسلبه، هذا كلامه.

وعندي أن هذا اشتباه من بعض الرواة، لأن هذه الواقعة لعلي كرم الله وجهه إنما كانت في يوم أحد مع طلحة بن أبي طلحة كما تقدم وعمر بن عبد ود لم يشهد أحداً كما تقدم عن الأصل فليتأمل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

قال: وذكر ابن إسحاق أن المشركين بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترون جيفة عمرو بعشرة آلاف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو لكم ولا تأكل ثمن الموتى، وحين قتل عمرو رجع من وصل الخندق من المشركين بخيلهم هارين، فتبعهم الزبير رضي الله عنه وضرب نوفل بن عبد الله بالسيف فشقه نصفين ووصلت الضربة إلى كاهل فرسه، فقيل له: يا أبا عبد الله ما رأينا مثل سيفك، فقال والله ما هو السيف ولكنها الساعد، أي وفيه أنه تقدم أن نوفل بن عبد الله وقع في الخندق فاندقت عنقه إلى آخر ما تقدم، لكني رأيت بعضهم قال: إن وقوع نوفل في الخندق ورميه بالحجارة وقتل علي كرم الله وجهه له في الخندق غريب من وجهين فليتأمل.

وحمل الزبير رضي الله عنه على هبيرة بن أبي وهب وهو زوج أم هانئ أخت علي بن أبي طالب كما تقدم، فضرب ثغر فرسه فقطعه، وسقطت درع كان محبقها الفرس: أي جعلها على مؤخر ظهرها، فأخذها الزبير، وألقى عكرمة بن أبي جهل رمحه وهو منهزم انتهى.

أي وفي رواية: ثم حمل ضرار بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهبيرة بن أبي وهب على كرم الله وجهه فأقبل عليّ عليهما فأما ضرار فولى هارباً ولم يثبت، وأما هبيرة فثبت ثم ألقى درعه وهرب وكان فارس قريش وشاعرها.

وذكر أن ضرار بن الخطاب لما هرب تبعه أخوه عمر بن الخطاب وصار يشدد في أثره، فكّر ضرار راجعاً وحمل على عمر رضي الله عنه بالرمح ليطعنه ثم أمسك وقال: يا عمر هذه نعمة مشكورة أثبتها عليك وبدلي عندك غير مجزيّ بها فاحفظها.

أي ووقع له مع عمر رضي الله عنه مثل ذلك في أحد، فإنه التقى معه، فضرب عمر رضي الله عنه بالقناة ثم رفعها عنه وقال له: ما كنت لأقتلك يا ابن الخطاب، ثم منّ الله على ضرار فأسلم وحسن إسلامه، وكان شعار المسلمين «حم؟ لا ينصرون» أي ولعل المراد بالمسلمين الأنصار، فلا يخالف ما في الإمتاع، وكان شعار المهاجرين «يا خيل الله».

وفيه خرجت طائفتان للمسلمين ليلاً لا يشعر بعضهم ببعض، ولا يظنون إلا أنهم العدو فكانت بينهم جراحة وقتل ثم نادوا بشعار الإسلام «حم؟ لا ينصرون» فكف بعضهم عن بعض.

وقد يقال: يجوز أن تكون الطائفتان كانتا من الأنصار جاؤوا، فقال رسول الله «جراحكم في سبيل الله، ومن قتل فهو شهيد» وبهذا استدل أئمتنا على أن من قتله مسلم خطأ في الحرب يكون شهيداً.

ورمي سعد بن معاذ بسهم قطع أكله: وهو عرق في الذراع تنتشعب منه عروق البدن، ولعله محل الفصد الذي يقال له المشترك، أي ويقال لهذا العرق عرق الحياة. أي رماه ابن العرقة اسم جدته، سميت بذلك لطيب عرقها، وقال خذها وأنا ابن العرقة، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال:

عرق الله وجهه في النار، وقيل قائل ذلك سعد رضي الله عنه، وعند ذلك قال سعد: اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم يعني قريشاً فاجعلها لي شهادة ولا تمنني حتى تقر عيني. وفي لفظ: حتى تشفيني من بني قريظة، وفي لفظ: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

وفي يوم استمرت المقاتلة، قيل من سائر جوانب الخندق إلى الليل ولم يصلّ ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء. أي وصار المسلمون يقولون: ما صلينا، فيقول: ولا أنا، فلما انكشف القتال جاء إلى قبته وأمر بلالاً فأذن وأقام الظهر فصلى ثم أقام بعد كل صلاة إقامة وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما «فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى الظهر ثم أمره فأذن وأقام فصلى العصر، ثم أمره فأذن وأقام فصلى المغرب، ثم أمره فأذن وأقام فصلى العشاء».

أقول: في الرواية الأولى ما يشهد لقول إمامنا الشافعي: يندب أن يؤذن للأولى من الفوائت ويقيم لما عداها إذا قضاها متوالية، وكونه يؤذن للأولى من الفوائت هو ما ذهب إليه في القديم وهو المفتي به. وفي الرواية الثانية دليل على أنه يؤذن لكل من الفوائت إذا قضاها متوالية، ولم يقل به إمامنا، فإنه جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه مرسلًا لأنه رواه عنه ابنه أبو عبيدة ولم يسمع منه لصغر سنه.

وروى إمامنا الشافعي رضي الله عنه بإسناد صحيح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال «حبسنا يوم الخندق حتى ذهب هوي» أي طائفة «من الليل حتى كفينا القتال، وذلك قوله تعالى {وكفى الله المؤمنين القتال} فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً فأمره فأقام الظهر فصلها كما كان يصلي، ثم أقام العصر فصلها كذلك، ثم أقام المغرب فصلها كذلك، ثم أقام العشاء فصلها كذلك» أي وفي لفظ «فصلى كل صلاة كأحسن ما كان يصليها في وقتها، وهو دليل لعدم ندب الأذان للفائتة، وهو ما ذهب إليه إمامنا الشافعي رضي الله عنه في الجديد وهو مرجوح.

وجمع الإمام النووي في شرح المهذب بين رواية إلى الليل ورواية حتى ذهب هوي من الليل بأنهما قضيتان جرتا في أيام الخندق، قال: فإنها كانت خمسة

عشر يوماً، أي على ما تقدّم.
وفيه أن كونهما قضيتين أمر واضح لاختفاء فيه، لأن في الأولى وفي يوم
استمرت المقاتلة إلى الليل، وفي الثانية حتى كفيينا القتال، فمع ذلك كيف يظن
أنهما قضية واحدة حتى يحتاج إلى الجمع، وظاهر سياق هذه الروايات أنه صلى
الأربع صلوات بوضوء واحد وبه صرح البغوي في تفسير سورة المائدة، وحينئذٍ
يحتاج للجمع بينه وبين ما يأتي في فتح مكة.
وروى الطحاوي، واستدل به مكحول والأوزاعي على جواز تأخير الصلاة لعذر
القتال أن الشمس ردت له بعد ما غربت حين شغل عن صلاة العصر حتى
صلى العصر، وذكر الإمام النووي في شرح مسلم أن رواه ثقات.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628
وفي البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه «أنه جاء يوم الخندق بعد ما
كادت الشمس تغرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله ما صليتها
- يعني العصر - فنزلنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بطحان فتوضأ للصلاة
وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب»
وهذه الرواية تقتضي أنه لم يفته إلا العصر وأنه صلاها بعد الغروب.
قال الإمام النووي رحمه الله: وطريق الجمع أن هذا كان في بعض أيام
الخندق، وكون صلاة العصر هي الوسطى قد جاء في بعض الروايات «شغلونا
عن الصلاة الوسطى صلاة العصر حتى غابت الشمس، ملأ الله أجوافهم» وفي
لفظ «بطونهم وقبورهم ناراً» والذي في البخاري ومسلم وأي داود والنسائي
والترمذي وقال حسن صحيح «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا
عن صلاة الوسطى حتى غابت الشمس» وكون الوسطى هي صلاة العصر هو
قول من تسعة عشر قولاً ذكرها الحافظ الدمياطي في مؤلف له سماه (كشف
الغطا عن الصلاة الوسطى) وفي الينبوع أن كون الصلاة الوسطى هي العصر
هو الذي اعتقده والله أعلم.

قال وجاء «أنه صلى المغرب، فلما فرغ قال: أحد منكم علم أنني صليت
العصر؟ قالوا: يا رسول الله ما صلينا» أي لا نحن ولا أنت «فأمر المؤذن فأقام
الصلاة فصلى العصر ثم أعاد المغرب» قيل وكان ذلك قبل أن تنزل صلاة
الخوف {فإن خفتهم فرجالاً أو ركباناً} اهـ.
أقول: يحتاج إلى الجواب عن إعادة المغرب. وقد يقال: أعادها مع الجماعة،
وأن قوله {فإن خفتهم فرجالاً أو ركباناً} يرشد إلى أن المراد بصلاة الخوف
صلاة شدته لا صلاة ذات الرقاع التي نزل فيها قوله تعالى {وإذا كنت فيهم
فأقم لهم الصلاة} الآية كما تقدم، فلا ينافي ما تقدم من صلته في الرقاع
بناء على تقدمها على هذه الغزوة التي هي غزوة الخندق.

وحينئذٍ يندفع الاستدلال على أن ذات الرقاع متأخرة عن الخندق بقولهم ولم
تكن شرعت صلاة الخوف: أي صلاة ذات الرقاع، وإلا لصلاها في الخندق، ولم
يخرج الصلاة عن وقتها لما علمت أن المراد بصلاة الخوف التي لم تشرع زمن
الخندق صلاة شدته لا صلاة ذات الرقاع. وسقط القول بأن الآية التي نزلت في

صلاة ذات الرقاع منسوخة، فتركه تلك الصلاة في الخندق، لأن الخندق وإن لم يلتحم فيه القتال إلا أنهم لا يأمنون هجوم العدو عليهم، فلو صلوا لكانت تلك الصلاة صلاة شدة الخوف لا صلاة ذات الرقاع، لأن شرطها أمن هجوم العدو، وصلاة شدة الخوف إما أن يلتحم فيها القتال أو يخافوا هجوم العدو.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

وقول بعضهم أن ابن إسحاق وهو إمام أهل المغازي ذكر أنه صلى صلاة الخوف بعسفان، وذكر أنها قبل الخندق، فتكون صلاة عسفان منسوخة أيضاً فيه نظر ظاهر، لأن صلاة عسفان إنما كانت في الحديبية كما سيأتي. وعلى تسليم أن صلاة عسفان كانت قبل الخندق، فتلك يشترط فيها الأمن من هجوم العدو والله أعلم.

قال: ثم إن طائفة من الأنصار خرجوا ليدفنوا ميتاً منهم بالمدينة فصادفوا عشرين بغيراً لقريش محملة شعيراً وتمراً وتبناً، حملها ذلك حيي بن أخطب شداداً وتقوية لقريش فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوسع بها أهل الخندق.

ولما بلغ أبا سفيان ذلك قال: إن حياً لمشؤوم، قطع بنا ما نجد ما نحمل عليه إذا رجعنا.

ثم إن خالد بن الوليد كثر بطائفة من المشركين يطلب غزّة للمسلمين: أي غفلتهم، فصادف أسيد بن حضير على الخندق في مائتين من المسلمين فناوشوهم: أي تقاربوا منهم ساعة، وكان في أولئك المشركين وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، فزرق الطفيل بن النعمان فقتله، ثم بعد ذلك صاروا يرسلون الطلائع بالليل يطمعون في الغارة: أي الإغارة، فأقام المسلمون في شدة من الخوف.

أي وفي الصحيحين «ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأحزاب. فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب. اللهم اهزمهم، وانصرنا عليهم، وزلزلهم» أي وقام في الناس فقال «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية فإن لقيتم العدو فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» أي السبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيف في سبيل الله تعالى. ودعا بقوله «يا صريخ المكروبين، يا مجيب المضطربين، اكشف همي وغمي وكربي، فإنك ترى ما نزل بي وبأصحابي. وقال له المسلمون رضي الله عنهم: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وأمن روعاتنا، فأتاه جبريل عليه السلام فبشره أن الله يرسل عليهم ريحاً وجنوداً، وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بذلك وصار يرفع يديه قائلاً شكراً شكراً». وجاء أن دعاءه عليهم كان يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء واستجيب له ذلك اليوم الذي هو يوم الأربعاء بين الظهر والعصر، فعرف السرور في وجهه أي ومن ثم كان جابر رضي الله عنه يدعو في مهماته في ذلك اليوم في ذلك الوقت، ويتحرى ذلك.

والأحاديث والآثار التي جاءت بدم يوم الأربعاء محمولة على آخر أربعاء في الشهر، فإن في ذلك اليوم ولد فرعون وادعى الربوبية وأهلكه الله فيه، وهو

اليوم الذي أصيب فيه أيوب عليه الصلاة والسلام بالبلاء.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

قال: وكان يختلف إلى ثلثة في الخندق، والثلثة: الخلل في الحائط فعن عائشة رضي الله عنه قالت: وكان يذهب إلى تلك الثلثة، فإذا أخذه البرد جاء فأدفاته في حضني، فإذا دفيء خرج إلى تلك الثلثة ويقول: ما أخشى أن تؤتي المسلمون إلا منها، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضني صار يقول «ليت رجلاً صالحاً يحرس هذه الثلثة الليلة، فسمع صوت السلاح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من هذا؟ فقال سعد بن أبي وقاص: سعد، يا رسول الله أتيتك أحرسك، فقال عليك هذه الثلثة فاحرسها، ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غط، وقام في قبته يصلي لأنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة» ومن ثم لما نعي لابن عباس أخوه قثم وهو في سفر استرجع وتنحى عن الطريق وصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس وتلا {واستعينوا بالصبر والصلاة}.

ثم خرج من قبته، فقال: هذه خيل المشركين تطيف بالخندق، ثم نادى: يا عباد بن بشر، قال: لبيك؛ قال هل معك أحد، قال: نعم أنا في نفر حول قبتك يا رسول الله، وكان ألزم الناس لقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسها، فبعثه يطيف بالخندق، وأعلمه بأن خيل المشركين تطيف بهم. ثم قال: اللهم ادفع عنا شرهم، وانصرنا عليهم، واغلبهم لا يغلبهم غيرك. وإذا أبو سفيان في خيل يطوفون بمضيق من الخندق، فرماهم المسلمون حتى رجعوا.

ثم إن نعيم بن مسعود الأشجعي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ليلاً، فقال: يا رسول الله إنني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. قال وفي رواية أن نعيماً لما سارت الأحزاب سار مع قومه: أي عطفان وهو على دينهم، فغذف الله في قلبه الإسلام، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المغرب والعشاء فوجده يصلي، فلما رآه جلس. ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما جاء بك يا نعيم؟ قال: جئت أصدقك، وأشهد أن ما جئت به حق فأسلم انتهى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة بفتح الخاء وسكون الدال المهملة: أي ينقض أمرها بالمخادعة. فقال له نعيم: يا رسول الله إنني أقول: أي ما يقتضيه الحال وإن كان خلاف الواقع. قال: قل ما بدا لك فأنت في حل.

فخرج نعيم رضي الله عنه حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً. قال: فلما رأوني رحبوا بي وعرضوا علي الطعام والشراب. فقلت: إنني لم آت لشيء من هذا، إنما جئتمكم خوفاً عليكم لأشير عليكم برأي، يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم. فقال لهم: اكتبوا عني، قالوا: نفعل. قال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ولبني النصير من

إجلائهم وأخذ أموالهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم، وبها أموالكم ونساؤكم وأبنائكم، لا تقدرّون على أن ترحلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم: أي عاونتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهضة: أي فرصة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين بلدكم، والرجل يبلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم، أي سبعين رجلاً يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى ينجزوه: أي قاتلوه. قالوا له: لقد أشرت بالرأي والنصح، ودعوا له وشكروا، وقالوا: نحن فاعلون. قال: ولكن اکتّموا عني، قالوا: نفعل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

ثم خرج رضي الله عنه حتى أتى قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه من أشرف قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتّموا. قالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود: يعني بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد: أي من نقض عهده. وقد أرسلوا إليه، أي وأنا عندهم أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، قريش وغطفان رجلاً من أشرفهم، أي سبعين رجلاً فنعطيكهم فتضرب أعناقهم؟ أي وتردّ جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم: يعنون بني النضير، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم فأرسل إليهم نعم، فإن بعثت إليكم يهود يطلبون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، واحذروهم على أسراركم، ولكن اکتّموا عني ولا تذكروا من هذا حرفاً. قالوا: لا نذكر.

ثم خرج رضي الله عنه حتى أتى غطفان. فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليّ ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتّموا عليّ، قالوا نعم، فقال لهم، مثل ما قال لقريش وحذرهم. فلما كان ليلة السبت، أرسل أبو سفيان رؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز: أي نقاتل محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إن اليوم: أي الذي يلي هذه الليلة يوم السبت، وقد علمتم ما نال منا من تعدي في السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، أي سبعين رجلاً، فقالوا: صدق والله نعيم.

وفي رواية أن بني قريظة أرسلت لقريش قبل مجيء رسل قريش إليهم رسولا يقول لهم: ما هذا التواني، والرأي أن تتواعدوا عليّ يوم يكونون معكم فيه لكنهم لا يخرجون حتى ترسلوا إليهم رهناً سبعين رجلاً من أشرفكم، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون رجعتم وتركتموهم، فلم ترد لهم قريش جواباً. وجاءهم نعيم وقال لهم: كنت عند أبي سفيان، وقد جاءه رسولكم. فقال لو طلبوا مني عناقاً ما دفعتها لهم، فاختلفت كلمتهم، أي وجاء حيي بن

أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة له وقالوا: لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهناً عندنا، وبعث الله تعالى ريحاً عاصفاً، أي وهي ريح الصبا في ليال شديدة البرد، فنقلت بيوتهم، وقطعت أطناها، وكفأت قدورهم على أفواهاها، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

وفي رواية: دفنت الرجال وأطفأت نيرانهم. أي وأرسل الله إليهم الملائكة زلزلتهم. قال تعالى {فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها} ولم تقاتل الملائكة بل نفتت في روعهم الرعب. وقال «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» وفي لفظ «نصر الله المسلمين بالريح، وكانت ريحاً صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم».

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه اختلاف كلمتهم، وكانت تلك الليلة شديدة البرد والريح في أصوات ريحها أمثال الصواعق، وسيأتي أنها لم تجاوز عسكر المشركين، وشديدة الظلمة بحيث لا يرى الشخص أصبعه إذا مدها. فجعل المنافقون يستأذنون ويقولون إن بيوتنا عورة: أي من العدو، لأنها خارج المدينة، وحيطانها قصيرة يخشى عليها السرقة، فائذن لنا أن نرجع إلى نساءنا وأبنائنا وذرائنا فيأذن لهم.

قيل ولم يبق معه تلك الليلة إلا ثلاثمائة، وقال: من يأتينا بخبر القوم: فقال الزبير رضي الله عنه: أنا. قال ذلك ثلاثاً والزيبر يجيبه بما ذكر. فقال النبي «لكل نبي حوارٍ» أي ناصر «وإن حوارٍ الزبير» أي وهذا قاله له أيضاً عند إرساله لكشيف خبر بني قريظة، هل نقضوا العهد أولاً؟ كما تقدم. وسيأتي قول ذلك له أيضاً في خيبر. وفي الحديث «حواري الزبير من الرجال وحواري من النساء عائشة» وفي رواية «أنه قال إلا رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة» وفي لفظ «يكون معي يوم القيامة» وفي لفظ «يكون رفيق إبراهيم يوم القيامة» قال ذلك ثلاثاً فما قام أحد من شدة الخوف والجوع والبرد، فدعا حذيفة بن اليمان. قال: فلم أجد بداً من القيام حيث فؤه باسمي، فجنته فقال: تسمع كلامي منذ البيلة ولا تقوم؟ فقلت: لا، والذي بعثك بالحق إن قدرت. أي ما قدرت على ما بي من الجوع والبرد والخوف، فقال: اذهب حفظك الله من أمامك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك حتى ترجع إلينا. قال حذيفة: فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني. وقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم، فقامت مستبشراً بدعاء رسول الله، كاني احتملت احتمالاً، وذهب عني ما كنت أجد من الخوف والبرد، وعهد إليّ أن لا أحدث حدثاً. وفي رواية «أما سمعت صوتي؟ قلت نعم. قال: فما منعك أن تجيبي؟ قلت البرد. قال: لا برد عليك حتى ترجع» كما يدل على ذلك الرواية الآتية «فقال له: إن في القوم خبراً فائتني بخبر القوم» قال: وفي رواية «إنه لما كرر قوله: ألا رجل يأتيني بخبر القوم يكون معي يوم القيامة؟ ولم يجبه أحد. قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله حذيفة. قال حذيفة: فمر عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عليّ جنة من العدو والبرد إلا مرطاً لامراتي ما يجاوز ركبتي، وأنا جاث على ركبتي. فقال: من هذا؟ قلت: حذيفة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حذيفة، قال حذيفة رضي الله

عنه: فتقاصرت بالأرض. قلت: بلى يا رسول الله. قال: قم، فقمتم. فقال: إنه كائن في القوم خبر فائتني بخبر القوم. فقلت: والذي بعثك بالحق ما قمت إلا حياء منك من البرد. قال: لا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إليّ. فقلت: والله ما بي أن أقتل، ولكن أخشى أن أوسر. فقال: إنك لن تؤسر. اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته، فمضيت كأنني أمشي في حمام» مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار وهو عربي «قال حذيفة: فلما وليت دعاني، فقال لي: لا تحدثن شيئاً» وفي رواية، لا ترم بسهم ولا حجر، ولا تضربن بسيف حتى تأتيني. فجئت إليهم ودخلت في غمارهم، فسمعت أبا سفيان يقول: يا معشر قريش ليتعرف كل امرئ منكم جليسه، واحذروا الجواسيس والعيون، فأخذت بيد جليسي على يميني وقلت من أنت؟ فقال: معاوية بن أبي سفيان، وقبضت يد من على يساري. وقلت: من أنت، قال عمرو بن العاص، فعلت ذلك خشية أن يفطن بي. فقال أبو سفيان: يا معشر قريش، والله إنكم لستم بدار مقام. ولقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل ووثب على جملة فما حل عقال يده إلا وهو قائم، أي فإنه لما ركبته كان معقولا، فلما ضربه وثب على ثلاثة قوائم، ثم حل عقاله. فقال له عكرمة بن أبي جهل: إنك رأس القوم وقائدهم تذهب وتترك الناس، استحيى أبو سفيان وأناخ جملة وأخذ بزمامه وهو يقوده. وقال ارحلوا، فجعل الناس يرحلون وهو قائم. ثم قال لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله نقيم في جريدة من الخيل بإزاء محمد وأصحابه، فإننا لا نأمن أن نطلب، فقال عمرو: أنا أقيم، وقال لخالد بن الوليد: ما ترى أبا سليمان؟ فقال: أنا أيضاً أقيم، فأقام عمرو وخالد في مائتي فارس، وسار جميع العسكر. قال حذيفة رضي الله عنه: ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليّ حين بعثني إن لا أحدث شيئاً لقتلته؟ يعني أبا سفيان بسهم، وسمعت

غطفان بما فعلت قريش فاشتدوا راجعين إلى بلادهم».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

وفي رواية «فدخلت العسكر، فإذا الناس في عسكرهم يقولون الرحيل الرحيل لا مقام لكم والريح تقلبهم على بعض أمتعتهم، وتضربهم بالحجارة، والريح لا تجاوز عسكرهم، فلما انتصفت الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارساً معتمين، فخرج إليّ منهم فارسان وقالا: أخبر صاحبك أن الله كيفاه القوم. قال حذيفة: ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدته قائماً يصلي فخبرتة، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، أي وفي رواية «فأخبرته الخبر فضحك حتى بدت ثناياه في سواد الليل، وعاودني البرد، فجعلت أقرقف، فأومأ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فدنوت منه، فسدل عليّ من فضل شملته فنمت ولم أزل نائماً حتى الصباح» أي طلوع الفجر «فلما أن أصبحت» أي دخل وقت صلاة الصباح «وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا نومان: أي يا كثير النوم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما قال له: لا بأس عليك من برد حتى ترجع إليّ».

أي ومن هذا أي إرسال حذيفة رضي الله عنه وما تقدّم: أي من إرسال الزبير رضي الله عنه تعلم أن ذلك كان في الخندق، ولا مانع منه، لأنه يجوز أن يكون عدل عن إرسال الزبير، واختار حذيفة لأمر قام عنده، من جملة ذلك كون الزبير رضي الله عنه كان عنده حدة وشدة لا يملك نفسه أن يحدث بالقوم ما نهى عنه حذيفة رضي الله عنه، وحينئذٍ يرد قول بعضهم إن الزبير إنما أرسل لكشف أمر بني قريظة هل نقضوا العهد أم لا؟ لا لكشف أمر قريش، وحذيفة رضي الله عنه ذهب لكشف أمر قريش هل ارتحلوا أولاً، وقد اشتباه الأمر على بعض الناس فظنهما قضية واحدة فليتأمل ذلك.

وكان يقال لحذيفة رضي الله عنه صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا يعلمه غيره. فقد قال حذيفة رضي الله عنه «لقد حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان وما يكون حتى تقوم الساعة» أي وتقدم أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقال له أيضاً صاحب سر رسول الله . وقد ذكر ابن ظفر في (ينبوع الحياة) في تفسير قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً و جنوداً لم تروها} وهبت ريح الصبا ليلاً، فقلعت الأوتاد، وألقت عليهم الأبنية، وكفأت القدور، وسفت عليهم التراب، ورمتهم بالحصا، وسمعوا في أرجاء: أي نواحي معسكرهم التكبير وقعقة السلاح: أي من الملائكة، فصار سيد كل حي يقول لقومه: يا بني فلان هلموا إليّ، فإذا اجتمعوا قال: النجاء النجاء، فارتحلوا هرباً في ليلتهم، وتركوا ما استتقلوه من متاعهم. أي والصبا هي الريح الشرقية. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قالت الصبا للشمال: اذهبي بنا ننصر رسول الله فقالت: إن الحرائر لا تهب بالليل، فغضب الله عليها فجعلها عقيماً، ويقال لها الدبور. فكان نصره بالصبا. وكان إهلاك عاد بالدبور، وهي الريح الغربية. وحين انجلاء الأحزاب قال «الآن نغزوهم ولا يغزونا» والصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسبع ليال من ذي القعدة، أي بناء على أنها كانت في القعدة وهو قول ابن سعد. وقيل كانت في شوال وكان ذلك سنة خمس، أي كما قاله الجمهور. قال الذهبي: وهو المقطوع به، وقال ابن القيم: إنه الأصح. وقال الحافظ ابن حجر: هو المعتمد. وقيل سنة أربع، وصححه الإمام النووي في الروضة. قال بعضهم: وهو عجيب، فإنه صح أن غزوة بني قريظة كانت في الخامسة، ومعلوم أنها كانت عقب الخندق.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

أي وفيه أنه يجوز أن تكون بنو قريظة أوائل الخامسة، والخندق أواخر الرابعة، فتكون في ذي الحجة. واستدل من قال إن الخندق كانت سنة أربع بما صح عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، ثم عرض عليه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه، فيكون بينهما سنة واحدة، أي وكانت سنة ثلاث، فيكون الخندق سنة أربع.

قال الحافظ ابن حجر: ولا حجة فيه لاحتمال أن يكون ابن عمر رضي الله

عنهما في أحد كان أول ما طعن في الرابعة عشرة، وكان في الأحزاب قد استكمل الخمسة عشرة، وسبقه إلى ذلك البيهقي. وحينئذ يكون بين أحد والخنق سنتان كما هو الواقع لا سنة واحدة..

ومما وقع من الآيات في هذه الغزوة في مدة حفر الخندق غير ما تقدم: أن بنت بشير بن سعد جاءت لأبيها وخالتها: أي عبدالله بن رواحة بجفنة من التمر ليتغذيا بها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: هاتيه، فصبتته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ملأهما، ثم أمر بثوب فبسطت له، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه. وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب؛ أي فإن أهل الخندق أصابهم مجاعة. قال بعض الصحابة: «لثنا ثلاثة أيام لا ندوق زاداً، وربط الحجر على بطنه من الجوع».

أقول: أورد ابن حبان في صحيحه لما أورد الحديث الذي فيه نهيه عن الوصال، وقالوا له مالك تواصل يا رسول الله: قال «إني لست مثلكم، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني».

قال: يستدل بهذا الحديث على بطلان ما ورد أنه كان يضع الحجر على بطنه من الجوع، لأنه كان يطعم ويسقى من ربه إذا واصل، فكيف يترك جائعاً مع عدم الوصال حتى يحتاج إلى شد الحجر على بطنه. قال: وإنما لفظ الحديث الحجز بالزاي، وهو طرف الإزار فصحفوا وزادوا لفظ «من الجوع».

وأجيب بأنه لا منافاة، كان يطعم ويسقى إذا واصل في الصوم: أي يصير كالطاعم والساقى تكرمة له، ولا يحصل له ذلك دائماً، بل يحصل له الجوع في بعض الأحيان على وجه الابتلاء الذي يحصل للأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعظيماً لتوابعهم والله أعلم.

وإن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما لما علم ما به من شدة الجوع صنع شويهة وصاعاً من شعير. قال جابر: وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده. فلما قلت له أمر صارخاً، فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبدالله. قال جابر: فقلت {إنا لله وإنا إليه راجعون} فأقبل الناس معه: أي بعضهم، فجلس فأخرجناها إليه، فبرك ثم سمي الله تعالى، ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا، أي وذهبوا إلى الخندق وجاء آخرون، حتى صدر أهل الخندق عنها وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

قال: وفي رواية «أن جابراً رضي الله تعالى عنه لما رأى ما به من الجوع استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الانصراف إلى بيته، فأذن له. قال جابر: فجئت لامرأتي وقلت لها: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً أفعدك شيء؟ قالت: عندي صاع من شعير وعناق، فذبحت العناق، وطحنت الشعير وجعلت اللحم في برمة، فلما أمسينا، جئت

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فساررتة وقلت له: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، فشبك أصابعه في أصابعي، وقال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب، لا تنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء، وصاح رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع لكم سؤاراً» أي ضيافة «فحيها بكم: أي سيروا مسرعين، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس. قال جابر رضي الله عنه: فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، والله إنها لفضيحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادخلوا عشرة عشرة، أي بعد أن أخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا وبصق فيها وبارك» الحديث. أي ومجيء القوم كان على الوجه المتقدم «وإن أم عامر الأشهلية أرسلت بقصعة فيها حيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في القبة عنده أم سلمة رضي الله تعالى عنها، فأكلت أم سلمة حاجتها، ثم خرج بالقصعة، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: هلموا إلى عشائه، فأكل أهل الخندق حتى نهلوا منها وهي كما هي».

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله ونفعنا ببركاته أنه قدّم لأربعة عشر رجلاً من الفلاحين رغيماً واحداً، فأكلوا منه كلهم وشبعوا، قال: وقدّمت مرة الطاجن الذي عمله في الفرن إلى سبعة عشر نفساً فأكلوا منه وشبعوا. وذكر أنه شاهد شيخه الشيخ محمداً الشناوي رحمه الله ونفعنا ببركاته، وقد جاء من الريف ومعه نحو خمسين رجلاً ونزل بزاوية شيخه الشيخ محمد السروي، فتسامع مجاورو الجامع الأزهر بمجيئه، فاتوا لزيارته، فامتلت الزاوية، وفرشوا الحصر في الزقاق. ثم قال لنقيب شيخه: هل عندك طيبخ؟ قال نعم، الطيبخ الذي أفعله لي ولزوجتي، فقال له: لا تغرف شيئاً حتى أحضر، ثم غطى الشيخ الدست بردائه وأخذ المغرفة وصار يغرف إلى أن كفي من في الزاوية ومن في الزقاق، وهذا شيء رأيت به بعيني هذا كلامه. ولا بدع. فقد ذكر غير واحد من العلماء كالحافظ ابن كثير أن كرامات الأولياء معجزات للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأن الولي إنما نال ذلك ببركة متابعتة نبيه وثواب إيمانه به، وهذا كلامه.

قال: وأرسل أبو سفیان كتاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه: باسمك اللهم، فإني أحلف باللات والعزى أي وأساف ونائلة وهبل كما في لفظ: لقد سرت إليك في جمع وأنا أريد أن لا أعود إليك أبداً حتى أستأصلكم، فرأيتك قد كرهت لقاءنا واعتصمت بالخندق: أي وفي لفظ، قد اعتصمت بمكيدة ما كانت العرب تعرفها، وإنما تعرف ظل رماحها وشبا سيوفها، وما فعلت هذا إلا فراراً من سيوفنا ولقائنا، ولك مني يوم كيوم أحد، فأرسل له جوابه فيه: أما بعد، أي بعد بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى صخر بن حرب، كذا في كلام سبط بن الجوزي، فقد أتاني كتابك، وقديماً عرك بالله الغرور. أما ما ذكرت أنك سرت إلينا وأنت لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، فذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى

وأسافاً ونائلة وهبل، حتى أذكرك ذلك يا سفيه بني غالب انتهى.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 628

غزوة بني قريظة

وهم قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس، وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ رضي الله عنه كما تقدم.

لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق وكان وقت الظهيرة، أي وقد صلى الظهر، ودخل بيت عائشة رضي الله عنها، وقيل زينب بنت جحش رضي الله عنها ودعا بماء، فبينما هو يغتسل: أي غسل شق رأسه الشريف، وفي رواية بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغسل يرجل رأسه قد رجل أحد شقيه. أي وفي رواية: غسل رأسه واغتسل ودعا بالمجمرة ليتبخر أتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم معتجراً بعمامة: أي سوداء من استبرق، وهو نوع من الديباج، مرخياً منها بين كتفيه، وفي رواية عليه لأمته.

ولا معارضة، لأنه يجوز أن يكون الاعتجار بالعمامة على تلك الامة وهو على بغلة أي شهباء، عليها قطيفة: وهي كساء له وبر من ديباج أي أحمر.

وفي رواية: جاءه على فرس أبلق، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل عليه السلام: ما وضعت السلاح. وفي رواية: ما وضعت ملائكة الله السلاح بعد. قال: وفي رواية أنه قال: يا رسول الله ما أسرع ما حللتهم، عذيرك من محارب عفا الله عنك: أي من يعذرك. وفي لفظ: غفر الله لك، أو قد وضعت السلاح قبل أن تضعه الملائكة؟ فقال رسول الله: نعم، قال: فوالله ما وضعناه. وفي لفظ: ما وضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو؛ وما رجعنا الآن إلا من طلب القوم يعني الأحزاب حتى بلغنا الأسد انتهى: أي حمراء الأسد، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم، زاد في رواية: بمن معي من الملائكة، فمززل بهم الحصون، زاد في رواية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن في أصحابي جهداً فلو نظرتهم أياماً، فقال جبريل عليه السلام: إنهم عليهم، فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا، ولأدخلن فرسي هذا عليهم في حصونهم ثم لأضععنهم، فأدبر جبريل عليه السلام ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بني غنم، وهم طائفة من الأنصار.

وفي البخاري عن أنس، قال: كآني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل عليه السلام حين سار لبني قريظة، والموكب بكسر الكاف؛ اسم لنوع من السير.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق بينما هو عندي إذ دق الباب، أي وفي رواية: نادى مناد: أي في موضع الجنائز: عذيرك من محارب أي من يعذرك، فارتاع لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم أي فزع، ووثب وثبة منكراً، وخرج فخرجت في أثره، فإذا رجل على دابة والنبي صلى الله عليه وسلم متكياً على معرفة الدابة

يكلمه فرجعت، فلما دخل قلت: من ذلك الرجل الذي كنت تكلمه؟ قال: ورأيتك؟ قلت نعم، قال: بمن تشبهينه؟ قلت بدحية الكلبي، قال: ذاك بكسر الكاف جبريل عليه السلام، أمرني أن أمضي إلي بني قريظة، أي وهذا يؤيد أنه كان عند منصرفه من الخندق في بيت عائشة، وأبرز رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً: أي وهو بلال كما في سيرة الحافظ الدميطي، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر، أي وفي رواية: الظهر إلا بني قريظة. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

قال في النور: والجمع بينهما أن الأمر بعد دخول وقت الظهر بالمدينة وقد صلى بعضهم دون بعض، فليل للذين لم يصلوا الظهر لا تصلوا الظهر إلا في بني قريظة، وقيل للذين صلوا العصر إلا في بني قريظة. وفي رواية: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذٍ منادياً يا خيل الله؟ أي يا فرسان خيل الله اركبي. ثم سار إليهم قال، وقد لبس الدرع والمغفر والبيضة، وأخذ قنابة بيده الشريفة، وتقلد السيف، وركب فرسه اللجيف بالضم، وقيل ركب حماراً وهو اليعفور عرياناً، والناس حوله قد لبسوا السلاح وركبوا الخيل، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ستة وثلاثون فرساً، له منها ثلاثة. واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه. وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه برايته إلى بني قريظة.

أي وفي رواية دفع إليه لواءه، وكان اللواء على حاله لم يحل من مرجعه من الخندق، ومر بنفر من بني النجار قد لبسوا السلاح. فقال: هل مَرَّ بكم أحد قالوا: نعم، دحية الكلبي مَرَّ على بغلة بيضاء. أي وفي رواية: على فرس أبيض عليه اللامة، وأمرنا بحمل السلاح، وقال لنا: رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع عليكم الآن فلبسنا سلاحنا وصفقنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذاك جبريل عليه السلام، بعث إلى بني قريظة ليزلزل حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم. فلما دنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من الحصن، أي ومعه نفر من المهاجرين والأنصار، وغرز اللواء عند أصل الحصن، سمع من بني قريظة مقالة قبيحة في حقه أي وحق أزواجه، أي فسكت المسلمون وقالوا: السيف بيننا وبينكم، فلما رأى علي كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً أمر أبا قتادة الأنصاري رضي الله عنه أن يلزم اللواء، ورجع إليه، فقال يا رسول الله لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث. قال: لعلك سمعت منهم لي أذى، قال نعم يا رسول الله قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً. فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم: قال يا إخوان القردة هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نعمته؟ قال: وفي رواية نادى بأعلى صوته نفراً من أشرافهم حتى أسمعهم وقال: أجيئوا يا إخوة القردة والخنازير وعبد الطاغوت: أي وهو ما عبد من دون الله كما تقدم، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نعمته؟ أنشتموني، فجعلوا يحلفون ويقولون ما قلنا ويقولون: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً، أي وفي لفظ: ما كنت فاحشاً. وفي رواية: تقدمه إلى يهود أسيد بن حضير رضي الله عنه، فقال لهم: يا أعداء الله لا تبرحوا من حصنكم حتى تموتوا جوعاً، إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر، فقالوا: يا ابن الحضير نحن

مواليك وخاروا: أي خافوا، قال: لا عهد بيني وبينكم. وتقدم أسيد إلى بني قريظة يجوز أن يكون قبل مقدم عليّ لهم، ويجوز أن يكون بعده.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

وإنما قال لهم: يا إخوان القردة والخنزير، لأن اليهود مسح شبانهم قردة وشيوخهم خنازير عند اعتدائهم يوم السبت بصيد السمك، وقد حرم عليهم ذلك كسائر الأعمال. وقد أمرهم أن يتفرغوا لعبادة ربهم في ذلك اليوم، وكان ذلك في زمن داود عليه السلام فلما مسخوا خرجوا من تلك القرية هائمين على وجوههم متحيرين، فمشوا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون، ثم ماتوا، وهذا دليل لمن يقول إن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ولم يحصل منه توالد ولا تناسل.

وفي الكشف؛ قيل إن أهل أيلة: أي وهي قرية بين مصر ومدين لما اعتدوا في السبت قال داود عليه الصلاة والسلام: اللهم العنهم واجعلهم للناس آية، فمسخوا قردة.

ولما كفر أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام بعد المائدة، قال عيسى: اللهم عذب من كفر بعد ما أكل من المائدة عذاباً لم تعذبه أحداً من العالمين، والعنهم كما لعنت أصحاب السبت، فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي، هذا كلامه فليتأمل، فمكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون فماتوا.

ثم إن جماعة من الصحابة شغلهم ما لم يكن لهم منه بدّ عن المسير لبني قريظة ليصلوا بها العصر، فأخروا صلاة العصر إلى أن جاءوا بعد عشاء الآخرة، امثالاً لقوله «لا يصلين العصر إلا في بني قريظة» فصلوا العصر بها بعد عشاء الآخرة. أي وبعضهم قال: نصلي، ما يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم منا أن ندع الصلاة ونخرجها عن وقتها، وإنما أراد الحث على الإسراع فصلوها في أماكنهم، ثم ساروا فما عابهم الله في كتابه ولا عنفهم رسول الله، أي لأن كلاً من الفريقين تأول.

قال في الهدى: كل من الفريقين ماجور بقصده، إلا أن من صلى حاز الفضيلتين ولم يعنف الذين أخروها لقيام عذرهم في التمسك بظاهر الأمر، وهو دليل على أن كل مختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب.

وادعى ابن التين رحمه الله أن الذين صلوا العصر صلوا على ظهور دوابهم. قال لأنهم لو صلوا نزولاً لكان مضادة لما أمروا به من الإسراع، ولا يظن ذلك مع تقرب أفهامهم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفيه نظر، لأنه لم يأمرهم بترك النزول، ولم أر أنهم صلوا ركباناً في شيء من طرق القصة. والتعليل بالإسراع يقتضي أنهم صلوا على ظهور دوابهم سائرة لا واقفة.

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة خمساً وعشرين ليلة. وقيل خمسة عشر يوماً، أي وقيل شهراً، وكان طعام الصحابة التمر يرسل به إليهم سعد بن عباد رضي الله عنه: أي يجاء به من عنده. وقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم يومئذ «نعم الطعام التمر» حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وكان حبي بن أخطب دخل مع بني قريظة حصنهم حين رجعت الأحزاب وفاء لكعب بما كان عاهده عليه، أي كما تقدم، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم أي يقاتلهم. قال كبيرهم كعب بن أسيد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً أيها شئتم، قالوا وما هي؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدق فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دماءكم وأموالكم ونسائكم وأبنائكم. قال: وزاد في لفظ آخر: وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد للعرب حيث لم يكن من بني إسرائيل، ولقد كنت كارهاً لنقض العهد، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس، يعني حبي بن أخطب، أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم؟ إنه يخرج بهذه القرية نبي فاتبعوه وكونوا له أنصاراً، وتكونوا أمتهم بالكتابين الأول والآخر أه أي التوراة والقران.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

أي وكانت يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم ويعلمون الولدان صفته، وأن مهاجرة المدينة.

وفيه عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال: كانت يهود بني قريظة وبني النضير وفدك وخيبر يجدون صفة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث، وأن دار هجرته المدينة، ولما قال لهم كعب ذلك، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره. قال كعب: فإذا أبيت على هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، ولم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً، أي ولداً يخشى عليه، وإن نظفر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟ قال فإن أبيت على هذه، فإن الليلة ليلة السبت وأن عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة: أي غفلة، فقالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت وأصابه ما لم يخف عليك من المسخ. قال: وقال لهم عمرو بن سعدى: قد خالفتم محمداً فيما حالتموه: أي عاهدتموه عليه. ولم أشرككم في غدركم، فإن أبيت أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية، وأعطوا الجزية، فوالله ما أدري يقبلها أم لا؟ قالوا: نحن لا نقر للعرب بخراج في رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك. قال فإني بريء منكم، وخرج في تلك الليلة، فمر بحرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه محمد بن مسلمة، فقال محمد بن مسلمة: من هذا؟ قال عمرو بن سعدى، قال مراً، اللهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام وخلي سبيله، وبعد ذلك لم يدر ابن هو؟ وقيل وجدت رمتة؟ وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره، فقال: ذلك رجل نجاه الله بوفاته.

وفي لفظ أنه قال لهم قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم لحصارهم: يا بني قريظة لقد رأيت عبراً، رأيت دار إخواننا يعني بني النضير خالية بعد ذلك العز والخلد والشرف والرأي الفاضل والعقل، تركوا أموالهم قد تملكها غيرهم، وخرجوا خروج ذل، لا والتوراة ما سلط هذا على قوم قط ولله بهم حاجة. وقد أوقع بني قيقناع، وكانوا أهل عدّة وسلاح ونخوة، فلم يخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم، فكلم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب، يا قوم قد رأيتم ما رأيتم فأطيعوني وتعالوا نتبع محمداً فوالله إنكم لتعلمون أنه نبي، وقد بشرنا به علماؤنا. ثم لا زال يخوفهم بالحرب والسبي والجلاء، ثم أقبل على كعب بن أسيد، وقال: والتوراة التي أنزلت على موسى يوم طور سيناء إنه للعز والشرف في الدنيا.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

فبينما هم على ذلك لم يرعهم إلا مقدمة النبي صلى الله عليه وسلم قد حلت بساحتهم، فقال: هذا الذي قلت لكم، أي وبعد الحصار قيل أرسلوا بنباش بن قيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير من أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ويسلم لهم نساءهم والذرية. فأرسلوه ثانياً بأنه لا حاجة لهم بشيء من الأموال لا من الحلقة ولا من غيرها، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله، فعاد نباش إليهم بذلك أه. ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبعث إلينا أبا لبابة أي وهو رفاعة بن المنذر لنستشيره في أمرنا، أي لأنه كان من حلفاء الأوس وبنو قريظة منهم.

وفي لفظ: وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لأن ماله وولده وعياله كانت في بني قريظة فأرسله إليهم، فلما رآوه قام إليه الرجال، وجهش: أي أسرع إليه النساء والصبيان يكون في وجهه من شدة المحاصرة وتشتيت ما لهم، فرّق لهم وقال: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم، وأشار بيده إلى حلقة: أي إنه الذبح.

أي وفي لفظ: ما ترى، إن محمداً قد أبى أن لا ننزل إلا على حكمه، قال. فانزلوا وأوماً إلى حلقة.

ويروى أنهم قالوا له: ما ترى أن ننزل على حكم سعد بن معاذ، فأوماً أبو لبابة بيده إلى حلقة أنه الذبح فلا تفعلوا. قالوا أبو لبابة رضي الله عنه فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنني خنت الله ورسوله، أي لأن في ذلك تنفيراً لهم عن الانقياد له، ومن ثم أنزل الله فيه {يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول} الآية: أي وقيل نزل {وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم} الآية، وهذا أثبت من الأول، وقد يقال: كلاهما نزل فيه تلك الآية في توجه اللوم عليه، وهذه في توبته. لا يقال: هي ليست نصاً في توبة الله عليه. لانا نقول: الترجي في حقه تعالى أمر محقق.

وعن أبي لبابة رضي الله عنه: لما أرسلت بنو قريظة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يرسلني إليهم، دعاني قال: اذهب إلى حلفائك، فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس، فذهبت إليهم، فقام كعب بن أسيد فقال: يا أبا بشير قد عرفت ما بيننا. وقد اشتد علينا الحصار وهلكنا، ومحمد لا يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنه لحقنا بأرض الشام أو خيبر، ولم نطأ له أرضاً، ولم نكثر عليه جمعاً أبداً، أما ترى قد اخترناك على غيرك، أنزل على حكم محمد؟ قال أبو لبابة نعم فانزلوا، وأوماً إلى حلقه بالذبح. قال: فندمت واسترجعت، فقال لي كعب: مالك يا أبا لبابة؟ فقلت: خنت الله ورسوله، فنزلت وإن عيني لتسيل من الدموع. ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، فلم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتبط بالمسجد إلى عمود من عمدته: أي وهي السارية، ويقال لها الأسطوانة: وهي التي كانت عند باب أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم في حر شديد، وقيل الأسطوانة المخلقة التي يقال لها أسطوانة التوبة، والأول أثبت، وكانت تلك الأسطوانة أكثر تنقله عندها، وكان ينصرف إليها من صلاة الصبح، فكان يستبق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد، فيجيء إليهم ويتلو عليهم ما أنزل من ليلته ويحدثهم ويحدثونه، وكان ارتباطه بسلسلة ريوس أي ثقيلة. وقال: والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله علي مما صنعت، وعاهد الله أن لا يطاق بني قريظة أبداً، ولا يرى في بلد خان الله ورسوله فيه أبداً، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره وكان استبطأه. قال: أما لو جاءني لاستغفرت له، وأما إذ فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب الله عليه. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

هذا، وفي كلام البيهقي وأورده في الدر أن ارتباطه إنما كان لتخلفه عن تبوك. فقد ذكر أنه لما أشار بيده إلى حلقه وأخبر عنه بذلك، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحسبت أن الله غفل عن يدك حيث تشير إليهم بها إلى حلقك، فلبث حيناً ورسول الله صلى الله عليه وسلم عاتب عليه. ثم لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك كان أبو لبابة فيمن تخلف، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي رجع جاءه أبو لبابة يسلم عليه، فأعرض عنه رسول الله ، ففزع أبو لبابة وارتبط بالسارية. واستغرب ذلك بعضهم، فقال: وأغرب من ادعى أن أبا لبابة إنما فعل ذلك لتخلفه عن غزوة تبوك. ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم رسول الله ، فأمر بهم فكتفوا وجعلوا ناحية، وكانوا ستمائة، وقيل سبعمائة وخمسين مقاتلاً، وهو الذي تقدم عن حيي بن أخطب. ولا يخالف هذا ما قيل إنهم كانوا بين الثمانمائة والسبعمائة. وقيل كانوا أربعمائة مقاتل.

ولا يخالف ما قبله، لأنه يجوز أن يكون ما زاد على ذلك كانوا أتباعاً لا يعدون، وأخرج النساء والذراري من الحصون وجعلوا ناحية: أي وكانوا ألقاً. واستعمل

عليهم عبدالله بن سلام فتوائب الأوس. وقالوا: يا رسول الله موالينا وحلفاؤنا، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد فعلت، يعنون بني قينقاع، لأنهم كانوا حلفاء الخزرج، ومن الخزرج عبدالله بن أبي ابن سلول. وقد نزلوا على حكم رسول الله، وقد كلمه فيهم عبدالله بن أبي ابن سلول، فوهبهم له على أن يجلوا كما تقدم، أي فظنت الأوس من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهب لهم بني قريظة كما وهب بني قينقاع للخزرج، فلما كلمته الأوس أبى أن يفعل ببني قريظة ما فعل ببني قينقاع. ثم قال لهم: أما ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؛ قالوا بلى، فقال: فذلك إلى سعد بن معاذ، أي وقيل إنه قال لهم: اختاروا من شئتم من أصحابي، فاختاروا سعد بن معاذ، أي وهو رضي الله عنه سيد الأوس حينئذ كما تقدم. وقيل إنهم قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه فرضي بذلك رسول الله، أي وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه يومئذ في المسجد في خيمة رفيدة رضي الله عنها، وقد كان قال لقوم سعد بن معاذ حين أصابه السهم بالخندق، اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قرب، أي لأن رفيدة رضي الله عنها كان لها خيمة في المسجد تدأوي فيها الجرحى من الصحابة ممن لم يكن له من يقوم عليه، فاتاه قومه فحملوه على حمار؛ ثم أقبلوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم فأحسن فيهم، فقد رأيت ابن أبي وما صنع في حلفائه، وهو ساكت، فلما أكثروا عليه، قال رضي الله عنه لقد أن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فقال بعضهم واقوماه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

فلما انتهى سعد رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين وهم حوله جلوس قال رسول الله «قوموا إلى سيدكم» أي زاد في رواية «فانزلوه» فقال عمر رضي الله عنه: السيد هو الله. وفي رواية «إلى خيركم» أي معاشر المسلمين من المهاجرين والأنصار، أو معاشر الأنصار، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم. وفي رواية: فقمنا صفين يحييه كل رجل منا حتى انتهى إلى رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحكم فيهم يا سعد، فقال: الله ورسوله أحق بالحكم. قال قد أمرك الله أن تحكم فيهم، فقال سعد: أي لمن في الناحية التي ليس فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم كما حكمت. قالوا نعم، قال: وعلى من هاهنا مثل ذلك، وأشار إلى الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إجلالاً له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، أي وفي لفظ: فقال سعد لبني قريظة: أترضون بحكمي، قالوا نعم. فأخذ عليهم عهد الله وميثاقه أن الحكم ما حكم به. قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وفي لفظ: أن يقتل كل من جرت عليه الموسيقى، وتغنم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، زاد بعضهم: وتكون الديار للمهاجرين دون الأنصار، فقالت الأنصار، إخواننا يعنون المهاجرين لنا معهم، فقال: إني أحببت أن يستغنوا عنكم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة» أي

السموات السبع، قيل سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم. وجاء في الصحيح «من فوق سبع سموات» والمراد أن شأن هذا الحكم العلوّ والرفعة «قد طرفني بذلك الملك سحراً».

ثم أمر أن يجمع ما وجد في حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فجمع، فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف، وثلاثمائة درع، وألفي رمح، وخمسمائة ترس وحجفة ووجد أثاثاً كثيراً، وآنية كثيرة، وأجمالاً نواضح: أي يسقى عليها الماء، وماشية وشياهاً كثيرة، وخمس ذلك: أي مع النخل والسبي حتى الرثة: وهو السقط من أمتعة البيت خمسة أجزاء، ففصّ أربعة أسهم على الناس. فجعل للفارس ثلاثة أسهم، أي سهم له وسهمان لفرسه، والراجل سهماً. قال بعضهم: وهو أول فيء وقعت فيه السهام. ورضخ للنساء اللاتي حضرن القتال، وهنّ صفية عمته، وأم عمارة، وأم سليط، وأم العلاء، والسميراء بنت قيس، وأم سعد بن معاذ، وكبشة بنت رافع ولم يسهم لهن، وأخذ هو جزاء وهو الخمس. وعبارة بعضهم: وهو أول فيء وقعت فيه السهمان، وخمس: أي جزىء خمسة أجزاء، وكتب في سهم لله، ثم أخذ ذلك السهم الذي خرج عليه وعلى سنته مضت قسمة الغنائم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

وفي كون هذا أول فيء جرت فيه السهمان نظر، إنما كان ذلك في بني قينقاع، فإن الفيء الحاصل منهم خمس خمسة أخماس، أخذ واحداً، والأربعة لأصحابه: أي ووجد جرار خمر فأهريق ولم يخمس، وهذا يدل على أن الخمر كانت محرمة قبل ذلك.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد رضي الله عنهما، والنساء والذرية في دار ابنة الحرث التجارية، أي لأن تلك الدار كانت معدودة لنزول الوفود من العرب. وقيل في دار كبشة بنت الحرث بن كريب، كانت تحت مسيلمة الكذاب ثم خلف عليها عبدالله بن عامر بن كريب، وهذه إنما نزل في دارها وفد بني حنيفة كما سيأتي وبالمتاع أن يحمل، وترك المواشي هناك ترعى الشجر.

ثم غدا إلى المدينة، ثم خرج إلى سوق المدينة فخندق فيها خنادق: أي حفر فيها حفائر. ثم أمر بقتل كل من أنبت، فبعث إليهم فجاؤوا إليه أرسالاً، تضرب أعناقهم ويلقون في تلك الخنادق. وقد قال بعضهم لسيدهم كعب بن أسيد: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: في كل موطن لا تعقلون، أما ترون أن من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل، قد دعوتكم إلى غير هذا فأبيتُم عليّ قالوا ليس حين عتاب، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله . أي وذلك ليلاً على مشعل السعف.

ثم ردّ عليهم التراب في تلك الخنادق، وعند قتلهم صاحت نساؤهم، وشقت جيوبها، ونشرت شعورها، وضربت خدودها، وملأت المدينة نواحاً. وكان من جملة من أتى معهم عدوّ الله جبي بن أخطب مجموعة يداه إلى عنقه بحبل. فلما نظر إليه رسول الله ، قال: ألم يمكن الله منك يا عدوّ الله؟ قال

بل، أبى الله إلا تمكينك مني، أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ولكنه من يخذل الله يخذل.
وفي كلام السهيلي رحمه الله أنه لما قال له: ألم يمكن الله منك فقال بلى، ولقد قلنا كل مقلقل، ولكنه من يخذلك يخذل. فقوله يخذلك كقول الآخر في البيت: * ولكنه من يخذل الله يخذل * لأنه إنما نظم في البيت كلام حيي. ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة. أي قتال كتب الله على بني إسرائيل، ثم جلس فضربت عنقه. قال: ولما أتى بكعب بن أسد سيد بني قريظة، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا كعب، قال نعم يا أبا القاسم، قال: ما انتفعتم بنصح ابن خراش لكم، وكان مصدقاً بي، أما أمركم باتباعي وإن رأيتموني تقرؤونني منه السلام. قال: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعبرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكنه على دين يهود. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقدم فيضرب عنقه ففعل به ذلك. أي وكان المتولي لقتلهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، والزيبر بن العوام رضي الله عنه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657
أقول: في الإمتاع: وجاء سعد بن عباد، والحباب بن المنذر. فقالا: يا رسول الله إن الأوس قد كرهت قتل بني قريظة لمكان حلفهم، فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: ما كرهه أحد من الأوس فيه خير، فمن كرهه فلا أرضاه الله، فقام أسيد بن حضير، فقال: يا رسول الله لا تبق داراً من دور الأوس إلا فرقتهم فيها، وفرقتهم في دور الأنصار فقتلوهم هذا كلامه. والضمير في قتلهم ظاهر في رجوعه للأوس، وأنهم المراد بالأنصار.
وقد يقال لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون المراد بالأوس الذين كرهوا ذلك طائفة منهم، وأن تلك الطائفة قتلوا من بعث به إلى دورهم، وما عدا ذلك تعاطى قتله علي والزيبر والله أعلم.
ولم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة أخرجت من بين النساء يقال لها نباتة، وقيل مزنة، كانت طرحت رحي على خلاد بن سويد رضي الله عنه فقتلته بإرشاد زوجها، لأنه أحب أن لا تبقى بعده فيتزوجها غيره.
وقد أسهم لخلاد بن سويد هذا، وقال: إن له أجر شهيدين، وأسهم لسان بن محصن، وقد مات في زمن الحصار.
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يقتل من نسائهم يعني بني قريظة إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تتحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً، أي وكانت جارية حلوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجلها في السوق، أي لأنها دخلت على عائشة، وبنو قريظة يقتلون. إذ هتف هاتف باسمها أين نباتة، قالت: أنا والله! قالت عائشة: فقلت لها، ويلك مالك؟ قالت: أقتل قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، أي وفي لفظ قتلني زوجي. فقالت لها عائشة: كيف قتلك زوجك، قالت: أمرني أن ألقى رحي على أصحاب محمد كانوا تحت الحصن مستظلين في فيئة، فأدركت خلاد بن سويد فشدخت رأسه فمات وأنا أقتل به.

وفي لفظ آخر: إني كنت زوجة رجل من بني قريظة، وكان بيني وبينه كأشد ما يتحاب الزوجان، فلما اشتد أمر المحاصرة، قلت لزوجي: يا حسرتي على أيام الوصال، كادت أن تنقضي وتتبدل بليالي الفراق وما أصنع بالحياة بعدك؟ فقال زوجي: إنك صادقة في دعوى المحبة، تعالي فإن جماعة من المسلمين جالسون في ظل حصن. قال الزبير بن بطا وهو بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة فألقي عليهم حجر الرحا لعله يصيب واحداً منهم فيقتله، فإن ظفروا بنا فإنهم يقتلونك بذلك ففعلت، قالت: فانطلق بها فضرب عنقها فكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله ما ألقى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل.

وكان في بني قريظة الزبير بن بطا، وهو جد الزبير بن ابنه عبد الرحمن وهو بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة كإسم جده. وقيل بضم الزاي وفتح المثناة، وهو قول البخاري في التاريخ، وكان شيخاً كبيراً، وكان قد من على ثابت بن قيس في الجاهلية يوم بغاث، وهي الحرب التي كانت بين الأوس والخزرج قبل قدومه المدينة، وكان الظفر فيها للأوس على الخزرج آخرًا كما تقدم أخذه فجر ناصيته، ثم خلى سبيله، فجاء ثابت رضي الله عنه للزبير، فقال له: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال: فهل يجهل مثلي مثلك، قال: إني أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم، وأحوج ما كنت إليك اليوم. وعبد الرحمن هذا هو الذي تزوج امرأة رفاعه وشكته للنبي بأن الذي معه كهديبة الثوب وأحبت طلاقه لها.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

ثم أتى ثابت رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنه كان للزبير عليّ منة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو لك فأناه، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب لي دمك فهو لك فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة؟ قال ثابت: فأتيت رسول الله، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي امرأته وولده، فقال: هم لك، قال: فأتيته، فقلت: قد وهب لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلك وولدك فهم لك، فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ قال: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ماله، قال: هو لك، فأتيته فقلت له: قد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك فهو لك، فقال: أي ثابت، أما أنت فقد كافأني، وقد قضيت الذي عليك، ما فعل بالذي كان وجهه مرأة مضيئة تتراءى منها عذارى الحي كعب بن أسد؟ أي سيد بني قريظة، قلت قتل، قال: فما فعل بسيد الحاضر والبادي: أي من يحملهم في الجذب، ويطعمهم في المحل حيي بن أخطب؟ قلت قتل. قال: فما فعل بمقدمتنا، بكسر الدال مشددة، إذا شددنا، وحامينا إذا فررنا عزال بالعين المهملة وتشديد الزاي ابن سموال بالسین المهملة مفتوحة ومكسورة؟ قلت قتل، قال: فما فعل المجلسان بكسر اللام: محل الجلوس ويفتحها المصدر، يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة، قلت قتلا، وفي لفظ قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت بيدك عندي إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما بالعيش بعد هؤلاء من خير، أرجع إلى دار قد كانوا حلولا فيها فأخلد فيها بعدهم، لا حاجة لي، فما أنا بصابر،

لله إفراغة دلو ناضح: أي مقدار الزمن الذي يفرغ فيه ماء الدلو. وفي رواية: فتلة دلو ناضح بالفاء والتاء المثناة فوق، وقيل بالقاف والباء الموحدة: أي مقدار ما يتناول المستسقي للدلو حتى ألقى الأحبة. قال ثابت: فقدتمه فضربت عنقه.

أي وقيل إن ثابتاً رضي الله عنه قال له ما كنت لأقتلك، فقال: لا أبالي من قتلتني، فقتله الزبير بن العوام رضي الله عنه.
ولما بلغ أبا بكر رضي الله عنه مقالته: ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالداً فيها مخلداً.
قال في الأصل: وذكر أبو عبيدة هذا الخبر، وفيه «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لك أهله وماله إن أسلم» أي ولم يسلم، فكان أهله وماله من جملة الفيء، وكان القتل لكل من أنبت ومن لم ينبت يكون في السبي.
قال عطية القرظي رضي الله عنه كنت غلاماً فوجدني لم أنبت فخلوا سبيلي، أي عن القتل، وكان رفاعه قد أنبت فأرادوا قتله، فلاد بسلمي بنت قيس أم المنذر، وكانت إحدى خالاته: أي خالات جده عبد المطلب، لأنها من بني النجار، فقالت بأبي وأمي يا رسول الله هب لي رفاعه، فوهبه لها، أي فأسلم.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657
وقرت عين سعد بن معاذ رضي الله عنه بقتل بني قريظة حيث استجاب الله دعوته، فإنه سأل الله تعالى لما أصيب بالسهم في الخندق، وقال: لا تمتني حتى تفر عيني من بني قريظة كما تقدم.
أي وفي بعض الروايات أن دعاءه رضي الله عنه بذلك، كان في الليلة التي في صبيحتها نزلت بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما تقدم عن بعض الروايات.
أي ويجوز أن يكون رضي الله عنه دعا بذلك مرتين، وفي لفظ فدعا الله أن لا يميته حتى يشفي صدره من بني قريظة.
ويمكن أن يكون صاحب الهمزية رحمه الله أشار إلى سب بني قريظة له، ونهى بعض أشرافهم لهم عن نقضهم العهد الذي كان بينهم وبينه، الذي سببه حيي بن خطب لعنه الله، واعتراهم بالأحزاب بقوله:

وتعدوا إلى النبي حدودا
كان فيها عليهم العدواء
واطمأنوا بقول الأحزاب إخوا
نهم إننا لكم أولياء
وبيوم الأحزاب إذا زاغت الأ
بصار فيه وضلت الآراء
وتعاطوا في أحمد منكر القو
ل ونطق الأراذل العوراء
كل رجس يزيد الخلق السو
ء سفاها والملة العوجاء

فانظروا كيف كان عاقبة القو
م وما ساق للبذيّ البذاء
وجد السب فيه سما ولم يد
ر إذ الميم في مواضع باء
كان من فيه قتله بيديه
فهو من سوء فعله الزبأ
أو هو النحل قرصها يجلب
الحتف إليها وماله إنكأ

أي ولما انقضى شأن بني قريظة، قال رسول الله «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم» فكان كذلك وتقدم أنه قال ذلك بعد انقضاء الأحزاب. وانفجر جرح سعد بن معاذ، أي الذي في يده وسال الدم واحتضنه فجعلت الدماء تسيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات منه وحمل إلى منزله ولم يعلم بموته، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم من الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد من هذا العبد الصالح، وفي لفظ: من هذا الميت التي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش؟ وفي رواية عرش الرحمن: أي فتحت أبواب السماء لصعود روحه، واهتز العرش: أي تحرك فرحاً بذلك. وقال النووي: اهتزاز العرش هو فرح الملائكة بقدوم روحه. وفيه أن هذا لا يحتاج إليه إلا لو كان تحرك العرش مستحيلاً، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً يجر ثوبه إلى سعد بن معاذ فوجده قد مات.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

وعن سلمة بن أسلم بن حريش رضي الله عنه. قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في البيت أحد إلا سعداً مسجى، فرأيته يتخطى وأوماً إليّ قف، فوقفت ورددت من ورائي وجلس ساعة، ثم خرج فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيت أحداً ورائتك تتخطى، فقال: ما قدرت على مجلس حتى قبض لي ملك من الملائكة أحد جناحيه». أقول: قد وقع له نظير ذلك عند تشييعه لجنائز ثعلبة بن عبد الرحمن الأنصاري رضي الله عنه، فإنه صار يمشي على أطراف أنامله، فلما دفن قيل: يا رسول الله رأيناك تمشي على أطراف أناملك، قال: والذي بعثني بالحق ما قدرت أن أضع قدمي من كثرة ما نزل من الملائكة لتشييعه، وقصته مذكورة في السيرة الشامية.

ولما حملوا نعش سعد رضي الله عنه، وكان جسيماً وجدوا له خفة؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن له حملة غيركم؛ أي من الملائكة؛ لقد نزل سبعون ألف ملك شهدوا سعداً؛ أي جنازته؛ ومنهم جملة ما وطئوا الأرض إلا يومهم هذا.
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال: كنت ممن حفر لسعد رضي الله عنه قبره؛ فكان يفوح علينا المسك؛ كلما حفرنا قبره من تراب.
وجاء «لو كان أحد ناجياً من ضمة القبر لنجا منها سعد ضم ضمة؛ ثم فرج الله عنه» وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال «لما دفن سعد رضي الله عنه ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبح الناس معه؛ ثم كبر فكبر الناس معه؛ فقالوا: يا رسول الله

لم سبحت؛ أي وكبرت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه». وجاء «إن بعض أهل سعد رضي الله عنه سئل: ما بلغكم من قول رسول الله «أي في سبب تضايق القبر على سعد كما يرشد إليه جوابهم بقولهم، فقالوا: ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك، فقال: كان يقصر في بعض الطهور من البول بعض التقصير» وهذا قد يخالف ما في الخصائص الصغرى: وخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا يضغط في قبره وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يسلم من الضغطة صالح ولا غيره سواهم، وكذا ما في التذكرة للقرطبي إلا فاطمة بنت أسد ببركته، أي حيث اضطلع في قبرها. ويحتاج للجمع بينه وبين ما في الخصائص.

وجاء عن عائشة رضي الله عنها «أنها قالت: يا رسول الله ما انتفعت بشيء منذ سمعتك تذكر ضغطة القبر وضمته، فقال: يا عائشة إن ضغطة القبر على المؤمن كضمة الأم الشفيقة يديها على رأس ابنها يشكو إليها الصداق، وضرب منكر ونكير عليه كالكحل في العين، ولكن يا عائشة ويل للشاكين الكفارين، أولئك الذين يضغطون في قبورهم ضغطاً يقبض على الصخر» أي وحينئذ يكون المراد بالمؤمن الذي هذا شأنه الذي لم يحصل منه تقصير، فلا ينافي ما تقدم عن سعد فليتأمل. وقد روى البيهقي رحمه الله «أنه حمل جنازة سعد بن معاذ رضي الله عنه بين العمودين» وبه استدل أئمتنا على أن ذلك أفضل من حمل الجنازة بالتربيع الذي اعتاده الناس الآن «ومشى أمام جنازته، ثم صلى عليه. وجاءت أمه رضي الله عنها ونظرت إليه في اللحد، وقالت: احتسبك عند الله؛ وعزاها رسول الله وهو واقف على قدميه على القبر، فلما سوى التراب على قبره رش عليه الماء، ثم وقف ودعا ثم انصرف وناحت عليه أمه، فقال: كل نائحة تكذب إلا نائمة سعد بن معاذ رضي الله عنه». أي فإنه رضي الله عنه موصوف بكل ما يقال فيه من الأوصاف الحسنة، بخلاف غيره. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

وبعث صاحب دومة الجندل إلى رسول الله بجة من سندس كما سيأتي، فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم يعجبون من تلك الجبة. فقال رسول الله «لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن» يعني من هذا، ومن المعلوم أن المنديل أدنى الثياب، لأنه معد للامتهان، فثيابه رضي الله عنه في الجنة أعلى وأغلى. وقد وهب تلك الجبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونزلت توبة أبي لبابة رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيت أم سلمة رضي الله عنها. قالت أم سلمة: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من السحر يضحك. قالت: فقلت ممّ تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟ قال: تيب على أبي لبابة. قالت: قلت أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال بلى إن شئت، فقامت على باب حجرتها. قيل وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب وهو لا يناسب ما تقدم في قصة الإفك، فقالت: يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك، قال: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله

حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقني بيده الشريفة. وقيل المبشر له عائشة رضي الله تعالى عنها، فلما مر على أبي لبابة خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه. وجاء أن فاطمة رضي الله عنها أرادت إطلاقه فأبى، فقال رسول الله «فاطمة بضعة مني» أي وظاهر هذا أنه رضي الله عنه كان يبز بإطلاق سيدتنا فاطمة رضي الله عنها له فليتأمل. وقد أقام مربوطاً ست ليالي أي أو سبع ليال. وقيل سبع عشرة ليلة. وقيل خمس عشرة ليلة، وعليه اقتصر في الإمتاع، وكانت تأتيه امرأته أو بنته في وقت كل صلاة فتحله للصلاة وكذا إذا أراد حاجة الإنسان، ثم يعود فيربط بالعمود حتى كاد يذهب سمعه وبصره، ولا مانع أن امرأته وبنته كانتا تتناوبان في ذلك.

أي وجاء أنه رضي الله عنه قال للنبي «من تمام تويتي أن أهجّر دار قوم أصبت فيها الذنب» وفيه أنه تقدم أنه عاهد الله على ذلك «قال: وأن انخلع من مالي، فقال له عليه الصلاة والسلام: يجزيك الثلث أن تتصدق به» أي ولم يأمره أن يهجّر تلك الدار. والجمع بينه وبين ما تقدم من أنه عاهد الله أن لا يبطأ تلك الدار ممكن.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأنصاري بسبايا بني قريظة إلى نجد فابتاع لهم بهم خيلاً وسلاحاً. قال: وفي لفظ بعث سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا يبيعهم ويشترى بهم سلاحاً وخيلاً. أي فاشترى بذلك خيلاً كثيراً قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين، واشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما جملة من السبايا، فجعلت تلك الجملة من السبايا قسمين، جعلت الشواب على حدة، وجعلت العجائز على حدة ثم خير عبد الرحمن بن عوف عثمان بن عفان، فأخذ العجائز، وأخذ عبد الرحمن الشواب، وجعل عثمان رضي الله عنه على كل واحدة منهن شيئاً إن أنت به عتقت، فكان المال يوجد عند العجائز ولا يوجد عند الشواب فربح عثمان مالاً كثيراً. أقول: ويحتاج إلى الجمع. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

وقد يقال: إن كان المراد بالسبايا في قصة سعد بن عبادة وعثمان وعبد الرحمن سبايا بني قريظة، فيكون قسموا ثلاثة أقسام: قسم أعطي لسعد بن زيد، وقسم أعطي لسعد بن عبادة، وقسم اشتراه عثمان وعبد الرحمن، ووقع الفداء في سبايا بني قريظة. وحينئذ يكون المراد بقول القائل: وبعث سعد بن زيد بسبايا بني قريظة: أي بجملة منهم. وبعث سعد بن عبادة بسبايا أي بسبايا بني قريظة: أي بجملة منهم وإن كان المراد بالسبايا في قصة سعد بن عبادة غير سبايا بني قريظة فالأمر ظاهر، ويدل لهذا الثاني إسقاط بني قريظة منه.

ثم رأيت في الإمتاع أسقط قصة سعد بن زيد الأنصاري واقتصر على سعد بن عبادة حيث قال: ولما سييت السبايا والذرية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بطائفة إلى الشام مع سعد بن عبادة رضي الله عنه يبيعهم ويشترى

سلاحاً هذا كلامه، والله أعلم.

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفرق بين الأم وولدها، أي في السبايا الأعم من قريظة، وقال «لا يفرق بين أم وولدها حتى يبلغ، قيل: يا رسول الله وما بلوغه؟ قال: تحيض الجارية ويحتلم الغلام» وكان إذا وجد الولد الصغير ليس له أم لم يبع من المشركين أي مشركي العرب ولا من يهود، وإنما يباع من المسلمين، أي وكانت أم الولد الصغير تباع من المشركين هي وولدها من العرب ومن يهود المدينة.

قال في الإمتاع: وكان يفرق بين الأختين إذا بلغتا، ومقتضاه أنهما إذا لم يبلغا لا يفرق بينهما. وأئمتنا معاشر الشافعية لم يحرموا إلا التفرقة بين الأصول والفروع إذا لم يميزوا، وهو محمل قوله «من فرق بين والدته وولدها فرق الله بينه وبين أخته يوم القيامة» ولعله لم تصح تلك الرواية عند إمامنا الشافعي رضي الله عنه.

وأصطفى لنفسه منهم ريحانة بنت عمرو وهو شمعون مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني النضير، وكانت متزوجة في بني قريظة، ولعله مراد من قال إنها كانت من بني قريظة، أي وكانت جميلة، وأسلمت بعد أن أبت الإسلام ووجد في نفسه: أي غضب بسبب ذلك، أي بسبب عدم إسلامها، ولم يظهر ذلك، ثم لما أسلمت سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك.

فقد جاء «لما أبت ريحانة الإسلام عزا لها ووجد في نفسه لذلك، وأرسل إلى ثعلبة بن شعبة وكان ممن نزل من حصون بني قريظة في الليلة التي صيحتها نزلت بنو قريظة علي حكم سعد بن معاذ، أي على ما في بعض الروايات «وأسلم هو وإخوته أسيد وأسيد وأسيد وابن عمه، وأحرزوا دماءهم وأموالهم، وليسوا من بني قريظة، وإنما هم من بني هذيل» فذكر له ذلك، فقال سعد: فذاك أبي وأمي هي مسلمة» أي ظناً منه أنها تسلم «فخرج حتى جاءها ولا زال يقول لها أسلمي يصطفيك رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، فأجابت إلى ذلك وأسلمت، فبينما هو في مجلس من أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: إن هاتين لنعلا مبشري بإسلام ريحانة فكان كذلك، وأخبره أنها أسلمت، فسر بذلك، واستمرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي في ملكه، اختارت بقاءها في ملكه على العتق والنكاح، أي فقد خيرها بين أن يعتقها ويتزوجها أو تكون في ملكه يطؤها بالملك؟ فاختارت أن تكون في ملكه».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

قال بعضهم: والأثبت عند أهل العلم أنه أعتقها وتزوجها وأصدقها اثنتي عشرة أوقية ونشأ، وأعرس بها في المحرم سنة ست بعد أن حاضت حيضة، وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه، فطلقها تطليقة، فأكثر من البكاء، فراجعها، ولم تزل عنده حتى ماتت مرجعه من حجة الوداع سنة عشر، فدفعها بالبيع. ووجوب استبرائها بحيضة يدل لما قاله فقهاؤنا أن من ملك أمة وطئها غيره وطئاً غير محرم لا يحل له تزوجها قبل استبرائها وإن أعتقها. وتقدم أن قريظة والنضير أخوان من أولاد هارون على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة والسلام.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 657

غزوة بن لحيان
بناحية عسفان، ولحيان بكسر اللام وفتحها: قبيلة من هذيل.

لا يخفى أن بعد مضي ستة أشهر من غزوة بني قريظة غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بني لحيان يطلبهم بأصحاب الرجيع، أي وهم خبيب وأصحابه رضي الله عنهم الذين قتلوا ببئر معونة كما سيأتي ذكر ذلك في السرايا. أي لأنه وجد: أي حزن وهدماً شديداً على أصحابه المقتولين بالرجيع، وأراد أن ينتقم من هذيل فأمر أصحابه بالتهيؤ، وأظهر أنه يريد الشام: أي ليدرك من القوم غرة: أي غفلة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وخرج في مائتي رجل ومعهم عشرون فرساً، ولما وصل إلى المحل الذي قتل فيه أهل الرجيع ترحم عليهم ودعا لهم بالمغفرة، فسمعت به بنو لحيان، فهربوا إلى رؤوس الجبال أي وأرسل السرايا في كل ناحية فلم يجدوا أحداً أي وأقام على ذلك يومين، فلما رأى أنه فاته ما أراده من غرتهم. قال: لو أنا هبطنا عسفان لرأى أهل مكة أننا قد جئنا مكة، فخرج في مائتي راكب من أصحابه حتى نزل عسفان، وهذا يدل على أن أصحابه كانوا أكثر من مائتين، وهو يخالف ما تقدم أنه خرج في مائتي رجل. إلا أن يقال زادوا على المائتين بعد خروجه. ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا كراع الغميم ثم كرا راجعين. وفي لفظ آخر فبعث أبا بكر رضي الله عنه في عشرة فوارس القصة. أي وقد يقال: لا منافاة بين اللفظين.

ثم توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين وجه أي توجه إلى المدينة «أيون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون» أي وفي رواية «لربنا عابدون، أعود بالله من وعتاء السفر» أي مشقة السفر «وكأبة» أي حزن «المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال» قال وزاد بعضهم «اللهم بلغنا بلاغاً صالحاً يبلغ إلى خير مغفرتك ورضوانك» قيل ولم يسمع هذا الدعاء منه قبل ذلك، وكانت غيبته عن المدينة أربع عشرة ليلة هـ.

وذكر بعضهم «أنه لما رجع من بني لحيان وقف على الأبواء فنظر يميناً وشمالاً، فرأى قبر أمه أمنة، فتوضأ ثم صلى ركعتين فبكى وبكى الناس لبكائه ثم قام فصلى ركعتين ثم انصرف إلى الناس وقال لهم: ما الذي أبكاكم؟ قالوا: بكيت فبكينا يا رسول الله، قال: ما ظننتم؟ قالوا، ظننا أن العذاب نازل علينا، قال: لم يكن من ذلك شيء، قالوا: ظننا أن أمتك كلفت من الأعمال ما لا تطيق، قال: لم يكن من ذلك شيء ولكني مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ثم استأذنت ربي عز وجل أن أستغفر لها فزجرت زجراً» أي منعت عن ذلك منعاً شديداً «فأبكاني» وفي لفظ «فعلى بكائي هذا» أي فعلى هذا بكائي.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 677

والذي في الوفاء «أنه وقف على عسفان، فنظر يميناً وشمالاً، فأبصر قبر أمه فورد الماء، فتوضأ ثم صلى ركعتين، قال بريدة: فلم يفجاناً إلا ببكائه، فبكينا لبكاء رسول الله، ثم انصرف فقال: ما الذي أبكاكم؟» الحديث.

«ثم دعا بإحاطته فركبها، فسار يسيراً فأُنزل الله تعالى {ما كان للنبي} والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} إلى آخر الآيتين، فلما سري عنه الوحي قال: أشهدكم أنني بريء من أمة كما تبرأ إبراهيم من أبيه. أي وهذا السياق يدل على أن هاتين الآيتين غير ما زجر به عن الاستغفار لها المتقدم في قوله «فزجرت زجراً» فليتأمل.

وفي مسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه قال «زار رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته في أن أزورها» أي بعد ذلك «فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت».

وسياتي عن عائشة رضي الله عنها «أن في حجة الوداع مرّ على عقبة الحجون فنزل وقال لها: وقفت على قبر أُمِّي» وسياتي أن ذلك يدل على أن قبر أمه بمكة لا بالأبواء، وتقدم الجمع بين كونه بالأبواء، وكونه بمكة، وسياتي بالحديبية أنه زار قبرها وفي فتح مكة أيضاً، وسياتي الكلام على ذلك وأن ذلك كان قبل إحيائها له وإيمانها به .

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 677

غزوة ذي قرد
بفتح القاف والراء، وقيل بضمهما، أي وقيل بضم الأول وفتح الثاني: اسم ماء. والقرد في الأصل: الصوف الرديء، ويقال لها غزوة الغابة، والغابة: الشجر الملتف.

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة من غزوة بني لحيان لم يقم بها إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن في خيل من عطفان على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة، أي وكانت اللقاح عشرين لقحة وهي ذات اللبن القريبة من الولادة: أي لها ثلاثة أشهر، ثم هي لبون، وفيها رجل من بني غفار هو ولد أبي ذر الغفاري وزوجة لأبي ذر، فقوله وامرأة له، أي لأبي ذر رضي الله عنه لا لولده كما يعلم مما يأتي، وكان راعيها يؤوب: أي يرجع بلينها كل ليلة عند المغرب إلى المدينة، أي فإن المسافة بينها وبين المدينة يوم أو نحو يوم، فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة مع اللقاح.

وعند ابن سعد: كان فيها أبو ذرّ وولده أي وزوجة أبي ذر، فقتلوا ولده، أي واحتملوا المرأة. قال: «جاء أن أبا ذرّ الغفاري رضي الله عنه استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون في اللقاح، فقال له: لا تأمن عيينة بن حصن وذويه أن يغيروا عليك، فألح عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكأنني بك قد قتل ابنك وأخذت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك، فكان أبو ذرّ رضي الله عنه يقول: عجباً لي ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لكأنني بك وأنا ألح عليه، فكان والله ما قال رسول الله ، فإنني والله لفي منزلنا ولقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم قد روّحت وجلبت عتمتها ونمنا، فلما كان الليل أحرق بنا عيينة بن حصن في أربعين فارساً فصاحوا بنا وهم قيام

على رؤوسنا، فأشرف لهم ابني فقتلوه وكان معه ثلاثة نفر فنجوا، وتنحيت عنهم، وشغلهم عني إطلاق عقل اللقاح، ثم صاحوا في أديارها، فكان آخر العهد بها. ولما قدمت المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرته تبسم» اهـ أي وروي بدل عيينة بن حصن قال بعضهم: ولا منافاة، لأن كلاً من عيينة بن حصن وعبد الرحمن بن عيينة كانا في القوم، وكان أول من علم بهم سلمة بن الأكوخ رضي الله عنه فإنه غدا يريد الغابة متوشحاً قوسه ومعه غلام لطلحة بن عبيدالله معه فرس له: أي لطلحة يقوده، فلقى غلاماً لعبد الرحمن بن عوف، فأخبره أن عيينة بن حصن قد أغار على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعين فارساً من غطفان. قال سلمة: فقلت: يا رباح اقعد على هذا الفرس، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد أغير على سرحه. أي وهذا السياق يدل على أن رباحاً غلامه كان مع سلمة أسقط الراوي ذكره ولم يقل ومعه رباح غلامه .
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

ويحتمل أن رباحاً هذا هو غلام عبد الرحمن الذي أخبر سلمة خبر اللقاح. ولا منافاة بين كون رباح غلامه وغلام عبد الرحمن، لجواز أن يكون كان لعبد الرحمن ثم وهبه للنبي، فهو غلام عبد الرحمن بحسب ما كان. ثم رأيت ما يؤدي الأول وهو ما في بعض الروايات عن سلمة قال: خرجت أنا ورباح عبد النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يؤذن بالأولى يعني لصلاة الصبح نحو الغابة وأنا راكب على فرس أبي طلحة الأنصاري، فلقيني عبد لعبد الرحمن بن عوف قال: أخذت لقاح رسول الله، قلت: من أخذها؟ قال: غطفان وفزارة، وقد طوي في هذه الرواية ذكر غلام طلحة. ثم رأيت الحافظ ابن حجر ذكر أنه لم يقف على اسم غلام عبد الرحمن بن عوف هذا: أي الذي أخبر سلمة بأمر اللقاح. قال: ويحتمل أن يكون هو رباح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ملك أحدهما وكان يخدم الآخر، فينسب تارة إلى هذا وتارة إلى هذا، هذا كلامه، ولا يخفى بعده للتصريح بأن رباحاً غير غلام عبد الرحمن، وأن رباحاً كان مع سلمة، وأن غلام عبد الرحمن هو الذي أخبر سلمة خبر اللقاح. ولا منافاة بين كون الفرس لطلحة، ولا بين كونها لأبي طلحة، ولا بين كون عبد طلحة كان قائداً لها وبين كون سلمة راكباً لها لأنه يجوز أن يكون ركبها أثناء الطريق فليتأمل.
وفي تسمية غلامه رباحاً مع نهيه أن الشخص يسمى رقيقه بأحد أربعة أسماء أفصح ورباح ويسار ونافع. وزاد في رواية خامساً وهو نجيح فهلا غير اسمه إنه كانت وقعت التسمية من غيره ويقال لم يغير ذلك الاسم إشارة إلى أن النهي للتنزيه.

ثم إن سلمة رجع إلى المدينة وعلائنية الوداع فنظر إلى بعض خيولهم، فصرخ بأعلى صوته وإصباحاه: أي قال ذلك ثلاث مرات. أي وقيل نادي: الفزع الفزع ثلاثاً، ولا مانع أن يكون جمع بين ذلك. وفي لفظ: وقمت على تل بناحية سلع،

أي وفي لفظ: على أكمة، وفي لفظ آخر: فصعدت في سلع ولا مخالفة كما لا يخفى، فجعلت وجهي من قبل المدينة. ثم ناديت ثلاث مرات: يا صباحاه أسمع ما بين لابتيتها، أي لسعة صوته، أو أن ذلك وقع خرقاً للعادة، وبأ صباحاه: كلمة تقال عند استنفار من كان غافلاً عن عدوه، لأنهم يسمون يوم الغارة يوم الصباح.

ثم خرج يشتد في أثر القوم كالسبع، وقد كان يسبق الفرس جرياً حتى لحق بهم، فجعل يردهم بالنبل ويقول: إذا رمى خذها وأنا ابن الأكوع، واليوم يوم الرضع: أي يوم هلاك اللئام، فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً، وهكذا يفعل قال: كنت ألحق الرجل منهم فأرميه بسهم في رجله فيعقره؛ فإذا رجعت إليّ فارس منهم أتيت شجرة فجلست في أصلها. ثم أرميه فأعقره فيولي عني، فإذا دخلت الخيل في بعض مضائق الجبل علوت الجبل ورميتهم بالحجارة، قال: ولم أزل أرميهم حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة يستخفون بها، ولا يلقون شيئاً من ذلك إلا جعلت عليه حجارة وجمعت على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي وما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهري وخلصوا بينهم وبينه. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم صباح ابن الأكوع صرخ بالمدينة: الفزع، يا خيل الله اركبي. قيل وكان أول ما نودي بها وفيه كما في الأصل أنه نودي بها في بني قريظة كما تقدم.

وأول من انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفرسان المقداد بن عمرو ويقال له ابن الأسود، وتقدم أنه قيل له ذلك، لأنه كان في حجر الأسود بن عبد يغوث وتبناه فنسب إليه. ثم عباد بن بشر وسعيد بن زيد، ثم تلاحت به الفرسان، وأمر عليهم سعيد ابن زيد. وقيل المقداد وجزم به الدمياطي رحمه الله، أي ويدل له قول حسان رضي الله عنه في وصف هذه الغزوة: * غداة فوارس المقداد *.

لكن في السيرة الشامية أن سعيد بن زيد رضي الله عنه غضب على حسان وحلف لا يكلمه أبداً وقال إنطلق إلى خيلي فجعلها للمقداد، وإن حسان رضي الله عنه اعتذر إلى سعد بأن الروي وافق في اسم المقداد وذكر آياتاً يرضى بها سعيد بن زيد فلم يقبل منه سعيد ذلك، وهذا يدل للأول.

وعقد لذلك الأمير لواء في رمحه. ثم قال له: أخرج في طلب القوم حتى ألحقك بالناس، فخرج الفرسان في طلب القوم حتى تلاحقوا بهم وكان شعارهم يومئذ «أمت أمت» وأول فارس لحق بهم محرز بن نضلة، ويقال له الأخرم الأسدي، ووقف لهم بين أيديهم، وقال لهم: يا معشر بني اللكية: أي اللئيمة قفوا حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار، فحمل عليه شخص من المشركين فقتله.

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أنه قال: ثم إن القوم جلسوا يتغدون وجلست على رأس قرن جبل، فقال لهم رجل أتاهم: من هذا؟ قالوا لقينا من هذا البرح حتى انتزع كل شيء في أيدينا. قال: فليقم إليّ منكم أربعة فتوجهوا إليّ فهددتهم، أي فقد جاء عنه رضي الله عنه أنه قال لهم: هل تعرفونني؟

قالوا لا ومن أنت؟ قلت أنا سلمة بن الأكوع، والذي كرم وجه محمد لا أطلب رجلاً منكم إلا أدركته، ولا يطلبني فيدركني، قال بعضهم إنا نظن ذلك فرجعوا.

قال: فما برحت مكاني حتى رأيت فوارس رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤمهم الأخرم الأسدي. فلما رأيت الأخرم الأسدي وأول الفرسان، نزلت من الجبل وأخذت بعنان فرسه، وقلت له: احذر القوم لا يقتطفوك حتى يلحق رسول الله، فقال: يا سلمة إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق وأن النار حق، فلا تحل بيني وبين الشهادة، فخلت عنه، فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة فعقر فرس عبد الرحمن وطعنه عبد الرحمن فقتله وتحول على فرسه، فلحق عبد الرحمن أبو قتادة رضي الله عنه، فعقر عبد الرحمن فرس أبي قتادة فقتله أبو قتادة وتحول أبو قتادة رضي الله عنه إلى الفرس.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

أقول: ولعل عبد الرحمن هذا هو حبيب بفتح الحاء المهملة وكسر الموحدة ابن عيينة، فإني لم أقف على ذكر عبد الرحمن هذا فيمن قتل من المشركين في هذه الغزوة، وإن أبا قتادة رضي الله عنه قتل حبيباً وغشاه ببرده كما سيأتي، إلا أن يقال جاز أن يكون له اسمان عبد الرحمن وحبيب، ثم رأيت الحافظ ابن حجر أشار إلى ذلك. وقيل قاتل محرز مسعدة الفزاري، وبه جزم الحافظ الدمياطي، وذكر أن قاتل حبيب المقداد بن عمرو، فقال: وقتل أبو قتادة مسعدة، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسه وسلاحه. وقتل المقداد بن عمرو حبيب بن عيينة بن حصن والله أعلم، ولم يقتل من المسلمين إلا محرز بن نضلة الذي هو الأخرم الأسدي، وكان رأى قبل ذلك بيوم أن سماء الدنيا فرجت وما بعدها حتى انتهى إلى السماء السابعة، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى، فقيل له: هذا منزلك، فعرضها على أبي بكر رضي الله عنه وكان من أعلم الناس بالتعبير كما تقدم، فقال له: أبشر بالشهادة، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين. وقد استعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه. أي واستعمل على حرس المدينة سعد بن عباد رضي الله عنه في ثلاثمائة من قومه يحرسون المدينة، فإذا حبيب بفتح الحاء المهملة وكسر الموحدة مسجى: أي مغطى ببرد أبي قتادة، فاسترجع المسلمون، أي قالوا {إنا لله وإنا إليه راجعون} وقالوا: قتل أبو قتادة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس بأبي قتادة، ولكنه قتيل لأبي قتادة وضع عليه برده ليعرف أنه صاحبه أي القاتل له.
قال وفي رواية أنه قال «والذي أكرمني بما أكرمني به إن أبا قتادة على آثار القوم يرتجز، فخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى كشف البرد عن وجهه المسجى فإذا وجه حبيب، فقال: الله أكبر، صدق الله ورسوله، يا رسول الله غير أبي قتادة».

وفي لفظ «فخرج أبو بكر وعمر رضي الله عنهما حتى كشفوا البرد» الحديث.
وقيل الذي قتله أبو قتادة وعشاه ببرده هو مسعدة قاتل محرز رضي الله عنه لا
حبيب على ما تقدم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

ففي رواية أن أبا قتادة رضي الله عنه اشترى فرساً فلقبه مسعدة الفزاري
فتفاوض معه، فقال له أبو قتادة: أما إني أسأل الله أن ألقاك وأنا عليها، قال:
أمين، فلما أخذت اللقاح ركب تلك الفرس وسار، فلقي النبي، فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم: امض يا أبا قتادة صحكك الله، قال: فسرت حتى هجمت
على القوم، فرميت بسهم في جبهتي، فنزعت قدحه وأنا أظن أنني نزعت
الحديدة، فطلع عليّ فارس وقال: لقد ألقانيك الله يا أبا قتادة، وكشف عن
وجهه فإذا هو مسعدة الفزاري. فقال: أيما أحب إليك: مجالدة، أو مطاعنة، أو
مصارعة؟ فقلت: ذاك إليك، فقال: صراع فنزل وعلق بسيفه في شجرة
ونزلت وعلقت سيفي في شجرة وتواثبنا فرزقني الله الظفر عليه، فإذا أنا
على صدره وإذا شيء مس رأسي، فإذا سيف مسعدة قد وصلت إليه في
المعالجة، فضربت بيدي إلى سيفه وجردت السيف، فلما رأى أن السيف وقع
بيدي قال: يا أبا قتادة استحيني، قلت: لا والله، قال: فمن للصيبة؟ قلت: النار،
ثم قتلته وأدرجته في بردي، ثم أخذت ثيابه فلبستها، ثم استويت على فرسه،
فإن فرسي نفرت حيث تعالجتنا، وذهبت للقوم فعرقبوها، ثم ذهبت خلق القوم
فحملت على ابن أخيه فدقت صلبه، فانكشف من معه عن اللقاح، فحبست
اللقاح برمحي وجئت أحرسها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح
وجهك يا أبا قتادة، أي فقلت: ووجهك يا رسول الله، قال رسول الله «أبو قتادة
سيد الفرسان، بارك الله فيك يا أبا قتادة وفي ولدك وولدك» وفي لفظ
«وفي ولد ولدك» اهـ «أي وقال له ما هذا الذي بوجهك؟ قلت: سهم أصابني،
فقال ادن مني فنزع السهم نزعاً رقيقاً، ثم بزق فيه ووضع راحته عليه، فوالذي
أكرمه بالنبوة ما ضرب عليّ ساعة قط

ولا قرح عليّ، وفي رواية «ولا قاح» وفي لفظ «قال لي: قتلت مسعدة؟ قلت
نعم، ثم قال يدعو لأبي قتادة: اللهم بارك في شعره وبشره» فمات أبو قتادة
رضي الله عنه وهو ابن سبعين سنة وكان ابن خمس عشرة سنة «أي وأعطاه
فرس مسعدة وسلاحه أي كما تقدم، وقال بارك الله لك فيه» وهذا السياق
يدل على أن أبا قتادة رضي الله عنه انفرد عن الصحابة وتقدمهم، وتخلف
مسعدة عن قومه مدة مصارعة أبي قتادة له وقتله، ولا مانع من ذلك، وقيل
استنقذوا نصف اللقاح، أي عشرة وفيها جمل أبي جهل الذي غنمه يوم بدر،
وأفلت القوم بالعشرة الأخرى. أي ولا ينافيه ما تقدم من قول أبي قتادة:
فانكشفوا عن اللقاح وجئت أحرسها، لأن المراد جملة من اللقاح، لكنه مخالف
لما تقدم عن سلمة رضي الله عنه من قوله: ما زلت أرتشقمهم؟ يعني القوم
حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته
وراء ظهري وخلوا بينهم وبينه فليتأمل، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى نزل بالجبل من ذي قرد بناحية خيبر وتلاحق به الناس، أي وقال له سلمة
بن الأكوع يا رسول الله إن القوم عطاش فلو بعثتني في مائة رجل استنقذت

ما بقي في أيديهم من السرح وأخذت بأعناق القوم.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

أي وقد يقال لا يخالف هذا ما تقدم من قوله حتى ما خلق الله من بعير من ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا خلفته وراء ظهري وخلوا بينهم وبينه، لجواز أن يكون صدر عنه ما تقدم لظنه أن ذلك هو جميع اللقاح التي أخذت، ثم تحقق أن الذي استنقذه هو وأبو قتادة جملة منها، وما في البخاري من قوله «واستنقذوا اللقاح كلها» يجوز أن يكون قائل ذلك ظن أن الذي استنقذ من أيدي القوم هو جميع ما أخذه من اللقاح، كما أن سلمة رضي الله عنه اعتقد أن جميع اللقاح التي أخذت هي التي جعلها خلف ظهره كما تقدم فكل من سلمة وأبي قتادة خلف نصف اللقاح التي هي العشرة التي خلصت من أيدي القوم.

وفي رواية عن سلمة قال «قلت يا رسول الله ابعث معي فوارس لندرك القوم، فقال لي رسول الله بعد أن ضحك: ملكت فأسجح» أي فارق، والمعنى قدرت فاعف، وإنما كانوا عطاشاً لأن سلمة رضي الله عنه ذكر أنه تبعهم إلى قبيل غروب الشمس، إلى أن عدلوا إلى شعب فيه ماء يقال له ذو قرد، فنحاهم: أي طردهم عنه ومنعهم الشرب منه، وتركوا فرسين وجاء بهما سلمة رضي الله عنه يسوقهما إلى رسول الله، ولعل هذا كان من سلمة رضي الله عنه بعد أن رجعت الصحابة عنهم واستمر يتبعهم، وقال له شخص: يا رسول الله القوم الآن يغيقون بأرض غطفان، أي يشربون اللبن بالعشي الذي هو الغيوق، فجاء رجل من غطفان فقال: مروا على فلان الغطفاني فنحر لهم جزوراً، فلما أخذوا يكشطون جلدها رأوا غبرة فتركوها وخرجوا هرباً، ولما نزل بالمحل المذكور لم تزل الخيل تأتي والرجال على أقدامهم وعلى الإبل حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكث يوماً وليلة، أي وعن سلمة رضي الله عنه: وأتاني عمي عامر بن الأكويع بسطيحة فيها ماء وسطيحة فيها لبن فتوضأت وشربت ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الماء الذي أجليتهم عنه، فإذا هو قد أخذ كل شيء استنقذته منهم، ونحر لهم بلال رضي الله عنه ناقته.

ولا مخالفة، لأنه يجوز أن يكون ذهب إلى الماء بعد أن كان مكثه بالجبل المذكور، وصلى بالناس صلاة الخوف، أي لخوف أن العدو يجيء إليهم، ولعل هذه هي صلاة بطن نخل، وهي على ما رواه الشيخان «أنه جعل القوم فرقتين، وصلها مرتين كل مرة بفرقة والأخرى تحرس» أي تكون في وجه العدو، أي في المحل الذي يظن مجيئهم منه، وذلك كان لغير جهة القبلة، وإلا فالعدو لم يكن يمر أي منهم وهذه الصلاة لم ينزل بها القرآن. أقول: لكن رأيت في الإمتاع «وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ صلاة الخوف، فقام إلى القبلة، وصف طائفة خلفه وطائفة مواجهة العدو، وصلى بالطائفة التي خلفه ركعة وسجد سجدين، ثم انصرفوا فقاموا مقام أصحابهم، وأقبل الآخرون، فصلى بهم ركعة وسجد سجدين وسلم، فكان

لرسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتان ولكل رجل من الطائفتين ركعة» ولا يخفى أن هذه الكيفية هي صلاة عسفان، والله أعلم.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679
ولما أصبح قال «خير فرساننا أبو قتادة، وخير رجالنا سلمة رضي الله عنهما».

وعند خروجه وتلاحق بعض الفرسان به؛ قال لأبي عياش «لو أعطيت هذا الفرس رجلاً هو أفرس منك للحق بالناس، قال أبو عياش: فقلت: يا رسول الله إني أفرس الناس، قال أبو عياش: فوالله ما جرى بي خمسين ذراعاً حتى طرحني فعجبت لذلك، وقسم في كل مائة من أصحابه جزوراً ينحرونها وكانوا خمسمائة، وقيل سبعمائة. وبعث سعد بن عبادة رضي الله عنه بأحمال تمر وبعشر جزائر، فوافيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي قرد، أي وقال: اللهم ارحم سعداً وآل سعد، نعم المرء سعد بن عبادة، فقالت الأنصار: هو سيدنا وابن سيدنا، من بيت يطعمون في المحل، ويحملون الكل، ويحملون عن العشيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا في الدين» وأقبلت امرأة أبي ذر رضي الله عنهما على ناقة من إبل رسول الله، أي من جملة اللقاح وهي القصوى، أفلتت من القوم فطلبوها فأعجزتهم، وفي لفظ: وانفلتت المرأة من الوثاق ليلاً فأتت الإبل فجعلت إذا دنت من البعير رغا فتتركه حتى انتهت إلى العضاء، فلم ترغ فقعدت على عجزها ثم زجرتها وعلموا بها فطلبوها فأعجزتهم، ونذرت إن نجاها الله عز وجل لتنحرنها، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم الخبر، قالت: يا رسول الله قد نذرت أن أنحرها إن نجاني الله عليها، أي وأكل من كبدها وسنامها، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: تبسما جزيتها أن حملك: أي لأجل أن حملك الله عليها ونجاك بها ثم تنحرنها «لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين» وفي لفظ «لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم، إنما هي ناقة من إبلي، ارجعي إلى أهلك على بركة الله تعالى، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة» أي وهذا السياق يدل على أن المرأة قدمت عليه بتلك الناقة قبل قدومه المدينة.

وفي السيرة الهشامية «أنها قدمت عليه المدينة فأخبرته الخبر، ثم قالت: يا رسول الله إني نذرت لله» الحديث، وهو يخاف ما يأتي من قوله: ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته العضاء.
أي ولعل ما في الأوسط للطبراني بسند ضعيف عن النواس بن سمعان رضي الله عنه «أن ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم سرقته، فقال: لئن ردها الله علي لأشكرن ربي، وقد وقعت في حيٍّ من أحياء العرب فيهم امرأة مسلمة، فرأت من القوم غفلة فقعدت عليها فصبحت المدينة» إلى آخره لا ينافي ما هنا لجواز تعدد الواقعة.
«ورجع رسول الله، وهو على ناقته العضاء مردفاً سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، وقد غاب عنها خمس ليال، وأعطى سلمة بن الأكوع سهم الراجل والفراس جميعاً» أي مع كونه كان راجلاً.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

وهذا استدل به من يقول إن للإمام أن يفاضل في الغنيمة، وهو مذهب أبي حنيفة وإحدى الروايتين عن أحمد. وعند مالك وإمامنا الشافعي رضي الله عنهما لا يجوز، ولعله لعدم صحة ذلك عندهما، وتبعته في تقديم هذه الغزوة على غزوة الحديبية الأصل، وهو الموافق لقول بعضهم: أجمع أهل السير على أن غزوة الغابة قبل الحديبية، ولقول أبي العباس شيخ القرطبي صاحب التذكرة والتفسير: لا يختلف أهل السير أن غزوة ذي قرد كانت قبل الحديبية، والشمس الشامي ذكرها بعد الحديبية تبعاً لما في صحيح البخاري أنها بعد الحديبية وقبل خيبر بثلاثة أيام، وفي مسلم نحوه. ففيه عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه «فرجعنا: أي من غزوة ذي قرد إلى المدينة، فلم نلبث إلا ثلاث ليال حتى خرجنا إلى خيبر».

ويؤيده قول الحافظ شمس الدين بن إمام الجوزية: قد وهم جماعة من أصحاب المغازي والسير فذكروا غزوة الغابة قبل الحديبية؛ قال الحافظ ابن حجر: ما في البخاري أصح مما ذكره أهل السير.

قال: ويحتمل في طريق الجمع أن تكون إغارة عيينة بن حصن على اللقاح، أي في الغابة وقعت مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الحديبية قبل الخروج إلى خيبر، أي ويلزم أن يكون في كل كان خروجه، وأن أول من علم بأخذ اللقاح سلمة بن الأكوع. ووقع له ولأصحابه ما تقدم، هذا حقيقة التكرار وإلا فهل الذي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقع فيها لسلمة ولغيره من الصحابة ما وقع كانت أولاً أو ثانياً؟ فليتأمل، ثم رأيت عن الحاكم رحمه الله تعالى أنه ذكر في الإكليل أن الخروج إلى ذي قرد تكرر أي ثلاث مرات؛ ففي الأولى خرج إليها زيد بن حارثة قبل أحد، وفي الثانية خرج إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة خمس، والثالثة هي المختلف فيها، أي ومعلوم أن هذه المختلف فيها خرج إليها فليتأمل، والله تعالى أعلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 679

غزوة الحديبية

بالتخفيف تصغير حذباء وعلى التشديد عامة الفقهاء والمحدثين؛ وأشار بعضهم إلى أنه لم يسمع من فصيح، ومن ثم قال النحاس: سألت كل من لقيت ممن أثق بعلمه عن الحديبية، فلم يختلفوا في أنها بالتخفيف.

وفي كلام بعضهم: أهل الحديث يشددون، وأهل العربية يخففون. وفي كلام بعض آخر: أهل العراق يشددون؛ وأهل الحجاز يخففون، وهي بئر، وقيل شجرة سمي المكان باسمها، وقيل قرية قريبة من مكة أكثرها في الحرم.

قال: وسببها أنه رأى في النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه أميين محلقيين رؤوسهم ومقصرين، أي بعضهم محلق وبعضهم مقصر؛ وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وعرف مع المعرفين انتهى، أي وطاف هو وأصحابه؛ واعتمر وأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، ثم أخبر أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فتجهزوا للسفر، فخرج معتمراً ليأمن الناس: أي أهل مكة ومن حولهم من حربه، وليعلموا أنه إنطما خرج زائراً للبيت ومعظماً له.

وكان إحرامه بالعمرة من ذي الحليفة، أي بعد أن صلى بالمسجد الذي بها ركعتين وركب من باب المسجد وانبعثت به راحلته مستقبلاً القبلة؛ أحرم وأحرم معه غالب أصحابه، ومنهم من لم يحرم إلا بالحجفة، أي وكان خروجه في ذي القعدة، وقيل كان خروجه في رمضان وهو غريب، ولفظ تليته «لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك». واستعمل على المدينة الشريفة نميلة بن عبدالله الليثي، أي وقيل ابن أم مكتوم، وقيل أبا رهم كلثوم بن الحصين. أي وقيل استخلف أبا رهم مع ابن أم مكتوم جميعاً، فكان ابن أم مكتوم على الصلاة، وكان أبو رهم حافظاً للمدينة، وكان خروجه بعد أن استنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب، ممن أسلم غفار ومزينة وجهينة وأسلم - القبيلة المعروفة - خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدّوه عن البيت كما صنعوا فتناقل كثير منهم وقالوا أنذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم، واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم، وأنه ليس لهم من يقوم بذلك، فأنزل الله تعالى تكذيبهم في اعتذارهم بقوله {يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم} .
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وخرج بعد أن اغتسل بيته، ولبس ثوبين، وركب راحلته القصوى من عند بابه، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر الأشهلية رضي الله عنهن، ومعه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب، وأبطأ عليه كثير منهم كما تقدم، وساق معه الهدى سبعين بدنة، أي وقد جللها، أي في ذي الحليفة بعد أن صلى بها الظهر، ثم أشعر منها عدة وهي موجهاً للقبلة في الشق الأيمن: أي من سنامها. ثم أمر ناجية بن جندب وكان اسمه ذكوان فغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه وسماه ناجية لما أنه نجا من قريش. فأشعر ما بقي وقلدهن نعلاناً نعلاناً، وأشعر المسلمون بدنهم وقلدوها. والإشعار جرح بصفحة سنامها. والتقليد أن تقلد في عنقها قطعة جلد أو نعل بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه، وكان الناس سبعمئة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة، وقيل كانوا أربع عشرة مائة، وقيل خمس عشرة وقيل ست عشرة، وقيل كانوا ألفاً وثلاثمئة، وقيل وأربعمائة، وقيل وخمسمائة وخمسة وعشرين، أي وقيل ألف وسبعمئة أي وليس معهم سلاح إلا السيوف في القرب، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أتخشى يا رسول الله من ولم تأخذ للحرب عدتها؟ فقال: لست أحب أن أحمل السلاح معتمراً وكان معهم مائتا فرس فأقبلوا نحوه أي في بعض المحال، وكان بين يديه ركوة يتوضأ منها، فقال: ما لكم؟ قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ماء نشربه ولا ماء نتوضأ منه إلا ما في ركوتك، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة أمثال العيون، أي وفي لفظ: فجعل الماء ينبع من بين أصابعه الشريفة. وفي لفظ آخر: فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه» وفي لفظ آخر «فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه» واستدل به بعضهم على أن الماء خرج من نفس بشرته الشريفة. قال أبو نعيم في الحلية: وهو أعجب من نبع الماء لموسى من الحجر، فإن نبعه من الحجر متعارف معهود، وأما من بين اللحم والدم فلم يعهد. قال بعضهم:

وإنما لم يخرج به غير ملابسة ماء في إناء تأدياً مع الله تعالى، لأنه المنفرد بابتداع المعدومات من غير أصل. قال جابر رضي الله عنه: فشربنا وتوضأنا ولو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

فلما كانوا بعسفان جاء إليه بشر بن سفيان العتكبي، أي وقد كان أرسله إلى مكة عيناً له، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفرنا من أطاعهم من الأحابيش؛ وأجلبت ثقيف معهم ومعهم النساء والصبيان. وفي لفظ: يخرجون ومعهم العوذ المطافيل، أي النياق ذوات اللبن التي معها أولادها ليتزودوا بذلك، ولا يرجعون خوف الجوع.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

قال السهيلي: أو العوذ جمع عائد وهي الناقة التي معها ولدها وإنما قيل للناقة عائد وإن كان الولد هو الذي يعوذ بها، لأنها عاطف عليه كما قالوا تجارة رابحة وإن كانت مبروحاً فيها لأنها في معنى نامية وزاكية، هذا كلامه: أو العوذ المطافيل النساء معهن أطفالهن، أي أنهم خرجوا بنسائهم معهن أولادهن ليكون أدعى لعدم الفرار.

أي ويجوز أن يكونوا خرجوا بذلك جميعه وقد لبسوا جلود النمر: أي أظهروا العداوة والحقد، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله أن لا يدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد ابن الوليد - أي رضي الله عنه لأنه أسلم بعد ذلك - في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم، أي وكانت مائتي فرس، أي وقد صفت إلى جهة القبلة، فأمر عباد بن بشر رضي الله عنه فتقدم في خيله، فقام بازاء خالد وصف أصحابه رضي الله عنهم، أي وحانت صلاة الظهر، فأذن بلال رضي الله عنه وأقام، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم القبلة وصف الناس خلفه فركع بهم وسجد ثم سلم، فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، هلا شددتم عليهم؟.

وفي لفظ قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم، ولكن تأتي الساعة صلاة أخرى هي أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم: أي التي هي صلاة العصر، وبهذا استدل على أنها الصلاة الوسطى، واستدل له أيضاً بأنه كان في أول ما أنزل حافظوا على الصلوات وصلاة العصر ثم نسخ ذلك أي تلاوته بقوله تعالى {والصلاة الوسطى} فنزل جبريل عليه السلام بين الظهر والعصر لقوله تعالى {وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك} الآيات، وهذا يدل على أنه صلى بهم جميعاً حتى عباد بن بشر وأصحابه جميعاً الذين قاموا بازاء خالد رضي الله عنهم، وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخوف: أي على ما ذكره الله تعالى، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم، قال المشركون: لقد أخبروا بما أردناه بهم، ولعل الصلاة هي صلاة عسفان، لأن كراع الغميم بالقرب منه كما تقدّم، وهي على ما رواه مسلم «أنه صفهم صفيين وأنه أحرم بهم وركع واعتدل بهم جميعاً ثم لما سجد سجد معه الصف الأول سجديته وتخلف الصف الثاني في اعتداله للحراسة، فلما قام وقام معه من سجد سجد الصف الثاني ولحقه في القيام وتقدم الصف الثاني

وتأخر الصف الأول ثم ركع واعتدل بهم جميعاً ثم سجد وسجد معه الصف الثاني الذي تقدم، واستمر الصف الأول الذي تأخر على الحراسة في اعتداله، فلما جلس للتشهد أتموا بقية صلاتهم وجلسوا معه للتشهد، فتشهد وسلم بهم جميعاً» وعلى هذه الصلاة حمل أئمتنا ما جاء: «فرضت الصلاة في الخوف ركعة» أي أنها ركعة مع الإمام وبضم إليها أخرى.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

ثم رأيت في الدر المنثور التصريح بأن هذه الصلاة هي صلاة عسفان. عن ابن عياش الزرقي قال «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد ابن الوليد رضي الله عنه وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم الظهر، فقالوا: قد كانوا على حالة غرة» الحديث المتقدم.
واشترط أئمتنا في هذه الصلاة، وهي إذا كان العدو في جهة القبلة ولا ساتر أن يكون كل صف مقاوماً للعدو وأن كل واحد لاثنين وإلا لم تصح الصلاة لما فيه من التغرير بالمسلمين ولعل صلاته بالصفين كانت كذلك، وهذه الصلاة لم ينزل بها القرآن كصلاة بطن نخل، فعلم أن القرآن لم ينزل إلا بصلاة ذات الرقاع وبصلاة شدة الخوف، ولم أقف على أنه صلى صلاة شدة الخوف وهي أن يلتحم القتال أو لم يأمنوا هجوم العدو.

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن قريشاً تريد منعه عن البيت قال: أشيروا عليّ أيها الناس، أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه، أي وفي الإمتاع: فقال المقداد رضي الله عنه يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى {اذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون} ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معكم مقاتلون، والله يا رسول الله لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك ما بقي منا رجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فامضوا على اسم الله فساروا؛ ثم قال: يا ويح قريش نهكتهم الحرب: أي أضعفتهم. وفي لفظ: أكلتهم الحرب ما ذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين: أي كاملين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذين بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفر هذه السالفة: أي وهي صفحة العنق، فهو كناية عن القتل. ثم قال: هل من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، أي ويقال إنه ناجية بن جندب رضي الله عنه، فسلك بهم طريقاً وعرأ. فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا ذلك، فقال: والله إنها: أي قول أستغفر الله للحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها.
ثم إن خالداً رضي الله عنه لم يشعر بهم إلا وقد نزلوا بذلك المحل، فانطلق

نذيراً لقريش.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وقد جاء في تفسير الحطة أنها المغفرة: أي طلب المغفرة: أي اللهم حط عنا ذنوبنا، وهذا هو المناسب لقوله «قولوا نستغفر الله» إلى آخره.

وجاء في تفسيرها أيضاً أنها لا إله إلا الله، فلم يقولوا حطة؛ بل قالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة سوداء استهزاء وجرأة على الله تعالى. وفي البخاري: فقيل لبني إسرائيل {ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم} فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاههم، أي أطيازهم وقولوا حبة في شعيرة، وقد جاء «أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل، من دخله غفر له الذنوب» أي المذكورة في قوله تعالى {وادخلوا الباب} أي باب أريحاء بلد الجبارين {سجد}: أي خاضعين متواضعين {وقولوا حطة} أي حط عنا خطايانا.

قال بعضهم: فكما جعل الله لبني إسرائيل دخولهم الباب على الوجه المذكور سبباً للغفران، فكذا حب أهل البيت سبب للغفران.

ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يسلكوا طريقاً تخرجهم على مهبط الحديدية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق، فلما كانوا به: أي بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت ناقته، أي القصوى، فقال الناس: حل حل، فألحت: أي تماردت واستمرت على عدم القيام، فقالوا: خلأت القصوى: أي حرنت، يقال خلأت الناقة وألخ الجمل بالخاء المعجمة فيهما، وحرن الفرس، فقال رسول الله «ما خلأت وما هو لها بخلق» وفي لفظ: «ما ذاك لها بعبادة ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة: أي منعها الله عن دخول مكة: أي علم أن ذلك صد له من الله عن مكة أن يدخلها قهراً/ «والذي نفس محمد بيده لا تدعني قريش اليوم إلى حطة» أي خصلة «يسألون فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» أي من ترك القتال في الحرم، والكف عن إراقة الدم «ثم زجرها فقامت، فولى راجعاً عوده على بدئه، ثم قال للناس: انزلوا فقالوا: يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه ناجية بن جندب رضي الله عنه سائق بدن رسول الله، أو البراء بن عازب رضي الله عنه، أو خالد بن عبادة الغفاري فنزل في قلب فغرزه في جوفه، فجاش: أي علا وارتفع بالرواء: أي الماء العذب حتى ضرب الناس عليه بعطن» وفي لفظ «حتى صدروا عنها بعطن»: أي حتى رووا ورويت إبلهم حتى بركت حول الماء لأن عطن الإبل مباركها.

قال: ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى الحديدية على ثمذ: وهو حفرة فيها ماء من ثمادها قليل الماء يتربضه الناس أي يأخذونه قليلاً قليلاً، ثم لم يلبث الناس حتى نزحوه فاشتكى الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلة الماء. وفي لفظ: العطش أي وكان الحر شديداً، فنزع سهماً من

كنانته ودفعه للبراء فقال: اغرز هذا السهم في بعض قلب الحديدية ففعل،
والقلب جاف، فجاش الماء، وقيل دفعه لناجية بن الأعجم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

فعنه رضي الله عنه، قال: «دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين
شكى إليه قلة الماء فأخرج سهماً من كنانته ودفعه إليّ، ودعا بدلو من ماء
البئر فجئت به، فتوضاً فمضمض ثم مَج الماء في الدلو. ثم قال: انزل بالدلو
في البئر وأثر ماءها بالسهم ففعلت، فوالذي بعثه بالحق ما كدت أخرج حتى
يغمرنى الماء، وفارت كما يفور القدر حتى طمت واستوت بشفيرها، يغترفون
من جوانبها حتى نهلوا عن آخرهم، وعلى البئر نفر من المنافقين منهم عبدالله
بن أبي ابن سلول، فقال له أوس بن خولي رضي الله عنه: وبحك يا أبا الحباب،
ما أن لك تبصر ما أنت عليه؟ أبعده هذا شيء؟ فقال: إني رأيت مثل هذا فقال
له أوس رضي الله عنه: قبحك الله وقبح رأيك، ثم أقبل: أي عبدالله المذكور
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه
وسلم: يا أبا الحباب أني رأيت؟ أي كيف رأيت مثل ما رأيت اليوم؟ قال: ما
رأيت مثله قط، قال: فلم قلت ما قلت؟ فقال: يا رسول الله استغفر لي،
وقال ابنه عبدالله: يا رسول الله استغفر له فاستغفر له. وفي لفظ: كنا مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية أربع عشرة مائة والحديبية بئر
تتبرضها» من البرض: هو الماء الذي يقطر قليلاً قليلاً «فلم نترك فيها قطرة،
فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء
من ماء فتوضاً ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد، ثم إنها
أصدرتنا ماشيتنا وركابنا. وفي لفظ: فرفعت إليه الدلو فغمس يده فيها فقال
ما شاء الله أن يقول: ثم صب الدلو فيها، فلقد لقيت آخرنا أخرج يثوب خشية
الغرق ثم ساحت نهراً» فليتأمل الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها.
وقد يقال: لا مانع من وقوع جميع ذلك، لكن يبعد أن يكون ذلك في قلب واحد،
قال بعضهم: فلما ارتحلوا أخذ البراء رضي الله عنه السهم فجف الماء كان لم
يكن هناك شيء.

وفي كلام هذا البعض: أن أبا سفيان قال لسهيل بن عمرو رضي الله عنهما: قد
بلغنا أنه ظهر بالحديبية قلب فيه ماء فقم بنا ننظر إلى ما فعل محمد، فأشرفنا
على القلب والعين تتبع تحت السهم، فقال: ما رأينا كاليوم قط، وهذا من
سحر محمد قليل.

وفيه أن أبا سفيان رضي الله عنه لم يكن حاضراً في الحديبية، وحمل ذلك
على أن ذلك كان من أبي سفيان بعد ارتحاله من الحديبية ينافيه ما قدمه هذا
البعض أن عند ارتحالهم من الحديبية رفع السهم وجف القلب، فلما اطمأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بديل بن ورقاء وكان سيد قومه رضي
الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك يوم الفتح، فكان من كبار مسلمة الفتح في رجال
من خزاعة وكانت خزاعة، مسلمها ومشركها لا يخفون عليه شيئاً كان بمكة،
بل يخبرونه به وهو بالمدينة، وكانت قريش ربما تفتن لذلك، فسألوه ما الذي

جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً؛ وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وفي المواهب أنه قال لبديل ما تقدم من قوله «وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب إلى آخره» وإن بديلاً رضي الله عنه قال له سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء. وقال ذو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول: قال سمعته يقول كذا وكذا: فحدثهم بما قال، هذا كلامه.

والرواية المشهورة أن بديلاً ومن معه من خزاعة لما رجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد وإن محمداً لم يأت لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم: أي قابلوهم بما يكرهون، وقالوا إن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة: أي قهراً أبداً، ولا تتحدث بذلك عنا العرب.

أي وفي لفظ أنهم قالوا: أيريد محمد أن يدخلها علينا في جنوده معتمراً تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا، والله لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف، ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أخا بني عامر فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً، قال: هذا الرجل غادر، أي وفي رواية فاجر، فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً مما قال لبديل فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قال له رسول الله .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش يومئذ، وتقدم عن الأصل أن الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة، وبنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة، وبنو المصطلق بن خزيمة، أي وأنه قيل لهم ذلك، لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبشي هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ما سجا ليل، ووضح نهار، وما سار حبشي، فسموا (أحابيش قريش).

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا من قوم يتألهون، أي يتعبدون ويعظمون أمر الإله. وفي لفظ: يعظمون البدن. وفي لفظ: يعظمون الهدي، ابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه بقلائده من عرض الوادي بضم المهملة أي ناحيته، وأما ضد الطول فبفتح المهملة؛ قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله بكسر الحاء المهملة، موضعه الذي ينحر فيه من الحرم: أي يرجع الحنين، واستقبله الناس يلبون قد شعثوا؛ صاح وقال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت أبي الله أن يحج لخم وخدام ونهد وجمير ويمنع ابن عبد المطلب، هلكت قريش ورب الكعبة، إنما القوم أتوا عماراً أي معتمرين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل يا أخا بني كنانة.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وقيل إنه بمجرد أن رأى هذا الأمر رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى، فقال لهم في ذلك، أي قال إني رأيت ما لا يحل منعه، رأيت الهدى في قلائده، قد أكل أوباره، أي معكوفاً عن محله، والرجال قد شعثوا وقملوا، فقالوا له: اجلس، إنما أنت أعرابي ولا علم لك، أي فما رأيت من محمد مكيدة، فعند ذلك غضب الحليس وقال: يا معشر قريش، والله ما علي هذا حالناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أصد عن بيت الله من جاءه معظماً، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد فقالوا له: مه: أي كف يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وهذا هو الذي شبهه بعيسى ابن مريم عليه السلام، ولما قتله قومه قال « مثله في قومه كصاحب يس؟ » كما سيأتي ذلك، فقال: يا معشر قريش إني رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد، فقالوا صدقت. وهذا يدل على أن ذهاب عروة بن مسعود رضي الله تعالى عنه إنما كان بعد تكرر الرسل من قريش إليه .

وبه يعلم ما في المواهب أن عروة لما سمع قريشاً توبيخ بدلاً ومن معه من خزاعة، قال: أي قوم، أستم بالوالد إلى آخره. وفي لفظ: أستم كالوالد، أي كل واحد منكم كالوالد لي وأنا كالولد له، وقيل أنتم حي قد ولدني، لأن أمه سبيعة بنت عبد شمس، قالوا بلى قال: أو لست بالولد؟ قالوا بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: ما أنت عندنا بمتهم، فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد جمعت أوباش: أي أخلاط الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك، أي أصلك وعشيرتك لتفضها بهم، إنها قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمر يعاهدون الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأنني بهؤلاء قد انكشفوا عنك؛ أي انهزموا غداً. وفي لفظ والله لا أرى وجوهاً أي عظاماً، وإني أرى أسراباً من الناس، خليقاً أي حقيقاً أن يفرو ويدعوك، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه جالس خلف رسول الله ، فقال له: اعضض بظر اللات. والبظر. قطعة تبقى في فرج المرأة بعد الختان، وقيل التي تقطعها الخاتنة، نحن ننكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال : هذا ابن أبي قحافة، فقال: أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها، أي على هذه الكلمة التي خاطبتني بها ولكن هذه بها. وفي رواية: والله لولا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك بها، وتلك اليد التي كانت لأبي بكر رضي الله تعالى عنه عند عروة، هي أن عروة استعان في حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثنتين. وأعانه أبو بكر رضي الله عنه بعشرة إبل شواب، ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه، أي وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه خصوصاً عند الملاطفة، وفي الغالب إنما يصنع ذلك النظر بالنظر، لكن كأنه إنما لم يمنعه من ذلك استمالة وتأليفاً له، والمغيرة بضم الميم وكسرهما ابن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديد وعليه المغفر، فجعل

يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ، أي بنعل السيف: وهو ما يكون أسفل القراب من فضة أو غيرها، ويقول: اكفف يدك عن وجهه، وفي رواية: عن مس لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل إليك فإنه لا ينبغي لمشارك ذلك؛ وإنما فعل ذلك المغيرة رضي الله عنه إجلالاً لرسول الله ، ولم ينظر لما هو عادة العرب، فيقول للمغيرة: ويحك ما أفضلك وما أغلظك، أي وما أشدّ قولك. وفي رواية: فلما أكثر عليه غضب عروة وقال: ويحك ما أفضلك وما أغلظك، ليت شعري من هذا الذي أذاني من بين أصحابك، والله إنني لا أحسب فيكم ألام منه ولا شرّ منزلة، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، أي لأن عروة كان عم والد المغيرة، فالمغيرة يقول له يا عم، لأن كل قريب من جهة الأب يقال له عم، وليس في الصحيح لفظ ابن أخيك فقال: أي غدر: أي يا غادر، وهل غسلت غدرتك. وفي لفظ سواتك وفي لفظ: ألسنت أسعى في غدرتك إلا بالأمس، وفي لفظ: يا غدر، والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس، وقد أورتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

قيل أراد عروة بذلك أنه الذي ستر غدر المغيرة بالأمس، لأن المغيرة رضي الله عنه قتل قبل إسلامه ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف، وقد هو وإياهم مصر على المقوقس بهدايا قال وكنا سدنة اللات: أي خدامها، واستشرت عمي عروة في مرافقتهم فأشار عليّ بعدم ذلك، قال: فلم أطع رأيه، فأنزلنا المقوقس في كنيسة للضيافة ثم أدخلنا عليه، فقدموا الهدية له، فاستخبر كبير القوم عني، فقال ليس منا، بل من الأحلاف فكنت أهون القوم عليه، فأكرمهم وقصر في حقي، فلما خرجوا لم يعرض عليّ أحد منهم مواساة فكرهت أن يخبروا أهلنا بأكرامهم وازدراء الملك بي، فأجمعت قتلهم، ونزلنا محلاً فعصبت رأسي، فعرضوا عليّ الخمر فقلت رأسي تصدع، ولكن أسقيكم فسقيتهم وأكثرت لهم بغير مزج حتى همدوا، فوثبت عليهم فقتلتهم جميعاً، وأخذت كل ما معهم، وقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم في مسجده، فسلمت عليه وقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام يا مغيرة، فقال أبو بكر رضي الله عنه: من مصر قدمت؟ قلت نعم، قال: فما فعل المالكيون الذين كانوا معك؟ لأهم من بني مالك، فقلت: كان بيني وبينهم ما يكون بين العرب وقتلتهم، وجئت بأسلابهم ليخمسها النبي صلى الله عليه وسلم أو يرى فيها رأيه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إسلامك فقبلته ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أخمسه، فإنه غدر والغدر لا خير فيه، فقلت: يا رسول الله إنما قتلتهم وأنا على دين قومي ثم أسلمت، فقال «الإسلام يجب ما قبله».
قال: وبلغ ذلك ثقيفاً، فتداعوا للقتال واصطلحوا على أن يحمل عمي عروة ثلاث عشرة دية.

وفي رواية لما وردوا على المقوقس أعطى كل واحد منهم جائزة ولم يعط المغيرة شيئاً فحقد عليهم، فلما رجعوا نزلوا منزلاً وشربوا خمرًا، ولما سكروا ناموا وثب عليهم المغيرة فقتلهم وأخذ أموالهم وجاء وأسلم، فاختصم بنو مالك مع رهط المغيرة، وشرعوا في المحاربة، فسعى عروة في إطفاء نار الحرب وصالح بني مالك على ثلاث عشرة دية ودفعها عروة. ولما أسلم المغيرة قال له النبي «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فليست منه في شيء» وفيه أن هذا مال حربي قصد أخذه والتغلب عليهم، إلا أن يقال هؤلاء مؤمنون منه، لأنهم اطمأنوا إليه.

أي ويذكر أن المغيرة بن شعبه هذا رضي الله عنه كان من دهاة العرب، وأحصن في الإسلام ثمانين امرأة، ويقال ثلاثمائة امرأة، وقيل ألف امرأة. قيل لإحدى نساء المغيرة إنه لدميم أعور، فقالت: هو والله عسيلة يمانية في ظرف سوء.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

ولما ولي رضي الله عنه الكوفة أرسل يخطب بنت النعمان بن المنذر، فقالت لرسوله: قل له ما قصدت إلا أن يقال تزوج المغيرة الثقفي بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأبي حظ لشيخ أعور في عجز عمياء، وهذه هي القائلة لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما وفدت عليه وهو والي الكوفة وأكرمها في دعائها له: ملكتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، ولا جعل الله لك إلى لئيم حاجة، ولا أزال عن كريم نعمة إلا جعلك السبب في عودها إليه، إنما يكرم الكريم الكريم. والمغيرة بن شعبه رضي الله عنه أول من حيا سيدنا عمر رضي الله عنه بأمير المؤمنين.

وعند مجيء عروة أخبر بما أخبر به من تقدّم من أنه لم يأت لحرب، فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه. لا يتوضأ: أي يغسل يديه إلا ابتدروا وضوءه؛ أي كادوا يقتتلون عليه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه: أي يدلك به من وقع في يده وجهه وجلده، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه أي وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدّون النظر إليه تعظيماً له، فقال: يا معشر قريش إني جئت كسري في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه. ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح، مع أنني أخاف أن لا تنصروا عليه، فقالت له قريش: لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل، فقال: ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة، ثم انصرف هو ومن معه إلى الطائف.

وعروة هذا هو ابن مسعود الثقفي، وهو عظيم القرينتين الذي عنته قريش بقولها {لولا نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم} وقيل المعني بذلك الوليد بن المغيرة.

ويقال إن عروة هذا كان جداً للحجاج لأمه. ويدل لذلك كما يدل للأول ما حكى عن الشعبي أنه سأل الحجاج وهو والي العراق حاجة فاعتل عليه فيها، فكتب إليه: والله لا أعذرک وأنت والي العراقين وابن عظيم القرينتين.

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم خراش بن أمية الخزاعي رضي الله عنه، فبعثه إلى قريش، وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله، أي عقره عكرمة بن أبي جهل، وأسلم بعد ذلك رضي الله عنه، وأرادوا قتله فمنعه الأحابيش، فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما لقي. ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعثه ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله إنما أخاف قريشاً على نفسي، وما بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه، أي فإن بني عمه يمنعون. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه لم يأت إلا زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة، أي ولعل ذكر أبي سفيان من غلط بعض الرواة، لما تقدّم أنه لم يكن حاضراً بالحديبية: أي صلحها، وأمر عثمان أن يأتي رجالاً مسلمين بمكة ونساء مسلمات ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله وشيك: أي قريب أن يظهر دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وذكر بعضهم أنه بعث عثمان رضي الله عنه بكتاب لقريش: أي قيل فيه إنه ما جاء لحرب أحد، وإنما جاء معتمراً بدليل ما يأتي في ردّهم عليه. وقيل فيه ما وقع بين النبي صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمر، وليقع الصلح بينهم على أن يرجع في هذه السنة الحديث، وأنهم لما احتبسوه أمسك سهيل بن عمرو عنده كذا في شرح الهمزية لابن حجر، وقدمه على الأوّل فليتأمل.

فخرج عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة، ودخل مكة من الصحابة عشرة أيضاً بإذن رسول الله، أي ليزوروا أهاليهم لم أقف على أسمائهم، ولم أقف على أنهم هل دخلوا مع عثمان أم لا فلقية قبل أن يدخل مكة أبان بن سعيد بن العاص رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك قبل خيبر، فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله، وجعله بين يديه، فجاء إلى أبي سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به، أي وهم يردّون عليه إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً، فلما فرغ عثمان من تبليغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. وفي رواية: قال له أبان إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله

قال: وقال المسلمون: قد خلص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون، وقال: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه، قال: ذلك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى تطوف، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف، فلما رجع عثمان وقالوا له في ذلك: أي قالوا له طفت بالبيت، قال بتسما ظننتم بي، دعنتي قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت، والذي نفسي بيده لو مكثت بها

معتماً سنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيماً بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ.

وكانت قريش قد احتبست عثمان عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان رضي الله عنه قد قتل، أي وكذا قتل معه العشرة رجال الذين دخلوا مكة أيضاً؛ فقال عند بلوغه ذلك: لا تبرح حتى تناجز القوم: أي نقاتلهم، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى البيعة، أي بعد أن قال لهم: إن الله أمرني بالبيعة. فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: بينما نحن جلوس قائلون إذ نادى منادي رسول الله ، أي وهو عمر بن الخطاب: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس فخرجوا على اسم الله، فسرنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة فبايعناه، أي وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، وهذا هو المراد بما جاء في بعض الروايات، فبايعناه على الموت ولم يتخلف منا أحد إلا الجد بن قيس، قال: لكنني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها من الناس. وقد قيل إنه كان يرمي بالنفاق، وقد نزل في حقه في غزوة: أي غزوة تبوك من الآيات ما يدل على ذلك كما سيأتي، وهو ابن عمه البراء بن معرور رضي الله عنه، وكان سيد بني سلمة بكسر اللام في الجاهلية، وقد قال لبني سلمة: «من سيدكم؟ قالوا الجد بن قيس: أي على بخل فيه قال: وأي داء أدوأ من البخل؛ ثم قال: بل سيدكم عمرو بن الجموح. وقيل قالوا: يا رسول الله من سيدنا؟ قال: سيدكم بشر بن البراء بن معرور» وهذا قال ابن عبد البر إن النفس إليه أميل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

ومما يدل للأول ما أنشده شاعر الأنصار رضي الله عنهم من قوله:

وقال رسول الله والحق قوله
لمن قال منا من تسموه سيدي
فقالوا له جد بن قيس على التي
نبخله فيها وإن كان أسودا
فتى ما يخطي خطوة لدينة
ولا مد يوماً ما إلى سواة يدا
فسود عمرو بن الجموح لجوده
وحق لعمره بالندي أن يسودا
إذا جاءه السؤال أنهب ماله
وقال خذوه إنه عائد غدا
ولو كنت يا جد بن قيس على التي

على مثلها عمرو لكنت المسودا

أي وبايع عن عثمان فوضع يده على يده: أي وضع يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: اللهم إن هذه عن عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك. أي وفي لفظ قال: اللهم إن عثمان ذهب في حاجة الله وحاجة رسوله فانا أبايع عنه، فضرِبَ بيمينه شماله، وما ذاك إلا أنه علم بعدم صحة القول بأن عثمان

قد قتل، أو أن ذلك كان بعد مجيء الخبر له بأن القول يقتل عثمان رضى الله عنه باطل.

وفيه أنه حيث علم أن عثمان لم يقتل لا معنى للبيعة، لأن سببها كما علمت بلوغه الخبر أن عثمان قد قتل.

إلا أن يقال: سببها ما ذكر، وقتل العشرة من الصحابة، ويدل لذلك ما يأتي قريباً أن عثمان رضى الله عنه بايع بعد مجيئه من مكة فليتأمل، أي وبهذا يرد ما تمسك به بعض الشيعة في تفضيل علي كرم الله وجهه على عثمان رضى الله عنه، لأن علياً كان من جملة من بايع تحت الشجرة، وقد خوطبوا بقوله «أنتم خير أهل الأرض» فإنه صريح في تفضيل أهل الشجرة على غيرهم. وأيضاً عليٌّ حضر بدراناً دون عثمان، وقد جاء مرفوعاً «لا يدخل النار من شهد بدراناً أو الحديبية».

وحاصل الرد أن النبي صلى الله عليه وسلم بايع عن عثمان مع الاعتذار عنه بأنه في حاجة الله وحاجة رسوله، وخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان رضى الله عنه عن بدر لتمرير بنته، وأسهم له كما تقدم، فهو في حكم من حضرها، على أنه سيأتي أنه رضى الله عنه بايع تحت تلك الشجرة بعد مجيئه من مكة، واستدل بقوله «أنتم خير أهل الأرض» على عدم حياة الخضر عليه الصلاة والسلام حينئذٍ، لأنه يلزم أن يكون غير النبي أفضل منه، وقد قامت الأدلة الواضحة على ثبوت نبوته كما قاله الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، وقد أشار إلى امتناع عثمان رضى الله تعالى عنه من الطواف وإلى عدم صحة القول بأن عثمان قتل وإلى مبايعته عنه صاحب الهمزية بقوله رحمه الله:
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688
وأبى أن يطوف بالبيت إذ لم

يدن منه إلى النبي فناء

فجزته عنها بيعة رضوا

ن يد من نبيه بيضاء

أدب عنده تضاعفت الأعداء

مال بالترك حبذا الأدياء

أي وامتنع رضى الله عنه أن يطوف بالبيت لأجل أنه لم يقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من البيت جانب، فجزته عن تلك الفعلة، وهي ذهابه إليهم وامتناعه من الطواف يد من نبيه عليه الصلاة والسلام تلك اليد البالغة في الكرم، وذلك في بيعة الرضوان، وذلك أدب عظيم عند عثمان رضى الله تعالى عنه حصل منه أمر عظيم مستغرب هو تضاعف ثواب الأعمال التي تركها بسبب تركها، وهي الطواف.

وذكر أن قريشاً بعثت إلى عبدالله بن أبي ابن سلول إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل، فقال له ابنه عبدالله رضى الله عنه: يا أبت أذكرك الله أن لا تفضحنا في كل موطن، تطوف ولم يطف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى حينئذٍ، وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول الله.

وفي لفظ قال: إن لي في رسول الله أسوة حسنة، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم امتناعه رضى الله عنه أثنى عليه بذلك. وكانت البيعة تحت شجرة هناك، أي من أشجار السمر. أي ولما جاء عثمان

رضي الله تعالى عنه بايع تحت تلك الشجرة، وقيل لها بيعة الرضوان، أي لأنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» رواه مسلم وكانوا ألفاً وأربعمائة على الصحيح.

وجاء أنه قال «يا أيها الناس إن الله قد غفر لأهل بدر والحديبية» وتقدم أن الواو بمعنى أو في حديث «لا يدخل النار من شهد بدرًا والحديبية» بدليل رواية مسلم هذه.

ومن ثم قال ابن عبد البر رحمه الله: ليس في غزواته ما يعدل بدرًا أو يقرب منها إلا غزوة الحديبية. والراجح تقديم غزوة أحد على غزوة الحديبية، وأنها التي تلي بدرًا في الفضيلة. وأول من بايعه سنان بن أبي سنان الأسدي، كذا في الأصل أنه الصواب بعد أن حكى أن أول من بايع أبو سنان، أي وهو ما ذهب إليه في الاستيعاب حيث قال: الأكثر الأشهر أن أبا سنان أول من بايع بيعة الرضوان، أي لا ابنه سنان، وأبو سنان هذا هو أخو عكاشة بن محصن رضي الله عنه، وكان أكبر من أخيه عكاشة بعشرين سنة. وضعفه في الأصل بأن أبا سنان رضي الله عنه مات في حصار بني قريظة ودفن بمقبرتهم، أي كما تقدم. ولما بايعه سنان قال للنبي: أبايعك على ما في نفسك، قال: وما في نفسي؟ قال: أضرب بسيفي بين يديك حتى يظهر لك الله أو أقتل، وصار الناس يقولون له: نبايعك على ما بايعك عليه سنان.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وقيل أول من بايع عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وقيل سلمة بن الأكوع. قال: وذكر أن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه بايع ثلاث مرات: أول الناس، ووسط الناس، وآخر الناس بأمره له في الثانية والثالثة بعد قول سلمة له: قد بايعت، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأيضاً، وذلك ليكون له في ذلك فضيلة، أي لأنه أراد أن يؤكد بيعته لعلمه بشجاعته وعنايته بالإسلام وشهرته في الثبات، أي بدليل ما وقع له رضي الله عنه في غزوة ذي قرد بناء على تقدمها على ما هنا أو تفرس فيه ذلك بناء على تأخرها وبايع عبدالله بن عمر رضي الله عنهما مرتين.

أي وقد قيل في سبب نزول قوله تعالى {لا تحلوا شعائر الله} الآية أن المسلمين لما صدوا عن البيت بالحديبية، مر بهم ناس من المشركين يريدون العمرة، فقال المسلمون: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم، فأنزل الله تعالى الآية: أي لا تصدوا هؤلاء العمار أن صدكم أصحابهم.

قال: وكان محمد بن مسلمة رضي الله عنه على حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثت قريش أربعين، وقيل خمسين رجلاً عليهم مكرز بن حفص، أي وهو الذي بعثته قريش له ليسأله فيما جاء، وقال في حقه: هذا رجل غادر، وفي لفظ: رجل فاجر، ليطوفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً أو يجدوا منهم غرة: أي غفلة، فأخذهم محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلا مكرزاً فإنه أفلت، وصدق فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم إنه رجل فاجر أو غادر كما تقدم، وأتى بهم إلى رسول الله صلى

الله عليه وسلم فحبسوا، وبلغ قريشاً حبس أصحابهم، فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة، وقتل من المسلمين ابن زعيم رضي الله عنه، رمي بسهم. فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً. وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعاً، منهم سهيل بن عمرو، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: سهل أمركم، فقال سهيل: يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك، أي عثمان والعشرة رجال وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأي ذوي رأينا، بل كنا كارهين له حين يلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولاً وثانياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابي، فقالوا نفعل، فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك، فبعثوا بمن كان عندهم وهو عثمان والعشرة رجال، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابهم انتهى.

ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا، وأشار أهل الرأي بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل، فقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب السيوف في القرب والقوس، فبعثوا سهيل بن عمرو أي ثانياً ومعه مكرز بن حفص وحويط بن عبد العزى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصالحوه على أن يرجع في عامه هذا، لئلا تتحدث العرب بأنه دخل عنوة أي وأنه يعود من قابل، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً قال: أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل، أي فلما انتهى سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جثا على ركبتيه بين يديه والمسلمون حوله جلوس وتكلم فأطال، ثم تراجعاً، أي ومن جملة ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به، فقال له سهيل: والله لا تتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضغطة بالضم: أي بالشدة والإكراه، ولكن ذلك من العام القابل، ثم التأم الأمر بينهما على الصلح على ترك القتال إلى آخر ما يأتي، ولم يبق إلا الكتاب بذلك.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتى أبا بكر رضي الله عنه، فقال له يا أبا بكر أليس هو برسول الله؟ قال بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال بلى؛ قال: فعلام نعطي الدنية بفتح الدال وكسر النون وتشديد الياء: النقيصة والخصلة المذمومة في ديننا؛ فقال له أبو بكر رضي الله عنه: يا عمر الزم غرزة: أي ركابه، وفي رواية أنه قال له: أيها الرجل إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يعصي ربه وهو ناصره، استمسك بغرزه حتى تموت، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر رضي الله عنه: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم أتى عمر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره ولم يضيعني.

ولقي عمر رضي الله عنه من ذلك الشروط الآتي ذكرها أمراً عظيماً، وجعل يردّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام حتى قال له أبو عبيدة بن

الجراح رضي الله عنه: ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما يقول، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمر إني رضيت وتأبى؟ فكان عمر رضي الله عنه يقول: ما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به حين رجوت أن يكون هذا خيراً. هذا، والذي في الإمتاع عكس ما هنا: أي أنه قال ما ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً، ثم لأبي بكر ثانياً، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أي بعد أن كان أمر أوس بن خولة أن يكتب، فقال له سهيل: لا يكتب إلا ابن عمك عليّ أو عثمان بن عفان، فأمر علياً كرم الله وجهه، فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا: أي الرحمن الرحيم، ولكن اكتب باسمك اللهم، فكتبها لأن قريباً كانت تقولها. وأول من كتبها أمية بن أبي الصلت، ومنه تعلموها، وتعلمها هو من رجل من الجن في خبر ذكره المسعودي، أي وإنما كتبها بعد أن قال المسلمون: والله لا يكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فضج المسلمون.

وعن الشعبي رحمه الله: كان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم، فكتب النبي أول ما كتب باسمك اللهم، وتقدم أنه كتب ذلك في أربع كتب حتى نزلت {بسم الله مجربها ومرساها} فكتب باسم الله، ثم نزلت {ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} فكتب بسم الله الرحمن ثم نزلت {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} أي فكتبها وهذا السياق يدل على تأخر نزول الفاتحة عن هذه الآيات، لأن البسملة نزلت أولها، وتقدم الخلاف في وقت نزولها فليتأمل، ثم قال «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل بن عمرو: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت، ولكن اكتب باسمك واسم أبيك» أي وفي لفظ «لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك، أفتربغ عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبدالله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه: امحه» وفي لفظ «امح رسول الله، فقال علي كرم الله وجهه: ما أنا بالذي أمحاه، وفي لفظ: لا أمحوك، وفي لفظ: والله لا أمحوك أبداً، فقال: أرنيه، فأراه إياه، فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة، وقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله سهيل بن عمرو، وقال: أنا والله رسول الله وإن كذبتُموني، وأنا محمد بن عبدالله» وفي لفظ «فجعل عليّ يتلأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله، فقال له: اكتب فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد»: أي مقهور.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وهو إشارة منه لما سيقع بين عليّ ومعاوية رضي الله تعالى عنهما فإنهما في حرب صفيين وقعت بينهما المصالحة على ترك القتال إلى رأس الحول. وكان القتال في صفر دام مائة يوم وعشرة أيام، قتل فيه سبعون ألفاً خمسة وعشرون ألفاً من جيش علي كرم الله وجهه من جملة تسعين ألفاً وخمسة وأربعون ألفاً من جيش معاوية من جملة مائة وعشرين ألفاً.

فلما كتب الكاتب في الصلح: هذا ما صالح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، قال عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي هو أحد الحكمين: اكتب اسمه واسم أبيه، وأرسل معاوية يقول لعمرو: لا تكتب أن علياً أمير المؤمنين، لو كنت أعلم أنه أمير المؤمنين ما قاتلته، فبئس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم أقاتله، ولكن اكتب علي بن أبي طالب وامح أمير المؤمنين، فقيل له: يا أمير المؤمنين لا تمح إمارة اسم أمير المؤمنين، فإنك إن محوتها لا تعود إليك، فلما سمع علي كرم الله وجهه ذلك، وأمره بمحوها، وقال امحها تذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم له في الحديبية ما تقدم، ومن ثم قال: الله أكبر مثلاً بمثل، والله إني لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية إذ قالوا لست برسول الله ولا نشهد لك بذلك، اكتب اسمك واسم أبيك محمد بن عبدالله، فقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: سبحان الله أنتشبه بالكفار؟ فقال له علي كرم الله وجهه: يا ابن النابغة: أي العاهرة، ومتى كنت عدواً للمسلمين هل تشبه إلا أمك التي وقعت بك، فقال عمرو: لا يجمع بيني وبينك مجلس أبداً، فقال علي كرم الله وجهه: إني لأرجو الله أن يطهر مجلسي منك ومن أشباهك.

وذكر أن أسيد بن حضير وسعد بن عباد رضي الله عنهما أخذوا بيد علي كرم الله وجهه، ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهم، وضجت المسلمون وارتفعت الأصوات، وجعلوا يقولون: لم نعط هذه الدنية في ديننا؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم ويومئء بيده إليهم أن اسكتوا، ثم قال: أرنيه الحديث، وكان الصلح على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، وقيل سنتين، وقيل أربع سنين، أي وصحه الحاكم - تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض. أي ويقال لهذا العقد هدنة ومهادنة وموادعة ومسالمة. وقال زيادة على اشتراط الكف عن الحرب على أنه من أتى محمداً من قريش ممن هو على دين محمد بغير إذن وليه رده إليه ذكراً كان أو أنثى. قال السهيلي رحمه الله: وفي رد المسلم إلى مكة عمارة للبيت وزيادة خير له في الصلاة بالمسجد الحرام والطواف بالبيت، فكان هذا من تعظيم حرمة الله، هذا كلامه. ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمد: أي مرتداً ذكراً كان أو أنثى لم نردّه إليه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وهذا الثاني يوافق قول أئمتنا معاشر الشافعية يجوز شرط أن لا يردوا من جاءهم مرتداً والأول يخالف قولهم: لا يجوز شرط رد مسلمة تأتيها منهم، فإن شرط فسد الشرط والعقد، إلا أن يقال هذا ما وقع عليه الأمر أولاً ثم نسخ كما سيأتي، وشرطوا أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه وأن بيننا وبينكم عيبة مكفوفة: أي صدوراً منطوية على ما فيها لا تبدي عداوة؛ وقيل صدوراً نقية من الغل والخداع منطوية على الوفاء بالصلح؛ وأنه لا إسلال ولا إغلال: أي لا سرقة ولا خيانة، قال سهيل: وأنتك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة؛ وأنه إذا كان عام قابل خرج منها قريش فتدخلها بأصحابك فأقمت بها ثلاثة؛ أي ثلاثة أيام معك سلاح الراكب، السيوف في القرب والقوس لا تدخلها بغيرها.

ويقال إنه هو الذي كتب الكتاب بيده الشريفة، وهو ما وقع في البخاري أي أطلق الله يده بالكتابة في تلك الساعة خاصة وعد معجزة له. قال بعضهم: لم يعتبره أي القول بذلك أهل العلم، ومعنى كتب أمر بالكتابة. وفي النور: وفي كون هذا أي أنه كتب بيده في البخاري فيه نظر، والذي في البخاري: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب ليكتب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد الحديث، أي فلفظة بيده ليست في البخاري، ومع إسقاطها التأويل ممكن. وتمسك بظاهر قوله: فكتب أبو الوليد الباجي المالكي رحمه الله على أنه كتب بيده، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه، بأن هذا مخالف للقرآن، فناظرهم واستظهر عليهم بأن هذا لا ينافي القرآن وهو قوله تعالى {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك} لأن هذا النفي مقيد بما قبل ورود القرآن، وبعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، لا مانع من أن يعرف الكتابة من غير معلم فتكون معجزة أخرى ولا يخرج ذلك عن كونه أمياً. أي وقال إن الذي كتب هذا الكتاب محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وعده الحافظ ابن حجر رحمه الله من الأوهام.

وجمع بأن أصل هذا الكتاب كتبه علي كرم الله وجهه، ونسخ مثله محمد بن مسلمة رضي الله عنه لسهيل بن عمرو، أي فإن سهيلاً قال: يكون هذا الكتاب عندي، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل عندي، فأخذه رسول الله، ثم كتب لسهيل نسخة أخذها عنده. وعند كتابته اشترط أن يرد إليهم من جاء مسلماً، قال المسلمون: سبحان الله كيف نرد للمشركين من جاء مسلماً؟ وعسر عليهم شرط ذلك وقالوا: يا رسول الله أتكتب هذا؟ قال نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. وفي لفظ قال عمر: يا رسول الله أترضى بهذا؟ فتيسم وقال: من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه في شيء، وليس منا بل هو أولى بهم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب بالشروط المذكورة، إذا جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلي المسلمين يرسف في الحديد: أي يمشي في قيوده متوشحاً سيفه، قد أفلت إلى أن جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فجعل المسلمون يرحبون به ويهنتونه، فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل، قام إليه فضرب وجهه، وفي لفظ: أخذ غصناً من شجرة به شوك وضرب به وجه أبي جندل ضرباً شديداً حتى رق عليه المسلمون وبكوا وأخذ بتلييته، وقال: يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي، لقد لجت القضية بيني وبينك، أي وجبت وتمت قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينشره بتلييته ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل رضي الله عنه يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أريد إلي المشركين يفتنونني عن ديني؟ ألا ترون ما لقيت، فإنه رضي الله عنه كان عذب عذاباً شديداً على أن يرجع عن الإسلام فزاد الناس ذلك إلى ما بهم، أي فإنهم كانوا لا يشكون في دخولهم مكة وطوافهم بالبيت للرؤيا

التي رآها رسول الله ؛ فلما رأوا الصلح وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه داخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون، خصوصاً من اشترط أن يردّ إلى المشركين من جاء مسلماً منهم، أي وردّ أبي جندل إليهم بعد ضربه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولِمَن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله أن لا نغدر بهم.

وبهذا استدل أئمتنا على أنه يجوز شرط ردّ من جاءنا منهم مسلماً إليهم ولا نرده إليهم إلا إذا كان حراً ذكراً غير صبيٍّ ومجنون وطلبته عشيرته.

وفي لفظ آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسهيل: إنا لم نفضّ الكتاب بعد، فقال: بلى لقد لجت القضية بيني وبينك، أي تمّ العقد فرده. فقال النبي صلى الله عليه وسلم فأجره لي؛ فقال: ما أنا مجير ذلك لك، قال: بلى فافعل، قال: ما أنا بفاعل، فقال مكرز وحويطب: قد أجرناه لك لا نعذبه. أي وهذا وما تقدم يخالف قول ابن حجر الهيثمي رحمه الله إن مجيء أبي جندل كان قيل عقد الهدنة معهم رواه البخاري. وعند ذلك قال حويطب لمكرز: ما رأيت قوماً قط أشدّ حياً لمن دخل معهم من أصحاب محمد، أما إني أقول لك: لا تأخذ من محمد نصفاً أبداً بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة، فقال مكرز: وأنا أرى ذلك.

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومشى إلى جنب أبي جندل، أي وأبوه سهيل بجنبه يدفعه، وصار عمر رضي الله عنه يقول لأبي جندل: اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم كدم كلب، أي ومعك السيف، يعرض له بقتل أبيه، أي وفي رواية إن دم الكافر عند الله كدم الكلب ويدني قائم السيف منه، أي وفي لفظ: وجعل يقول: يا أبا جندل إن الرجل يقتل أباه في الله، والله لو أدركنا أباءنا لقتلناهم في الله، فقال له أبو جندل: مالك لا تقتله أنت، فقال عمر: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله وقتل غيره، فقال أبو جندل رضي الله عنه ما أنت أحق بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم مني، فقال عمر رضي الله عنه: وددت أن يأخذ السيف فيضرب أباه فضنّ الرجل بأبيه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وفيه كيف يظن عمر حينئذٍ جواز قتله لأبيه حتى يعرض له به، إلا أن يقال ظن ذلك لكونه يريد أن يفتنه عن دينه ويرجع إلى الكفر وإن كان قال له: يا أبا جندل اصبر واحتسب.

ورجع أبو جندل إلى مكة في جوار مكرز بن حفص أي وحويطب، فأدخلاه مكاناً وكف عنه أبوه.

وأبو جندل اسمه العاص، وهو أخو عبدالله بن سهيل بن عمرو، وإسلام عبدالله سابق على إسلام أبي جندل، لأن عبدالله شهد بدرًا، أي فإنه خرج مع المشركين لبدر، ثم انحاز من المشركين إلى رسول الله ، وشهد معه بدرًا

والمشاهد كلها وأبو جندل رضي الله عنه أول مشاهده الفتح. ودخلت خزاعة في عقده وعهده، أي وفي لفظ: ووثب من هناك من خزاعة. فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ونحن على من وراءنا من قومنا، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. ويذكر أن حويطباً قال لسهيل: بادأنا أحوالك يعني خزاعة بالعداوة، وكانوا يستترون منا فدخلوا في عهد محمد وعقده، فقال له سهيل: ما هم إلا كغيرهم، هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد، قوم اختاروا لأنفسهم أمراً فما نصنع بهم، قال حويطب: نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بني بكر، قال سهيل إياك أن يسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة، فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه. ومن هذا التقرير يعلم أن البيعة الرضوان كانت قبل الصلح، وأنها السبب الباعث لقريش عليه.

ووقع في المواهب ما يقتضي أن البيعة كانت بعد الصلح، وأن الكتاب الذي ذهب به عثمان كان متضمناً للصلح الذي وقع بينه وبين سهيل بن عمرو، فحبست قريش عثمان، فحبس سهيلاً، ولا يخفى عليك ما فيه.

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلح وأشهد عليه رجالاً من المسلمين: أي أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة، أي ورجالاً من قريش حويطباً ومكرزاً قام إلى هديه فنحره، ومن جملة جمل لأبي جهل وكان نجيباً مهرياً، وكان يضرب في لقاحه في رأسه برة، أي حلقة من فضة، وقيل من ذهب ليغيظ بذلك المشركين، غنمه يوم بدر كما تقدم.

قال: وقد كان فر من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبي جهل، وخرج في أثره عمرو بن غنمة الأنصاري، فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه، ودفعوا فيه عدة ثياب، فقال رسول الله: لولا أنا سميناه في الهدى فعلنا انتهى.

وفي لفظ قال لهم سهيل بن عمرو: إن تريدوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل، فإن قبلها فامسكوا هذا الجمل وإلا فلا تتعرضوا له: أي فعرضوا عليه ذلك فأبى، وقال: لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقبلت المائة، وفرق لحم الهدى على الفقراء الذين حضروا الحديبية.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وفي رواية أنه بعث إلى مكة عشرين بدنة مع ناجية حتى نحرت بالمروة وقسموا لحمها على فقراء مكة، ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه وكان الحالق لرأسه خراش بن أمية الخزاعي الذي بعثه إلى قريش فعقروا جملهم وأرادوا قتله كما تقدم.

فلما رأى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نحروا وحلقوا توثبوا ينحرون ويحلقون، وقصر بعضهم كعثمان وأبي قتادة.

وفي كلام بعضهم أي وهو السهيلي أنه لم يقصر غيرهما، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة واحدة فقال «اللهم ارحم المحلقين» وفي لفظ «يرحم الله المحلقين» وفي لفظ «اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين؟ فقال: يرحم الله المحلقين أو قال: اللهم ارحم

المحلقيين أو اللهم اغفر للمحلقيين قالوا: والمقصرين فقال: يرحم الله المحلقيين والمقصرين» وفي رواية قال «والمقصرين في الرابعة، وقد قالوا له يا رسول الله لم ظهرت؟ أي أظهرت الترحم للمحلقيين دون المقصرين؟ قال لأنهم لم يشكوا: أي لم يبرحوا أن يطوفوا بالبيت، بخلاف المقصرين» أي لأن الظاهر من حالهم أنهم آخروا بقية شعورهم رجاء أن يحلقوها بعد طوافهم بالبيت.

وأرسل الله سبحانه وتعالى ريحاً عاصفة احتملت شعورهم فألقتها في الحرم، وفيه أنه تقدم أن الحديدية أكثرها في الحرم، فاستبشروا بقبول عمرتهم. وفي رواية «أنه بعد فراغه من الكتاب أمرهم بالنحر والحلق قال ذلك ثلاث مرات، فلم يبق منهم أحد، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم سلمة رضي الله عنها، أي وهو شديد الغضب فاضطجع. فقالت مالك يا رسول الله مراراً وهو لا يجيبها، ثم ذكر لها ما لقي من الناس وقال لها: هلك المسلمون؛ أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا، وفي لفظ قال: عجباً يا أم سلمة، ألا ترين إلى الناس؟ أمرهم بالأمر فلا يفعلونه، قلت لهم: انحروا واحلقوا وحلوا مراراً فلم يجبنني أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي، فقالت: يا رسول الله لا تلمهم، فإنهم قد داخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح، ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم «أحداً منهم وينحر بدنه ويحلق رأسه، ففعل كذلك: أي أخذ الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدن رافعاً صوته: بسم الله والله أكبر، ثم دخل قبة له من آدم أحمر ودعا بخراش فحلق رأسه ورمى شعره على شجرة فأخذه الناس وتحاصوه، وأخذت أم عمارة رضي الله عنها طاقات منه، فكانت تغسلها للمريض وتسقيه فيبراً. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا ثم انصرف قافلاً إلى المدينة أي بعد أن أقام بالحديبية تسعة عشر يوماً؛ وقيل عشرين يوماً».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

فلما كان بين مكة والمدينة أي بكراع الغميم أنزلت عليه سورة الفتح أي وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنزلت علي سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، وحصل للناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله جهدنا: أي أصابنا الجهد وهو المشقة من الجوع وفي الناس ظهر: أي إبل فانحره لناكل من لحمه، ولندهن من شحمه، ولنحتذي من جلوده، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تفعل يا رسول الله، فإن الناس إن يكن فيهم بقية ظهر أمثل، كيف بنا إذا لاقينا العدو غداً جوعاً ورجالاً، أي ثم قال: ولكن إن رأيت أن تدعو الناس إلى أن يجمعوا بقايا أزوادهم ثم تدعو فيها بالبركة، فإن الله سيبلغها بدعوتك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ابسطوا أنطاعكم وعبائكم ففعلوا، ثم قال: من كان عنده بقية من زاد أو طعام فليشره، ودعا لهم، ثم قال: قربوا أو عيتكم، فأخذوا ما شاء الله، أي وحشوا أو عيتهم وأكلوا حتى شبعوا وبقي مثله.

وفي مسلم «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة فأخذنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظهرينا، فأمرنا النبي صلى الله عليه وسلم فجمعنا من أزوادنا فبسطنا له نطعاً، فاجتمع زاد القوم علي النطع، فكان كربضة العنز» أي كقدر العنز وهي رابضة أي باركة «وكنا أربع عشرة مائة» وقال الراوي «فأكلنا حتى شبعنا ثم حشونا جربنا، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، والله لا يلقي الله عبد مؤمن بهما إلا حجب من النار، وقال لرجل من أصحابه: هل من وضوء» بفتح الواو: وهو ما يتوضأ به «فجاء رجل بإداوة» وهي الركوة «فيها نطفة من ماء» أي قليل من ماء، وقيل للماء نطفة لأنه ينطف أي يصب «فأفرغها في قده، أي ووضع راحته الشريفة في ذلك الماء» قال الراوي «فتوضأنا كلنا، أي الأربع عشرة مائة ندغفقه دغفقه» أي نصبه صباً شديداً «ثم جاء بعد ذلك ثمانية فقالوا: هل من طهور، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فرغ الوضوء» وإلى تكثير الطعام والماء أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله في وصف راحتها الشريفة:
أحييت المرملين من موت جهد
أعوز القوم فيه زاد وماء
أي حفظت على المحتاجين للزاد والماء حياتهم، فسلموا من موت قحط شديد، أعوز القوم في ذلك القحط زاد وماء. وقال الإمام السبكي في تائيته في تكثير الماء:
وعندي يمين لا يمين بأن في
يمينك وكفا حيثما السحب ضنت

ولما أنزلت عليه سورة الفتح، قال له جبريل عليه السلام نهئك يا رسول الله، وهنأه المسلمون وتكلم بعض الصحابة وقال: ما هذا بفتح، لقد صدونا عن البيت وصدّ هدينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك: بئس الكلام بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم، وسألوكم القضية ويربحوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله عليهم، وردكم الله تعالى سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتوح، أنسيتم يوم أحد {إذ تصعدون ولا تلوون على أحد} وأنا أدعوكم في أخراكم ونسيتم يوم الأحزاب {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون} فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا، وقال له بعض الصحابة: أي وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا لا، قال: فهو كما قال جبريل عليه السلام، فإنكم تآتون وتطوفون به.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

أقول: فيه أنه تقدم أن ذلك كان عن رؤيا لا عن وحي، إلا أن يقال: يجوز أن يكون جاءه الوحي بمثل ما رأى ثم أخبرهم بذلك والله أعلم.

وفي لفظ: لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقيين رؤوسهم ومقصرين وأخبرهم بذلك؛ فلما صدوا قالوا له: أين رؤياك يا رسول الله؟ فأنزل الله تعالى {لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق} الآية.
أقول: ولا يخالف هذا ما تقدّم أن الرؤيا المذكورة كانت بالمدينة، وأنها السبب الحامل على الإحرام بالعمرة، لجواز تكرار الرؤيا، وأن الأولى اقترن بها الوحي.

وذكر بعضهم أنه لما دخل مكة عام القضية وحلق رأسه، قال: هذا الذي وعدتكم، فلما كان يوم الفتح وأخذ المفتاح قال: ادعوا لي عمر بن الخطاب فقال: هذا الذي قلت لكم.
ولما كان في حجة الوداع ووقف بعرفة فقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: هذا الذي قلت لكم، وفيه أنه لم يتقدم في الرؤيا أنه يأخذ المفتاح، ولا أن يقف بعرفة. إلا أن يقال: يجوز أن يكون أخبر بذلك بعد الرؤيا، وأن المراد من ذلك مجرد دخول مكة؛ والله أعلم.
وأصابهم مطر في الحديبية لم يبلّ أسفل نعالهم، أي ليلاً، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن صلوا في رحالكم.
أي ووقع مثل ذلك في حين أنه أصابهم مثله، فأمر مناديه، أن ينادي: ألا صلوا في رحالكم.
وقال صبيحة ليلة الحديبية لما صلى بهم «أتدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال الله عز وجل: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بالله وكافر بالكواكب، ومن قال مطرنا بنجم كذا؛ وفي رواية: بنوء كذا وكذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي» وهذا عند أئمتنا مكروه لا حرام، أي لأن المراد بالإيمان شكر نعمة الله حيث نسبها إلى الله، والكفر كفران النعمة حيث نسبها لغيره، فإن اعتقد أن النجم هو الفاعل كان الكفر فيه على حقيقته وهو ضد الإيمان، والأول إنما نهي عنه لأنه كان من أمر الجاهلية، وإلا فهذا التركيب لا يقتضي أن يكون نوء كذا فاعلاً، ومن ثم لو قال مطرنا في نوء كذا: أي في وقت نوء كذا لم يكره. وكان ابن أبي سلول قال: هذا نوء الخريف، مطرنا بالشعري، أي وسمي الخريف خريفاً، لأنه تخترف فيه الثمار: أي تقطع. والنوء: سقوط نجم ينزل في الغرب مع الفجر وطلوع رقبه من المشرق من أنجم المنازل، وذلك يحصل في كل ثلاثة عشر يوماً إلا الجبهة النجم المعروف، فإن لها أربعة عشر يوماً، قال بعضهم: والأنواء ثمانية وعشرون نوءاً: أي نجماً، كان العرب يعتقدون أن من ذلك يحدث المطر أو الريح.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وفي الحديث «لو حبس الله القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله أصبح طائفة منهم به كافرين، يقولون مطرنا بنوء المجرة» بكسر الميم: نجم يقال هو الدبران.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه «إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها،

فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون مطرنا بنوء كذا». ونقل عن عمر رضي الله عنه «أنه قال: مطرنا بنوء كذا» ولعله لم يبلغه النهي عن ذلك حيث قال.

قال العارف بالله ابن عطاء الله: لعل هذا يكون ناهياً لك أيها المؤمن عن التعرّض إلى علم الكواكب واقتراناتها، وما نعا لك أن تدّعي وجود تأثيراتها. واعلم أن لله فيك قضاء لا بد أن ينفذه وحكماً لا بد أن يظهره، فما فائدة التجسس على غيب علام الغيوب، وقد نهانا سبحانه أن نتجسس على غيبه. وصارت تلك الشجرة التي وقعت عندها البيعة يقال لها شجرة الرضوان، وبلغ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أي في خلافته أن ناساً يصلون عندها، فتوعدهم وأمر بها فقطعت: أي خوف ظهور البدعة. ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في تلك المدّة، وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله، وهي أوّل من هاجر من النساء بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وإنها خرجت من مكة وحدها وصاحبت رجلاً من خزاعة حتى قدمت المدينة. وفي الاستيعاب: يقولون إنها مشيت على قدميها من مكة إلى المدينة ولا يعرف لها اسم إلا هذه الكنية، وهي أخت عثمان بن عفان رضي الله عنه لأمه.

ولما قدمت المدينة دخلت على أم سلمة رضي الله تعالى عنها وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وتخوّفت أن يردها رسول الله، فلما دخل على أم سلمة أعلمته بها، فرحب بأم كلثوم رضي الله تعالى عنها، فخرج أخوها عمارة والوليد في ردها بالعهد، فقالا: يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه. فلم يفعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، أي بعد أن قالت له: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف، فتردني إلى الكفار يفتنونني عن ديني ولا صبر لي، فنزل القرآن بنقض ذلك العهد بالنسبة للنساء لمن جاء منهم مؤمناً لكن بشرط امتحانهم بقوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات} أي في مدة هذا العهد والصلح {مهاجرات فامتحنوهن} قال السهيلي رحمه الله: وكان الامتحان أن تستحلف المرأة المهاجرة أنها ما هاجرت ناشزة، ولا هاجرت إلا لله ولرسوله، وفي لفظ: كانت المرأة إذا جاءت للنبي حلفها عمر رضي الله عنه بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض، وبالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا لرجل من المسلمين، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله، فإذا حلفت لم ترد صداقها إلى بعلها.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

أي ولما قدم الوليد وعمارة مكة أخبرا قريشاً بذلك، فرضوا أن تحبس النساء، ولم يكن لأم كلثوم رضي الله عنها زوج بمكة، فلما قدمت المدينة زوجها زيد بن حارثة.

وفي رواية: لما كان بالحديبية جاءته جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة، من جملتهن سبيعة بنت الحارث، فأقبل زوجها وهو مسافر المخزومي

طالباً لها، وأراد، مشركو مكة أن يرُدّوهن إلى مكة، فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن} فاستحلف وسيعة فحلفت، فأعطى زوجها مسافراً ما أنفق عليها، فتزوجها عمر رضي الله عنه. وهذا السياق يدل على أن الآية الكريمة نزلت بالحديبية، وما قبله يدل على أنها نزلت بالمدينة. وقد يقال: لا مانع من تكرار نزول الآية. وأما في غير مدة هذا العهد، أي بعد نسخه بفتح مكة فلم تستحلف امرأة جاءت إلى المدينة ولا يرد صداقها إلى بعلمها، ومن ثم ذهب أئمتنا إلى أنه إذا شرط رد المسلمة إليهم فسدت الهدنة كما تقدم، ولا يجب دفع المهر للزوج لو جاءت مسلمة، وقوله تعالى {وأتوهم} أي الأزواج {ما أنفقوا} أي من المهور محمول على الندب، والصارف له عن الوجوب كون الأصل براءة الذمة، لأن البضع ليس بمال للكافر.

وفيه أن طلب رد المهور للأزواج كان واجباً في مدة العهد خاصة كما علمت، وأنزل الله تعالى {ولا تمسكوا بعصم الكوافر} أي نهى المؤمنين عن البقاء على نكاح المشركات فطلق الصحابة رضي الله عنهم كل امرأة كافرة في نكاحهم، حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان له امرأتان فطلقهما يومئذ، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية، فكان في مدة العهد يرد الرجال ولا يرد النساء، أي بعد امتحانهم. فقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة أبو بصير رضي الله عنه، وكان ممن حبس بمكة، وكتب في رده أزهر بن عوف رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك وهو من الطلقاء، وهو عم عبد الرحمن بن عوف والأخنس بن شريق رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك كتاباً، وبعث به رجلاً من بني عامر يقال له خنيس ومعه مولى يهديه الطريق، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتاب، فقراه أبي رضي الله عنه على رسول الله، فإذا فيه: قد عرفت ما شارطناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً.. فانطلق إلى قومك، قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني عن ديني، قال: يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن حولك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق معهما، أي وصار المسلمون رضي الله عنهم يقولون له: الرجل يكون خيراً من ألف رجل يغرونه بالذين معه حتى إذا كانوا بذي الحليفة جلس رضي الله عنه إلى جدار ومعه صاحبه، فقال أبو بصير رضي الله عنه لأحد صاحبيه ومعه سيفه: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ قال: نعم انظر إليه إن شئت، فاستله أبو بصير رضي الله عنه، ثم علاه به حتى قتله.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وفي لفظ: إن الرجل هو الذي سل سيفه ثم هزه فقال: لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل؛ فقال له أبو بصير: أو صارم سيفك هذا؟

قال: نعم فقال: ناولنيه أنظر إليه فناوله؛ فلما قبض عليه ضربه به حتى برد؛ وقيل تناوله بفيه وصاحبه نائم فقطع إساره أي كتافه؛ ثم ضربه به حتى برد؛ فطلب المولى فخرج المولى سريعا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم والحصى يطن تحت قدميه. وفي لفظ: والحصى يطير من تحت قدميه من شدة عدوه، أي وأبو بصير في أثره حتى أزعه؛ قال: إن هذا الرجل قد رأى فزعاً؛ وفي لفظ قد رأى هذا ذعراً؛ فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد، قال له: ويحك مالك؟ قال قتل صاحبكم صاحبي وأفلت منه ولم أكد وإني لمقتول واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه؛ فإذا أبو بصير رضي الله عنه أناخ بغير العامري بباب المسجد؛ ودخل متوشحاً بالسيف، ووثب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله وقت ذمتك وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يفتن بي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب حيث شئت، فقال: يا رسول الله هذا سلب العامري؛ أي الذي قتلته رحله وسيفه فخمسه، فقال له: إذا خمسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك، ومن ثم قال فقهاؤنا: يجوز رد المسلم إلى الطالب له من غير عشيرته إذا قدر على قهر الطالب والهرب منه.

وعند ذلك ذهب أبو بصير رضي الله عنه إلى محل من طريق الشام تمر به عيرات قريش؛ واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة؛ أي إنهم لما بلغهم خبره رضي الله عنه؛ أي وأنه قال في حقه: ويل أمه مسعر حرب؛ أي لو كان معه رجال صاروا يتسللون إليه وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو رضي الله عنهما الذي رده يوم الحديبية وخرج من مكة في سبعين فارساً أسلموا فلحقوا بأبي بصير وكرهوا أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك المدة التي هي زمن الهدنة أي خوف أن يردهم إلى أهلهم، وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، فقطعوا مادة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم غير إلا أخذوها، حتى كتبت قريش له تسأله بالأرحام إلا أوامهم ولا حاجة لهم بهم.

وفي رواية أن قريشاً أرسلت أبا سفيان بن حرب رضي الله عنه في ذلك وأن قريشاً قالوا إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط، من جاء منهم إليك فأمسكه في غير حرج، أي وفي لفظ: من أتاه فهو آمن، فإنا أسقطنا هذا الشرط، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح إقراره، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وإلى أبي بصير رضي الله عنهما أن يقدموا عليه وأن من معهما من المسلمين يلحقوا ببلادهم وأهلهم، ولا يتعرضوا لأحد مّر بهم من قريش ولا لعيراتهم، فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وأبو بصير رضي الله عنه يموت، فمات وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل رضي الله عنه مكانه، وجعل عند قبره مسجداً.

وقدم أبو جندل رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ناس من أصحابه، ورجع باقيهم إلى أهلهم. وأمنت قريش على غيراتهم وعلمت أصحابه ورضي عنهم الذين عسر عليهم رد أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو أن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير مما أحبوه وأن رأيه أفضل من رأيهم، وعلموا بعد ذلك أن مصالحته كانت أولى، لأنها كانت سبباً لكثرة المسلمين، فإن الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام، فأسلم كثير منهم.

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين أسلموا في سنتي الفتح بناء على أن المدة كانت سنتين أو المعنى سنتين من الصلح: أي من مدته يعدلون الذين أسلموا قبلهما.

قال: وعن بعضهم: أي وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد. لقد رأيت سهيل بن عمرو رضي الله عنه بعد إسلامه في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينحرها بيده، ودعا الحلاق لحلق رأسه فأنظر إلى سهيل كلما يلقط من شعره يضعه على عينيه، وأذكر امتناعه أن يقرّ يوم الحديبية بأن يكتب {بسم الله الرحمن الرحيم} أي وأن محمداً رسول الله، فحمدت الله وشكرته الذي هداه للإسلام.

وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية ونحن محرمون قد حصرنا المشركون، وكان لي وفرة فجعلت الهوام: أي القُمَّل تتساقط على وجهي، فمرّ بي رسول الله « وفي رواية «ملت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والقُمَّل يتناثر على وجهي» وفي رواية «أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: اذنه، فدنوت يقول ذلك مرتين أو ثلاثاً» وفي رواية «أتى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية وأنا أوقد تحت برمة» وفي لفظ «قدر لي، فقال: كأنك تؤذيك هوامٌ رأسك؟ قال أجل، قال: أحلق واهد هدياً، فقال: ما أجد هدياً، فقال صم ثلاثة أيام» وفي لفظ «فقال: أيؤذيك هوامٌ رأسك» وفي لفظ «لعلك آذاك هوامٌ رأسك، قلت: نعم يا رسول الله، قال: ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، فأمرني أن أحلق» أي وفي رواية «أصابتنني هوامٌ في رأسي وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية، حتى تخوّفت على بصري، وأنزل الله تعالى هذه الآية {فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه} أي فحلق {ففدية من صيام أو صدقة أو نسك} فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صم ثلاثة أيام، أو تصدق بفرق» أي زاد في رواية «من زيب بين ستة مساكين» والفرق بفتح الفاء والراء: ثلاثة أصع، أي زاد في رواية «من تمر، لكل مسكين نصف صاع، أو انسك» أي اذبح «ما تيسر لك» انتهى. زاد في رواية: «أي ذلك فعلت أجزاً عنك فحلقت، ثم نسكت».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

أي وفي رواية الشيخين «انسك شاة، أو صم ثلاثة أيام، أو أطعم فرقاً من الطعام على ستة مساكين».

قال ابن عبد البر عامة الآثار عن كعب بن عجرة وردت بلفظ التخير، وهو نص القرآن، وعليه عمل العلماء في كل الأمصار وفتواهم، وما ورد من الترتيب في بعض الأحاديث لو صح كان معناه الاختيار أولاً فأولاً.

قال الزمخشري في (سفر السعادة): أمر في علاج القُمَّل بحلق الرأس لتفتح المسام، وتتصاعد الأبخرة، وتضعف المادة الفاسدة التي يتولد القمل منها. وذكر في الهدى أن أصول الطب ثلاثة: الحمية، وحفظ الصحة، والاستفراغ، فألى الأول شرع التيمم خوفاً من استعمال الماء. وإلى الثاني شرع الفطر في رمضان في السفر لئلا تتوالى مشقة السفر ومشقة الصوم. وإلى الثالث بحلق رأس المحرم إذا كان به أذى من قمل ليستفرغ المادة الفاسدة والأبخرة الرديئة.

وعند أئمتنا لا بد أن يكون ما يذبحه مجزئاً في الأضحية وبعد الحديبية قبل خيبر، وقيل بعد خيبر نزلت آية الظهر {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها}. وسبب ذلك: أن أوس بن الصامت لا عبادة بن الصامت كما قيل أي وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه، وفي لفظ: كان به لمم: أي نوع من الجنون. وكان فاقد البصر، قال لزوجته خولة بنت ثعلبة، وفي لفظ: بنت خويلد، وكانت بنت عمه وقد راجعته في شيء فغضب، فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي، وكان ذلك في زمن الجاهلية طلاقاً: أي كالطلاق في تحريم النساء ثم راودها عن نفسها، فقالت كلا لا تصل إليّ وقد قلت ما قلت حتى أسأل رسول الله . وفي لفظ: أنه لما قال لها أنت عليّ كظهر أمي أسقط في يده، وقال ما أراك إلا قد حرمت عليّ، انطلقني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسأله، فدخلت عليه وهو يمشط رأسه الشريف، أي عنده ماشطة، أي وهي عائشة رضي الله عنها تمشط رأسه.

وفي لفظ كان الظهر أشد الطلاق وأحرم الحرام إذا ظاهر الرجل من امرأته لم ترجع إليه أبداً، فأخبرته، فقال لها: ما أمرنا بشيء من أمرك ما أراك إلا قد حرمت عليه، فقالت: يا رسول الله والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر الطلاق وإنه أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فقال: حرمت عليه، فقالت أشكو إلى الله فاقتي وتركني إلى غير أحد وقد كبر سني ودق عظمي.

وفي لفظ أنها قالت: اللهم إني أشكو إليك شدة وحدتي وما شق عليّ من فراقه وما نزل بي وبصيتي، قالت عائشة رضي الله عنها: فلقد بكيت وبكى من كان في البيت رحمة لها ورقة عليها. وفي لفظ قالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا ذات مال وأهل، فلما أكل مالي وذهب شبابي ونفضت بطني وتفرق أهلي ظاهر مني، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أراك إلا قد حرمت عليه فبكت وصاحت وقالت: أشكو إلى الله فقري ووحدتي وصيبة صغاراً أن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وصارت ترفع رأسها إلى السماء، فبينما هو قد فرغ من شق رأسه وأخذ في الشق الآخر أنزل الله عليه الآية فسري عنه وهو يتبسم، فقال لها مريه فليحرر رقبة، فقالت: والله ما له خادم غيري، قال مريه فليصم شهرين

متابعين، فقالت: والله إنه لشيخ كبير إنه إن لم يأكل في اليوم مرتين يندر بصره: أي لو كان مبصراً، فلا ينافي ما تقدم أنه كان فاقد البصر، قال: فليطعم ستين مسكيناً، فقالت: والله ما لنا اليوم وقية، فقال: مريه فلينطلق إلى فلان يعني شخصاً من الأنصار أخبرني أن عنده شطر وسق من تمر يريد أن يتصدق به فليأخذه منه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

وفي رواية: مريه فليات أم المنذر بنت قيس فليأخذ منها شطر وسق من تمر فليتصدق به على ستين مسكيناً وليراجعك، ثم أتته فقصت عليه القصة فانطلق ففعل.

أي وفي لفظ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنا سأعينه بفرق من تمر فبكت، وقالت: وأنا يا رسول الله سأعينه بفرق آخر، قال: قد أصبت وأحسن، فذهبي فتصديقي به عنه، ثم استوصي بآبن عمك خيراً.

وفي رواية: لما قال لها: ما أعلم إلا قد حرمت عليه، قالت لها عائشة رضي الله عنها: وراءك، فتنحت، فلما نزل عليه الوحي وسري عنه قال: يا عائشة أين المرأة؟ قالت: ها هي هذه، قال: ادعها فدعتها، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: اذهبي فجيئي بزوجك، فذهبت فجاءت به، وأدخلته على النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو ضرب البصر، فقير، سيء الخلق فقال له أتجد رقبة، قال لا. وفي لفظ قال: ما لي بهذا من قدرة، قال: أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: والذي بعثك بالحق إني إذا لم أكل المرة والمرتين والثلاث يغشى عليّ. وفي لفظ إني إذا لم أكل في اليوم مرتين كل بصري: أي لو كان موجوداً، قال: أفستطيع أن تطعم ستين مسكيناً؟ قال لا، إلا أن تعينني بها، فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم فكفر عنه. وفي رواية أنه أعطاه مكتلاً يأخذ خمسة عشر صاعاً، فقال: أطعمه ستين مسكيناً، قال بعضهم: وكانوا يرون أن عند أوس رضي الله عنه مثلها حتى يكون لكل مسكين نصف صاع. وفيه أنه خلاف الروايات من أنه لا يملك شيئاً. فقال: على أفقر مني، فوالذي بعثك بالحق ما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه مني، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: اذهب به إلى أهلك، وهذا أول ظهار وقع في الإسلام.

ومر عمر رضي الله تعالى عنه بخولة هذه أيام خلافته، فقالت له: قف يا عمر، فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها، وأطالت الوقوف، وأغلظت له القول: أي قالت له هيهات يا عمر، عهدتك وأنت تسمي عميراً وأنت في سوق عكاظ ترعى القيان بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشى الفوت، فقال لها الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه: دعها. وفي رواية فقال له قائل: حبست الناس لأجل هذه العجوز، قال: ويحك، وتدرى من هذه؟ قال لا، قال: هذه امرأة قد سمع الله شكواها من فوق سبع سموات،

هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تنقضي حاجتها.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

قيل وفي هذه السنة التي هي سنة ست حرمت الخمر، وبه جزم الحافظ الدمياطي، وقيل حرمت سنة أربع، أي وبدل له ما تقدم من أراقة الخمر وكسر جررها في بني قريظة، وقيل في السنة الثالثة، وقيل إنما حرمت في عام الفتح قبل الفتح.

قال بعضهم: حرمت ثلاث مرات: أي نزل تحريمها ثلاث مرات كان المسلمون يشربونها حلالاً، أي لغيره، أما هو فحرمت عليه قبل البعثة بعشرين سنة، فلم تبح له قط.

وقد جاء «أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأصنام شرب الخمر» وتقدم أن جماعة حرّموها على أنفسهم وامتنعوا من شربها، ولا زالت حلالاً للناس حتى نزل قوله تعالى {يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس} فعند ذلك اجتنبها قوم لوجود الإثم وتعاطاها آخرون لوجود النفع، أي وكانوا ربما شربوها وصلوا، فلما نزل قوله تعالى {لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى} امتنع من كان يشربها لأجل النفع من شربها في أوقات الصلاة، ورجع قوم منهم عن شربها حتى في غير أوقات الصلاة، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة.

وسبب نزول هذه الآية ما جاء عن علي كرم الله وجهه، قال: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً: أي وشرباً من الخمر، فأكلنا وشربنا، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة: أي الجهرية، وقدموني فقرأت {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون} ونحن نعبد ما تعبدون، إلى أن قلت: وليس لي دين وليس لكم دين. ثم نزلت الآية الأخرى الدالة على تحريمها مطلقاً وهي {إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون} إلى قوله {فهل أنتم منتهون} أي ولعل هذه الآية الأخيرة هي التي عنها أنس رضي الله عنه بقوله كما في البخاري: كنت ساقياً القوم الخمر بمنزل أبي طلحة، أي وهو زوج أمه رضي الله عنهم، ونزل تحريم الخمر، فمرّ مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة أخرج فانظر ما هذا الصوت؟ قال: فخرجت، فقلت: هذا مناد ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت، فقال لي: اذهب فأهرقها، فقال بعض القوم: قتل قوم: أي في أحد وهي في بطونهم. وفي رواية قالوا: يا رسول الله كيف بمن مات من أصحابنا، وكان شربها، فأنزل الله تعالى {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا} أي لأن ذلك كان قبل تحريمها مطلقاً.

وقد جيء لعمر رضي الله عنه بشخص من المهاجرين الأولين قد سكر، فأراد عمر جلده فاستدل على عمر بهذه الآية، فقال عمر لمن حضره ألا تردون عليه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت عذراً للماضين وحجة على الباقين، ثم استشار عمر رضي الله عنه علياً كرم الله وجهه، فأشار عليه

أن جلده ثمانين جلدة: ولعل هذا الشخص هو قدامة بن مطعون، وتقدمت قصته في بدر وتقدم في ذلك أن الذي ردّ عليه بذلك عمر لا ابن عباس رضي الله عنهم وكذا وقع لأبي جندل رضي الله عنه مثل ذلك، وأنه أشفق: أي خاف من ذلك، فلما بلغ عمر رضي الله عنه كتب إليه: إن الذي زين إليك الخطيئة هو الذي حذر: أي منع عليك التوبة {بسم الله الرحمن الرحيم حم؟ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب} الآية.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 688

غزوة خيبر

على وزن جعفر، سميت باسم رجل من العماليق نزلها يقال لها خيبر وهو أخو يثرب: أي الذي سميت باسمه المدينة كما تقدم. وفي كلام بعضهم: الخيبر بلسان اليهود الحصن ومن ثم قيل لها خيبر لاشتمالها على الحصون، وهي مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع ونخل كثيرة، بينها وبين المدينة الشريفة ثمانية برد كما في سيرة الحافظ الدمياطي، ومعلوم أن البريد أربعة فراسخ، وكل فرسخ ثلاثة أميال.

ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية أقام شهراً وبعض شهر: أي ذا الحجة ختام سنة ست. وأقام من المحرم افتتاح سنة سبع أياماً؛ قيل عشرين يوماً أو قريباً من ذلك، ثم خرج إلى خيبر، أي وهذا ما ذهب إليه الجمهور.

ونقل عن الإمام مالك رضي الله عنه أن خيبر كانت سنة ست؛ وإليه ذهب الإمام ابن حزم. وفي التعليقة للشيخ أبي حامد أنها كانت سنة خمس. قال الحافظ ابن حجر: وهو وهم، ولعله انتقل من الخندق إلى خيبر.

قال: وقد استنفر من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه، وجاءه المخلفون عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة، فقال: لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد، فأما الغنيمة فلا: أي لا تعطوا منها شيئاً، ثم أمر منادياً ينادي بذلك فنادى به. قال أنس رضي الله عنه: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة وهو زوج أم أنس كما تقدم حين أراد الخروج إلى خيبر التمسوا غلاماً من غلمانكم يخدمني، فخرج أبو طلحة مردفي وأنا غلام قد راهقت، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل خدمته فسمعته كثيراً ما يقول: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضع الدين وغلبة الرجال اهـ.

أقول: وهذا السياق يدل على أن أول خدمة أنس رضي الله عنه له حينئذ، وهو يخالف ما سبق أن عند قدومه المدينة جاءت به أمه وقالت: هذا ابني، وهو غلام كيس، وكان عمره عشر سنين، وقيل تسع سنين، وقيل ثمان سنين. ففي مسلم عن أنس قال «جاءت بي أمي أم أنس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أزرنتني بنصف خمارها وردتني بنصفه، فقالت: يا رسول الله هذا أنيس ابني أتيتك به لخدمك فادع الله له فقال: اللهم أكثر ماله وولده». وقد يقال: لا مخالفة، لأنه يجوز أن يكون إنما قال لأبي طلحة ما ذكر رجاء أن يأتي له بمن هو أقوى من أنس على السفر شفقة على أنس، ومن ثم لم يخرج معه.

وفيه أنه خرج معه في بدر، فقد جاء «أنه قيل لأنس رضي الله عنه: أشهدت

بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا أم لك، وأين غبت عن بدر؟».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726
وقد يقال: جاز أن يكون عرض لأنس رضي الله عنه حين خروجه إلى خيبر ما يقتضي الشفقة عليه في عدم إخراجه معه والله أعلم.

واستخلف على المدينة نميلة، وقيل سباع بن عرفطة، أي وصحح وكان الله وعده وهو بالحديبية: أي عند منصرفه منها في سورة الفتح بمغانم بقوله تعالى {وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها} أي مغانم خيبر، وخرج معه من نسائه أم سلمة رضي الله تعالى عنها، وقال في سيره لعامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنهما: انزل فحدثنا من هناتك، وفي رواية: من هنيئاتك، وفي لفظ: من هنيئاتك بقلب الهاء الثانية ياء، أي من أراجيزك وأشعارك. وفي لفظ: انزل فحرك بنا الركاب، فقال: يا رسول الله قد تولى قولي: أي الشعر، فقال له عمر رضي الله عنه: اسمع وأطع، فنزل يرتجز بقوله رضي الله تعالى عنه:

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا الأبيات

وفي مسلم «اللهم لولا أنت ما اهتدينا» قيل وصوابه في الوزن لا هم، أو يا الله ، أو والله لكن في تلك الأبيات فاغفر فداء لك ما اقتفينا: أي فاغفر ما اكتسبنا، وأصل الاقتفاء الاتباع.

وفي خطاب الباري عز وجل بفداء لك ما لا ينبغي لأنه لا يقال للباري عز وجل فديتك لأن ذلك إنما يستعمل في مكروه متوقع حلوله بالمفدي بالفتح، فيجعل المفدي بالكسر نفسه فداء له من ذلك، فيبذل نفسه عن نفسه. وأجيب عن ذلك بأن الشاعر لم يرد ذلك، بل أراد أن يبذل نفسه رضاه سبحانه وتعالى.

وعند إنشاده الأبيات المذكورة قال له النبي صلى الله عليه وسلم يرحمك ربك، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله وجبت، أي الشهادة يا رسول الله، لولا: أي هلا أمتعتنا به؟ أي أبقيته لنا لنتمتع به، ومنه أمتعني الله بيقائك: أي هلا أخرجت الدعاء له بذلك إلى وقت آخر، لأنه ما قال ذلك لأحد في مثل هذا الموطن إلا واستشهد.

وفي لفظ أن القائل له أسمعنا رجل من القوم. قال الحافظ ابن حجر: لم أقف على اسمه صريحاً، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعه قال: من هذا السائق؟ قالوا: عامر، قال: يرحمه الله، فقتل في هذه الغزاة رجع إليه سيفه فقتله، فإنه أراد أن يضرب به ساق يهودي فجاءت ذبابته في ركبته فمات من ذلك رضي الله عنه فقال الناس: قتله سلاحه، وفي رواية: قتل نفسه أي فليس بشهيد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه لشهيد وصلّى عليه والمسلمون. وفي رواية قال سلمة بن الأكوع: يا رسول الله فداك أبي وأمي زعموا أن أخي عامراً حبط عمله. وفي لفظ: يزعم أسيد بن حضير وجماعة

من أصحابك أن عامراً حبط عمله إذ قتل بسيفه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذب من قال: أي أخطأ في قوله، وإن له أجرين وجمع بين أصبعيه، وفي رواية إنه لشهيد. وفي لفظ إنه لجاهد مجاهد. وفي لفظ مات جاهداً مجاهداً والجاهد الجاد في أمره، فلما قام بوصفين كان له أجران، وقيل هو من باب: جاد مجد، وشعر شاعر، فهو تأكيد، وكون عامر أخا سلمة هو خلاف ما تقدم أنه عمه وهو الصحيح المشهور.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

قال في النور: ويمكن الجمع بأن يكون عمه من النسب وأخاه من الرضاة، أي وحينئذ يكون هذا محمل قول ابن الجوزي رحمه الله: من الإخوة الذين حدثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عامر وسلمة ابنا الأكوغ. وفي فتح الباري عن بعض الصحابة: فلما وصلنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب

شاكي السلاح بطل مجرب

إذ الحروب أقبلت تلتهب فبرز له عامر رضي الله عنه يقول:

قد علمت خيبر أني عامر

شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر رضي الله عنه، فذهب عامر يسفل لمرحب، أي يضربه من أسفل فعاد سيفه على نفسه: أي أصاب عين ركة عامر فمات من ذلك، الحديث.

وكون عامر ارتجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي حدا به لا ينافي ما جاء أن البراء ابن مالك كان حسن الصوت وكان يرتجز لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أسفاره، لأن المراد في غالب أو في بعض أسفاره كما صرح به بعض الروايات.

وجاء أنه قال له: أي للبراء: إياك والقوارير، وهو يدل على أنه كان يرتجز لنسائه، وهو يخالف أن البراء كان حادي الرجال وأنجشة حادي النساء، إلا أن يقال: جاز أن يكون البراء حدا للنساء في بعض الأسفار أو في بعض الأحيان، وأنجشة كان في الغالب.

قال بعضهم: كان أنجشة رضي الله تعالى عنه عبداً أسود، وكان حسن الصوت بالحداء إذا حدا أعنقت الإبل، أي سارت العنق وأسرعت، فلما حدا بأمهات المؤمنين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنجشة رويدك، رفقا بالقوارير.

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر وكان وقت الصبح قال لأصحابه رضي الله عنهم قفوا، ثم قال، أي وفي لفظ قال لهم: قولوا «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين فإننا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، اقدموا بسم الله» أي وفي لفظ «ادخلوا على بركته تعالى» وكان يقولها لكل قرية دخلها. أي وجاء أنه لما توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير لله أكبر، لا إله إلا الله، فقال رسول الله «اربعوا على أنفسكم» أي ارفقوا

بأنفسكم، لا تبالغوا في رفع أصواتكم «فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم» قال عبدالله بن قيس رضي الله عنه: «وكنت خلف دابته فسمعتني أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فقال يا عبدالله بن قيس، قلت لبيك يا رسول الله، قال: ألا أدلك على كلمة من كنز الجنة؟ قلت بلى يا رسول الله فذاك أبي وأمي، قال لا حول ولا قوة إلا بالله».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

ويحتاج إلى الجمع بين هذا وبين أمره بأن أصحابه يرفعون أصواتهم بالتلبية. وقد يقال: المنهي عنه هنا الرفع الخارج عن العادة الذي ربما أدى بدليل قوله «اربعوا عن أنفسكم» أي ارفقوا بها كما تقدم، فلا منافاة. ولما أبصر عمالها وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم قالوا: محمد والخميس: أي الجيش العظيم معه، قيل له الخميس لأنه خمسة أقسام التقدمة والساقة والميمنة والميسرة وهما الجناحين والقلب، وأدبروا هراباً. قال: وذكر أنه كان بها عشرة آلاف مقاتل، وأنهم كانوا لا يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم حين بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم وهم يخرجون ويصطفون صفوفاً ثم يقولون محمد يغزونا هيهات هيهات.

وذكر أن عبدالله بن أبي ابن سلول أرسل إليهم يخبرهم بأن محمداً سائر إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، وأخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه، إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما كانت الليلة التي نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحتها بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس، فأصبحوا: أي قاموا من نومهم وأفتدتهم تخفق، وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم الفؤوس ويقال لها الكرازين والمساحي ومعهم المكاتل، أي وهي القفف الكثيرة، فلما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوا هارين إلى حصونهم هـ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين، أي وبذلك استدل على جواز الاقتباس من القرآن، وإنما قال خربت خيبر، لأنه لما رأى آلة الهدم التي هي الفؤوس والمساحي تفاعل بأن حصونهم ستخرب، أو أخذ ذلك من اسمها، أو أن ذلك دعاء بلفظ الخبر، قال الإمام النووي رحمه الله: والأصح أنه أعلمه الله بذلك ويوافق ما في فتح الباري.

ويحتمل أن يكون قال ذلك بطريق الوحي ويؤيده قوله «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» أي لأنه نزل بساحتهم، وهي في الأصل الفضاء بين الأبنية.

وابتداً رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم بحصون النطاة قبل حصون الشق وقيل بحصون الكثيبة، أي لأنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون الكثيبة، وجمعوا المقاتلة في حصون النطاة، وكان نزل قريباً من حصون النطاة، فجاءه الحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول

الله إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم، وإن كان الرأي تكلمنا؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الرأي، فقال: يا رسول الله إن أهل النطااة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، وهو أسرع لانحطاط نبلهم، ولا نأمن من بياتهم يدخلون في حمرة النخل. أي النخل المجتمع بعضه على بعض، تحول يا رسول الله، فقال: أشرت بالرأي إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا. ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة رضي الله عنه فقال: انظر لنا منزلاً بعيداً، فطاف محمد رضي الله عنه، وقال: يا رسول الله وجدت لك منزلاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: على بركة الله وتحول لما أمسى، وأمر الناس بالتحول.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أي وفي لفظ: إن راحلته قامت تجرّ بزمامها فأدركت لتردّ، فقال دعوها فإنها مأمورة، فلما انتهت إلى موضع من الصخرة بركت عندها، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصخرة وتحول الناس إليها واتخذوا ذلك الموضع معسكراً. وفي الأصل أنه نزل بذلك ليحول بين أهل خيبر وبين غطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم على رسول الله .

وقد يقال: لا مخالفة بين هذه الروايات الثلاث فليتأمل. وابتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم هناك مسجداً صلى به طول مقامه بخيبر، أي وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطااة فوق المسلمون في قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ثم نهاهم عن القطع، فما قطع من نخيل خيبر غيرها. قال: قيل وقاتل يومه ذلك أشد القتال وعليه درعان وبيضة ومغفر وهو على فرس يقال له الظرب، وفي يده قناة وترس.

وما قيل إنه يوم خيبر كان على حمار مخطوم برس من ليف وتحتة إكاف من ليف. أي ففي مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه. رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وهو متوجه إلى خيبر، جاز أن يكون ركب ذلك الحمار في الطريق وحال القتال ركب ذلك الفرس انتهى.

أقول: يرشد إلى هذا الجمع قوله متوجه إلى خيبر، وظاهر هذا الكلام أنه باشر القتال بنفسه، وتقدم أنه لم يباشر القتال بنفسه إلا في أحد. ويبعد أن يكون باشر القتال بنفسه ولم يقتل أحداً، إذ لو قتل أحداً لذكر لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله. وقد يكون المراد بقولهم وقاتل بنفسه: أي قاتل جيشه، ويدل لذلك ما في الإمتاع: وألح على حصن ناعم، أي وهو من حصون النطااة بالرمي، ويهود تقاتل ورسول الله صلى الله عليه وسلم على فرس يقال له الظرب وعليه درعان ومغفر وبيضة وفي يده قناة وترس.

وقد دفع لواءه لرجل من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، فدفعه إلى آخر من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، وخرجت كتائب اليهود يقدمهم ياسر، فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في موقفه، فاشتد ذلك على رسول الله وأمسى مهموماً والله أعلم.

وفي ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة رضي الله عنهما برحى ألقيت عليه من ذلك الحصن، ألقاها عليه مرحب، وقيل كنانة بن الربيع. وقد يجمع بأنهما اجتمعا على ذلك، وسيأتي ما يدل على أن قاتله غيرهما.

وقد يقال: لا مانع من أن يكونوا: أي الثلاثة تجمعوا على قتله، أي فإن محمود بن مسلمة رضي الله عنه كان قد حارب حتى أعياه الحرب وثقل السلاح وكان الحر شديداً، فأنحاز إلى ظل ذلك الحصن فألقى عليه حجر الرحي فهشم البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه أي وندرت عينه، فأدركه المسلمون، فأتوا به النبي صلى الله عليه وسلم فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقه فمات رضي الله عنه من شدة الجراحة، وجاء أخوه محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن اليهود قتلوا أخي محمود بن مسلمة فقال «لا تمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإنكم لا تدرن ما تبتلون به منهم، فإذا لقيتموه فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت، ثم الزموا الأرض جلوساً، فإذا غشوكم فانهضوا وكبروا».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أي وفي سياق بعضهم ما يدل على أنه مكث سبعة أيام يقاتل أهل حصون النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة رضي الله عنه للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفان، فإذا أمسى رجع إلى ذلك المحل، ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه، وكان يناوب بين أصحابه في حراسة الليل، فلما كانت الليلة السادسة من السبع استعمل عمر رضي الله عنه فطاف عمر رضي الله عنه بأصحابه حول العسكر وفرقهم، فأتي برجل من يهود خيبر في جوف الليل، فأمر به عمر رضي الله عنه أن يضرب عنقه فقال: اذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه، فأمسك عنه وانتهى به إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده يصلي فسمع كلام عمر فسلم وأدخله عليه، فدخل باليهودي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودي: ما وراءك؟ فقال: تؤمنني يا أبا القاسم؟ فقال: نعم، قال خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة قال: فأين يذهبون؟ قال: إلى الشق يجعلون في ذراريهم ويتهينون للقتال، ولعل المراد ما أبقوه من ذراريهم، فلا ينافي ما تقدم من أنهم أدخلوا أموالهم وعيالهم في حصون الكتيبة، أو أن ذلك المخبر أخبر بحسب ما فهم أنهم يجعلون ذراريهم في الشق والحال أنهم إنما يذهبون ليجعلوا ذراريهم في حصون الكتيبة فليأمل.

وفي هذا الحصن الذي هو الحصن الصعب من حصون النطاة في بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله، قال اليهودي إن شاء الله أوقفك عليه فإنه لا يعرفه غيري. وأخرى، قيل: ما هي؟ قال يستخرج المنجنيق، وينصب على الشق، ويدخل الرجال تحت الدبابات، فيحفروا الحصن، فتفتحه من يومك، وكذلك تفعل بحصون الكتيبة، ثم قال: يا أبا القاسم احقن دمي، قال: أنت آمن، قال: ولي زوجة فهبها لي، قال هي لك، ثم دعاه إلى

الإسلام فقال أنظرني أياماً، ثم قال لمحمد بن مسلمة رضي الله عنه «لأعطين الراية» إلى رجل يحب الله ورسوله لا يولي الدبر؛ يفتح الله عز وجل على يده فيمكنه الله من قاتل أخيك» وعند ذلك لم يكن من الصحابة رضي الله عنهم أحد له منزلة عند النبي صلى الله عليه وسلم إلا يرجو أن يعطاها.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم، ولعل ذلك لا ينافي ما جاء «أن وفد ثقيف لما جاؤوه قال لهم لتسلمن أو لأبعثن إليكم رجلاً مني، وفي رواية: مثل نفسي فليضربن أعناقكم وليسين ذرايكم، وليأخذن أموالكم، قال عمر رضي الله عنه فوالله ما تمنيت الإمارة إلا يومئذ، وجعلت أنصب صدري له رجاء أن يقول هو هذا، فالتفت إلى علي كرم الله وجهه فأخذه بيده وقال: هو هذا، هو هذا».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقد يقال: لا يلزم من محبة الشيء تمنيه بخلاف العكس. ففي هذه الغزاة أحب الإمارة وما تمنّاها، وفي وفد ثقيف المتأخر عن هذه الغزاة تمنّاها لأن الوصف في ذلك أبلغ من الوصف هنا فليتأمل.

ويروى «أن علياً كرم الله وجهه لما بلغه مقالته: أي في خير، قال: اللهم لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فبعث إلى علي كرم الله وجهه وكان أرمم شديد الرمدم»: أي وكان قد تخلف في المدينة ثم لحق بالقوم «أي فليل له: إنه يشتكى عينيه، فقال من يأتيني به؟ فذهب إليه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه وأخذ بيده يقوده حتى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم قد عصب عينيه فعقد له اللواء: أي لواءه الأبيض.

فعن ابن إسحاق وابن سعد: لم تكن الرايات إلا يوم خيبر، أي فإنه فرق الرايات يومئذ بين أبي بكر وعمر والحباب بن المنذر وسعد بن عباد رضي الله عنهم، وإنما كانت الألوية، وكانت راية رسول الله صلى الله عليه وسلم سوداء من برد لعائشة رضي الله عنها تدعى العقاب.

وفي كلام المقرئ: لما ذكر رتب الرياسة في الجاهلية ذكر أن العقاب كان في الجاهلية راية تكون لرئيس الحرب وجاء الإسلام وهي عند أبي سفيان، وجاء الإسلام والسدانة واللواء عند عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار. وفي سيرة الحافظ الدمي رضي الله عنه: وكانت له راية سوداء مربعة من نمره مخملة يقال لها العقاب، وكان له راية صفراء، ولواؤه أبيض دفعه إلى علي كرم الله وجهه وفيه أن ذلك اللواء يقال له العقاب.

وفي سيرة الدمي رضي الله عنه، وكانت ألويته بيضاء وربما جعل فيها الأسود ولعل السواد كان كتابة في ذلك العلم، ولعل هذا اللواء الذي فيه الأسود هو المعني بما جاء في بعض الروايات «كان له لواء أبيض مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي بالسواد، ولعله محمل قول بعضهم: كان له لواء أغبر، وربما كان من خز بعض نسائه «فقال علي كرم الله وجهه: يا رسول الله إنني أرمم كما ترى، لا أبصر موضع قدمي، فتفل، وفي لفظ: بصق في عينيه،

أي بعد أن وضع رأسه في حجره» وفي لفظ «فتفل في كفه وفتح له عينيه فدلكتها فبرأ حتى كان لم يكن بهما وجع» قال علي رضي الله عنه فما رمدت بعد يومئذٍ: وفي لفظ فما رمدت ولا صدعت، وفي لفظ: فما اشتكيتها حتى الساعة.

وفي هذا السياق لطيفة وهي: أن من طلب شيئاً أو تعرض لطلبه يحرمه غالباً وأن من لم يطلب شيئاً لم يتعرض لطلبه ربما وصل إليه، وقد أشار إلى ذلك بقوله «رحم الله أخي يوسف، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته، ولكن لأجل سؤاله إياه ذلك آخر عنه سنة» أي وبعد السنة دعاه الملك وتوجه ورداه وقلده بسيفه وأمر له بسرير من ذهب مكلل بالدر والياقوت، وضرب له عليه حلة من إستبرق وفوض إليه أمر مصر. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقد قيل: لو وقعت قلنسوة من السماء لا تقع إلا على رأس من لا يريدتها: زاد في رواية عن علي كرم الله وجهه «أنه دعا له بقوله: اللهم اكفه الحر والبرد قال علي كرم الله وجهه: فما وجدت بعد ذلك اليوم لا حراً ولا برداً»، أي فكان يلبس في الحر الشديد القباء المحشو الثخين، ويلبس في البرد الشديد الثوبين الخفيفين. وفي لفظ: الثوب الخفيف فلا يبالي بالبرد.

وقد يخالف ذلك ما حكاه بعضهم، قال: دخل رجل على عليّ كرم الله وجهه وهو يرعد تحت سمل قطيفة: أي قطيفة خلقة، فقال: يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك في هذا المال نصيباً وأنت تصنع بنفسك هكذا؟ فقال: والله لا أرزؤكم من مالكم، وإنما لقطيفتي التي خرجت بها من المدينة. وقد يقال: لا مخالفة، لأنه يجوز أن تكون رعدته رضي الله عنه ليست من البرد خلاف ما ظنه السائل لجواز أن تكون لحمى أصابته في ذلك الوقت، وقد أشار إلى التفل صاحب الهمزية رضي الله تعالى عنه بقوله:

وعليّ لما تفلت بعينيه

ه وكلتاها معاً رمداً

فغدا ناظراً بعيني عقاب

في غزاة لها العقاب لواء

وفي قوله: لأدفعن الراية، إطلاق الراية على اللواء، ومن ذلك قوله لعليّ كرم الله وجهه: خذ هذه الراية، وتقدم أن الراية قد يطلق عليها لواء.

هذا، وفي كلام بعضهم أن أبا سفيان رضي الله عنه كانت إليه الراية المعروفة بالعقاب التي كانت لا يحبسها إلا رئيس إذا حميت الحرب، هذا كلامه، فلعل

تسمية رايته بالعقاب لكونها كذلك «فقال عليّ كرم الله وجهه: علام أقاتلهم يا رسول الله؟ قال: أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم».

وفي رواية «لما أعطاه الراية قال له: امش ولا تلتفت، فسار شيئاً ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله علام أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم

وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى» أي حساب بواطنهم وسرائرهم على الله، لأنه المطلع وحده على ما فيها من إيمان خالص أو نفاق وكفر. زاد في رواية «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» أي تتصدق بها في سبيل الله، فقد جعل عصمة الدم بالنطق بالشهادتين، لكنه لا يقَرُّ من نطق بهما على ترك الصلاة ولا على ترك الزكاة، ومن ثم قال له «وأخبرهم بما يجب عليهم» وفي لفظ «قال له: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أي وعن حذيفة رضي الله عنه «لما تهيأ عليّ كرم الله وجهة يوم خيبر للحملة، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا علي والذي نفسي بيده إنَّ معك من لا يخذلك، هذا جبريل عليه السلام عن يمينك بيده سيف لو ضرب به الجبال لقطعها، فاستبشر بالرضوان والجنة، يا عليّ إنك سيد العرب وأنا سيد ولد آدم».

وفي رواية «أنه كان يعطي الراية كل يوم واحداً من أصحابه وبيعته، فبعث أبا بكر رضي الله عنه، فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد، ثم بعث عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من الغد: أي برايته، فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد، ثم بعث رجلاً من الأنصار فقاتل ورجع ولم يكن فتح، فقال عليه الصلاة والسلام: لأعطين الراية أي اللواء غداً رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه، وليس بفاثر. وفي لفظ: كرار غير فرار، فدعا علياً كرم الله وجهه وهو أرمم فتفل في عينيه، ثم قال: خذ هذه الراية غامض بها حتى يفتح الله عليك، أي ودعا له ولمن معه بالنصر.

وفي رواية «أنه ألبسه درعه الحديد، وشدّ ذا الفقار، أي الذي هو سيفه في وسطه وأعطاه الراية ووجهه إلى الحصن، فخرج عليّ كرم الله وجهه بها يهرول حتى ركزها تحت الحصن فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: علي بن أبي طالب، فقال اليهودي: علونم وحق ما أنزل على موسى، ثم خرج إليه أهل الحصن، وكان أوّل من خرج منهم إليه الحارث أخو مرحب وكان معروفاً بالشجاعة، فأنكشف المسلمون وثبت علي كرم الله وجهه فتضاربا، فقتله علي وانهزم اليهود إلى الحصن، ثم خرج إليه مرحب فحمل مرحب عليه وضربه فطرح ترسه من يده، فتناول علي كرم الله وجهه باباً كان عند الحصن فتترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن، ثم ألقاه من يده: أي وراء ظهره ثمانين شبراً».

قال الراوي: فجهدت أنا وسبعة نفر على أن نقلب ذلك الباب فلم نقدر. قال بعضهم: في هذا الخبر جهالة وانقطاع ظاهر، قال: وقيل ولم يقدر على حمله أربعون رجلاً، وقيل سبعون.

وفي رواية أن علياً كرم الله وجهه لما انتهى إلى باب الحصن اجتذب أحد أبوابه فألقاه بالأرض، فاجتمع عليه بعده سبعون رجلاً فكان جهداً أن أعادوه مكانه، وقيل حمل الباب على ظهره حتى صعد المسلمون عليه ودخلوا الحصن. قال بعضهم: وطرق حديث الباب كلها واهية، وفي بعضها قال الذهبي: إنه منكر، وفي الإمتاع: وزعم بعضهم أن حمل عليّ كرم الله وجهه الباب لا أصل له، وإنما يروى عن رعاغ الناس. وليس كذلك، ثم ذكر جملة ممن خرّجه من

الحفاظ.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وجاء أن مرحباً لما رأى أن أخاه قد قتل خرج سريعاً من الحصن في سلاحه،
أي وقد كان لبس درعين وتقلد بسيفين واعتم بعمامتين ولبس فوقهما مغفراً
وحجراً قد ثقبه قدر البيضة ومعه رمح لسانه ثلاثة أسنان وهو يرتجز ويقول من
آيات:

قد علمت خير أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب

ومعنى شاكي السلاح: تام السلاح، ومعنى مجرب: أي معروف بالشجاعة وقهر
الفرسان، ثم صار يقول: هل من مبارز؟ فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: من لهذا؟ قال محمد بن مسلمة رضي الله عنه: أنا له يا رسول الله، أنا
الموتور: أي الذي قتل له قتيل فلم يؤخذ بثأره الثائر، قتل أخي بالأمس، قال:
فقم إليه، اللهم أعنه عليه، فقتله محمد بن مسلمة رضي الله عنه، أي: فإن
مرحباً حمل على محمد بن مسلمة فاتقاه بدرقته فوقع سيف مرحب فيها
فغضت به وأمسكته، فضربه محمد رضي الله عنه فقتله. ويدل لذلك قول
الإمام المزني رحمه الله في المختصر: إن النبي صلى الله عليه وسلم يوم
خيبر نفل محمد بن مسلمة سلب مرحب: سيفه ورمحه ومغفره وبيضته، ووجد
على سيفه مكتوب: هذا سيف مرحب، من يصبه يعطب.
وقيل القاتل له عليّ كرم الله وجهه، وبه جزم مسلم رحمه الله في صحيحه.
قال بعضهم: والأخبار متواترة به. وقال ابن الأثير: الصحيح الذي عليه أهل
السير والحديث أن علياً كرم الله وجهه قاتله. وفي الاستيعاب: والصحيح الذي
عليه أكثر أهل السير والحديث أن علياً قاتله. ويروى أن علياً كرم الله وجهه
ورضى الله عنه لما خرج إليه ارتجز بقوله.
أنا الذي سمّني أمي حيدر
ضرغام أجام وليث قسوره
وقيل بدله:

* كليث غابات كربه المنظره * أي فإن أم علي كرم الله وجهه سمّته أسداً
باسم أبيها وكان أبوه أبو طالب غائباً، فلما قدم كره ذلك وسماه علياً، أي ومن
أسماء الأسد حيدرة، والحيدرة: الغليظ القوي. وقيل لقب بذلك في صغره لأنه
كان عظيم البطن ممتلئاً لحماً، ومن كان كذلك يقال له حيدرة.
ويقال إن ذلك كان كشفاً من علي كرم الله وجهه، فإن مرحباً كان رأى في
تلك الليلة في المنام أن أسداً افترسه فذكره علي كرم الله وجهه بذلك ليخيفه
ويضعف نفسه.

ويروى أن علياً كرم الله وجهه ضرب مرحباً فترس فوق سيف علي الترس
فقدّه وشق المغفر والحجر الذي تحته والعمامتين وعلق هامته حتى أخذ
السيف في الأضراس، وإلى ذلك يشير بعضهم، وقد أجاد بقوله:
وشادن أبصرته مقبلاً

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

فقلت من وجدي به مرحباً
قدّ فؤادي في الهوى قدّة
قدّ عليّ في الوغى مرحباً
أي وقد يجمع بين كون القاتل لمرحب علياً كرم الله وجهه، وكون القاتل له
محمد بن مسلمة بأن محمد بن مسلمة أثبتته، أي بعد أن شق علي كرم الله
وجهه هامته، لجواز أن يكون شق هامته ولم يثبت فأنبته محمد بن مسلمة، ثم
إن علياً كرم الله وجهه وقف عليه.
أي ويدل لذلك ما في بعض السير عن الواقدي رحمه الله لما قطع محمد بن
مسلمة ساقي مرحب قال له مرحب: أجهز عليّ، فقال: لا، ذق الموت كما
ذاقه أخي. ومثّر به علي كرم الله وجهه فضرب عنقه وأخذ سلبه، فاختصما إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم في سلبه، فقال محمد: يا رسول الله ما
قطعت رجليه وتركته إلا ليدوق الموت، وكنت قادراً أن أجهز عليه، فقال علي
كرم الله وجهه صدق، فأعطى سلبه لمحمد بن مسلمة رضي الله عنه، ولعل
هذا كان بعد مبارزة عامر بن الأكوع لمرحب فلا ينافي ما مر عن فتح الباري، ثم
خرج بعد مرحب أخوه ياسر أي وهو يرتجز بقوله:

قد علمت خبير أني ياسر

شاكي السلاح بطل مغادر

وكان أيضاً من مشاهير فرسان يهود وشجعانهم، وهو يقول: من يبارز؟ فخرج
له الزبير رضي الله عنه، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله
صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إنه يقتل ابني، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: بل ابنك يقتله إن شاء الله، فقتله الزبير رضي الله عنه، أي وعند
ذلك قال له «فداك عمّ وخال لكل نبي حواريّ، وحواريّ الزبير».

وذكر الزمخشري أن هذه الواقعة للزبير كانت في بني قريظة، حيث قال: إنه
يعني الزبير رضي الله عنه أوّل من استحق السلب، وكان ذلك في بني قريظة
برز رجل من العدو، فقال رجل ورجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قم يا
زبير، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: واحدي يا رسول الله، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: أيهما علا صاحبه فقتله، فعلاه الزبير رضي الله عنه
فقتله، فنقله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «السلب للقاتل» هذا
كلامه فليتأمل، فإني لم أقف في كلام أحد على أن بني قريظة وقعت منهم
مقاتلة بالمبارزة.

وفي رواية أن القاتل لياسر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. أي ويمكن
الجمع بمثل ما تقدم، وكان شعار المسلمين «أمت أمت» وفي رواية «يا
منصور أمت أمت».

ومن جملة من قتل من المسلمين الأسود الراعي، كان أجيراً لرجل من اليهود
يرعى غنمه، وكان عبداً حبشياً يسمى أسلم، أي وفي الإمتاع اسمه يسار، فجاء
إليه وهو محاصر خيبر، وقال: يا رسول الله اعرض عليّ الإسلام فعرضه عليه
فأسلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وفي رواية أنه قال: إن أسلمت فماذا لي؟ قال: الجنة، فأسلم، فلما أسلم قال: يا رسول الله إنني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها؟ وفي لفظ إنها أمانة وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك، فقال له: اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربها، فقام الأسود فأخذ حفنة من حصاء فرمى بها في وجهها وقال ارجعي إلى صاحبك فوالله لا أصحبك، فخرجت مجتمعة كأن سائفاً يسوقها حتى دخلت الحصن، ثم تقدم رضي الله عنه إلى ذلك الحصن فقاتل مع المسلمين فأصابه حجر. وفي رواية: سهم غرب بفتح الرء والإضافة، ويتسكين الرء بلا إضافة وهو ما لا يعرف راميه فقتله، ولم يسجد لله سجدة، فأتي به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه، ثم أعرض عنه، فقالوا: يا رسول الله لم أعرضت عنه؟ فقال: إن معه الآن زوجته من الحور العين تنفضان التراب عن وجهه وتقولان له: ترب الله وجه من ترب وجهك وقتل من قتلك، زاد في لفظ: لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير، قد كان الإسلام من نفسه حقاً.

وفتح الله ذلك الحصن الذي هو حصن ناعم، وهو أول حصن فتح من حصون النبطاء على يد علي كرم الله وجهه.

أي وعن عائشة رضي الله عنها: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قمة، أي وهي أول دار فتحت بخير وهي بالنبطاء، وهي منزل ياسر أخي مرحب، وظاهر السياق أنها حصن ناعم. ويروى أن علياً كرم الله وجهه لما فتح الحصن أخذ الرجل الذي قتل أخا محمد بن مسلمة وسلمه إليه فقتله، وتقدم أن محمد بن مسلمة رضي الله عنه قتل مرحباً ليكون قاتل أخيه على ما تقدم، وسيأتي أنه دفع كنانة لمحمد بن مسلمة ليقتله بأخيه، وهذا يؤيد ما تقدم من أن الثلاثة: أي مرحب وكنانة وذلك الرجل الذي سلمه عليٌّ له اشتركوا في قتل أخي محمد بن مسلمة.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

قال: وأصاب المسلمين رضي الله عنهم مجاعة وأرسلت أسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بن حارثة، وأمرته أن يقول له: إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون أجهدنا الجوع، فلامهم رجل وقال: من بين العرب تصنعون هذا؟ فقال زيد بن حارثة أخو أسماء: والله إنني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الخير، فجاءه أسماء وبلغه ما قالت أسلم، فدعا لهم فقال: اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليس بهم قوة، وأن ليس بيدي شيء أعطيتهم إياه، وقال: اللهم افتح أكثر الحصون طعاماً وودكاً، ودفع اللواء للحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه وندب الناس، وكان من سلم من يهود حصن ناعم انتقل إلى حصن الصعب من حصون النبطاء، ففتح الله حصن الصعب قبل ما غابت الشمس من ذلك اليوم بعد أن أقاموا على محاصرته يومين، وما بخبير حصن أكثر طعاماً منه: أي من شعير وتمر وودك، أي من سمن وزيت وشحم وماشية، ومتاعاً منه، ولا يخالف هذا ما تقدم عائشة في وصف حصن ناعم من قولها: ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخره ولا ما تقدم من أنهم أدخلوا أموالهم حصون الكتيبة، لأنه يجوز أن يكون

المراد بأموالهم النقود ونحوها دون ما ذكر هنا، وكان في هذا الحصن الذي هو حصن الصعب خمسمائة مقاتل، وقبل فتحه خرج منه رجل يقال له يوشع مبارزاً، فخرج له الحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه فقتله، وخرج آخر مبارزاً يقال له الديال فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري رضي الله تعالى عنه فضربه على هامته فقتله، وقال له: خذها وأنا الغلام الغفاري، فقال الناس حبط جهاده، فقال لما بلغه ذلك: يؤجر ويحمد، أي وحملت يهود حملة منكرة. فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف قد نزل عن فرسه، فثبت الحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه، فحرض المسلمين على الجهاد، فأقبلوا وزحف بهم الحباب رضي الله تعالى عنه فانهمزمت يهود وأغلقت الحصون عليهم.

ثم إن المسلمين اقتحموا الحصن يقتلون ويأسرون، فوجدوا في ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئاً كثيراً، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلوا واعلفوا ولا تحملوا: أي لا تخرجوا به إلى بلادكم..

وهذا دليل لما ذهب إليه إمامنا رضي الله تعالى عنه من أن للغانمين أخذ ما تعم الحاجة إليه من الطعام وما يؤكل غالباً من الفواكه وعلف الدواب من الغنيمة بدار الحرب إذا كان الجهاد بدار الحرب إلى أن يصلوا إلى غير دار الحرب مما يباع ذلك فيه، وليس لهم أخذ ما تندر الحاجة إليه كالفاييد والسكر، ولا ينافي ذلك ما ذكر هنا، لأنه يجوز أن يكون الإذن في أكل مجموع ما ذكر. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وفي السيرة الهشامية عن عبدالله بن مغفل رضي الله تعالى عنه، قال: أصبت من فيء خيبر، أي من غنيمتها جراب شحم فاحتملته على عنقي أريد رحلي فلقيني صاحب المغانم الذي جعل عليها، أي وهو أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصاري رضي الله تعالى عنه فأخذ بناصيته، وقال: هلمّ بهذا حتى نقسمه بين المسلمين، فقلت: والله لا أعطيكه، فجعل يجاذبني الجراب فرأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصنع ذلك، فتبسم ضاحكاً، ثم قال لصاحب المغانم: لا أبأ لك خل بينه وبينه، فأرسله، فانطلقت به إلى رحلي وأصحابي فأكلناه.

وفي الإمتاع أنهم وجدوا في هذا الحصن الذي هو حصن الصعب آلة حرب: دبابات ومنجنيق، أي وذلك موافق لما تقدم عن ذلك المخبر له بأن في حصن في بيت منه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف، ولعل وجود ذلك كان بدلالة ذلك الرجل عليه.

ولما فتح ذلك الحصن تحوّل من سلم من أهله إلى حصن قلة وهو حصن بقلة جبل، أي ويعبر عن هذا بقلة الزبير رضي الله تعالى عنه، أي الذي صار في سهم الزبير بعد ذلك وهو آخر حصون النطاة، أي فحصون النطاة ثلاثة: حصن ناعم، وحصن الصعب، وحصن قلة.

فأقام المسلمون على حصار هذا الحصن الذي هو حصن قلة ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود وقال له: يا أبا القاسم تؤمني على أن أدلك على ما تستريح به، فإنك لو مكثت شهراً لا تقدر على فتح هذا الحصن، فإن به دبولاً وهي الأنهر الصغيرة تحت الأرض يخرجون ليلاً فيشربون منها، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم، فأمنه وسار إلى دبولهم فقطعها، فعند ذلك خرجوا وقاتلوا أشد القتال وفتح ذلك الحصن، ثم سار المسلمون إلى حصار حصون الشق بفتح الشين المعجمة وكسرهما، والفتح أعرف عند أهل اللغة، فكان أول حصن بدأ به من حصني الشق حصن أبي فقاتل أهله قتالاً شديداً، خرج رجل منهم يقال له غزوال يدعو إلى البراز، فبرز له الحباب رضي الله تعالى عنه، وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف الذراع، فبادر راجعاً منهزماً إلى الحصن فتبعه الحباب فقطع عرقوبه فوق فذفف عليه، فخرج آخر مبارزاً فخرج له رجل من المسلمين فقتل ذلك الرجل وقام مكانه يدعو للبراز، فخرج له أبو دجانة رضي الله تعالى عنه، فضربه أبو دجانة رضي الله تعالى عنه فقطع رجله، ثم ذفف عليه.

وعند ذلك أحجمت يهود عن البراز، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن، ودخلوه يقدمهم أبو دجانة رضي الله تعالى عنه، فوجدوا فيه أثاثاً ومتاعاً وغنماً وطعاماً، وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البريء، وهو الحصن الثاني من حصني الشق فتمنعوا به أشد التمنع، وكان أهله أشد رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلقت به، فأخذ لهم كفاً من حصباء فحصب به ذلك الحصن، فرجع بهم ثم ساخ في الأرض، وأخذ المسلمون من فيه أخذاً ذريعاً، أي فحسون الشق اثنان: حصن أبي، وحصن البريء.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وحينئذ يتأمل في قول الحافظ الدمياطي في سيرته: والشق وبه حصون منها حصن أبي، وحصن البريء.

أقول: وفي الإمتاع أنهم وجدوا في حصن الصعب الذي هو أحد حصون النطاوة منجنيقاً: أي كما أخبر بذلك اليهود الذي جاء به عمر رضي الله تعالى عنه وأدخله عليه وأمنه كما تقدم، وأنهم نصبوا المنجنيق الذي وجدوه في حصن الصعب على هذا الحصن الذي هو حصن البريء من حصون الشق، أي وهو يخالف قول بعضهم لم ينصب المنجنيق إلا في غزوة الطائف، إلا أن يقال: يجوز أن يكون المراد بعدم نصبه أنه لم يرم به إلا في غزوة الطائف. وأما هنا فنصب ولم يرم به فلا مخالفة.

ووجدوا في هذا الحصن آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب، فقال: اغسلوها واطبخوا وكلوا فيها واشربوا. وفي رواية: سخنوا فيها الماء، ثم ااطبخوا بعد وكلوا واشربوا. وحكمة تسخين الماء فيها لا تخفى، وهي أن الماء الحار أقوى في النظافة وإخراج الدسومة والله أعلم. ثم إن المسلمين لما أخذوا حصون النطاوة وحصون الشق، انهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكتيبة، وهي ثلاثة حصون، القموص كصبور، والوطيخ، وسلالم بضم السين المهملة، وكان أعظم حصون خيبر القموص، وكان منيعاً حاصره المسلمون عشرين ليلة ثم فتحه الله على يد عليّ كرم الله

وجهه، ومنه سببت صفة رضي الله تعالى عنها كما قاله الحافظ ابن حجر. قال: وقيل كان اسمها قبل أن تسبى زينب، فلما صارت من الصفيّ سميت صفة. والصفى: ما كان يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل أن تقسم على ما تقدم، وكان في الجاهلية لأمير الجيش ربع الغنيمة. ومن ثم قيل له المربع. قال السهيلي رحمه الله: كانت أموال النبي صلى الله عليه وسلم من ثلاثة أوجه: من الصفي، والهدية، وخمس الخمس هذا كلامه، ولا يخفى أنه يزداد على ذلك الفيء.

وانتهى المسلمون إلى حصار الوطيح بالحاء المهملة، مأخوذ من الوطح: وهو في الأصل ما تعلق بمخالب الطير من الطين؛ سمي الوطيح باسم الوطيح بن مازن؛ رجل من ثمود. وحصن سلالم ويقال له السلاليم: وهو حصن بني الحقيق، آخر حصون خيبر.

ومكنوا على حصارهما أربعة عشر يوماً فلم يخرج أحد منهما، فهم أن يجعل عليهم: أي على من فيهما المنجنيق: أي ينصبه عليهم ولم يرم به، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، وأن لا يصحب واحداً منهم إلا ثوب واحد على ظهره. وفي لفظ: تركوا ما لهم من مال وأرض من الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة والبر إلا ثوباً واحداً، فصالحهم على ذلك، وعلى أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئاً من متاعهم يسألهم عنه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

فعلم أن حصون خيبر فتحت عنوة إلا الحصنين المذكورين: وهما الوطيح وسالام، فإنهما لم يفتحا عنوة بل صلحاً، فكانا فيئاً لرسول الله، وهو دليل على أنهم لم يقاتلوا في حال حصارهم، لأن الفيء ما جلوا عنه من غير مقاتلة، كذا قيل.

وظاهر إطلاق قول الروضة من الفيء ما صلح عليه أهل بلد من الكفار أنه وإن كان بعد محاصرته ومقاتلتهم للمسلمين في حال حصارهم برمي الحجارة أو النبل.

وفي فتح الباري نقلاً عن ابن عبد البر أنه جزم بأن حصون خيبر فتحت عنوة، وإنما دخلت الشبهة على من قال فتحت صلحاً بالحصنين اللذين أسلمهما أهلها لحقن دمائهم، وهو ضرب من الصلح؛ لكن لم يقع ذلك إلا بحصار وقتال هذا كلامه فليتأمل، فإن بالقتال يخرج عن كونه فيئاً، ولعل المراد قتال بالنبل ورمي بالحجارة وإلا فقد تقدم أنه لم يخرج منهما أحد للمقاتلة فليتأمل، فإن كلامه يقتضي أن بالحصار وبالقتال بنحو النبل يخرج ذلك عن كونه فيئاً له ويكون غنيمة، ولعله مذهب المالكية الذي هو مذهب ابن عبد البر رحمه الله تعالى.

وفي الأصل عن ابن شهاب رحمه الله أنه قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح خيبر عنوة بعد القتال، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال هذا كلامه.

فظاهره أن القتال وقع من الذين جلوا في حال حصارهم، وإلا فقد علمت أن الذين جلوا لم يخرج أحد منهم للقتال في حال حصارهم، وسيأتي ما يصرح بأن جلوا عنه فيء لا غنيمة.

ووجدوا في الحصنين المذكورين: مائة درع، وأربعمائة سيف، وألف رمح، وخمسمائة قوس عربية بجعابها، أي ووجدوا في أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها، فأمر بدفعها إليهم. وهو يخالف ما قاله أئمتنا أن كتبهم التي يحرم الانتفاع بها لكونها مبدلة تمحى إن أمكن أو تمزق، وتجعل في الغنيمة فتباع، إلا أن يدعى أن تلك الصحف لم تكن مبدلة، وغيبوا الجلد الذي كان فيه حليّ بني النضير، أي وعقود الدر والجوهر الذي جلوا به، لأنهم لما جلوا كان سلام بن أبي الحقيق رافعاً له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته: هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها كما تقدم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعية ابن عمرو: أي وهو عمّ حبي بن أخطب. وفي لفظ: سعية بن سلام بن أبي الحقيق. وفي الإمتاع: وسأل كنانة بن أبي الحقيق: أين مسك: أي جلد حبي بن أخطب، أي وإنما نسب إليه الجلد المذكور، فقيل كنز حبي، لأن حياً كان عظيم بني النضير، وإلا فهو لا يكون إلا عند بني الحقيق، فقال: أذهبت الحروب والنفقات، فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم سعية بن عمرو للزبير رضي الله تعالى عنه فمسه بعذاب، فقال: رأيت حياً يطوف في خربة هاهنا فذهبوا إلى الخربة، ففتشوها فوجدوا ذلك الجلد.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

قال: وفي رواية أنه أتى بكنانة، وهو زوج صفية تزوجها بعد أن طلقها سلام بن مشكم، وبالربيع أخوه، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين آيتكما التي كنتم تعيرونها أهل مكة، أي لأن أعيان مكة إذا كان لأحدهم عرس ويرسلون فيستعيرون من ذلك الحلي انتهى، أي والآنية والكنز عبارة عن حلي كان أولاً في جلد شاة، ثم كان لكثرتة في جلد ثور، ثم كان لكثرتة في جلد بعير كما تقدم فقالا: أذهبت النفقات والحروب، فقال: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك، إنكما إن كنتماني شيئاً فاطلعت عليه استحلت دماءكما وذرايكما، فقالا: نعم، فأخبره الله بموضع ذلك الحلي، أي فإنه قال لرجل من الأنصار: اذهب إلى محل كذا وكذا، ثم أتت النخل، فانظر نخلة عن يمينك أو قال عن يسارك مرفوعة فائتني بما فيها فانطلق فجاءه بالآنية.

ويمكن الجمع بين هذا وما تقدم وما يأتي أنهم فتشوا عليه في خربة حتى وجدوه، بأن التفتيش كان في أول الأمر، وإعلام الله تعالى له بذلك كان بعد، فجاء به فقوم بعشرة آلاف دينار؛ أي لأنه وجد فيه أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتيم الذهب، وعقود الجوهر والزمرد، وعقود أظفار مجزع بالذهب، فضرب أعناقهما وسبي أهلها.

أي وفي لفظ آخر: لما فتحت خبير أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكنانة بن الربيع وفي لفظ: ابن ربيعة بن أبي الحقيق، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فوجد أن يكون يعلم مكانه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، أي فإن

كنانة حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم فتح حصن النطاوة وتيقن ظهوره عليهم دفنه في خربة.

أي وفيه أن هذا لا يناسب ما سبق من أن حياً كان يطيف بتلك الخربة، إلا أن يقال جاز أن يكون دفنه في تلك الخربة في محل آخر غير الذي دفنه فيه حيي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنانة: رأيت إن وجدته عندك أقتلك؟ قال نعم، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخربة فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله ما بقي فأبى أن يؤديه، فأمر به الزبير رضي الله تعالى عنه فقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير رضي الله تعالى عنه يقده بزند، أي بالزناد الذي يستخرج به النار على صدره حتى أشرف على نفسه.

وأخذ منه جواز العقوبة لمن يتهم ليقر بالحق، فهو من السياسة الشرعية، ثم دفعه لمحمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه فضرب عنقه بأخيه محمود. أي ولا مانع أن يكون السؤال وتعذيب الزبير وقع لسعية وكنانة أيضاً. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغنائم: أي التي غنمت قبل الصلح فجمعت، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا منها صفية رضي الله تعالى عنها بنت حيي بن أخطب، من سبط هارون بن عمران أخي موسى عليهما الصلاة والسلام، فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه، وجعلها عند أم سليم التي هي أم أنس خادمه حتى اهتدت وأسلمت، ثم أعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها: أي أعتقها بلا عوض وتزوجها بلا مهر لا في الحال ولا في المال: أي لم يجعل لها شيئاً غير العتق.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقد سئل أنس رضي الله تعالى عنه عن صفية، فقيل له: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها، وهذا يرد ما استدلل به بعض فقهاءنا: على أن من خصائصه جواز نكاح الأمة الكتابية، وجواز وطئها بملك اليمين من أنه كان يوطئ صفية قبل إسلامها بملك اليمين. ويرد أيضاً على من استدلل من فقهاءنا على استحباب الوليمة للسرية، بأنه أولم على صفية كما علمت أنها زوجة لا سرية.

أي لكن ذكر بعض فقهاءنا أنه لما أولم على صفية رضي الله تعالى عنها، قالوا: إن لم يحبها فهي أم ولد، وإن حبها فهي امرأته، وذلك دليل على استحباب الوليمة للسرية، إذ لو اختصت بالزوجة لم يترددوا في كونها زوجة أو سرية، وذلك بعد أن خيرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقي من أهلها، أو تسلم فيتخذها لنفسه، فقالت: أختار الله ورسوله. وذكر في الأصل أن جعل عتق الأمة صداقها من خصائصه، وقد ذكره الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى. وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى عدم الخصوصية. وقال ابن حبان: لم ينقل دليل على أنه خاص به دون أمته. وقيل إن دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية فوهبها له، وقيل وقعت في سهمه رضي الله تعالى عنه، ثم ابتاعها

منه بتسعة رؤوس، أي وإطلاق الشراء في ذلك على سبيل المجاز، على أنه يخالف ما تقدّم أنها من صفة قبل القسمة.

وفي البخاري «فجمع السبي فجاء دحية رضي الله تعالى عنه فقال: يا نبي الله أعطني جارية من السبي، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفة بنت حبي، فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أعطيت دحية صفة سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، فقال: ادعوه بها، فجاء بها، فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال: خذ جارية من السبي غيرها» أي فأخذ غيرها.

أي والتي أخذها غيرها هي أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صفة كما في الأم لإمامنا الشافعي رضي الله عنه عن سيرة الواقدي، وقول الرجل للنبي يا نبي الله أعطيت دحية صفة يدل على أنه اسمها، وحينئذٍ يخالف ما قيل إن اسمها زينب فسمها صفة كما تقدم.

وفي رواية أن صفة سبيت هي وبنت عم لها، وأن بلالاً جاء بهما فمّر على قتلى يهود، فلما رأتهم بنت عم صفة صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها، فلما رآها قال: اعزبوا عني هذه الشيطانة، وقال لبلال: أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما؟ ثم دفع بنت عمها لدحية الكلبي رضي الله تعالى عنه، وفي رواية: وأعطى دحية بنت عمها عوضاً عنها.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أي وقد جاء أنه لما دخل بصفة رأى بأعلى عينها خضرة فقال: ما هذه الخضرة؟ قالت: كان رأسي في حجر بن أبي الحقيق - تعني زوجها، أي وهي عروس - وأنا نائمة، فرأيت كأن القمر وقع في حجري، فأخبرته بذلك، فلطمني وقال: تتمني ملك العرب، وفي لفظ: حين نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم خبير وكنت عروساً رأيت كأن الشمس نزلت حتى وقعت على صدرها فقصدت ذلك على زوجها قال: والله ما تتمنين إلا هذا الملك الذي نزل بنا فلطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها. ولا مانع من تعدد الرؤية أو أنها رأت الشمس والقمر في وقت واحد، وسيأتي في الكلام على زوجاته أنها قصت ذلك على أبيها ففعل بها ذلك، وسيأتي أنه لا مانع من تعدد الواقعة وأنهما فعلا بها ذلك. وتقدم أن جوهرية رضي الله تعالى عنها رأت القمر أيضاً وقع في حجرها، وكون صفة رضي الله تعالى عنها كانت عروساً عند مجيئه خبير ربما يدل على أن سلام بن مشكم طلقها قبل الدخول بها، فقد تقدّم أن كنانة تزوّج بها بعد أن طلقها سلام بن مشكم فليتأمل.

وعن صفة رضي الله عنها أنها قالت «انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما من الناس أحد أكره إليّ منه قتل أبي وزوجي وقومي، فقال: يا صفة أما إنني أعتذر إليك مما صنعت بقومك، إنهم قالوا لي كذا وكذا، وقالوا فيّ كذا وكذا، وفي رواية: إن قومك صنعوا كذا وكذا، وما زال يعتذر إليّ حتى ذهب ذلك من نفسي، فما قمت من مقعدي ومن الناس أحد أحب إليّ منه» وأعرس بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن طهرت من الحيض في

قبة بعد أن دفعها لأم سليم لتصلح من شأنها، وبات تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري رضي الله تعالى متوشحاً سيفه يحرسه ويطوف بتلك القبة حتى أصبح رسول الله ، فرأى مكان أبي أيوب، فقال: مالك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة، قتلت أباهما وزوجها وقومها وهي حديثة عهد بكفر، فبت أحفظك، فقال: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني. قال السهيلي رحمه الله: فحرس الله أبا أيوب بهذه الدعوة، حتى إن الروم لتحرس قبره ويستشفون به فيستصحون، أي ويستسقون به فيسقون. فإن غزا مع يزيد بن معاوية سنة خمسين، فلما بلغوا القسطنطينية مات أبو أيوب رضي الله عنه هنالك، فأوصى يزيد أن يدفنه في أقرب موضع من مدينة الروم، فركب المسلمون ومشوا به حتى إذا لم يجدوا مكاناً مساعاً دفنوه، فسألتهم الروم عن شأنهم، فأخبروهم أنه كبير من أكابر الصحابة، فقالت الروم ليزيد: ما أحمقك وأحمق من أرسلك أمنت أن تنبشه بعدك، فنحرق عظامه، فحلف لهم يزيد لئن فعلتم ذلك ليهدمن كل كنيسة بأرض العرب، وينش قبروهم، فحينئذ حلفوا بدينهم ليكرمن قبره وليحرسنه ما استطاعوا. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أي وجاء أنه لما قطع ستة أميال من خيبر وأراد أن يعرس بها فأبت، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم في نفسه، فلما سار ووصل الصهباء مال إلى دومة هناك فطاوعته، فقال لها: ما حملك على إباتك حين أردت المنزل الأول؟ قالت: يا رسول الله خشيت عليك قرب يهود، وهذا المحل الذي هو الصهباء هو الذي ردت فيه الشمس لعلِّي بعدما غربت كما تقدم. وأقام بذلك المحل ثلاثة أيام، وجعل وليمتها حيساً في نطع صغير، والحيس: تمر وأقط وسمن. أي ففي البخاري «فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم عروساً، فقال: من كان عنده شيء فليجيء به وبسط نطعاً، فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، أي وجعل الرجل يجيء بالأقط، وذكر أيضاً السويق».

ولا يخفى أن الحيس خلط السمن و التمر والأقط إلا أنه قد يخلط مع هذه الثلاثة السويق، وهذا يدل على أن الوليمة على صفة رضي الله تعالى عنها كانت نهاراً.

وذهب ابن الصلاح من أئمتنا إلى أن الأفضل فعلها ليلاً، قال بعضهم: وهو متجه إن ثبت أنه فعلها ليلاً، أي لأحد من نسائه. وقد جاء «لا بد للعرس من وليمة». وقال لأنس: أذن من حولك: أي ليأكلوا من ذلك الحيس، وكان يضع لها ركبته لتركب، فتضع رجلها على ركبته الشريفة حتى تتركب. وفي لفظ: لما وضع ركبته لتركب عليها أبت أن تضع قدمها على ركبته الشريفة ووضعت فخذها على ركبته، أي ولعل هذا الثاني منها كان في أول الأمر، فلا مخالفة. وعن صفة رضي الله تعالى عنها: ما رأيت أحداً قط أحسن خلقاً من رسول الله ، لقد رأيت ركب بي في خيبر وأنا على عجز ناقته ليلاً، فجعلت أنعس فتضرب رأسي مؤخرة الرجل فيمسنني بيده ويقول: يا هذه مهلاً. ونهى عن إتيان الحبالى من النساء اللاتي سبين، وأن لا يصيب أحد امرأة من السبي غير حامل حتى يستبرئها أي تحيض.

أي وفي لفظ: أمر مناديه ينادي أن من آمن بالله واليوم الآخر لا يسق بمائة زرع الغير، ولا يطأ امرأة حتى تنقضي عدتها: أي حتى تحيض.

وبلغه عن شخص أنه ألمّ بامرأة من السبي حبلً، فقال: لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه في قبره. ونهى عن أكل الثوم. ورأيت في كلام بعضهم أن غالب اقتياتهم في خبير كان أكل الثوم والكرات حتى تفرحت أشاقهم، أي وذلك قبل النهي. ثم رأيت في الترغيب والترهيب عن أبي ثعلبة أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوا في جنانها بصلاً وثوماً فأكلوا منه وهم جياع، فلما راح الناس إلى المسجد إذا ريح بصل وثوم، فقال النبي «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة فلا يقربنا» وليس في ذلك نهى عن أكل الثوم والبصل: أي مطلقاً، إنما النهي عن إتيان المسجد لمن أكلهما تأمل. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

ومن ثم جاء أنه لما قال ذلك قال الناس حرم ذلك، فلما بلغه ما قالوا، قال: أيها الناس؛ إنه ليس لنا تحريم ما أحل الله ولكنها شجرة أكره ريحها. وعن فرقد السنجي «ما أكل نبي قط ثوماً ولا بصلاً». ونهى عن متعة النساء. ففي مسلم عن علي رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر». قال بعضهم: والراجح أن النهي عن متعة النساء لم يكن في خيبر، فإنه شيء لم يعرفه أهل السير ولا رواه أهل الأثر، وبدل لذلك ما قيل إن ثنية الوداع إنما سميت بذلك، لأنهم فيها ودّعوا النساء اللاتي تمتعوا بهنّ في خيبر، أي وإنما كان تحريمها عام الفتح، أي ولا معارضة لأنه أحل بعد ذلك: أي بعد خيبر في عام الفتح، ثم حرم فيه بعد ثلاثة أيام كما سيأتي. وقيل حرمت في حجة الوداع، وقيل في غزوة أوطاس، وهذا هو الصحيح، وسيأتي في غزوة الفتح الجمع بين هذه الأقوال.

قال السهيلي رحمه الله: وأغرب ما روي في ذلك رواية من قال إن ذلك كان في غزوة تبوك. وفي حديث خرجه أبو داود أن تحريم نكاح المتعة كان في حجة الوداع، ومن قال من الرواة إنه كان في غزوة أوطاس فهو موافق لمن يقول إنه كان عام الفتح، هذا كلامه.

وعن إمامنا الشافعي رضي الله عنه: لا أعلم شيئاً حرم ثم أبيع ثم حرم إلا المتعة، أي فقد حرمت مرتين. ونقل السهيلي رحمه الله وغيره عن بعضهم أنها أبيحت وحرمت ثلاث مرات. وعن بعضهم أنها أبيحت وحرمت أربع مرات، ولينظر هذا مع قول بعضهم إن أول من حرم المتعة سيدنا عمر رضي الله عنه. وقيل لم يحرمها مطلقاً، بل عند الاستغناء عنها. وأباحها عند الحاجة إليها: أي عند خوف الزنا، وبذلك كان يفتي ابن عباس رضي الله عنهما. وفي كلام فقهاءنا: والنهي عن نكاح المتعة في خبر الصحيحين الذي لو بلغ ابن عباس رضي الله عنهما لم يستمر على القول بإباحتها لمن خاف الزنا مخالفاً

في ذلك لكافة العلماء.
وقد وقعت مناظرة في المتعة بين القاضي يحيى بن أكثم وأمير المؤمنين المأمون؛ فإن المأمون نادى بإباحة المتعة، فدخل عليه يحيى بن أكثم وهو متغير اللون بسبب ذلك وجلس عنده، فقال له المأمون: مالي أراك متغيراً؟ قال: لما حدث في الإسلام، قال: وما حدث؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: المتعة زنا؟ قال: نعم المتعة زنا، قال: ومن أين لك هذا؟ قال: من كتاب الله وسنة رسول الله . أما الكتاب، فقد قال الله تعالى {قد أفلح المؤمنون} إلى قوله {والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون} يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: أفهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث ويلحق بها الولد؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين. وأما السنة، فقد روى الزهري بسنده إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال «أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها» فالتفت المأمون للحاضرين وقال: أتحفظون هذا من حديث الزهري؟ قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: أستغفر الله، نادوا بتحريم المتعة.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

ونهى في خبير عن لحوم الحمر الأهلية، أي فإنهم أصابهم جوع فجدوا الحمر الأهلية، أي ثلاثين حماراً خرجت من بعض الحصون، وقيل لم يدخلوها الحصون، فأخذها رهط من المسلمين وذبحوها وجعلوا لحومها في القدور والبرام، وجعلوا يطبخونها للأكل، فمّر بهم النبي صلى الله عليه وسلم فسألهم عما في القدور والبرام، قالوا: لحوم الحمر الإنسية: أي المخالطة للإنس، فنهاهم عن أكلها حتى إن القدور أكفئت وإنها لتفور». أي وفي البخاري «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى نيراناً توقد يوم خبير، قال: علام توقد هذه النيران؟ قالوا: على الحمر الإنسية، قال: اكسروها وأهريقوها، قالوا: ألا نهريقها ونغسلها؟ قال: اغسلوها». وفي رواية «أنه قال: ما هذه النيران، على أي شيء توقد؟ قالوا: على لحم، قال: على أي لحم؟ قالوا: على لحم حمر إنسية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أهريقوها واكسروها، فقال رجل: يا رسول الله أو نهريقها ونغسلها؟ فقال أو ذاك» وعدوله إلى هذا الثاني إما باجتهاد أو وحي. وجاء «أنه عند ذلك أمر عبدالله بن عوف أن ينادي في الناس أن لحوم الحمر الأهلية لا تحل لمن يشهد أن محمد رسول الله، وأمر أن تكفأ القدور ولا يأكلون من لحوم القدور شيئاً».

وفي مسلم «فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طلحة فنادى: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهاكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس أو نجس» وهذا السياق كله يدل على أنهم لم يأكلوا منها شيئاً. وفي السيرة الهشامية: «وأكل المسلمون من لحوم الحمر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهى الناس عن أمور سماها لهم» وهذا يرد القول بأنه إنما نهى عن أكلها للحاجة إليها، أو لأنها أخذت قبل القسمة.

وروي أبو داود بإسناد على شرط مسلم عن جابر رضي الله تعالى عنه «ذبحنا يوم خيبر الخيل والبالغ، ولم ينهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخيل» وفي رواية «ورخص في أكل الخيل» أي أباح أكلها. وفي مسلم عن أسماء رضي الله عنها، قالت «نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلناه» أي وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ولم ينكره.

وعن خالد بن الوليد رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل لحوم الحمر الأهلية والبالغ والخيول». قال السهيلي رحمه الله: وحديث الإباحة أصح، وجاء «أنه نهى يوم خيبر عن أكل لحم الجلالة وعن ركوبها، حتى تغلف أربعين يوماً» والجلالة: التي تأكل الجلة، وهي الروث والعذرة.

وذكر الهروي «أنه كان لا يأكل الدجاج الجلالة حتى تقصر» أي تحبس ثلاثة أيام. وذكر فقهاؤنا أن الحمر الأهلية حلت بعد تحريمها، ثم حرمت فليتأمل. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

ونهى عن أكل كل ذي ناب من السباع، أي وذي مخلب من الطير وعن بيع المغنم حتى تقسم، وجعلت له مائدة فأكل متكئاً وأطلق بالنورة، وكان ينوره الرجل، فإذا بلغ عانته تولى ذلك بيده الشريفة. وروي ابن ماجه بسند جيد كما قاله الحافظ ابن كثير «أنه كان إذا طلى بدأ بعورته فطلاها وطلق سائر جسده أهله» وحينئذ يكون المراد بعانته في الرواية السابقة العورة على أن تلك الرواية مرسلة فلا يحتج بذلك لمن يقول إن العورة ما عدا السوءتين.

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها «أنها قالت: أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنورة، فلما فرغ منها قال: يا معشر المسلمين عليكم بالنورة فإنها طيبة وظهر، وإن الله تعالى يذهب بها عنكم أوساخكم وأشعاركم» أي فهو من نعيم الدنيا، ومن ثم كرهه عمر رضي الله عنه.

وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قيل له وقد دخل الحمام: أتدخل الحمام وأنت صاحب رسول الله؟ فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الحمام.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: طاب حمامكما» وجاء «أنه كان يتنور كل شهر، ويقلم أظفاره كل خمسة عشر يوماً» وما ورد أنه لم يتنور فهو ضعيف معارض بما هو أقوى منه وأكثر عدداً، على أن المثبت مقدم على النافي. أي وفي الينبوع: وقول أنس رضي الله عنه إن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يتنور وكان يحلق محمول على الغالب من أمره.

وفي الخصائص الصغرى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما تنور نبي قط. وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم وقت لقص الشارب وتقليم الأظفار أن لا يدع ذلك أربعين يوماً» أي وكان يقص أظفاره كل خمسة عشر يوماً كما تقدم.

وقد استفيد من هذا كما قال بعضهم فائدة نفيسة وهي ذكر التوقيت للتنوير وقص الأطفار. قال بعضهم: وفيه نظر، فإن بدنه كان في غاية الاعتدال فلا يقاس به غيره في ذلك، نظير ما قالوه فيما صح «أنه كان يوضئه المد، ويغسله الصاع» إن ذلك خاص ببدن من يكون بدنه كبده عليه الصلاة والسلام نعومة واعتدالاً، وإلا زيد ونقص المتفاوت فكذلك هنا، ومن ثم قال الأئمة رحمهم الله في نحو حلق العانة وبتف الإبط والقلم للظفر وقص الشارب: إن ذلك لا يتقيد بمدة، بل يختلف باختلاف الأبدان والمحال، فيعتبر وقت الحاجة إلى إزالة ذلك. وبهذا يردّ علي من قال يكره التنوير في أقل من شهر، وقدم عليه بخير الأشعريون، أي ومنهم أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، والدوسيون ومنهم أبو هريرة رضي الله تعالى عنه، فسأل أصحابه رضي الله عنهم أن يشركوهم في الغنيمة ففعلوا.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

قال: وعن موسى بن عقبة رحمه الله أن أحد الأشعريين ومن ذكر معهم: أي وهم الدوسيون من هذين الحصنين اللذين فتحا صلحا، وتكون مشاورة رسول الله صلى الله عليه وسلم في إعطائهم ليست استنزالا لهم عن شيء من حقهم، وإنما هي المشورة العامة: أي الأمور بها في قوله تعالى {وشاورهم في الأمر} انتهى.

أقول: وهذا صريح في أن ذلك كان فيئاً له، فهما وما فيهما مما أفاء الله عليه، لأن الفيء ما جلوا عنه من غير قتال؛ أي من غير مصافة للقتال. والحاصل أن أرض خيبر ونخلها غنيمة، لأنه غلب على النخل والأرض، وألجأهم إلى الحصون، وفتح جميع الحصون عنوة إلا الوطيح، والسُّلالم فإنهما فتحا صلحا على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم، بشرط أن لا يكتموه شيئاً من أموالهم، وأن من كتم شيئاً انتقض ذلك الصلح له بالنسبة لدمه وذرايه.

وهذان الحصنان هما المرادان بالكثبية في قول بعضهم: كان يطعم من الكثبية أهله لما علمت أنهما من حصونها، وأنهما وما فيهما مما أفاء الله عليه. وكونه كان يطعم أهله مما فيهما واضح. وأما إذا كان المراد يطعم من الأرض والنخيل المتعلقين بالحصنين فقد يتوقف فيه، لما تقدم أن أرض خيبر ونخلها غنيمة وذلك شامل للأرض والنخيل المتعلقين بالحصنين فليتأمل والله أعلم.

وفي لفظ: وقدم عليه بعد فتح خيبر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من أرض الحبشة ومعه الأشعريون، أبو موسى الأشعري وأخوه أبو رهم وأبو بردة رضي الله عنهم، وكان أبو موسى أصغرهم وأقواهم وكان قوم جعفر بالحبشة، أي لأنهم هاجروا إلى الحبشة من اليمن كما تقدم، وقبل قدومهم إليه قال «يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوباً» فقدم الأشعريون، وذكر أنهم عند مجيئهم صاروا يقولون:

غدا نلقى الأحبة محمداً وحزبه وفي كلام بعضهم ما يفيد أنه قال في حقهم «أتاكم أهل اليمن، هم أضعف قلوباً، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية».

ولما أقبل عليه جعفر رضي الله عنه قام إلى جعفر وقبله بين عينيه وفي رواية «قبل جبهته».

أي وعن ابن عباس رضي الله عنهما «لما قدم جعفر رضي الله عنه من أرض الحبشة اعتنقه النبي صلى الله عليه وسلم وقبل بين عينيه» وجعل ذلك أصلاً لاستحباب المعانقة.

وقال بعضهم: إنها مكروهة، وحديث جعفر يحتمل أن يكون قبل النهي عنها، فإنه نهى عن المعانقة وهي المعانقة، وحمل ذلك بعضهم على ما إذا كانت المعانقة من غير حائل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أقول: لم يجب بذلك سيدنا مالك رضي الله عنه، فإنه لما قدم عليه سفيان بن عيينة رضي الله عنه صافحه مالك وقال له: لولا أنها بدعة لعانقتك، فقال له سفيان: قد عانق من هو خير منك ومني النبي، قال مالك: تعني جعفر بن أبي طالب؟ قال نعم، قال: ذلك حبيب خاص ليس بعام، أي فذلك من خصوصياته، فقال له سفيان: ما عم جعفرأ يعمننا، وما يخصه يخصنا، أي فالأصل عدم الخصوصية، ثم قال له سفيان: أتأذن لي أن أحدثك بحديثك. قال نعم، فقال: حدثني فلان عن فلان عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر الحديث المتقدم عنه، وقد جاء أنه التزم زيد بن حارثة رضي الله عنه حين قدم عليه من مكة. وأما المصافحة، فقد جاء «أن أهل اليمن لما قدموا المدينة صافحوا الناس بالسلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن أهل اليمن قد سنوا لكم المصافحة» وقال «من تمام محبتكم المصافحة» وقال لصفوان بن أمية لما قدم عليه «وإلى عدي بن حاتم». قال السهيلي: وليس هذا معارضاً لحديث «من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار» لأن هذا الوعيد إنما توجه للمتكبرين وإلى من يغضب أن لا يقام له، وكان يقوم لفاطمة رضي الله عنها وكانت تقوم له هذا كلامه، والله أعلم.

ولما رآه جعفر جل: أي مشى على رجل واحدة إعظاماً لرسول الله، لأن أهل الحبشة يفعلون ذلك للتعظيم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له «أشبهت خلقي وخلقي» وفي لفظ «جعفر أشبه الناس بي خلقاً وخلقاً» وكان يسميه أبا المساكين، لأنه رضي الله عنه كان يحب المساكين ويجلس إليهم ويحدثهم ويحدثونه.

وذكر بعضهم أنه لما قال له «أشبهت خلقي وخلقي» رقص من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر عليه رقصه، وجعل ذلك أصلاً لجواز رقص الصوفية عندما يجدونه من لذة المواجيد من مجالس الذكر والسماع، ثم قال «والله ما أدري بأيهما أفرح؟ بفتح خير أم بقدم جعفر؟» رضي الله عنه.

وقيل قدم مع جعفر رضي الله عنه سبعون رجلاً عليهم ثياب الصوف، منهم اثنان وستون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام.

وفي لفظ: قدم معه سبعون كافرأ أصحاب الصوامع، وقيل كانوا أربعين رجلاً: اثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام. وقيل كانوا ثمانين رجلاً أربعون من أهل نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثمانية روميون من أهل الشام، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس؟ إلى آخرها فبكوا وأسلموا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه

الصلاة والسلام.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

أي ولعل هؤلاء الذين من الحبشة هم المرادون بقول بعضهم: ووفد إليه وفد النجاشي، فقام يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله، فقال: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم. وفي لفظ: وقدم عليه أيضاً أبو هريرة رضي الله عنه وطائفة من قومه، وهم دوس كما تقدم.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «قدمنا المدينة ونحن ثمانون بيتاً من دوس فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفاري، فأخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بخير: فزودنا سباع، ثم جئنا خيبر وهو محاصر الكثيبة فأقمنا حتى فتح الله: أي وكان من جملة من قدم معهم من بلاد الحبشة أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما زوج النبي، تزوجها: أي عقد عليها وهي بالحبشة، فإنها كانت ممن هاجر الهجرة الثانية للحبشة مع زوجها عبدالله بن جحش فارتد عن الإسلام هناك وتنصر ومات على ذلك، وبقيت هي على إسلامها كما تقدم. وقد أرسل عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه في المحرم افتتاح سنة سبع إلى النجاشي ليزوجها منه، قالت أم حبيبة رضي الله عنها: رأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: يا أم المؤمنين ففزعت، فأولتها بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوجني، قالت: فما شعرت إلا وقد دخلت عليّ جارية النجاشي، فقالت لي: إن الملك يقول لك: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليه أن يزوجك منه، فقلت لها: بشره الله بالخير، ويقول لك: وكلي من يزوجك، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد رضي الله عنه، أي وأعطت تلك الجارية سوارين وخدمتين، أي خلخالين وخواتيم فضة سروراً بما بشرت به، فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين فحضروا وخطب النجاشي رضي الله عنه، فقال «الحمد لله الملك القدوس» أي في لفظ بدل ذلك «المؤمن المهيمن، العزيز الجبار. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام أما بعد - فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجينا إلى ما دعا إليه رسول الله، وقد أصدقها أربعمئة دينار، أي وفي لفظ أربعمئة مثقال ذهب ثم سكب الدنانير بين يدي القوم، فتكلم خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، فقال: الحمد لله أحمدته وأستعينه وأستغفره، وأشهد أن لا

إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. أما بعد: فقد أجيبت إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله، أي ودفع النجاشي الدنانير لخالد بن سعيد، فقبضها منه، وقيل إنه أنقدها لها النجاشي على يد جاريته التي بشرتها، فلما جاءتها بتلك الدنانير أعطتها خمسين ديناراً.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقد يقال: يجوز أن يكون النجاشي استردها من خالد ثم دفعها لتلك الجارية، أو أمر خالد بن سعيد بدفعها للجارية لتدفعها لأم حبيبة فلا مخالفة، وهذا السياق يدل على أن النجاشي كان هو الوكيل عنه . وفي كلام بعض فقهاءنا أنه وكل عمرو بن أمية في نكاح أم حبيبة.

وقد يقال: معنى توكيل عمرو إرساله بالوكالة للنجاشي، أي ثم لما أرادوا أن يقوموا بعد العقد قال لهم النجاشي: اجلسوا، فإن من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج؛ فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا، قالت أم حبيبة رضي الله عنها: فلما كان من الغد جاءتنى جارية النجاشي فردت عليّ جميع ما أعطيتها وقالت: إن الملك عزم عليّ أن لا أرزأك شيئاً، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر، فجاءت بورس وعنبر وزباد كثير، وقالت: حاجتي إليك أن تقرئي رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام وتعلميه أنني قد اتبعت دينه، وكانت كلما دخلت عليّ تقول لا تنسي حاجتي إليك، ثم أرسل النجاشي أم حبيبة مع شرحبيل ابن حسنة، أي قالت أم حبيبة: ولما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته كيف كانت الخطبة وما فعلت معي جارية النجاشي وأقرأته منها السلام، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: وعليها السلام ورحمة الله وبركاته.

وجاء «أنه لما رجعت إليه مهاجرة الحبشة قال: ألا تخبروني بأعجب شيء رأيتم بأرض الحبشة؟ فقال فتية منهم: يا رسول الله بينما نحن جلوس إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم وعلى رأسها قلة فيها ماء، فمرت بصبي فدفعها فوقع على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت: أي قامت التفتت إليه فقالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، تعلم أمري وأمرك عنده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدقت «كيف يقدر الله قوماً لا يأخذ لضعيفهم من قوهم».

وذكر «أنه لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خيبر ودنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم، قال محيصة: فجتتهم فجعلوا يتربصون ويقولون إن بخيبر عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وباسر والحارث وسيد اليهود مرحب، ما نرى أن محمداً يقرب إليه، فمكثت عندهم يومين، ثم أردت الرجوع، فقالوا: نحن نرسل معك رجالاً منا يأخذون لنا الصلح، كل ذلك وهم يظنون أنه لا يقدر على فتح خيبر، حتى جاءهم أناس من حصن ناعم، وأخبروهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحه فأرسلوا رجلاً من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع في نفر، يصلحون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحقن دماءهم ويجلبهم، ويخلوا بينه وبين الأموال، ففعل ذلك رسول الله .»

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقيل تصالحوا معه على أن يكون لهم نصف الأرض ولرسول الله صلى الله عليه وسلم النصف الآخر، فكان فدك على الأول لرسول الله ، وعلى الثاني كان له نصفها لأنها لم تؤخذ بمقاتلة، فكان ينفق منها ويعود منها على صغير بني هاشم، ويزوج منها أيمهم.

ولما مات وولي أبو بكر رضي الله عنه الخلافة سألته فاطمة رضي الله عنها أن يجعلها أو نصفها لها فأبى. وروى لها أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة» أي على المسلمين.

ومما يؤيد الثاني ما قيل إنه لما أجلاهم عمر رضي الله عنه مع يهود خيبر كما سيأتي اشترى منهم حصتهم التي هي النصف بمال بيت المال. فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقيل له إن مروان اقتطعها: أي جعلها أقطاعاً له، فقال: أرأيتم أمراً منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة: أي بقوله «لا نورث ما تركناه صدقة» ليس لي بحق، وإني أشهدكم أنني قد رددتها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي صدقة على المسلمين. وطلب الصلح كان بعد أن أرادت غطفان وسيدهم عيينة بن حصن أن يعينوا أهل خيبر، أي وكانوا أربعة آلاف، فإن يهود خيبر لما سمعوا بمجيئه إليهم أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهودة بن قيس في أربعة عشر رجلاً إلى غطفان ليستمدوا بهم، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا على المسلمين، فجمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود خيبر. أي ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم أن لا يعينوهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً سماه لهم، أي وهو نصف ثمارها فأبوا وقالوا جيراننا وحلفاؤنا، فلما ساروا قليلاً سمعوا خلفهم في أموالهم وأهلهم حساً ظنوه القوم: أي ظنوا أن المسلمين أغاروا على أهلهم، أي فألقى الله الرعب في قلوبهم فرجعوا على الصعب والذلول: أي مسرعين على أعقابهم فأقاموا في أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أهل خيبر، أي وفي رواية سمعوا صوتاً: أيها الناس أهليكم خولفتم إليهم، فرجعوا فلم يروا لذلك نبأ.

وبدل للثاني أن غطفان لما قدموا خيبر، قال عيينة بن حصن لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد وجده فتح حصونها: أعطنا الذي وعدتنا. وفي رواية: أعطني مما غنمت من حلفائي، فإني امتنعت عنك وعن قتالك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبت، ولكن الصياح الذي سمعت أنفذك إلى أهلك ولكن لك ذو الرقبية، قال عيينة: وما ذو الرقبية؟ قال الجبل الذي رأيت في منامك أنك أخذته.

أي فإن عيينة بن حصن لما سمع الصوت ورجع إلى أهله ولم يجد شيئاً رجع بعد ذلك بمن معه إلى خيبر وأنهم بالقرب منها عرسوا من الليل، فنام عيينة وانتبه وقال لقومه: أبشروا فإني رأيت الليلة في النوم أنني أعطيت ذا الرقبية وهو جبل بخيبر، لقد والله أخذت برقبة محمد، فلما قدم خيبر وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر الحديث. وقدم عليه حينئذ أيضاً حجاج بن علاط السلمي وأسلم، والعلاط: وسم في العنق، وهو أبو نصر بن حجاج الذي نفاه عمر رضي الله عنه لما سمع أم الحجاج بن يوسف الثقفي تهتف به وتقول الأبيات التي منها:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها
أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

ومن ثم قال عروة بن الزبير يوماً للحجاج: يا ابن المتمنية يعيره بذلك، وكان الحجاج مكثراً من المال، فقال: يا رسول الله إن مالي عند امرأتي بمكة ومتفرق في تجار مكة، فأذن لي أن آتي مكة لأخذ مالي قبل أن يعلموا بإسلامي فلا أقدر على أخذ شيء منه، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لا بد لي من أن أقول: أي أتقول وأذكر ما هو خلاف الواقع: أي ما أحتال به لما يوصل إلى أخذ مالي، قال: قل، قال: فخرجت حتى انتهيت إلى الحرم، فإذا رجال من قريش يتشممون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار إلى خيبر: أي أهل القوة والمنعة بعدما وقع بينهم من المراهنة على مائة بعير في أن النبي صلى الله عليه وسلم يغلب أهل خيبر أولاً، فقال حويطب بن عبد العزى وجماعة بالأول، وقال عباس بن مرداس وجماعة بالثاني، فقالوا: حجاج عنده والله الخبر، ولم يكونوا علموا بإسلامي: يا حجاج إنه قد بلغنا أن القاطع يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سار إلى خيبر، فقلت: عندي من الخبر ما يسركم، فاجتمعوا عليّ يقولون: إيه يا حجاج؟ فقلت لهم: لم يلق محمد وأصحابه قوماً يحسنون القتل غير أهل خيبر، فهزم هزيمة لم يسمع بمثله قط وأسر محمد وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فنقلته بين أظهرهم.

وفي لفظ: يقتلونه بمن كان أصاب من رجالهم، فصاحوا وقالوا لأهل مكة: قد جاءكم الخبر، هذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم. قال حجاج: وقلت لهم أعينوني على غرمائي، أريد أن أقدم فأصيب من غنائم محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هناك، فجمعوا لي مالي على أحسن ما يكون، ففشا ذلك بمكة وأظهر المشركون الفرح والسرور، وانكسر من كان بمكة من المسلمين، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، فجعل لا يستطيع أن يقوم، ثم بعث إلى حجاج غلاماً وقال: قل له: يقول لك العباس: الله أعلى وأجل من أن يكون الذي جئت به حقاً، فقال له حجاج: اقرئ عليّ أبي الفضل السلام وقل له ليخل لي بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره، واكتم عني، فأقبل الغلام، فقال: أبشر أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً كأن لم يمسه شيء وأخبره بذلك فأعتقه العباس رضي الله تعالى عنه وقال: لله عليّ عتق عشر رقاب.

فلما كان ظهراً جاءه حجاج فناشده الله أن يكتم عنه ثلاثة أيام، أي وقال إني أخشى الطلب، فإذا مضت ثلاث، فأظهر أمرك، فوافق العباس على ذلك فقال: إني قد أسلمت، وإن لي مالاً عند امرأتي ودينياً على الناس، ولو علموا بإسلامي لم يدفعوه إليّ، إني تركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فتح خيبر وجزت سهام الله وسهام رسوله فيها، وتركت عروساً بابنة ملكهم حيي بن أخطب، وقتل ابن أبي الحقيق.

فلما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس تلك الليالي الثلاث، فلما مضى حجاج أي ومضت الثلاث عمد العباس رضي الله عنه إلى حلة فلبسها، وتخلق بخلوق وأخذ بيده قضيباً، ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذ مرّ بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل، هذا والله التجلد بحرّ المصيبة، قال: كلا الذي حلفتكم به لم يصبني إلا خير بحمد الله، أخبرني حجاج أن خير فتحها الله على يد رسوله، وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حبي بن أخطب لنفسه، وأنه تركه عروساً بها، أي وإنما قال ذلك لكم ليخلص ماله، وإلا فهو ممن أسلم، فرد الله الكأبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، فقال المشركون: ألا يا عباد الله انفلت عدو الله، يعنون حجاجاً، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن، ولم يلبثوا إن جاءهم الخبر بذلك هذا.

وفي الدلائل للبيهقي رحمه الله: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر قال حجاج بن علاط: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لي بمكة مالاً وإن لي بها أهلاً. وأنا أريد أن أتيمهم، فأنا في حل إن أنا نلت منك وقلت شيئاً، فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول ما شاء، فقال لامرأته حين قدم: أخفي عليّ، واجمعي ما كان عندك، فأني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوا، وأصببت أموالهم، ففشا ذلك بمكة، فاشتد ذلك على المسلمين، وأظهر المشركون فرحاً وسروراً، وبلغ العباس رضي الله تعالى عنه الخبر، فقعده وجعل لا يستطيع أن يقوم، فأرسل العباس رضي الله تعالى عنه غلاماً له إلى الحجاج: ويليك ما تقول فالذي وعد الله خير مما جئت به، فقال حجاج: يا غلام اقرئ أبا الفضل السلام، وقل له: فليخل بي في بعض بيوته فأتته بالخبر على ما يسره. فلما بلغ العبد باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس فرحاً حتى قبل ما بين عينيه، فأخبره بقول حجاج فأعتقه. ثم جاء حجاج، فأخبره بافتتاح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وغنم أموالهم، وأن سهام الله قد جرت فيها، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم اصطفى صفية بنت حبي لنفسه، وخيرها بين أن يعتقها وتكون له زوجة أو يلحقها بأهلها فاخترت أن يعتقها وتكون له زوجة، ولكن جئت لمالي هاهنا أن أجمعه وأذهب به، وإنني استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول، فأذن لي أن أقول ما شئت، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثاً ثم اذكر ما شئت. قال: فجمعت له امرأته متاعه، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس رضي الله تعالى عنه امرأة حجاج فقال: ما فعل زوجك؟ قالت: ذهب، وقالت: لا يحزنك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، فقال: أجل، لا يحزنني الله، فلم يكن لمحمد إلا ما أحب، فتح الله على يد رسوله خيبر، واصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه، فإن كان لك في زوجك حاجة فالحقي به،

قالت: أظنك والله صادقاً، قال: فإني والله صادق، والأمر على ما أقول. ثم ذهب حتى أتى مجلس قريش الحديث.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726
قال: ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبير كان التمر أخضر، فأكثر الصحابة من أكله، فأصابتهم الحمى، فشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بَرِّدُوا لها الماء في الشنان: أي القرب، ثم صبوا عليكم منه بين أذاني الفجر، واذكروا اسم الله عليه، ففعلوا، فذهبت عنهم.
وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه: أصابتنى ضربة يوم خيبر، قال الناس: أصيب سلمة بن الأكوع، فأتيت رسول الله، فنفت فيها ثلاث نفات فما اشتكيت منها ساعة.
وفي هذه الغزوة أراد أن يتبرز، فقال لابن مسعود رضي الله تعالى عنه: يا عبدالله انظر هل ترى شيئاً؟ فنظرت فإذا شجرة واحدة فأخبرته، فقال لي: انظر هل ترى شيئاً؟ فنظرت شجرة أخرى متباعدة من صاحبتيها، فأخبرته، فقال: قل لهما إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركما أن تجتمعا، فقلت لهما ذلك فاجتمعا، فاستتر بهما، ثم قام فانطلقت كل واحدة إلى مكانها.

وفي الإمتاع عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما: سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا وادياً أفيح فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فاتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول الله فلم ير شيئاً يستتر به فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إحدهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: انقادي عليّ باذن الله تعالى، فانقادت معه كالبيعر المخشوش الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها. فقال: انقادي عليّ باذن الله تعالى، فانقادت معه كذلك، حتى كان بالنصف مما بينهما ولأم بينهما، وقال التثما عليّ باذن الله تعالى فالتأمتا، قال جابر رضي الله تعالى عنه: فخلوت أحده نفسي، فحانت مني التفاتة، فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلاً وإذا الشجرتان قد افترقتا وذهبت كل واحدة إلى محلها الحديث، ولا بعد في تعدد الواقعة.
ووقع له مجيء بعض الشجر إليه قبل أن يهاجر. فقد جاء أنه خرج إلى بعض شعاب مكة وقد دخله من الغم ما شاء الله من تكذيب قومه، وقولهم له: تضلل آباءك وأجدادك يا محمد، ومن خصبهم له بالدماء، فقال: يا رب أرني اليوم آية اطمئن إليها ولا أبالي بمن أذاني بعدها، وكان ذلك الوادي به شجرة، فأمر أن يدعوا شجرة من تلك الشجر. وفي لفظ: غصناً من أغصان شجرة فدعا ذلك فانتزع من مكانه وجاء إليه وسلم عليه، ثم أمره بالعود فعاد إلى مكانه، فحمد الله وطابت نفسه، وعلم أنه على الحق وقال: لا أبالي بمن أذاني بعد هذا من قومي.

أقول: ووقع له إجابة الحجر. فعن تفسير الفخر الرازي أنه كان مع عكرمة بن أبي جهل بشط ماء، فقال عكرمة للنبي: إن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر، لحجر كان في الجانب الآخر يسبح في الماء ويجيء إليك ولا يغرق، فأشار إليه،

فانقلع ذلك الحجر من مكانه وسبح حتى صار بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد له بالرسالة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعكرمة: يكفيك هذا، فقال حتى يرجع إلى مكانه، فأشار إليه فرجع إلى مكانه، ولم يسلم عكرمة في ذلك الوقت، وإنما أسلم يوم فتح مكة، والله أعلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وعند خروجه إلي هذه الغزوة أمر منادياً ينادي من كان مضيعاً أو ضعيفاً أو مصعباً، أي راكباً دابة صعبة فليرجع، فرجع ناس، وارتحل مع القوم رجل على بكر صعب أو ناقه صعبة، فنفر مركوبة فصرعه، فاندقت فخده، فمات، فلما جيء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما شأن صاحبكم؟ فأخبروه، قال: يا بلال ما كنت أذنت في الناس من كان مصعباً: أي راكباً دابة صعبة فليرجع، قال: بلى، فأبى أن يصلي عليه، وأمر بلالاً فنادى في الناس: الجنة لا تحل لعاص ثلاثاً، وفيها مات شخص من الصحابة، فقال: صلوا على صاحبكم، وامتنع من الصلاة عليه، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: إن صاحبكم غل في سبيل الله، ففتشنا متاعه فوجدنا خرزاً من خرز اليهود لا يساوي درهمين. وفيها أنه قال لرجل من المسلمين: هذا من أهل النار، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالاً أشد القتال، فارتاب بعض الصحابة: أي كيف يكون من أهل النار مع هذه المقاتلة الشديدة، فلما كثرت الجراحات في ذلك الرجل ووجد ألمها أخرج سهماً من كنانته ونجر نفسه، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قم يا بلال فأذن «لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة» الحديث.

وفي رواية «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة» وتقدم في غزوة أحد مثل ذلك. ولا بعد في التعدد إن لم يكن من الاشتباه على الراوي.

أقول: في سيرة الحافظ الدمياطي: لما فتحت خيبر واطمأن الناس جعلت زينب ابنة الحارث أخي مرحب، وهي امرأة سلام بن مشكم تسأل: أي الشاة أحب إلى محمد؟ فيقولون الذراع، قيل: وإنما أحب الذراع لأنه هادي الشاة وأبعدها من الأذى، فعمدت إلى عنز لها فذبحتها وصلتها، ثم عمدت إلى سم لا يلبث أن يقتل من ساعته فسمت الشاة وأكثرت في الذراعين والكتف، فلما غابت الشمس وصلى المغرب بالناس انصرف وهي جالسة عند رحله، فسأل عنها، فقالت: يا أبا القاسم هدية أهديتها لك، فأمر بها فأخذت منها فوضعت بين يديه وأصحابه حضور أو من حضر منهم، وفيهم بشر بن البراء بن معرور، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادنوا فقعدوا، وتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذراع فانتهش منه، فلما ازدرد رسول الله صلى الله عليه وسلم لقمة ازدرد بشر ما في فيه وأكل القوم منها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارفعوا أيديكم، فإن هذه الذراع أو الكتف تخبرني أنها مسمومة، فقال بشر: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك في أكلتي، أي لقمتي التي أكلت، فما منعني أن أفضها إلا أن أنغص عليك طعامك، فلما أكلت ما في فيك لم أرغب بنفسني عن نفسك، ورجوت أن لا تكون ازدردتها، فلم يقم بشر من مكانه حتى عاد لونه كالطيلسان أي أسود، وماطله وجعه سنة لا يتحول إلا ما حول ثم

مات.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقال بعضهم: فلم يرق بشر من مكانه حتى توفي. أي والمتبادر من المكان مكان الأكل، وربما يدل له عدم ذكر بشر في الحجامة، وطرح منها لكلب فمات اه، أي فلم يأكل إلا بشر رضي الله تعالى عنه.

وحينئذ يكون المراد بقوله: وأكل القوم منها: أي أرادوا الأكل، أي ووضعوا أيديهم، بدليل قوله «ارفعوا أيديكم» ويدل له ما يأتي عن الإمتاع. وفي الأصل أنها أهدتها لصفية رضي الله تعالى عنها، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية ومعه بشر بن البراء بن معرور فقدمت إليهما تلك الشاة، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتف، وفي رواية الذراع، فانتهش منه قطعة فلاكها ثم ألقاها: أي ولم يبتلعها، أي وانتهش من الشاة بشر قطعة فابتلعها، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تناول شيء منها وقال إن كتف هذه الشاة تخبرني أنني نعت فيها، فقال بشر: والذي أكرمك لقد وجدت ذلك فيما أكلته، فما منعني من لفظه إلا أنني أعظمت أن أنغصك طعاماً، فلم يرق بشر رضي الله تعالى عنه من مكانه حتى كان لا يتحول إلا إن حوّل، وإلى هذا أشار الإمام السبكي في تائيته بقوله:

وأحييت عضو الشاة بعد مماتها

فجاء بنطق موضح للنصيحة

وقال رسول الله لا تك أكلي

فزنب سامنتي الهوان وسمت

وهذا يؤيد القول بأن كلام نحو الجماد يكون بعد أن يخلق الله فيه الحياة. ومذهب الأشعري رحمه الله أن الله يخلق في نحو الجماد حروفاً وصوتاً يحدث ذلك فيه، أي وليس من لازم ذلك وجود الحياة.

واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم على كاهله، أي حجه أبو طيبة مولى بني بياضة وقيل أبو هند وهو مولى بني بياضة أيضاً، أي وأمر أصحابه فاحتجموا أوساط رؤوسهم أي وهم كما في الإمتاع ثلاثة نفر، ووضعوا أيديهم في الطعام ولم يصيبوا منه شيئاً. وفيه أنه لا معنى لاحتجام أصحابه إذا لم يأكلوا شيئاً، ومن ثم قال في سفر السعادة: واحتجم بين الكتفين في ثلاثة مواضع، وأمر من أكل أي من أراد أن يأكل معه بذلك، إلا أن يقال مجرد وضع اليد ربما سري بسببه السم إلى باقي الجسد، وقال «الحجامة في الرأس هي المعينة، أمرني بها جبريل عليه السلام حين أكلت طعام اليهودية».

وقد احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير هذه الواقعة مراراً في محالٍ مختلفة، فقد جاء أنه احتجم على الأخدعين مرتين، واحتجم وسط رأسه الشريف، وكان يسميها منقذة أي وذلك لما سحر.

ففي (سفر السعادة): لما سحره اليهودي ووصل المرض إلى الذات المقدسة النبوية أمر بالحجامة على قبة رأسه المباركة. واستعمال الحجامة في كل متضرر بالسحر غاية الحكمة ونهاية حسن المعالجة، ومن لاحظ له في الدين

والإيمان يستشكل هذا العلاج هذا كلامه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

ودخل عليه الأقرع بن حابس وهو يحتجم في القمحدوة، فقال: يا ابن أبي كبشنة لم احتجمت وسط رأسك؟ فقال: يا ابن حابس إن فيها شفاء من وجع الرأس والأضراس والنعاس والجنون، أي وفي الحديث «الحجامة في الرأس شفاء من سبع: من الجنون والصداع والجذام والبرص والنعاس ووجع الضرس وظلمة يجدها في عينيه» وفي الحديث «اجتنبوا الحجامة يوم الجمعة والسبت والأحد» وفي بعض الروايات «يوم الأحد شفاء» ويحتاج للجمع.

وجاء النهي عن الحجامة يوم الثلاثاء أشد النهي، وقال «فيه ساعة لا يرقأ فيها الدم» وفي حديث بعض رواة واهي الحديث «احتجم ثلاثاً في النقرة والكاهل وسط الرأس، وسمى واحدة الدافعة والأخرى المعينة والأخرى المنقذة» وقال «خير ما تداويتم به الحجامة، وما مررت ليلة أسري بي بملا من الملائكة إلا قالوا: يا محمد مرأمتك بالحجامة».

قال في الهدى: والحجامة في البلاد الحارة أنفع من الفصد. والأولى أن تكون في الربيع الثالث من الشهر لأنه وقت هيجان الدم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «من احتجم لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين كانت شفاء من كل داء، والحجامة على الريق دواء، وعلى الشيع داء».

وتكره في الأربعاء والسبت، قيل ويوم الجمعة. وفي الحديث «من احتجم يوم الأربعاء أو السبت وحصل له برص لا يلومن إلا نفسه» وجاء أمره باجتنب الحجامة يوم الأربعاء فإنه اليوم الذي أصيب فيه أيوب عليه السلام بالبلاء، وما يبدو جذام ولا برص إلا يوم الأربعاء وليلة الأربعاء.

ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تلك اليهودية فقال: أسممت هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه التي في يدي وهي الذراع، قالت: نعم، قال: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: بلغت من قومي ما لا يخفى عليك. أي وفي لفظ: قتلت أبي وعمي وزوجي، ونلت من قومي ما نلت، فقلت: إن كان ملكاً استرحنا منه، وإن كان نبياً فسيخبر، فعفا عنها رسول الله ، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله:

ثم سمت له اليهودية الشاة
ة وكم سام الشقوة الأشقياء
فأذاع الذراع ما فيه من سم
بنطق إخفاؤه إبداء

وبخلق من النبي كريم

لم تقاصص بجرحها العجماء

أي ثم جعلت اليهودية السم القاتل لوقته في الشاة، ومرات كثيرة يطلب الشقوة ويتحلى بها الأشقياء الذين لا خلاق لهم، فأخبر ذلك الذراع النبي صلى الله عليه وسلم بالنطق بما فيه من السم، إخفاء ذلك النطق عن الحاضرين إبداء وإظهار له ، وبسبب ما تحلى به من كمال الحلم والعفو لم يقاصص تلك المرأة بجرحها، أي بجرح سمها، لأن السم يجرح الباطن كما يجرح الحديد الظاهر.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

فلما مات بشر رضي الله تعالى عنه أمر بها فقتلت، أي وقيل وصلبت كما في أبي داود وعبارة السهيلي رحمه الله: وقد روى أبو داود أنه قتلها، ووقع في كتاب (شرف المصطفى) أنه قتلها وصلبها هذا كلامه. وقيل إنما تركها لأنها أسلمت، فالعفو عنها: أي عدم مؤاخذتها كان قبل أن يموت بشر رضي الله تعالى عنه، فلما مات بشر دفعها إلى أولياء بشر فقتلواها.

وفي الإمتاع: واختلفت الآثار في قتلها، ففي صحيح مسلم أنه لم يقتلها، وقال ابن إسحاق أجمع أهل الحديث على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلها، وقد علمت أنه لا مخالفة، لكن قتلها مشكل على ما عليه أئمتنا معاشر الشافعية من أن من ضيف بمسموم يقتل غالباً مميّزاً فمات كان شبه عمد لا قود فيه.

وفي كلام بعضهم أنها قالت: قد استبان لي الآن أنك صادق، وأني أشهدك ومن حضر أني على دينك، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فانصرف عنها حين أسلمت، كذا في جامع معمر عن الزهري أنها أسلمت، قال معمر: هكذا قال الزهري إنها أسلمت والناس يقولون قتلها وإنها لم تسلم، وأمر بتلك الشاة فأحرقت.

وفي رواية أنه بعد سؤال اليهودية واعترافها بسط يده إلى الشاة، وقال لأصحابه: كلوا باسم الله، فأكلوا وقد سموا الله فلم يضر ذلك أحداً منهم، قال ابن كثير: وفيه نكارة وغرابة شديدة، هذا كلامه.

ويذكر «أن أخت بشر بن البراء دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه، فقال لها: هذا أوان انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخبير» والأبهر: العرق المتعلق بالقلب.

وقد قسم غنائم خيبر؛ فأعطى الراجل سهماً، والفارس ثلاثة أسهم بعد أن خمسها خمسة أجزاء؛ ومن جملة من أعطاه أبو سبيعة بن المطلب بن عبد مناف واسمه علقمة، ولم يقسم لمن غاب من أهل الحديبية إلا لجابر ابن عبدالله رضي الله تعالى عنهما. ورضخ للنساء، أي وكن عشرين امرأة، فيهن صفة عمته وأم سليم وأم عطية الأنصارية.

وعن بعضهم قالت «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة، فقلت: يا رسول الله قد أردن الخروج معك نعين المسلمين ما استطعنا، فقال: على بركة الله، قالت فخرجنا معه، فلما افتتح خيبر رضخ لنا وأخذ هذه القلادة ووضعها في عنقي، فوالله لا تفارقني أبداً، وأوصت أنها تدفن معها». زاد في السيرة الهشامية «أنها قالت: وكنت جارية حديثة السن، فأردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم على حقيبة رحله، قالت: فلما كان الصبح وأناخ راحلته ونزلت عن حقيبة رحله، وإذا بها دم مني وكانت أول حيضة حضتها. قالت: فتقبضت إلى الناقة واستحييت، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حالي قال: مالك؟ لعلك نفسيت، قالت: قلت نعم، قال: فأصلي من نفسك، ثم خذي إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدم،

ثم عودي لمرتحلك» قالت: فكنت لا أطهر من حيضة إلا جعلت في طهري ملحاً، وأوصت أن يجعل ذلك في غسلها حين ماتت.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

ثم دفع لأهل خيبر الأرض لما قالوا له: نحن أعلم بها منكم، وأعمرها بشرط ما يخرج منها من تمر أو زرع، وقال لهم: على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. أي وهذا يخاف ما عليه أئمتنا من أنه لا يجوز في عقد الجزية أن يقول الإمام أو نائبه: أقركم ما شئنا، بخلاف ما شئتم، لأنه تصريح بمقتضى العقد، لأن لهم نبذ العقد شاؤوا. وذكر أئمتنا أنه يجوز منه لا منا أن يقول: أقررتمك ما شاء الله لأنه يعلم مشيئة الله دوننا، والشطر في هذا ظاهر في النصف، ولم أقف على تعيينه في رواية.

وكان يرسل إلى أهل خيبر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه خارصاً. قيل وإنما خرس عليهم عبدالله عاماً واحداً؛ ثم مات، وهذا يخالفه قول بعضهم: كان عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه يأتيهم كل عام يخرصها يعني الثمار عليهم ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه، فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم وحيي إياه على أن لا أعذل، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وكان يخرص عليهم بعده جبار بن صخر، وكان خارصاً لأهل المدينة. أقول: أي ساقاهم على النخل، وزارعهم على الأرض، هكذا استدل بذلك أئمتنا على ما ذكر: أي على جواز المساقاة، وجواز المزارعة تبعاً لها، ويكون ذلك مخصصاً للنهي عن المزارعة: أي ما لم تكن تبعاً للمساقاة، وهو لا يتم إلا إن كانت أرض خيبر جميعها بين النخل بحيث يعسر سقيها بدون النخل، وأنه دفع لهم بذراً لأن في المزارعة يجب أن يكون البذر من المالك لا من العامل. ولم أقف في شيء من الطرق على أنه دفع لهم بذراً، بل ظاهر الروايات يدل على أن البذر معهم، وصرحت به رواية مسلم.

ويبعد أن تكون أراضي خيبر كلها كانت بين النخل بحيث يغسر سقيها بدون النخل، وحينئذ يكون الواقع في خيبر إنما هي المخابرة، وهي المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها والبذر من العامل، وهي باطلة عندنا، بل قيل عند المذاهب الأربعة ولو تبعاً للمساقاة، والله أعلم.

ثم إن الصديق رضي الله تعالى عنه أقرهم بعده، ثم أقرهم عمر رضي الله تعالى عنه إلى أن خرج ولده عبدالله رضي الله تعالى عنهما في خلافة أبيه إلى خيبر، فعدي عليه من الليل ففدعت يده ورجلاه، فقام عمر رضي الله تعالى عنه خطيباً، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عامل أهل خيبر على أموالهم: أي أرضهم ونخلهم، وقال لهم نقركم على ما أقركم الله، وإن عبدالله بن عمر خرج إلى ما له هناك فعدي عليه من الليل ففدعت يده ورجلاه، وليس لنا هناك عدو غيرهم. وقد رأيت إجلاءهم أي ووافقهم الصحابة على ذلك، فإن عمر رضي الله تعالى عنه قام خطيباً في الناس، فحمد الله

وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن يهود فعلوا بعبدالله بن عمر ما فعلوا،
وفعلوا بمطهر ابن رافع ما فعلوا مع عدوانهم على عبدالله بن سهيل في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أشك أنهم أصحابه، وأنا أريد أن أجلو يهود،
فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أقركم ما أقركم الله، وقد أذن الله
في إجلائهم، فقام طلحة بن عبيدالله، فقال: قد والله أحسنت يا أمير المؤمنين
ووفقت، فهم أهل سوء، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: من معك على مثل
رايك؟ قال المهاجرون جميعاً والأنصار، فسرى بذلك عمر رضي الله تعالى عنه.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وقوله وفعلوا بمطهر ما فعلوا، أي لأن مطهر بن رافع قدم خبيراً بعلاج من
الشام عشرة عبيد له ليعملوا له بأرضه، فأقام بخير ثلاثة أيام، فقال لهم رجل
من يهود: أنتم نصارى ونحن يهود، وهذا سيدكم من قوم عرب قهرونا بالسيف،
وأنتم عشرة رجال وهو رجل واحد يسوقكم إلى الجهد والبؤس وتكونون في
رق شديد، فإذا خرجتم من قريتنا فاقتلوه، فقالوا له: ليس معنا سلاح، فدست
اليهود لهم سكينتين أو ثلاثة، فلما خرجوا من خبير أقبلوا على مطهر
بسكاكينهم، فخرج مطهر يعدو إلى سيفه، وكان في قرابه على راحلته،
فأدركوه قبل الوصول إليه وبعجوا بطنه، ثم انصرفوا سراعاً حتى دخلوا خبير
على يهود فأوهمهم وزودوهم إلى الشام، وجاء عمر رضي الله تعالى عنه الخبر
بقتل مطهر وما صنعت به يهود.

وقوله مع عدوانهم على عبدالله بن سهيل، أي فإنه وجد قتيلاً في خبير لأهل
حصن الشقي، فسألهم أخوه محيصة، فقالوا له: لا والله ما لنا به من علم، قال:
فجئت أنا وأخي عبد الرحمن وأخي حويصة وهو أكبرنا إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم فأراد أخي عبد الرحمن يتكلم وهو أصغرنا، فقال له رسول الله
صلى الله عليه وسلم: كبر كبر فسكت، فأردت أن أتكلم، فقال: كبر كبر
فسكت، فتكلم أخي حويصة، وذكر أن اليهود تهمتنا وظننتنا، فقال: إما أن يدوا
صاحبكم، وإما أن ياذنوا بحرب، وكتب إليهم في ذلك، وكتبوا إليه: ما قتلناه،
فقال لي ولأخوي: تحلفون خمسين يمينا وتستحقون دم صاحبكم؟ فقلنا: يا
رسول الله لم نحضر ولم نشهد، قال: فتحلف لكم يهود؟ قلنا: يا رسول الله
ليسوا بمسلمين، فواده رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده بمائة ناقة:
خمس وعشرين جذعة وخمس وعشرين حقة، وخمس وعشرين ابنة لبون،
وخمس وعشرين بنت مخاض.

وعن ابن المسيب رحمه الله: كانت القسامة في الجاهلية، ثم أقرها في
الإسلام في الأنصاري الذي وجد قتيلاً في جبّ من جباب يهود، فلما أجمع
الصحابه على ذلك: أي علي ما أراده سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، جاءه
أحد بني الحقيق، فقال: يا أمير المؤمنين أخرجنا وقد أقرنا محمد وعاملنا على
أموالنا وشرط ذلك لنا؟ فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: أظننت أنني نسيت
قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لك «كيف بك إذا أخرجت من خبير يعدو
بك قلوصلك ليلة بعد ليلة؟» فقال: هذه كانت هزيلة من أبي القاسم، فقال

كذبت يا عدو الله، ثم بلغه رضي الله تعالى عنه أنه قال: «لا يبقى دينان في جزيرة العرب» وقوله «لأخرجن اليهود والنصارى» وفي لفظ «المشركين من جزيرة العرب» وفي رواية «آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم: أخرجوا اليهود من الحجاز» وفي لفظ «إن عشت أخرجت اليهود والنصارى من الحجاز» أي وهو مكة والمدينة واليمامة وطرقها وقراها كالطائف لمكة، وخيبر للمدينة، والمراد بجزيرة العرب الحجاز المشتملة عليه، أي فالمراد بجزيرة العرب بعضها وهو الحجاز خاصة، لأن عمر لما أجلاه ذهب بعضهم إلى تيماء، وبعضهم إلى أريحا، وتيماء من جزيرة العرب لكنها ليست من الحجاز، وقيل له حجاز لأنه حجز بين نجد وتهامة. ففحص عمر رضي الله تعالى عنه عن ذلك حتى تيقنه وثلج صدره فأجلى يهود خيبر، أي وأعطاهم قيمة ما كان لهم من ثمر وغيره.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

وأجلى يهود فدك ونصارى نجران، فلا يجوز إقامتهم بذلك أكثر من ثلاثة أيام غير يومي الدخول والخروج، ولم يخرج يهود وادي القرى وتيماء لأنهما من أرض الشام لا من الحجاز.

ثم ركب في المهاجرين والأنصار، وخرج معه جبار بن صخر ويزيد بن ثابت فقسما خيبر على أصحاب السهمان التي كانت عليها كما قسمت على عهد رسول الله .

وروي أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اسمك؟ قال: يزيد بن شهاب، أخرج الله من نسل جدّي ستين حماراً كلهم لا يركبهم إلا نبي، وقد كنت أتوقعك لتركبني لم يبق من نسل جدي غيري، ولم يبق من الأنبياء غيرك، قد كنت لرجل يهودي فكنت أتعتز به عمداً، وكان يجيع بطني ويضر بطهري، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: فأنت يعفور، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثه إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه، فإذا خرج صاحب الدار أو ما إليه أن أجب رسول الله ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ألقى نفسه في بئر جزعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات: قال ابن حبان: هذا خبر لا أصل له وإسناده ليس بشيء. وقال ابن الجوزي: لعن الله واضعه فإنه لم يقصد إلا القدح في الإسلام والاستهزاء به. وقد قال شيخنا العماد بن كثير هذا شيء باطل لا أصل له من طريق صحيح ولا ضعيف، وسألت شيخنا المزي رحمه الله فقال: ليس له أصل وهو ضحكة، وقد أودعه كتبهم جماعة منهم القاضي عياض في الشفاء والسهيلي في روضه، وكان الأولى ترك ذكره، ووافق على ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى وغفر لنا وله وللمسلمين.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 726

غزوة وادي القرى

ثم عند منصرفه من خيبر أتى وادي القرى وأهله يهود، فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقتلوا: أي برز رجل منهم فقتله الزبير رضي الله تعالى عنه،

فبرز آخر فقتله عليّ كرم الله وجهه، ثم برز آخر فقتله أبو دجانة رضي الله تعالى عنه، فقاتلهم المسلمون إلى المساء، وقتل منهم أحد عشر رجلاً، ففتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنوة، وغنمه الله أموال أهلها، وأصاب المسلمون منهم أثاثاً ومتاعاً، فخمسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك الأرض والنخيل في أيدي أهلها. أي من بقي منهم، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر. وفي لفظ: ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهود وترك في أيديهم أراضي وادي القرى والبساتين والحدائق، يعملون فيها وبأخذون الأجرة. وقيل حاصرهم ليلي، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة. فعلى الأول تضم للغزوات التي وقع فيها القتال.

ولما بلغ أهل تيمنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل خيبر وفدك ووادي القرى صالحوه على الجزية، فأقاموا ببلادهم وأرضهم في أيديهم: قال: وقتل عبده الأسود الذي كان يرحل لرسول الله، بينما هو يحط رحله جاءه سهم فقتله، فقال الناس: هنيئاً له الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها من خيبر من الغنائم قبل أن تقسم تشتعل عليه ناراً انتهى.

ولما قرب من المدينة سار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليلة، فلما كان قبيل الصبح نزل وعرس وقال: ألا رجلاً حافظاً لعينه يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام، فقال بلال رضي الله تعالى عنه: أنا يا رسول الله أحفظه عليك، وفي لفظ قال: يا بلال اكلاً لنا الليل، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقام بلال رضي الله تعالى عنه يصلي ما شاء الله، ثم استند إلى بغير واستقبل الفجر برمقه، فغلبته عينه فنام، فلم يستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة، رضي الله تعالى عنهم حتى ضربتهم الشمس، وكان أول من استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما صنعت يا بلال قال: يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: صدقت، أي وتبسم. وفي رواية: أنه التفت إلى أبي بكر الصديق وقال له: إن الشيطان أتى بلالاً وهو قائم يصلي، فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي حتى نام، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً، فأخبر بلال رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أخبر به الصديق، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أشهد أنك رسول الله.

ثم سار بالناس يقود بغيره غير كثير، ثم أناخ، فتوضأ وتوضأ الناس وأمر بلالاً فأقام الصلاة. وفي رواية: فاقتادوا رواحلهم. وفي رواية: فاستيقظ القوم وقد فزعوا، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادي وقال: هذا واد به شيطان، فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادي، الحديث. فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها، فإن الله تعالى يقول {وأقم الصلاة لذكري}. وفي رواية: إن الله قبض أرواحنا، ولو شاء ردها إلينا في حين غير هذا، فإذا رقد أحدكم عن الصلاة أو نسيها، ثم فزع إليها فليصلها في وقتها. أي وقيل إن ذلك

كان في مرجعه من الحديبية، وقيل في مرجعه من حنين، وقيل في مرجعه من تبوك. قال في الإمتاع: وهذا لا يصح لأن الآثار الصحاح على خلافه، أي دالة على أن ذلك كان في رجوعه من وادي القرى.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 775

وقد يقال: لا مانع من التعدد، ويدل للقول بأن ذلك كان في مرجعه من الحديبية ما جاء عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية» وفي رواية «لما انصرفنا من غزوة الحديبية قال النبي صلى الله عليه وسلم: من يحرسنا الليلة؟ فقلت: أنا يا رسول الله، قال: إنك تنام، ثم أعاد: من يحرسنا الليلة؟ فقلت: أنا حتى أعاد ذلك مراراً وأنا أقول أنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فأنت، قال: فحرستهم حتى إذا كان وجه الصبح أدركني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك تنام فنمت، فما أيقظنا إلا حر الشمس في ظهورنا» وسيأتي في تبوك عن الحافظ ابن حجر اختلاف العلماء في التعدد.

وكان بين الحديبية وعمرة القضاء، إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة الحنفي رضي الله تعالى عنهم. وقيل كان بعد عمرة القضاء، ويشهد له ما جاء عن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه أنه قال: لما أراد الله عز وجل ما أراد بي من الخير قذف في قلبي الإسلام وحضر لي رشدي، وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا انصرف، وأنا أرى في نفسي أنني موضع في غير شيء وأن محمداً يظهر، فلما جاء لعمرة القضاء تغيبت ولم أشهد دخوله، فكان أخي الوليد بن الوليد دخل معه فطلبني فلم يجدني، فكتب إليّ كتاباً، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد - فإني لم أر أعجب من ذهب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد، قد سألتني عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أين خالد، فقلت: يأتي الله به، فقال: ما مثله يجهل الإسلام، ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتك مواطن صالحة، فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرتني مقالة رسول الله، ورأيت في المنام كأنني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة، فلما اجتمعنا للخروج إلى المدينة لقيت صفوان، فقلت: يا أبا وهب، أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا، قال: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً، قلت: هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال مثل الذي قال صفوان، قلت: فإنتم ذكر ما قلت لك، قال: لا أذكره. ثم لقيت عثمان بن طلحة: أي الحنفي، قلت: هذا لي صديق، فأردت أن أذكر له ثم ذكرت من قتل من آباءه: أي قتل أبيه طلحة وعمه عثمان، أي وقتل إخوته الأربع مسافع والجلال والحارث وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد كما تقدم فكرهت أن أذكر له، ثم قلت: وما عليّ: فقلت له: إنما نحن بمنزلة

ثعلب في حجر لو صب فيه ذنوب من ماء لخرج، ثم قلت له: ما قلته لصفوان وعكرمة، فأسرع الإجابة، فواعدني إن سبقني أقام في محل كذا، وإن سبقته إليه انتظرتة، فلم يطلع الفجر حتى التقينا فعدونا حتى انتهينا إلى الهدية: اسم محل، فنجد عمرو بن العاص بها، فقال: مرحباً بالقوم، فقلنا وبك، أين مسيركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام، قال: وذلك الذي أقدمني. وفي لفظ قال عمرو لخالد: يا أبا سليمان أين تريد؟ قال: والله لقد استقام الميسم: أي تبين الطريق وظهر الأمر، وإن هذا الرجل لنبي فأذهب فأسلم، فحتى متى؟ قال عمرو: وأنا ما جئت إلا لأسلم، فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة الشريفة، فأخنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسرى بنا، أي وقال رمتمكم مكة بأفلاذ كبدها، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله فلقيني أخي، فقال: أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سرى بقدمكم وهو ينتظركم فأسرعنا المشي، فاطلعت عليه فما زال يتبسم إليّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، قال: الحمد لله الذي هدانا لهذا، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير. قلت: يا رسول الله ادع الله لي أن يغفر لي تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك، فقال: «الإسلام يجب ما كان قبله» أي وتقدم عثمان وعمرو فأسلما.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 775

وفي رواية عن عمرو بن العاص قال: قدمنا المدينة فأخنا بالحرّة فلبسنا من صالح ثيابنا ثم نودي بالعصر، فانطلقنا حتى اطلعنا عليه وإن لوجهه تهلاًّ والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا؛ تقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه، فما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه، قال: فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضرنني ما تأخر، فقال: «إن الإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها» فوالله ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحداً من الصحابة في أمر حربه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبي بكر رضي الله تعالى عنه بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر رضي الله تعالى عنه بتلك الحالة، وكان عمر رضي الله تعالى عنه على خالد كالعاتب، وتقدم أن عمراً رضي الله تعالى عنه أسلم على يد النجاشي رضي الله تعالى عنه. قال بعضهم: وفي إسلام عمرو على يد النجاشي لطيفة وهي صحابي أسلم على يد تابعي. ولا يعرف مثله. ومن حين أسلم خالد رضي الله تعالى عنه لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوليه أعنة الخيل فيكون في مقدمها. والله أعلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 775
عمرة القضاء أي ويقال لها عمرة القصية

أي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضى قريشاً عليها، أي صالحهم عليها، ومن ثم قيل لها عمرة الصلح، ويقال لها عمرة القصاص. قال السهيلي

رحمه الله: وهذا الاسم أولى بها، لقوله تعالى {الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمت قصاص} قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فتحصل من أسمائها أربعة: القضاء، والقضية، والصلح، والقصاص: أي لأنها كانت في شهر ذي القعدة من السنة السابعة، أي وهو الشهر الذي صدّه فيه المشركون عن البيت منها سنة ست، وليست قضاء عن العمرة التي صدّ عن البيت فيها. فإنها لم تكن فسدت بصددهم له عن البيت، بل كانت عمرة تامة معدودة في عمره التي اعتمرها بعد الهجرة، وهي أربعة: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة لما قسم غنائم حنين، والعمرة التي قرنها مع حجه في حجة الوداع بناء على ما هو الراجح من أنه كان قارناً، ولكنها في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجه.

وقد مكث في مكة ثلاث عشرة سنة لم ينقل عنه أنه اعتمر خارجاً من مكة إلى الحلّ في تلك المدة أصلاً، ولم يفعل هذا على عهده إلا عائشة رضي الله تعالى عنها كما سيأتي في حجة الوداع. وكون العمرة لا تفسد بالصدّ إنما هو على ما يراه إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه. أما على من يرى أن العمرة تفسد بالصدّ عنها، وأنه يجب قضاؤها كما هو المنقول عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه، فواضح أنها قضاء، وهذه العمرة ليست من الغزوات، وإنما ذكرها البخاري فيها، لأنه خرج مستعداً بالسلاح للمقاتلة خشية أن يقع من قريش غدر، وليس من لازم الغزو وقوع المقاتلة، ومن ثم قيل لها غزوة الأمن. وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصداً مكة للعمرة على ما عاقد عليه قريشاً في الحديبية، أي من أنه يدخل مكة في العام القابل معه سلاح المسافر ولا يقيم بها أكثر من ثلاثة أيام.

وفي أنس الجليل ما يفيد أن اشتراط الثلاثة أيام كان في عمرة القضاء، ففيه: ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معتمراً عمرة القضاء، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيم ثلاثة أيام، وأن لا يخرج من أهلها أحد إن أراد أن يتبعه، وأن لا يمنع من أصحابه أحداً أن يقيم بها وأصحابه كانوا ألفين، أي وأمر أن لا يتخلف عنه أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف أحد إلا من استشهد في خيبر ومن مات، وخرج معه جمع ممن لم يشهد الحديبية، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري وقيل غيره، وساق ستين بدنة وقلدها: أي جعل في عنق كل بعير قطعة من جلد أو نعلًا بالية ليعلم أنه هدي فيكف الناس عنه، ولم يذكر هنا الإشعار، أي وجعل عليها ناجية ابن جندب. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 779

قال: وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والدرع والرماح، وقاد مائة فرس عليها محمد بن مسلمة رضي الله عنه، أي وعلى السلاح يشير بوزن أمير ابن سعد، وأحرم من باب المسجد، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدم الخيل أمامه فقيل: يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا أن لا ندخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافرين السيوف في القرب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريباً منا، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً منا، فمضى بالخيل محمد بن مسلمة، فلما كان بمر الظهران وجد نفرًا من قريش فسألوه، فقال: هذا رسول الله صلى

الله عليه وسلم يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله، أي وقد رأوا سلاحاً كثيراً، فخرجوا سراعاً حتى أتوا قريشاً فأخبروهم بالذي رأوا من الخيل والسلاح، ففزعت قريش وقالوا: ما أحدثنا حدثاً، وإنما على كتابنا ومدتنا فقيم يغزونا محمد في أصحابه.

ثم إن قريشاً بعثت مكرز بن حفص في نفر من قريش إليه ، فقالوا والله يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت عليهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر السيوف في القرب، فقال : إني لا أدخل عليهم بسلاح، فقال مكرز: هو الذي تعرف به البرّ والوفاء، ثم رجع مكرز إلى مكة سريعاً وقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح وهو على الشرط الذي شرط لكم انتهى.

فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراًؤهم من مكة حتى لا يروه يطوف بالبيت وهو وأصحابه عداوة وبغضاً وحسداً لرسول الله ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة، أي راكباً ناقته القصواء وأصحابه محدقون به، قد توشحوا السيوف يلبون، ثم دخل من الثنية التي تطلعه على الحجون وهي ثنية كداء بالمد، أي وكان إذا دخل مكة قال: اللهم لا تجعل منيتنا بها، يقول ذلك من حين يدخل حتى يخرج منها، أي وجعل في بطن ناجح، موضع قريب من الحرم، وتخلف عنده جمع من المسلمين؛ أي نحو مائتين من أصحابه عليهم أوس بن خولي، وقعد جمع من المشركين بجبل قينقاع ينظرون إليه وإلى أصحابه وهم يطوفون بالبيت، وقد قالوا: أي كفار قريش: إن المهاجرين أوهنتهم: أي أضعفتهم حمى يثرب. وفي لفظ قالوا: يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، فأطلع الله نبيه على ما قالوا، ثم قال : رحم الله امرأ أراه من نفسه قوة فأمر أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، أي ليروا المشركين أن لهم قوة: أي فعند ذلك قال المشركون: أي قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا، إنهم لينفرون: أي يشيون نفر الطيبي: أي الغزال، وإنما لم يأمرهم بالرمل في الأشواط كلها رفقاً بهم، واضطبع بردائه وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة رضي الله تعالى عنهم كذلك، وهذا أول رمل واضطباع في الإسلام.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 779

وأقام وأصحابه ثلاثة أيام، فلما تمت الثلاثة التي هي أمد الصلح جاء حويطب بن عبد العزى ومعه سهيل بن عمرو رضي الله تعالى عنهما - فإنهما أسلما بعد ذلك - إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرانه بالخروج هو وأصحابه من مكة، فقالوا: نناشدك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه منها، وكان تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها؛ أي وكان اسمها برة فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهي أخت أم الفضل زوج العباس رضي الله تعالى عنهما، وأخت أسماء بنت عميس لأمها زوج حمزة رضي الله تعالى عنه، وكان تزوجه ميمونة قبل أن يحرم بالعمرة، وقيل بعد أن أحل منها، وقيل وهو

محرم، أي وهو ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ورواه الدارقطني من طريق ضعيف عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، فإنه كان قد بعث إليها جعفرًا رضي الله عنه ليخطبها، ولما انتهت إليها خطبة النبي صلى الله عليه وسلم كانت على بعيرها، فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله، أي ومن ثم قيل إنها التي وهبت نفسها للنبي . وقيل جعلت أمرها إلي العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ، أي وقيل جعلت أمرها لأم الفضل أختها فجعلت أم الفضل أمرها للعباس فزوجها العباس وأصدقها عنه أربعمئة درهم، ولا مانع من نكاحه وهو محرم، فإن من خصائصه حل عقد النكاح في الإحرام. أي وفي كلام السهيلي، كان من شيوخنا من يتأول قول ابن عباس: تزوجها محرماً: أي في الشهر الحرام وفي البلد الحرام، ولم يرد الإحرام بالحج، أي كما أراد ذلك الشاعر بقوله في عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه:
قتلوا ابن عفان الخليفة محرماً
ورعاً لم أر مثله مقتولاً
أي في شهر حرام، فإنه قتل في أيام التشريق هذا كلام السهيلي.

قال ابن كثير رحمه الله: وفيه نظر لأن الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما متضاربة بخلاف ذلك التي منها تزوجها وهو محرم هذا كلامه.
وعن ابن المسيب: غلط ابن عباس، أو قال: وهم ابن عباس، ما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو حلال، ومن ثم روى الدارقطني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ميمونة وهو حلال، قال السهيلي: فهذه الرواية عن ابن عباس موافقة لرواية غيره، فقف عليها فإنها غريبة عن ابن عباس.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 779

وذكر بعض فقهاءنا «أنه وكل أبا رافع رضي الله تعالى عنه في نكاح ميمونة رضي الله تعالى عنها» وفي بعض السير، وعن أبي رافع قال «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة وهو حلال وبنى بها وهو حلال، وأنا الرسول بينهما» رواه البيهقي والترمذي والنسائي، وأراد أن يبني بها في مكة فلم يمهله يبنى بها، قال: وقد قال لهم «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، فصنعت لكم طعاماً؟ فقالوا: لا حاجة لنا في طعامك، أخرج عنا من أرضنا، هذه الثلاثة قد مضت» وفي لفظ «قال لهم: إني قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم أن مكثت حتى أدخل بها وأصنع الطعام فأأكل وتأكلون معنا» وفي رواية «جاءوا إليه في قبته التي نصبها بالأبطح، وذلك وقت الظهر، وقيل وقت الصبح» ولا مخالفة لجواز مجيئهم له في الوقتين. وعند مجيئهم له كان مع الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادة، فصاح حويطب: ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث، فغضب سعد بن عبادة رضي الله عنه لما رأى من غلط كلامهم للنبي ، فقال لذلك القائل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض آبائك، أي وفي لفظ قال: يا عاص بظر أمه أرضك وأرض أمك دونه، ليست بأرضك ولا أرض آبائك، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً، فتبسم رسول

الله ، وقال: يا سعد لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا، وأسكت الفريقين. ثم إنه أمر أبا رافع رضي الله تعالى عنه أن ينادي بالرحيل ولا يمسي بها أحد من المسلمين وخلف أبا رافع ليأتي له بميمونة حين يمسي، فخرج بها، ولقيت ميمونة رضي الله تعالى عنها من سفهاء مكة عناء.

فعن أبي رافع رضي الله تعالى عنه: لقينا عناء من أهل مكة من سفهاء المشركين من أذى ألسنتهم للنبي ولميمونة، فقلت لهم: ما شئتم، هذه والله الخيل والسلاح ببطن ناجح وأنتم تريدون نقض العهد والمدة، فولوا راجعين منكسين، وأقام بسرف بكسر الراء: وهو محل بين مساجد عائشة وبطن مرو، وهو أقرب إلى مساجد عائشة، وفيه دخل بميمونة: أي تحت شجرة هناك، وكان محل موتها ودفنها، دفنت فيه بعد ذلك، فإنه أخبرها بأنها لا تموت بمكة، فلما ثقل عليها المرض وهي بمكة قالت: أخرجوني من مكة فإنني لا أموت بها، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني بذلك، فحملوها حتى أتوا بها ذلك الموضع فماتت به ودفنت به، أي وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر من توفي من أزواجه ورضي عنهن. وحين دخوله مكة أخذ عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه بغرزه: أي ركابه أي وقيل بزمام الناقة، وهو رضي الله تعالى عنه وعنا وعن المسلمين يقول من أبيات:

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 779

خلوا بني الكفار عن سبيله
خلوا فكلَّ الخير في رسوله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله
فاليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
وفي لفظ:

نحن قتلناكم على تأويله
كما قتلناكم على تنزيله
وما قيل:

نحن قتلناكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
أو يذهل الخليل عن خليله

قال عمار بن ياسر يوم صفين: لا يمنع أن يكون ذلك من كلام ابن رواحة رضي الله تعالى عنه وتمثل به عمار رضي الله تعالى عنه. أي وأما ما روي أنه قال: أنا أقاتل على تنزيل القرآن وعليّ يقاتل على تأويله، فقال فيه الدارقطني رحمه الله تفرد به بعض الرافضة.

قال: وذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: مه يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل.

وذكر أنه قال: إيها يا ابن رواحة: «قل لا إله إلا الله وحده. صدق وعده. ونصر عبده. وأعز جنده. وهزم الأحزاب وحده» فقالها وقالها الناس، أي وفي الإمتاع: وكان ابن رواحة يرتجز في طوافه وهو أخذ بزمام الناقة، فقال عليه الصلاة والسلام: إيها يا ابن رواحة «قل: لا إله إلا الله وحده. صدق وعده. ونصر عبده. وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده» فقالها وقالها الناس، وطاف على راحلته، واستلم الحجر بمحجنه.

وذكر أنه دخل البيت، فلم يزل به حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة، فقال عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله تعالى أبا الحكم: يعني والده أبا جهل، حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. وقال صفوان بن أمية: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا، وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أذهب أبي ولم يشهد هذا اليوم، حيث يقوم بلال ينهق فوق الكعبة، وسهيل بن عمرو لما سمع ذلك غطى وجهه، وكل هؤلاء أسلموا بعد ذلك رضي الله تعالى عنهم. قال بعضهم: وكون ما ذكر: أي من دخوله داخل الكعبة وأذان بلال رضي الله تعالى عنه فوق ظهرها كان في عمرة القضاء خلاف المشهور، إذ المشهور أن ذلك كان في يوم الفتح، وبدل ذلك ما قيل: لم يدخل الكعبة وأنه أراد ذلك فأبوا وقالوا لم يكن في شرطك، فأمر بلال فأذن فوق ظهر الكعبة مرة واحدة ولم يعد بعدها، قال الواقدي: في هذا القيل إنه أثبت.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 779

أقول: ويؤيد الأول ما جاء «دخلت الكعبة ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما دخلتها، إني أخاف أن أكون قد شققت على أمتي من بعدي» أي لاتخاذهم ذلك سنة، إلا أن يقال يجوز أن يكون ذلك كان منه يوم فتح مكة، وينبغي أن يكون هذا من أعلام النبوة، فإن الناس يحصل لهم من التعب بسبب دخولها سيما زمن الموسم ما لا يعبر عنه من المتاعب والأمور الفظيعة، والله أعلم. ثم سعى بين الصفا والمروة، أي وأوقف الهدى عند المروة، وقال «هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر فنحر عندها وحلق» ولم أقف على من حلق رأسه الشريف في هذه العمرة. ثم رأيت في الإمتاع قال: حلقه معتمر بن عبدالله العدوي وفعل كفعله المسلمون، أي ومن لم يجد منهم بدنة رخص له في البقرة، وكان قدم رجل مكة ببقرة فاشترها الناس منه، وأمر من تحلل أن يذهب إلى السلاح وبأتي آخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا.

ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة تبعته عمارة، أي وقيل أسماها أم أبيها، وقيل أمامة، وقيل أمة الله، قال ابن عبد البر: والمثبت أمامة، وأمها سلمى بنت عميس بنت عمه حمزة رضي الله تعالى عنه تنادي: يا عم يا عم، أي في لفظ: أن أبا رافع خرج بها فتناولها علي كرم الله وجهه؛ فأخذ بيدها وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، فلما وصلوا المدينة اختصم فيها علي وأخوه جعفر وزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم، فقال زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه: أنا أحق بها، لأنها بنت أخي أي وأنا وصيه، لأنه أخي بين حمزة وزيد،

أي وجعل حمزة رضي الله تعالى عنه وصيه. وقال علي كرم الله وجهه: أنا أحق بها لأنها ابنة عمي وجئت بها من مكة. وقال جعفر رضي الله تعالى عنه: أنا أحق بها لأنها بنت عمي وخالتها تحتي، أي وهي أسماء بنت عميس فقضى بها لجعفر رضي الله تعالى عنه، وقال «الخالة بمنزلة الأم» هذا.

وفي الإمتاع «وكلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمارة بنت حمزة رضي الله تعالى عنهما، وكانت مع أمها سلمى بنت عميس بمكة، فقال: علام تترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين؟ وإنه لما قضى بها لجعفر رضي الله تعالى عنه حجل جعفر حول النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما هذا يا جعفر؟ فقال: يا رسول الله كان النجاشي إذا أرضى أحد قام فحجل حوله، وفيه أنه فعل مثل ذلك بخبير. وما بالعهد من قدم. إلا أن يقال يجوز أن يكون في خبير فعل ذلك ولم يره النبي. وفي لفظ «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها» وفيه تقديم الخالة في الحضنة على العمة، لأن عمتها صفة رضي الله تعالى عنها كانت موجودة، وقال لعلي كرم الله وجهه في هذا الموطن «أنت أخي وصاحبي» وفي لفظ «أنت مني وأنا منك» وقال لجعفر رضي الله تعالى عنه «أشبهت خلقي وخلقي» أي وقد تقدم منه ذلك له في خبير، وقال لزيد رضي الله تعالى عنه «أنت أخي ومولاي» وفي لفظ «أنت مولى الله ومولى رسوله».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 779

غزوة مؤتة

بضم الميم وبالهزمة ساكنة ويترك الهزمة: موضع معروف عند الكرك. وفي كلام السهيلي مؤتة مهموز الفاء، وأما الموتة بلا همزة فضرب من الجنون، وفي الحديث «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في صلاته: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه، ونفخه، ونفته» وفسره راوي الحديث فقال: نفته: السحر، ونفخه: الكبر، وهمزة: الموتة، هذا كلامه.

كانت هذه الغزوة في جمادي الأولى سنة ثمان. وكان سببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى هرقل عظيم الروم بالشام، أي فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، أي وهو من أمراء قيصر على الشام، فقال: أين تريد، لعلك من رسل محمد؟ قال نعم، فأوثقه ربطاً ثم قدمه فضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره، فلما بلغ رسول الله ذلك اشتد الأمر عليه، فجهز جمعاً من أصحابه وعدتهم ثلاثة آلاف وبعثهم إلى مقاتلة ملك الروم، وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال «إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، وإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس».

قال: وفي رواية «فإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم» وقد حضر ذلك المجلس رجل من يهود فقال: يا أبا القاسم إن كنت نبياً يصاب جميع من ذكرت لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلاً على القوم وقال إن أصيب فلان لا

بد أن يصاب، أي ولو عدّ مائة أصيبوا جميعاً، ثم صار يقول لزيد: اعهد فلن ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً، وزيد يقول أشهد أنه نبي، وعقد لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقتلوهم.

وذكر بعضهم أنه نهاهم أن يأتوا مؤتة فغشيتهم ضبابة فلم يبصروا حتى أصبحوا على مؤتة انتهى.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 786

وودعهم الناس وقالوا لهم: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين. قال: ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج مشيعاً لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف فقال: أي بعد قوله «أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء» انتهى، وقال لهم المسلمون: دفع الله عنكم، وردكم غانمين، فمضوا حتى نزلوا من أرض الشام؛ فبلغهم أن هرقل ملك الروم في مائة ألف من الروم وانضم إليه من قبائل العرب أي المتنصرة: أي من بني بكر ولخم وجذام مائة ألف. وفي رواية: كانوا مائتي ألف من الروم وخمسين ألفاً من العرب ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين وكان المسلمون ثلاثة آلاف كما مر، فلما بلغهم ذلك أقاموا في ذلك المحل ليلتين ينظرون في أمرهم. هل يبعثون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه بعدد عدوهم؟ فيما أن يمدهم برجال، أو يأمرهم بأمر فيمضوا إليه، فشجعهم عبدالله بن رواحة، وقال لهم: يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله تعالى به، فإنما هي إحدى الحسينين: إما ظهور وإما شهادة، أي فقال الناس: صدق والله ابن رواحة، فمضوا للقتال. فلقيتهم جموع هرقل ملك الروم من الروم والعرب، فأنحاز المسلمون إلى مؤتة. فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي لوائه حتى قتل رضي الله تعالى عنه فأخذ الراية جعفر رضي الله تعالى عنه وقاتل على فرس أشقر ثم نزل عنه وعقره، أي وهو أول رجل من المسلمين عقر فرسه، وأول فرس عقر في سبيل الله، عقره خوفاً أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه

المسلمين، ومن ثم لم ينكر عليه أحد من الصحابة، وبه استدل من جوّز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به الكفار وتقاتل عليه المسلمين، ثم قاتل رضي الله تعالى عنه فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره فقطعت بيساره، فاحتضن الراية فأخذ الراية وقاتل حتى قتل رضي الله تعالى عنه، فأخذها عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه وتقدم بها وهو على فرسه وجعل يتردد في النزول عن

فرسه، ثم نزل وقاتل حتى قتل، أي وحينئذٍ اختلط المسلمون والمشركون. وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه يقول: يا قوم يقتل الإنسان مقبلاً أحسن من أن يقتل مدبراً فأخذ الراية ثابت بن أرقم رضي الله تعالى عنه وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت. فقال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه. أي ويقال إن ثابت بن أرقم دفعها إلى خالد رضي الله تعالى عنه وقال: أنت أعلم بالقتال مني. أي فقال له خالد: أنت أحق به مني، لأنك ممن شهد بدرًا. ثم أخذها خالد رضي الله تعالى ومانع القوم وثبت، ثم انحاز كل من الفريقين عن الآخر من غير هزيمة على أحدهما.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 786

قال: وفي رواية قاتلوا المشركين حتى هزموهم. فعند ابن سعد أن خالدًا رضي الله تعالى عنه لما أخذ اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاؤوا وأظهر الله المسلمين. قيل وسبب ذلك أن خالدًا رضي الله تعالى عنه لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقه وساقته مقدمة، وميمينته ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجيء عدد للمسلمين فرعبوا وانهزموا فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم. ويجوز أن يكون ذلك بعد انحياز المسلمين، فلا منافاة بين الروایتين، وكانت مدة القتال سبعة أيام.

وروي البخاري عن خالد رضي الله تعالى عنه قال: اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية انتهى: وأطلع الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك، فأخبر به أصحابه، أي فإنه لما اطلع على ذلك نادى في الناس: الصلاة جامعة ثم صعد المنبر وعيناه تذرغان. وقال «أيها الناس باب خير باب خير باب خير ثلاثاً. أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو، فقتل زيد رضي الله تعالى عنه شهيداً فاستغفروا له. ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة رضي الله تعالى عنه وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فأب نصره» وفي لفظ «ثم أخذ الراية خالد بن الوليد، نعم عبدالله، وأخو العشيرة، وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين من غير إمرة حتى فتح الله عليهم».

قال وفي رواية «أنه قال: اللهم إنه سيف من سيوفك فأنصره. فمن يومئذٍ سمي خالد سيف الله» وفي لفظ «ثم أخذ اللواء سيف من سيوف الله تبارك وتعالى ففتح الله علي يديه».

وعن عبدالله بن أبي أوفى قال «اشتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبي فقال: يا خالد لم تؤذي رجلاً من أهل بدر؟ لو أنفقت مثل أحد ذهباً لم تدرك عمله، فقال: يا رسول الله إنهم يقعون في فأرد عليهم، فقال: لا تؤذوا خالدًا فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار» قال بعضهم: وكون هذا نصراً وفتحاً واضح لإحاطة العدو بهم وتكاثرهم عليهم لأنهم كانوا مائتي

ألف والصحابة ثلاثة آلاف أي كما تقدم؛ إذا كان مقتضى العادة أن يقتلوا بالكلية.

وفي رواية أصاب خالد رضي الله عنه منهم مقتلة عظيمة، وأصاب غنيمة، وهذا لا يخالف ما يأتي أن طائفة منهم فروا إلى المدينة لما عاينوا كثرة جموع الروم فصار أهل المدينة يقولون لهم: أنتم الفرارون إلى آخر ما يأتي. وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنهما، أي زوج جعفر رضي الله عنه قالت «دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أصيب جعفر وأصحابه، فقال اتيني بني جعفر فأتيته بهم فشمهم وذرفت عيناه أي وبكى حتى سقطت لحيته الشريفة، فقلت: يا رسول الله بآبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال نعم، أصيبوا هذا اليوم، فقممت أصبح واجتمع علي النساء أي وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها: يا أسماء لا تقولي هجراً ولا تضربي خدًا، وجاء إليه رجل فقال: يا رسول الله إن النساء عيين وفتن، قال: فارجع إليهن فأسكتهن، فذهب ثم رجع، فقال له مثل الأول وقال نهيتن فلم يطعنني، فقال اذهب فأسكتهن، فإن أبين فاحت في أفواههن التراب، وقال اللهم قد قدم، يعني جعفرًا إلى أحسن الثواب فاخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله وقال: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم» انتهى.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 786

أي وفي لفظ «دخل علي فاطمة رضي الله عنها وهي تقول: واعماه، فقال علي مثل جعفر فلتبك الباكية» وفي لفظ «البواكي» ثم قال «اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم» وفي رواية «فإنهم قد شغلهم ما هم فيه».

وعن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهما «أن سلمى مولاة النبي صلى الله عليه وسلم عمدت إلى شعير فطحنته ونسفته ثم طبخته وأدمته بزيت، وجعلت عليه فلفلاً، قال عبدالله رضي الله عنه: فأكلت من ذلك الطعام، وحبسني رسول الله صلى الله عليه وسلم مع إخوتي» وفي لفظ «أنا وأخي في بيته ثلاثة أيام، ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا» وهذا الطعام الذي فعل لآل جعفر رضي الله عنهم، قال السهيلي هو أصل في طعام التعزية وتسميه العرب الوضيمة، كما تسمى طعام العرس الوليمة، وطعام القادم من السفر النقيعة، وطعام البناء الوكيرة. قال عبدالله رضي الله عنه: «ودعا لي وقال: اللهم بارك له في صفقة يمينه، فما بعث شيئاً ولا اشتريت شيئاً إلا بورك لي فيه».

ولما قدم عليه بعض أصحابه بخبر الجيش قال له رسول الله «إن شئت فأخبرتني، وإن شئت فأخبرتكَ، قال: فأخبرني يا رسول الله، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهم كله ووصف له، فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره، وإن أمرهم لكما ذكرت، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معركتهم، أي وحين رأى ذلك، قال قد حمي الوطيس: أي حميت الحرب واشتدت، وقال: «مثل لي جعفر وزيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة في خيمة من در كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيدا وابن رواحة في أعناقهما صدوداً: أي اعتراضاً، ورأيت جعفر مستقيماً ليس في عنقه صدود، فسألت، فقيل لي: إنهما حين غشيتهما الموت أعرضا بوجههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل». وعن قتادة رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما قتل زيد أخذ الراية جعفر رضي الله عنه، فجاءه الشيطان لعنه الله فحبب إليه الحياة وكره إليه الموت ومناه الدنيا ثم مضى حتى استشهد رضي الله عنه.

قال وفي رواية «رأيتهم أي فيما يرى النائم» وفي رواية: «لقد رفعوا إلي أي في الجنة فيما يرى النائم على سرير من ذهب، فرأيت في سرير عبدالله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبه: أي انحرافاً؟ فقلت مم هذا؟ فقيل لي: مضياً وتردد عبدالله بعض التردد ثم مضى» انتهى. أي فإنه كما تقدم صار يستنزل نفسه ويتردد في النزول بعض التردد. وفي لفظ «دخل عبدالله بن رواحة الجنة معترضاً، فقيل: يا رسول الله ما اعتراضه؟ قال: لما أصابته الجراحة نكل، فعاتب نفسه فتشجع فاستشهد» وقال «إن الله أبدل جعفرأ

بيده جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 786
وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: وجدنا فيما بين صدر جعفر ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة، ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح. وفي لفظ: طعنة ورمية. وفي لفظ آخر: ضربه رومي فقدّه نصفين، فوجدوا في إحدى شقيه بضعة وثمانين جرحاً، وفيما أقبل من بدنه اثنين وسبعين ضربة بسيف وطعنة برمح. أي وقيل أربعاً وخمسين ورواية التسعين أثبت. قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أتيته وهو مستلق آخر النهار فعرضت عليه الماء، فقال: إني صائم فضعه في ترسي عند رأسي، فإن عشت حتى تغرب الشمس أظطرت، قال: فمات صائماً قبل غروب الشمس شهيداً وعمره إحدى وأربعون سنة، وقيل ثلاث وثلاثون سنة، وفيه أنه تقدم أنه كان أسن من عليّ بعشر سنين، وكان عقيل أسن من جعفر بعشر سنين، وكان طالب أسن من عقيل بعشر سنين.

ثم رأيت ابن كثير رحمه الله، قال: وعلى ما قيل إنه كان أسن من عليّ بعشر سنين يقتضي أن عمره يوم قتل تسع وثلاثون سنة، لأن علياً كرم الله وجهه أسلم وهو ابن ثمان سنين على المشهور، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر وعمره إحدى وعشرون سنة، وبوم مؤتة كان في سنة ثمان من الهجرة، وكونه رضي الله عنه مات صائماً لا يناسب كونه شق نصفين.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع رأسه إلى السماء فقال: وعليكم السلام ورحمة الله، فقال الناس: يا رسول الله ما كنت تصنع هذا، قال مر بي جعفر بن أبي طالب في ملائمة

الملائكة فسلم عليّ».

ولما دنا الجيش من المدينة تلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، ولقيهم الصبيان ينشدون ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأتي بعبدالله بن جعفر فأخذه فحمله بين يديه.
وعن عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله «هنيئاً لك، أبوك يطير مع الملائكة في السماء» وفي الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً «دخلت البارحة الجنة فرأيت فيها جعفر بن أبي طالب يطير مع الملائكة» وفي رواية «يطير مع جبريل وميكائيل، له جناحان عوضه الله تعالى من يديه» وروي «جناحان من ياقوت» أي وذكر السهيلي رحمه الله أن الجناحين عبارة عن صفة ملكية وقوة روحانية أعطيهما جعفر رضي الله عنه يقتدر بهما علي الطيران، لا أنهما جناحان كجناح الطائر كما يسبق للوهم. أي لأن الصورة الأدمية أشرف الصور، أي ولا يضر في ذلك وصفهما بأنهما من ياقوت ولا كونهما مضمخين بالدم، وصار المسلمون يحثون في وجوههم التراب ويقولون لهم يا فرارون، فررتم في سبيل الله، فصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بل هم الكرارون. وفي لفظ: إنهم قالوا: يا رسول الله نحن الفارون، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أنتم العكارون: أي الكرارون، وهو دليل على أنه كان بينهم محاجزة وترك للقتال.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 786

وعن بعض الصحابة: لما قتل ابن رواحة رضي الله عنه انهزم المسلمون رضي الله عنهم أسوأ هزيمة ثم تراجعوا، ولقد لقوا من أهل المدينة لما رجعوا شراً، حتى إن الرجل يجيء إلى أهل بيته يدق عليهم بابيه، فيأبون يفتحون له ويقولون له: هلا تقدمت مع أصحابك؟ فقتلت، حتى إن نفرًا من الصحابة رضي الله عنهم جلسوا في بيوتهم استحياء، كلما خرج واحد منهم صاحوا به، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل إليهم رجلاً رجلاً. ثم يقول: أنتم الكرارون في سبيل الله، ويعنون بالفرار انجيازهم مع خالد رضي الله عنه حين انحاز العدو عنهم؛ وإنما انحاز خالد رضي الله عنه لترتيبه العسكر، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم خالدًا رضي الله عنه على ذلك وأثنى عليه. وقتل رجل من المسلمين رجلاً من الروم، فأراد أخذ سلبه فمنعه خالد رضي الله عنه، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك قال لخالد: ما منعك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرته عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ادفعه له. وكان عوف بن مالك رضي الله عنه كلم خالدًا في دفع ذلك لذلك الرجل قبل أن يقدموا على رسول الله، فلما مر خالد بعوف بن مالك أطلق لسانه في خالد رضي الله عنه وقال له: أما ذكرت لك ذلك ونحوه؟، فغضب وقال لخالد: لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي؟
وفيه أن القائل استحق السلب فكيف منعه. وأجيب بأنه يجوز أن يكون دفعه له بعد، وإنما أخر دفعه تعزيراً لعوف رضي الله عنه حين أطلق لسانه في خالد، وانتهك حرمة، وتطيباً لقلب خالد رضي الله عنه للمصلحة في إكرام الأمراء، وهذا السياق لا يدل على أن الجيش كله رضي الله عنهم قيل لهم الفرارون وإنما كان لطائفة من الجيش فروا إلى المدينة لما رأوا من كثرة العدو

فليتأمل.

وعد هذه غزوة تبعت فيه الأصل، والحق أنها ليست من الغزوات بل من السرايا الآتي ذكرها لأنه لم يكن فيها، والله أعلم.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 786

فتح مكة شرفها الله تعالى كان في رمضان سنة ثمان. وكان السبب في ذلك أنه لما كان صلح الحديبية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش كان فيه أن: من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه، فدخلت بنو بكر في عهد قريش، ودخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم، وكان قبل ذلك بينهما دماء، أي فحجز الإسلام بينهما لتشاغل الناس به، وهم على ما هم عليه من العداوة، وكانت خزاعة حلفاء عبد المطلب بن هاشم جد النبي، أي يناصرونه على عمه نوفل بن عبد مناف.
فإن المطلب لما مات وثب نوفل على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب واغتصبه إياها، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه، فلم ينهض معه أحد منهم، وقالوا له لا ندخل بينك وبين عمك، وكتب إلى أخواله بني النجار، فجاءه منهم سبعون راكباً فأتوا نوفلاً وقالوا له: ورب البنية لتردني على ابن أختنا ما أخذت وإلا ملأنا منك السيف، فرده ثم حالف خزاعة بعد أن حالف نوفل بني أخيه عبد شمس، وكان يعلم بذلك الحلف فإنهم أوقفوه على كتاب عبد المطلب وقرأه عليه أبي بن كعب رضي الله عنه: أي بالحديبية، وهو باسمك اللهم، هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذا قدم عليه سرواتهم وأهل الرأي منهم، غائبهم يقرب بما قاضى عليه شاهدهم أن بيننا وبينكم عهود الله وميثاقه وما لا ينسى أبداً، اليد واحدة والنصر واحد، ما أشرق ثبير وثبت حرا مكانه، وما بل بحر صوفة.

وفي الإمتاع أن نسخة كتابهم: باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه عبد المطلب بن هاشم ورجال عمر بن ربيعة من خزاعة، تحالفوا على التناصر والمواساة ما بل بحر صوفة، حلفا جامعا غير مفرق، الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد وأوثق عقد لا ينقض ولا ينكث، ما أشرقت شمس على ثبير، وحن بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان، وعمر بمكة إنسان، حلف أبد لطول أمد، يزيد طلوع الشمس شداً، وظلام الليل مداً، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متظاهرون متعاونون، فعلى عبد المطلب النصر لهم بمن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصر لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب في شرق أو غرب أو حزن أو سهل، وجعلوا الله على ذلك كفيلاً، وكفى بالله جميلاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعرفني بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

فلما كانت الهدنة، وهي ترك القتال التي وقعت في صلح الحديبية اغتتمها بنو بكر: أي طائفة منهم يقال لهم بنو نفاثة.

أي وفي الإمتاع: وسببها أن شخصاً من بني بكر هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يتغنى به، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه، فثار الشتر بين الحيين لما كان بينهم من العداوة، فطلب بنو نفاثة من أشراف قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة، فأمدوهم بذلك، فبيتوا خزاعة: أي جاؤوهم ليلاً بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوتير، فأصابوا منهم. أي قتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفياً، منهم صفوان بن أمية وجويطب بن عبد العزى، أي وعكرمة بن أبي جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو رضي الله عنهم، فإنهم أسلموا بعد ذلك، ولا زالوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة، أي ولم يشاوروا في ذلك أبا سفيان. قيل شاوروه فأبى عليهم ذلك، وظنوا أنهم لم يعرفوا، وأن هذا لا يبلغ رسول الله .

فلما ناصرت قريش بني بكر على خزاعة، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق ندموا، وجاء الحارث بن هاشم إلى أبي سفيان وأخبره بما فعل القوم، فقال: هذا أمر لم أشهده ولم أعب عنه، وإنه لشتر، والله ليغزونا محمد، ولقد حدثتني هند بنت عتبة يعني زوجته أنها رأت رؤيا كرهتها، رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخدمة فكره القوم ذلك.

وعند ذلك خرج عمرو، وقيل عمر بضم العين وصححه الذهبي ابن سالم الخزاعي: أي سيد خزاعة في أربعين ركباً: أي من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ودخل المسجد ووقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين الناس وقال من أبيات:

يا رب إني ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه الأتلا
أن قريشا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نصرت يا عمرو بن سالم، أي ودمعت عينا رسول الله ، قال: وقال: لا ينصرنني الله. وفي لفظ: لانصرت إن لم أنصر بني كعب: يعني خزاعة مما أنصر به نفسي. وفي رواية: لأمنعهم مما أمنع منه نفسي. زاد في رواية: وأهل بيتي ثم مرّت سحابة في السماء وأرعدت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا السحاب ليستهل، أي وفي لفظ: لينصب بنصر بني كعب يعني خزاعة..

أي وعن بشر بن عصمة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول: «خزاعة مني وأنا منهم» وقبل قدوم عمرو بن سالم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإعلامه بذلك حدثت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الواقعة قال لها: لقد حدث في خزاعة حدث، قالت: فقلت: يا رسول الله أترى قريشاً يجترئون على نقض العهد الذي بينك وبينهم؟ فقال: ينقضون العهد لأمر يريده الله، فقلت: خير، قال خير، وفي لفظ قالت: لخير أو لشر؟ قال لخير.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وعن ميمونة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بات عندها ليلة، فقام ليتوضأ للصلاة، قالت: فسمعتة يقول لبيك لبيك لبيك ثلاثاً. نصرت نصرت نصرت ثلاثاً، فلما خرج قلت: يا رسول الله سمعتك تقول لبيك لبيك لبيك ثلاثاً نصرت نصرت نصرت ثلاثاً كأنك تكلم إنساناً، فهل كان معك أحد؟ قال: هذا راجز بني كعب يعني خزاعة يزعم أن قريشاً أعانت عليهم بكر بن وائل: أي بطنا منهم وهم بنو نفاثة، قالت ميمونة: فأقمنا ثلاثاً، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح، فسمعت الراجز يقول:

*يا رب إني ناشد محمداً V

إلى آخر ما تقدم، انتهى.

وعند ذلك قال لعمر بن سالم وأصحابه: فيمن تهتمتكم؟ قالوا: بنو بكر، قال: كلها؟ قالوا: لا ولكن بنو نفاثة، قال: هذا بطن من بكر.

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد أرسلوا أبا سفيان ليشد العقد ويزيد في المدة، فقالوا له: ما لها سواك، أخرج إلى محمد فكلمه في تجديد العهد وزيادة المدة، فخرج أبو سفيان ومولى له على راكبتين فأسرع السير، لأنه يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس قبل قدوم أبي سفيان: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة، وهو راجع بسخطه، ثم رجع أولئك الركب من خزاعة، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان، أي ومولى له كل على راحلة وقد بعثته قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشد العقد ويزيد في المدة، وقد خافوا مما صنعوا، فسألهم: هل ذهبت إلى المدينة؟ قالوا: لا، وتركوه وذهبوا، فجاء إلى مبركهم بعد أن فارقوه، فأخذ بعراً وفته فوجد فيه النوى، فعلم أنهم ذهبوا إلى المدينة الشريفة.

قال: وفي رواية أنه قال لعمر بن سالم وأصحابه: ارجعوا وتفرقوا في الأودية، أي ليخفي مجيئهم للنبي. فرجعوا وتفرقوا، فذهبت فرقة إلى الساحل، أي وفيهم عمرو بن سالم. وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق، وأن أبا سفيان لقي بديل بن ورقاء بعسفان، فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، فقال للقوم: أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها، فقالوا: لا علم لنا بها، أي وقالوا: إنما كنا في الساحل نصلح بين الناس في قتل. ثم صبر أبو سفيان حتى ذهب أولئك القوم. وفي لفظ قال: من أين أقيمت يا بديل؟ قال: سرت إلى خزاعة في هذا الساحل، قال: ما أتيت محمداً؟ قال لا، فلما راح بديل إلى مكة. أي توجه إليها، قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فجاء منزلهم ففتت أبعاد أبا عمرهم فوجد

فيها النوى، قال أبو سفيان: أحلف بالله لقد جاء القوم محمداً انتهى.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

فلما قدم أبو سفيان المدينة دخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنها، ولما أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: يا بنية ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش النبي صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر، فقالت: بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر، وأعجبا منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها، فقال: أترك ما كان يعبد آبائي وأتبع دين محمد؟ ثم خرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له إني كنت غائبا في صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا في المدة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لذلك جئت يا أبا سفيان؟ قال نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل كان فيكم من حدث؟ قال: معاذ الله، نحن على عهدنا وصلحنا لانغير ولا نبذل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنحن على مدتنا وصلحنا، فأعاد أبو سفيان القول على رسول الله، فلم يرد عليه شيئاً هذا.

وفي كلام سبط ابن الجوزي رحمهما الله أن مجيئه لأم حبيبة رضي الله عنها بعد مجيئه للنبي . ثم ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فكلمه أن يكلم له رسول الله ، فقال ما أنا بفاعل. وفي رواية قال لأبي بكر: جدّد العقد وزدنا في المدة، فقال أبو بكر: جوارري في جوار رسول الله ، والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم. ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه، فقال: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لم لم أجد إلا الذر لجاهدتكم: أي بها. وفي رواية أنه قال له: ما كان من حلفنا جديداً أخلفه الله، وما كان مقطوعاً فلا وصلة الله، فعند ذلك قال له أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شرأ. وفي لفظ سوءاً، ثم جاء إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقال: إنه ليس في القوم أقرب بي رحماً منك فزد في المدة وجدد العقد، فإن صاحبك لا يرد عليك أبداً، فقال عثمان: جوارري في جواره ، انتهى. ثم جاء فدخل على عليّ بي أبي طالب كرم الله وجهه وعنده فاطمة وحسين رضي الله عنه غلام يدب بين يديها، فقال: يا عليّ إنك أمسّ القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً أشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه، فالتفت إلى فاطمة رضي الله عنها، فقال: يا ابنة محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، قالت: والله ما يبلغ بيني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ، أي وفي رواية أنه قال لفاطمة: أجيري بين الناس، فقالت: إنما أنا امرأة، قال: قد أجارت أختك يعني زينب أبا العاص بن الربيع يعني زوجها وأجاز ذلك محمد، قالت: إنما ذاك إلى رسول الله ، فقال: فأمرني أحد ابنيك، قالت: إنما هما صبيان ليس مثلهما يجير.

قال: فكلمني علياً، فقالت: أنت تكلمه، فكلم علياً، فقال: يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتات على رسول

الله صلى الله عليه وسلم بجوار، وقول فاطمة رضي الله عنها في حق ابنيها إنهما صبيان ليس مثلهما يجير هو الموافق لما عليه أئمتنا من أن شرط من يؤمن أن يكون مكلفاً، وأما قولها وإنما أنا امرأة فلا يوافق ما عليه أئمتنا من أن للمرأة والعبد أن يؤمنا لأن شرط المؤمن عند أئمتنا أن يكون مسلماً مكلفاً مختاراً. وقد أمنت زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم زوجها أبا العاص بن الربيع، وقال «قد أجرنا من أجزت» وقال: «المؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم» كما سيأتي في السرايا، وقد تقدم ذلك قريباً عن أبي سفيان. وسيأتي قريباً أن أم هانئء أجزت، وأنه قال لها: «أجزنا من أجزت يا أم هانئء» لكن سيأتي أن هذا كان تأكيداً للأمان الذي وقع منه لأهل مكة لا أمان مبتدأ.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

ثم إن أبا سفيان أتى أشراف قريش والأنصار وكل يقول جوارى في جوار رسول الله . ثم جاء إلى علي كرم الله وجهه وقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد انسدت عليّ فانصحنى، قال: والله لا أعلم لك شيئاً يغني عنك ولكنك سيد بني كنانة، فقم وأجر بين الناس ثم الحق بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني أجزت بين الناس. زاد في رواية: ولا والله ما أظن أن يخفرنني أحد، ولا يردّ جوارى، قال: وفي رواية أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إني أجزت بين الناس، أي وقال: لا والله ما أظن أحداً يخفرنني ويردّ جوارى، فقال رسول الله : «أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة؟» وفي لفظ: يا أبا سفيان انتهى.

ثم ركب بغيره فانطلق حتى قدم على قريش وقد طالت غيبته واتهمته قريش أنه صباً واتب محمدًا سراً وكنتم إسلامه وقالت له زوجته: إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، فلما أخبرها: أي وقد دنا منها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته فضربت برجلها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم، فما جئت بخير، فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند أساف ونائلة، وذبح عندهما البدن، ومسح رؤوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة، فلما رآته قريش قالوا: ما وراءك؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد؟ قال: لا والله، لقد أبى عليّ، وقد تتبعت أصحابه، فما رأيت قوماً لملك أطوع منهم له. وفي رواية قال: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد عليّ شيئاً، ثم جئت إلى ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أدنى العدو. أي وفي رواية: أعدى العدو، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله لا أدري أيغني عني شيئاً أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس: أي قال لي لم تلتمس جوار الناس على محمد ولا تجير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها أن لا يخفر جواره، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك

محمد؟ قال لا، أي وإنما قال: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة، والله لم يزدني، قالوا: رضيت بغير رضا، وجئت بما لا يغني عنا ولا عنك شيئاً، ولعمر الله ما جوارك بجائر، وإن إخفارك: أي إزالة خفارتك عليهم لهين، والله أراد الرجل: يعنون علياً كرم الله وجهه أن يلعب بك. قال: والله ما وجدت غير ذلك، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، أي قال لعائشة جهزينا وأخفي أمرك، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنته عائشة رضي الله عنها وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي تجعل قمحاً سويقاً ودقيقاً. وفي لفظ: وجد عندها حنطة تنسف وتنقى، فقال: أي بنية أمركن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجهيزه؟ قالت: نعم فتجهز،

قال: فأين تربته يريد؟ قالت: لا والله ما أدري، وإن ذلك قبل أن يستشير أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في السير إلى مكة كما سيأتي. ثم إنه أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتجهيز.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

أي وفي الإمتاع أن أبا بكر رضي الله عنه لما سأل عائشة رضي الله عنها دخل عليه، فقال: يا رسول الله أردت سفراً؟ قال نعم؟ قال: أفأتجهز، قال نعم، قال: فأين تريد يا رسول الله؟ قال: قريشاً، وأخف ذلك يا أبا بكر، وأمر الناس بالجهاز، وطوى عنهم الوجه الذي يريده، وقد قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة؟ قال إنهم غدروا ونقضوا العهد، واطو ما ذكرت لك، وفي رواية أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً، قال: نعم، قال: لعلك تريد بني الأصفر، قال: لا، قال: أفتريد أهل نجد. قال: لا، قال: فلعلك تريد قريشاً، قال: نعم، قال: يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة، قال: أو لم يبلغك ما صنعوا ببني كعب: يعني خزاعة، قال: وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين في كل ناحية يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، إي وذلك بعد أن تشاور رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في السير إلى مكة، فذكر له أبو بكر رضي الله عنه ما يشير به إلى عدم السير حيث قال له: هم قومك، وحضه عمر رضي الله عنه حيث قال: نعم هم رأس الكفر، زعموا أنك ساحر، وأنت كذاب وذكر له سوء كانوا يقولون، وإيم الله لا تذلل العرب حتى تذلل أهل مكة، فعند ذلك ذكر أن أبا بكر كإبراهيم، وكان في الله أئين من اللين، وأن عمر كنوح وكان في الله أشد من الحجر، وأن الأمر أمر عمر، وتقدم نحو هذا لما استشارهما في أسارى بدر، أي ثم قدمت المدينة من قبائل العرب: أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة.

ثم قال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها، أي وفي رواية قال: اللهم خذ علي أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة، وأخذ بالأنقاب: أي الطرق، أي أوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها، أي وقال لهم: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

ولما أجمع المسير إلى قريش وعلم بذلك الناس كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش: أي إلى ثلاثة منهم من كبرائهم، وهم: سهيل بن عمرو، وصفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله عنهم - فإنهم أسلموا بعد ذلك كما تقدم - كتاباً يخبرهم بذلك ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، ويقال أعطاه عشرة دنائير وكساها برداً، أي وقال لها: اخفيه ما استطعت، ولا تمرى على الطريق، فإن عليه حرساً فسلكت غير الطريق، قال: وتلك المرأة هي سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب بن عبد مناف، وكانت مغنية بمكة، وكانت قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأسلمت، وطلبت منه الميرة، وشككت الحاجة، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كان في غنائك ما يغنيك؟ فقالت: إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء، فوصلها، وأوفر لها بغيراً طعاماً، فرجعت إلى قريش وارتدت عن الإسلام، وكان ابن خطل يلقي عليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغني به انتهى، فجعلت الكتاب في قرون رأسها: أي ضفائر رأسها خوفاً أن يطلع عليها أحد، ثم خرجت به، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير وطلحة والمقداد، أي وقيل علياً وعماراً والزبير وطلحة والمقداد وأبا مرثد، أي ولا مانع أن يكون أرسل الكل، وبعض الرواة اقتصر على بعضهم، فقال: أدركا امرأة بمحل كذا، قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم، فخذوه منها وخلوا سبيلها، فإن أبت فاضربوا

عنقها، فخرجوا حتى أدركاها في ذلك المحل الذي ذكره فقالا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فاستنزلاها وفتشاهما والتمسا في رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي كرم الله وجهه: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ولا كذبنا، ولتخرجن هذا الكتاب، أو لنكشفنك، أو أضرب عنقك، فلما رأت الجد منه قالت أعرض، فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه. وفي البخاري أخرجه من عقاصها، ولا منافاة، وفيه في محل آخر أخرجه من حجزتها، والحجزة معقد الإزار والسراويل. قال بعضهم: ولا مانع أن يكون في ضفائرها وأنها جعلت الضفائر في حجزتها فدفعته إليه، وسيأتي أنها ممن أباح دمه يوم الفتح، ثم أسلمت وعفا عنها. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الكتاب، أي وصورة الكتاب: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إليكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم، فإنه منجز له ما وعده فيكم، فإن الله تعالى ناصره ووليه. وقيل فيه: إن محمداً قد نفر فإما إليكم وإما إلى غيركم فعليكم الحذر، وقيل فيه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن بالغزو ولا أراه إلا يريدكم، وقد أحببت أن تكون لي يد بكتابي إليكم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

أقول: لا مانع أن يكون جميع ما ذكر في الكتاب، بأن يكون فيه: إن محمداً قد أذن، أي أعلم بالغزو وقد نفر: أي عزم علي أن ينفر، فإما إليكم وإما إلى غيركم، ولا أراه إلا يريدكم، وهذا كان قبل أن يعلم بسيره إلى مكة، فلما علم ألحق بالكتاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه، أي يريد التوجه

إيكم بجيش إلى آخره. وبعض الرواة اقتصر على ما في بعض الكتاب والله أعلم.

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً فقال له: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت. وفي لفظ: ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششت منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ولكني ليس لي في القوم أهل ولا عشيرة، ولي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم. أي وفي لفظ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ إني كنت امرأً ملصقاً: أي حليفاً من قريش. وفي كلام بعضهم ما يفيد أن الملصق هو الذي لا نسب له ولا دخل في حلف. قال: ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون أموالهم وأهلهم بمكة، ولم يكن لي قرابة، فأحببت أن أتخذ فيهم يداً أحمي بها أهلي، أي وهي أمه. ففي بعض الروايات: كنت غريباً في قريش، وأمي بين أظهرهم، فأردت أن يحفظوني فيها، وما فعلت ذلك كفرة بعد إسلام، وقد علمت أن الله تعالى منزل بهم بأسه لا يغني عنهم كتابي شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه قد صدقكم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله دعني لأضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق، وفي لفظ قال له: قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم. وفي رواية: دعني أضرب عنقه، لأنه يعلم أنك يا رسول الله أخذت على الطريق، وأمرت أن لا ندع أحداً يمر ممن تنكره إلا رددناه انتهى.

وأقول: مراد سيدنا عمر بقوله قد نافق، أي خالف الأمر، لا أنه أخفى الكفر لقوله: «قد صدقكم» ورأى أن مخالفة أمره مقتضية للقتل، ولكن رواية البخاري: «إنه قد صدقكم، ولا تقولوا له إلا خيراً» وعليها يشكل قول عمر المذكور ودعاؤه عليه بقوله: قاتلك الله. إلا أن يقال: يجوز أن يكون قول عمر لذلك كان قبل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ذكر. وعند قول عمر رضي الله عنه: دعني لأضرب عنقه، قال رسول الله «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وفي رواية «فقد وجبت لكم الجنة» وفي رواية: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً» فعند ذلك فاضت عينا عمر رضي الله عنه بالبكاء، أي وأنزل الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} الآيات. وفي قوله: {عدوي وعدوكم} منقبة عظيمة لحاطب رضي الله عنه بأن في ذلك الشهادة له بالإيمان، وقوله: {تلقون إليهم بالمودة} أي تبدونها لهم، وذكر بعضهم أن البلغة في اللغة: التطرف بالظاء المشالة، يقال تبلى في كلامه: إذا تطرف فيه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري، وقيل ابن أم مكتوم وبه جزم الحافظ الدمياطي في سيرته. وخرج لعشر، وقيل لليلتين، وقيل لثنتي عشرة، وقيل

ثلاث عشرة، وقيل سبع عشرة، وقيل ثمان عشرة، وهو في مسند الإمام أحمد بسند صحيح. قال ابن القيم: إنه أصح من قول من قال إنه خرج لعشر خلون من رمضان، أي وصدر به في الإمتاع، وقيل خرج لتسع عشرة مضين من شهر رمضان في سنة ثمان. قال في النور لا أعلم خلافاً في الشهر والسنة.

وما في البخاري أن خروجه من المدينة كان على رأس ثمان سنين ونصف من مقدمة المدينة، أي فيكون في السنة التاسعة فيه نظر، وكان في عشرة آلاف، أي باعتبار من لحقه في الطريق من القبائل كبنو أسد وسليم، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار، وكان الهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس، وكانت مزينة ألفاً وفيها مائة فرس، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرساً، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرساً، وقيل كان في اثني عشر ألفاً.

ولما وصل إلي الأبناء أو قريباً منها لقيه أبو سفيان ابن عمه الحارث وكان الحارث أكبر أولاد عبد المطلب، وكان يكنى به كما تقدم، وكان أبو سفيان أخاه من الرضاعة على حليلة كما تقدم، ولقبه عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب أخو أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها لأبيها، لأن والدة أم سلمة عاتكة بنت جندل الطعان، وكان عند أبيها أمية بن المغيرة زوجتان أيضاً كل منهما تسمى عاتكة، فكان عنده أربع عواتك. وكان مجيء الحارث وعبد الله له يريدان الإسلام، وكان رضي الله تعالى عنهما من أكبر القائمين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أشد الناس إذابة له، أي بعد أن كان الحارث قبل النبوة ألف الناس له لا يفارقه كما تقدم، وقد تقدم بعض ذكر أذيتهما له، فأعرض عنهما فكلمته أم سلمة رضي الله عنها فيهما: أي قالت له: لا يكون ابن عمك وابن عمك أي وصهرك أشقى الناس بك، فقال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي: يعني أبا سفيان فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري يعني عبد الله أخاً أم سلمة فهو الذي قال لي بمكة ما قال: أي قال له: والله لا أمنت بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر إليك، ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك إلي آخر ما تقدم. فلما خرج الخبر إليهما، قال أبو سفيان ومعه ابن له: والله ليأذنين لي أو لأخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت جوعاً وعطشاً، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه وأسلما وقبل إسلامهما.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وقيل إن علياً كرم الله وجهه قال لأبي سفيان: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف {تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين}، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه ففعل،

فقال رسول الله : { لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم
الراحمين } . وكان أبو سفيان رضي الله عنه بعد ذلك لا يرفع رأسه إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم حياء منه لأنه عاداه نحو عشرين سنة بهجوه ولم
يتخلف عن قتاله . وكان بعد ذلك يحبه ويشهد له بالجنة ، ويقول : أرجو أن يكون
خلفاً من حمزة رضي الله عنهما ، أي وقال له يوماً : «الصيد كل الصيد في
جوف الفرا» وفي رواية قال له : «أنت يا أبا سفيان كما قيل : كل الصيد في
جوف الفرا» .

وفي سفره صام وصام الناس ، حتى إذا كانوا بالكديد بفتح الكاف وكسر الدال
المهملة الأولى : أي وهو محل بين عسفان وقديد أفطر ، أي وقيل أفطر
بعسفان ، وقيل أفطر بقديد ، وقيل أفطر بكراع الغميم . ولا منافاة لتقارب
الأمكنة . وقال بعضهم : لا مانع أن يكون كرر الفطر في تلك الأماكن لتساوي
الناس في رؤية ذلك ، فأخبر كل منهم عن محل رؤيته .
قال : وفي رواية أنه لما خرج ووصل إلى محل يقال له الصلصل قدم أمامه
الزبير بن العوام رضي الله عنه في مائتين ، ونادى منادي رسول الله صلى الله
عليه وسلم : من أحب أن يصوم فليصم ، ومن أحب أن يفطر فليفطر .
أي وفي الإمتاع : لما خرج من المدينة نادى مناديه : من أحب أن يصوم فليصم ،
وفي بعض الأيام صب رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسه الماء
ووجهه من شدة العطش ، وفي لفظ : من شدة الحر وهو صائم .

وفي رواية أنه لما بلغ الكديد بلغه أن الناس شق عليهم الصيام ، أي وأنهم
ينظرون فيما فعلت ، فاستوى على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء ، وقيل
لبن فشرب ، ثم ناوله لرجل بجانبه فشرب ، فقيل له بعد ذلك : إن بعض الناس
صام ، فقال : أولئك العصاة ، أي لأنهم خالفوه أمره لهم بالفطر ليقووا على
مقاتلة العدو ، لأنه قال للصحابة لما دنوا من عدوهم : إنكم قد دنوتم من عدوكم
والفطر أقوى لكم ، فلم يزل يفطر حتى انسلخ الشهر انتهى .

أي وفي قديد عقد الألوية والرايات ، ودفعها للقبائل ، ثم سار حتى نزل بمر
الظهران : أي وهو الذي يقال له الآن بطن مروعشاء ، أي وقد أعمى الله الأخبار
عن قريش إجابة لدعائه ، فلم يعلموا بوصوله إليهم ، أي ولم يبلغهم حرف واحد
من مسيره إليهم ، فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وجعل على الحرس
عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان العباس رضي الله عنه قد خرج قبل
ذلك بعياله مسلماً ، أي مظهراً للإسلام مهاجراً ، فلقي رسول الله صلى الله
عليه وسلم بالجحفة ، وقيل بذي الحليفة ، فرجع معه إلى مكة ، أي وأرسل أهله
وثقله إلى المدينة ، وقال له رسول الله «هجرتك يا عم آخر هجرة كما أن نبوتي
آخر نبوة» قال : العباس رضي الله عنه : ورقت نفسي لأهل مكة ، أي وقال : يا
صباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم : مكة عنوة قبل
أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . قال العباس رضي الله
عنه : فجلست على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء أي زاد
بعضهم التي أهداها له دحية الكلبي ، فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت :

لعلي أجد بعض الخطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة يخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة فوالله إنني لأسير إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، أي وقد خرجا وحكيم بن حزام: أي بعد أن خرج أبو سفيان وحكيم بن حزام، فلقيا بديلاً فاستصحباه وخرجوا يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به؟ أي لأنهم علموا بمسيره ولم يعلموا إلى أي جهة.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي سيرة الدمياطي: ولم يبلغ قريشاً مسيره إليهم فلا ينافي ما قبله. وهم مغتمون يخافون من غزوه إياهم، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يتجسس الأخبار وقالوا: إن لقيت محمداً فخذ لنا منه أماناً، أي فلما سمعوا صهيل الخيل راعهم ذلك وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً، هذه كنيران عرفة، وبديل يقول له: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، وحمشتها بالحاء المهملة والشين المعجمة: أي أحرقتها وقيل بالسين المهملة: أي اشتدت عليها من الحماسة وهي الشدة، وأبو سفيان يقول: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. أي وفي رواية أن القائل هذه خزاعة غير بديل، وأن بديلاً هو القائل هؤلاء أكثر من خزاعة وهو المناسب، لأن بديلاً من خزاعة. قال العباس رضي الله عنه: فعرفت صوت أبي سفيان، أي وكان أبو سفيان صديقاً للعباس ونديمه، قال العباس، فقلت: يا أبا حنظلة فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ فقلت نعم، قال: ما لك فداك أبي وأمي؟ قلت: والله هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أي وفي رواية: قد جاءكم بعشرة آلاف، فقال: واصباح قريش والله فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفرك ليضربن عنقك، فأركب في عجز هذه البغلة حتى أتيك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمنه لك، فركب خلفي، أي ورجع صاحباه، فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا؟ وإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي قد أمكن منك من غير عقد ولا عهد، ثم خرج يشدد نحو رسول الله، فركضت البغلة فسبقتة فاقتحمته عن البغلة، فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل عليه عمر في أثره، فقال: يا رسول الله هذا أبو

سفيان، أي عدو الله قد أمكن منه من غير عقد ولا عهد، فدعني، لأضرب عنقه، قال: قلت يا رسول الله إنني قد أجرته. ولعل العباس وعمر رضي الله عنهما لم يبلغهما قوله إنكم لا قون بعضهم. فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه إن صح. قال العباس رضي الله: ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه فقلت: والله لا يناجيه الليلة رجل دوني، فلما أكد عمر في شأنه، قلت: مهلاً يا عمر، فوالله لو كان من رجال بني عدّي بن كعب ما قلت مثل

هذا، أي ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف، قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله: «أذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأنتني به».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3
وفي البخاري أن الحرس طفروا بأبي سفيان ومن معه وجاءوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا.

وجمع بعضهم بأنه يجوز أن يكون العباس أخذهم من الحرس، أي ويؤيده قول ابن عقبة رحمه الله لما دخل الحرس بأبي سفيان وصاحبيه لقيهم العباس بن عبد المطلب فأجارهم، أي وأتى بأبي سفيان وتأخر صاحبه، قال وفي لفظ: أخذهم نفر من الأنصار بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عيوناً فأخذوا بخطم أبعرتهم، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وها هو، فقال أبو سفيان: هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم، فجاؤوا بهم إلى عمر رضي الله تعالى عنه، أي لأنه كان في تلك الليلة على الحرس كما تقدم، فقالوا: جئناك بنفر من أهل مكة، فقال عمر وهو يضحك إليهم: والله لو جئتموني بأبي سفيان ما زدتم، فقالوا: والله أتيناك بأبي سفيان، فقال: احبسوه، فحبسوه حتى أصبح، فغدوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم انتهى، وفيه ما لا يخفى، فإن الجمع بينه وبين ما قبله بعيد.

قال العباس: ولما قال لي رسول الله «أذهب به يا عباس إلي رحلك» فذهبت به، فلما أصبح غدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أي بعد أن نودي بالصلاة وثار الناس، ففزع أبو سفيان وقال للعباس يا أبا الفضل ما يريدون؟ قال الصلاة.

وفي رواية: ما للناس؟ أمروا فيّ بشيء؟ قال: لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة ورأى المسلمين يتلقون وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رآهم يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد، فقال للعباس: يا عباس ما يأمرهم بشيء إلا فعلوه، فقال له العباس: لو نهاهم عن الطعام والشراب لأطاعوه، فقال: ما رأيت ملكاً مثل هذا لا ملك كسرى ولا ملك قيصر ولا ملك بني الأصفر، ثم قال للعباس: كلمه في قومك هل عنده من عفو عنهم؟ فانطلق العباس بأبي سفيان حتى أدخله على رسول الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي وأمي أنت، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لما أغنى عني شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، أما والله هذه فإن في النفس حتى الآن منها شيئاً.

قال: وفي رواية أن بديلاً وحكيم بن حزام لم يرجع بل جاء بهم العباس، وأن

العباس قال: يا رسول الله أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد أجرتهم وهم يدخلون عليك، فقال رسول الله: «أدخلهم، فدخلوا عليه، فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم، أي عن أهل مكة، ودعاهم إلى الإسلام، فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله: «اشهدوا أنني رسول الله»، فشهد بذلك بديل وحكيم بن حزام، فقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن في النفس من هذا شيئاً فأرجئها انتهى: أي أخرها إلى وقت آخر.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي أسد الغابة أنه، قال ليلة قرب من مكة في غزوة الفتح: إن بمكة أربعة نفر من قريش أرباباً بهم عن الشرك وأرغب بهم في الإسلام: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو، أي وهذا يدل على القول بأن جبيرا أسلم يوم الفتح كمن ذكر معه. وذكر بعضهم أنه أسلم بعد الحديبية وقبل الفتح.

فقال العباس رضي الله عنه لأبي سفيان: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق فأسلم. وذكر عبد بن حميد أن النبي صلى الله عليه وسلم حين عرض الإسلام على أبي سفيان، قال له: كيف أصنع بالعزى، فسمعه عمر رضي الله تعالى عنه من وراء القبة، فقال له: تخراً عليها، فقال له أبو سفيان: ويحك يا عمر، إنك رجل فاحش، دعني مع ابن عمي فأياه أكلم، وكان في هذا تصديق أمية بن أبي الصلت، فإنه كان يقول: كنت أرى في كتيبي أن نبياً يبعث في حرتنا فكنت أظن بل كنت لا أشك أنني أنا هو، فلما دارست أهل العلم إذ هو في بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً يصلح لهذا الأمر إلا عتبة بن ربيعة فلما جاوز الأربعين سنة ولم يوح إليه علمت أنه غيره. قال أبو سفيان: فخرجت في ركب أريد اليمن في تجارة فمررت بأمية بن أبي الصلت فقلت له كالمستهزىء به: يا أمية قد خرج النبي قد كنت تنعته، قال إنه حق فاتبعه، قلت: ما يمنعك من اتباعه؟ قال: ما يمنعني من اتباعه إلا الاستحياء من بنيات ثقيف، إنني كنت أحدثهم أنني هو يُرَيَّنِي تابعا لسلام من بني عبد مناف، ثم قال لأبي سفيان: كأتي بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجددي حتى يأتي بك إليه فيحكم بما يريد، رواه الطبراني في معجمه. وذكر بعضهم أن أمية هذا كان يتفرس في بعض الأحيان في لغات الحيوان، فمر يوماً على بغير عليه امرأة راكبة وهو يرفع رأسه إليها وبرغو، فقال: هذا البعير يقول إن في رحله مسلة تصيب ظهره، فأنزلوا تلك المرأة وحلوا ذلك الرجل، فوجدوا المسلة كما قال.

وذكر أن حكيم بن حزام قال: يا رسول الله أجنث بأوباش الناس من يعرف ومن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هم أظلم وأفجر، قد غدرتم بعقد الحديبية، وتجاهرتم على بني كعب يعني خزاعة بالإثم والعدوان في حرم الله وأمنه، فقال بديل: صدقت والله يا رسول الله، فقد غدروا بنا، والله لو أن قريشاً خلوا بيننا وبين عدونا ما نالوا منا الذي

نالوا، فقال حكيم: قد كنت يا رسول الله حقيقاً أن تجعل عدتك وكيدك لهوازن، فإنهم أبعد رحماً وأشدّ عداوة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأرجو أن يجمعها لي ربي: فتح مكة، وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن وأخذ أموالهم وذراريهم، وقال له أبو سفيان: يا رسول الله ادع الناس بالأمان، أرايت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، من كف يده وأغلق داره فهو آمن، قال العباس: فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

أي فحكيم بن حزام من مسلمة الفتح، وكان عمره ستين سنة، وبقي في الإسلام مثل ذلك، كان من أشرف قريش في الجاهلية والإسلام، وأعتق في الجاهلية مائة رقبة، وفي الإسلام مثل ذلك، فإنه حج في الإسلام، وأوقف بعرفة مائة وصيف في أعناقهم أطواق الفضة منقوش عليها «عتقاء الله عن حكيم بن حزام» وأهدى مائة بدنة قد جللها بالحبرة، وأهدى ألف شاة. وعقد لأبي رويحة الذي أخی بينه وبين بلال لواء، وأمره أن ينادي: من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن، أي وإنما قال ذلك لما قال له أبو سفيان: وما تسع داري، وما يسع المسجد؟ ولما قال له ذلك قال أبو سفيان: هذه واسعة، ثم أمر العباس أن يحبس أبا سفيان وبدلاً وحكيم بن حزام () أي وعليه إنما خص أبو سفيان بالذكر في بعض الروايات لشرفه قال له: احبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها. قال العباس: ففعلت، فمرت القبائل كلها، كلما مرت قبيلة كبرت ثلاثاً عند محاذاته. قال: يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول: ما لي ولسليم، أي فإن أول القبائل مرّ سليم، وفيها خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، ثم تمر القبيلة، فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت بالفاء والذال المهملة القبائل كلها، ما تمر قبيلة إلا سألتني عنها، فإذا قلت له بنو فلان، قال: ما لي ولبني فلان.
أي وقد ذكرها بعضهم مرتبة، فقال: أول من مر خالد بن الوليد في بني سليم بضم السين. فقال أبو سفيان: يا عباس من هؤلاء؟ قال: هذا خالد بن الوليد، قال: الغلام؟ قال: نعم، قال: ومن معه؟ قال: بنو سليم، قال: ما لي ولبني سليم.

ثم مر على أثره الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه في خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب؟ فقال أبو سفيان: من هؤلاء؟ قال الزبير، قال: ابن أخيك؟ قال: نعم.
ثم مرت بنو غفار بكسر الغين المعجمة، ثم أسلم، ثم بنو كعب، ثم مزينة، ثم جهينة ثم كنانة، ثم أشجع.

ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس: هؤلاء كانوا أشدّ العرب على محمد، قال العباس: أدخل الله الإسلام قلوبهم، فهذا فضل الله () حتى مر به رسول

الله صلى الله عليه وسلم في كتيبه الخضراء للبسمم الحديد. والعرب تطلق الخضرة على السواد كما تطلق السواد على الخضرة، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد: أي فيها ألفاً دارع وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: رويداً حتى يلحق أولكم آخركم. قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ فقلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، فقال أبو سفيان: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، فقلت: يا أبا سفيان إنها النبوة، فقال: نعم إذن، ثم قلت له: النجاء بالفتح والمد إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة أم معاوية رضي الله تعالى عنهم، فأخذت بشاربه وقالت كلاماً: معناه اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه، قبح من طليعة قوم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

أي وفي رواية أنها أخذت بلحيته ونادت: يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق، هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم؟ فقال لها: ويحك أسكتي وادخلي بيتك. وقال: ويحكم، لا تغزّينكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا قبحك الله، وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل تحت لواء أبي ربيعة فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، أي وبهذا استدل على أن مكة فتحت صلحاً لا عنوة. وبه قال إمامنا الشافعي رحمه الله. وقال غيره: فتحت عنوة.

وفي رواية: أن النبي صلى الله عليه وسلم وجه حكيم بن حزام مع أبي سفيان بعد إسلامهما إلى مكة، وقال: من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن وكانت بأسفل مكة، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن وكانت بأعلى مكة، واستثنى جماعة أمر بقتلهم، وهم أحد عشر رجلاً، أي وفي الإمتاع: ستة نفر، وأربع نسوة وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة: منهم عبد الله بن أبي سرح، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، وكان فارس بن بني عامر، وكان أحد النجباء الكرام من قريش رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك، وعبد الله بن خطل وقينناه، وعكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، والحويرث بن نفيل، ومقيس بن حبابة، وهبار بن الأسود رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وكعب بن زهير رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وهو صاحب بانة سعاد، والحارث بن هشام رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وهو أخو أبي جهل لأبويه، وزهير بن أمية رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب رضي الله تعالى عنها فإنها أسلمت بعد ذلك وعاشت إلى خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وتقدم أنها كانت حاملة لكتاب حاطب بن أبي بلتعة، وصفوان بن أمية رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وزهير بن أبي سلمى: أي وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، ووحشي بن حرب رضي الله تعالى عنه () فإنه أسلم بعد ذلك. وفي رواية أن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه كان معه راية رسول الله

صلى الله عليه وسلم: أي على الأنصار.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

ولما مر على أبي سفيان وهو واقف بمضيق الوادي، قال أبو سفيان: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار، عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فلما حاذاه سعد قال: يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة: أي الحرب والقتال: اليوم أستحل الحرمه. وفي لفظ: الكعبة، اليوم أذلّ الله قريشاً، فلما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بعضهم: ورأيت مع الزبير رضي الله تعالى عنه، فلما مر بأبي سفيان وحاذاه أبو سفيان ناداه: يا رسول الله أمرت بقتل قومك، فإنه زعم سعد ومن معه حين مرّ بنا أنه قاتلنا، فإنه قال: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمه، اليوم أذلّ الله قريشاً، أنشدك الله في قومك فأنت أبر الناس برّاً وأرحمهم وأوصلهم، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما: يا رسول الله فإننا لا نأمن من سعد أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا سفيان كذب سعد، اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ الله فيه قريشاً. أي وفي رواية: اليوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم تكسى فيه الكعبة، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد بن عبادة: أي أرسل علياً كرم الله وجهه أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس رضي الله تعالى عنهما. وقيل أعطاه للزبير، وقيل لعليّ كرم الله وجهه خشية أن يقع من ابنه قيس ما لا يرضاه، أي لأن قيساً رضي الله تعالى عنه كان من دهاة العرب وأهل الرأي والمكيدة في الحرب مع النجدة واليسالة والشجاعة. من وقف على ما وقع بينه وبين معاوية لما ولاه سيدنا عليّ كرم الله وجهه بعد قتل عثمان رضي الله تعالى عنه مصر لرأى العجب من وفور عقله، ومع ذلك كان له من الكرم ما لا مزيد عليه. وقفت له رضي الله تعالى عنه عجوز: وقالت له: أشكو إليك قلة الجرذان بيّتي. والجرذان بالذال المعجمة: نوع من الفيران، فقال: ما أحسن هذا السؤال وقال لها: لأكثرنّ الجرذان بيّتك، فملاً بيّتها طعاماً وأدماً. وقيل قالت له: مشيت جرذان بيّتي على العصيّ،

فقال لها: لأدعهن يثبن وثبة الأسود، ثم ملاً بيّتها طعاماً، ولا مانع من تعدد الواقعة.

ومن هذا الوادي ما كتب به بعضهم إلى عبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين أشكو إليك الشرف. فقال له: ما أحسن ما استمنحت، وأعطاه عشرة آلاف درهم، فقيل له في ذلك؟ فقال: يسأل ما لا يقدر عليه، ويعتذر فلا يعذر. ولما أشرف أبوه سعد رضي الله تعالى عنهما على الموت قسم ماله في أولاده، وكان له حمل لم يشعر به، فلما مات سعد وولد له ذلك الحمل كلمه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في أن ينقض ما صنع أبوه من تلك القسمة، فقال: نصيب للمولود، ولا أغير ما صنع أبي، ولم يكن في وجه قيس رضي الله تعالى عنه شعر، وكان مع ذلك جميلاً، وكانت الأنصار رضي الله تعالى عنهم تقول: وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا. وكان له ديون على الناس كثيرة فلما مرض رضي الله تعالى عنه استبطأ عواده، فقيل له إنهم مستحيون

من أجل دينك، فأمر منادياً ينادي: كل من كان لقيس بن سعد عليه دين فهو له، فأتاه الناس حتى هدموا درجة كان يصعد عليها إليه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار لابنه قيس رضي الله تعالى عنهما. قال: وروي أن سعداً أبى أن يسلم اللواء إلا بأمانة من رسول الله، فأرسل إليه بعمامته. فدفع اللواء لابنه قيس رضي الله تعالى عنهما انتهى.

وفي صحيح البخاري أن كتيبة الأنصار جاءت مع سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنه ومعه الراية ولم ير مثلها، ثم جاءت كتيبة وهي أقل. وفي رواية الحميدي وهي أجل الكتائب بالجيم. قال في الأصل: وهي أظهر من رواية أقل، لأنها كانت خاصة الهاجرين، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم والراية مع الزبير رضي الله تعالى عنه.

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة، أي وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت. وقال: لا تقتلوا إلا من قاتلكم، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو رضي الله عنهم، أي فإنهم أسلموا بعد ذلك () قد جمعوا ناساً بالخدمة: وهو جبل بمكة ليقاتلوا، وكان من جملتهم رجل كان يعدّ سلاحاً، ويصلح من شأنه، فتقول له زوجته، أي وقد كانت أسلمت سراً لماذا تعدّ ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، فتقول له: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: والله إنني لأرجو أن أخدمك بعضهم.

وفي تاريخ مكة للأزرقي قال رجل من قريش لامرأته وهي تبرى نبالاً له، وكانت أسلمت سراً، فقالت له: لم تبري هذا النبل؟ قال: بلغني أن محمداً يريد أن يفتح مكة ويغزوها، فلئن كان لأخدمك خادماً من بعض من أسأسره، فقالت له: والله لكاني بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبتك فيه لو رأيت خيل محمد، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أقبل ذلك الرجل إليها، فقال: ويحك هل من مخبأ، فقالت له: فأين الخادم؟ فقال لها: دعي عنك، وأنشد الأبيات الآتية، هذا كلامه.

وسبب ذلك أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه لما لقيهم بالمحل المذكور منعوه الدخول ورموه بالنبل، وقالوا له: لا تدخلها عنوة، فصاح خالد في أصحابه، فقتل من قتل وانهزم من لم يقتل، وكان من جملة من انهزم ذلك الرجل.

وفي رواية أنه لما دخل بيته قال لامرأته: أغلقي عليّ بابي، قالت: وأين ما كنت تقول؟ أين الخادم الذي كنت وعدتني، تسخر به؟ فقال:

إنك لو شهدت يوم الخدمة
عبارة الأزرقي:

وأنت لو أبصرتنا بالخدمة

إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة

واستقبلتنا بالسيوف المسلمة

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

يقطعن كل ساعد وجمجمة

ضرباً فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نهيت حولنا وهمهمه
لا تنطقي في اللوم أدنى كلمة

والغمغمة: الصوت الذي لا يفهم. والنهيت بالمشاة تحت وفوق: الزحير.
والهمهمة: صوت في الصدر.
أي واستمر خالد رضي الله تعالى عنه يدفعهم إلى أن وصل الجزورة إلى باب
المسجد أي وصعدت طائفة منهم الجبل فتبعهم المسلمون، فرأى وهو على
العقبة بارقة السيوف، فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ ف قيل له: لعل
خالداً قوتل وبدىء بالقتال، فلم يكن له بد من أن يقاتل من يقاتله، وما كان يا
رسول الله ليخالف أمرك، فقتل من المشركين أربعة وعشرون من قريش،
وأربعة من هذيل.
وفي رواية جعل الزبير رضي الله تعالى عنه على إحدى المجنبتين: أي وهما
الكتبتان، تأخذ أحدهما اليمين والأخرى اليسار والقلب بينهما، وخالداً على
الأخرى، وأبا عبيدة على الرجالة.
وفي لفظ: على الحسر بضم الحاء المهملة وتشديد السين المهملة: أي الذين
لا دروع لهم. قال في شرح مسلم: فهم رجال لا دروع عليهم، وقد أخذوا بطن
الوادي، ولعل ذلك كان قبل الدخول إلى مكة، فلا ينافي ما سيأتي أنه أعطى
الزبير رضي الله تعالى عنه راية، وأمره أن يغرزها بالحجون، لا يبرح حتى يأتيه
في ذلك المحل وفي ذلك المحل بني مسجد يقال له مسجد الراية.

وقد بؤشت قريش أبواشاً: أي جمعوها من قبائل شتى، فنادى رسول الله صلى
الله عليه وسلم أباهريرة رضي الله تعالى عنه وقال له. اهتف: أي صح لي
بالأنصار، فهتف بهم، فجأؤوا وطاقوا برسول الله، فقال لهم: ترون إلي أبواش
قريش وأتباعهم؟ ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى: احصوهم حصداً حتى
توافوني بالصفة: أي ودخلوا من أعلى مكة. قال أبو هريرة رضي الله تعالى
عنه: فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل منهم ما شاء وما أحد يوجه إلينا منهم
شيئاً. وفي لفظ: فما نشاء أن نقتل أحداً منهم إلا قتلناه: أي لا يقدر أن يدفع
عن نفسه، فجاء أبو سفيان رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله أبيضت
خضراء قريش لا قريش: أي لا جماعة لقريش بعد اليوم، لأن الجماعة
المجتمعة يعبر عنها بالسواد الأعظم، فيقال السواد الأعظم، ويعبر عنها
بالخضرة كما هنا، فالمراد جماعة قريش، وعند ذلك قال: «من أغلق بابه فهو
أمن».

قال: ووجه اللوم على خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه. وقال له: لم قاتلت
وقد نهيت عن القتال؟ قال: هم يا رسول الله بدؤونا بالقتال ورمونا بالنبل،
ووضعوا فينا السلاح، وقد كفت ما استطعت، ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا،
حتى إذا لم أجد بداً من أن أقاتلهم فظفرنا الله بهم فهربوا من كل وجه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي لفظ أنه قال لرجل من الأنصار عنده: يا فلان، قال: لبيك يا رسول الله، قال: ائت خالد بن الوليد وقل له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تقتل بمكة أحداً، فجاء الأنصاري فقال: يا خالد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن لا تقتل من لقيت من الناس، فاندفع خالد فقتل سبعين رجلاً بمكة. فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم رجل من قريش فقال: يا رسول الله هلكت قريش، لا قريش بعد اليوم. قال: ولم؟ قال: هذا خالد بن الوليد لا يلقى أحداً من الناس إلا قتله، قال: ادع لي خالداً، فدعاه له، فقال: يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحداً؟ قال: بل أرسلت إن اقتل من قدرت عليه. قال: ادع لي الأنصاري، فدعاه له، فقال: أما أمرتك أن تأمر خالداً أن لا يقتل أحداً، قال: بلى ولكنك أردت أمراً وأراد الله غيره، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل للأنصاري شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كف عن الطلب، قال: قد فعلت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قضى الله أمراً، ثم قال: كفوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر، وهي الساعة التي أحلت لرسول الله .

أي وهذه المقاتلة التي وقعت لخالد رضي الله تعالى عنه لا تنافي كون مكة فتحت صلحاً كما تقدم، أي لأنه صالحهم بمر الظهران قبل دخول مكة. وأما قوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل تحت لواء أبي ربيعة فهو آمن» فهو من زيادة الاحتياط لهم في الأمان.

وقوله احصدهم حصداً محمول على من أظهر من الكفار القتال ولم يقع قتال، ومن ثم قتل خالد رضي الله تعالى عنه من قاتل من الكفار، وإرادة علي كرم وجهه قتل الرجلين اللذين أمنتهم أم هانئ أم هانئ كما سيأتي لعله تأول فيهما شيئاً أو جرى منهما قتال له وتأمين أم هانئ لهما من تأكيد الأمان الذي وقع للعموم، فلا حجة في كل ما ذكر على أن مكة فتحت عنوة كما قاله الجمهور.

وقيل أعلاها فتح صلحاً: أي الذي سلكه أبو هريرة والأنصار لعدم وجود المقاتلة فيه، وأسلفها الذي سلكه خالد رضي الله عنه فتح عنوة لوجود المقاتلة فيه كما تقدم.

ودخل مكة وهو راكب على ناقته القصواء: أي مردفاً أسامة بن زيد بكرة يوم الجمعة معتجراً بشقة برد حبرة حمراء، واضعاً رأسه الشريف على رحله تواضعاً لله تعالى، حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى مكة وكثرة المسلمين، ثم قال: «اللهم إن العيش عيش الآخرة».

وقيل دخل وعلى رأسه المغفر، وقيل وعليه عمامة سوداء حرقانية قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير إحرام، ورايته سوداء ولواؤه أسود.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وعن جابر رضي الله تعالى عنه: «كان لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخل مكة أبيض» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها «كان لواءه يوم الفتح

أبيض. ورايته سوداء تسمى العقاب» أي وهي التي كانت بخير، وتقدم أنها كانت من برد عائشة.

وعنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح من كداء» بفتح الكاف والمد والتنوين «من أعلى مكة» وهذا هو المعروف خلافاً لمن قال إنه دخل من أسفل مكة، وهي ثنية كدى بضم الكاف والقصر والتنوين، وسيأتي أنه عند الخروج خرج من هذه، وبهذا استدل أئمتنا على أنه يستحب دخول مكة من الأولى، والخروج منها من الثانية، أي واغتسل لدخول مكة كما حكاها إمامنا الشافعي رضي الله في الأم، وبه استدل على استحباب الغسل لداخل مكة ولو حلالاً أي وسيأتي ذلك عن أم هانئ رضي الله تعالى عنها، أي وكان شعار المهاجرين «يا بني عبد الرحمن» وشعار الخرج «يا بني عبد الله» وشعار الأوس «يا بني عبيد الله» أي شعارهم الذي يعرف به بعضهم بعضاً في ظلمة الليل، وعند اختلاط الحرب لو وجد. ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة واطمأن الناس، قال وذلك بالحجون: موضع ما غرز الزبير رضي الله تعالى عنه رايته عند شعب أبي طالب الذي حصرت فيه بنو هاشم، أي وبنو المطلب قبل الهجرة، بقية من آدم نصبت له هناك ومعه فيها أم سلمة وميمونة زوجته ورضي عنهما. فعن جابر رضي الله تعالى عنه: «لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيوت مكة وقف، فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته، وقال: هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا، قال جابر رضي الله تعالى عنه: فذكرت حديثاً كنت سمعته منه قبل ذلك بالمدينة: «منزلنا إذا فتح الله تعالى علينا مكة في خيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»: أي لأن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبنو المطلب أن لا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر ما تقدم في قصة الصحيفة انتهى، وفيه أنه سيأتي في حجة الوداع أنهم تحالفوا بالمحصب.

ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال يوم النحر وهو بمنى: «نحن نازلون غداً بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» يعني بالمحصب. وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما. قال: «يا رسول الله ابن تنزل غداً؟ أتزل في دارك؟ فقال: وهل ترك لنا عقيل من دار؟» وتقدم ما يغني عن إعادته هنا، فكان يأتي المسجد من الحجون لكل صلاة، وكان دخوله مكة يوم الاثنين.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إنه ولد يوم الاثنين، ووضع الحجر يوم الاثنين، وخرج من مكة: أي مهاجراً يوم الاثنين، أي ودخل المدينة يوم الاثنين، ونزلت عليه سورة المائدة يوم الاثنين. ثم سار وإلى جانبه أبو بكر رضي الله تعالى عنه يحادثه ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته، أي ومحمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه أخذ بزمامها ليستلم الحجر بمحجن في يده.

ومما يدل على أن الذي كسر هو هبل قول الزبير رضي الله تعالى عنه كما تقدم لأبي سفيان أن هبل الذي كنت تفتخر به يوم أحد قد كسر، قال: دعني ولا توبخنتي، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك. وفي الكشاف: ألقاها جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة، وكان من قوارير صفر، فقال: «يا علي ارم به، فحملة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون: ما رأينا أسحر من محمد».

وفي خصائص العشرة لصاحب الكشاف زيادة، وهي: ونزلت من فوق الكعبة وانطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم نسعى، وخشينا أن يرانا أحد من قريش هذا كلامه، وهذا يدل على أن ذلك لم يكن يوم فتح مكة فليتأمل. وفي الكشاف أيضاً: كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، لكل قوم صنم بحياهم.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «كانت لقبائل العرب أصنام يحجون إليها وينحرون لها، فشكا البيت إلى ربه عز وجل، فقال: يا رب إلى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك؟ فأوحى الله تعالى إلى البيت: إني سأحدث لك نوبة جديدة، فلأملؤك خدوداً سجداً يدفون إليك ديف النصور، ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها، لهم عجيج حولك بالبيت» هذا كلامه.

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة، أي بعد أن أرسل بلائاً رضي الله تعالى عنه إلى عثمان بن أبي طلحة يأتي بمفتاح الكعبة إلى آخر ما سيأتي، وبعد أن محيت منها الصور، أي فإنه أمر عمر رضي الله تعالى عنه وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها، وكان عمر رضي الله تعالى عنه قد ترك صورة إبراهيم، فقال: يا عمر ألم أمرك أن لا تترك فيها صورة؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام {ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين} هذا. وفي كلام سبط ابن الجوزي، قال الواقدي رحمه الله: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما أن يقدموا إلى البيت، وقال لعمر: لا تدع صورة حتى تمحوها إلا صورة إبراهيم هذا كلامه، فليتأمل.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي رواية، عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما، قال: «دخلت عليه في الكعبة فرأى صوراً، فدعا بدلو من ماء فأتيته به، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمحوها» أي وتلك الصور هي صور الملائكة وصور إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام يستقسمان بها، أي وإسحاق وبقية الأنبياء كما تقدم في بيان قريش الكعبة وصورة مريم، فقال: «قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون، قاتلتهم الله، لقد علموا أنهما لم يستقسما بالأزلام قط» أي ولا منافاة لأنه يجوز أن يكون عمر رضي الله تعالى عنه ترك مع صورة إبراهيم وإسماعيل ومريم وصور الملائكة، ووجد صورة حمامة من عيدان بفتح العين المهملة وكسرها بيده ثم طرحها، ودعا بزعفران فلطخه بتلك التماثيل: أي بموضعها، وصلى بها ركعتين بين اسطوانتين، وفي لفظ: بين العمودين اليمانيين، وفي لفظ: المقدمين، وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع انتهى.

أي وفي الترمذي: «دخل البيت وكبر في نواحيه ولم يصل» وفي رواية لمسلم: «دخل هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن أبي طلحة» زاد في رواية «والفضل بن العباس» قال الحافظ ابن حجر: وفي رواية شاذة: «فأغلقوا عليهم الباب» وفي لفظ آخر «فأغلقا» أي عثمان وبلال فأجاف: «أي أغلق عثمان الباب» وجمع بأن عثمان هو المباشر لذلك، لأنه من وظيفته، وبلال رضي الله تعالى عنه كان مساعداً له في الغلق.

أي ولما دخلوا كان خالد بن الوليد يدب الناس وهو واقف على باب الكعبة. قال ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: فلما فتحوا كنت أول من ولج، فلقيت بلالاً فسألته: هل صلى فيه رسول الله؟ قال: نعم، وذهب عني أن أسأله كم صلى؟ وهذا يدل على أن قول بلال رضي الله تعالى عنه إنه صلى أتى بالصلاة المعهودة لا الدعاء كما ادعاه بعضهم.

وفي كلام السهيلي في حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه صلى فيها ركعتين. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «أخبرني أسامة بن زيد أنه لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج ركع في قبل البيت ركعتين» أي بين الباب والحجر الذي هو الملتزم، وقال: هذه القبلة، فبلال رضي الله تعالى عنه مثبت للصلاة في الكعبة، وأسامة رضي الله تعالى عنه ناف، والمثبت مقدم على النافي، على أنه جاء أن أسامة رضي الله تعالى عنه أخبر أيضاً بأنه صلى في الكعبة.

وأجيب بأن أسامة حيث أثبت اعتمد قول بلال، وحيث نفى اعتمد ما عنده، أي وفي مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «أنه دخل الكعبة فصلى بين السارين ركعتين، ثم خرج فصلى بين الباب والحجر ركعتين، ثم قال: هذه القبلة، ثم دخل مرة أخرى فقام يدعو ولم يصل» فالنقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اختلف. وسبب الاختلاف تعدد دخوله، ففي المرة الأولى دخل وصلى، في المرة الثانية دخل ولم يصل، وهذا السياق يدل على أن ذلك كان يوم الفتح.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي كلام بعضهم: رواية ابن عباس ورواية بلال رضي الله تعالى عنهم صحيحتان، لأنه دخلها يوم النحر فلم يصل، ودخلها من الغد فصلى، وذلك في حجة الوداع هذا كلامه فليتأمل. أي ثم إنه جاء إلى مقام إبراهيم وكان لاصقاً بالكعبة فصلى ركعتين، ثم أخره على ما تقدم ودعا بماء فشرب منه وتوضأ. وفي لفظ: «ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال: لولا أن تغلب بنو عبد المطلب» أي يغلبهم الناس على وظيفتهم وهي النزع من زمزم «لنزعت منها دلواً» أي فإن الناس يقتدون به في ذلك مع أن النزع من وظيفته بني عبد المطلب، وانتزع له العباس رضي الله تعالى عنه دلواً فشرب منه وتوضأ، فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم.

وفي لفظ لا تسقط قطرة إلا في يد إنسان إن كان قدر ما يشربها شربها وإلا مسح بها جلده، والمشركون يقولون: ما رأينا ولا سمعنا ملكاً قط بلغ هذا.

ولما جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد أي والناس حوله خرج أبو بكر وجاء بأبيه رضي الله تعالى عنهما يقوده، وقد كان كف بصره، فلما رآه قال: هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا أتبه؟ وفي لفظ: لو أقررت الشيخ في بيته لأتيناه تكربة لأبي بكر، فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، فأجلسه بين يدي رسول الله، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال: أسلم تسلم، فأسلم رضي الله تعالى عنه، وهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر بإسلام أبيه رضي الله تعالى عنهما، أي وعند ذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه للنبي: والذي بعثك بالحق لإسلام أبي طالب كان أقر لعيني من إسلامه، يعني أباه أبا قحافة، وذلك أن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك كذا في الشفاء، وكان رأس أبي قحافة ولحيته كالثغامة، فقال: غيروهما، وجنبوهما السواد. أي وفي رواية: «واجتنبوا السواد» وجاء: «غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود والنصارى» وفي رواية: «اليهود والنصارى لا يصبغون فخالقوهم» وجاء: «إن أحسن ما غيرتم به هذا الشيب الحناء والكتم» وعن أنس رضي الله تعالى عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خضب بالحناء والكتم» قال ابن عبد البر رحمه الله: والصحيح أنه لم يخضب، ولم يبلغ من الشيب ما يخضب له. وقد اختضب أبو بكر رضي الله تعالى عنه بالحناء والكتم. واختضب عمر رضي الله تعالى عنه بالحناء. وجاء: «يا معشر الأنصار حمروا أو صفروا وخالقوا أهل الكتاب» وكان عثمان رضي الله تعالى عنه يصفر. وعن أنس رضي الله تعالى عنه «دخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو أبيض الرأس واللحية، فقال ألسنت مؤمناً؟ قال بلى، قال: فاخضب» لكن قيل إنه حديث منكر. وجاء «من اختضب بالسواد سود الله وجهه يوم القيامة» قيل إنه حديث منكر. وجاء «يكون آخر الزمان رجال من أمتي يغيرون بالسواد لا ينظر الله إليهم يوم القيامة» قيل هو غريب جداً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

قال بعضهم: ولعل من خضب بالسواد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم كسعد بن أبي وقاص والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم، أي وعقبة بن عامر المدفون بمصر قال بعضهم: ليس بمصر قبر صحابي متفق عليه إلا قبر عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه، فإنه كان يخضب بالسواد وهو القائل في ذلك:

تسود أعلاها وتأبى أصولها

ولا خير في الأعلى إذا فسد الأصل

وكان والياً على مصر من جهة معاوية رضي الله تعالى عنه، فعزله بمسلمة بن مخلد وأمره بالغزو في البحر.

وكان عقبة رضي الله تعالى عنه يقول: ما أنصفنا معاوية، عزلنا وغرّبنا لم

يبلغهم النهي أو فهموا أن النهي للكراهة.

وقد جاء: «أول من جزع من الشيب إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين رآه في عارضه، فقال عليه الصلاة والسلام: يا رب ما هذه الشوهة التي شوّهت

بخليلك؟ فأوحى الله إليه: هذا سربال الوقار، ونور الإسلام، وعزتي وجلالي ما ألبسته أحداً من خلقي يشهد أن لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي إلا استحييت منه يوم القيامة، أن أنصب له ميزاناً، وأنشر له ديواناً أو أعذبه بالنار، فقال: يا رب زدني، فأصبح رأسه مثل الثغامة البيضاء» في المشكاة قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السواد لا يجدون رائحة الجنة» رواه أبو داود والنسائي، أي وفي الكلام ابن الجوزي رحمه الله: أول من خضب بالسواد فرعون، ومن أهل مكة أي من العرب عبد المطلب بن هاشم. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: «اخضبوا بالسواد، فإنه أنكى للعدو وأحب للنساء» فليأمل.

وكان لأبي بكر رضي الله تعالى عنه أخت صغيرة في عنقها طوق من فضة اقتلعه إنسان من عنقها، فأخذ أبو بكر رضي الله تعالى عنه بيد أخته وقال: أنشدتكم بالله وبالإسلام طوق أختي، فما أجابه أحد، ثم قال الثانية والثالثة، فما أجابه أحد، فقال رضي الله تعالى عنه: يا أختاه احتسبي طوقك، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل. قال بعضهم: ولم يعيش لأبي قحافة رضي الله تعالى عنه ولد ذكر إلا أبو بكر، ولا يعرف له بنت إلا أم فروة التي أنكحها أبو بكر من الأشعث بن قيس، وكانت قبله تحت تميم الداري، وهي هذه المذكورة هنا. وقيل كانت له بنت أخرى تسمى عربية. وعليه فيحتمل أن تكون هي المذكورة هنا وتقدم إسلام أبي بكر رضي الله تعالى عنهما لما كان المسلمون في دار الأرقم، وأمّه بنت عم أبيه. قال بعضهم: لم يكن أحد من الصحابة المهاجرين والأنصار أسلم هو ووالداه وجميع أبنائه وبناته غير أبي بكر. وبنوه ثلاثة: عبد الله وهو أكبرهم، مات أول خلافة والده. وعبد الرحمن ومحمد رضي الله تعالى عنهم. ولد محمد في حجة الوداع وهو المقتول بمصر، وبناته ثلاثة أيضاً: أسماء، وهي أكبرهن، وهي شقيقة عبد الله. وعائشة، وهي شقيقة عبد الرحمن. وأم كلثوم رضي الله تعالى عنهم وعنهن.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

مات أبو بكر رضي الله تعالى عنه وهي ببطن أمها، وقد أنزل الله تعالى في حقه {رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي} الآيات. قال بعضهم: لا يعرف في الصحابة أربعة أسلموا وصحبوا النبي صلى الله عليه وسلم وكل واحد أبو الذي بعده إلا في بيت أبي بكر رضي الله تعالى عنه: أبو قحافة وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمن، وابن عبد الرحمن محمد، ويكنى بأبي عتيق.

أي وقد قيل: إن قيل: هل تعرفون أربعة رأوا النبي في نسق: أي من الذكور كل ابن الذي قبله؟ أجيب بأنهم هؤلاء الأربعة: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه عبد الرحمن، وابن عبد الرحمن محمد، ويقولنا من الذكور لا يرّد ما أورد على ذلك أن هذا يصدق على أبي قحافة وابنه أبي بكر وبنته أسماء وابنها عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهم، نعم يرد على ذلك حارثة أبو زيد فإنه أسلم على ما ذكره الحافظ المنذري، ورأى النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه وابنه زيد بن حارثة وابنه أسامة بن زيد، وجاء أسامة بولد في حياته، أي ويحتاج

إلى إثبات كونه رأى ذلك المولود إلا أن يقال كان من شأنهم إذا ولد لأحدهم مولود جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيحنكه ويسميه، خصوصاً وهذا المولود ابن حب الحب، ولم أقف على اسم هذا المولود، فليراجع في أسماء الصحابة.

وحينئذ يقال لأجل عدم ورود من ذكر ليس لنا أربعة ذكور معروفة أسماؤهم، وبعد الوقوف على اسم ذلك المولود يقال لأجل عدم الورد: ليس لنا أربعة ليسوا من الموالي إلا أبو قحافة وابنه أبو بكر وابن أبي بكر عبد الرحمن وابن عبد الرحمن محمد أبو عتيق فلي تأمل.

لا يقال: هذا موجود في غير بيت الصديق، فقد ذكروا في الصحابة أربعة كذلك: أي ذكور، كل واحد أبو الذي بعده، عرفت أسماؤهم وليس فيهم مولى، وهم إياس بن سلمة بن عمرو بن لال.

لأننا نقول: المراد المتفق على صحبتهم، وهؤلاء لم يقع الاتفاق على صحبتهم. ومن الفوائد المستحسنة أنه ليس في الصحابة، قال بعضهم: بل ولا في التابعين من اسمه عبد الرحيم، وثلاثة ذكور أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم على نسق، وهم السائب والد إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه، وأبوه عبيد، وجده عبد يزيد.

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه، والأنصار تحته. قال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته، فنزل الوحي عليه بما ذكر القوم، فلما قضى الوحي رفع رأسه وقال: يا معشر الأنصار قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته ورأفة بعشيرته، قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: فما اسمي إذن، أي إن فعلت ذلك كيف اسمي؟ وأوصف بأني عبد الله ورسوله، كلا لا أفعل ذلك إنني عبد الله ورسوله، أي ومن كان هذا وصفه لا يفعل ذلك، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن: أي البخل بالله ورسوله: أي لا نسمح أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير بلدتنا، يعنون المدينة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن الله ورسوله يعذرانكم ويصدقانكم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي رواية أن الأنصار رضي الله تعالى عنهم قالوا فيما بينهم: أترون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فتح الله أرضه وبلده يقيم بهما، فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا لا شيء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال: «معاذ الله المحيا محياكم، والممات مماتكم».

أي وتقدم له في بيعة العقبة نظير ذلك، وهو أن الأنصار قالوا: يا رسول الله هل عسيت إن نحن نصرناك وأظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم.

وإنما أمر بقتل عبد الله بن أبي سرح، لأنه كان أسلم قبل الفتح، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، وكان إذا أملى عليه سميعاً بصيراً كتب عليمًا حكيمًا، وإذا أملى عليه حكيمًا كتب غفوراً رحيمًا، وكان يفعل مثل هذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال: إن محمداً لا يعلم ما يقول، فلما ظهرت خيانتته لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتدَّ وهرب إلى مكة. وقيل إنه لما كتب: {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} إلى قوله: {ثم أنشأناه خلقاً آخر} تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله: {فتبارك الله أحسن الخالقين} قبل إملائه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: اكتب ذلك، هكذا أنزلت، فقال عبد الله: إن كان محمد نبياً يوحى إليه فأنا نبي يوحى إليّ، فارتد ولحق بمكة، فقال لقريش: إني كنت أصرف محمداً كيف شئت كان يملئ عليّ عزيز حكيم. فأقول أو عليم حكيم، فيقول نعم كل صواب، وكل ما أقوله يقول اكتب، هكذا نزلت، فلما كان يوم الفتح وعلم بإهدار النبي صلى الله عليه وسلم دمه لجأ إلى عثمان بن عفان أخيه من الرضاعة، فقال له: يا أخي استأمن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب عنقي، فغيبه عثمان رضي الله عنه حتى هدأ الناس واطمأنوا، فاستأمن له، ثم أتى به إلى النبي، فأعرض عنه النبي، فصار عثمان رضي الله عنه يقول: يا رسول الله أمنتك والنبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه، ثم قال: نعم، فيسقط يده فبايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال لمن حوله: أعرضت عنه مراراً، ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه، وقال لعباد بن بشر وكان نذر إن رأى عبد الله قتله، أي وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبي صلى الله عليه وسلم يشير إليه أن يقتله، فقال له: «انتظرتك أن تفي بنذرك»، قال: يا رسول الله خفتك، أفلا أومضت إليّ، فقال: «إنه ليس لنبي أن يومض». وفي رواية: «الإيماء خيانة ليس لنبي أن يومض». وفي رواية: «لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» أي وهذا يدل على أن

خائنة الأعين بالإيماء بالعيون: أي أن يومي بطرفه خلاف ما يظهره بكلامه وهو اللمز هذا.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وقيل إنه أسلم وبايع والنبي صلى الله عليه وسلم بمزّ الظهران، وصار يستحيي من مقابلته فقال لعثمان: أما بايعته وأمنتك؟ قال بلى، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحيي منك، قال: «الإسلام يجب ما قبله» وأخبره عثمان رضي الله عنه بذلك، ومع ذلك فصار إذا جاء جماعة للنبي يجيء معهم ولا يجيء إليه منفرداً. وإنما أمر بقتل ابن خطل لأنه كان ممن أسلم: أي قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم، وكان اسمه عبد العزى، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله، وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذ الصدقة، وأرسل معه رجلاً من الأنصار يخدمه. وفي لفظ: كان معه مولى يخدمه، وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمره أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم فعدا عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكان شاعراً يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعره، وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يصنعه.

وقد قيل إنه ركب فرسه لابساً للحديد، وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة، فلما رأى خيل الله دخله الرعب، فانطلق إلى الكعبة فنزل عن

فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أستارها فأخذ رجل سلاحه، وركب فرسه، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجون، وأخبره خبره، فأمر بقتله. وقيل لما طاف بالكعبة قيل هذا ابن خطل معلقاً بأستار الكعبة، فقال: «اقتلوه فإن الكعبة لا تعيد عاصياً، ولا تمنع من إقامة حد واجب» أي فقتله سعد بن حريث وأبو برزة. وقيل قتله الزبير رضي الله عنه، وقيل سعد بن ذؤيب، وقيل سعد بن زيد. قال في النور: والظاهر اشتراكهم فيه جميعاً جمعاً بين الأقوال. وأمر بقتل قبنتيه، فقتلت إحداهما واستؤمن رسول الله صلى الله عليه وسلم للأخرى فأمنها وأسلمت.

والحويرث بن نقيذ، وإنما أمر بقتله لأنه كان يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ويعظم القول في أذيته، وينشد الهجاء، وكان العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنه حمل فاطمة وأم كلثوم بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث البعير الحامل لهما فرمى به الأرض، قتله علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في ذلك اليوم وقد خرج يريد أن يهرب.

ومقيس بن ضبابة إنما أمر بقتله، لأنه كان قد أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً طالباً لديه أخيه هشام بن ضبابة رضي الله عنه، قتله رجل من الأنصار في غزوة ذي قرد خطأ يظنه من العدو، ودفع له النبي صلى الله عليه وسلم دية أخيه، ثم إنه عدا على الأنصاري قاتل أخيه فقتله بعد أن أخذ دية أخيه ثم لحق بمكة مرتداً كما تقدم، قتله ابن عمه ثميلة بن عبد الله الليثي، أي بعد أن أخبر ثميلة بأن مقيساً مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر، فذهب إليه فقتله، وذلك بردم بني جمح، وقيل قتل وهو معلق بأستار الكعبة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وأما هبار بن الأسود رضي الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك، وإنما أمر بقتله لأنه كان عرض لزينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة، فأهوى إليها هبار ونخس بغيرها. وفي رواية: ضربها بالرمح فسقطت من على الجمل على صخرة، أي وكانت حاملاً فالقت ما في بطنها وأهراقت الدماء، ولم يزل بها مرضها ذلك حتى ماتت كما تقدم، فقال النبي: «وإن لقيتم هباراً فأحرقوه»، ثم قال: «إنما يعذب بالنار رب النار». إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه فلم يوجد يوم الفتح ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه. ويذكر أنه لما أسلم وقدم المدينة مهاجراً جعلوا يسبونهم، فذكر ذلك للنبي، فقال: سب من سبك فانتهاوا عنه» وهذا السياق يدل على أنه قبل أن يذهب إلى المدينة.

وفي لفظ: ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جاء هبار رافعاً صوته وقال: «يا محمداً أنا جئت مقرأً بالإسلام وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله» واعتذر إليه أي قال له بعد أن وقف عليه وقال: السلام عليك يا نبي الله لقد هربت منك في البلاد فأردت للقوق بالأعاجم، ثم ذكرت

عائدتك وفضلك في صفحك عن جهل عليك، وكنا يا نبي الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا بك من الهلكة، فاصفح عن جهلي وعمّا كان مني فأني مقر بسوء فعلي، معترف بذنبي، فقال النبي: «يا هبار عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هدانا إلى الإسلام، والإسلام يجب ما كان قبله». وقوله مهاجراً، فيه أنه لا هجرة بعد فتح مكة، إلا أن يقال هي مجاز عن مجرد الانتقال عن محل إلى آخر أخذاً مما يأتي إن شاء الله في عكرمة. وأما عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه فإنه إنما أمر بقتله لأنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبي، وكان أشد الناس على المسلمين، ولما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم أهدر دمه فرّ إلى اليمن فاتبعته امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بعد أن أسلمت فوجدته في ساحل البحر يريد أن يركب السفينة، وقيل وجدته في السفينة فردته، أي بعد أن قالت له: يا ابن عم جئتك من عند أوصل الناس، وأبّر الناس، وخير الناس، لا تهلك نفسك، فقد استأمنت لك، فجاء معها فأسلم وحسن إسلامه أي بعد أن قال: يا محمد هذه يعني زوجتي أخبرتني أنك أمنتني، قال: صدقت إنك آمن، فقال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله وطأ رأسه من الحياء، فقال له: يا عكرمة ما تسألني شيئاً أقدر عليه إلا أعطيتك قال: استغفر لي كل عداوة عاديتكها، فقال: اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عاديتها أو منطلق تكلم به، أي ولما قدم عليه وثب إليه قائماً فرحاً به، أي ورمى رداءه وقال: مرحباً بمن جاء مؤمناً مهاجراً، وكان بعد ذلك من فضلاء الصحابة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي (بهجة المجالس في أنس الجاليس) لابن عبد البر رحمه الله: أنه رأى في منامه أنه دخل الجنة، ورأى فيها عذقا فأعجبه وقال: لمن هذا؟ فقيل لأبي جهل فشق ذلك عليه وقال: لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، فلما جاءه عكرمة بن جهل مسلماً فرح به، وأول ذلك العذق لعكرمة. والعكرمة: الأثني من الحمير واستدل بذلك على تأخر الرؤيا، وأنها تكون لغير من ترى له. قال: وصار عكرمة قبل إسلامه يطلب امرأته أم حكيم يجامعها فتأبى وتقول: أنت كافر وأنا مسلمة، والإسلام حائل بيني وبينك فقال: إن أمراً منعك عني لأمر كبير، أي ولما قتل عكرمة رضي الله عنه في اليرموك في قتال الروم وانقضت عدتها تزوجها خالد بن سعيد، وأراد أن يدخل بها، فجعلت تقول له: لو أخرجت الدخول حتى يفض الله هذه الجموع يعني الروم، فقال خالد: إن نفسي تحدثني أن أصاب في جموعهم، قالت: فدونك، فدخل بها في خيمته، فما أصبح الصبح إلا والروم قد اصطفت، فخرج خالد رضي الله عنه، فقاتل حتى قتل، فشدت أم حكيم عليها ثيابها، وأخذت عمود الخيمة التي دخل بها خالد فيها، فقتلت بها سبعة من الروم، وقال قبل أن يقدم عليه عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: «يأتيكم عكرمة مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه فإن سبّ الميت يؤدي الحي ولا يلحق الميت» انتهى. أي وفي رواية: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» وفي أخرى: «لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء» وفي أخرى: «اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساوئهم».

وجاء أنه شكّا إليه قولهم عكرمة بن أبي جهل، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات» وقد كان قبل إسلامه بارز

رجلاً من المسلمين فقتله، فضحك النبي، فقال له بعض الأنصار: ما أضحكك يا رسول الله وقد فجعنا بصاحبنا؟ فقال: أضحكني أنهما في درجة واحدة في الجنة، ومن قتل عكرمة شهيداً في قتال الروم في وقعة اليرموك كما مر.

وسارة رضي الله عنها، فإنها أسلمت، وإنما أمر بقتلها، لأنها كانت مغنية بمكة، وكانت تغني بهجائه، وهي التي وجد معها كتاب حاطب، وقد استؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنها وأسلمت كما تقدم. والهارث بن هشام وزهير بن أمية، استجارا بأمة هانئ بنت أبي طالب أخت علي بن أبي طالب كرم الله وجهه شقيقته ولم تكن أسلمت إذ ذاك فأراد علي قتلها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

فعنها رضي الله عنها أنها قالت: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فر إليّ رجلان من أحمائي: أي من أقارب زوجها هبيرة بن أبي وهب مستجيران بي فأجرتهما. وذكر الأزرقى بدل زهير بن أمية عبد الله بن أبي ربيعة، فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال: والله لأقتلنهما، أي وقال: تجيري المشركين، فحلت بينه وبينهما. فخرج فأغلقت عليهما بيتي ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوب، فسلمت عليه فقال: من هذه؟ فقلت أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحباً بأمة هانئ، وفي الرواية الأولى: فلما اغتسل أخذ ثوبه وتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم أقبل عليّ، فقال: مرحباً وأهلاً بأمة هانئ، ما جاء بك؟ فأخبرته الحديث، فقال: «أجرنا من أجرت، وأما من أمنت فلا نقتلها» وفي البخاري أيضاً «أنه اغتسل في بيتها ثم صلى الضحى ثمان ركعات» أي ولما ذكر ذلك لابن عباس رضي الله عنهما قال: إني كنت أمر على هذه الآية {يسبحن بالعشي والإشراق} فأقول أي صلاة الإشراق؟ فهذه صلاة الإشراق. وفي لفظ: ما عرفت صلاة الإشراق إلا الساعة، وهذا يدل لما أفتى به والد شيخنا الرملي رحمهما الله تعالى أن صلاة الضحى صلاة الإشراق، خلافاً لما في العباب من أنها غيرها. ويحتاج للجمع بين هذه الرواية والتي قبلها على ثبوت صحتها، وبهذه الواقعة قال المحاملي من أئمتنا في كتابه اللباب الذي هو

أصل التنقيح الذي هو أصل التحرير: ومن دخل مكة وأراد أن يصلي الضحى أول يوم اغتسل وصلّاها كما فعله عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة. وبه الغز فليل: شخص يستحب له الاغتسال لصلاة الضحى في مكان خاص. وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى سبحة الضحى قط، وإني لأسبحها: أي أصليها. وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: ما أخبرني أحد أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى إلا أم هانئ، وهذا ينازع فيه ما يأتي أن صلاة الضحى مما اختص بوجوبها. وأسلمت أم هانئ ذلك اليوم الذي هو يوم الفتح. أي وجاء أنه قال لها: «هل

عندك من طعام نأكله؟ قالت: ليس عندي إلا كسر يابسة وأنا أستحي أن أقدمها إليك، فقال: هلمي بهن، فكسرهن في ماء، وجاءت بملح فقال: هل من آدم، فقالت: ما عندي يا رسول الله إلا شيء من خل، فقال: هلميه، فصبه على الكسر وأكل منه، ثم حمد الله، ثم قال: نعم الأدم الخل. يا أم هانئ لا يقفر بيت فيه خل».

أي وقد جاء أنه سأل أهله الإدام فقالوا: ما عندنا إلا الخل فدعا به، فجعل يأكل به ويقول: «نعم الأدم الخل» وفي الحديث عن جابر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً: «إن الله يوكل بأكل الخل ملكين يستغفران له حتى يفرغ» وجاء «نعم الأدم الخل، اللهم بارك في الخل، فإنه كان إدام الأنبياء قبلي، ولم يقفر بيت فيه خل».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: «أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ذات يوم إلى بعض حجر نسائه فدخل، ثم أذن لي فدخلت، فقال: هل من غداء؟ فقالوا نعم، فأتي بثلاثة أقراص فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرصاً فوضعه بين يديه، وأخذ قرصاً فوضعه بين يدي، ثم أخذ الثالث فكسره، فجعل نصفه بين يديه ونصفه بين يدي، ثم قال: هل من آدم؟ فقالوا: لا إلا شيء من خل، قال: هاتوه، فنعم الأدم الخل» وفي رواية: «فإن الخل نعم الإدام» قال جابر رضي الله تعالى عنه: فما زلت أحب الخل منذ سمعتها من رسول الله . وقال بعضهم: ما زلت أحب الخل منذ سمعتها من جابر.

وصفوان بن أمية استأمن له عمير بن وهب، أي قال له: يا نبي الله إن صفوان سيد قومي قد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه، فإنك أمنت الأحمر والأسود، فقال: أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: أعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطى لعمير عمامته التي دخل بها مكة. أي وفي لفظ: أعطاه برده، أي بعد أن طلب منه العود، فقال: لا أعود معك إلا أن تأتيني بعلامة أعرفها، فقال: امكث مكانك حتى آتيك به. فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فردّه: أي بعد أن قال له: اعزب عني لا تكلمني، فقال: أي صفوان، فداك أبي وأمي، جئتك من عند أفضل الناس، وأبّر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وابن عمك عزه عرك، وشرفه شرفك، ومملكه ملكك، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك، وأكرم، فرجع معه حتى وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: إن هذا يزعم أنك أمنتني، قال: صدق فقال: يا رسول الله أمهلني بالخيار شهرين، فقال: أنت بالخيار أربعة أشهر، أي ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين، ولما فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمها: أي بالجعرانة رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمق شعباً ملأنا نعماً وشاء، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال هو لك وما فيه، فقبض صفوان ما في الشعب، وقال: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي، فأسلم كما سيأتي.

وهند امرأة أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما فإنها أسلمت بعد، وإنما أمر

بقتلها لأنها مثلت بعمه حمزة رضي الله تعالى عنه يوم أحد ولاكت قلبه كما تقدم.
وكعب بن زهير رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد، وإنما أمر بقتله لأنه كان ممن يهجو رسول الله .
ووحشي رضي الله تعالى عنه فإنه أسلم بعد، وإنما أمر بقتله لأنه قتل عمه حمزة رضي الله تعالى عنه يوم أحد، وكانت الصحابة أحرص شيء على قتله، ففر إلى الطائف، وقد قدمنا إسلامه استطراداً.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

قال: وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي يوم الفتح على الصفا يبايع الناس فجاءه الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام، أي على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله، فدخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً.
أي وجاءه رجل فأخذته الرعدة فقال له: «هون عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».
أي وكان من جملة من بايعه النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما. فعن معاوية رضي الله تعالى عنه لما كان عام الحديبية وقع الإسلام في قلبي، فذكرت ذلك لأمي، فقالت: إياك أن تخالف إياك فيقطع عنك القوت، فأسلمت وأخفيت إسلامي، فقال لي يوماً أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامي: أخوك خير منك، هو علي ديني، فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامي، ولقيته فرحت بي وكتبت له: أي بعد أن استشار فيه جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال، استكتبه فإنه أمين، وأردفه النبي صلى الله عليه وسلم يوماً خلفه، فقال: ما يليني منك؟ قلت بطني، قال: اللهم املأه حلماً وعلماً.
وعن العرياض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لمعاوية: «اللهم علمه الكتاب والحساب، ووقه العذاب» زاد في رواية: «ومكن له في البلاد».
وعن بعض الصحابة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يدعو لمعاوية يقول: اللهم اجعله هادياً مهدياً واهده واهد به ولا تعذبه.
وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوماً لمعاوية: «يا معاوية أنت مني وأنا منك لتزاحمني على باب الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه الوسطى والتي تليها» ويذكر أنه كان عنده قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم وإزاره ورداؤه وشيء من شعره، فقال عند موته: كفنونني في القميص، وأدرجونني في الرداء، وأزروني بالإزار، واحشوا منخري وشدقي من الشعر، وخلوا بيني وبين أرحم الراحمين.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3
وقد بشر بمعاوية رضي الله تعالى عنه بعض كهان اليمن. وسبب ذلك أن أمه هند كانت قبل أبيه أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة المخزومي، وكان الفاكه

من فتیان قریش، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن، فخلا ذلك البيت يوماً من الضيفان، فاضطجع الفاكه وهند فيه في وقت القائلة، ثم خرج الفاكه لبعض حاجته، وأقبل رجل كان يغشاه فولج البيت، فلما رأى المرأة التي هي هند ولى هارباً، وأبصره الفاكه وهو خارج من البيت، فأقبل إلى هند فضربها برجله. وقال لها: من هذا الذي كان عندك؟ قالت: ما رأيت رجلاً ولا انتبهت حتى أيقظتني، فقال لها: الحق بآبيك، وتكلم فيها الناس، فقال لها أبوها عتبه: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك فأنبئني نبأك، فإن كان الرجل عليك صادقاً دسست إليه من يقتله فنقطع عنك المقالة، وإن بك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن، فحلفت له أنه لكاذب عليها، فقال عتبه للفاكه: يا هذا إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم، فحاكمني إلى بعض كهان اليمن، فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم وخرج عتبه في جماعة من بني عبد مناف، وخرجوا معهم بهند ونسوة معها، فلما شارفوا البلاد وقالوا: غداً نرد على الكاهن الفلاني، تنكرت حالة هند وتغير وجهها، فقال لها أبوها: إني أرى ما بك من تنكر الحال، وما ذاك إلا لمكروه عندك، كان هذا قبل أن يشهد الناس مسيرنا، قالت: لا والله يا أبتاه ما ذاك لمكروه عندي، ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب، ولا آمنه أن يسمني ميسماً يكون علي سبة في العرب، قال: إني سوف أختبره من قبل أن ينظر في أمرك، فصفر بفرس حتى أدلى، ثم أخذ حبة من حنطة فأدخلها في إحليله وأوكأ عليها بسير، فلما وردوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم، فلما تغدوا قال له عتبه: إنا قد جئناك في أمر وإنني قد خبات لك خباء أختبرك به، فانظر ما هو؟ قال: سمرة في كمره، قال: أريد أبين من هذا قال: حبة

برّ في إحليل مهر، قال: صدقت انظر في أمر هذه النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب كتفها، ويقول انهضي، حتى دنا من هند فضرب كتفها. وقال: انهضي غير وسخاء ولا زانية، وتلدن ملكاً يقال له معاوية فوثب إليها الفاكه فأخذ بيدها، فنثرت يدها من يده وقالت: إليك عني، فوالله لأحرصن على أن يكون من غيرك فتزوجها أبو سفيان، فجاءت منه بمعاوية رضي الله تعالى عنهم، وقد قال له: «يا معاوية إذا ملكت فأحسن» وفي رواية: «إذا ملكت من أمر أمتي شيئاً فاتق الله واعدل».

ويؤثر عنه رضي الله تعالى عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: اللهم ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي. اللهم أقل عثرتي، واغفر زلتي، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك، ثم بكى رضي الله تعالى عنه حتى علا نحيبه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

كتب إلى عائشة رضي الله تعالى عنها: اکتبي لي کتاباً توصيني فيه ولا تكثرني، فکتبت إليه: من عائشة إلى معاوية، سلام عليك أما بعد، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس والسلام» وکتبت إليه رضي الله تعالى عنها مرة أخرى: أما بعد فاتق الله، فإنك إذا اتقيت الله كفاك الناس، وإذا اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً، والسلام.

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان رضي الله تعالى عنه، متنقبة متنكرة خوفاً من رسول الله ، فلما دنين من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهن: بايعيني على أن لا تشركن بالله شيئاً ولا تسرقن ولا تزينين ولا تقتلن أولادكن أي وذلك إسقاط الأجنة. زاد في لفظ: ولا تلحقن بأزواجكن غير أولادهن: أي ولا تقعدن مع الرجال في خلاء: أي لا تجتمع امرأة مع رجل في خلوة، ولا تأتين بيهتان تفتريه بين أيديكن وأرجلكن. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: البيهتان أن تلحق بزوجه ولدًا ليس منه أي ولا يغني عنه الزنا، كما أن ذلك لا يغني عن الزنا، وقد تحبل ولا يلحقه بأحد، ولا تعصين في معروف. وجاء أن بعض النسوة قالت: ما هذا المعروف الذي لا ينبغي لنا أن نعصيك فيه؟ قال لا تصحن، أي وفي لفظ: لا تنحن، ولا تخمشن وجهها، ولا تنشرن شعرًا. وفي لفظ: ولا تحلقن شعرًا، ولا تحرقن قرنًا، ولا تشققن جيبًا ولا تدعين بالويل.

وجاء: «هذه النوائح تجعلن يوم القيامة صفين: صفاً عن اليمين، وصفاً عن اليسار، ينبحن كما ينبح الكلب» وجاء: «تخرج النائحة من قبرها يوم القيامة شعثاء غبراء، عليها جلباب من لعنة ودرع من جرب، واضعة يدها على رأسها تقول: ويلاه» وجاء «النائحة إذا لم تتب تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب». وجاء: «لا تقبل الملائكة على نائحة». وجاء: «ليس للنساء في اتباع الجنائز من أجر».

وجاء: «أن هندًا قالت له: إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال» أي لأن الرجال كان يبايعهم على الإسلام وعلى الجهاد فقط «وأنها قالت لما قال: ولا تسرقن، والله إنني كنت أصيب من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة وما كنت أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟ فقال أبو سفيان وكان حاضراً: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل عفا الله عنك، أي فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وعرفها، فقال لها: وإنك لهند بنت عتبة؟ قالت نعم، فاعف عما سلف، عفا الله عنك يا نبي الله، وأنها قالت لما قال: «ولا تزينين، أو تزني الحرة يا رسول الله؟ ولما قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً» وفي لفظ: «هل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر» وفي لفظ: «أنت قتلت أباءهم يوم بدر وتوصينا بأولادهم» وفي لفظ: «ربيناهم صغاراً، وقتلتهم كباراً فضحك عمر رضي الله تعالى عنه حتى استلقى، وتبسم» وفي لفظ: «فضحك، ولما قال: ولا تأتين بيهتان تفتريه؟ قالت: والله إن إتيان البيهتان لقبيح» زاد في لفظ: «وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولما قال: ولا تعصيني في معروف، قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في معروف» وفي لفظ: «أنها أتته متنقبة بالأبطح وقالت: إنني امرأة مؤمنة، أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرحباً بك».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

قال بعضهم: وفي إسلام أبي سفيان قبل هند وإسلامها قبل انقضاء عدتها، أي لأنها أسلمت بعده بليلة واحدة، وإقرارها على نكاحهما حجة للشافعي رضي الله تعالى عنه. ثم أرسلت إليه بهدية وهي جديان مشويان مع مولاة لها فاستأذنت، فأذن لها، فدخلت عليه وهو بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بني عبد المطلب وقالت له: إن مولاتي تعتذر إليك وتقول: إن غنمها اليوم لقليل الوالدة، فقال رسول الله: «اللهم بارك لكم في غنمكم وأكثر ووالدتها فكثرت الله ذلك، تقول تلك المولاة: لقد رأينا من كثرة غنمنا ووالدتها ما لم نكن نرى قبل. وجاءت إليه وقالت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل عليّ من حرج أن أطعم من الذي له عيالنا؟ فقال لها: لا عليك أن تطعمهم بالمعروف» وفي لفظ: «إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، قال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف» أي وجاء: «أن بعض النساء قالت: هلم نبايعك يا رسول الله، قال: لا أصافح النساء، وإنما قولني لامرأة كقولني لامرأة واحدة» وفي لفظ: «قولي لألف امرأة كقولني لامرأة واحدة» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: لم يوافق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة قط، وإنما كان يبايعهن بالكلام. وعن الشعبي «بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء وعلى يده ثوب، وقيل إنه غمس يده في إناء وأمرهن فغمسن أيديهن فيه، فكانت هذه البيعة» قال ابن الجوزي: والقول الأول أثبت.

وقد ذكر المبايعات له لا في خصوص يوم الفتح علي حروف المعجم في كتاب التلخيص، ونقدم عن أم عطية رضي الله تعالى عنها أنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جمع نساء الأنصار في بيت، ثم أرسل إليهن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقام على الباب فسلم فرددن عليه السلام، فقال أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكن يبايعكن {على أن لا تشركن بالله شيئاً}، وقرأ إلى قوله تعالى: {في معروف} فقلن نعم، فمدّ يده من خارج ومددن أيديهن من داخل البيت، ثم قال: اللهم اشهد، ولعل ذلك كان بحائل والفتنة مأمونة.

وقال لعمة العباس أين ابنا أخيك؟ يعني أبا لهب عتبه ومعتب؟ لا أراهما، قال العباس رضي الله تعالى عنه: قد تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش، قال أئنتي بهما، فركبت إليهما فأتيت بهما، فدعاهما للإسلام فأسلما، فسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ بأيديهما وانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة، ثم أنصرف والسرور يرى في وجهه، فقلت له: سرّك الله يا رسول الله، إني أرى السرور في وجهك. قال: إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي وشهدا معي حينئذ والطائف. ولم يخرجوا من مكة، ولم يأتيا المدينة، وقلعت عين معتب في حين.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: «هذا ما وعدني ربي، ثم قرأ {إذا جاء نصر الله والفتح} انتهى وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية رضي الله تعالى عنه بقوله: واستجاب له بنصر وفتح

بعد ذلك الخضراء والغبراء
وتوالت للمصطفى الآية الكب
رى عليهم والغارة الشعواء
فإذا ما تلا كتاباً من الله
تلته كتيبة خضراء

أي أجاب دعوته الرفيع والوضيع، وعن الأول كنى بالخضراء التي هي السماء. فقد جاء حديث سنده واه «السماء الدنيا زمردة خضراء، وذكر أنها أشد بياضاً من اللبن وخضرتها من صخرة خضراء تحت الأرض» وكنى عن الثاني بالغبراء التي هي الأرض، وإنما كانت غبراء لأن جميع طبقاتها من طين، مع حصول نصر له على أعاديته، وفتح لبلادهم بعد ذلك الضعف الذي كان به وبأصحابه، وقتلهم وكثرة عدوهم مع التصميم على أذيتهم. وتتابع العلامات الدالة على نبوته، وتوالت له عليهم الإغارة المحيطة بهم من سائر الجوانب. وجاء: «أنه لما فرغ من طوافه دعا عثمان بن طلحة رضي الله تعالى عنه، فإنه كان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاصي قبل الفتح وأسلموا كما تقدم، واستمر في المدينة إلى أن جاء معه إلى فتح مكة، وبه يرد ما روي أنه بعث علياً كرم الله وجهه إلى عثمان بن طلحة لأخذ المفتاح فأبى أن يدفعه له وقال: لو علمت إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أمنعه منه، ولوى علي كرم الله وجهه يده وأخذ المفتاح منه قهراً وفتح الباب وأنه لما نزل قوله تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} أمره أن يدفع له المفتاح متلطفاً به، فجاءه علي كرم الله وجهه بالمفتاح متلطفاً به، فقال له: أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق، فقال علي كرم الله وجهه: لأن الله أمرنا برده عليك فأسلم. ثم لما دعا عثمان وجاء إليه أخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها، ثم وقف على باب الكعبة، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.

ثم ذكر خطبة بين فيها جملة من الأحكام. منها «أن لا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها، والبينة على المدعي واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذي محرم. ولا صلاة بعد العصر ولا بعد الصبح، ولا يصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر، ثم قال: يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، والناس من آدم وأدم من تراب. ثم تلا هذه الآية: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا} الآية. ثم قال: يا معشر قريش ما ترون؟» وفي لفظ: «ماذا تقولون؟ ماذا تظنون أنني فاعل فيكم؟ قالوا: خير أخ كريم. وابن أخ كريم، وقد قدرت» أي وفي لفظ: «لما خرج من الكعبة يوم الفتح وضع يده على عضادتي الباب ثم قال: ماذا تقولون؟ ماذا تظنون أنني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، فقال سهيل بن عمرو: نقول خيراً ونظن خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، فقال: أقول كما

قال أخي يوسف { لا تثريب عليكم اليوم } وفي لفظ «فإني أقول كما قال أخي يوسف { لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين } اذهبوا فأنتم الطلقاء» أي الذين أطلقوا فلم يسترقوا ولم يؤسروا. والطلاق في الأصل، الأسير إذا أطلق؟ فخرجوا فكانما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

قال: وذكر أنه لما فرغ من طوافه أرسل بلالاً رضي الله تعالى عنه إلى عثمان بن طلحة يأتي بمفتاح الكعبة، فجاء إلى عثمان فأخبره، فقال إنه عند أمي، فرجع بلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره أن المفتاح عند أمه، فبعث إليها رسولاً، فقالت: لا واللوات والعزى لا أدفعه أبداً، فقال عثمان: يا رسول الله أرسلني أخلصه لك منها، فأرسله، فجاء إليها فطلبه منها، فقالت: لا واللوات والعزى لا أوصله إليك أبداً، فقال: يا أمه ادفعيه إليّ فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه، إن لم تفعلني قتلت أنا وأخي وبأخذه منك غيري، فأدخلته حجرتها وقالت: أي رجل يدخل يده ههنا، أي وقالت له: أنشدك الله أن لا يكون ذهاب مائة قومك على يدك، كل ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم ينتظر حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، فبينما هو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الدار، وعمر رضي الله عنه رافعا صوته وهو يقول: يا عثمان اخرج، فقالت: يا بني خذ المفتاح، فإن تأخذه أحب إليّ من أن تأخذه تيم وعدي: أي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فأخذه عثمان، فخرج يمشي حتى إذا كان قريباً من وجه رسول الله، عثر عثمان فسقط منه المفتاح، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المفتاح فحنى عليه وتناوله، أي وفي رواية: فاستقبلته ببشر، واستقبلني ببشر فأخذه مني وفتح الكعبة. وفي رواية أنه قال له: هاك المفتاح بأمانة الله. وفي لفظ: لما أتت أمه أن تعطيه المفتاح، قال: والله لتعطينه أو لأخرجن هذا السيف من منكبي، فلما رأت ذلك أعطته إياه، فجاء به ففتح عثمان له الباب.

ويحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها، وقد أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى إلى بعض هذه القصة بقوله:

صرعت قومه حبايل بغي
مدها المكر منهم والدهاء
فأتتهم خيل إلى الحرب تختا
ل وللخيل في الوعى خيلاء
قصدت منهم القنا فقوافي الطع
ن منها ما شأنها الايطاء
وأثارت بأرض مكة نقعا

ظن أن العدو منها عشاء
أحجمت عنده الحجون وأكدي
دون إعطائه القليل كداء

ودهت أوجها بها وبيوتا
ملّ منها الإقواء والإكفاء
فدعوا أحلم البرية والعف
و جواب الحليم والإغضاء
ناشدوه القربى التي من قريش
قطعتها الترات والشحناء
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3
فعفا عفو قادر لم ينغص
ه عليهم بما مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصل
لله تساوى التقريب والإقصاء
وسواء عليه فيما اتاه
من سواه الملام والإطراء
ولو إن انتقامه لهوي النف
س لدامت قطيعة وجفاء
قام لله في الأمور فأرضى
الله عنه تباين ووفاء
فعله كله جميل وهل يد
ضح إلا بما حواه الإناء

أي ألفت قومه الذين لم يؤمنوا به بين يديه حياثل بغيهم التي مدها المكر
والدهاء حالة كون ذلك منهم، فبسبب مكرهم أتهم من قبله خيل تتبخر بها
راكبها إلى الحرب والخيل عليها الشجعان كبر وترفع في الحرب، قصدت في
أبدانهم الرماح، فبسبب قصدها بهم كانت الطعنات المشبهة بالقوافي في
تتابعها حالة كون ذلك الطعن من تلك الرماح، ما عابها الإيطاء: أي لم يعدم
وجوده فيها. والإيطاء في القافية: تكريرها متحدة اللفظ والمعنى وهو معيب
على الشاعر، لأنه يدل على قصوره. والطعنات المتوالية في محل واحد تدل
على قصر ساعد الشجاع. ورفعت تلك الخيل غباراً أظلم الجو حتى ظن أن
وقت العدو من تلك الغبرة وقت العشاء، وذلك بأرض مكة عند فتحها، أمسكت
عند ذلك الغبار لكثرتة الحجون، وهو كداء بالفتح والمد: أعلى مكة لكثرة ما
أعطاه للناس، وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم القليل من الناس كداء
بالضم والمد: وهو أسفل مكة، وهذه لغة فيه قليلة، وعند ذلك قلّ غباره،
وأهلكت تلك الخيول أوجها من الناس بمكة ممن أباح دمه ومن قاتل، وأهلكت
بيوتاً كان أهل مكة يرجعون إليها. ملّ من تلك البيوت: خلّوها عن أنس بها
والرجوع إليها، وعند ذلك طلبوا منه العفو عما مضى منهم، وجواب الحليم لمن
سأله العفو عنه العفو. وإرخاء الجفون من الحياء، وحلفوه بالقربى التي وصلت
إليه من بطون قريش، وهم ولد النضر بن كنانة التي قطعها المقاتلة والتباغض
والتحاسد، فبسبب ذلك عفا عفو قادر، لم يكدر ذلك العفو عنهم إغراء سفهائهم
به حالة كون ذلك الإغراء منهم فيما مضى، وإذا كان القطع والوصل لله تساوى
عند فاعل ذلك التقريب للأقارب والبعداء والإبعاد للأقارب والبعداء، والذي
تقريبه وإبعاده لله لا لغيره يستوي عنده سبه والمبالغة في مدحه إذا اتاه ذلك

من غيره، ومن ثم لو كان انتقامه لهوي النفس الأمارة بالسوء لاستمرت قطيعه الرحم ودام إبعاده لها. كيف وقد قام لله في أموره كلها، فبسبب ذلك أرضى الله

تباين منه لأعدائه ووفاء لأوليائه، فعله كله جميل. ولا بدع في ذلك، إذ ما يسيل مما في الإناء على ظاهره إلا ما كان في تلك الإناء ممن امتلأ قلبه خيراً كانت أفعاله كلها خيراً ومن امتلأ قلبه شراً كانت أفعاله كلها شراً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

ثم جلس في المسجد ومفتاح الكعبة في يده في كفه، فقام إليه علي كرم الله وجهه، فقال: يا رسول الله اجمع لنا. وفي لفظ: اجمع لي الحجابة مع السقاية، فقال رسول الله: «إنما أعطيكُم ما تبتذلون فيه أموالكم للناس: أي وهو السقاية، لا ما تأخذون فيه من الناس أموالهم، وهي الحجابة لشرفكم وعلو مقامكم.

وفي رواية: أن العباس رضي الله عنه تناول يومئذ لأخذ المفتاح في رجال من بني هاشم أي منهم علي كرم الله وجهه، فقال رسول الله: «أين عثمان بن طلحة فدعى له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بّر ووفاء». وقيل نزلت هذه الآية: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها} في شأن عثمان بن طلحة رضي الله عنه، ودفع المفتاح له: أي لما أخذه علي كرم الله وجهه، وقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية، فقال لعلي: «أكرهت وأذيت»، وأمره أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، فقد أنزل الله في شأنك: أي أنزل الله عليه ذلك في جوف الكعبة، وقرأ عليه الآية، ففعل علي كرم الله وجهه ذلك.

وسياق هذه الرواية يدل على أن علياً كرم الله وجهه أخذ المفتاح على أن لا يرده لعثمان، فلما نزلت الآية أمره أن يرد المفتاح لعثمان. والسقاية كما تقدم كانت أحواضاً من آدم يوضع فيها الماء العذب لسقاية الحاج، ويطرح فيها التمر والزبيب في بعض الأوقات. وفي كلام الأزرقى: كان لزيمزم حوضان: حوض بينها وبين الركن يشرب منه، وحوض من ورائه للوضوء، أي ولعل هذا كان بعد الفتح.

والسقاية قام بها العباس رضي الله عنه بعد موت أبيه عبد المطلب، وقام بها بعده ولده عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. وقد تكلم فيها محمد بن الحنفية مع ابن عباس، فقال له ابن عباس: ما لك ولها؟ نحن أولى بها في الجاهلية والإسلام، قام بها العباس بعد موت أبيه عبد المطلب، وأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس يوم الفتح، واستمر المفتاح مع عثمان رضي الله عنه إلى أن أشرف على الموت ولم يعقب، دفعه إلى أخيه شيبه، ومن ثم عرفت ذريته بالشيبين، أي وفي رواية: «دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان وإلى شيبه ابن عمه، وقال: خذوها يا بني طلحة خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم».

أي وكون شيبه ابن عم عثمان هو الموافق لقول الحافظ ابن حجر: الشيبون

نسبة إلى شيبه بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة. فأبو طلحة له ولدان عثمان وطلحة، أتى عثمان بشيبه، وأتى طلحة بعثمان.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي كلام ابن الجوزي ما يوافق، وهو أن عثمان لما هاجر إلى المدينة وأسلم سنة ثمان لم يزل مقيماً بالمدينة حتى خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة. أي وقد تقدم «ثم رجع إلى المدينة، ولم يزل مقيماً بها حتى توفي رسول الله، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى مكة واستمر مقيماً بها حتى مات بها في أول خلافة معاوية رضي الله عنه، فلم يزل عثمان رضي الله عنه يلي فتح البيت إلى أن أشرف على الموت دفع المفتاح إلى شيبه بن عثمان بن أبي طلحة وهو ابن عمه، فبقيت الحجابة في ولد شيبه، وكان عثمان بن طلحة هذا خياطاً وهي صناعة نبي الله إدريس عليه الصلاة والسلام.

وفي رواية: «أنه لما دعا عثمان بن طلحة، وقال له: أرني المفتاح، فأتاه به: فلما بسط يده إليه قام العباس فقال: يا رسول الله اجعله لي مع السقاية فكف عثمان يده، فقال: أرني المفتاح، فبسط يده يعطيه، فقال العباس مثل كلمته الأولى فكف عثمان يده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عثمان إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر فهاتني المفتاح، فقال: هاك بأمانة الله» ولعل هذا كان قبل دخوله الكعبة، فيكون طلب العباس رضي الله عنه أن يكون المفتاح له تكرر قبل دخوله الكعبة وبعده. وفي رواية: «أنه قال له اثنتي بالمفتاح، قال: فأتيته به، فأخذه ثم دفعه إليّ وقال: خذوها خالدة تالدة لا بنزعها منكم إلا ظالم».

وفي لفظ غيره: «أن الله رضي لكم بها في الجاهلية والإسلام، إنني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم لا ينزعها منكم إلا ظالم» وفي رواية: «لا يظلمكموها إلا كافر» ولا مانع أن يكون ذلك بعد أن دفعه علي كرم الله وجهه له بأمره، وكأنه أحب أن يؤدي الأمانة بيده الشريفة من غير واسطة. وقال له: «يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، فقال عثمان رضي الله عنه: فلما وليت ناداني، فرجعت إليه، فقال: ألم يكن قلت لك؟ قال رضي الله عنه: فذكرت قوله لي بمكة قبل الهجرة».

وقد أراد أن يدخل الكعبة مع الناس وكنا نفتحها في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فلما أقبل ليدخلها أغلظت عليه ونلت منه وحلم عليّ. ثم قال: يا عثمان لعلك ستري هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت، فقلت: قد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، فوقعتم كلمته مني موقعاً وطننت أن الأمر سيصير إلى ما قال. قال: فلما قال لي يوم الفتح ذلك، قلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وفي رواية: «أنه دخل يومئذ الكعبة ومعه بلال، فأمره أن يؤذن: أي للظهر على ظهر الكعبة وأبو سفيان وعتاب بن أسيد. وفي لفظ: خالد بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد أي أو خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا العبد فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته. أي وفي رواية أنه قال ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، ولا مانع من وجود الأمرين منه، أي وتقدم في عمرة القضاء وقوع مثل ذلك من جماعة لما أذن بلال رضي الله عنه على ظهر الكعبة أيضاً، أي وقال غير هؤلاء من كفار قريش لقد أكرم الله فلاناً يعني أباه إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة. وفي لفظ: والله، الحدث العظيم أن يصبح عبد بني جمح ينهق على بيته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء، فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: لقد علمت الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم، فقال: أما أنت يا فلان فقد قلت كذا، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا، فقال أبو سفيان؟ أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً، فضحك رسول الله فقالوا نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك.

وجاء: «أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أبي سفيان وهو في المسجد، فلما نظر إليه أبو سفيان قال في نفسه ليت شعري بأي شيء غلبني؟ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه حتى ضرب يده بين كتفيه، فقال: بالله غلبتك يا أبا سفيان: فقال أبو سفيان: أشهد أنك رسول الله، وصار بعض قريش يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظاً، وكان من جملتهم أبو محذورة رضي الله عنه، وكان من أحسنهم صوتاً، فلما رفع صوته بالأذان مستهزئاً سمعه رسول الله، فأمر به فمثل بين يديه وهو يظن أنه مقتول، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم ناصيته وصدرة بيده الشريفة، قال: فامتلا قلبي والله إيماناً و يقيناً، فعلمت أنه رسول الله، فألقى عليه الأذان وعلمه إياه، وأمره أن يؤذن لأهل مكة، وكان سنه ست عشرة سنة وعقبه بعده يتوارثون الأذان بمكة، وتقدم أن أذان أبي محذورة وتعليمه الأذان كان مرجعه من حين، وتقدم طلب تأمل الجمع بينهما.

وفي تاريخ الأزرق: أن جويرية بنت أبي جهل قالت عند أذان بلال على ظهر الكعبة: والله لا نحب من قتل الأحبة، ولقد جاء لأبي الذي جاء لمحمد من النبوة فردها، ولم يرد خلاف قومه.

وعن الحارث بن هشام قال: «لما أجاتني أم هانئ، وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم جوارها فصار لا أحد يتعرض لي، وكنت أخشى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فمر عليّ وأنا جالس، فلم يتعرض لي، وكنت أستحي أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أذكر برؤيته إياي في كل موطن مع المشركين، فلقيته وهو داخل المسجد، فلقيني بالبشر، فوقف حتى جئته فسلمت عليه وشهدت شهادة الحق، فقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا، ما كان مثلك يجهل الإسلام.»

وجاءه يوم الفتح السائب بن عبد الله المخزومي، أي وقيل عبد الله بن السائب بن أبي السائب، وقيل السائب بن عويمر، وقيل قيس بن السائب بن عويمر. قال في الاستيعاب: وهذا أصح ما قيل في ذلك إن شاء الله تعالى، وكان شريكاً له في الجاهلية، فقال: فأخذ عثمان وغيره يثنون عليّ، فقال لهم: لا تعلموني به، كان صاحبي. وفي لفظ: لما أقبلت عليه قال: مرحباً بأخي وشريكي. كان لا يداري، ولا يماري، قد كنت تعمل أعمالاً في الجاهلية لا تتقبل منك: أي لتوقف صحتها على الإسلام، وهي الأعمال المتوقفة على النية التي شرطها الإسلام وهي اليوم تتقبل منك، أي لوجود الإسلام. وأرسل سهيل بن عمرو رضي الله تعالى عنه ولده عبد الله ليأخذ له أماناً منه، فقال: يا رسول الله أبي تؤمنه؟ فقال: نعم هو آمن بالله فليظهر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام» فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله. فقال سهيل: كان والله براً صغيراً براً كبيراً، فكان سهيل رضي الله تعالى عنه يقبل ويدبر، وخرج إلى حنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة.

وذكر أن فضالة بن عمير بن الملوح حدّث نفسه بقتل النبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح. قال: فلما دنا منه رسول الله. قال يا فضالة، قال فضالة: نعم يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة رضي الله تعالى عنه يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه.

قال: ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بعد الظهر مسنداً ظهره الشريف إلى الكعبة. وقيل كان على راحلته، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس إن الله تعالى قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهي حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك فيها دماً ولا يعضد فيها شجرة، ولم تحل لأحد كان قبلي، ولن تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة» أي من صبيحة يوم الفتح إلى العصر غضباً على أهلها «ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قاتل فيها فقولوا له: إن الله قد أحلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يحلها لكم».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وقد جاء في صحيح مسلم: «لا يحل أن يحمل السلاح بمكة، يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاؤوا قدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله، ثم ودى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة» وهو ابن الأقرع الهذلي من بني

بكر فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته خزاعة فأحاطوا به، فطعنه منهم خراش بمشقص في بطنه حتى قتله، فلامه وقال «لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر لقتلت خراشاً» أي والمشقص ما طال من النصال وعرض. قال ابن هشام: وبلغني أنه أول قتيل وداه النبي . وفيه أنه تقدم في خيبر أنه ودى قتيلاً. وقال يوم الفتح: «لا نغزي مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة» قال العلماء: أي على الكفر: أي لا يقاتلوا على أن يسلموا، ونادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره».

ولما أسلمت هند رضي الله تعالى عنها عمدت إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول: كنا منك في غرور. ثم بعث السرايا إلى كسر الأصنام التي حول مكة، أي لأنهم كانوا اتخذوا مع الكعبة أصناماً جعلوا لها بيوتاً يعظمونها كتعظيم الكعبة، وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة، ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة، فكان في كل حي صنم، من ذلك كما تقدم: العزى، وسواع، ومناة، وسيأتي الكلام على ذلك في السرايا إن شاء الله تعالى.

أي وفي هذا العام الذي هو عام الفتح كانت غزوة أوطاس، وأوطاس: هي هوازن. وحلل المتعة ثم ثلاثة أيام حرمها. ففي صحيح مسلم عن بعض الصحابة «لما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المتعة خرجت أنا ورجل إلى امرأة من بني عامر كأنها بكرة غيطاء» وفي لفظ «مثل البكرة الغطنطية، فعرضنا عليها أنفسنا. فقلنا لها: هل لك أن يستمتع منك أحدنا؟ فقالت: ما تدفعان؟ قلنا بردينا» وفي لفظ: «ردائنا، فجعلت تنظر فتراني أجمل من صاحبي وترى برد صاحبي أحسن من بردي، فإذا نظرت إليّ أعجبتها، وإذا نظرت إلى برد صاحبي أعجبها، فقالت: أنت وبردك تكفيني فكنت معها ثلاثاً».

والحاصل أن نكاح المتعة كان مباحاً، ثم نسخ يوم خيبر، ثم أبيع يوم الفتح، ثم نسخ في أيام الفتح، واستمر تحريمه إلى يوم القيامة. وكان فيه خلاف في الصدر الأول ثم ارتفع، وأجمعوا على تحريمه وعدم جوازه.

قال بعض الصحابة: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً بين الركن والباب وهو يقول: أيها الناس إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع، ألا وإن الله حرمها إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيلها ولا تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً» أي لكن في مسلم عن جابر رضي الله تعالى عنه أنه قال: «استمتعنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر». وفي رواية عنه: حتى نهى عنه عمر رضي الله تعالى عنه. وقد تقدم في غزاة خيبر عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه: لا أعلم شيئاً حرم ثم أبيع ثم حرم إلا المتعة، وهو يدل على أن إباحتها عام الفتح كانت بعد تحريمها بخيبر ثم حرمت به، وهذا يعارض ما تقدم أن الصحيح أنها حرمت في حجة الوداع. إلا أن يقال: يجوز أن تحريمها في حجة الوداع تأكيداً لتحريمها عام الفتح، فلا يلزم أن تكون

أبيحت بعد تحريمها أكثر من مرة كما يدل عليه كلام إمامنا الشافعي، لكن يخالفه ما في مسلم عن بعض الصحابة «رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام أوطاس في المتعة ثلاثاً ثم نهى عنها».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وقد يقال: مراد هذا القائل بعام أوطاس عام الفتح، لأن غزاة أوطاس كانت في عام الفتح كما تقدم، وما تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من جوازها رجوع عنه. فقد قال بعضهم: والله ما فارق ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الدنيا حتى رجع إلى قول الصحابة في تحريم المتعة، ونقل عنه رضي الله تعالى عنه أنه قام خطيباً يوم عرفة فقال: أيها الناس إن المتعة حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير. والحاصل أن المتعة من الأمور الثلاثة التي نسخت مرتين. الثاني لحوم الحمر الأهلية. الثالث القبلة كذا في (حياة الحيوان).

قال: واستقرض من ثلاثة نفر من قريش: أخذ من صفوان بن أمية رضي الله تعالى عنه خمسين ألف درهم. ومن عبد الله بن أبي ربيعة أربعين ألف درهم. ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فرقها في أصحابه من أهل الضعف ثم وفاها مما غنمه من هوازن وقال: «إنما جزاء السلف الحمد والأداء» اهـ.

أي «وأقام بمكة أي بعد فتحها تسعة عشر، وقيل ثمانية عشر يوماً» واعتمده البخاري «يقصر الصلاة في مدة إقامته». وبهذا الثاني قال أئمتنا إن من أقام بمحل لحاجة يتوقعها كل وقت قصر ثمانية عشر يوماً غير يومي الدخول والخروج، ولعل سبب إقامته المدة المذكورة أنه كان يترجى حصول المال الذي فرقه في أهل الضعف من أصحابه، فلما لم يتم له ذلك خرج من مكة إلى حين لحرب هوازن.

وجاء إليه سعد بن أبي وقاص، وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ومعه عبد بن زمعة، فقال سعد: يا رسول الله هذا ابن أخي عتبة بن أبي وقاص، عهد إليّ أنه ابنه: أي قال إذا قدمت مكة انظر إلى ابن وليدة زمعة فإنه مني فاقبضه إليك، فقال عبد بن زمعة: يا رسول الله هذا أخي ابن وليدة أبي زمعة ولدته على فراشه: أي مع كونها فراشاً له، فنظر إليّ ذلك الولد فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال لعبد بن زمعة: هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراش أبيك زمعة «الولد للفراش وللعاهر الحجر» وقال لزوجته سودة بنت زمعة «احتجبي منه يا سودة لما رأى عليه من شبه عتبة: أي فخشي أن يكون ابن خاله فأمرها بالاحتجاب ندياً واحتياطاً، فلم يرها حتى لقي الله. وفي بعض الروايات «احتجبي منه يا سودة فليس لك بأخ».

وسرقت امرأة فأراد قطعها ففرع قومها إلى أسامة. فيها بن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم يستشفعون به، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه وقال: «أتكلمني في حد من حدود الله تعالى؟ فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، ثم قام خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك

الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه» وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتلك المرأة فقطعت يدها». وفي كلام بعضهم: كانت العرب في الجاهلية يقطعون يد السارق اليمنى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

وولى عتاب بن أسيد رضي الله تعالى عنه وعمره إحدى وعشرون سنة أمر مكة، وأمره أن يصلي بالناس، وهو أول أمير صلى بمكة بعد الفتح جماعة، وترك معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه بمكة معه معلماً للناس السنن والفقهاء.

في الكشاف، وعنه: «أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال: انطلق فقد استعملتك على أهل الله، أي وقال ذلك ثلاثاً» فكان رضي الله عنه شديداً على المريب لينا على المؤمن، وقال: والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق. فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال: «إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقلقلها قلقلاً شديداً حتى فتح له فدخلها فأعز الله به الإسلام فنصرته للمسلمين على من يريد ظلمهم» هذا.

وفي تاريخ الأزرقى، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لقد رأيت أسيداً في الجنة وأنى أي كيف يدخل أسيد الجنة فعرض له عتاب بن أسيد، فقال: هذا الذي رأيت، ادعوه لي، فدعى له. فاستعمله يومئذ على مكة، ثم قال: يا عتاب أتدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيراً يقولها ثلاثاً».

فإن قيل: كيف يقول عن أسيد إنه رآه في الجنة ثم يقول عن ولد أسيد إنه الذي رآه في الجنة، قلنا لعل عتاباً كان شديد الشبه بآبيه، فظن عتاباً أباه، فلما رآه عرف أنه عتاب لا أسيد.

وفي كلام سبط ابن الجوزي: عتاب بن أسيد استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة لما خرج إلى حنين وعمره ثماني عشرة سنة. وفي كلام غيره ما يفيد أنه إنما استخلف عتاب بن أسيد وترك معه معاذ بن جبل بعد عودته من الطائف وعمرته من الجعرانة، إلا أن يقال: لا مخالفة، ومراده باستخلافه إبقاءه على ذلك، وينبغي أن يكون ما تقدم عن الكشاف من قول أهل مكة له: «لقد استخلفت على أهل الله عتاب بن أسيد» إلى آخره بعد إبقائه على استخلافه لما لا يخفى.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام أن أسيداً والد عتاب وإلياً على مكة مسلماً فمات على الكفر، فكانت الرؤيا لولده، كما تقدم مثل ذلك في أبي جهل وولده عكرمة رضي الله تعالى عنه.

ولما ولاه على مكة جعل له في كل يوم درهماً، فكان رضي الله تعالى عنه يقول: لا أشبع الله بطناً جاع على درهم في كل يوم.

ويروى أنه قام فخطب الناس، فقال: يا أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم: أي له درهم، فقد رزقني رسول الله صلى الله عليه وسلم درهماً في

كل يوم، فليست لي حاجة إلى أحد.
وعن جابر رضي الله تعالى عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
استعمل عتاب بن أسيد على مكة، وفرض له عمالته أربعين أوقية من فضة»
ولعل الدرهم كل يوم يحرز القدر المذكور: أي أربعين أوقية في السنة فلا
مخالفة.

وفي السنن الكبرى للبيهقي: وولد عتاب هذا عبد الرحمن الذي قطعت يده يوم
الجمل واحتملها النسر وألقاها بمكة، وقيل بالمدينة. كان يقال له يعسوب
قريش.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 3

غزوة حنين

اسم موضع قريب من الطائف. وفي كلام بعضهم: إلى جنب ذي المجاز، وهو
سوق الجاهلية، وتقدم ذكره. وفي كلام بعض آخر: اسم لما بين مكة والطائف،
ويقال لها غزوة هوازن، ويقال لها غزوة أوطاس باسم الموضع الذي كانت به
الوقعة في آخر الأمر.

أي وسببها أنه لما فتح الله تعالى على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة
أطاعت له قبائل العرب إلا هوازن وثقيفاً، فإن أهلها كانوا طغاة عتاة مردة.

قال: قال أئمة المغازي: لما فتح الله على رسوله مكة مشيت أشراف هوازن
وثقيف بعضها إلى بعض، فأشفقوا: أي خافوا أن يغزوهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم وقالوا: قد فرغ لنا، فلا ناهية: أي لا مانع له دوننا، والرأي أن يغزونا،
فحشدوا وبغوا وقالوا: والله إن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال، فأجمعت
هوازن أمرها. هـ. أي جمعوا، وكان جماع أمر الناس إلى مالك بن عوف
النصيري: أي بالصاد المهملة رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك فاجتمع
إليه من القبائل جموع كثيرة فيهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم مسترضعاً فيهم وحضر معهم دريد بن الصمة، وكان
شجاعاً مجرباً لكنه كبر أي لأنه بلغ مائة وعشرين سنة، وقيل مائة وخمسين،
وقيل مائة وسبعين: أي وقيل قارب المائتين قاله ابن الجوزي، وقد عمي وصار
لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب: أي لأنه كان صاحب رأي وتديبير ومعرفة
بالحروب، وكان قائد ثقيف ورئيسهم كنانة بن عبد ياليل رضي الله تعالى عنه،
فإنه أسلم بعد ذلك، وقيل قارب بن الأسود وكان سن مالك بن عوف إذ ذاك
ثلاثين سنة، فأمر الناس بأخذ أموالهم ونسائهم وأبنائهم معهم، فلما نزل
بأوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة، فقال دريد للناس: بأي واد
أتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم محل الخيل. وفي لفظ: مجال الخيل بالجيم لا
حزن ضرس. والحزن: بفتح الحاء المهملة وإسكان الزاي وبالنون: ما غلظ من
الأرض. والضرس بكسر الصاد المعجمة وإسكان الراء وبالسين المهملة: ما
صلب من الأرض، ولا سهل دهس. والسهل: ضد الحزن. والدهس بفتح الدال
المهملة والهاء وبالسين المهملة: اللين كثير التراب، ما لي أسمع رغاء البعير
ونهاق الحمير بضم النون: أي صوتها، وبكاء الصغير، ويعار الشاء. واليعار بضم

المثناة تحت وبالعين المهملة المخففة والراء: صوت الشاء: أي وخوار البقر أي صوتها، قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

قال ابن مالك: أي وكان توافق معه على أن لا يخالفه، فإنه قال له إنك تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب، وخافته العجم، وأجلى يهود الحجاز، أي غالبهم، إما قتلاً، وإما خروجاً عن ذل وصغار، فقال له: لا نخالفك في أمر تراه، فقيل له: هذا مالك، فقال: يا مالك أما إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وبعار الشاء، وخوار البقر؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم، قال: ولم؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فأنقض به. قال أبو ذر: أي زجره كما تزجر الدابة، وهو أن يلصق اللسان بالحنك الأعلى ويصوت به، وهو معنى قول الأصل: أي صوّت بلسانه في فيه، ثم قال له: راعي. وفي لفظ: رويحي ضان، والله ماله وللحرب، ثم أشار عليه برد الذرية والأموال وقال: هل يردّ المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعب وکلب؟ قالوا: لم يشهدا منهم أحد، قال: غاب الحد والجد، الأول بفتح الحاء المهملة والثاني بالمعجمة مكسورة ضد الهزل، وبفتحها الحظ، لو كان يوم علا ورفعة ما غابا، ثم أشار عليه بأمور لم يقبلها مالك منه وقال: والله لا أطيعك، إنك قد كبرت وضعف رأيك، فقال دريد لهوازن: قد شرط يعني مالكا أن لا يخالفني فقد خالفني، فأنا أرجع إلى أهلي فمنعوه، وقال مالك: والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها رأي أو ذكر، قالوا: أطعناك: أي ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً، ثم جعلوا الإبل صفوفاً والبقر والغنم وراء ذلك لئلا يفرّوا. وفي لفظ: صفت الخيل ثم الرجال المقاتلة، ثم صفت النساء على الإبل، ثم صفت الغنم، ثم صفت النعم، ثم قال للناس: إذا رأيتموهم شدوا عليهم شدة رجل واحد، وبعث عيوناً له: أي وهم ثلاثة أنفار أرسلهم

لينظروا إلى رسول الله، فأتوا وقد تفرقت أوصالهم قال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجلاً بيضاً على خيول بلق، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، وإن أطعنا رجعا بقومك، فقال: أف لكم، بل أنتم أجبن العسكر، فلم يردّه ذلك، ومضى على ما يريد.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتماعهم أرسل إليهم رجلاً من أصحابه، أي وهو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم: أي ومكث فيهم يوماً أو يومين وسمع، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر: أي وجاءه رجل فقال: يا رسول الله إنني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشبابهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم وقال: تلك

غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى. فأجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر السير إلى هوازن، وذكر له أن عند صفوان بن أمية - ولم يكن أسلم يوماً بل كان مؤمناً - أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه فقال: يا أبا أمية أعرنا سلاحك نلق به عدونا غداً، فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟ فقال: بل عارية، وهي مضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس. وفي رواية الإمام أحمد قال صفوان: عارية مؤداة، فقال: العارية مؤداة، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح. قيل وسأله أن يكفيهم حملها ففعل. وذكر أن بعض تلك الأدرع ضاع، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب.

قال: واستعار من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف ربح، فقال له: كأي أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين أهد أي وتقدم أن نوفلاً هذا فدى نفسه وكان في أسرى بدر بألف ربح.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفاً: ألفان من أهل مكة، والعشرة آلاف الذين فتح الله بهم مكة أي على ما تقدم.

قال بعضهم: وخرج أهل مكة ركباناً ومشاة حتى النساء يمشين على غير وهن يرجون الغنائم ولا يكرهون: أي من لم يصدق إيمانه أن الضيعة، وفي لفظ أن الصدمة برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه: أي فقد خرج معه وأصحابه ثمانون من المشركين منهم صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، فلما قربوا من محل العدو صفهم ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار، فلواء المهاجرين أعطاه علياً كرم الله وجهه، وأعطى سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه راية، وأعطى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه راية، ولواء الخزرج أعطاه الحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه، ولواء الأوس أعطاه أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه.

وفي سيرة الدمياطي: وفي كل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم، وكذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها رجال منهم، وركب بغلته ولبس درعين والمغفر والبيضة، والدرعان هما ذات الفضول والسغدية بالسنين المهملة والغين المعجمة: وهي درع داود عليه السلام التي لبسها حين قتل جالوت ومروا بشجر سدره كان المشركون يعظمونها وينوطون بها أسلحتهم: أي يعلقونها بها، فقالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر، هذا كما قال قوم موسى عليه السلام: {اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون} «لتركبن سنن من كان قبلكم» فلما كان بحنين وانحدروا الوادي، أي وذلك عند غيش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضايقه، وذلك بإشارة دريد بن الصمة، فإنه قال لمالك: اجعل لك كميناً يكون لك عوناً إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد، فحملوا عليهم حملة رجل واحد، أي وكانوا رماة فاستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد

منتشر، لا يكاد يسقط لهم سهم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

أي وعن البراء رضي الله تعالى عنه وسأله رجل، فقال: فررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فقال: ولكن رسول الله لم يفر. وأما ما روي عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهزماً، فمنهزماً حال من سلمة لا من النبي صلى الله عليه وسلم لأنه لم ينهزم قط في موطن من المواطن كما تقدم.

وعن البراء رضي الله عنه: كانت هوازن ناساً رماة، وأنا لما حملنا عليهم انكشفوا فأكبنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام، فأخذ المسلمون راجعين منهزمين لا يلوئ أحد على أحد. أي ويقال إن الطلقاء وهم أهل مكة قال بعضهم لبعض: أي من كان إسلامه مدخولاً منهم اخذلوه هذا وقته فانهمزوا، فهم أول من انهزم وتبعهم الناس. وعند ذلك قال أبو قتادة رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه: ما شأن الناس؟ قال أمر الله. وهذا السياق يدل على أنهم انهزموا مرتين: الأولى في أول الأمر، والثانية عند انكباب المسلمين على أخذ الغنائم. والذي في الأصل الاقتصار على الأولى. وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ومعه نفر قليل، منهم أبو بكر وعمر وعليّ والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان ابن أخيه الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب ابن عمه أبي لهب، وفقئت عينه، ولم أقف على أيهما كانت، أي ووردت في عدّ من ثبت معه روايات مختلفة، فقيل مائة، وقيل ثمانون، وقيل اثنا عشر، وقيل عشرة، وقيل كانوا ثلاثمائة. ولا مخالفة لامكان الجمع، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله إني عبد الله ورسوله». وعن العباس رضي الله عنه: كنت أخذاً بحكمة بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي وهي الشهباء التي أهداها له فروة بن عمرو الجزامي، أي صاحب البلقاء وعامل ملك الروم على فلسطين يقال لها فضة. وقيل التي يقال لها دلدل التي أهداها له المقوقس. وفي البخاري التي أهداها له ملك أيلة. قال بعضهم: والأول أثبت.

ويدل للثاني ما أخرجه أبو نعيم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «انهزم المسلمون بحنين ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلته الشهباء وكان يسميها دلدل، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: دلدل البدي، فألزقت بطنها بالأرض» الحديث. وأبو سفيان بن الحارث أخذ بركابه وهو يقول حين رأى ما رأى من الناس: «إلى أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباس اصرخ: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة» يعني الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان. وفي لفظ: «يا عباس اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين أووا ونصروا» أي وإنما خص العباس بذلك، لأنه كان عظيم الصوت، كان صوته يسمع من ثمانية أميال، كان يقف على سلع وينادي غلمانته آخر الليل

وهم بالغابة فيسمعهم، وبين سلع والغابة ثمانية أميال.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61
وغارت الخيل يوماً على المدينة، فنادى: واصباحاه فلم تسمعه حامل إلا
وضعت من عظم صوته.
وفي لفظ آخر: نادى يا أصحاب السمرة يوم الحديدية، يا أصحاب سورة البقرة،
أي وخص سورة البقرة بالذكر، لأنها أول سورة نزلت في المدينة، لأن فيها
{كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله} وفيها: {وأوفوا بعهدي أوف
بعهدكم} وفيها: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله}. وفي
لفظ: نادى: «يا أنصار الله وأنصار رسوله، يا بني الخزرج. خصهم بالذكر بعد
التعميم لأنهم كانوا صبراً في الحرب. أو غلب فأجابوا لبيك لبيك. وفي لفظ: يا
لبيك يا لبيك».
أي وفي البخاري: «لما أدبروا عنه حتى بقي وحده، فنادى يومئذ نداعين التفت
عن يمينه، فقال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك،
ثم التفت عن يساره فقال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله أبشر
نحن معك».

ويجوز أن يكون هذا بعد نداء العباس وقربهم منه، وصار الرجل يلوي بغيره فلا
يقدر على ذلك، أي لكثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه،
ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بغيره، ويخلي سبيله، ويؤمّ الصوت حتى
ينتهي إلى رسول الله. قال بعضهم: فما شبهت عطفة الأنصار على رسول
الله صلى الله عليه وسلم إلا عطفة الإبل. وفي لفظ: عطفة البقر على أولادها
فلرماحهم أخوف عندي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من رماح
الكفار، حتى إذا انتهى إليه من الناس مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا، وأشرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القوم وهم يجتلدون، أي وكان
شعارهم كيوم فتح مكة، فقال: «الآن حمي الوطيس»، وهو حجارة توقد
العرب تحتها النار يشوون عليها اللحم. والوطيس في الأصل: التنور، وهذه من
الكلمات التي لم تسمع إلا منه، وهي مثل يضرب لشدة الحرب: أي وصار
يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، وهذا السياق يدل على أن المائة
انتهت إليه بعد الهزيمة، وهو يؤيد القول بأن الذين ثبتوا معه لم يبلغوا المائة.
وفي رواية: لما انكشف الناس عنه يوم حنين قال لحارثه، بالحاء المهملة، ابن
النعمان: يا حارثة كم ترى الناس الذين ثبتوا؟ فحزرتهم مائة، فقلت: يا رسول
الله مائة، فلما كان يوم من الأيام مررت على رسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو يناجي جبريل عليه السلام عند باب المسجد، فقال جبريل عليه
السلام: يا محمد من هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حارثة بن
النعمان، فقال جبريل عليه السلام: هو أحد المائة الصابرة يوم حنين، لو سلم
لرددت عليه السلام. قال: فلما أخبرني بذلك رسول الله. قلت له: ما كنت
أظنه إلا دحية الكلبي واقفاً معك.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

وفي رواية: لما فر الناس يوم حنين عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق معه إلا أربعة: ثلاثة من بني هاشم، ورجل من غيرهم: علي بن أبي طالب، والعباس وهما بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث أخذ بالعنان، وابن مسعود من جانبه الأيسر، ولا يقبل أحد من المشركين جهته إلا قتل. وذكر بعضهم أنه رأى أبا سفيان بن الحارث حينئذ أخذاً بزمام بغلته، ولا ينافي ما تقدم أن الآخذ بذلك العباس رضي الله عنه، وأن أبا سفيان بن الحارث كان أخذاً بركابه، لجواز أن يكون أخذ بزمامها بعد أخذه بركابه. وعن أبي سفيان بن الحارث قال: لما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسي وبيدي السيف مصلتا والله يعلم أنني أريد الموت دونه وهو ينظر إليّ، فقال له العباس: يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه، فقال: غفر الله له كل عداوة عادانيها ثم التفت إليّ وقال: يا أخي، فقبلت رجله في الركاب وقال في حقه «أبو سفيان بن الحارث من شبان أهل الجنة أو من سيد فتيان أهل الجنة» وليس قوله: «أنا النبي لا كذب» إلى آخره من الشعر، لأن شرطه كما تقدم في بناء المسجد أن يكون عن قصد وروية، بناء على أن مشطور الرجز ومنهوكه شعر وهو الصحيح، خلافاً للأخفش حيث ردّ على الخليل في قوله: إن الرجز شعر بأنه وقع منه في قوله المذكور، وقد قال الله تعالى {وما علمناه الشعر وما ينبغي له}. وردّ بأن ما يقع موزوناً لا عن قصد لا يقال له شعر. ولا يقال لقائله إنه شاعر كما تقدم مع زيادة، وإنما قال: «أنا ابن عبد المطلب» ولم يقل أنا ابن عبد الله، لأن العرب كانت تنسبه إلى جده عبد المطلب لشهرته، ولموت عبد الله في حياته كما تقدم، فليس من الافتخار بالآباء الذي هو من عمل الجاهلية كما تقدم في قوله: «أنا ابن العواتك والفواطم». وأخذ من هذا أنه لا بأس بالانتساب في موطن الحرب.

وذكر الخطابي أنه إنما قال: «أنا ابن عبد المطلب» على سبيل الافتخار، ولكن ذكرهم بذلك رؤيا كان رآها عبد المطلب أيام حياته، وكانت القصة مشهورة عندهم فعرفهم بها وذكرهم إياها، وهي إحدى دلائل نبوته. ثم نزل عن بغلته. وقيل لم ينزل بل قال: يا عباس ناولني من الحصاء فانخفضت به بغلته حتى كادت بطنها تمس الأرض، ثم قبض قبضة من تراب قال بعضهم: كأنّ الله أفقه: أي أفهم البغلة كلامه: أي علمت مراده. وفي رواية كما تقدم أنه قال لها: يا دلدل البدي، فلبدت: أي انخفضت. وفي رواية قال: اربضي دلدل فربضت. وقيل ناوله العباس ذلك. وقيل ناوله عليّ. وقيل ابن مسعود رضي الله عنهم. فعنه حادت به بغلته، فمال السرج. فقلت: ارتفع رفعك الله، فقال ناولني كفا من تراب فناولته، ثم استقبل بها وجوههم فقال: شاهت الوجوه» أي وفي رواية قال: «حم لا ينصرون» وفي رواية: «جمع بينهما فما خلف الله منهم إنساناً إلا ملأت عينيه وقمه تراباً تلك القبضة وقال انهزموا ورب محمد فولوا مدبرين» () أي وقال بعضهم: ما خيل إلينا إلا أن كل حجر أو شجر فارس يطلبنا.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

وحدث رجل كان من المشركين يوم حنين قال: «لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقوموا لنا حلبة شاة أن كشفناهم، قال:

فبينما نحن نسوقهم ونحن في آثارهم، إذ صاحب بغلة بيضاء، وإذا هو رسول الله، فتلقنا عنده رجال بيض الوجوه حسان الوجوه وقالوا: شأهت الوجوه أرجعوا» فانهزمتنا من قولهم وركبوا أجسادنا فكانت إياها، وإلى رميه بالحصى أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله:
ورمى بالحصى فأقصد جيشاً
ما العصا عنده وما الإلقاء

أي ورمى بالحصى فأهلك ذلك الجيش العظيم، أي شيء عصا موسى عند ذلك الحصى؟ وأي شيء إلقاء موسى عليه السلام لتلك العصا عند إلقاء ذلك الحصى؟ شتان ما بينهما فلا يقاس هذا بذلك لأن هذا أعظم، لأن انقلاب العصا حية كان مشابهاً لانقلاب حبالهم وعصيتهم حيات، لأن ابتلاعها لحبالهم وعصيتهم لم يقهر العدو ولم يشئت شملهم، بل زاد بعدها طغيانهم وعتوهم على موسى عليه السلام، بخلاف هذا الحصى فإنه أهلك العدو وشتت شمله.
أي وذكر أنه عند القتال أنزل الله تعالى قوله: {ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً} إلى قوله: {غفور رحيم}.
فقد جاء أن بعض أصحابه: أي وهو أبو بكر رضي الله عنه كما في سيرة الحافظ الدمياني قال: «يا رسول الله لن نغلب اليوم من قلة، وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وساءت تلك الكلمة» وقيل بل قائل ذلك هو لما رأى كثرة المسلمين، وقيل قال ذلك فتى من الأنصار: أي وهو سلمة بن الأكوع، أو سلامة بن وقش.
أي وجاء: «أنه رفع يومئذ يديه، وقال: اللهم أنشدك ما وعدتني، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا».
أي وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن الضحاك، قال: «دعا موسى عليه الصلاة والسلام حين توجه إلى فرعون لعنه الله، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين: كنت وتكون، وأنت حي لا تموت، تنام العيون، وتنكدر النجوم، وأنت حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، يا حي يا قيوم».
وكان أمام المشركين رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل وهوازن خلفه إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينما هو كذلك إذ أهوى إليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل من الأنصار يريدانه، فأتى علي من خلفه وضرب عرقوبي الجمل فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه، واجتلد الناس، فوالله ما رجعت راجعة المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله .

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

ولما انهزم المسلمون تكلم رجال من أهل مكة بما في نفوسهم من الضعف، ومنهم أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه. قيل وكان إسلامه بعد مدخولاً، وكانت الأزام في كنانته، فقال: لا تنتهي هزيمتهم يعني المسلمين دون البحر، أي وقال والله غلبت هوازن، فقال له صفوان: بفيك الكتيب: أي الحجاره

والتراب. وقد وصلت الهزيمة إلى مكة، وسر بذلك قوم من مكة، وأظهروا الشماتة، وقال قائل منهم ترجع العرب إلى دين آبائنا، أي وقال آخر: أي وهو أخو صفوان لأمه: ألا قد بطل السحر اليوم، فقال له صفوان وهو يومئذ مشرك: اسكت فض الله فاك: أي أسقط أسنانك، والله لأن يريني من الربوبية: أي يملكني ويدبر أمري رجل من قريش أحب إليّ من أن يريني رجل من هوازن.

وفي رواية مر رجل من قريش عليّ صفوان بن أمية، فقال: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فوالله لا يجبرونها أبداً، فغضب صفوان رضي الله عنه وقال: أبشرنني بظهور الأعراب؟ فوالله لرب رجل من قريش أحب إليّ من رجل من الأعراب. وقال عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه: وكونهم لا يجبرونها أبداً هذا ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أدب عليه اليوم فإن له العاقبة غداً، فقال له سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه لحديث، فقال له: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع.

وعن شيبه الحنظلي رضي الله عنه: أي حاجب البيت ويقال لبنيه بنو شيبه، وهم حجة البيت كما تقدم أنه كان يحدث عن سبب إسلامه، قال: ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم ما مضى عليه أبائنا من الضلالات، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وسار إلى حرب هوازن، قلت: أسير من قريش إليّ هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله، فأكون أنا الذي قمت بئار قريش كلها: أي ولفظ: «اليوم أدرك ثاري من محمد» أي لأن أباه وعمه قتلوا يوم أحد قتلها حمزة رضي الله عنه كما تقدم.

وأقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما اتبعته، لا يزداد ذلك الأمر عندي إلا شدة، فلما اختلط الناس ونزل عن بغلته أصلت السيف ودنوت منه أريد الذي أريد منه، ورفعت السيف حتى كدت أوقع به الفعل إليّ شواظ من نار كالبرق كاد يهلكني، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه. وفي رواية: لما هممت به حال بيني وبينه خندق من نار وسور من حديد، فننادني: «يا شيبه ادن مني»، فدنوت منه فالتفت إليّ وتبسم وعرف الذي أريد منه، فمسح صدري، ثم قال: «اللهم أعذه من الشيطان»، قال شيبه: فوالله لهو كان الساعة إذن أحب إليّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان فيّ، ثم قال: ادن فقاتل، فتقدمت أمامه أضرب بسيفي الله أعلم إنني أحب أن أقيه بنفسه كل شيء ولو كان أبي حياً ولقيته تلك الساعة لأوقعت به السيف، فجعلت ألزمه فيمن لزمه، حتى تراجع المسلمون وكروا كرة واحدة، وقربت إليّ بغلته، فاستوى عليها قائماً، وخرج في أثرهم حتى تفرقوا في كل وجه: أي لا يلوي أحد منهم على أحد، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتل من قدر عليه، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى قتلوا الذرية، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرية، وقال رسول الله: «من قتل قتيلاً فله سلبه» وفي رواية: «من أقام بينة على قتيل قتلته فله سلبه».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

وفي الأصل في غزوة بدر أن المشهور أن قول النبي : «من قتل قتيلاً فله سلبه» إنما كان يوم حنين. وأما ما روي أنه قال ذلك يوم بدر ويوم أحد فأكثر ما يوجد في رواية من لا يحتج به، ومن ثم قال الإمام مالك رضي الله عنه: لم يبلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك إلا يوم حنين. وتعقب ما في الأصل بأنه وقع ذلك في غزوة مؤتة كما في مسلم وهي قبل الفتح.

وفي كلام بعضهم: كون السلب للقاتل أمر مقرر من أول الأمر، وإنما تجدد يوم حنين للإعلام العام والمناداة لا لمشروعيته. وحدث أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه استلب وحده عشرين رجلاً: أي قتلهم وأخذ أسلابهم.

وقال أبو قتادة رضي الله عنه: رأيت يوم حنين مسلماً ومشركاً يقتتلان وإذا رجل من المشركين يريد إعانة المشرك على المسلم فأتيته وضربت يده فقطعتها، فاعتنقني بيده الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت، ولولا أن الدم نزفه لقتلني، فسقط وضربته فقتلته، وأجهضني القتال عن استلابه، فلما وضعت الحرب أوزارها، قلت: يا رسول الله، لقد قتلت قتيلاً ذا سلب، وأجهضني عنه القتال، فما أدري من استلبه، فقال رجل من أهل مكة: صدق يا رسول الله فأرضه عني من سلبه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لا يرضيه، تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلب قتيله. وفي لفظ قال أبو بكر رضي الله عنه: أي للنبي: كلا، تعطيه أضيع من قریش وتدع أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله. والأضيع تصغير ضيع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق أردد عليه سلبه. قال أبو قتادة رضي الله عنه: فأخذته منه فاشتريت بثمنه: أي السلب الذي جمعته بستاناً، وأدرك ربيعة بن رفيع دريد بن الصمة فأخذ بخطام جملة وهو يظن أنه امرأة فإذا هو شيخ كبير أعمى ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيعة بن رفيع السلمي ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئاً، فقال له يسخر به: بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفي هذا من مؤخرة الرجل، ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فإني كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم قد منعت فيه نساءك، فقتله، فلما أخبر ربيعة أمه بقتله، فقالت له: أما والله لقد أعتق اثنين بل ثلاثاً، وقالت له: ألا تكرم عن قتلة لما أخبرك بمنه علينا، فقال: ما كنت لأتكرم عن رضا الله ورسوله.

أي وقيل القاتل لدريد بن الصمة الزبير بن العوام رضي الله عنه، وقيل عبد الله بن قبيع وكانت أم سليم رضي الله عنها مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنه وهي حازمة وسطها ببرد لها وفي حزامها خنجر، وكانت حاملاً بابنها عبد الله، فقال لها زوجها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به، فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما

تقول أم سليم الرميضاء، فأعادت عليه القول، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، أي وكان يقال لها العميضاء والرميضاء: وهي التي يخرج القذى من عينها، ومن ثم قال بعضهم: قيل لها الرميضاء لرمص كان في عينها. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

وعن ولدها أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قد مات أبي مالك عنها مشركاً ثم خطبها عمي أبو طلحة وهو مشرك فأبت ودعته إلى الإسلام فأسلم، فقالت له: إني أتزوجك ولا أخذ منك صداقاً غيره فتزوجها، قال أنس رضي الله عنه. قال النبي: «دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقالوا هذه العميضاء بنت ملحان أم أنس بن مالك».

وعنه رضي الله عنه: «كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخل على أحد من النساء إلا أزواجه وإلا أم سليم فإنه كان يدخل عليها، فقيل له في ذلك؟ فقال: إني أرحمها، قتل أخوها معي» ولعل المراد أنه كان يكثر الدخول عليها كأزواجه، ولا ينافي أنه كان يدخل على غيرها من النساء الأنصار، لأن من خصائصه جواز الاختلاء بالأجنبية، فكان يدخل على أخت أم سليم وهي أم حرام بالراء رضي الله عنها، وتفلي له رأسه الشريف وبنام عندها ويدخل على الربيع، ثم رأيت في الإمتاع أشار إلى ذلك. وفي (مزيل الخفاء) أن أم سليم وأختها خالتا النبي صلى الله عليه وسلم من جهة الرضاع، وعليه فلا دلالة في دخوله عليهما والخلو بهما على جواز الخلو بالأجنبية.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، أي وهو أبو عمير الذي كان يداعبه ويقول أبا عمير ما فعل النغير، ذكره السيوطي في كتابه (تبريد الأكباد).

وفي كلام بعضهم ما يفيد أنه غيره، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه فجاء فقال: ما فعل ابني؟ قالت: هو أسكن ما كان، فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت وطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوا؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، فغضب ثم انطلق حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما في غابر ليلتكما، قال: فحملت بعد الله المذكور، قالت: ولما ولدته حملته وجئت به إلى رسول الله، فقال: هل معك تمر؟ فقلت: نعم، فناولته تمرات فألقاهن في فيه الشريف فلا كهن، ثم فغر فاه الصبي فمجه فيه فجعل الصبي يتلمظ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حب الأنصار التمر وسماه عبد الله، أي وجاء لعبد الله هذا الذي جاء من جماع تلك الليلة تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن.

«ولما أخبر أبو طلحة النبي صلى الله عليه وسلم بما تقدم عن أم سليم، قال: الحمد لله الذي جعل في أمي مثل صابرة بني إسرائيل، فقيل: يا رسول الله ما كان من خبرها؟ قال: كان في بني إسرائيل امرأة وكان لها زوج وكان له

منها غلامان، وكان زوجها أمرها بطعام تصنعه ليدعو عليه الناس، ففعل واجتمع الناس في داره، فانطلق الغلامان يلعبان، فوقعوا في بئر كانت في الدار، فكرهت أن تنص على زوجها الضيافة، فأدخلتهما البيت وسجتهما بثوب، فلما فرغوا دخل زوجها، فقال: أين ابناي، قالت: هما في البيت، وإنها كانت تمسحت بشيء من الطيب وتعرضت للرجل حتى وقع عليها ثم قال: أين ابناي؟ قالت: هما في البيت، فنادهما أبوهما فخرجا يسعيان، فقالت المرأة: سبحان الله. والله لقد كانا ميتين ولكن الله أحياهما ثواباً لصبري.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

ولما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في آثارهم أبا عامر الأشعري رضي الله عنه، وسيأتي في السرايا. ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي معسكره، قال شبيبة: فدخل خباءه فدخلت عليه، ما دخل عليه غيري حباً لرؤية وجهه وسروراً به، فقال: يا شبيبة الذي أراد الله خير مما أردت بنفسك، ثم حدثني بكل ما أضمرته في نفسي مما لم أذكره لأحد قط. فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ثم قلت: استغفر لي، فقال غفر الله لك، أي وقالت له أم سليم رضي الله عنها: بأبي أنت وأمي يا رسول الله. اقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله قد كفى وأحسن. وعن عائذ بن عمرو قال: أصابتني رمية يوم حنين في جبهتي فسال الدم على وجهي وصدري، فسد النبي صلى الله عليه وسلم الدم بيده عن وجهي وصدري إلى ترقوتي، ثم دعاني فصار أثر يده غرة سائلة كغرة الفرس.

وجرح خالد بن الوليد رضي الله عنه، فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه فلم يضره.

أي فعن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم، يمشي في المسلمين ويقول: من يدلني على رجل خالد بن الوليد حتى دل عليه، فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة فتفل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه فبريء.

وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون شيئاً أسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادي لم أشك أنها الملائكة، ولم تكن إلا هزيمة القوم.

وفي سيرة الحافظ الدمياطي رحمه الله أن سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر أرخوها بين أكتافهم: أي فعن جمع من هوازن قالوا: لقد رأينا يوم حنين رجالاً بيضاً على خيل بلق، عليها عمائم حمر قد أرخوها بين أكتافهم بين السماء والأرض، وكتائب لا نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم. ولما وقعت الهزيمة أسلم ناس من كفار مكة وغيرهم لما رأوا نصر الله لرسوله. وعن شبيبة الحنبي قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، والله ما خرجت إسلاماً ولكن خرجت اتقاء أن تظهر هوازن علي قريش، فوالله إني لو اقف مع رسول الله، فقلت: يا رسول الله إني لأرى خيلاً بلقاً، قال: يا شبيبة إنه لا يراها إلا كافر فضرب بيده صدري ثم قال: اللهم اهد شبيبة،

فعل ذلك ثلاثاً، فما رفع يده عن صدري الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلي منه ويحتاج إلى الجمع بينه وبين ما تقدم على تقدير صحتها.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61

وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبي والغنائم أن تجمع، فجمع ذلك كله وأحضره إلى الجعرانة أي بسكون العين وتخفيف الراء. وكثير من أهل الحديث يشددونها وسمي المحل باسم امرأة كانت تلقب بذلك قيل وهي التي نقضت غزلها من بعد قوة، فكان بها إلى أن انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أي من غزوة الطائف. وفي هذه الغزوة سمي طلحة بن عبيد الله طلحة الجواد لكثرة إنفاقه على العسكر.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 61
غزوة الطائف

ولما علم أن مالك بن عوف وجمعاً من أشرف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم. أي والطائف بلد كبير، كثير الأعتاب والنخيل والفاكهة، قيل سمي بذلك لأن جبريل عليه السلام طاف بها حين نقلها من الشام إلى الحجاز بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أي أن الله يرزقهم أي أهل مكة من الثمرات. أي وقيل إنهم بنوا حوائطاً وطافوا به تحصيناً لهم، وقيل هي جنة أصحاب الصريم كانوا نواحي صنعاء، نقلها جبريل عليه السلام فسار بها إلى مكة وطاف بها حول البيت، ثم أنزلها في ذلك المكان، أي ويقال له: «وج» سمي ذلك باسم شخص من العماليق أول من نزل به، وأن أولئك القوم تحصنوا في حصن به وأدخلوا فيه ما يصلحهم سنة خرج من حين وتوجه إليهم وترك السبي بالجعرانة.

أي، وفي الإمتاع أنه بعث بالسبي والغنائم إلى الجعرانة مع بديل بن ورقاء الخزاعي. وفي كلام السهيلي: وكان سبي حين ستة آلاف رأس، قد ولى أبا سفيان بن حرب أمرهم وجعله أميناً عليهم هذا كلامه، أي ولعل هذا بعد رجوعه من الطائف، لأن أبا سفيان كان معه بالطائف كما سيأتي فلا معارضة.

أي ومر بحصن مالك بن عوف، فأمر به فهدم، ومر بحائط، أي بستان لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه: إما أن تخرج، وإما أن نخرب عليك حائطك، فأبى أن يخرج فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإحراقه، ومر بقبر، فقال: هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف، أي وكان من ثمود قوم صالح أي وقد أصابته النعمة التي أصابت قومه بهذا المكان ثم دفن فيه، أي بعد أن كان بالحرم ولم تصبه تلك النعمة، فلما خرج من الحرم إلى المكان المذكور أصابته النعمة.

فعن بعض الصحابة: حين خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فمررنا بقبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف، وكان من ثمود، وكان بهذا الحرم يدفع عنه، فلما خرج منه أصابته النعمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه، الحديث.
وفي العرائس عن مجاهد قيل له: هل بقي من قوم لوط أحد؟ قال: لا، إلا رجل

بقي أربعين يوماً وكان بالحرم فجاءه حجر ليصيبه في الحرم، فقام إليه مائة من الحرم فقالوا للحجر: ارجع من حيث جئت، فإن الرجل في حرم الله تعالى، فرجع فوقف خارجاً من الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض حتى قضى الرجل حاجته، وخرج من الحرم إلى هذا المحل أصابه الحجر فقتله فدفن فيه. وأبورغال هذا هو الذي كان دليلاً لأبرهة ليوصله إلى مكة لما مر أبرهة بالطائف، وتلقاه أهله، وأظهروا له الطاعة، وقالوا له: نرسل معك من يدلك على الطريق، فأرسلوا أبا رغال معه دليلاً كما تقدم. وقال: «آية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب، إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه» فابتدر الناس فنبشوه واستخرجوا منه الغصن. وقدم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه على مقدمته: أي وهي خيل بني سليم مائة فرس قدمها من يوم خرج من مكة، واستعمل عليهم خالد بن الوليد، فلم يزل كذلك حتى وصل، فلما وصل نزل قريباً من الحصن وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحات.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

أي وممن أصيب أبو سفيان بن حرب، أصيبت عينه، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وعينه في يده، فقال: يا رسول الله، هذه عيني أصيبت في سبيل الله، فقال النبي: «إن شئت دعوت فردت عينك، وإن شئت فالجنة. وفي لفظ: فعين في الجنة، قال: فالجنة، ورمى بها من يده»، أي وقلعت عينه الثانية في القتال يوم اليرموك عند مقاتلة الروم، فإن أبا سفيان رضي الله تعالى عنه كان في ذلك اليوم يحرض المسلمين على قتال الروم والثبات لهم، ويقول لهم: الله الله عباد الله، انصروا الله ينصركم، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك، وذلك في آخر خلافة الصديق، فإن الصديق رضي الله عنه توفي وهم في الاستعداد للقتال باليرموك، وكان الأمير على العسكر خالد بن الوليد رضي الله عنه.

ولما ولي سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه أرسل البريد بعزل خالد وولاية أبي عبيدة بن الجراح على العسكر، فجاء البريد وقد التحم القتال بين المسلمين والروم، وأخذته خيول المسلمين، وسأله عن الخبر، فلم يخبرهم إلا بخير وسلامة، وأخبرهم عن إمداد يجيء إليهم، وأخفى موت أبي بكر رضي الله تعالى عنه وتأمير أبي عبيدة، فأتوا به إلى خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، فأسر إليه موت أبي بكر وولاية عمر رضي الله تعالى عنهما، وأخبره بما أخبر به الجند، فاستحسن ذلك منه، وأخذ الكتاب فجعله في كنانته وخاف إن هو أظهر ذلك يتخاذل العسكر، ثم لما هزم الله الروم، وجمعوا الغنائم، ودفنوا قتلى المسلمين وقد بلغوا ثلاثة آلاف، دفع خالد رضي الله تعالى عنه الكتاب إلى أبي عبيدة رضي الله تعالى عنه، فتولى أبو عبيدة، ثم بعث أبو عبيدة أبا جندل رضي الله تعالى عنه بشيراً إلى سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه بالفتح على المسلمين.

ولما عزل سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه خالد بن الوليد وولى أبا عبيدة خطب الناس وقال: إني أعتذر إليكم من خالد بن الوليد، إني نزعته وأثبتت أبا عبيدة بن الجراح، فقام إليه عمرو بن حفص وهو ابن عم خالد بن الوليد وابن عم أم سيدنا عمر، فقال: والله ما عدلت يا عمر، لقد نزعته عاملاً استعمله رسول الله، وعمدت سيفاً سله رسول الله، ولقد قطعت الرحم، وجفوت ابن العم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إنك قريب القرابة، حديث السن، غضبت لابن عمك.

ومات ممن خرج بالطائف اثنا عشر رجلاً، فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف الآن، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب رضي الله تعالى عنهما، فضرب لهما قبتين، وكان يصلي بين القبتين الصلاة مقصورة مدة حصار الطائف، وكانت ثمانية عشر يوماً: أي غير يومي الدخول والخروج، وهذا هو المراد بقول فقهاءنا لأنه أقامها بمكة عام الفتح لحرب هوازن يقصر الصلاة، وقيل في مدة حصاره غير ذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

ودخل خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله ومخنت، وإذا المخنت يقول: يا عبد الله فتح الله عليكم الطائف غداً، فعليك بائنة غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، فلما سمعه قال: لا يدخل هذا عليكن. وأراد المخنت بالأربع التي تقبل بهن عكنها الأربع التي في بطنها، ولكل عكنة طرفان فتكون ثمانية من خلفها، فهي الثمانية التي تدبر بهن.

أي وفي الإمتاع: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولى لخالته فاخته بنت عمرو بن عائذ يقال له ماتع، وكان يدخل بيوته لأنه كان يرى أنه لا يفطن لشيء من أمر النساء ولا إربة له، فسمعه وهو يقول لخالد بن الوليد ويقال لعبد الله أخي أم سلمة: إن فتح رسول الله الطائف غداً فعليك ببادية، أي رضي الله تعالى عنها فإنها أسلمت، وبادية بالياء تحت لا بالنون بنت غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان، إذا قامت تثنت، وإذا جلست تبنت، وإذا تكلمت تغنت، بين رجلها مثل الإناء المكفوء، ثم نفر كأنه الأقحوان، فقال: «لا أرى هذا الخبيث يفطن لما أسمع».

وفي رواية أنه قال له: قاتلك الله، لقد أمعنت النظر، ما كنت أظن هذا الخبيث يعرف شيئاً من أمر النساء.

وفي الأغاني أن هبتاً بكسر الهاء وقيل بفتحها وإسكان التحتية بعدها مثناة. والهبت: الأحمق المخنت، قال لعبد الله بن أمية: إن فتح الله عليكم الطائف فاسأل النبي صلى الله عليه وسلم بادية بنت غيلان، فإنها رداح شموع نجلاء إن تكلمت تغنت يعني من الغنة، وإذا قامت تثنت، موردة الخدين، منحطة المانتين، لقحاء الفخذين، مسرولة الساقين، كأنها قضيب بان. وفي لفظ: كأنها خوط بانه قصفت، تقبل بأربع وتدبر بثمان، وبين فخذها شيء مخبوء كأنه الإناء المكفوء، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه قال: لقد غلغلت النظر يا عدو الله، ثم نفاه من المدينة إلى الحمى وقال: لا يدخل على أحد من نسائك، فقيل له: إنه يموت جوعاً، فأذن له أن يدخل المدينة كل جمعة يسأل الناس.

وقيل نفى كلاً من ماتع وهبت إلى الحمى، فشكيا الحاجة، فأذن لهما أن ينزلا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

كل جمعة يسألان الناس ثم يرجعان إلى مكانهما، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم دخلا المدينة فأخرجهما أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فلما توفي دخلا المدينة فأخرجهما عمر رضي الله تعالى عنه، فلما مات دخلا.

وغيلان أبو بادية هو الذي أسلم وعنده عشرة نسوة، فأمره أن يمسك أربعاً ويفارق سائرهن.
واختلف الفقهاء في ذلك؟ فقال فقهاء الحجاز: يختار أربعاً، وقال فقهاء العراق يمسك التي تزوج أولاً ثم التي تليها إلى الرابعة. واحتج فقهاء الحجاز بترك الاستفصال.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76
وغيلان هذا لما وفد على كسرى قال له: أيّ ولدك أحب إليك، فقال الغائب حتى يقدم والمريض حتى يعافى، والصغير حتى يكبر.
وكان المخنثون في زمانه ثلاثة: هيت، وماتع وهذم، وقيل لهم ذلك لأنه كان في كلامهم لين، وكانوا يختضبون بالحناء كخضاب النساء لا أنهم يأتون الفاحشة الكبرى. ويحتمل أن يكون كل من ماتع وهيت كان معه في تلك الغزوة وقد سمع منهما ما تقدم عنهما، وبدل لهذا الاحتمال أنه نفاهما. وفي البخاري أن القائل لعبد الله ما تقدم هو هيت. ويحتمل أن الذي كان معه أحدهما وتكرر منه ذكر ما تقدم، وتسميته باسم الآخر خلط من بعض الرواة فليتمل.

وقال: أقبل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه ونادى من يبارز؟ فلم يطلع إليه أحد ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد، وناداه عبد ياليل لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإن به من الطعام ما يكفيننا سنين، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيا فإنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا اه، ونصب عليهم المنجنيق: أي ورمي به كما في كلام غير واحد من أئمتنا، وهو أول منجنيق رمي به في الإسلام، أي أرشده إليه سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: إنا كنا بأرض فارس نصب المنجنيقات على الحصون فنصيب من عدونا، أي ويقال إن سلمان رضي الله تعالى عنه هو الذي عمله بيده، وفيه أنه تقدم في خيبر أنه لما فتح حصن الصعب وجدوا فيه آلة حرب ودبابات ومنجنيقات، إلا أن يقال سلمان صنع هذا المنجنيق الذي بالطائف، لأنه يجوز أن يكون الذي وجدوه في خيبر لم يكن معهم في الطائف، وتقدم في خيبر أنه لما حاصر الوطيح وسلالم أربعة عشر يوماً ولم يخرج أحد منهما هم أن يجعل عليهم المنجنيق، وتقدم عن الإمتاع أنه نصب المنجنيق على حصن البراء. وقد قدمنا أن ذلك لا يخالف قول بعضهم لم ينصب المنجنيق إلا في غزوة الطائف، لأنه يجوز أن يكون مراد هذا البعض لم يرم به إلا في غزوة الطائف، أي كما أشرنا إليه.

وأول من صنع المنجنيق إبليس، فإن نمروداً لعنهما الله لما أراد أن يلقي إبراهيم عليهم الصلاة والسلام في النار بنى إلى جنب الجبل جداراً طوله ستون ذراعاً، ولما ألقوا الحطب وجعلوا فيه النار ووصلت النار إلى رأس ذلك الجدار لم يدروا كيف يلقون إبراهيم، فتمثل لهم إبليس لعنه الله في صورة

نجا فصنع لهم المنجنيق و نصبوه على رأس الجبل ووضعوه فيه وألقوه في تلك النار.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

وأول من رمى به في الجاهلية جذيمة الأبرش، وهو أول من أوقد الشمع ودخل نفر من الصحابة تحت دبابة وزحفوا بها إلى جدار الحصن ليحرقوه. وفي الإمتاع دخلوا تحت دبابتين وكانا من جلود البقر، فأرسلت إليهم ثقيف سكة الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها فرموهم بالنبل فقتل منهم رجال. أي والدبابة بفتح الدال المهملة ثم موحدة مشددة وبعد الألف موحدة ثم تاء التأنيث: وهي آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع أعنابهم، أي ونخيلهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعاً ذريعاً، فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله: إني أدعها لله وللرحم، ونادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر، أي وقيل ثلاثة وعشرون رجلاً، ونزل منهم شخص في بكرة، فقيل له أبو بكرة، أي وكان عبداً للحارث بن كلدة، فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة، قال: واستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم عينية بن حصن في أن يأتي ثقيفاً في حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له في ذلك، فأتاهم فدخل في حصنهم، فقال لهم: تمسكوا في حصنكم فوالله لنحن أذل من العبيد، أي زاد بعضهم: ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا: أي لا يشق عليكم قطع هذا الشجر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: ما قلت لهم يا عينية؟ قال: أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه، وحذرتهم النار ودللتهم على الجنة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبت، إنما قلت لهم كذا، وقص عليه القصة، فقال صدقت يا رسول الله، أتوب إلى الله وإليك من ذلك أ.هـ.

ولم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح الطائف، أي فإن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، قالت له: يا رسول الله ما يمنعك أن تنهض إلى أهل الطائف؟ قال لم يؤذن لنا الآن فيهم، وما أظن أن نفتحها الآن، وقال له عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك، فقال: لم يؤذن لنا في قتالهم، فقال رضي الله تعالى عنه: كيف نقبل في قوم لم يأذن الله فيهم، وفي لفظ: إن خولة قالت: يا رسول الله أعطني إن فتح الله عليك الطائف حلي بادية بنت غيلان أو حلي الفارعة بنت عقيل، وكانتا من أحلى نساء ثقيف، فقال لها: وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف يا خولة، فذكرت خولة ذلك لعمر بن الخطاب، فدخل على رسول الله، فقال: يا رسول الله ما حديث حدثتني خولة؟ زعمت أنك قلت لها، قال: قتلته، قال أو ما أذن الله فيهم يا رسول الله؟ قال لا، قال: أو أذن بالرحيل؟ قال بلى، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس أي وهو نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب أو المقام، فقال

له: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرک، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه فأذن في الناس بالرحيل، فقيح الناس ذلك وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فاغدوا على القتال، فغدوا، فأصابت الناس جراحات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنا قافلون إن شاء الله، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، أي تعجباً من سرعة تغير رأيهم، لأنهم رأوا أن رأيه أبرک وأنفع من رأيهم، فرجعوا إليه وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: قولوا لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلما ارتحلوا واستقبلوا، قال قولوا: أيون تائبون عابدون لربنا حامدون، وقيل: يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف، فقال: اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين، ولعل صاحب الهمزية رحمه

الله يشير إلى ذلك بقوله:

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

جهلت قومه عليه فأغضى

وأخو الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علماً وحلماً

فهو بحر لم تعيه الأعباء

أي أذاه قومه من قريش وغيرهم فأرعى جفنه حياءً، وصاحب الانتقام شأنه إرخاء الجفن. وسع علمه علوم العالمين من الإنس والجن والملك، ووسع حلمه كل من صدر منه نقص، فهو بسبب ذلك بحر واسع لم تتعبه الأحمال الثقيلة.

ومن جملة من جرح سيدنا عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما رماه بسهم أبو محجن، وطاوله ذلك الجرح إلى أن مات به في خلافة أبيه، ورثته زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، وكان يحبها حباً شديداً مرّ عليه أبوه يوم جمعة وهو يلاعبها وقد صلى الناس، فقال عبد الله: أو جمع الناس؟ فسمعه أبوه، فقال: أشغلتك عن الصلاة؟ لا جرم لا تبرحن حتى تطلقها فطلقها، ثم تعب عبد الله بسبب طلاقها فاطلع عليه أبوه يوماً فسمعه يقول آياتاً من جملتها:

فلم أرى مثلي طلق اليوم مثلها

ولا مثلها في غير جرم تطلق

فقال له: يا عبد الله راجع عاتكة، فقال لأبيه: قف بمكانك، وكان معه غلام

مملوك له، فقال للغلام: أنت حر لوجه الله، اشهدا أنني قد راجعت عاتكة، فلما مات رضي الله تعالى عنه رثته بقولها في آيات:

آليت لا تنفك عيني حزينة

عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

ثم تزوجها عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فلما أعرس بها، قال له علي كرم الله وجهه: أأذن لي أن أكلم عاتكة، فقال: لا غيرة عليك كلمها، فقال لها علي كرم الله وجهه: أنت القائلة البيت:

آليت لا تنفك عيني قريرة

عليك ولا ينفك جلدي أصفرا
قالت: لم أقل هكذا، وبكت وعادت إلى حزنها، فقال له رضي الله تعالى عنه:
يا أبا الحسن ما أردت إلا إفسادها عليّ، فلما قتل عمر رضي الله تعالى رثته
بآيات منها:
من لنفس عادها أحزانها
ولعين شفها طول السهد
جسد لفف في أكفانه
رحمه الله على ذاك الجسد

ثم تزوجها الزبير رضي الله تعالى عنه، فلما قتل رثته بآيات منها تخاطب
قائله:
ثكلتك أمك إن قتلت لمسلماً
حلت عليك عقوبة المتعمد
ثم خطبها سيدنا علي كرم الله وجهه، فقالت له: لم يبق للإسلام غيرك وأنا
أنفس لك عن القتل، ومن ثم قيل في حقها: من أراد الشهادة فعليه بعاتكة.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76
وعند منصرفه من ذلك: أي وبيننا هو يسير ليلاً بواد بقرب الطائف إذ غشي
سدره في سواد الليل وهو في وسن النوم، فانفرجت السدره له نصفين، فمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نصفيها وبقيت منفرجة على حالها، أي
وعند انحداره إلى الجعرانة لقيه سراقه، وهو واضع الكتاب الذي كتبه له عند
الهجرة بين أصبعيه وينادي: أنا سراقه، وهذا كتابي، فقال: هذا يوم وفاء
ومودة، أدنوه، فأدنوه منه وساق إليه الصدقة، وسأله عن الضالة من الإبل ترد
حوضه الذي ملأه لإبله هل له في ذلك من أجر، فقال له رسول الله: «نعم في
كل ذات كبد حراء أجر».
وعند وصوله إلى الجعرانة أحصى السبي فكان ستة آلاف رأس والإبل أربعة
وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألفاً وأربعة آلاف أوقية فضة.
فأعطى للمؤلفة، أي من أسلم من أهل مكة، فكان أولهم أبا سفيان بن حرب
رضي الله عنه أعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل، وقال: ابني يزيد ويقال له
يزيد الخير فأعطاه كذلك، وقال ابني معاوية فأعطاه كذلك، فأخذ أبو سفيان
رضي الله عنه ثلاثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة. وقال: بأبي
أنا وأمي يا رسول الله، لأنك كريم في الحرب وفي السلم، أي وفي لفظ: لقد
حاربتك فنعم المحارب كنت، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت، هذا غاية الكرم
جزاك الله خيراً.

وأعطى حكيم بن حزام رضي الله عنه مائة من الإبل ثم سأله مائة أخرى،
فأعطاه إياها، أي وفي الامتاع: وسأله حكيم بن حزام مائة من الإبل فأعطاه،
ثم سأله مائة فأعطاه ثم سأله مائة فأعطاه، وقال له: «يا حكيم هذا المال
خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه باشراف نفس لم
يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»

فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها، أي وقال: يا رسول الله والذي بعثك بالحق نبياً لا أرى أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال عمر: يا معشر المسلمين إنني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه. وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل. وأعطى عيينة مثله. وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل، فقال في ذلك شعراً: أي يعاتبه به حيث فضل الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن عليه وهو:

أتجعل نهبي ونهب العبيد
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76
د (يعني فرسه) بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس
يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهم
ومن تضع اليوم لا يرفع

فأعطاه تمام المائة. أي وفي رواية أنه قال: اقطعوا عني لسانه. وفي الكشف أنه قال: يا أبا بكر اقطع لسانه عني وأعطه مائة من الإبل، هذا كلامه، وحينئذ يتوقف في قولهم فظن ناس أنه أمر أن يمثل به وفزع هو أيضاً لذلك فأتي به إلى الغنائم، وقيل له خذ منها ما شئت، فقال: إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع لساني بالعطاء فكره أن يأخذ منها شيئاً، فبعت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلة، وفي رواية: «فأتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة» وروي بدل: فما كان حصن ولا حابس: فما كان بدر ولا حابس وهو صحيح أيضاً، لأن بدرًا جد حصن أبو أبيه فانتسب تارة إلى أبيه حصن وتارة إلى جد أبيه بدر، فإن عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر. ويروي بدل مرداس: شخى بالإنفراد يعني والده، ويروي بالثنائية يعني والده وجده. وفي كلام بعضهم: كانت المؤلفات ثلاثة أصناف. صنف يتألفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا كصفوان بن أمية. وصنف ليثبت إسلامهم كأبي سفيان بن حرب. وصنف لدفع شرهم كعيينة بن حصن والعباس بن مرداس والأقرع بن حابس.

لكن في رواية: «قيل يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة. وتركت جعيل بن سراقة؟ فقال: أما والذي نفس محمد بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينة والأقرع، ولكني تألفتها ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه» وتقدم أن جعيلًا هذا كان من فقراء المسلمين، وكان رجلاً صالحاً دميماً قبيحاً، وهو الذي تصوّر الشيطان بصورته يوم أحد، وقال إن محمداً قد مات، وجاء: «إنني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكب في النار على وجهه» وقال: «إن من الناس ناساً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حبان» وأعطى صفوان بن أمية ما تقدم ذكره وهو جميع ما في الشعب من غنم وإبل وبقر، وكان مملوءاً وكان ذلك سبباً لإسلامه كما تقدم.

أقول: في كلام ابن الجوزي رحمه الله: اعلم أن من المؤلفة قلوبهم أقواماً تؤلفوا في بدء الإسلام ثم تمكن الإسلام في قلوبهم، فخرجوا بذلك عن حد المؤلفة، وإنما ذكرهم العلماء في المؤلفة اعتباراً ببداية أحوالهم، وفيهم من لم يعلم منه حسن الإسلام، والظاهر بقاءه على حالة التأليف. ولا يمكن أن يفرق بين من حسن إسلامه، وبين من لم يحسن إسلامه لجواز أن يكون من ظننا به شراً أنه على خلاف ذلك، إذ الإنسان قد يتغير عن حاله ولا ينقل إلينا أمره فالواجب أن نظن بكل من نقل عنه الإسلام خيراً. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

وقد جاء عن أنس رضي الله عنه، قال: «كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسلم لشيء يعطاه من الدنيا، فلا يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها» هذا كلام ابن الجوزي، والعباس بن مرداس أسلم قبل الفتح ببسبر، وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية، والله أعلم. ولا زال يعطي الرجل ما بين مائة وخمسين من الإبل، أي وذلك من الخمس كما سيأتي.

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم: أي ما بقي منها، وهي الأربعة الأقسام الباقية بعد إعطاء من تقدم ما تقدم من الخمس وقسمتها عليهم، أي بعد أن اجتمعوا إليه وصاروا يقولون يا رسول الله اقسّم علينا حتى ألجؤوه إلى شجرة فاختلفت رداءه، فقال ردوا رداي أيها الناس، فوالله إن كان لي فيه شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم ثم ما ألفتهموني بخيلاً ولا جباناً ولا كدوداً، ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها، ثم قال: أيها الناس، والله ما لي من فينكم أي غنيمتكم ولا هذه البرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم، فأدوا الخيط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً وناراً يوم القيامة، فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر، وقال: يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بردة بعير لي دبر، فقال: أما نصيبي منها فلك، قال: أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لي بها وألقاها.

ويروى أن عقيلاً كان دفع لامراته إبرة أخذها من الغنيمة، أي فإنها قالت له: إني قد علمت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من الغنيمة، فقال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك. فسمع منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من أخذ شيئاً فليرده حتى الخيط والمخيط، فرجع وأخذها منها وألقاها في الغنائم.

وفي كلام السهيلي أن أبا جهم بن حذيفة العدوي كان على الأنفال يوم حنين، فجاءه خالد بن البرصاء وأخذ من الأنفال زمام شعر فمانعه أبو جهم، فلما تمانعا ضربه أبو جهم بالقوس فشجه منقلاً، فاستعدى عليه خالد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: خذ خمسين شاة ودعه فقال: أقدني منه، فقال: خذ مائة ودعه، فقال: أقدني منه، فقال: خذ خمسين ومائة ودعه وليس لك إلا ذلك، ولا أقيدك من وال عليك، فقوّمت المائة والخمسون بخمسة عشرة

فريضة من الإبل، فمن هنا جعلت دية المنقلة خمس عشرة فريضة، ولما قسم ما بقي خص كل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ ثنتي عشرة بعيراً وعشرين ومائة شاة، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم إلا لفرس واحد ومن ثم لم يعط الزبير رضي الله عنه إلا لفرس واحد، وكان معه أفراس، وبه أخذ إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه فقال: لا يعطى إلا لفرس واحد، وقال بعض المنافيين، قيل وهو معتب هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فتغير وجه الشريف، أي صار كالصيرف بكسر الصاد المهملة: وهو شيء أحمر يدبغ به الجلد. وفي رواية: فغضب غضباً شديداً واحمر وجهه وقال: «من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحمة الله على أخي موسى عليه السلام، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر» انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

ولعل من ذلك أن قارون ابن خالة موسى عليه السلام أو ابن عمه حملة البغي والشعر على أن أحضر امرأة بغياً وجعل لها جعلاً على أن ترمي موسى بنفسها، وأحضر بني إسرائيل وأعلمهم بذلك ودعا موسى عليه السلام وقال له: إن قومك اجتمعوا فاخرج إليهم لتأمرهم وتنهائهم، فخرج عليه السلام إليهم وقال لهم: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى محصنا رجمناه حتى يموت، ومن زنى وهو لم ينكح جلدناه مائة جلدة، فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل زعموا أنك فجرت بفلاتة، فقال: ادعها، فإن قالت فهو كما قالت، فأنت فقال موسى: يا فلانة أنشدك بالذي أنزل التوراة أصدق قارون؟ فقالت: أما إذا أنشدتني فقد أشهد أنك بريء وأنت رسول الله، وإن قارون جعل لي جعلاً على أن أرميك بنفسي، وجاءت بخريبتين فيهما دراهم عليهما ختمه، وقالت للملأ: إن قارون أعطاني هاتين وهذا ختمه، وأعوذ بالله أن أفترى على الله، فنظر القوم إلى ختمه فعلموا صدقها فخر موسى ساجداً، فأوحى الله إليه: أن ارفع رأسك فإني أمرت الأرض أن تطيعك، فحسف به فهو يتجلجل في الأرض، يخسف به في كل مقدار قامة إلي يوم القيامة.

ولعل من ذلك أيضاً أن بني إسرائيل قالوا لموسى عليه السلام: إن طائفة تزعم أن الله لا يكلمك فخذ منا من يذهب معك ليسمعوا كلامه تعالى فيؤمنوا، فأوحى الله لموسى عليه السلام: أن اختر سبعين من خيارهم واصعد بهم الجبل أنت وهارون واستخلف يوشع ففعل، فلما سمعوا كلامه سبحانه سألوه أن يريهم الله جهرة.

ومن ذلك نسبته إلى أنه قتل أخاه هارون عليهما السلام كما تقدم، أي وقيل إن قائل: هذه القسمة ما عدل فيها: ذو الخويرة التميمي، وهو غير ذي الخويرة اليماني الذي بال في المسجد. فقد جاء: «أن ذا الخويرة التميمي وقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا محمد قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل، فكيف رأيت؟ قال:

لم أرك عدلت، فغضب رسول الله ، ثم قال: «ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟» فقال عمر رضي الله عنه: ألا نقتله؟ قيل وقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: ألا أضرب عنقه». قال الإمام النووي رحمه الله: ولا تعارض، لأن كل واحد منهما استأذن فيه؟ أي ففي مسلم: «فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال: لا، ثم أدبر، فقام إليه خالد رضي الله عنه فقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه؟ قال لا لعله أن يكون يصلي، قال خالد رضي الله عنه: وكم مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم». رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

وفي مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بعث علي كرم الله وجهه وهو باليمن بذهبة في تربتها، أي لم تخلص من ترابها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة نفر: الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وعلقمة بن علاثة وزيد الخير، فغضبت قريش فقالوا: يعطي صنابير نجد وبدعنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني إنما فعلت ذلك لأتألفهم، فجاء رجل فقال: اتق الله يا محمد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فمن يطع الله إن عصيته! بأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني؟» وفي رواية: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟ يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً، فجاء رجل فقال ما تقدم، فقال له: ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟».

ولعل هذه القسمة غير قسمة غنائم حنين، وأن الرجل الذي قال له ما ذكر يحتمل أن يكون واحداً منهما أو من شيعة ذلك الرجل الذي قال له في أحدهما.

وذكر بعضهم أن ذا الخويصرة أصل الخوارج، وأنه قال: «دعوه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية» وفي رواية: «قال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله دعني فأقتل هذا المنافق، فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي إن هذا وأصحابه» أي جماعة يخرجون من صلبه فهو أصل الخوارج: «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم» وفي لفظ: «تراقيهم، لا تفقهه قلوبهم، ليس لهم حظ منه إلا تلاوة الفم، وإنهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وشمود» أي قتلاً متأصلاً لعامتهم. وفي رواية: «إذا لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة» وبهذا استدل من يقول بجواز قتل الخوارج. وقد قاتلهم علي كرم الله وجهه. وقد سئل عليه السلام عن الخوارج، أهم كفار؟ فقال: «من الكفر فروا، فليل: أمنافقون؟ فقال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وهؤلاء يذكرون الله كثيراً فقيل: ما هم؟ فقال: أصابتهم فتنة فعموا وصموا» فلم يجعلهم كفاراً لأنهم تعلقوا بضرب من التأويل.

وحينئذ يكون المراد بالدين في وصفهم بالمروق من الدين الطاعة لا الملة،

ويبعده رواية بدل الإيمان: الإسلام، وكان مصداق ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ذا الخوبصرة خرج منه حرقوص المعروف بذي الثدية، وهو أول من بوع من الخوارج بالأمانة.

والخوارج قوم يكفرون مرتكب الكبيرة، ويحكمون بحبوط عمل مرتكبها وتخليده في النار، ويحكمون بأن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فيها دار كفر ولا يصلون جماعة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

وسبب مقاتلة سيدنا علي كرم الله وجهه لهم أنهم نعموا عليه التحكيم الذي وقع بينه وبين معاوية في صفين، وقالوا لا حكم إلا الله، وأنت كفرت حيث حكمت الحكمين، فإن شهدت على نفسك أنك كفرت فيما كان من تحكيمك الحكمين واستأنفت التوبة والإيمان نظرنا فيما سألتنا من الرجوع إليك، وإن تكن الأخرى فإننا ننازلك على سواء {وأن الله لا يهدي كيد الخائنين} فلما أيس من رجوعهم إليه قاتلهم. وحرقوص هذا أول مارق من الدين، وكان رجلاً أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة. فقد جاء عنه: «إن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض». ولما قاتلهم علي كرم الله وجهه وقتل غالبهم التمس ذلك الرجل فأتي به، فإذا هو له ثدي كثدي المرأة. وفي رواية التمسوه في القتلى فلم يجدوه، فقام علي كرم الله وجهه بنفسه فطاف في القتلى فأخرجوه من بينهم، فكبر علي كرم الله وجهه، ثم قال: صدق رسول الله، سمعته يقول «إن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي، عليه شعرات بيض» فقام إليه عبيدة السلماني، فقال: يا أمير المؤمنين: والله الذي لا إله إلا هو، أسمع هذا من رسول الله؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجدوا في أنفسهم» أي غضبوا «حتى كثرت منهم القالة» أي وهي القول الرديء «أي حتى قال بعضهم إن هذا لهو العجب يعطي قريشاً» وفي لفظ: «الألفاء والمهاجرين، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم» أي وفي لفظ: «إن هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم» وفي رواية: «إذا كانت شديدة ندعى إليها وبعطي الغنيمة غيرنا» وفي رواية: «سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالمغنم، فإن كان من أمر الله صبرنا، وإن كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم استعتبناه، فدخل عليه سعد بن عباد رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم»، أي غضبوا «لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ فقال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه

الخطيرة» أي وهي قبة من آدم. أي وفي كلام بعضهم أن الخطيرة الزريبة التي تجعل للإبل والغنم من الشجر لتقيها من البرد والريح، ولعل هذا باعتبار الأصل فلا مخالفة، فلما اجتمعوا له أتى سعد إليه فقال: «اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي فقال لهم: أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا لا إلا ابن أخت لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ابن أخت القوم منهم» وفي رواية: «قال: من كان ههنا من غير الأنصار فليرجع إلى رحله»، وذكر بعضهم أن سبب إيراد ابن أخت القوم منهم أنه قال لعمر رضي الله عنه «اجمع لي من هنا من قريش، فجمعهم له ثم قال: تخرج إليهم أم يدخلون؟ قال: اخرج، فخرج فقال: يا معشر قريش هل فيكم من غيركم، قالوا: لا إلا ابن أختنا فذكره» ثم قال: «يا معشر

قريش إن أولى الناس بي المتقون، فانظروا لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها فاصدّ عنكم بوجهي» انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

«فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار ما مقالة بلغتني عنكم ووجدتموها عليّ في أنفسكم؟» القالة كما علمت: الكلام الرديء، والجدّة: الغضب، والمعروف أنه الموحدة، ومن ثم قال بعضهم: الجدة في المال، والموحدة في الغضب «ألم أتكم ضلالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف بين قلوبكم» أي وفي لفظ: «وكنتم متفارقين فجمعكم الله» وفي لفظ: «يا معشر الأنصار ألم يمنّ الله عليكم بالإيمان، وخصكم بالكرامة، وسماكم بأحسن الأسماء، أنصار الله، وأنصار رسوله؟ قالوا: بلى الله ورسوله آمنّ وأفضل، ثم قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنة والفضل» أي وفي لفظ: «قالوا: يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور، ووجدتنا على شفا جرف من النار فأنقذنا الله بك، ووجدتنا ضلالاً فهدانا الله بك، فرضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فافعل ما شئت، فأنت يا رسول الله في حل، قال: إذن والله لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخدولاً فنصرناك، وطريداً فأوينناك، وعائلاً فأغنيناك، أي وخائفاً فأمنناك» أوي أي إن كان متعدياً كما هنا فالأفصح المد، وإن كان قاصراً فالأفصح القصر، قال تعالى: {وأويناهما إلى ربوة} وقال تعالى: {إذ أوى الفتية إلى الكهف} «قال فقال الأنصار: المن لله ولرسوله، والفضل علينا وعلى غيرنا، فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فسكتوا، فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم، قالوا: يغفر الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم»،

أي وفي رواية: «ما الذي بلغني عنكم؟ قالوا هو الذي بلغك، لأنهم لا يكذبون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لأعطي رجالاً حديثو عهد بكفر أتألفهم» ا.هـ. أي وفي رواية: «إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لغاة»

بضم اللام وغيين معجمتين: أي شيء قليل من الدنيا «ألفت بها قوماً ليسلموا، أي ليحسن إسلامهم ويسلم غيرهم تبعاً لهم، ووكلتكم إلى إسلامكم الثابت الذي لا يزلزل، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت رجلاً من الأنصار». أي لانتسبت إلى المدينة «ولو سلك الناس شعباً» أي بكسر الشين المعجمة: وهو ما انفج بين جبلين «وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار» وفي لفظ: «فيكى القوم حتى أخلصوا لحالهم وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحطاً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا» أي وقوله للأنصار: «ألم تكونوا ضللاً فهداكم الله بي» ليس من المن المذموم في قوله: «أفة السماحة المن» بل هو من التذكير بنعمة الله، لكن يشكل على ذلك قوله للأنصار: «ألا تجيبوني الخ» فليتأمل، أي وقد جاء في مدح الأنصار «اللهم اغفر للأنصار، وأبناء الأنصار، ولأزواج الأنصار، ولذراري الأنصار، الأنصار كرشى وعييتي، وإن الناس يكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم» وفي لفظ آخر: «اللهم صل على الأنصار، وعلى ذرية الأنصار وعلى ذرية الأنصار» وقال للأنصار: «أنتم شعار والناس دثار» أي والشعار الثوب: الذي يلي الجسد، والذثار: الثوب الذي يكون فوق ذلك الثوب، فهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم وقال: «الأنصار حبهام إيمان، وبغضهم نفاق، اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار، ولنساء الأنصار ولنساء

أبناء الأنصار، ولنساء أبناء أبناء الأنصار». وفي لفظ: «اللهم اغفر للأنصار، ولذراري الأنصار، ولذراري ذراريهم، ولمواليهم، ولجيرانهم، لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر» وقال: «لا تؤذوا الأنصار، فمن آذاهم فقد آذاني، ومن نصرهم فقد نصرني، ومن أحبهم فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، ومن بغى عليهم فقد بغى عليّ، ومن قضى لهم حاجة كنت في حاجته يوم القيامة أسرع. إن الله اختار دارهم لإعزاز دينه، واختارهم لنبيه أنصاراً» وقال «حب الأنصار آية الإيمان وبغضهم آية النفاق» وقال في الأنصار: «لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله» وقال لهم: «اللهم أنتم أحب الناس إليّ قالها ثلاثاً» قال: وقال حسان رضي الله عنه في مدح الأنصار:

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

سماهم الله أنصاراً بنصرهم

دين الهدى وعوان الحرب تستعر

وسارعوا في سبيل الله واعترفوا

للنائبات وما خافوا وما ضجروا

انتهى أي وقد وقع له نظير ذلك، فعن عمرو بن ثعلبة: «أنه سبى فأعطى قوماً ومنع قوماً، وقال: إنا لنعطي قوماً نخشى هلعهم وجزعهم، ونكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الغنى والخير، منهم عمرو بن ثعلبة»، فكان عمرو رضي الله عنه يقول: ما يسرني أن لي بها حمر النعم.

ولما أسرت أخته من الرضاة الشيماء بشين معجمة مفتوحة ومثناة تحتية ساكنة وميم بمدة، ويقال الشماء بغير ياء، واختلف في اسمها صارت تقول: «والله إني أخت صاحبكم ولا يصدقوها، فأخذها طائفة من الأنصار حتى أتوا بها رسول الله، فقالت: يا محمد إني أختك، قال: وما علامة ذلك؟» الحديث «ثم قال لها ارجعي إلى الجعرانة تكوينين مع قومك، فإني أمضي إلى الطائف، فرجعت إلي الجعرانة، فلما قدم الجعرانة جاءته، فقالت: يا رسول الله إني أختك، أي وأنشدته أبياتاً، قال: وما علامة ذلك» بكسر الكاف لأنه خطاب لمؤنث «قالت عضة عضضتنيها في ظهري» وفي رواية «وفي وجهي» وفي رواية: «في إبهامي وأنا متوركنتك» فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة. وفي رواية: «قال لها إن تكوني صادقة فإن بك مئى أثرا لن يبلى، فكشفت عن عضدها، ثم قالت: نعم يا رسول الله، حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضة، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة» فليتأمل «وعند ذلك قام لها قائماً وبسط لها رداءه وأجلسها عليه. أي ودمعت عيناه، وسألها عن أمه وأبيه فأخبرته بموتهما، أي وقال لها: سلي تعطي، واشفعي تشفعي، فاستوهبته السبي، أي بعد أن قال لها قومها: إن هذا الرجل أخوك، فلو أتيتك فسألتك قومك لرجونا أن يحاينا، فأتته فقالت: أتعرفني؟ قال: ما أنكرتك فمن أنت؟ قالت: أنا أختك بنت أبي ذؤيب، وآية ذلك أنني حملتك ذات يوم فعضضت كتفي عضة شديدة هذا أثرها فرحب بها، ثم استوهبته السبي وهم ستة آلاف فوهبه لها، فما عرفت مكرمة مثلها، ولا امرأة هي أيمن على قومها منها، وخيرها وقال: إن أحببت فعندي محبة مكرمة، وإن أحببت أمتعتك وترجعي إلى قومك، قالت: بلى تمتعني وتردني إلى قومي، فأعطاه غلاماً يقال له مكحول وجارية، وقيل بل أعطاه ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء» وقيل إن القادمة عليه أمه من الرضاع التي هي حليلة، وتقدم الكلام على ذلك.

قال بعضهم: وهذا العطاء الذي أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤلفة من قريش إنما كان من خمس الخمس الذي هو سهمه، لا من أربعة أخماس الغنيمة وإلا لاستأذن الغانمين في ذلك، لأنهم ملكوها بحوزهم لها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

ثم قدم وفد هوازن، وهم أربعة عشر رجلاً مسلمين ورأسهم زهير بن صرد وفي لفظ: يكنى بأبي صرد، وأبو بركان بالموحدة، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاة، أي فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك. وفي رواية قالوا: يا رسول الله إن فيمن أصبتهم الأمهات والأخوات والعمات والخالات، وهن مخازي الأقوم، ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله، وقال زهير: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك أي لأن مرضعته حليلة كانت من هوازن، أي وقال له أيضاً: ولو ملحننا أي أروضنا للحارث بن أبي شمر: أي ملك الشام، أو للنعمان بن المنذر: أي ملك العراق، ثم نزل منا بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائده علينا وأنت خير المكفولين وأنشده أبياتاً يستعطفه بها منها:

امن علينا رسول الله في كرم
فإنك المرء نرجوه ومنتظر
امن على نسوة قد كنت ترضعها
إذ فوك مملوءة من مخضها الدرر
أي الدفعات الكثيرة من اللبن.
إنا لنشكر للنعماء إن كفرت
أي جددت. وفي لفظ:
إنا لنشكر آلاء وإن كفرت
وعندنا بعد هذا اليوم مدخر
إنا نؤمل عفوا منك نلبسه
هدي البرية أن تعفو وتتنصر
فألبس العفو من قد كنت ترضعه
من أمهاتك إن العفو مشتهر

فقال : «إن أحسن الحديث أصدقه أبناؤكم أصدقه، أيناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟» أي وفي لفظ البخاري: «أحب الحديث إليّ أصدقه، فاخترتكم إحدى الطائفتين: إما السبي، وإما المال» وفي رواية: «وقد كنت أسأيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون» أي لأنه انتظرهم بعد أن قفل من الطائف بضع عشرة ليلة وفي لفظ: «أنه قال لهم: قد وقعت المقاسم مواقعها، فأمرين أحب إليكم؟ أطلب لكم السبي أم الأموال؟» وإنما قال لهم: قد وقعت المقاسم، أي لأنه لا يجوز للإمام أن يمن على الأسرى بعد القسم، وإنما يمن عليهم قبله كما وقع له في يهود خيبر، ولا يخفى أن هذا في الرجال دون الذراري «فقالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب إلينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير، فقال : أما مالي ولبني عبد المطلب فهو لكم، أي وقال لهم: فإذا أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا، أي بعد أن قال لهم : أظهروا إسلامكم وقولوا نحن إخوانكم في الدين، فساءل لكم الناس، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ، أي بعد أن أثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء جاؤوا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل» كذا في البخاري.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

وفي لفظ: «أنه قال: وأما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول سبي أسبيه».

وفي رواية: «فمن أحب منكم أن يعطي غير مكره فليفعل، ومن كره أن يعطي ويأخذ الفداء فعليّ فداؤهم، ثم قال : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب

فهو لكم، فقال المهاجرون والأنصار رضي الله تعالى عنهم: ما كان لنا فهو لرسول الله، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله، فقال العباس بن مرداس: وهنتموني: أي أضعفتموني حيث صيرتموني منفرداً». وفي رواية: «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء القوم جاؤوا مسلمين وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده من النساء سبي فطابت نفسه أن يردّه فليردّه، ومن أبى فليرد عليهم ذلك قرصاً علينا بكل إنسان ست فرائض من أول ما يفيء الله علينا، قالوا: رضينا وسلمنا، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولما فرق النساء نادى مناديه: ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا غير الحبالى حتى يسبرئن بحيضة». وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: «أصبنا سبايا يوم حنين، فكنا نلتمس فداءهن، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزل، فقال: اصنعوا ما بدا لكم، فما قضى الله فهو كائن، وليس من كل الماء يكون الولد» قال أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: وكانت اليهود تزعم أن العزل الموءودة الصغرى، فقال رسول الله: «كذبت اليهود، ولو أراد الله أن يخلقه لم يستطع أحد أن يصرفه» وجاء: «لو أن الماء الذي منه الولد أهرقته على صخرة أخرج الله منها ولداً» وقد جاء في الحديث ما قالت اليهود. ففي مسلم وابن ماجه «العزل الواد الخفي» أي لأن التحرز عن الولد بالعزل كدفعه حياً فليتأمل، وقد مر الكلام على ذلك مبسوطاً. والفريضة: البعير الذي يؤخذ في الزكاة لأنه فرض وواجب على رب المال، وإلى عفوه عن هوازن، أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى بقوله:

منّ فضلا على هوازن إذ
كان له قبل ذاك فيهم رباء
وأتى السبي فيه أخت رضاع
وضع الكفر قدرها والسبأ
فجباها برا توهمت النا
س به أنما السبأ هداء
بسط المصطفى لها من رداء
أيّ فضل حواه ذاك الرداء
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76
فعدت فيه وهي سيدة النسب
بوة والسيدات فيه إماء

أي أعتق هوازن قبيلة أمه من الرضاعة التي هي حليلة السعدية، وكانوا ستة آلاف آدمي وإنما أعتقهم لأجل أنه كان له وهو طفل فيهم رباء بفتح الراء والمد: أي تربيته فيهم، ولأجل أن أخته من الرضاعة أتت في ذلك السبي، وتلك الأخت صغّر كفرها وسباؤها قدرها الرفيع بأخوته فأعطاها براً وفعل معها معروفاً حتى وقع في وهم الحاضرين بسبب ذلك أن سبأها هداء لها بكسر الهاء كالعروس التي تهدي لزوجها، ومن بره لها أنه بسط لها رداءه لتجلس عليه، أي شرف لذلك الرداء شرف عظيم، لا غاية له بسبب مماسته لجسده

الشريف فصارت في ذلك السبي سيدة من فيه من النساء، وصار السيدات التي فيه بالنسبة إليها إماء، وليتأمل الجمع بين كون أخته المذكورة هي الشافعة في السبي وقبيلت شفاعتها، وبين كون السائل فيهم هوازن، والأصل اقتصر على سؤال الوفد، وردّ جميع السبي، ولم يتخلف منه أحد إلا عجوز من عجائزهم، كانت عند عيينة بن حصن أبي أن يردها، وقال حين أخذها: أرى عجوزاً إنني لأحسب أن لها في الحي نسباً وعسى أن يعظم فداؤها، ثم ردها بعد ذلك بعشر من الإبل، وقيل بست أخذ ذلك من ولدها بعد أن ساومه فيها مائة من الإبل، وقال له ولدها: والله ما تديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا فوها يبارد، ولا صاحبها بواجد: أي بحزين لفراقها، ولا درها بناكد بالنون: أي غزير وهو من الأضداد. وقيل قائل ذلك له زهير.

وقد يقال: لا مخالفة لجواز أن زهيراً هو ولدها، فقال عيينة: خذها لا بارك الله لك فيها، قال وذلك ببركة دعائه، دعا على من أبي أن يرد من السبي شيئاً أن يخس، أي يكسب، فإن ولدها دفع له فيها مائة من الإبل فأبى، ثم غاب عنه ثم مر عليه معرضاً عنه فقال: خذها بالمائة، فقال لا أدفع إلا خمسين فأبى، فغاب عنه ثم مر عليه معرضاً عنه، فقال: خذها بخمسين فقال لا أدفع إلا خمسة وعشرين فأبى. فغاب عنه ثم مر عليه معرضاً عنه، فقال خذها بالخمسة والعشرين فقال: لا أخذها إلا بعشرة. وفي رواية إلا بستة فقال له ما تقدم، ولما أخذها ولدها قال لعيينة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسا السبي قبضية قبطية، فقال: لا والله ما ذاك لها عندي، فما فارقتها حتى أخذ لها منه ثوباً، والقبطية بضم القاف: وهو ثوب أبيض من ثياب مصر منسوب للقبط وهم أهل مصر وضم القاف من التغيير في النسب.

أي وفي كلام بعضهم وزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رجلاً أن يقدم مكة فيشتري للسبي ثياب المتعة فلا يخرج الحر منهم إلا كاسياً، قال: وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبس أهل مالك بن عوف النضري بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبي أمية، وكلمه الوفد في ذلك، فقالوا: يا رسول الله أولئك سادتنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أريد بهم الخير، ولم يجز أن تجري السهمان في مال مالك بن عوف، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لوفد هوازن: ما فعل مالك بن عوف؟ قالوا: يا رسول الله هرب، فلحق بحصن الطائف مع ثقيف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل، فلما بلغ مالكا ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه وأن ماله وأهله موفور، وما وعده به نزل من الحصن مستخفياً خوفاً أن تحبسه ثقيف إذا علموا الحال، وركب فرسه وركضه، حتى أتى الدهناء، محلاً معروفاً، ركب راحلته ولحق برسول الله، فأدرکه بالجعرانة، وأسلم وردّ عليه أهله وماله، واستعمله على من أسلم من هوازن، فكان لا يقدر على سرح لثقيف إلا أخذه ولا رحل إلا ميله، وكان رضي الله تعالى عنه يرسل بالخمسة مما يغنم

لرسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

أي وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المحل الذي هو الجعرانة، وهو المراد بقول بعضهم وهو بحنين، لأن المراد منصرفه من غزوة حنين، وعلى ذلك الأعرابي جبة وهو متضمخ بخلوق: أي مصفر لحيته ورأسه، وقد أحرم بعمرة فقال: أفتني يا رسول الله. وفي رواية قال له: كيف ترى في رجل أحرم في جبة بعد ما تضمخ بطيب؟ فسكت ساعة ثم نزل عليه الوحي، فلما سُري عنه قال: أين السائل عن العمرة اخلع عنك الجبة، واغسل عنك أثر الخلق. وفي رواية قال له: ما كنت تصنع في حجك؟ قال: كنت أنزع هذه الجبة، وأغسل هذا الخلق، فقال: اصنع في عمرتك ما كنت صنعا في حجك. واستند لذلك من يقول بحرمة التطيب قبل الإحرام بما يبقى عند الإحرام. والراجح عند إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه استحباب ذلك. وجاءه رجل فوقف على رأسه الشريف فقال: يا رسول الله إن لي عندك موعداً، فقال له: صدقت فأحتمكم، فقال: أحتمكم ثمانين ضائنة وراعيها، فقال: هي لك، ولقد احتكمت يسيراً، ولصاحبة موسى عليه الصلاة والسلام التي دلته على عظام يوسف عليه الصلاة والسلام كانت احزم وأجزل حكماً منك حين حكمهما موسى عليه الصلاة والسلام، فقالت: حكمي أن تردني شابة، وأدخل معك الجنة، كذا ذكره الغزالي رحمه الله. قال السخاوي: وهذا أخرجه ابن حبان والحاكم وصحح إسناده، وفيه نظر كما قال العراقي، وهذا أصل في عدم إخلاف الوعد بالخير. ونقل الإمام النووي رحمه الله أن جماعة ذهبوا إلى وجوب الوفاء بذلك، ووجهه السبكي رحمه الله بأن إخلاف الوعد كذب، والكذب حرام وترك الحرام واجب. وذكر الغزالي رحمه الله أن إخلاف الوعد لا يكون كذباً إلا إذا عزم حين الوعد على عدم الوفاء.

أي ويدل لذلك ما جاء عن عبد الله بن ربيعة قال: «جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا وأنا صبي صغير، فذهبت لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً، قال: لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة». وأحرم من الجعرانة ودخل مكة ليلاً، واستمر يلبي حتى استلم الحجر، ثم رجع من ليلته، وأصبح بها كبائت. وفي لفظ: أصبح بمكة كبائت وفيه نظر، ولم يسق هدياً في هذه العمرة وحلق رأسه وكان الحائق لرأسه الشريف أباً هند الحجام وقيل أبو خراش بن أمية الذي حلق رأسه في الحديدية، وأتى بأعمال العمرة بعد أن أقام بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة، وقال: اعتمر منها سبعون نبياً.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 76

غزوة تبوك

بعدم الصرف للعملية والتأنيث: ووقع في البخاري صرفها نظراً للموضع، أي ويقال لها غزوة العسيرة، ويقال لها الفاضحة، لأنها أظهرت حال كثير من

المنافقين.

ففي شهر رجب سنة تسع أي بلا خلاف، طووقع في البخاري أنها كانت بعد حجة الوداع، قيل وهو غلط من النسخ، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة الشام، وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلاء المحل المعروف.

أي وذكر بعضهم أن سبب ذلك أن منتصرة العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذي قد خرج يدعي النبوة هلك وأصاب أصحابه سنون أهلكت أموالهم، فبعث رجلاً من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفاً، أي ولم يكن لذلك حقيقة، أي وإنما ذلك شيء قيل لمن يبلغ ذلك للمسلمين ليرجف به وكان ذلك في عسرة في الناس وجدب في البلاد، أي وشدة من نحو الحر، وحين طابت الثمار والناس يحيون المقام في ثمارهم وظلالهم () أي وكونه عند طيب الثمار يؤيد قول عروة بن الزبير: إن خروجه لتبوك كان في زمن الخريف، ولا ينافي ذلك وجود الحر في ذلك الزمن، لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ووّرّى غيرها، إلا ما كان من غزوة تبوك لبعث المشقة وشدة الزمن، أي وكثرة العدو، وليأخذ الناس أهبتهم، وأمر الناس بالجهاز، أي وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم، وحض أهل الغني على النفقة والحمل في سبيل الله، أي أكد عليهم في طلب ذلك، وهي آخر غزواته، وأنفق عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها، قال: فإنه جهز عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل، وهي تسعمائة بغير ومائة فرس والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية.

أي وفي كلام بعضهم أنه أعطى ثلاثمائة بغير بأحلاسها وأقتابها وخمسين فرساً، وعند ذلك قال: «اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راض».

أي وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعاً يديه الكريمتين يدعو لعثمان بن عفان يقول: اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه» وجاء أنه قال: «سألت ربي أن لا يدخل النار من صاهرته أو صاهرني».

وجاء رضي الله تعالى عنه بألف دينار فصبها في حجر النبي، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها بيديه ويقول: «ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم يرددها مراراً» اهـ.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي رواية: «جاء بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصبت بين يديه، فجعل يقول بيديه ويقلبها ظهراً لبطن، ويقول: غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما كان منك، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالي ما عمل بعدها» أي ولعل هذه العشرة الآلاف هي التي جهز بها العشرة آلاف إنسان وإنما أي العشرة غير الألف التي صبها في حجره .

وأنفق غير عثمان أيضاً من أهل الغنى قال: وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر

الصديق رضي الله تعالى عنه جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أبقيت لأهلك شيئاً. قال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بنصف ماله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أبقيت لأهلك شيئاً قال: النصف الثاني. وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه بمائة أوقية، أي ومن ثم قيل عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما كانا خزنتين من خزائن الله في الأرض ينفقان في طاعة الله تعالى. وجاء العباس رضي الله تعالى عنه بمال كثير، وكذا طلحة رضي الله تعالى عنه، وبعث النساء رضي الله تعالى عنهن بكل ما يقدرون عليه من حليهن. وتصدق عاصم بن عدي رضي الله تعالى عنه بسبعين وسقاً من تمر اهـ. وجاءه جمع، أي سبعة أنفس من فقهاء الصحابة يتحملونه: أي يسألونه أن يحملهم. فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، وعند ذلك {تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون} أي ما يحملهم، ومن ثم قيل لهم البكاؤون، ومنهم العرياض بن سارية رضي الله تعالى عنه، ولم يذكره القاضي البيضاوي في السبعة. وحمل العباس رضي الله تعالى عنه منهم اثنين، وحمل منهم عثمان رضي الله تعالى عنه بعد الجيش الذي جهزه ثلاثة، أي وحمل ياميز بند عمرو النضري اثنين دفع لهما ناضجاً له وزود كل واحد منهما صاعين من تمر.

وعددهم مغلطاي ثمانية عشر. وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم، فقلت: يا نبي الله إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم، فقال والله لا أحملكم على شيء. وفي رواية: والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه، فرجعت حزناً إلى أصحابي من منع النبي صلى الله عليه وسلم ومن مخافة أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه حيث حلف على أن لا يحملهم. قال: فرجعت إلى أصحابي فأخبرتهم الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فلم ألبث إلا سبعة إذ سمعت بلالاً ينادي أين عبد الله بن قيس؟ فأجبتة قال: أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك، فلما أتته قال: خذ هذه الستة أبعرة فانطلق بها إلى أصحابك. زاد بعضهم: فعند ذلك قال بعضهم لبعض أغلقنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أي حملناه على يمين الغلق وقد حلف أن لا يحملنا ثم حملنا فوالله لا بارك لنا في ذلك، فأتوه فذكروه، فقال عليه الصلاة والسلام: أنا ما حملتكم، الله حملكم، ثم قال: «إني لا أحلف يمينا فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير» أي فهو إنما حلف أن لا يتكلف لهؤلاء حملاً بقرض ونحوه ما دام لا يجد لهم حملاً فلا حنت. وفيه أن هذا لا يناسب قوله: إني لا أحلف إلى آخره.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وأجيب بأن هذا استنبات قاعدة لا تدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم حنت في يمينه بل خرج الكلام على تقدير. كأنه قال لو حنت في يميني حيث كان الحنت خيراً وكفرت عنها لكان ذلك شرعاً واسعاً بل ندباً راجحاً، وبؤيده أنه لم ينقل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفر عن هذه اليمين، وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هذا وما قبله.

وقد يقال: إن حمل العباس رضي الله تعالى عنه اثنين منهم إلى آخره كان قبل وجود هذه الأبعرة الستة، أو يدعى أن هؤلاء غير من تقدم.

فلما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وهم ثلاثون ألفاً، أي وقيل أربعون ألفاً، وقيل سبعون ألفاً وكانت الخيل عشرة آلاف فرس، وقيل بزيادة ألفين.

وخلف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله تعالى عنه على ما هو المشهور، وقال الحافظ الدمياطي رحمه الله: وهو أثبت عندنا، وقيل سباع بن عرفطة، أي وقيل ابن أم مكتوم، وقيل علي بن أبي طالب، قال ابن عبد البر: وهو الأثبت، هذا كلامه.

وفي كلام ابن إسحاق: وخلف علياً كرم الله وجهه على أهله وأمره بالإقامة فيهم، وت خلف عنه عبد الله بن أبي ابن سلول ومن كان من المنافقين بعد أن خرج بهم، وعسكر عبد الله بن أبي علي ثنية الوداع، أي أسفل منها، لأن معسكره كان على ثنية الوداع، وكان عسكر عبد الله بن أبي أسفل منه. قال ابن إسحاق رحمه الله: وما كان فيما يزعمون بأقل العسكرين، أي والتعبير عن ذلك بالزعم واضح لأنه يبعد أن يكون عسكر عبد الله مساوياً لعسكره فضلاً عن كونه أكثر منه فليتأمل، وقال عند تخلفه: يغزو محمد بنى الأصفر مع جهد الحال والحز والبلد البعيد: أي ما لا طاقة له به، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال، يقول ذلك إرجافاً برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه أي وقيل للروم بنو الأصفر، لأنهم ولد روم بن العيص بن إسحاق نبي الله عليه السلام، وكان يسمى الأصفر لصفرة به.

فقد ذكر العلماء بأخبار القدماء أن العيص تزوج بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم وكان به صفرة، فقيل له الأصفر، وقيل الصفرة كانت بأبيه العيص().
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

ولما ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثنية الوداع متوجهاً إلى تبوك عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، ورايته العظمى للزبير رضي الله عنه، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير رضي الله عنه، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر رضي الله عنه، ودفع لكل بطن من الأنصار ومن قبائل العرب لواء وراية، أي لبعضهم راية ولبعضهم لواء، وكان قد اجتمع جمع من المنافقين أي في بيت سويلم اليهودي، فقال بعضهم لبعض: أتجسبون جلاد بني الأصفر، أي وهم الروم كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنهم يعني الصحابة غداً مقرنون في الحبال، يقولون ذلك إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، والجلاد: الضرب بالسيوف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك لعمار بن ياسر رضي الله عنه: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل بل قلت كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم، فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه وقالوا إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض

ونلعب} وقال للجد بن قيس: يا جد هل لك في جلد بني الأصفر، قال: يا رسول الله أو تأذن لي في التخلف ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك، فأنزل الله تعالى: {ومنها من يقول إنني لا تفتني} الآية. وفي لفظ أنه قال: «اغزوا تبوك تغنموا بنات بني الأصفر نساء الروم، فقال قوم من المنافقين: إننا لنا ولا تفتنا فأنزل الله تعالى الآية: {ألا في الفتنة سقطوا}» أي التي هي التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة عنه.

وفي لفظ أنه قال للجد بن قيس: «يا أبا قيس هل لك أن تخرج معنا لعلك تحقب: أي تردف خلفك من بنات بني الأصفر، فقال ما تقدم» وعند ذلك لأمه ولده عبد الله رضي الله عنه وقال له: والله ما يمنعك إلا النفاق، وسينزل الله فيك قرآناً فأخذ نعله وضرب به وجه ولده، فلما نزلت الآية قال له: ألم أقل لك؟ فقال له: اسكت يالكع، فوالله لأنت أشد عليّ من محمد. وفي رواية أن الجد بن قيس لما امتنع واعتذر بما تقدّم قال للنبي: ولكن أعينك بمالي، فأنزل الله تعالى: {قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم} وتقدّم أنه لم يبايع بيعة الرضوان، وتقدم أنه تاب من النفاق وحسنت توبته، وأنه قال لبني ساعدة: «من سيدكم؟ فقالوا: الجد بن قيس على بخل فيه، فقال: وأي داء أدوا من البخل؟ قالوا: يا رسول الله من سيدنا؟ فقال: بشر بن البراء بن معرور». وفي رواية: «سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح» وذكر ابن عبد البر أن النفس أميل إلى الأول ومات الجد بن قيس في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقال بعض المنافقين لبعض: لا تنفروا في الحرّ فأنزل الله تعالى: {قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون} أي يعلمون {وجاء المعذرون} أي وهم الضعفاء والمقلون {من الأعراب ليؤذن لهم} في التخلف فأذن لهم، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علة جراءة على الله ورسوله، وقد عناهم الله تعالى بقوله: {وقعد الذين كذبوا الله ورسوله}.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

قال السهيلي: وأهل التفسير يقولون إن آخر براءة نزل قيل أولها، وإن أول ما نزل منها: {أنفورا خفافاً وثقالاً} قيل معناه شباباً وشيوخاً، وقيل أغنياء وفقراء، وقيل أصحاب شغل وغير ذي شغل وقيل ركباناً ورجالة، ثم نزل أولها في نبد كل ذي عهد إلى صاحبه كما تقدّم. وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع من غير عذر، وكانوا ممن لا يتهم في إسلامه.

ولما خلف علياً كرم الله وجهه أرفج به المنافقون، وقالوا ما خلفه إلا استثقلاً له، وحين قيل فيه ذلك أخذ علي كرم الله وجهه سلاحه، ثم خرج حتى لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجرف فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك ما خلفتني إلا استثقلتني وتخفت مني، فقال: «كذبوا، ولكنني

خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» أي فإن موسى عليه السلام حين توجه إلى ميقات ربه استخلف هارون عليه السلام في قومه، فرجع عليّ إلى المدينة.

وعن علي كرم الله وجهه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة وخلف جعفرًا في أهله، فقال جعفر: والله لا أتخلف عنك، فخلفني، فقلت: يا رسول الله أتخلفني إلى شيء تقول قريش، أليس يقولون ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه، وأخرى أتبغى الفضل من الله، أني سمعت الله يقول: {ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار} الآية، فقال: أما قولك أن تقول قريش ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه، فقد قالوا إني ساحر وإني كاهن وإني كذاب، وأما قولك تتبغى الفضل من الله، فلك بي أسوة أي حيث تخلفت عن بعض مواطن القتال، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى عليهما السلام» أي ولم يتخلف عنه علي كرم الله وجهه في مشهد من المشاهد إلا في هذه الغزوة.

وإدعت الرافضة والشيعة أن هذا من النص التفصيلي على خلافة علي كرم الله وجهه، قالوا لأن جميع المنازل الثابتة لهارون من موسى سوى النبوة ثابتة لعلي كرم الله وجهه من النبي، وإلا لما صح الاستثناء: أي استثناء النبوة بقوله: «إلا أنه لا نبي بعدي» ومما ثبت لهارون من موسى عليه السلام استحقاؤه للخلافة عنه لو عاش بعده: أي دون النبوة.

وردّ بأن هذا الحديث غير صحيح كما قاله الأمدي. وعلى تسليم صحته، بل صحته هي الثابتة لأنه في الصحيحين - فهو من قبيل الآحاد، وكل من الرافضة والشيعة لا يراه حجة في الإمامة. وعلى تسليم أنه حجة فلا عموم له، بل المراد ما دل عليه ظاهر الحديث أن علياً كرم الله وجهه خليفة عن النبي صلى الله عليه وسلم في أهله خاصة مدة غيبته بتبوك، كما أن هارون كان خليفة عن موسى في قومه مدة غيبته عنهم للمناجاة. فعلى تسليم أنه عام لكنه مخصوص والعام المخصوص غير حجة في الباقي أو حجة ضعيفة. وقد استخلف في مرار أخرى غير عليّ فيلزم أن يكون مستحقاً للخلافة، وصار بعد مسيره يتخلى عنه الرجل، فيقال تخلف فلان، فيقول دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وكان ممن تخلف عن مسيره معه أبو خثيمة. ولما أن سار أياماً دخل أبو خثيمة على أهله في يوم حارّ فوجد امرأتين له في عريشتين لهما في حائط قد رشت كل منهما عريشتها، وبردتا فيها ماء، وهياتا طعاماً، وكان يوماً شديداً الحر، فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا فقال رضي الله عنه: رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرّ، وأبو خثيمة في ظلّ بارد وماء مهياً، وامرأة حسناء؟ ما هذا بالنصف. ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، فهيناً لي زاداً ففعلتا. ثم قدّم ناضحه فارتحل وأخذ سيفه ورمحه كما في

الكشاف، أي ثم خرج في طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل بتبوك، وقد كان أبو خثيمة أدرك عمير بن وهب في الطريق يطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فترافقا حتى دنوا من تبوك. فقال أبو خثيمة لعمير: إن لي ذنباً فلا عليك أن تتخلف عني حتىأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل، فلما دنا أبو خثيمة قال الناس: هذا ركب مقبل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خثيمة. فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خثيمة، فلما أناخ أقبل يسلم على رسول الله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أولى لك يا أبا خثيمة، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، ودعا له بخير: أي وأولى لك كلمة تهديد وتوعد.

ولما مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر ديار ثمود سَجِي ثوبه على رأسه واستحث راحلته، وقال: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم ياكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»، أي لأن البكاء يتبعه التفكير والاعتبار، فكأنه أمرهم بالتفكير في أحوال توجب البكاء من تقدير الله عز وجل على أولئك بالكفر، مع تمكينه لهم في الأرض، وإمهالهم مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهو سبحانه يقلب القلوب، فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته إلى مثل ذلك «ونهى الناس أن يشربوا من مائها شيئاً، وأن لا يتوضؤوا به للصلاة، وأن لا يعجن به عجين وأن لا يحاس به حيس، ولا يطبخ به طعام، وأن العجين الذي عجن به أو الحيس الذي فعل به يعلفونه الإبل، وأن الطبخ الذي طبخ به يلقي ولا يأكلوا منه شيئاً».

ثم ارتحل بالناس: أي لا زال سائراً حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، وأخبرهم أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة، أي وقال: من كان له بغير فليشد عقاله، ونهى الناس في تلك الليلة عن أن يخرج واحد منهم وحده بل معه صاحبه، فخرج شخص وحده لحاجته فخنق، وخرج آخر كذلك في طلب بغير له نذ فاحتمله الريح حتى ألقته بجبل طيب، فأخبر بذلك رسول الله، فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه، ثم دعا للذي خنق فشفى، والذي ألقته الريح بجبل طيب له حين قدم المدينة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي سيرة الحافظ الدميّاطي: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصلي بالناس. واستعمل على العسكر عباد بن بشر، فكان يطوف في أصحابه على العسكر. ثم أصبح الناس ولا ماء معهم: أي وحصل لهم من العطش ما كاد يقطع رقابهم، حتى حملهم ذلك على نحر إبلهم ليشقوا أكراشها ويشربوا ماءها.

فعن عمر رضي الله عنه: خرجنا في حرّ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى إن الرجل لينحر بغيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده. وفي لفظ: على صدره، فشكوا ذلك للنبي، أي قال له أبو بكر: يا رسول الله قد عودك الله من الدعاء خيراً فادع الله لنا، قال أحب ذلك؟ قال نعم، فدعا،

أي ورفع يديه فلم يرجعهما حتى أرسل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا ما يحتاجون إليه، قال: وذكر بعضهم أن تلك السحابة لم تتجاوز العسكر، وأن رجلاً من الأنصار قال لآخر متهم بالنفاق: ويحك قد ترى فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى: {وتجعلون رزقكم} أي بدل شكر رزقكم {أنكم تكذبون} أي حيث تنسوه للأنواء. وقيل إنه قال له: ويحك، هل بعد هذا شيء، قال: سحابة مائة انتهى.

وفي لفظ أنهم لما شكوا إليه شدة العطش. قال لعلي: لو استسقيت لكم فسقيتم قلت هذا بنوء كذا وكذا. فقالوا: يا نبي الله ما هذا بحين أنواء فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ ثم قام فصلى، فدعا الله تعالى، فهاجت ريح وثار سحاب فمطروا حتى سال كل واد، فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يغرف بقدحه، ويقول: هذا نوء فلان فنزلت الآية.

وضلت ناقته، فقال رجل من المنافقين الذين خرجوا معه ليس غرضهم إلا الغنيمة: إن محمداً يزعم أنه نبي، وأنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال: إن رجلاً يقول كذا وكذا، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها أنها في شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى أتوني بها، فذهبوا فوجدوها كذلك، فجاؤوا بها، أي وتقدم له نظير هذا في غزوة بني المصطلق التي هي المريسي، ولا بعد في تعدد الواقعة، ويحتمل أن يكون من خلط بعض الرواة.

ولما سمع بذلك بعض الصحابة جاء إلى رحله، فقال لمن به: والله لعجب في شيء حدثناه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مقالة قائل أخبره الله عنه وذكر المقالة. فقال له بعض من في رحله: هذه المقالة قالها فلان يعني شخصاً في رحله أيضاً قالها قبل أن تأتي بيسير، فقال: يا عباد الله في رحلي داهية وما أشعر: أي عدو الله اخرج من رحلي ولا تصحبنى فيقال: إنه تاب، ويقال إنه لم يزل منها بشر حتى هلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وتباطأ جمل أبي ذر رضي الله عنه لما به من الأعياء والتعب، فتخلف عن الجيش فأخذ متاعه وحمله علي ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً فأدركه نازلاً في بعض المنازل، أي وقبل مجيئه قالوا له: يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بغيره.

فقال: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

ولما أشرف على ذلك المنزل ونظره شخص يمشي، فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا ذر، فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده» وكان كما قال إنه يموت وحده. فقد مات رضي الله عنه وحده بالربذة لما أخرجه عثمان رضي الله عنه إليها.

أي فإنه بعد موت أبي بكر رضي الله عنه خرج من المدينة إلى الشام. فلما ولى عثمان رضي الله عنه شكاه معاوية رضي الله عنه إليه، فإنه كان يغلظ على معاوية في بعض أمور تقع منه، فاستدعاه عثمان رضي الله عنه من الشام ثم أسكنه الريدة، ولم يكن معه إلا امرأته وولده، فوصاهما عند موته أن يغسلاني وكفناني ثم اجعلاني على قارعة الطريق، فأول من يمرّ بكم قولاً له هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه، فلما مات رضي الله عنه فعلا به ذلك. وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق فوجدوا الجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤها فقام إليهم الغلام وقال: هذا أبو ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه، فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله، تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود خبره.

أي وفي الحقائق عن أم ذر قالت: لما حضرت أبا ذر الوفاة بكيت، فقال: ما يبكيك؟ قلت: وما لي لا أبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض ولا بد لنا من معين على دفنك، وليس معنا ثوب يسعك كفناً. فقال: لا تبكي وأبشري، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنفر أنا فيهم: ليموتنّ رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين وليس من أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية، وإني أنا الذي أموت بالفلاة، والله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبت. وفي رواية: ما كذبت ولا كذبت فانظري الطريق. فقالت: قد ذهب الحاج وتقطعت السبل. فقال: انظري، فقالت: كنت أشتد إلى الكتيب فأقوم عليه ثم أرجع إليه فأمرضه، فبينما أنا كذلك إذا أنا برجال على رواحلهم كأنهم الرخم فألحت بثوبي، فأسرعوا إليّ ووضعوا السياط في نحورها يستقبلون إليّ، فقالوا ما لك يا أمة الله؟ فقلت: امرؤ من المسلمين يموت تكفونه، قالوا: ومن هو؟ قلت أبو ذر. قالوا: صاحب رسول الله؟ قلت نعم، فأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه فسلموا عليه فرحب بهم. وقال: أبشروا فإنكم عصابة من المؤمنين وحدثهم الحديث، وقال: والله لو كان لي أو لها ما يسعني كفناً ما كفنت إلا فيه، وإني أنشدكم الله والإسلام لا يكفني منكم رجل كان أميراً ولا عريفاً ولا بربداً أو نقيباً، ولم يكن منهم أحد سلم من ذلك إلا فتى من الأنصار، فقال: والله لم أصب مما ذكرت شيئاً أن أكفك في ردائي هذا وثوبين معي من غزل أمي، فمات فكفنه الفتى الأنصاري ودفنه في النفر الذين معه. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

أقول: يحتاج إلى الجمع بين هذا وما تقدم. وقد يقال: لا ينافي ذلك ما تقدم عن ابن مسعود رضي الله عنه، لجواز أن يكون قدومه بعد أن كفن بكفن الأنصاري، ولا ينافي ذلك ما تقدم من قول الراوي: فلما مات فعلاً: أي زوجته وولده ذلك: أي غسله وتكفينه، ولا ينافي ذلك قول الغلام لابن مسعود ومن معه: أعينونا على دفنه. ولا ينافي ذلك قول الراوي هنا: ودفنه: أي الفتى الأنصاري في النفر الذين معه، لأن ذلك يقال إذا اشتركوا مع غيرهم في ذلك.

وأبو ذر رضي الله عنه اسمه جندب، وقيل اسمه سلمة بن جنادة. وكان من أوعية العلم المبرزين في الزهد والورع والقول بالحق. وقد قال في حقه: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» وكان رضي الله عنه من الأقدمين في الإسلام. قال ابن عبد البر: كان خامس رجل أسلم فليتأمل. وقال: «أبو ذر في أمتي شبيه عيسى ابن مريم في زهده» وبعضهم يرويه: «من ينظر إلى تواضع عيسى ابن مريم فلينظر إلى أبي ذر» وإلى وجود ما أخبر عن أبي ذر من أنه يموت وحده أشار الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تأييده بقوله:

وعاش أبو ذر كما قلت وحده

ومات وحيداً في بلاد بعيدة

قال: وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال: لما كنا فيما بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته بعد الفجر وتبعته بماء فأسفر الناس بصلاتهم التي هي صلاة الفجر فقدموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فصلى بهم، فانتهى بعد أن توضعاً ومسح خفيه لعبد الرحمن بن عوف وقد صلى ركعة، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن ركعة وقام ليأتي بالركعة الثانية، وقال لهم بعد فراغه: أحسنتم أو أصبتم، ثم قال: «لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته» اهـ. أي ولعل هذا لا ينافي ما تقدم.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق رضي الله عنه يصلي بالناس، وقوله: «لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح من أمته» يقتضي أنه لم يصل خلف الصديق في هذه الغزوة حيث يصلى بالعسكر فليتأمل.

أي وجاء أنه قال: «عبد الرحمن سيد من سادات المسلمين» ولا يخالف هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يصل النبي صلى الله عليه وسلم خلف أحد من أمته إلا خلف أبي بكر» أي في مرض موته، لأن المراد صلاة كاملة أو تكرر الصلاة هذا.

وفي الخصائص الصغرى: ومن خصائصه فيما حكى القاضي عياض رحمه الله أنه لا يجوز لأحد أن يؤمه لأنه لا يصح التقدم بين يديه في الصلاة ولا غيرها لا لعذر ولا لغيره.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وقد نهى الله المؤمنين عن ذلك، ولا يكون أحد شافعاً له وقد قال: «أئمتكم شفعاؤكم» ولذلك قال أبو بكر رضي الله عنه: «ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله» فليتأمل.

ولما نزلوا تبوك وجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده غرفة من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه فيها ففارت عينها حتى امتلأت.

قال: وعن حذيقة رضي الله عنه «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في الماء قلة أي ماء عين تبوك، أي وقد قال لهم: إنكم لتأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تنالوها حتى يضح النهار فمن جاءها فلا يمسه من مائها شيئاً حتى آتي، وأمر منادياً ينادي بذلك فجئناها فإذا العين مثل الشراك تبض من مائها، وقد سبق إليها رجلان: أي من المنافقين ومسا من مائها فسبقهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغه ذلك» وفي رواية: «سبق إليها أربعة من المنافقين، ثم إنهم عرفوا من تلك العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع شيء في شن فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وبديه ومضمض ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير» وفي رواية: «فجعلوا فيها سهاماً دفعها لهم، فجاشت بالماء» وإلى ذلك أشار الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تأنيته بقوله:

فيوماً بوقع النبل جئت بشربهم

ويوماً بوقع الوبل جدت بسقية

وحينئذ أي وحين إذ ثبت أنه جعل السهام في عين تبوك يسقط الاعتراض بأن وقع النبل لم يكن بتبوك وإنما كان بالحديبية على أن الذي بالحديبية إنما هو غرز سهم واحد لا سهم فليتأمل.

ثم قال لمعاذ: «يا معاذ يوشك إن طالبت بك حياة أن ترى ما هنا ملىء جناناً» أي بساتين، وذكر ابن عبد البر رحمه الله عن بعضهم. قال: أنا رأيت ذلك الموضوع كله حوالي تلك العين جناناً خضرة نضرة.

وقبل قدومهم تبوك بليلة نام رسول الله ، فلم يستيقظ حتى كادت الشمس قيد رمح، أي وقد كان قال لبلال: اكلأ لنا الفجر فاسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه قال: ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر؟ وفي رواية أن بلالاً رضي الله عنه قال لهم ناموا وأنا أوقظكم: فاضطجعوا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بلال أين ما قلت؟ قال: يا رسول الله ذهب بي مثل الذي ذهب بك، أي وفي لفظ: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، وقال للصديق: إن الشيطان صار يهدىء بلالاً للنوم كما يهدىء الصبي حتى ينام، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً وسأله عن سبب نومه، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما أخبر به النبي الصديق، فقال الصديق للنبي: أشهد أنك رسول الله، فانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من منزله غير بعيد. ثم صلى وتقدم في خيبر: أي في غزوة وادي القرى، فإنها كانت عند منصرفه من خيبر، الخلاف في أي غزوة كان وسار مسرعاً بقية يومه وليلته فأصبح بتبوك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي منصرفه من تبوك قال أبو قتادة رضي الله عنه: «بيننا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قافل من تبوك وأنا معه، إذ خفق خفقة وهو على راحلته فمال على شقه، فدنوت منه فدعمته، فانتبه فقال: من هذا؟ فقلت أبو قتادة يا رسول الله، خفت أن تسقط فدعمتك، فقال: حفظك الله كما حفظت رسوله ثم سار غير كثير ثم فعل مثلها فدعمته، فانتبه، فقال: يا أبا قتادة هل لك في التعريس؟ فقلت: ما شئت يا رسول الله، فقال انظر من خلفك، فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال: ادعهم، فقلت أجيئوا رسول الله ، فجاؤوا فعرسنا».

وفي رواية قال أبو قتادة رضي الله عنه: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير حتى ابهار الليل وأنا إلى جنبه فنعس فمال عن راحلته، فأثبته فدعمته من غير أن أوقفه حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى تهور الليل مال عن راحلته، فدعمته حتى اعتدل على راحلته ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلاً هي أشد من الميلتين الأولتين حتى كاد يسقط، فأثبته فدعمته فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قلت: أبو قتادة، قال: متى كان هذا مسيرك مني؟ قلت: ما زال هذا مسيري منذ الليلة، قال: حفظك الله كما حفظت نبيه» وهذا تقدم في منصرفه من خيبر، ولا مانع من التعدد. ويحتمل أن هذا خلط وقع من بعض الرواة فليتأمل، ثم قال: هل ترى من أحد: يعني من الجيش؟ قلت: هذا راكب، ثم قلت هذا راكب آخر حتى اجتمعنا وكنا سبعة. وفي رواية خمسة برسول الله، فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطريق، ثم قال: احفظوا علينا صلاتنا، وكان أول من استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس في ظهره، فقمنا فزعين. ثم قال: اركبوا، فركبنا، فسرنا حتى ارتفعت الشمس: ثم دعا بميضة كانت معي فيها شيء من ماء، فتوضأ منها وبقي فيها شيء، وفي رواية: جرعة من ماء، ثم قال لي: احفظ علينا ميضاتك، وفي رواية: ازدهر بها يا أبا قتادة فسيكون لها نياً» الحديث. وفي رواية: «ما أيقظنا إلا حر الشمس، فقلنا: إنا لله فاتنا الصبح، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنغيظن الشيطان كما غاظنا، فتوضأ من الإداوة التي هي الميضة، ففضل فضل، فقال يا أبا قتادة احتفظ بما في الإداوة، واحتفظ بالركوة فإن لهما شأناً فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر بعد طلوع الشمس. وفي لفظ إن عمر رضي الله عنه هو الذي أيقظ النبي صلى الله عليه وسلم بالتكبير.

أقول: ظاهر هذه الرواية أنهم صلوا بمحلهم ولم ينتقلوا. وفي رواية قال لهم: تحلوا عن مكانكم الذي أصابتكم فيه الغفلة. وفي لفظ: ارتحلوا، فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «كنا في سفر مع النبي، وإنا أسرينا حتى كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حر الشمس، وكان إذا نام لم نوقفه حتى يكون هو يستيقظ، لأننا لا ندري ما يحدث له في نومه: أي من الوحي، فكانوا يخافون من إيقاظه قطع الوحي» كما تقدم في غزوة بني المصطلق «فلما استيقظ عمر رضي الله عنه ورأى ما أصاب الناس: أي من فوات صلاة الصبح كبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ النبي». وفي رواية: «إن الصديق رضي الله عنه استيقظ أولاً ثم لا زال يسبح ويكبر حتى استيقظ عمر، ولا زال يكبر حتى استيقظ رسول الله، فلما استيقظ شكوا إليه الذي أصابهم: أي من فوات صلاة الصبح، قال: لا ضير، ارتحلوا، فارتحلوا فسار غير بعيد ثم نزل، فدعا بالوضوء فتوضأ ونودي بالصلاة فصلى بالناس» وهذا كما نرى فيه التصريح بأن هاتين اليقظتين وقعتا في غزوة تبوك،

الأولى عند ذهابهم لها، والثانية عند منصرفهم منها. وفي دلائل النبوة للبيهقي عن بعض الصحابة: «وبعد أن صلينا وركبنا جعل بعضنا يهمس إلى بعض: ما كفارة ما صنعنا بتفريطنا في صلاتنا؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا الذي تهمسون دوني؟ فقلنا: يا رسول الله بتفريطنا في صلاتنا، قال: أما لكم في أسوة حسنة؟ ثم قال: ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصبح حتى يجيء وقت الأخرى».

وفي فتح الباري: اختلف في تعيين هذا السفر. ففي مسلم أنه كان في رجوعهم من خيبر قريب من هذه القصة. وفي أبي داود: «أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من الحديبية ليلاً، فنزل فقال: من يكلؤنا؟ فقال بلال أنا» الحديث. وفي مصنف عبد الرزاق أن ذلك كان بطريق تبوك. وقد اختلف العلماء هل كان ذلك: أي نومهم عن صلاة الصبح مرة أو أكثر؟ فجزم الأصيلي رحمه الله بأن القصة واحدة. وتعقبه القاضي عياض رحمه الله بأن قصة أبي قتادة مغايرة لقصة عمران بن حصين. ومما يدل على تعدد القصة اختلاف مواطنها. وفي الطبراني قصة شبيهة بقصة عمران وأن الذي كلاً لهم الفجر ذو مخبر، قال ذو مخبر: فما أيقظني إلا حر الشمس، فجئت أدنى القوم فأيقظته وأيقظ الناس بعضهم بعضاً حتى استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فليتأمل، وتقدم عن الإمتاع قال عطاء بن يسار: إن ذلك كان بتبوك، وهذا لا يصح، وإلا فالأثار الصحاح على خلاف قوله مسندة ثابتة، والله أعلم. واستشكل ذلك بقوله: «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» وقوله لعائشة وقد قالت له «أتنام قبل أن توتر؟ قال: تنام عيني ولا ينام قلبي». رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99 وأجيب عنه بأجوبة أحسنها أن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ولا يدرك ما يتعلق بالعين كرؤية الشمس وطلوع الفجر. ومن الأجوبة أنه كان له نومان: نوم تنام فيه عينه وقلبه، ونوم تنام فيه عينه فقط. وينبغي أن يكون هذا الثاني أغلب أحواله وإن كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثله في ذلك، ويكون قوله: «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا» أي غالباً. ويكون هذا حاله دائماً وأبداً إذا كان متوضئاً، لقولهم: إنه لا يُنقض وضوؤه بالنوم، وفي جعله العين محلاً للنوم نظر، لأن العين إنما هي محل السينة، ومحل النعاس الرأس، ومحل النوم القلب.

قال الحافظ السيوطي: وكون القلب محلاً للنوم دون العين لا يشكك عليه قوله: «تنام عيني ولا ينام قلبي»، لأنه من باب المشاكلة، وفيه بحث هذا كلامه.

واستشكل قوله: «ارتحلوا فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان» وفي لفظ: «ارتحلوا، فإن هذا واد به شيطان» بأنه يقتضي تسلط الشيطان على النبي، لأن الظاهر أن وجود الشيطان هو السبب في النوم عن الصلاة. وأجيب بأنه على تسليم ذلك، فإن تسليطه إنما كان على من كان يحفظ الفجر

بلال أو غيره. ففي بعض الروايات كما تقدم: «إن الشيطان أتى بلالا فلم يزل يهدئه كما يهدأ الصبي حتى نام». ثم لحق بالجيش، وقبل لحوقه بهم قال لأصحابه ما ترون الناس: يعني الجيش فعلوا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا، وذلك أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما أرادا أن ينزلا بالجيش على الماء فأبوا ذلك عليهما فنزلا على الماء فأبوا ذلك عليهما، فنزلا على غير ماء بفلاة من الأرض لا مار بها عند زوال الشمس وقد كادت أعناق الخيل والركاب تقطع عطشاً فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أين صاحب الميضة؟ قيل هو ذا يا رسول الله. قال: جئني بميضاؤك فجاءه بها وفيها شيء من ماء، وفي رواية: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالركوة فأفرغ ما في الإداوة فيها ووضع أصابعه الشريفة عليها فنيح الماء من بين أصابعه، وأقبل الناس فاستقوا، وفاض الماء حتى رووا ورووا خيلهم وركابهم، وكان في العسكر من الخيل اثنا عشر ألف فرس أي على ما تقدم، ومن الإبل خمسة عشر ألف بعير، والناس ثلاثون ألفاً، وقيل سبعون ألفاً. وواضح أن هذه العطشة غير المتقدمة التي دعا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل المطر.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي كلام بعضهم أنه لما حصل للقوم العطش أرسل نفرًا، ويقال علياً والزبير يستعرضون الطريق، وأعلمهم أن عجوزاً تمر بهم في محل كذا على ناقة معها سقاء ماء، فقال لهم: اشتروا منها بما عرّ وهان، واثتوا بها مع الماء، فلما بلغوا المكان إذا بالمرأة ومعها السقاء. وفي رواية: إذا نحن بامرأة سادلة رجلها بين مزادتين، فسألوها في الماء، فقالت: أنا وأهلي أحوج إليه منكم، فسألوها أن تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الماء، فأبت وقالت: من هو رسول الله؟ لعله الساحر. وفي رواية الذي يقال له الصابىء وخير الأنبياء أني لا أتبه، فشدها وثاقاً وأتوا بها إلى رسول الله، فقال لهم: خلوا عنها. وفي رواية: قلنا لها أين الماء؟ قالت: أهاه أهاه لا حالكم، بينكم وبين الماء مسيرة يوم وليلة، ثم قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتأذنين لنا في الماء، ولتصين ماءك كما جئت به؟ فقالت: شأنكم، فقال لأبي قتادة: هات الميضة، فقربت إليه، فحل السقاء وتفل فيه وصب في الميضة ماء قليلاً، ثم وضع يده الشريفة فيه ثم قال: ادنوا فخذوا، فجعل الماء يفور ويزيد والناس يأخذون حتى ما تركوا معهم إناء إلا ملؤوه، ورووا إبلهم وخيلهم، وبقي في الميضة ثلثاها. والميضة هي الإداوة لأنه يتوضأ منها. وفي الدلائل للبيهقي: فجعل في إناء من مزادتيها، ثم قال فيه ما شاء الله أن يقول. زاد في رواية: ثم مضمض، ثم رد الماء في المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالي، ثم أمر الناس أن يملؤوا آتيتهم وأسقيتهم، ثم قال لها: تعلمي والله ما رزأنا من مائك شيئاً، ولكن الله عز وجل هو الذي سقانا، والعزالي: جمع عزلاء، والعزلاء: هي التي تجعل في فم القربة لينزل فيها الماء من الراوية وهي المرادة بالمزادة، وهذا السياق يدل على أن هذه عطشة ثالثة، لأن الثانية وضع يده في الركوة التي صب فيها من الميضة، وهذه وضع يده في الميضة بعد أن لم يجدوا في الميضة شيئاً.

وفي رواية أن تلك المرأة أخبرته أنها مؤتمة: أي لها صبيان أيتام، فقال: هاتوا ما عندكم فجمعنا لها من كسر وتمر وصرتها صرة، ثم قال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك.

وفي رواية أيتامك، وصارت تعجب مما رأت. ولما قدمت على أهلها قالوا لها: لقد احتبست علينا، قالت: حبسني أني رأيت عجباً من العجب، أرايتم مزادتي هاتين؟ فوالله لقد شرب منهما قريب من سبعين بغيراً، وأخذوا من القرب والمزاد والمطاهر ما لا أحصي، ثم هما الآن أوفر منهما يومئذ، فليثت شهراً عند أهلها ثم أقبلت في ثلاثين راكباً على رسول الله، فأسلمت وأسلموا.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي مسلم: «لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة بحيث صارت تمص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادّهنّا، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله إن فعلت فني الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها في ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، فدعا بنطع فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتي بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف من تمر، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة، ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة» وفي رواية: «إلا وقاه الله النار» وتقدم نظير ذلك في الرجوع من غزوة الحديبية، أي ولا مانع من التعدد أو هو من خلط بعض الرواة، ولعل هذا كان بعد أن ذبح لهم طلحة بن عبيد الله جزوراً فأطعمهم وأسقاهم فقال له رسول الله «أنت طلحة الفياض» وسماه يوم أحد «طلحة الخير» ويوم حنين «طلحة الجود» لكثرة إنفاقه على العسكر رضي الله عنهم.

وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم، قال: «كنت في غزوة تبوك على نحي السمن، فنظرت إلى النحي وقد قل ما فيه، وهيات للنبي طعاماً ووضعت النحي في الشمس ونمت، فانتبهت بخير النحي، فقممت فأخذت رأسه بيدي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى: لو تركته لسال الوادي سمناً».

وعن العرياض بن سارية رضي الله عنه، قال: «كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك، فقال ليلة ليلال: هل من عشاء؟ فقال: والذي بعثك بالحق لقد نفضنا جربنا» فقال: انظر عسي أن تجد شيئاً، فأخذ الجرب يفضها جراباً جراباً، فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت في يده سبع تمرات، ثم دعا بصحفة فوضع التمر فيها ثم وضع يده الشريفة على التمرات، وقال: كلوا بسم الله، فأكلنا ثلاثة أنفس، وأحصيت أربعاً وخمسين ثمرة أعدّها عدّاً ونواها في يدي الأخرى وصاحباي يصنعان كذلك، فشبعنا ورفعنا أيدينا فإذا التمرات السبع كما

هي، فقال: يا بلال ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعاً، فلما كان من الغد دعا بلالاً بالتمرات، فوضع يده الشريفة عليهنّ، ثم قال: كلوا بسم الله، فأكلنا حتى شبعنا وأنا لعشرة ثم رفعنا أيدينا وإذا بالتمرات كما هي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا أن أستحي من ربي لأكلنا من هذه التمرات حتى نردّ إلى المدينة من آخرنا، فأعطاهنّ غلاماً فولى وهو يلوكهنّ».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وأناه وهو بتبوك يُحنة بضم المثناة تحت وفتح الحاء المهملة ثم نون مشددة مفتوحة ثم تاء التانيث ابن رؤية بالموحدة صاحب أيلة وصحبته أهل جرباء تانيث أجرب يمد ويقصر: قرية بالشام، وأهل أذرح بالذال المعجمة والراء المهملة المضمومة والحاء المهملة، مدينة تلقاء السراة، وأهل ميناء، وأهدى يحنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بركة، فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على إعطاء الجزية، أي بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم.

وكتب له ولأهل أيلة كتاباً صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بي رؤية وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يجوز ماله دون نفسه، وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر».

وكتب لأهل أذرح وجرباء ما صورته: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي، لأهل أذرح وجرباء أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد وأن عليهم مائة دينار في كل رجب، وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين وصالح أهل ميناء على ربح ثمارهم».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأيت ونحن بتبوك شعلة من نار في ناحية العسكِر» أي ضوء شمعة كما صرح به الجلال السيوطي رحمه الله حيث أجاب من سأله هل الشمع كان موجوداً قبل البعثة وهل وقد عنده بأنه كان موجوداً قبل البعثة؟ فقد ذكر العسكِر رحمه الله في الأوائل أن أول من أوقده جزيمة الأبرش، أي وقد تقدم وهو قبل البعثة بدهر، وورد في حديث «أنه أوقد للنبي عند دفنه عبد الله ذا البجادين» قال: وقد ألفت في المسألة تأليفاً سميته (مسامرة السموع في ضوء الشموع) قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «فاتبعها أنظر إليها، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة وأبو بكر وعمر يدلّيانه، وهو يقول: أدليا إليّ أخاكما، فأدلياها إليه، فلما هياه لشقه قال: اللهم قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه» يقول ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة: أي والبيجاد بموحدة ككتاب: الكساء المخطط الغليظ، أنه لم يكن لعبد الله المذكور إلا بجاد واحد، فشقه نصفين فاتزر بواحد وارتدى بالآخر وقدم المدينة وأسلم،

وقرأ قرآنًا كثيرًا، وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله عبد الله.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

«ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك خرج معه وقال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة، فقال: ائتني بلحاء شجرة» أي بقشرها «فأتاه بذلك فربطه على عضده وقال: اللهم حرم دمه على الكفار، قال: يا رسول الله ليس هذا ما أردت، قال إنك إذا أخذت الحمى فقتلتك فأنت شهيد، فأخذته الحمى بعد الإقامة بتبوك أياماً ومات بها» أي وهذا هو المشهور.

وروي عن الأدرع الأسلمي وكان في حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، جئت ليلة أحرس رسول الله ، فإذا رجل ميت، فقيل: هذا عبد الله ذو البجادين، توفي بالمدينة، وفرغوا من جهازه وحملوه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارفقوا به رفق الله بكم، فإنه كان يحب الله ورسوله، قال ابن الأثير: وهذا حديث غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه وتقدم.
وعن الحافظ السيوطي رحمه الله: لما ذكر أنه أوقد للنبي الشمع عند دفنه عبد الله ذا البجادين قال: وقد دل ذلك على إباحة استعماله أي الشمع ولا يعد استعماله إسرافاً مع قيام غيره من الأدهان مقامه.
وأقام بتبوك بضع عشرة ليلة، وفي سيرة الحافظ الدمياطي عشرين ليلة يصلي ركعتين ولم يجاوز تبوك، ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن ذلك على تقدير صحته.

قال: وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في مجاوزتها، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه، فقال يا رسول الله إن للروم جموعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام وقد دنونا، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعنا هذه السنة حتى نرى أو يحدث الله أمراً، وهذا تصريح بأن تبوك لم يقع بها مقاتلة ولا حصل فيها غنيمية، وبه يرد ما ذكره الزمخشري في فضائل العشرة أنه جلس في المسجد يقسم غنائم تبوك، فدفع لكل واحد سهماً، ودفع لعلي كرم الله وجهه سهمين، فقام زائدة بن الأكوع وقال: يا رسول الله أوحى نزل من السماء أم أمر من نفسك؟ فقال: أنشدكم الله هل رأيتم في ميمنتكم صاحب الفرس الأغر المحجل والعمامة الخضراء بها ذؤابتان مرخاتين على كتفيه بيده حربة قد حمل بها على الميمنة فأزأها؟ قالوا نعم، قال: هو جبريل عليه الصلاة والسلام وإنه أمرني أن أدفع سهمه لعلي، فقال زائدة: حبذا سهم مسهم، وخطب خطبة فيها: «أما بعد، فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، والنساء حباله الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، والسعيد من وعظ بغيره، ومن يغفر يغفر له، ومن يعف الله عنه، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، أستغفر الله لي ولكم».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وأهدى له بعض أهل الكتاب جبة فدعا بالسكين فسمى الله وقطع وأكل، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة وكان في الطريق ماءً يخرج من وشل قليل جداً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه، فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف عليه، فلم يجد فيه شيئاً، فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقبل له فلان وفلان وفلان، فقال أو لم أنهمم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتية، ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فصار يصب في يده ما شاء الله أن يصب ثم نضحه ومسح بيده ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما شاء أن يدعو به فانخرق من الماء وكان له حس كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن بقيتم أو بقي منكم أحد لتسمعن بهذا الوادي وقد أخصب ما بين يديه وما خلفه. أي وهذا خلاف عين تبوك الذي تقدم له فيها ما يشبه هذا، وقوله لمعاذ: «يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ههنا ملء جناناً» إلى آخره، لأن تلك العين كانت بتبوك، وهذا عند منصرفه من تبوك.

قال: واجتمع رأي من كان معه من المنافقين وهم اثنا عشر رجلاً وقيل أربعة عشر، وقيل خمسة عشر رجلاً على أن ينكثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة التي بين تبوك والمدينة، فقالوا: إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي فأخبر الله تعالى رسوله بذلك، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد واسلكوا بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادي، وسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة، فلما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا، وسلكوا العقبة، وأمر عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما أن يسوق من خلفه. وفي الدلائل عن حذيفة قال: «كنت ليلة العقبة أخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به وعمار بن ياسر يسوقه أو أنا أسوقه وعمار يقوده» أي يتناوبان ذلك «فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه، فنفرت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط بعض متاعه، فغضب رسول الله ، وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه محجن، فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال: إليكم إليكم يا أعداء الله فإذا هو بقوم ملثمين» وفي رواية: «أنه صرخ بهم فولوا مدبرين، فعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع على مكرهم به، فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي واختلطوا بالناس، فرجع حذيفة يضرب الناقة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: لا، كان القوم ملثمين والليل مظلمة».

وعن حمزة بن عمرو الأسلمي رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول: «لما سقط متاع النبي صلى الله عليه وسلم وأردت جمعه نور لي في أصابعي الخمس فأضأت حتى جمعت ما سقط حتى ما بقي من المتاع شيء» وفي لفظ: «أن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: عرفت راحلة فلان وراحلة فلان، قال: هل علمت ما كان من شأنهم، وما أرادوه؟ قال لا: قال: إنهم مكروا ليسيروا معي في العقبة فيزحموني فيطرحوني منها، إن الله أخبرني بهم وبمكرهم وسأخبركما بهم واكتماهم، فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء إليه أسيد بن حضير؟ فقال يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادي، فقد كان أسهل من سلوك العقبة؟ فقال: أتدري ما أراد المنافقون وذكر له القصة، فقال: يا رسول الله قد نزل الناس واجتمعوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذي هم بهذا، فإن أحببت بين بأسمائهم، والذي بعثك بالحق لا أبرح حتى أتيك برؤوسهم، فقال: إني أكره أن يقول الناس إن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم، فقال: يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أليس يظهرن الشهادة، ثم جمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبرهم بما قالوه وما أجمعوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي ذكر، فأنزل الله تعالى: {يحلِفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر} الآية، وأنزل الله تعالى: {وهموا بما لم ينالوا} ودعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهم ارمهم بالدبيلة» وهي سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من صدورهم انتهى. أي وفي لفظ: «شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلكه».

وفي الامتاع أن النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتبوك صلى إلى نخلة فجاء شخص فمر بينه وبين تلك النخلة بنفسه، وفي رواية وهو على حمار، فدعا عليه فقال: قطع صلاتنا قطع الله أثره فصار مقعداً، وكان يقال لحذيفة رضي الله تعالى عنه صاحب سر رسول الله، قال حذيفة: نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن راحلته، فأوحى إليه وراحلته باركة فقامت تجر زمامها، فلقيتها فأخذت بزمامها وجئت إلى قرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنختها، ثم جلست عندها حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته بها، فقال: من هذا؟ قلت، حذيفة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إني مسر إليك سرّاً فلا تذكره، إني نهيت أن أصلي على فلان وفلان، وعد جماعة من المنافقين، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة رضي الله عنه فقاده إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه عمر رضي الله تعالى عنه وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وقال للمسلمين عند انصرافه: إن بالمدينة لأقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال نعم حسبهم العذر، ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان محل بينه

وبين المدينة ساعة من نهار، أي وقال البكري: أظن أن الرء سقطت من بين
الهمزة والواو: أي أروان، منسوب إلى البئر المشهورة.

وحين نزل أتاه خبر مسجد الضرار، فأنزل الله تعالى: {والذين اتخذوا مسجداً
ضراراً} الآية: أي لإضرار أهل قباء، أي فإن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد
قباة حسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا نصلي في مريبط حمار، لا، لعمر
الله أي لأنه كان لامرأة كانت تربط فيه حمارها، ولكننا نبني مسجداً ونرسل
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه ويصلي فيه أبو عامر الراهب
إذا قدم من الشام، فثبت لنا الفضل والزيادة على إخواننا وكان المسلمون في
تلك الناحية كلهم يصلي في مسجد قباة جماعة، فلما بني هذا المسجد فصرف
عن مسجد قباة جماعة وصلوا بذلك المسجد، فكان به تفريق للمؤمنين، فكانوا
يجمعون فيه ويعيرون النبي صلى الله عليه وسلم ويستهزئون به، أي ويقال إن
أبا عامر الراهب الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم فاسقاً هو الأمر لهم
ببنائه، فقال لهم: ابنوا لي مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فإني
ذاهب إلى قيصر ملك الروم فأتي بجند من الروم، فأخرج محمداً وأصحابه من
المدينة، وإنهم لما فرغوا من بنائهم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن
يأتيهم ويصلي فيه كما صلى في مسجد قباة، فهم أن يأتيهم، فأنزل الله تعالى
الآية.

وفي رواية أتوه وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله قد بنينا مسجداً
لذي العلة والحاجة والليله المطيرة، والليله الشاتية، وإننا نحب أن تأتينا فتصلي
لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، قال: إني علي جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن
شاء الله تعالى لأتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما قفل من السفر وسأله إتيان
المسجد جاءه الخبر من السماء فأمر جماعة منهم وحشي قاتل حمزة رضي
الله تعالى عنهم وقال لهم: انطلقوا إلى المسجد الظالم أهله فأحرقوه
واهدموه على أصحابه، ففعل به ذلك، قال: وكان ذلك بين المغرب والعشاء،
ووصل الهدم إلى الأرض، وأعطاه لثابت بن أرقم رضي الله تعالى عنه يجعله
بيتاً، فلم يولد في ذلك البيت مولود قط، وحفر فيه بقعة فخرج منها الدخان،
ولعل هذا أي جعله بيتاً كان بعد أن أمر أن يتخذة محلاً للإلقاء الكناسة والجيفة.
وفي الكشاف أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلم بنو
عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في
خلافته أن يأذن لجمع بن حارثة أن يؤمهم في مسجدهم، فقال: لا ولا نعمة،
أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل علي فوالله لقد
صليت بهم والله يعلم إني لا أعلم ما أضمروا فيه ولو علمت ما صليت معهم
فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً
فعدره وصدقه، وأمره بالصلاة بهم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

ولما أشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة قال: هذه طابة
أسكنيها ربي، تنفي خبث أهلها كما ينفي الكبر خبث الحديد.

ولما رأى جبل أحد قال: «هذا أحد جبل يحبنا ونحبه» وتقدم ما في ذلك في غزوة أحد، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة تلقاه النساء والصبيان يقلن: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع وجب الشكر علينا ما دعا لله داع»

قال البيهقي رحمه الله: وهذا يذكره علماؤنا عند مقدمه المدينة من مكة لا أنه عند مقدمه المدينة من تبوك، هذا كلامه، ولا مانع من تعدد ذلك. ولما دنا من المدينة تلقاه عامة الذين تخلفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: لا تكلموا رجلاً منهم، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم، فأعرض عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون، حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه انتهى.

أي وعن فضالة بن عبيد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما غزا غزوة تبوك جهد الظهر جهداً شديداً حتى صاروا يسوقونه، فشكوا إليه ذلك وراهم يسوقونه، فوقف في مضيق والناس يمرون فيه فنفخ في الظهر، وقال: اللهم احمل عليها في سبيلك فإنك تحمل على القوي والضعيف والرطب واليابس في البر والبحر، فزال ما بها من الإعياء، وما دخلنا إلا وهي تنازعنا أزمتهما. وجاء: «أن حية عارضتهم في الطريق عظيمة الخلق، فانحاز الناس عنها، فأقبلت حتى وقفت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحته طويلاً والناس ينظرون إليها، ثم التوت حتى اعتزلت الطريق فقامت قائمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تدرن من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا أحد الرهط الثمانية من الجن الذين وفدوا إليّ يستمعون القرآن أي بنخلة عند منصرفه من الطائف، وتقدم الكلام عليه فرأى عليه من الحق حين ألم رسول الله صلى الله عليه وسلم ببلده أن يسلم عليه، وها هو يقرئكم السلام فقال الناس: وعليه السلام ورحمة الله.»

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وقد كان تخلف عنه، رهط من المنافقين وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، وتخلف عنه أيضاً كعب بن مالك وكان من الخزرج ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا من الأوس، فأما المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتذرون فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم، ووكل سرائرهم إلى الله، واستغفر لهم، وأما الثلاثة، فعن كعب بن مالك الخزرجي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «لما جئته وسلمت عليه تبسم تبسم المغضب وقال لي تعال، فجئت حتى جلست بين يديه، فقال: ما خلفك؟ فصدفته، وقلت: والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك» وفي رواية: «قلت: يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى

به عني ليوشكن الله أن يسخط عليّ فيه، ولئن حدثتكَ حديث صدق تجد عليّ فيه، إنني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، وقال الرجلان الآخران وهما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية وكانا ممن شهد بدرا وهما من الأوس مثل قول كعب، فقال لهما مثل ما قال لكعب، ونهى المسلمين عن كلامهم، فاجتنبهم الناس، فأما الرجلان فمكثا في بيوتهما يبكيان، وأما كعب فكان يشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف بالأسواق فلا يكلمه أحد منهم، قال: ولما طال ذلك عليّ من جفوة الناس تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه، والله ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله، فسكت فعدت إليه فنشدته، فسكت فعدت إليه فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدلني على كعب بن مالك، فطفق: أي جعل الناس يشيرون له

حتى إذا جاءني دفع إليّ كتاباً من ملك غسان أي وهو الحارث بن أبي شمر أو جبلة بن الأيهم، وكان الكتاب ملفوفاً في قطعة من الحرير، فإذا فيه: أما بعد فانه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضیعة، فالحق بنا نوايبك، فقلت لما قرأته: وهذا أيضاً من البلاء، فيممت أي قصدت به التنوير فسجرت به: أي ألقيته فيها: أي والأنباط قوم يسكنون البطائح بين العراقيين: قال حتى إذا مضت أربعون ليلة جاءني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلقها أم ماذا؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلي صاحبتي: أي وهما هلال بن أمية ومرارة بن الربيع بمثل ذلك، فقلت لامرأتي الحقى بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: لا ولكن لا يقربك، قالت: والله إنه ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعض أهلي. قال في النور: الظاهر أن القائل له امرأة لأن النساء لم يدخلن في النهي لأن في الحديث «ونهى المسلمين» وهذا الخطاب لا يدخل فيه النساء فدل على أن المراد الرجال، قالت: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله، وما يدريني ما يقول لي رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، ثم مضى بعد ذلك عشر ليال حتى كملت خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا، فلما كان صلاة الفجر صبح تلك الليلة سمعت صوتاً فوق جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، فخررت ساجداً. وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أذن، أي أعلم بتوبة الله علينا، فلما جاءني الرجل الذي سمعت

صوته يبشرني أي وهو حمزة بن عمرو الأوسي نزعته له ثوبي فكسوته إياهما
ببشراه، والله لا أملك غيرهما يومئذ: واستعرت أي من أبي قتادة رضي الله
عنه ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقتني
الناس فوجاً فوجاً: أي جماعة جماعة يهنتوني بالتوبة، يقولون: ليهنئك توبة الله
عليك حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله
الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام
إليّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة: أي لأنه كان آخى بينهما حين
قدم المدينة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال وهو يبرق وجهه من السرور، وكان إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر،
فلما جلست بين يديه قال: أبشر بخير يوم يمر عليك منذ ولدتك أمك، قلت:
أمن عندك يا رسول الله أم عند الله عز وجل؟ قال: لا بل من عند الله، فقلت:
يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، أي
وكان المبشر لهلال بن أمية أسعد بن أسد، وكان المبشر لمرارة بن الربيع
سلطان بن سلامة أو سلامة بن وقش.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

أي وفي البخاري عن كعب رضي الله عنه: «فأنزل الله توبتنا على نبيه حين
بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم
سلمة، وكانت أم سلمة رضي الله عنها محسنة في شأني معينة في أمري،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أم سلمة تيب على كعب، قالت: أفلا
أرسل إليه فأبشره، قال: إذن يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليل،
حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر أعلم بتوبة الله
علينا وأنزل الله تعالى: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين
اتبعوه في ساعة العسرة} إلى قوله: {وكونوا مع الصادقين} وقال في حق
من اعتذر له: {سيحلفون بالله لكم} إلى قوله: {فإن الله لا يرضى عن القوم
الفاسقين}.

واستشكل نزول الوحي بالقرآن في بيت أم سلمة بقوله في حق عائشة رضي
الله عنها: «ما نزل عليّ الوحي في فراش امرأة غيرها» وأجاب بعضهم بأنه
يجوز أن يكون ما تقدم في حق عائشة كان قبل هذه القصة، أو أن الذي خصت
به عائشة رضي الله تعالى عنها نزول الوحي في خصوص الفراش لا في
البيت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {وآخرون اعترفوا
بذنوبهم} الآية، قال: كانوا عشرة أبو لبابة وأصحابه، تخلفوا عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فلما رجع أوثق سبعة منهم أنفسهم
بسواري المسجد منهم أبو لبابة، فلما مر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال: من هؤلاء؟ قالوا: أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك حتى تطلقهم
وتعذرهم، قال: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي

يطلقهم، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا، فأنزل الله تعالى: {وأخرون اعترفوا بذنوبهم} الآية، فعند ذلك أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم، فجاؤوا بأموالهم وقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال: ما أمرت أن أخذ أموالكم، فأنزل الله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم} إلى قوله: {وأخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم} وهم الذين لم يربطوا أنفسهم بالسواري، وتقدم أن أبا لباة رضي الله عنه ربط نفسه ببعض سواري المسجد في قصة بني قريظة، وعلى هذا فقد تكرر منه ربط نفسه، وقد ذكره ابن إسحاق فليتأمل ذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

ولما قدم من تبوك وجد عويمراً العجلاني رضي الله عنه امرأته حبلى، أي وهي خولة بنت عمه قيس، فلاعن بينهما أي في المسجد بعد العصر وكان قد قذفها بشريك بن سمحاء ابن عمه وقال: وجدته على بطنها، وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عويمراً وقال له: اتق الله في زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان، فقال: يا رسول الله أقسم بالله إني رأيت شريكاً على بطنها وإني ما قربتها منذ أربعة أشهر، ودعا بالمرأة التي هي خولة وقال لها: اتقي الله ولا تخبريني إلا بما صنعت، فقالت: يا رسول الله إن عويمراً رجل غيور، وأنه يأتي وشريكاً يطيل السهر ويتحدث، حملته الغيرة، على أن قال ما قال، فدعا شريكاً وقال له: ما تقول؟ فقال مثل قول المرأة فأنزل الله تعالى: {والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهاد إلا أنفسهم} الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينادى بالصلاة جامعة، فلما صلي العصر أي وقد نودي بذلك واجتمع الناس، قال لعويمر: قم، فقام وقال: أشهد بالله إن خولة لزانية، وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثانية: أشهد بالله إني رأيت شريكاً على بطنها، وإني لمن الصادقين، ثم قال في الثالثة: أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإني لمن الصادقين، ثم قال في الرابعة: أشهد بالله إني ما قربتها منذ أربعة أشهر وإني لمن الصادقين، ثم قال في الخامسة: لعنة الله على عويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين، ثم أمره بالعود، وقال لخولة: قومي، فقامت فقالت: أشهد بالله ما أنا زانية، وإن عويمراً لمن الكاذبين، ثم قالت في الثانية: أشهد بالله ما رأى شريكاً على بطني وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الثالثة: أشهد بالله إني لحبلى منه وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الرابعة: أشهد بالله إنه ما رأني قط على فاحشة، وإنه لمن الكاذبين ثم قالت في الخامسة: إن غضب الله على خولة تعني نفسها إن كان من الصادقين، ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم

بينهما: أي قال له لا سبيل لك عليها وهو دليل لإمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه القائل إن الفرقة بين الزوجين تحصل بنفس التلاعن. وما جاء في بعض الروايات أنه طلقها ثلاثاً قبل أن يأمره: أي بعدم الاجتماع بها

فهو محمول على أنه ظن أن التلاعن لا يحرمها عليه، فأراد تحريمها بالطلاق، فقال: هي طالق ثلاثاً، ومن ثم قال له عقب ذلك لا سبيل لك عليها، أي لا ملك لك عليها فلا يقع طلاقك، ثم قال: إن جاء الولد على صفة كذا فعويمر صادق، وإن جاء على صفة كذا فعويمر كاذب، فجاء على الصفة التي تصدق عويمراً، فكان الولد ينسب إلى أمه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي البخاري: «أن عويمراً أتى عاصم بن عدي وكان سيد بني عجلان فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً: أبقته فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فسأله، فكره النبي صلى الله عليه وسلم تلك المسألة وعابها، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله، فسأله عويمر، فقال له عاصم: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسألة وعابها، أي لأنه كان يكره المسألة التي لا يحتاج إليها: أي التي لم تكن وقعت لا سيما إن كان فيها هتك ستر مسلم أو مسلمة. قال: فعويمر رضي الله عنه لم يكن وقع له مثل ذلك حينئذ ثم اتفق له وقوع ذلك بعد، فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فجاءه عويمر وهو وسط الناس فقال: يا رسول الله أ رأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً إن تكلم جلدتموه، وإن قتله قتلتموه، أو سكت سكت على الغيظ، فقال رسول الله: «اللهم افتح، وجعل يدعو، فنزلت آية اللعان، وعند ذلك قال لعويمر: قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً فاذهب فائت بها» أي وذلك بعد أن ذكر له عويمر قصته.

وفي رواية «قد قضى فيك وفي امرأتك فتلاعنا» وفي «أن هلال بن أمية أحد المتخلفين عن تبوك قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك ابن سمحاء، أي وكانت حاملاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: البينة» زاد في رواية: «أوحد في ظهرك: فقال، يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً يتكلف يلتمس البينة، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول وإلا فحد في ظهرك، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبريء ظهري من الحد، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام: أي بعد أن قال: اللهم افتح، أي بين لنا الحكم، فأنزل الله تعالى: {والذين يرمون أزواجهم} فأرسل إلى المرأة فجاءت وتلاعنا، وعند الخامسة تلكأت ونكصت حتى ظن أنها ترجع، أي لأنه قال لها: إنها أي اللعنة موجبة: أي للعذاب في الآخرة، وعذاب الدنيا أهون من غضب الآخرة، ثم قالت: والله لا أفصح قومي سائر الأيام وقالتها: أي الخامسة، أي وقال: إن جاءت به كذا فهو لهلال، وإن جاءت به كذا فهو لشريك، فجاءت به على الوصف الذي ذكر أنه يكون لشريك، فقال: لولا ما سبق من كتاب الله تعالى لكان لي ولها شأن.

وجمهور العلماء على أن سبب نزول آية اللعان قصة هلال بن أمية، وإنه أول لعان وقع في الإسلام.

وذهب جمع إلى أن سبب نزولها قصة عويمر العجلاني، لقوله: «قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً» وأجيب بأن معناه لما نزل في قصة هلال، لأن ذلك عام في جميع الناس.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

قال الإمام النووي رحمه الله: ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعاً، فلعلهما سألا في وقتين متقاربين: أي وقال في كل: اللهم افتح، فنزلت هذه الآية فيهما، وسبق هلال باللعان، فكان أول من لاعن.

وفي مسلم: «أن سعد بن عبادة قال: يا رسول الله أرأيت الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقنته؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا، قال، سعد: بلى والذي أكرمك بالحق». وفي رواية: «كلا والذي بعثك بالحق إن كنت لأعاجله بالسيف» وفي لفظ: «لضربته بالسيف من غير صفح» أي بل أضربه بحده/ «فقال رسول الله: «اسمعوا الى ما يقول سيدكم» وليس ذلك من سعد رضي الله تعالى عنه رداً عليه، وإنما هو إخبار عن حاله، ومن ثم قال: «إنه لغيور، وأنا أغير منه، والله أغير مني» فأخبر عن سعد بأنه غيور، وأنه أغير منه، وأن الله أغير منه، ومن ثم جاء في الحديث/ «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك أرسل مبشرين ومنذرين. ولا أحب إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك وعد الجنة ليكثر سؤال العباد إياها والثناء منهم عليه».

وفي تفسير الفخر الرازي رحمه الله «لا شخص أغير من الله» وبه استدل على جواز إطلاق الشخص على الله تعالى.

وفي الحلية لأبي نعيم رحمه الله عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «يا أبا بكر أرأيت لو وجدت مع أم رومان رجلاً ما كنت صانعاً؟ قال: كنت فاعلاً به شراً ثم قال: يا عمر أرأيت لو وجدت رجلاً، أي مع زوجتك ما كنت صانعاً؟ قال: كنت والله قاتله، فقراً: {والذين يرمون أزواجهم} الآية».

وفي الأم لإمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه عن سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه: «أن رجلاً من أهل الشام وجد مع امرأته رجلاً فقتله، فرفع الأمر إلى معاوية رضي الله تعالى عنه فأشكل على معاوية القضاء فيها فكتب معاوية إلى أبي الأشعري رضي الله تعالى عنه أن يسأل عن ذلك علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فاستخبر علي أبو موسى عن القصة، فأخبره أبو موسى أن معاوية كتب إليه في ذلك، فقال علي كرم الله وجهه: أنا أبو الحسن إن لم يأت بأربعة شهداء قتلناه، فليتأمل.

وفي الخصائص الكبرى أن في غزوة تبوك اجتمع بإلياس. فعن أنس رضي الله تعالى عنه: سمعنا صوتاً يقول: اللهم اجعلني من أمة محمد المرحومة المغفور لها المستجاب لها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أنس انظر ما هذا الصوت؟ قال أنس رضي الله تعالى عنه: فدخلت الجبل، فإذا رجل عليه ثياب بيض أبيض الرأس واللحية، طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع، فلما رأيته قال: أنت خادم رسول الله؟ قلت نعم، قال: ارجع إليه وأقرئه السلام، وقل له: أخوك إلياس يريد أن يلقاك، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فجاء يمشي وأنا معه، حتى إذا كنت منه قريباً تقدم النبي صلى الله عليه وسلم وتأخرت أنا فتحدثنا طويلاً فنزل عليهما من السماء شيء شبه السفارة ودعاني

فأكلت معهما قليلاً فإذا فيها كمأة ورمان وحوث وتمر وكرفس، فلما أكلت قمت فتنحيت ثم جاءت سحابة فاحتملته وأنا أنظر إلى بياض ثوبه فيها. قال الحافظ ابن كثير: هذا حديث موضوع مخالف للأحاديث الصحاح من وجوه، وأطال في بيان ذلك. والعجب من الحاكم كيف يستدركه على الصحيحين، وهذا مما يستدرك به على الحاكم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي النور: لم يجيء في حديث صحيح اجتماعه بإلياس. وفي الجامع الصغير إلياس أخو الخضر. وفي تفسير البغوي: أربعة من الأنبياء أحياء إلى يوم البعث أثنان في الأرض وهما الخضر وإلياس، أي وإلياس في البر والخضر في البحر، يجتمعان كل ليلة على ردم ذي القرنين يحرسانه. وأكلهما الكرفس والكمأة، وأثنان في السماء إدريس وعيسى عليهما الصلاة والسلام. وعن ابن إسحق الخضر من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل، أي وقد يقال: لا ينافي ذلك ما تقدم أنهما أخوان، لجواز أن يكونا أخوين لأم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: لم ينقل بسند صحيح ولا حسن تسكن إليه النفس أن الخضر عليه الصلاة والسلام اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم من الأيام، ولو كان حياً في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان أشرف أحواله اجتماعه به .

وفي الخصائص الكبرى عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال: «خرجت ليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم أحمل الطهور، فسمع قائلاً يقول: اللهم أعني على ما ينجيني مما خوفتني منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس ضع الطهور وأت هذا فقل له: ادع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعينه الله على ما بعثه به، وادع لأمته أن يأخذوا ما أتاهم به من الحق، فأتيته فقلت له: فقال مرحباً برسول الله ، أنا كنت أحق أن آتية، اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام، وقل له أخوك الخضر يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن الله فضلك على النبيين كما فضل شهر رمضان على الشهور، وفضل أمتك على الأمم كما فضل يوم الجمعة على سائر الأيام، فلما وليت سمعته يقول: اللهم اجعلني من هذه الأمة المرحومة المتاب عليها قال بعضهم: وهذا حديث واه منكر الإسناد سقيم المتن، ولم يرأسل الخضر عليه الصلاة والسلام نبينا ولم يلقه.

قال السيوطي في اللآلئ قلت: قد أخرج هذا الحديث الطبراني في الأوسط. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الإصابة: قد جاء من وجهين. وفي الخصائص الصغرى: ومن خصائصه أنه جمعت له الشريعة والحقيقة، ولم يكن للأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أحدهما بديل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، والمراد بالشريعة الحكم بالظاهر، وبالحقيقة الحكم بالباطن.

وقد نص العلماء على أن غالب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما بعثوا ليحكموا بالظاهر دون ما اطلعوا عليه من بواطن الأمور وحقائقها، ومن ثم أنكر موسى عليه الصلاة والسلام على الخضر في قتله الغلام بقوله: {لقد جئت شيئاً نكراً}

فقال له الخضر عليه الصلاة والسلام {وما فعلته عن أمري} ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام: إني على علم من عند الله لا ينبغي لك أن تعلمه، أي تعمل به لأنك لست مأموراً بالعمل به، وأنت على علم من عند الله لا ينبغي لي أن أعلمه: أي لا ينبغي لي أن أعمل به، لأنني لست مأموراً بالعمل به.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

وفي تفسير أبي حيان: والجمهور على الخضر نبي وكان علمه معرفة بواطن أمور أوحيت إليه، أي ليعمل بها، وعلم موسى عليه الصلاة والسلام الحكم بالظاهر، أي دون الحكم بالباطن.

ونبينا حكم بالظاهر في أغلب أحواله، وحكم بالباطن: أي في بعضها، بدليل قتله للسارق وللمصلي لما اطلع على باطن أمرهما وعلم منهما ما يوجب القتل.

وقد ذكر بعض السلف رحمه الله أن الخضر إلى الآن ينفذ الحكم بالحقيقة، وأن الذين يموتون فجأة هو الذي يقتلهم، فإن صح ذلك فهو في هذه الأمة بطريق النيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام صار من أتباعه، كما أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما ينزل يحكم بشريعته نيابة عنه لأنه من أتباعه.

وفيه أن عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع به اجتماعاً متعارفاً ببيت المقدس فهو صحابي. وجاء في حديث مطعون فيه: أي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الخضر وإلياس عليهما الصلاة والسلام يجتمعان في كل عام: أي في الموسم، ويحلق كل منهما رأس صاحبه ويفترقان عن هذه الكلمات «بسم الله، ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله». قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من قالها حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات عوفي من السرقة والحرق والغرق ومن السلطان، ومن الشيطان، ومن الحية والعقرب.

وعن علي كرم الله وجهه: سكن الخضر بيت المقدس فيما بين باب الرحمة إلى باب الأسباط، والله اعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 99

باب: سراياه وبعوثه

لا يخفى أن ما كان فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له غزوة، وما خلا عنه يقال له سرية إن كان طائفة اثنين فأكثر، فإن كان واحداً قيل له بعث، وربما سموا بعض السرايا غزوة كما في مؤتة، حيث قالوا غزوة مؤتة، وكما في سرية الرجيع حيث عبر عنها السيوطي في الخصائص بغزوة الرجيع، وعن سرية ذات السلاسل بغزوة ذات السلاسل، وعن سرية سيف البحر بغزوة سيف البحر، وربما سموا الواحد سرية وهو في الأصل كثير، وربما سموا الاثنين فأكثر بعثاً، ومنه قول الأصل كالبخاري بعث الرجيع، وظاهر كلامهم أنه لا فرق في ذلك بين أن يكون إرسال ذلك لقتال، أو لغير قتال كتجسس الأخبار، أو لتعليمهم الشرائع كما في بئر معونة والرجيع، أو للتجارة كما في سرية زيد بن

حارثة رضي الله تعالى عنهما حيث ذهب مع جمع بالتجارة للشام فلقبه بنو فزارة فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم كما سيأتي.

والسيرة في الأصل الطائفة من الجيش تخرج منه، ثم تعود إليه خرجت ليلاً أو نهاراً، وقيل السرية هي التي تخرج ليلاً. والسارية هي التي تخرج نهاراً، وهي من مائة إلى خمسمائة، وقيل إلى أربعمائة: أي وفي القاموس: السرية من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة، وعليه فما دون ذلك لا يقال له سرية، فما زاد على الثلاثمائة أو أربعمائة يقال له بنسر بالنون، فإن زاد على ذلك إلى أربعة آلاف قيل له جيش، أي وقيل الجيش من ألف إلى أربعة آلاف، فإن زاد على ذلك قيل له جحفل وجيش جرار أي إلى اثني عشر ألفاً. والبعث في الأصل: الطائفة تخرج من السرية، ثم تعود إليها، وهو من عشرة إلى أربعين يقال له حفيرة، ومن أربعين إلى ثلاثمائة يقال له معتقب، وما زاد على ذلك يسمى حمزة: قال بعضهم: والكتيبة ما اجتمع ولم ينتشر، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله: «خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، وما هزم قوم بلغوا اثني عشر ألفاً من قلة إذا صدقوا وصبروا» أي فلا يرد انهزام القدر المذكور يوم حنين. قال في الأصل: وكانت سراياه التي بعث بها سبعا وأربعين سرية، وهو في ذلك موافق لما ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب. قال الشمس الشامي: والذي وقفت عليه من السرايا والبعوث لغير الزكاة يزيد على السبعين اهـ. أي وكان إذا أمر أميراً على سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بسم الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، والوليد الصبي، أي ما لم يقاتل كالنساء وإلا قتلوا.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 134

وفي رواية: «لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة»، وهذا عند العمدة، فلا ينافي أنه يجوز الإغارة على المشركين ليلاً وإن لزم على ذلك قتل الصبيان والنساء والشيوخ.

فقد روى الشيخان: «سئل عن المشركين يبيتون، أي يغار عليهم ليلاً فيصيبون من نسائهم وذرائعهم؟ فقال: هم منهم» وكان يقول: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ولا سمع ولا طاعة في معصية الله» وكان يعتذر عن تخلفه عن تلك السرايا ويقول: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب نفوسهم أن يتخلفوا عني ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لو ددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحياء، ثم أقتل ثم أحياء ثم أقتل».

ومن جملة وصيته لمن يوليه على سرية «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقتلهم». ومن جملة قوله للسرايا: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» ولما بعث

معاذ بن جبل وأبا موسى رضي الله تعالى عنهما إلى اليمن قال لهما: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا».
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 134
سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة في ثلاثين رجلاً من المهاجرين، قيل ومن الأنصار، وفيه نظر لأنه لم يبعث من الأنصار إلا بعد أن غزا بهم بدرًا، أي وذلك في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة، وعقد له لواء أبيض. وهو أول لواء عقد في الإسلام، حمله أبو مرثد بفتح الميم وإسكان الراء ثم مثلثة مفتوحة: حليف حمزة رضي الله تعالى عنه، ليعترض غيراً لقريش جاءت من الشام تريد مكة، وفيها أبو جهل لعنه الله في ثلاثمائة رجل، وقيل في مائة وثلاثين، فصار رضي الله تعالى عنه إلى أن وصل سيف البحر، أي بكسر السين المهملة وإسكان المثناة تحت ثم فاء: ساحله من ناحية العيص، أرض من جهينة فصادف العير هناك، فلما تصافوا للقتال حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني وكان حليفاً للفريقين، فأطاعوه وانصرفوا، ولم يقع بينهم قتال. ولما عاد حمزة رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر، أي بأن مجدياً حجز بينهم وأنهم رأوا منه نصفة، قال في مجدي: إنه ميمون النقيبة: أي مبارك النفس، مبارك الأمر. وقال سعيد أو رشيد الأمر: أي أموره ناجحة، ولم يقع له إسلام. أي وفي الإمتاع: وقدم رهط مجدي على النبي صلى الله عليه وسلم فكساهم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 135
سرية عبدة بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس ثمانية أشهر من الهجرة عبدة بن الحارث رضي الله تعالى عنه في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين، منهم سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، وعقد له لواء أبيض، وحمله مسطح بن أثاثة رضي الله تعالى عنه ليعترض غيراً لقريش، وكان رئيسهم أبا سفيان. وقيل عكرمة بن أبي جهل. وقيل مكرز بن حفص في مائتي رجل، فوافوا العير ببطن رابع: أي ويقال له ودان، فلم يكن بينهم إلا المناوشة برمي السهام، أي فلم يسلوا السيف، ولم يصطفوا للقتال. وكان أول من رمى المسلمين سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، فكان سهمه أول سهم رمى به في الإسلام، أي كما أن سيف الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه أول سيف سل في الإسلام. ففي كلام ابن الجوزي: أول من سل سيفاً في سبيل الله الزبير بن العوام.

وقد ذكر أن سعيدياً رضي الله تعالى عنه تقدم أصحابه ونثر كنانته، وكان فيها عشرون سهماً ما منها سهم إلا ويجرح إنساناً أو دابة، أي لو رمى به لصدق

رمية وشدة ساعده رضي الله تعالى عنه، ثم انصرف الفريقان، فإن المشركين ظنوا أن المسلمين مدداً فخافوا وانهمزوا، ولم يتبعهم المسلمون، وفر من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو، أي الذي يقال له ابن الأسود، وعيينة بن غزوان، فإنهما كانا مسلمين ولكنهما خرجا مع المشركين ليتوصلا بهم إلى المسلمين، فعلم أن سرية عبيدة بن الحارث رضي الله تعالى عنه بعد سرية حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وقيل بل هي قبلها، وكلام الأصل يشعر به، ويؤيده قول ابن إسحاق كانت راية عبيدة بن الحارث فيما بلغنا أول راية عقدت في الإسلام. قال بعضهم: ومنشأ هذا الاختلاف أن بعث حمزة وبعث عبيدة رضي الله تعالى عنهما كانا معاً، أي في يوم واحد في محل واحد، أي وشيئهما رسول الله صلى الله عليه وسلم جميعاً كما في ذخائر العقبي فاشتبه الأمر، فمن قائل يقول: إن راية حمزة رضي الله تعالى عنه أول راية عقدت في الإسلام، وأن بعثه أول البعوث، ومن قائل يقول: إن راية عبيدة رضي الله تعالى عنه أول راية عقدت في الإسلام، وأن بعثه أول البعوث، لكن يشكل على ذلك أن خروج حمزة كان على رأس سبعة أشهر من الهجرة كما تقدم، وخروج عبيدة كان على رأس ثمانية أشهر كما تقدم، وبما ذكر أن بعثهما معاً إلى آخره يرد ما أجاب به بعضهم عن هذا الإشكال، بأنه يحتمل أنه عقد رايتهما معاً، وتأخر خروج عبيدة إلى رأس الثمانية أشهر لأمر اقتضى ذلك هذا كلامه، إلا أن يقال يجوز أن يكون المراد ببعثهما معاً أمرهما بالخروج، وإن المراد بتشييعهما جميعاً أن كلا منهما وقع له التشييع منه، وذلك لا يقتضي أن يكون ذلك في وقت واحد تأمل.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 136

وفي هذا إطلاق الراية على اللواء، وهو الموافق لما صرح به جماعة من أهل اللغة أنهما مترادفان، وتقدم أنه لم يحدث له اسم الراية إلا في خبير، أي وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية، وما هنا يرده.

وفي كلام بعضهم كانت رايته سوداء ولواؤه أبيض كما في حديث ابن عباس وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما. زاد أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: مكتوب فيه «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 136

سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه إلى الخرار بفتح الخاء المعجمة وراءين مهملتين: وفي النور بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء الأولى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس تسعة أشهر من الهجرة سعد بن أبي وقاص في عشرين من المهاجرين، أي وقيل ثمانية وعقد له لواء أبيض، حمله المقداد بن عمرو قال: والخرار واد يتوصل منه إلى الجحفة، وقد عهد إليه أن لا يجاوزه ليعترض غيراً لقريش تمر بهم فخرجوا يمشون على أقدامهم يكمنون النهار ويسيروا الليل حتى صبحوا المكان المذكور في صبح خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس، فضربوا راجعين إلى المدينة اهـ.

وقد ذكر ابن عبد البر وابن حزم هذه السرية بعد بدر الأولى. وفي السيرة الشامية: «الباب السادس في سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه

إلى الخرار» وساق ما تقدم وقال بعده: «الباب السابع في سرية سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه».

روى الإمام أحمد عنه قال: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءت جهينة فقالوا له: إنك نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا حتى نأتيك وقومنا، فأوثق لهم فأسلموا، وبعثنا ولا نكون مائة، وكان ذلك في رجب أي من السنة الثانية، وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نغير على حي من كنانة، فأغرنا عليهم، فكانوا كثيراً فلجأنا إلى جهينة فمنعونا، وقالوا لم تقاتلون في الشهر الحرام؟ فقال بعضنا لبعض: ما ترون؟ فقال بعضنا نأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره، وقال بعض آخر لا نقيم ههنا، وقلت أنا في أناس معي: بل نأتي غير قريش فنقتطعها، فإبطلقنا إلى العير وانطلق بعض أصحابنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه الخبر، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبان محمراً وجهه، فقال: جئتم متفرقين وإنما أهلك من قبلكم الفرقة، لأبعثن عليكم رجلاً ليس بخيركم أصبركم على الجوع والعطش، فبعث عبد الله بن جحش أميراً فأمره علينا لنذهب إلى جهة بين مكة والطائف».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 138

سرية عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه إلى بطن نخلة

قال: لما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء الأخيرة، قال لعبد الله بن جحش واف مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجهها، فوافاه الصبح ومعه قوسه وجعبته ودرقته، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاة الصبح وجده واقفاً عند بابه، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب، فدخل عليه، فأمره فكتب كتاباً ثم دعا عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، فدفع إليه الكتاب، وقال له: قد استعملتك على هؤلاء النفر أهـ. أي وكان قبل ذلك بعث عليهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فلما ذهب لينطلق بكى صبيانه إلى النبي، فبعث عليهم عبد الله وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين، أي فهو أول من تسمى في الإسلام بأمير المؤمنين ثم بعده عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ولا ينافي ذلك قول بعضهم: أول من تسمى في الإسلام بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، لأن المراد أول من تسمى بذلك من الخلفاء أو أن هذا أمير جميع المؤمنين وذاك أمير من معه من المؤمنين خاصة.

فقد جاء أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يكتب أولاً: من خليفة أبي بكر، فاتفق أن عمر رضي الله تعالى عنه أرسل إلى عامل العراق أن يبعث إليه برجلين جليدين يسألهما عن أهل العراق، فبعث إليه يعبد بن ربيعة وعدي بن حاتم الطائي، فقدمتا المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص رضي الله

تعالى عنه، فقالا: استأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال عمرو: أنتما والله أصبتما اسمه، فدخل عليه عمرو وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لك في هذا الاسم؟ فأخبره الخبر وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنون، فأول من سماه بذلك عبد بن ربيعة وعدي بن حاتم. وقيل أول من سماه بذلك المغيرة بن شعبة، وحينئذ صار يكتب: من عبد الله عمر أمير المؤمنين، فقد كتب رضي الله تعالى عنه بذلك إلى نيل مصر، فإن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه لما فتح مصر ودخل شهر بؤنة من شهور العجم دخل إليه أهل مصر وقالوا له: أيها الأمير إذا كان أحد عشر ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبوابها وجعلنا عليها من الثياب والحلي ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل، أي ليجري، فقال لهم عمرو رضي الله تعالى عنه: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله، فأقاموا مدة والنيل لا يجري لا قليلاً ولا كثيراً حتى هم أهل مصر بالجلاء منها، فكتب عمرو بذلك إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فكتب إليه كتاباً وكتب بطاقة في داخل الكتاب، وقال في الكتاب: قد بعثت إليك بطاقة في داخل الكتاب فآلقها في نيل مصر، فلما قدم الكتاب أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر. أما بعد: فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله هو الذي يجريك فأسأل الله الواحد القهار أن يجريك فألقى البطاقة في النيل قبل الصليب بيوم فأصبحوا وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، فقطع الله تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 139

وكان أولئك النفر ثمانية: أي وقيل اثني عشر من المهاجرين. يعتقب كل اثنين منهم بغيراً منهم سعد بن أبي وقاص وعيينة بن غزوان، وكانا يعتقبان بغيراً، ومنهم واقد بن عبد الله، ومنهم عكاشة بن محصن، وأمر عبد الله أن لا ينظر في ذلك الكتاب حتى يسير يومين، أي قبل مكة ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحداً من أصحابه أي على السير معه. أي وقد عقد له راية. قال ابن الجوزي: أول راية عقدت في الإسلام راية عبد الله بن جحش، أي بناء على أن الراية غير اللواء، وحينئذ تعارض القول بترادفهما والقول بأن اسم الراية إنما وجد في خيبر.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وهو أول أمير أمر في الإسلام. وفيه أنه مخالف لما سبق. إلا أن يريد أول من سمي أمير المؤمنين، فلما سار عبد الله يومين فتح الكتاب، فإذا فيه إذا نظرت في كتابي هذا فأت حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، ولا تكره أحداً من أصحابك على السير معك، أي ولفظ الكتاب: سر بسم الله وبركاته ولا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك، وامض لأمري حتى تأتي بطن نخلة فترصد غير قريش، وتعلم لنا أخبارهم، فلما قرأ الكتاب على أصحابه قالوا: نحن سامعون مطيعون لله ولرسوله ولك، فسر على بركة الله تعالى، أي وجعل البخاري دفعه الكتاب لعبد الله ليقرأه ويعمل بما فيه دليلاً على صحة الرواية بالمناولة، وهي أن الشيخ يدفع لتلميذه كتاباً، ويأذن له أن يحدث عنه بما فيه.

وممن قال بصحة المناولة سيدنا مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه. روى إسماعيل بن صالح عنه أنه أخرج لهم كتباً مشدودة وقال لهم: هذه كتبي

صححتها ورويتها فارووها عني، فقال له إسماعيل بن صالح: نقول: حدثنا مالك؟ قال نعم.

وفي لفظ أن عبد الله رضي الله عنه لما قرأ الكتاب قال سمعاً وطاعة، أي بعد أن استرجع ثم أعلم أصحابه، وقال لهم من كان يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فإنا أنا فمض إلى رسول الله، فمضوا لم يتخلف منهم أحد حتى إذا كانوا ببَحْران بفتح الموحدة وبضمها وسكون الحاء المهملة: موضع أضل سعد بن وقاص وعيينة بن غزوان بغيرهما فتخلفا في طلبه ومضى عبد الله ومن عداهما معه حتى نزل بنخلة فمرت غير لقريش: أي تحمل زيبياً وأدماً: أي جلوداً من الطائف وأمتعة للتجارة، في تلك العير عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن المغيرة، وأخوه نوفل والحكم بن كيسان، ونزلوا قريباً من عبد الله وأصحابه وتخوفوا منهم، فأشرف عليهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه: أي وتراءى لهم ليظنوا أنهم عماراً فيطمئنوا، أي وذلك بإرشاد عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه، فإنه قال لهم: إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهم، فحلقوا رأس عكاشة ثم أشرف عليهم، فلما رأوا رأسه مخلوقاً قالوا عُمَّار، أي هؤلاء قوم معتمرون لا بأس عليكم منهم، وكان ذلك آخر يوم من شهر رجب، أي وقيل أول يوم منه. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 139

ويدل للأول ما جاء أن عبد الله تشاور مع أصحابه فيهم، فقال بعضهم لبعض: إن تركتموهم في هذه الليلة دخلوا الحرم فقد تمنعوا منكم به، وإن قتلتموهم في هذا اليوم تقتلوهم في الشهر الحرام، أي وكان ذلك قبل أن يحل القتال في الشهر الحرام، فإن تحريم القتال في الأشهر الحرم كان معمولاً به من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، جعل الله ذلك مصلحة لأهل مكة، فإن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما دعا لذريته بمكة أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم لمصلحتهم ومعاشهم، جعل الأشهر الحرم أربعة: ثلاثة سرداً وواحداً فرداً وهو رجب، أما الثلاثة فليأمن الحجاج فيها واردين لمكة وصادرين عنها، شهراً قبل شهر الحج، وشهراً آخر بعده قدر ما يصل الراكب من أقصى بلاد العرب ثم يرجع، وأما رجب فكان للعمار يأمنون فيه مقبلين ومدبرين وراجعين نصف الشهر للإقبال ونصفه الآخر للإياب، لأن العمرة لا تكون من أقصى بلاد العرب كالحج، وأقصى منازل بلاد المعتمرين خمسة عشر يوماً، ذكره السهيلي.

ولم يزل تحريم القتال في تلك الأشهر الحرم إلى صدر الإسلام، وذلك قبل نزول براءة، فإن براءة كان فيها نبذ العهد العام، وهو أن لا يصد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم، وأن لا يحج مشرك، وإباحة القتال في الأشهر الحرم، أي مع بقاء حرمتها، فإنها لم تنسخ، قال تعالى: {منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم} فتعظيم حرمتها باقية لم تنسخ، وإنما نسخ حرمة القتال فيها، خلافاً لما نقل عن عطاء من أن حرمة

القتال فيها باقية لم تنسخ.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 139

ويبدل للثاني ما في الكشف وكان ذلك اليوم أول يوم من رجب وهم يظنون أنه من جمادى الآخرة، فتردد القوم وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، ثم أجمع رأيهم على قتل من لم يقدر على أسره، أي وأخذ ما معهم فقتلوا عمرو بن الحضرمي، رماه واقد بن عبد الله بسهم فهو أول قتيل قتله المسلمون، وأسروا عثمان والحكم فهما أول أسير أسره المسلمون، وأفلت بفتح الهمزة باقي القوم، أي وجاء الخبر لأهل مكة فلم يمكنهم الطلب لدخول شهر رجب، أي بناء على ما تقدم، واستاق عبد الله وأصحابه رضي الله عنهم العير حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أول غنيمة غنمها المسلمون فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وأبى أن يستلم العير والأسيرين، فسقط بالبناء للمجهول في أيديهم: أي ندموا وعنفهم إخوانهم من المسلمين، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام؟ سفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال، أي وصارت قريش تغير بذلك من مكة من المسلمين، يقولون لهم: يا معشر الصباة قد استحلتم الشهر الحرام، وقاتلتم فيه، وزادوا في التشنيع والتعيير وصارت اليهود تتفاءل بذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون القليل عمرو الحضرمي والقاتل واقد، فيه عمريت بفتح العين المهملة وكسر الميم الحرب: أي حضرت الحرب ووقدت الحرب، فكان ذلك الفأل عليهم لعنهم الله وضاق الأمر على عبد الله وأصحابه رضي الله عنهم، فأنزل الله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير} أي عظيم الوزر {وصد عن سبيل الله} أي ومنع للناس عن دين الله {وكفر به} أي بالله {والمسجد الحرام} أي ومنع للناس عن مكة {وإخراج أهله منه} وهم النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين منه من {أكبر عند الله} أعظم وزراً {والفتنة} الشرك: أي الذي أنتم عليه، أو حملكم من أسلم على الكفر بالتعذيب له {أكبر من القتل} لكم فيه:

أي صدهم لكم عن المسجد الحرام، وكفرهم بالله وإخراجكم من مكة وأنتم أهلها، وفتنة من أسلم بحيث يرتد عن الإسلام ويرجع إلى الكفر أكبر من قتل من قتلتم منهم، ففرج عن عبد الله وأصحابه رضي الله عنهم، أي وهذا كما ترى يدل على أنهم قتلوا مع علمهم بأن ذلك اليوم من رجب، ويضعف ما تقدم عن الكشف الموافق لما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أصحاب محمد كانوا يظنون أن ذلك اليوم آخر جمادى، وكان أول رجب ولم يشعروا، أي لأن جمادى يجوز أن يكون ناقصاً. وفيه أنه لو كان الأمر كذلك لاعتذر عبد الله وأصحابه رضي الله تعالى عنهم بذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 139

وجاء أن المسلمين اختلفوا في ذلك اليوم، فمن قائل منهم هذه غرة من عدوكم وغنم رزقتموه، ولا ندري أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا؟ وقال قائل

منهم: لا نعلم اليوم إلا من الشهر الحرام، ولا نرى أن تستحلوه لطمع اشتملتم عليه، ويذكر أنه عقل ابن الحضرمي أي أعطى ديته، ويضعفه ما تقدم في غزوة بدر من أن أخاه طلب ثاره وكان ذلك سبباً لإثارة الحرب وأن عتبة بن ربيعة أراد أن يتحمل ديته ويتحمل جميع ما أخذ من العير وأن تكف قريش عن القتال، وحينئذ تسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم العير والأسيرين، وطمع عبد الله وأصحابه في حصول الأجر، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأنزل الله تعالى: {إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم} أي فقد أثبت لهم الجهاد في سبيل الله. ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم ذلك العير وخمسه. أي جعل خمسه لله وأربعة أخماسه للجيش.

وقيل تركه حتى رجع من بدر وخمسه مع غنائم بدر، وقيل إن عبد الله هو الذي خمسه، أي فإنه رضي الله عنه، قال لأصحابه: إن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما غنمنا الخمس فأخرج خمس ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أي عزلها له، وقسم سائرهما بين أصحابه رضي الله عنهم. وحينئذ يكون ما تقدم من قوله وأبي أن يتسلم العير، الظاهر في أن العير لم تقسم، المراد خمس تلك العير، وهو أول غنيمة خمست في الإسلام: أي قبل فرضه، ثم فرض على ما صنع عبد الله رضي الله عنه، ويوافق ذلك قول ابن عبد البر في الاستيعاب. وعبد الله بن جحش أول من سنّ الخمس من الغنيمة للنبي من قبل أن يفرض الله الخمس، وأنزل الله تعالى بعد ذلك آية الخمس: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه} الآية، وإنما كان قبل ذلك المربع، هذا كلامه، والمربع: ربع الغنيمة، وتقدم أن الفيء والغنيمة يطلق أحدهما على الآخر.

وفي كلام فقهاءنا أن الغنيمة كانت في صدر الإسلام له خاصة، ثم نسخ ذلك بالتخمس.

وبعثت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء عثمان والحكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعني سعد بن أبي وقاص وعيينة بن غزوان، فإننا نخشاكم عليهما، فإن قتلتموها نقتل صاحبكم، فإن سعداً وعيينة رضي الله عنهما لم يحضرا الواقعة بسبب التماسهما بغيرهما وقد مكثا في طلبه أياماً ثم قدما، فأفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسيرين: أي كل واحد بأربعين أوقية. فأما الحكم فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 139

أي وعن المقداد: أراد أميرنا يعني عبد الله بن جحش أن يقتل الحكم، فقلت: دعه فقدم به على رسول الله، وأما عثمان فلحق بمكة فمات بها كافراً بعث وفي الأصل تبعاً لشيخه الحافظ الدمياطي.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 139

سرية عمير بن عدي الخطمي الضربير إلى عصماء
أي بالمد: بنت مروان اليهودية، وكانت متزوجة في بني خطمة، وكان زوجها
مرثد بن زيد بن حصين الأنصاري أسلم بعد ذلك رضي الله عنه.
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمير بن عدي الخطمي، وهو أول من
أسلم من بني خطمة إلى قتل عصماء بنت مروان، لأنها كانت تسب الإسلام
وتؤذي النبي صلى الله عليه وسلم في شعر لها، وتحرض عليه، فجاءها عمير
في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام وعلى صدرها
صبي ترضعه فمسها بيده ونحى الصبي عن صدرها، ووضع سيفه على صدرها
وتحامل عليه حتى أنفذه من ظهرها ثم صلى الصبح مع النبي صلى الله عليه
وسلم بالمدينة، فقال له رسول الله، أقتلت ابنة مروان؟ فقال: نعم، فهل عليّ
في ذلك من شيء؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان: أي الأمر في قتلها هين لا
يعارض فيه معارض، وهذه الكلمة من جملة الكلمات التي لم تسمع إلا من
النبي، وقد جمع غالبها في النور في هذا المحل، قال: وسمى رسول الله صلى
الله عليه وسلم عميراً هذا بالبصير، لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال:
انظروا إلى هذا الأعمى الذي يسري في طاعة الله تعالى، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: لا تقل الأعمى، ولكن البصير.
وفي رواية أنه لما قال: ألا رجل يكفيننا هذه؟ يعني عصماء بنت مروان، فقال
عمير بن عدي: أنا لها، فأتاها وكانت تماره: أي تبيع التمر، فقال لها: أعندك
أجود من هذا التمر، لتمر بين يديها؟ قالت نعم، فدخلت إلى البيت وانكبث
لتأخذ شيئاً من التمر، فالتفت يميناً وشمالاً فلم يشعر بأحد، فضرب رأسها
حتى قتلها، فليتأمل هذا مع ما قبله.

ثم إن عميراً أتى المسجد فصلى الصبح مع رسول الله، فلما انصرف من
صلاته نظر إليه، فقال له: أقتلت ابنة مروان؟ قال نعم، فقال النبي: «إذا
أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله فانظروا إلى عمير، فلما رجع
عمير إلى منزل بني خطمة وجد بنيتها في جماعة يدفنونها، فقالوا: يا عمير أنت
قتلتها؟ قال: نعم فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون: والذي نفسي بيده لو قلت
بأجمعكم ما قالت لأضربنكم بسيفي هذا حتى أموت أو أقتلكم، فيومئذ ظهر
الإسلام في بني خطمة، وكان يخفي إسلامه من أسلم منهم، لكن جاء في
رواية أنها كانت تلقي خرق الحيز في مسجد بني خطمة فليتأمل.
وفي رواية أنه لما أهدر دم عصماء نذر عمير إن رد الله رسوله من بدر إلى
المدينة سالماً ليقتلنها، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر إلى
المدينة عدا عليها عمير رضي الله تعالى عنه فقتلها. وفي كلام السهيلي رحمه
الله أن الذي قتل عصماء بعلمها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 144

وقد يقال: لا مخالفة لأن عميراً رضي الله عنه جاز أن يكون كان بعلاً لها قبل
مرثد بن زيد. وذكر في الاستيعاب في ترجمة عمير رضي الله عنه أنه قتل أخته
لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسمها.
أقول: الظاهر أنها كانت غير عصماء، لأن نسب عصماء غير نسب عدي، إلا أن
يقال إنها أخته لأمه ويبعده ما تقدم من أنه كان زوجها لها، والله أعلم * وبعث *

وفي الأصل تبعاً لشيخه الحافظ الدمياطي.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 144
سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك

أي والعفك بفتح العين المهملة وبالفاء وبالكاف: أي الحمق أي أبي الحمق اليهودي، قال يوماً: «من لي بهذا الخبيث، يعني أبا عفك» أي من ينتدب إلى قتله وكان شيخاً كبيراً قد بلغ مائة وعشرين سنة، وكان يحرض الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبه في شعر له، فقال سالم بن عمير رضي الله عنه، أي وهو أحد البكائين، وقد شهد بدرًا: عليّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه فطلب له غرة: أي غفلة، فلما كانت ليلة صائفة أي شديدة الحر نام أبو عفك بفناء بيته، أي خارجه، فعلم بذلك سالم رضي الله عنه فأقبل نحوه فوضع السيف على كبده ثم تحامل حتى خش السيف في الفراش وصاح عدو الله، فتركه سالم رضي الله عنه وذهب، فقام إلى أبي عفك ناس من أصحابه فاحتملوه وأدخلوه داخل بيته فمات عدو الله، وابن إسحاق قدم هذا البعث على بعث عمير.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 146
سرية عبد الله بن مسلمة رضي الله عنه إلى كعب بن الأشرف الأوسي

أي فإن أباه أصاب دماً في الجاهلية فأتى المدينة فحالف بني النضير فشرف منهم، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة، وكان شاعراً مجيداً، وقد كان ساد يهود الحجاز بكثرة ماله، وكان يعطي أخبار اليهود ويصلهم، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة جاءه أخبار يهود من بني قينقاع وبني قريظة لأخذ صلته على عادتهم، فقال لهم: ما عندكم من أمر هذا الرجل: يعني النبي؟ قالوا: هو الذي كنا ننتظر، ما أنكرنا من نعوته شيئاً، فقال لهم قد حرمت كثيراً من الخير، فارجعوا إلى أهليكم، فإن الحقوق في مالي كثيرة، فرجعوا عنه خائبين، ثم رجعوا إليه وقالوا له إنا أعجلناك فيما أخبرناك به، ولما استثبتنا علمنا أنا غلطنا وليس هو المنتظر، فرضي عنهم ووصلهم، وجعل لكل من تابعهم من الأخبار شيئاً من ماله، وهذا نزل فيه قوله تعالى: {ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً} استودعه شخص ديناراً فجدده كذا في تكملة الجلال السيوطي. وفي الكشف وفروعه أنها نزلت في فخاص بن غازوراء. وقد يقال: لا مانع من تعدد الواقعة.

ولما انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وقدم زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنهما مبشرين لأهل المدينة بذلك وصارا يقولان قتل فلان وفلان وأسر فلان وفلان من أشرف قريش، صار كعب يكذب في ذلك ويقول هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس، والله إن كان محمد قتل

هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها، أي كما تقدم، فلما تيقن عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكة وكان شاعراً فجعل يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليه، وينشد الأشعار ويبيكي من قتل بيدر من أشراف قريش، فقال: اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت، ثم رجع إلى المدينة: أي بعد أن لم يجد من يأوي رحله بمكة، أي لأنه لما قدم مكة وضع رحله عند المطلب بن وداعة وأكرمه زوجته المطلب وهي عاتكة بنت أسيد، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان وأخبره بذلك، فهجا المطلب وزوجته، فلما بلغهما هجاء حسان ألقته رحله، وقالت: ما لنا ولهذا اليهودي؟ وأسلم المطلب وزوجته بعد ذلك رضي الله عنهما، وصار كلما تحول عند قوم من أهل مكة صار حسان يهجوهم فيلقون رحله، أي يقال إنه خرج في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة ليحالفوا قريشاً على رسول الله، فنزلوا على أبي سفيان فقال لهم أبو سفيان إنكم أهل كتاب ومحمد صاحب كتاب ولا نأمن أن يكون هذا مكرأ منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم فاسجدوا لهذين الصنمين وأمنوا بهما، ففعلوا، فأنزل الله تعالى: { ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت } أي وحالفهم عند أستار الكعبة على قتال المسلمين، فخرج من مكة للمدينة، فلما وصل إلى المدينة وصار يشيب بنساء المسلمين: أي يتغزل فيهن ويذكرهن بالسوء حتى أذاهن.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 146

أي وقيل إن كعب بن الأشرف صنع طعاماً وواطأ جماعة من اليهود أن يدعوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطعام، فإذا حضر يفتكون به، ثم دعاه فجاء ومعه بعض أصحابه، فأعلمه جبريل عليه السلام بما أضمره بعد أن جالسه، فقام وجبريل عليه السلام يستره بجناحه حتى خرج، فلما فقدوه تفرقوا، ولا مانع من تعدد الأسباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ينتدب لقتل كعب بن الأشرف؟ وفي لفظ: من لنا باين الأشرف، فقد استعلن بعداوتنا وهجاننا، أي وفي رواية: إنه يؤذي الله ورسوله، وفي أخرى فإنه قد أذانا بشعره وقوى المشركين علينا، أي فإن أبا سفيان قال لكعب: فإنك تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم، فأينا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق، نحن أم محمد؟ فقال كعب: اعرضوا عليّ دينكم، فقال أبو سفيان: نحن ننحر للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين أبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، وديننا قديم ودين محمد الحديث، فقال كعب لعنه الله: أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه، فقال: من لي بقتل ابن الأشرف؟ فقال محمد بن سلمة الأوسي: أنا لك به يا رسول الله، هو خالي - لأن محمد بن سلمة ابن أخته - أنا أقتله، وأجمع: أي عزم عليّ ذلك هو وأربعة: أي من الأوس عباد بن بشر وأبو نائلة، وكان رضي الله عنه أماً لكعب بن الأشرف من الرضاعة والحارث بن عيسى والحارث بن أوس. ومكث محمد بن سلمة رضي الله عنه بعد قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب إلا ما تقوم به نفسه خوفاً من عدم وفائه بما ذكر، ثم قال: يا رسول الله لا بد لنا أن نقول: أي نذكر ما نتوصل به إليه من الحيلة، وحينئذ كان المناسب أن يقول لا بد لنا أن

تنقول: أي نخترع ما نحتال به عليه، فقال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حل من ذلك، فأباح لهم الكذب لأنه من خدع الحرب كما تقدم.

وقيل إنه أمر سعد بن معاذ أن يبعث رهطاً ليقتلوه، والجمع ممكن، فتقدمهم إلى كعب أبو نائلة رضي الله عنه، وكان يقول الشعر فتحدث معه ساعة وتناشد شعراً، ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد أن أذكرها لك فآتكم عني، قال: أفعل، قال: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، فقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس. أي وسألنا الصدقة ونحن لا نجد ما نأكل، وسائر ما عندنا أنفقناه على هذا الرجل وعلى أصحابه، فقال كعب: لقد كنت أخبرتك يا بن مسلمة أن الأمر سيصير إلى ما تقول، أي ثم قال له كعب: أصدقني ما الذي تريدون في أمره؟ قال: خذلانه والتنحي عنه، قال شرتين، بأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل، فقال أبو نائلة، وقيل محمد بن سلمة كما في رواية صحيحة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 146

قال الحافظ ابن حجر: ويحتمل أن كلاً منهما قال له: إني أريد أن تبيعي وأصحابي طعاماً ونرهنك ونوثق لك، فقال: أترهنوني أبناءكم. وفي رواية نساءكم، قال: أردت أن تفضحنا، نرهنك من الحلقة: أي السلاح كما تقدم - وقيل الدرع خاصة - ما فيه وفاء، وقد أردت أن آتيك بأصحابي، أراد أبو نائلة رضي الله عنه أن لا ينكر كعب السلاح إذا جاء به هو وأصحابه، فقال إن في الحلقة لو فاء: أي وفي البخاري، قال: ارهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب. زاد في رواية: ولا تأمنك عليهن، وأي امرأة تمتنع منك لجمالك فإنك تعجب النساء، قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم، فيقال رهن يوسف، قالوا: هذا عار علينا ولكننا نرهنك اللامة: أي السلاح، فرجع أبو نائلة رضي الله عنه إلى أصحابه فأخبرهم الخبر، وأمرهم أن يأخذوا السلاح، ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجوا من عنده متوجهين إلى كعب، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم وقال: انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته: أي وأمراً عليهم محمد بن سلمة، وكانت تلك الليلة مقمرة، فأقبلوا رضي الله عنهم حتى انتهوا إلى حصن كعب فهتف به أبو نائلة رضي الله عنه، وكان كعب قريب عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيها أي طرفها، وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون في مثل هذه الساعة، قال: إنه أبو نائلة، لو وجدني قائماً لا يوقظني، فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر، أي وفي البخاري: فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فإني أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم. وفي مسلم كأنه صوت دم: أي صوت طالب دم، قال: إنما هو ابن أخي محمد بن سلمة ورضيعة أبو نائلة، إن الكريم لو دعي إلى

طعنة بليل لأجاب كذا في البخاري. وفي مسلم: إنما هو محمد ورضيعته، قيل
وصوابه إنما هو محمد ورضيعه

أبو نائلة.
فقد ذكر أهل العلم أن أبا نائلة رضي الله عنه كان رضيعاً لمحمد فنزل أي وهو
ينفخ منه ريح طيب، فتحدث معه هو وأصحابه ساعة ثم تماشوا، ثم إن أبا نائلة
رضي الله عنه وضع يده على رأس كعب ثم شم يده، وقال: ما رأيت طيباً
أعطر من هذا الطيب. أي فقال: وكيف وعندي أعطر نساء العرب وأكمل
العرب؟ وفي لفظ: وأجمل بدل أكمل، وهي أشبه، فقال له: يا أبا سعيد ادن
مني رأسك أشمه وأمسخ به عيني ووجهي، ثم مشوا ساعة، ثم عاد أبو نائلة
لوضع يده على رأسه، واستمسك به وقال اضربوا عدو الله، فضربوه، فاختلفت
أسيافهم، فلم تغن شيئاً: أي وقع بعضها على بعض ولصق عدو الله بأبي نائلة
وصاح صيحة لم يبق حصن إلا وعليه نار، قال محمد بن مسلمة رضي الله عنه:
فوضعت سيفي في ثنيتيه ثم تحاملت عليه حتى بلغ عاتته فوقع، أي ولما صاح
اللعين صاحت امرأته: يا آل قريظة والنضير مرتين، فخرجت اليهود فأخذوا
على غير طريق الصحابة ففاتوهم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 146

قال محمد بن مسلمة رضي الله عنه: وأصيب الحارث بن أوس من بعض
أسيافنا في رجله ورأسه ونزف به الدم، فتخلف عنا: أي وناداهم: اقرئوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم مني السلام، فعطفوا عليه واحتملوه. وفي رواية
تخلف عن أصحابه فافتقدوه ورجعوا إليه فاحتملوه. قال محمد بن مسلمة
رضي الله عنه: فجئنا رسول الله آخر الليل وهو قائم يصلي، فسلمنا عليه،
فخرج إلينا وأخبرناه بقتل عدونا، وتفل على جرح صاحبنا فلم يؤلمه.

قال: وفي رواية أنهم حزوا رأس كعب وحملوا ذلك الرأس ثم خرجوا يشتمون،
فلما بلغوا بقيع الغرقد كبروا، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي
تلك الليلة، فلما سمع تكبيرهم بالبقيع كبر وعرف أنهم قد قتلوا عدو الله، وخرج
إلى باب المسجد فجاؤوا فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً على
باب المسجد، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلحت الوجوه،
قالوا: أفلح وجهك يا رسول الله، ورموا برأسه بين يديه، فحمد الله على قتله،
أي وعند ذلك أصبحت يهود مذعورين، فأتوا النبي، فقالوا: قتل سيدنا غيلة،
فذكر لهم النبي صلى الله عليه وسلم صنيعه من التحريض عليه وأذيته
المسلمين فازدادوا خوفاً.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 146

سرية عبد الله بن عتيك رضي الله عنه لقتل أبي رافع
سلام بالتخفيف ابن أبي الحقيق على وزن نصير بالتصغير وبالحاء المهملة
الخرجي: أي وفي البخاري: أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق، ويقال له سلام
بن أبي الحقيق، كان بخير، وكان تاجر أهل الحجاز.
لما قتلت الأوس: أي عبد الله بن مسلمة وأبو نائلة ومن تقدم معهما كعب بن

الأشرف تذاكر الخزرج من يشابه كعب بن الأشرف في العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الخزرج، فذكروا أبا رافع سلام بن أبي الحقيق، أي لأنه كان يؤدي رسول الله .

أي وعن عروة أنه كان ممن أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ، وهو الذي حزب الأحزاب يوم الخندق، لأن الأوس والخزرج كانا يتنافسان فيم يقرب إلى الله ورسوله ، لا تفعل الأوس شيئاً من ذلك إلا فعلت الخزرج نظيره وبالعكس، ويقولون: والله لا يذهبون بهذا فتيلاً علينا في الإسلام، فانتدب لقتله خمسة من الخزرج منهم عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، واستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك: أي في أن يتكلموا بما يتوصلون به إليه من الحيلة، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن عتيك وأمرهم أن لا يقتلوا وليداً ولا امرأة فخرجوا حتى أتوا خيبر فتسوروا دار أبي رافع ليلاً، فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله، وكان أبو رافع في عليّة لها درجة، أي سلّم من الخشب من محل يصعد عليه إلى تلك العلية، فطلعوا في تلك الدرجة حتى قاموا على باب تلك العلية، فاستأذنوا فخرجت إليهم امرأته، فقالت: من أنتم؟ قالوا: ناس من العرب نلتمس الميرة.

وفي لفظ: لما سعدوا قدموا عبد الله بن عتيك لأنه كان يتكلم بلسان يهود، فاستفتح وقال: جئت أبا رافع بهدية، ففتحت له امرأته وقالت: ذاكم صاحبكم فدخلوا عليه، فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها باب الحجره ووجدوه وهو على فراشه، ما دلهم عليه في الظلمة إلا بياضه كأنه قبطية بيضاء فابتدروه بأسياقهم، ووضع عبد الله بن أنيس رضي الله عنه سيفه في بطنه وتحامل عليه حتى أنفذه وهو يقول قطني قطني: أي يكفيني يكفيني، وعند ذلك صاحت المرأة. قال بعضهم: ولما صاحت المرأة جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكف يده. قال: وفي رواية أن المرأة لما رأت السلاح أرادت أن تصيح، فأشار إليها بعضنا بالسيف فسكتت، فابتدرناه بأسياقنا وخرجنا من عنده، وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سييء البصر فوقع من الدرجة فوثبت رجله وثباً شديداً، أي جرحت جرحاً شديداً. وفي لفظ: قد انكسرت ساقه. وفي آخر فانخلعت رجله فعصبتها بعمامته، والجمع بين كسر ساقه وخلع رجله واضح، لأن الانخلاع يكون من المفصل، فقد انكسرت ساقه وانخلعت من مفصلها، ومع الكسر والانخلاع حصلت فيها جراحة أيضاً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 151

وأما قول ابن إسحاق رحمه الله فوثبت يده فويل وهم والصواب رجله كما تقدم. وفي السيرة الهشامية. فوثبت يده، وقيل رجله. وقد يقال: لا مانع من حصولهما، قال: فحملناه حتى أتينا محلاً استخفينا فيه: أي وذلك المحل من أفئنتهم التي يلقون فيها كناستهم. وفي لفظ: أنهم كمنوا في نهر من عيونهم حتى سكن الطلب.

وقد يقال: لا مخالفة، لأنهم أوقدوا النيران، وتفرقوا من كل وجه يطلبونهم أي وفي لفظ: فخرج الحارث في ثلاثة آلاف في آثارهم يطلبونهم بالنيران حتى إذا أبسوا رجعوا إلى عدو الله، فاكتنفوه وهو بينهم يجود بنفسه، فقال بعضنا لبعض: كيف نعلم أن عدو الله مات؟ فقال رجل منهم: أنا ذاهب فأنظر لكم، فانطلق حتى دخل في الناس قال: فوجدت امرأته تنظر في وجهه وفي يدها المصباح، ورجال يهود حوله وهي تحدثهم وتقول: أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك ثم أكذبت نفسي.

أي وعلى الرواية الآتية أنه أكذبها، ثم أقبلت تنظر في وجهه، ثم قالت فاضت وإله يهود: أي خرجت روحه، فما سمعت من كلمة كانت الذ إلى نفسي منها، ثم جئت وأخبرت أصحابي، واحتملنا عبد الله بن عتيك، وقدمنا إلى رسول الله .

وفي رواية: أن ابن عتيك لما عصب رجله انطلق حتى جلس على الباب. وقال: لا أخرج الليلة حتى أعلم أنني قتلته أو لا؟ فلما صاح الديك قام الناعي على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلق يحجل إلى أصحابه وقال قد قتل الله أبا رافع، فأسرعوا، وليتأمل هذا مع ما قبله، وقوله أنعى هو بفتح العين، وقيل الصواب انعوا، والنعي: خبر الموت والاسم الناعي. ويقال له الناعية، وكانت العرب إذا مات فيهم الكبير ركب راكب فرساً وصار يذكر أوصافه ومآثره، وقد نهى عن ذلك. ولا منافاة بين كونه انطلق يحجل إلى أصحابه وكونهم حملوه، لأنه يجوز أن يكون عند وقوعه وحصول ما تقدم له لم يحس بالألم لما هو فيه من الاهتمام وقدر على المشي يحجل، ومن ثم جاء في بعض الروايات: فقامت أمشي ما بي قلبية: أي علة مهلكة. فلما وصل إلى أصحابه وعاد عليه المشي أحس بالألم، فحمله أصحابه، وهذا السياق يدل على أن الذي قتله عبد الله بن عتيك وحده، وهو ما في البخاري، وفي رواية أن الذي كسرت رجله أبو قتادة لأنهم لما قتلوه وخرجوا نسي أبو قتادة قوسه فرجع إليها وأخذها فأصابت رجله فشدها بعمامته ولحق بأصحابه، وكانوا يتناوبون حمله حتى قدموا المدينة على النبي صلى الله عليه وسلم فمسحها فبرئت، أي وقال لما رأنا: أفلحت الوجوه، قلنا أفلح وجهك يا رسول الله وأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده في قتله كل منا ادعاه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتوا أسيافكم فجتناه بها فنظر إليها، فقال لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام. قال: والثابت في الصحيح كما علمت أن عبد الله بن عتيك هو الذي انفرد بقتله وأن عدو الله كان يحصن بأرض الحجاز، ولا منافاة لأن خبير من الحجاز، أي من قراه وريفه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 151

فلما دنوا من خبير وقد غربت الشمس وراح الناس بسرجهم، قال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله، ناداه بذلك كما ينادي الشخص شخصاً لا يعرفه وهو يظن أنه من أهل الحصن، إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب

فدخل وكمن. فلما أغلق الباب علق المفاتيح. قال ثم أخذتها وفتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده. فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقته عليّ من داخله حتى انتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت. قلت: أبا رافع، قال من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فضربته بالسيف فما أغنت شيئاً وصاح، فخرجت من البيت، أي وعند ذلك قالت له امرأته: يا أبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك. قال: ثكلتك أمك وأين عبد الله بن عتيك؟ قال ابن عتيك: ثم عدت وقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ قال لأمك الويل، إن رجلاً في البيت ضربني بالسيف فعمدت إليه فضربته أخرى فلم تغن شيئاً فتواريت ثم جئته كهيئة المغيث وغيرت صوتي، وإذا هو مستلق على ظهره فوضعت السيف في بطنه وتحاملت عليه حتى سمعت صوت العظم، ثم جئت إلى الدرجة فوقعت، فانكسرت رجلي فعصبتها بعمامتي فانطلقت إلى أصحابي، وقلت النجاة قد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه. فقال: ابسط رجلك فمسحها فكانني لم أشتكها قط، وعادت كأحسن ما كانت انتهى، أي وهذا ما في البخاري.

وفيه في رواية أخرى أن ابن عتيك قال: لما وضعت السيف في بطنه وتحاملت عليه حتى سمعت صوت العظم خرجت دهشاً حتى أتيت السلم: أي الذي صعدت فيه أريد أن أنزل فأسقطت منه فانخلعت رجلي، فعصبتها، فأتيت أصحابي أحجل. فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله، فإنني لا أبرح حتى أسمع الناعية، فلما كان في وجه الصبح صعد الناعية، فقال أنعى أبا رافع، فقامت أمشي ما بي قلبة، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشرته.

وفي سيرة الحافظ الدمياطي أنهم مكثوا في ذلك المحل الذي استخفوا فيه يومين حتى سكن عنهم الطلب. وينبغي النظر إلى وجه الجمع بين ما ذكر.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 151

سرية زيد بن حارثة رضي الله عنهما إلى القردة بفتح القاف والراء، وقيل بالفاء مفتوحة، وقيل بكسرهما وسكون الراء، وقدمه في الأصل على الأول: اسم ماء.

وسببها أن قريشاً لما كانت وقعة بدر خافوا الطريق التي كانوا يسلكونها إلى الشام من على بدر، فسلكوا طريقاً أخرى من جهة العراق. فخرج غير لهم فيه أموال كثيرة جداً من تلك الطريق يريدون الشام، واستأجروا رجلاً يدلهم على الطريق، وكان ذلك الرجل ممن هرب من أسارى بدر. وفي ذلك العير من أشراف قريش: أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وعبد الله بن أبي ربيعة، وحويط بن عبد العزى. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة في مائة راكب، وهي أول سرية لزيد بن حارثة خرج فيها أميراً، فصادف تلك العير على ذلك الماء فأصاب العير، وأفلت القوم وأسروا دليلهم. وقدم زيد رضي الله عنه بتلك العير على رسول الله صلى الله عليه وسلم فخمسها فبلغ الخمس ما قيمته عشرون ألف درهم، وأتي بذلك الأسير إلى رسول الله، فقيل له إن تسلم تترك: أي من القتل. فأسلم فتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه بعد ذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 154
سرية أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد

وهو ابن عمته برة بنت عبد المطلب وأخوه من الرضاعة، أرضعتها ثوية كما تقدم - إلى قطن - أي وهو جبل، وقيل ماء من مياه بني أسد. وسببها أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي أخبره بذلك رجل من طيء قدم المدينة لزيارة بنت أخيه بها، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سلمة المذكور، وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار، وخرج الرجل المخير له دليلاً لهم، وقال له: سر حتى تنزل أرض بني أسد فأغر عليهم قبل أن يتلاقى عليك جموعهم، فأعد السير، أي بفتح الهمزة والغين المشددة والذال المعجمتين: أي أسرع، ونكب، أي بفتح الكاف المخففة: عدل عن سيف الطريق، وسار بهم ليلاً ونهاراً ليستبق الأخبار، فانتهى إلى ماء من مياههم، فأغار على سرح لهم، وأسروا ثلاثة من الرعاة وأفلت سائرهم، ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق: فرقة بقيت معه، وفرقتان أغارتا في طلب النعم والشاء والرجال، فأصابوا إبلاً وشاء ولم يلقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة. قال: وقيل إنه خرج صفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك عبداً، أي لأنه كان يباح له أخذ الصفي، وهو ما يختاره له أمير السرية قبل القسمة من الفياء أو الغنيمة من جارية أو غيرها كما تقدم. وأخرج الخمس، ثم قسم ما بقي بين أصحابه، فأصاب كل إنسان سبعة أبعرة، أي وطليحة هذا كان يعد بألف فارس، قدم عليه في بعض الوفود وأسلم، ثم ارتد وادعى النبوة، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقويت شوكته، ثم أسلم بعد وفاة أبي بكر رضي الله عنه، وحسن إسلامه، وحج في زمن عمر رضي الله عنه، ولم يعرف لأخيه سلمة إسلام. بعث عبد الله بن أنيس إلى سفيان بن خالد الهذلي ثم اللحياني بكسر اللام وفتحها.

وسبب ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بلغه أن سفيان المذكور قد جمع الجموع لحرب رسول الله، فبعث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ليقتله، فقال: صفه لي يا رسول الله، فقال إذا رأيته هبته وفرقت: أي خفت منه وذكرت الشيطان، فقال عبد الله: يا رسول الله ما فرقت من شيء قط، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى إنك تجد له قشعريرة إذا رأيته، فقال عبد الله: فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقول: أي ما أتوصل به إليه من الحيلة فأذن لي: أي قال لي: قل ما بدا لك: أي وقال انتسب إلى خزاعة. قال عبد الله بن أنيس فسرت حتى إذا كنت بطن عرنة: وهو واد بقرب عرفة لقيته يمشي: أي متوكئاً على عصا يهد الأرض ووراءه الأحابيش: أي أخلاط الناس ممن انضم إليه، فعرفته بنعت رسول الله، لأنى هبته وكنت لأهاب الرجال، فقلت: صدق الله ورسوله، أي وكان وقت العصر، فخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة يشغلني عن الصلاة فصليت وأنا أمشي نحوه أومىء برأسي. فلما

انتهيت إليه، قال لي: من الرجل؟ فقلت: رجل من خزاعة، سمعت بجمعك
لمحمد فجننت لأكون معك، قال: أجل، إني لأجمع له، فمشيت معه ساعة
وحدثته فاستحلى حديثي. أي وكان فيما حدثته به أن قلت له: عجبت لما أحدث
محمد من هذا الدين المحدث. فارق الآباء، وسفه أحلامهم. فقال لي: إنه لم
يلق أحداً يشبهني ولا يحسن قتاله.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 155

فلما انتهى إلى خبائه وتفرق عنه صحابه قال لي: يا أخا خزاعة هلم، فدنوت
منه. فقال اجلس فجلست معه، حتى إذا هدأ الناس وناموا اغتررته فقتلته
وأخذت رأسه ثم دخلت غاراً في الجبل وصيرت العنكبوت: أي نسجت عليّ،
وجاء الطلب فلم يجدوا شيئاً. فأنصرفوا راجعين، ثم خرجت. فكنت أسير الليل
وأتوارى النهار حتى قدمت المدينة. فوجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم
في المسجد، فلما رأني قال: قد أفلح الوجه. قلت: أفلح وجهك يا رسول الله.
فوضعت رأسه بين يديه وأخبرته خبري، فدفع لي عصا وقال: تحضر بهذه في
الجنة: أي توكأ عليها فإن المتخصرين في الجنة قليل، فكانت تلك العصا عنده.
فلما حضرته الوفاة أوصى أهله أن يدخلوها في كفته ويجعلوها بين جلده وكفته
ففعلوا. أي وفي القاموس ذو المخصرة: أي كمكنسة بكسر الميم عبد الله بن
أنيس .

وهذه القصة وقصة كعب بن الأشرف تردّ على الزهري قوله لم يحمل إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس إلى المدينة قط. وحمل إلى أبي بكر
رضي الله تعالى عنه رأس فكره ذلك. وأول من حملت إليه الرؤوس عبد الله
بن الزبير رضي الله عنهما.

وفيه أنه لما قتل الحسين وجماعة من أهل بيته بعث ابن زياد قبحة الله
برؤوسهم إلى يزيد بن معاوية. وابن الزبير رضي الله عنهما لم يبايع بالخلافة إلا
بعد موت يزيد. ومضى مدة خلافة ابنه معاوية رضي الله عنه الذي خلع نفسه
وهي أربعون يوماً. ولعل إرسال رأس الحسين ومن معه كان قبل رأس عبد
الله بن أبي الحمق، فلا ينافي قول ابن الجوزي أول رأس حمل في الإسلام -
أي من المسلمين - رأس عبد الله بن أبي الحمق. وذلك أنه لدغ فمات،
فخشيت الرسل أن تتهم فقطعوا رأسه فحملوه.

ثم رأيت ابن الجوزي قال: قال ابن حبيب: نصب معاوية رضي الله عنه رأس
عمرو بن أبي الحمق. ونصب يزيد بن معاوية رأس الحسين رضي الله عنه.
وقول الزهري إلى المدينة لا يخالف ما في النور ما تقدم في غزوة بدر: كم من
رأس حمل بين يدي رسول الله ، لأن تلك الرؤوس لم تحمل إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بالمدينة، على أن فيه أنه لم يحمل إليه ذلك اليوم إلا
رأس أبي جهل على ما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 155

سرية الرجيع

وفي الأصل: بعث الرجيع. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة، وقيل

سنة عيوناً إلى مكة يتجسسون أخبار قريش ليأتوه بها، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله تعالى عنه، ويقال له ابن أبي الأفلح بالفاء، وقيل أمر عليهم مرثد الغنوي رضي الله عنه حليف عمه حمزة رضي الله عنه، ومرثد بفتح الميم وإسكان الراء وبالمثلثة. والغنوي بغين معجمة: أي وكان مرثد هذا يحمل الأسرى ليلاً من مكة حتى يأتي بهم المدينة، فوعد رجلاً من الأسرى بمكة أن يحمله، قال: فجئت به حتى انتهيت به إلى الحائط من حيطان مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق وكانت من جملة البغايا بمكة، فرأت ظلي في جانب الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني قالت: مرثد؟ قلت مرثد، قالت: مرحباً وأهلاً هلم تبت عندنا الليلة، فقلت: يا عناق إن الله حرم الزنا، فدلّت عليّ، فخرج في أثري ثمانية رجال، فتواريت في كهف الخندمة فجاؤوا حتى وقفوا على رأسي، فأعماهم الله عني، فلما رجعوا رجعت لصاحبي، فحملته وكان رجلاً ثقيلاً حتى انتهيت إلى محل فككت عنه قيده، ثم جعلت أحمله حتى قدمت المدينة، ثم استشرته أن أنكح عناق، فأمسك عني حتى نزلت الآية: {الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين} فدعاني فتلاها عليّ، ثم قال لي: لا تتزوجها.

وفي قطعة التفسير للجلال المحلي أن الآية نزلت في بغايا المشركين لما همّ فقراء المهاجرين أن يتزوجوهن وهن موسرات لينفقن عليهم، فقبل التحريم خاص بهم، وقيل عام، ونسخ بقوله: {وانكحوا الأيامى منكم} الآية. وفيه أن عند فقهائنا يحرم على المسلم نكاح من تعبد الأوثان وإن لم تكن بغياً. ومن جملة العشرة عبد الله بن طارق وخبيب بن عدي وخبيب تصغير خب: وهو الماكر من الرجال الخدّاع، وزيد بن الدثنة يفتح الدال المهملة وكسر الثاء المثلثة وقد تسكن ثم نون مفتوحة ثم تاء تأنيث مقلوب من الندثة. والندث: استرخاء اللحم، فخرجوا رضي الله عنهم: أي يسكرون الليل ويكمنون النهار، حتى إذا كانوا بالرجيع: وهو ماء لهذيل لقيهم سفيان بن خالد الهذلي الذي قتله عبد الله بن أنيس وجاء برأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم وقومه - وهم بنو لحيان - فإنهم ذكروا لهم فنفروا إليهم فيما يقرب من مائة رام، أي ولا يخالف ما في الصحيح قريباً من مائة رجل، فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا نوى تمر أكلوا في منزل نزلوه، أي فإن منهم امرأة كانت ترعى غنماً فرأت النوى فقالت: هذا تمر يثرب، فصاحت في قومها: أتيتم، فتبعوهم إلى أن وجدوهم في المجل المذكور، فلما أحسوا بهم لجؤوا إلى موضع من جبل هناك: أي صعدوا إليه، فأحاطوا بهم، وقالوا لهم: انزلوا ولكم العهد أن لا نقتل منكم أحداً، فقال عاصم رضي الله تعالى عنه: أما أنا فلا أنزل على ذمة: أي أمان وعهد كافر، فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً، أي وستة منهم، وصار عاصم يرميهم بالنبل وينشد أبياتاً منها:

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

الموت حق والحياة باطل
وكل ما قضى الإله نازل

بالمراء والمراء إليه آيل ولا زال يرميهم حتى فبنت نبلة، ثم طاعنهم حتى انكسرت رمحه، ثم سل سيفه. وقال: اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحم لحمي آخره، ونزل إليهم ثلاثة على العهد وهم: خبيب، وزيد، وعبد الله بن طارق رضي الله تعالى عنهم، فلما أمسكوهم أطلقوا أوتار قسيهم فربطوا خبيبا وزيدا وامتنع عبد الله، وقال: هذا أول الغدر: أي ترك الوفاء بعهد الله، والله لا أصحابكم، إن لي بهؤلاء يعني القتلى أسوة فعالجوه، فأبى أن يصحبهم أي فقتلوه كما في الصحيح، وقيل صحبهم إلى أن كانوا بمر الظهران يريدون مكة، انتزع عبد الله يده منهم، ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد، أي ودخلوا بهما مكة في شهر القعدة، فباعوهما بأسيرين من هذيل كانا بمكة، أي وقيل بيع كل بخمسين من الإبل، أي وقيل بيع خبيب بأمة سوداء، فابتاع بنو الحارث بن عامر خبيبا، قيل لأنه قتل الحارث يوم بدر كما في البخاري.

وتعقب بأن المعروف عندهم أن قاتل الحارث يوم بدر إنما هو خبيب بن إساف الخزرجي، أي وقيل القاتل له علي كرم الله وجهه، وخبيب بن عدي هذا أوسي لم يشهد بدرًا عند أحد من أرباب المغازي، أي وقيل في هذا تضعيف الحديث الصحيح.

ثم رأيت الحافظ ابن حجر رحمه الله ذكر أنه لزم من هذا رد الحديث الصحيح، ولو لم يقتل خبيب بن عدي الحارث بن عامر ما كان لاعتناء آل الحارث بشرايته وقتله به معنى، إلا أن يقال لكونه من قبيلة قاتله وهم الأنصار. وابتاع زيدا صفوان بن أمية رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك ليقتله بأبيه، فحبوسهما إلى أن تنقضي الأشهر الحرم، واستعار خبيب رضي الله تعالى عنه وهو محبوس موسى من بنت الحارث. وفي الصحيح من بعض بنات الحارث ليستحد بها: أي يخلق بها عانتها، فدرج لها ابن صغير وهي غافلة عنه حتى أتى إلى خبيب رضي الله تعالى عنه، فأجلسه خبيب رضي الله تعالى عنه على فخذة والموسى بيده، فلما رأت ابنها على تلك الحالة فرعت فرعة عرفها خبيب رضي الله تعالى عنه، فقال: أتخشين أن أقتله: ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى، وبكسر الكاف لأنه خطاب للمؤنث.

وروي أنه رضي الله عنه أخذ بيد الغلام، وقال: هل أمكن الله منكم، فقالت المرأة ما كان هذا ظني بك، فرمى لها بالموسى، وقال: إنما كنت مازحًا، ما كنت لأغدر.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

وفي السيرة الشامية أن تلك المرأة قالت: قال لي: تعني خبيبا رضي الله تعالى عنه حين حضره القتل: ابعتي إليّ بحديدة تطهر بها للقتل: أي وقد كان رضي الله تعالى عنه قال لها: إذا أرادوا قتلي فأذنيني، فلما أرادوا قتله أذنته، فطلب منها تلك الحديدية، قالت: فأعطيت غلاماً من الحي الموسى، فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل البيت، قالت: فوالله لما دخل عليه الغلام قلت والله أصاب الرجل ثأره بقتل هذا الغلام ويكون رجل برجل، فلما ناوله الحديدية أخذها من يده، ثم قال: لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدية إليّ؟ ثم خلى سبيله. ويقال إن الغلام ابنها: أي ويرشد إليه قول خبيب رضي الله تعالى عنه: ما خافت أمك.

وكانت بنت الجارث تقول: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، قالت: والله لقد وجدته يوماً أي وقد اطلعت عليه من شق الباب يأكل قطعاً من عنب في يده: أي مثل رأس الرجل، وأنه لموثق بالحديد وما بمكة ثمرة. وفي رواية: لا أعلم في أرض الله عنياً يؤكل.

أي واستدل أئمتنا بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته، ولعل ذلك كان بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأقره، فلما انقضت الأشهر الحرم بانقضاء المحرم خرجوا بخبيب من الحرم ليقتلوه في الحل، فلما قدم للقتل قال لهم: دعوني أصل ركعتين، فتركوه فركع ركعتين وقال لهم: والله لولا أن تحسبوا أن ما بي من جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بديداً: أي متفرقين واحداً بعد واحد، ولا تبق منهم أحداً: أي الكفار، وقد قتلوا في الخندق متفرقين. قال: ذكر أنهم لما خرجوا به ليقتلوه خرج النساء والصبيان والعبيد، فلما انتهوا به إلى التنعيم أمروا بخشبة طويلة فحفروا لها، فلما انتهوا بخبيب إليها وبعد صلاته للركعتين صلبوه على تلك الخشبة، أي ليراه الوارد والصادر، فيذهب بخبره إلى الأطراف، ثم قالوا له: ارجع عن الإسلام نخل سبيك، وإن لم ترجع لنقتلك قال: إن قتلي في سبيل الله لقليل، اللهم إنه ليس هنا أحد يبلغ رسولك عني السلام، فبلغه أنت عني السلام وبلغه ما يصنع بنا.

وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا مع أصحابه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي فسمعناه يقول: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، فلما سري عنه قال: هذا جبريل عليه السلام يقرئني من خبيب السلام، خبيب قتلته قريش».

وقد جاء: أن المشركين دعوا أربعين ولداً ممن قتل آباؤهم يوم بدر فأعطوا كل واحد رمحاً، وقالوا هذا الذي قتل آباءكم، فطعنوه بتلك الرماح حتى قتلوه، ووكلوا بتلك الخشبة أربعين رجلاً، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم المقداد والزبير بن العوام رضي الله تعالى عنهما في إنزال خبيب عن خشبته. وفي لفظ قال: «أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟ فقال له الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود، فجاء فوجدا عندها أربعين رجلاً لكنهم سكارى نيام فأنزلاه» وذلك بعد أربعين يوماً من صلبه وموته.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

وحمله الزبير رضي الله تعالى عنه على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء فشعر بهما المشركون، أي وكانوا سبعين رجلاً فتبعوهما، فلما لحقوا بهما قذفه الزبير رضي الله تعالى عنه، فابتلعت الأرض اهـ. ومن ثم قيل له بليع الأرض، أي وكشف الزبير رضي الله تعالى عنه العمامة عن رأسه وقال لهم: أنا الزبير بن العوام وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يذبان عن شبلهما، فإن شئتم ناضلتكم، وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا عنهما.

وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان عنده جبريل عليه

السلام، فقال له جبريل: يا محمد إن الملائكة تباهي بهذين الرجلين من أصحابك، فنزل فيهما: {ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله} الآية، وتقدم أنه قيل إنها نزلت في عليّ كرم الله وجهه لما نام على فراشه ليلة ذهابه إلى الغار. وقيل إنها نزلت في حق صهيب لما أراد الهجرة ومنعه منها قريش، فجعل لهم ثلث ماله أو كله كما تقدم. ورأيت بعضهم هنا قال: إنها نزلت في صهيب رضي الله تعالى عنه لما أخذه المشركون ليعذبوه، فقال لهم: إني شيخ كبير لا يضركم أمنكم كنت أو من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتدعونني وديني ففعلوا.

وفي كلام ابن الجوزي رحمه الله أن عمرو بن أمية هو الذي أنزل خبيباً، فعنه رضي الله تعالى عنه قال: جئت إلى خشبة خبيب فرقيت فيها فحللتها فوقع إلى الأرض، ثم التفت فلم أر خبيباً ابتلغته الأرض، وهذا هو الموافق لما في السيرة الهشامية، وأن ذلك كان حين أرسله والأنصار لقتل أبي سفيان بن حرب كما سيأتي إن شاء الله تعالى: أي كان خبيب رضي الله تعالى عنه تحرك على الخشبة فانقلب وجهه عن القبلة: أي الكعبة فقال: اللهم إن كان لي عندك خير فحول وجهي نحو قبلك، فحول الله وجهه نحوها، فقال: الحمد لله الذي جعل وجهي نحو قبلته التي رضي الله لنفسه ولنبيه عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين، ودعا عليهم خبيب رضي الله تعالى عنه، فقال: اللهم احصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما: فألقى أبو سفيان بنفسه إلى الأرض على جنبه خوفاً من دعوة خبيب رضي الله تعالى عنه، لأنهم كانوا يقولون إن الرجل إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زال عنه: أي لم تصبه تلك الدعوة.

وقد ولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه سعد بن عامر رضي الله تعالى عنه على بعض أجناد الشام، فقبل له إنه مصاب يلحقه غشي، فاستدعاه، فلما قدم عليه وجد معه مزوداً وعكازاً وقدحاً، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: ليس معك إلا ما أرى، فقال له: وما أكثر من هذا يا أمير المؤمنين؟ مزودي أضع فيه زادي، وعكازي أحمل به ذلك، وقدحني أكل فيه، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: أبك لمم؟ فقال: لا، فقال: فما غشيت بلغني أنها تصيبك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس، ولكنني كنت فيمن حضر خبيب بن عدي حين قتل، وسمعت دعوته، فوالله ما خطرت على قلبي وأنا في مجلس قط إلا غشي علي فزاده ذلك عند عمر رضي الله تعالى عنهما خيراً، ووعظ عمر، فقال له: من يقدر على ذلك؟ فقال: أنت يا أمير المؤمنين، إنما هو أن يقال فتطاع، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: ارجع إلى عملك، فأبى، وناشده الإعفاء، فأعفاه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

وكان خبيب رضي الله تعالى عنه هو الذي سن لكل مسلم قتل صبراً الصلاة، أي لأنه بلغه ذلك عنه فاستحسنه فكان سنة، وهذا يدل على أن واقعة زيد بن

حارثة رضي الله تعالى عنهما متأخرة عن قصة خبيب رضي الله تعالى عنه، لكن في النور: والمعروف أن زيد بن حارثة صلاهما قبل خبيب بزمن طويل.

وفي الينبوع أن قصة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما كانت قبل الهجرة، أي وكان ابن سيرين رحمه الله إذا سئل عن الركعتين قبل القتل، قال: صلاهما خبيب رضي الله تعالى عنه وحجروهما فاضلان، ويعني بحجر: حجر بن عدي رضي الله تعالى عنه، فإن زياداً والي العراق من قبل معاوية رضي الله تعالى عنه وشى به إلى معاوية، فأمر معاوية بإحضاره، فلما قدم على معاوية، قال له: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية رضي الله تعالى عنه: أو أمير المؤمنين أنا اضربوا عنقه، فلما قدم للقتل قال: دعوني أصلي ركعتين، فصلاهما خفيفتين، ثم قال رضي الله تعالى عنه: لولا أن تظنوا بي غير الذي بي لأطلتهما، ثم قتل هو وخمسة من أصحابه. ولما حج معاوية رضي الله تعالى عنه وجاء المدينة زائراً استأذن على عائشة رضي الله تعالى عنها فأذنت له، فلما قعد، قالت له: أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟ قال: إنما قتلهم من شهد عليهم.

وقصة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما رواها الليث بن سعد. قال: بلغني أن زيد بن حارثة اكرى بعلًا من رجل بالطائف، فمال به ذلك الرجل إلى خربة وقال له: انزل فنزل زيد رضي الله تعالى عنه، فإذا في الخربة المذكورة قتلى كثيرة، فلما أراد أن يقتله، قال له: دعني أصلي ركعتين، أي لأنه رأى أن الصلاة خير ما ختم به عمل العبد، قال صلّ فقد صلى قبلك هؤلاء فلم تنفعهم صلاتهم شيئاً، وهذا يدل على أن القتلى كلهم كانوا مسلمين، قال: فلما صليت أتاني ليقتلني، فقلت: يا أرحم الراحمين، قال: فسمع صوتاً يقول: لا تقتله، فهاب ذلك، فخرج يطلبه، فلم ير شيئاً فرجع إليّ، فناديت يا أرحم الراحمين، فعل ذلك ثلاثاً، فإذا بفارس على فرس في يده حربة حديد في رأسها شعلة نار فطعنه بها فأنفذه من ظهره فوق مبيتاً. ثم قال لي لما دعوت الأولى «يا أرحم الراحمين» كنت في السماء السابعة، فلما دعوت الثانية «يا أرحم الراحمين» كنت في سماء الدنيا، فلما دعوت الثالثة أتيتك.

أقول: وقد وقع مثل ذلك لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأنصار يكنى أبا معلق، وكان يتجر بمال له ولغيره يسافر به في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة في بعض أسفاره، فلقه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، فقال: ما تريد من دمي؟ فشأنك والمال، فقال: أما المال فلي، ولسيت أريد إلا دمك فقال: ذرني أصلي أربع ركعات، فقال صل ما شئت، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات، ثم دعا في آخر سجدة، فقال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، ومملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا

اللص، يا مغيث أغثني، وكرر ذلك ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة وضعها من أدنى فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه، فطعنه الفارس فقتله، ثم أقبل إلى أبي معلق، فقال: قم، فقال: من أنت بأبي أنت وأمي، فلقد أغاثني الله بك اليوم، قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقة، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي دعاء مكروب، فسألت الله تعالى أن يوليني قتله، قال أنس رضي الله تعالى عنه: من فعل ذلك استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

أي وقد وقع نظير هذه المسألة، أي من حيث إقراره على فعل غيره، وهو أنهم كانوا يأتون الصلاة قد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل كم صلى؟ فيقول واحدة أو اثنتين فيصليها وحده، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم، فجاء معاذ رضي الله تعالى عنه، فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها، ثم قضيت ما سبقني، فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فثبت معه، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته قام فقضى ما عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه قد سن لكم معاذ، فكذا فاصنعوا، أي وكان هذا قبل قوله: «ما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا».

وأخرج صفوان بن أمية رضي الله تعالى عنه زيدا رضي الله تعالى عنه إلى الحل مع مولى له ليقتله به، واجتمع عند قتله رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فلما قدم للقتل، قال له أبو سفيان رضي الله تعالى عنه: انشده بالله يا زيد أتحب محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك، فقال والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني لخالص في أهلي، فقال أبو سفيان رضي الله تعالى عنه: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ونقل مثل ذلك عن خبيب رضي الله تعالى عنه، أي فإنهم لما وضعوا السلاح في خبيب رضي الله تعالى عنه وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحب أن محمداً مكانك؟ قال: لا والله ما أحب أن يؤذى بشوكة في قدمه، ثم قتله ذلك المولى. أي طعنه برمح في صدره حتى أنفذه من ظهره، وقيل رمي بالنبل، وأرادوا فتنته عن دينه، فلم يزد إلا إيماناً.

ولما قتل عاصم رضي الله تعالى عنه الذي هو أمير هذه السرية على ما تقدم، أرادت هذيل أخذ رأسه لبيعوه من سلافة وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة بن أبي طلحة بن عبد الدار وكلام بعضهم يقتضي أنها أسلمت بعد، فإن عاصماً هذا كما تقدم قتل يوم أحد ولديها كلاهما أشعره سهماً، وكل يأتي إليها بعد إصابته بالسهم ويضع رأسه في حجرها، فتقول: يا بني من أصابك؟ فيقول: سمعت رجلاً يقول حين رماني: خذها وأنا ابن أبي الأفلح فنذرت إن قدرت على رأسه لتشرين في قحفة الخمر، وجعلت لمن يجيء برأسه مائة ناقة كما

تقدم، فحالت الدبر بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة: وهي الزنابير بينهم وبين عاصم رضي الله تعالى عنه، كلما قدموا على قحفة طارت في وجوههم ولدغتهم فقالوا: دعوه حتى يمسي فنأخذه، فبعث الله الوادي: أي سال، فاحتمل السيل عاصماً فذهب به حيث أراد الله فيسمي حمى الدبر وبعث ناس من قريش لما بلغهم قتل عاصم في طلب جسده أو شيء منه يعرفونه: أي ليمثلوا به لأنه قتل عظيماً من عظمائهم، قال الحافظ ابن حجر لعله عقبه بن أبي معيط فإن عاصماً قتله صبراً بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انصرفوا من بدر أي كما تقدم، قال: وكان قريشاً لم تشعر بما جرى لهذيل من منع الزنابير لهم عن عاصم، أو شعروا بذلك ورجوا أن الزنابير تركته: أي ولم يشعروا بأن السيل أخذه اهـ أي وقد كان عاصم رضي الله تعالى عنه دعا الله أن لا يمس مشركاً، ولا يمسه مشرك في حياته، وتقدم هنا أنه دعا الله أن يحمي لحمه فاستجاب الله له، فلم يحصل له ذلك لا في حياته ولا بعد موته.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

أي وفي كلام بعضهم: لما نذر عاصم أن لا يمس مشركاً ووفى بنذره عصمه الله عن مساس سائر المشركين إياه، فصار عاصم معصوماً هذا.

وقيل إن هؤلاء العشرة لم يخرجوا ليأتوا بخبر قريش، وإنما خرجوا مع رهط من عضل والقارة، وهما بطنان من بني الهون قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهونا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام، فبعث معهم أولئك النفر، فساروا حتى إذا كانوا على الرجيع استصرخوا عليهم هذيلًا، فلم يشعروا إلا والرجال بأيديهم السيوف فدعوهم فأخذوا أسيافهم ليقتلوا القوم، فقالوا لهم: والله لا نريد قتلكم، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقلكم، فأبوا الحديث، والحافظ الدمياطي رحمه الله اقتصر على هذا الثاني، وأن أميرهم كان مرثداً الغنوي رضي الله تعالى عنه، فقال: سرية مرثد الغنوي إلى الرجيع، قال قدم رهط من عضل والقارة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً الحديث، لكنه في سياق القصة قال وأمر عليهم عاصماً وقيل مرثداً رضي الله تعالى عنهما، وآخر هذه السرية عن السرية بعدها التي هي سرية القراء إلى بئر معونة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 157

سرية القراء رضي الله تعالى عنهم إلى بئر معونة لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عامر بن مالك ملاعب الأسنة: أي ويقال له ملاعب الرماح وهو رأس بني عامر. أي ويقال له أيضاً أبو براء بالمد لا غير، وهو عم عامر بن الطفيل عدو الله، أي وأهدى إليه ترسين وراحتين فقال له رسول الله: «لا أقبل هدية من مشرك». وفي رواية: «نهيت عن عطايا المشركين».

أقول: وفي كلام السهيلي أنه أهدى إليه فرساً، وأرسل إليه إني قد أصابني وجع فابعث إلي بشيء أتداوى به فأرسل إليه بعكة غسل، وأمره أن يستشفى

به، وقال: «نهيت عن زيد المشركين» قال السهيلي: والزيد مشتق من الزيد، لأنه نهى عن مدهنتهم واللين لهم: كما أن المدهنة مشتقة من الدهن، فرجع المعنى إلى اللين، كذا قال، ولعل هذا كان بعد ما تقدم. ويحتمل أن يكون قبله وهو الأقرب والله أعلم.

فلما قدم عليه أبو عامر عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام، أي وقال إني أرى أمرك هذا أمراً حسناً شريفاً، أي ولم يسلم بعد ذلك علي الصحيح، خلافاً لمن عده في الصحابة، ثم قال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد: أي وهم بنو عامر وبنو سليم، فدعوتهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أخشى أهل نجد عليهم، قال أبو براء: أنا لهم جار وهم في جوارى وعهدي، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، وخرج أبو براء إلى ناحية نجد وأخبرهم أنه قد أجاز أصحاب محمد، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو رضي الله تعالى عنه في أربعين، وقيل في سبعين، وعليه اقتصر الحافظ الدمياطي: أي لأنه الذي في الصحيح البخاري، وقيل في ثلاثين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين.

أي وذكر الحافظ ابن حجر أن هذا القيل وهم، وأنه يمكن الجمع بين كونهم سبعين وكونهم أربعين بأن الأربعين كانوا رؤساء وبقية العدة كانوا أتباعاً، ويقال لهؤلاء القراء: أي لملازمتهم قراءة القرآن، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا في ناحية المدينة يصلون ويتدارسون القرآن، فيظن أهلهم إنهم في المسجد، ويظن أهل المسجد أنهم في أهاليهم، حتى إذا كان وجه الصبح استعذبوا من الماء واحتطبوا وجاءوا بذلك إلى حجر النبي .

وفي كلام بعضهم أنهم كانوا يحتطيون بالنهار، ويتدارسون القرآن بالليل، وكانوا يبيعون الحطب ويشترون به طعاماً لأصحاب الصفة.

وقد يقال: لا منافاة، لجواز أنهم كانوا يفعلون هذا مرة وهذا أخرى، أو بعضهم يفعل أحد الأمرين وبعضهم يفعل الآخر، وكان منهم عامر بن فهيرة رضي الله تعالى عنه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 166

وكتب لهم كتاباً فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم، والحرة: أرض فيها حجارة سود، فلما نزلوها بعثوا حرام، بالحاء المهملة والراء، ابن ملحان وهو خال أنس بن مالك بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل لعنه الله. أي وهو رأس بني سليم. وفي لفظ سيد بني عامر وابن أخي أبي براء عامر بن مالك كما تقدم، فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا عليه فقتله، أي بعد أن قال: يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم، فأمنوا بالله ورسوله، فجاء إليه رجل من خلفه قطعنه بالرمح في جنبه حتى نفذ من جنبه الآخر، فقال: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، وقال: بالدم هكذا فنضحه على وجهه ورأسه، ثم استصرخ عليهم: أي استغاث بني عامر. فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: إنا لن نخفر بابي براء: أي لا نزيل خفارته وتنقض عهده، وقد عقد لهم عقداً وجواراً، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم. قال الحافظ

الدمياطي: عصية ورعلا وذكوان زاد بعضهم: وبني لحيان، قال بعضهم: وليس في محله.

أقول: كان قائله سرى إليه ذلك من كونه جمع بني لحيان في الدعاء عليهم مع من ذكر قبله. وسيأتي أنه إنما جمعهم معهم لأن خبر أصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة جاءه في يوم واحد وبني لحيان أصحاب الرجيع، فدعا عليهم دعاء واحداً، والله أعلم، فلما دعا تلك القبائل الثلاثة التي هي عصية ورعل وذكوان أجابوه إلى ذلك، ثم خرجوا حتى أحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم فقاتلوهم حتى قتلوا إلى آخرهم إلا كعب بن زيد رضي الله تعالى عنه، فإنه بقي به رمق، وحمل من المعركة، فعاش بعد ذلك حتى قتل يوم الخندق شهيداً، وإلا عمرو بن أمية الضمري رضي الله تعالى عنه ورجلاً آخر كانا في سرح القوم، لما أحاطوا بهم قالوا: اللهم إنا لا نجد من يبلغ رسولك عنا السلام غيرك، فأقرته منا السلام، فأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بذلك، فقال: وعليهم السلام.

أي وفي لفظ أنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا فلما جاءه الخبر من السماء قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن إخوانكم قد لقوا المشركين، وقتلوهم، وإنهم قالوا: ربنا بلغ قومنا أنا قد لقينا ربنا ورضينا عنه ورضي عنا ربنا. وفي لفظ: فرضي عنا وأرضانا فأنا رسولهم إليكم إنهم قد رضوا عنه ورضي عنهم.

وذكر أنس رضي الله عنه أن ذلك: أي قولهم المذكور كان قرآناً يتلى، ثم نسخت تلاوته، أي فصار ليس له حكم القرآن من التعبد بتلاوته وأنه لا يمسه إلا الطاهر ولا يتلى في صلاة إلى غير ذلك من أحكام القرآن.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 166

ولما رأى عمرو بن أمية والرجل الذي معه الطير تحوم على محل أصحابهما، أي وكانا في رعاية إبل القوم كما تقدم، قالا والله إن لهذا الطير لشأناً، فأقبلا ينظران، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الرجل الذي مع عمرو: ماذا ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فقال له لكني ما كنت لأرغب بنفسني عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو، فأقبلا فلقيا القوم، فقتل ذلك الرجل وأسر عمرو، فأخبرهم أنه من مضر. فأخذه عامر بن الطفيل وجز ناصيته. وأعتقه عن رقبة كانت على أمه. فخرج عمرو حتى جاء إلى ظل فجلس فيه. فأقبل رجلان حتى نزلا به معه، فسألتهما فأخبراه أنهما من بني عامر، وفي لفظ من بني سليم وكان معهما عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعلم به عمرو. فأمهلتهما حتى ناما فعدا عليهما فقتلتهما وهو يرى أي يظن أنه قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر، فلما قدم عمرو على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الخبر وأخبره بقتل الرجلين، فقال له: لقد قتلت قتيلين لأدينيهما: أي لأدفعن ديتيها. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا عمل أبي براء. قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً. ولما بلغ أبا براء أن عامر بن الطفيل ولد أخيه أزال خفارته شق

عليه ذلك وشق عليه ما أصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه فعند ذلك حمل ربيعة بن أبي براء على عامر بن الطفيل، أي الذي هو ابن عمه فطعنه بالرمح فوقع في فخذه ووقع عن فرسه، وقال: إن أنا مت فدمي لعمي يعني أبا براء، وإن أعش فسأرى رأيي، أي وفي لفظ: نظرت في أمري.

وفي الإصابة أن ربيعة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيعسل عن أبي هذه العذرة أن أضرب عامر بن الطفيل ضربة أو طعنة، قال نعم فرجع ربيعة فضرب عامراً ضربة أشواه منها فوثب عليه قومه، فقالوا لعامر بن الطفيل اقتص، فقال قد عفوت. أي وعقب ذلك مات أبو براء أسفاً على ما صنع به ابن أخيه عامر بن الطفيل من إزالته خفارته، وعاش عامر بن الطفيل ولم يمت من هذه الطعنة، بل مات بالطاعون بدعائه كما سيأتي في الوفود في وفد بني عامر ().

أي وقال بعضهم: قد أخطأ المستغفري في عده صحابياً، ولما قتل عامر بن فهيرة رضي الله تعالى عنه رفع إلى السماء، فلما رأى قاتله ذلك أسلم، أي وهو جبار بن سلمى، أي لا عامر بن الطفيل كما وقع في بعض الروايات، كما علمت.

وقال أي لما بلغه قتل عامر بن فهيرة: «إن الملائكة وارت جثة عامر بن فهيرة» أي في الأرض: أي بناء على أنه لما وقع إلى السماء وضع كما في البخاري، فقد جاء أن عامر بن الطفيل، قال لعمر بن أمية رضي الله تعالى عنه وأشار إلى قتيل من هذا، فقال له عمرو هذا عامر بن فهيرة، فقال لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنني لأنظر إلى السماء وبين الأرض ثم وضع.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 166

وفي بعض الروايات أن عامر بن فهيرة التمس في القتلى يومئذ، أي فلم يوجد فيرون أن الملائكة رفعته، وظاهرها أن الملائكة لم تضعه في الأرض بل رفعته، أي ويؤيده أن عامر بن الطفيل لعنه الله دخل بعمر بن أمية رضي الله تعالى عنه في القتلى، وصار يقول له ما اسم هذا، ما اسم هذا، ما اسم هذا؟ ثم قال له هل من أصحابك من ليس فيهم؟ قال نعم، ما رأيت فيهم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما، قال له عامر: أي رجل هو فيكم؟ قال: من أفضلنا وأولى، أي ومن أولى المسلمين من أصحاب رسول الله، فقال له عامر: لما قتل رأيته رفع إلى السماء.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أنه قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة، ومكث يدعو عليهم ثلاثين صباحاً.

أقول: وفي رواية الشيخين قنت شهراً أي متتابعاً يدعو علي قاتلي أصحاب بئر معونة، أي بعد الاعتدال في الصلوات الخمس من الركعة الأخيرة وحينئذ يكون المراد بالصباح اليوم وليته.

وذكر بعض أصحابنا أنه: «كان يرفع يديه في الدعاء المذكور وقاس عليه

رفعهما في قنوت الصبح» وروى الحاكم أنه كان يرفع يديه في قنوت الصبح. واستدل أصحابنا على استحباب القنوت للنازلة في سائر المكتوبات بقنوته ودعائه على قاتلي أصحاب بئر معونة.

وفي بعض السير: فدعا النبي صلى الله عليه وسلم شهراً عليهم في صلاة الغداة. وفي لفظ يدعو في الصبح، وذلك بدء القنوت، وما كان يقنت رواه الشيخان.

وقد سئل الجلال السيوطي هل دعاؤه على من قتل أصحابه كان عقب فراغه من القنوت المشهور أو كان الدعاء هو قنوته؟ فأجاب رحمه الله بأنه لم يقف على شيء من الأحاديث يدل على أنه جمع بين القنوت والدعاء، قال: بل ظاهر الأحاديث أنه اقتصر على الدعاء، أي فيكون قنوته هو الدعاء، وهو الموافق لقول أصحابنا. ويستحب القنوت في اعتدال آخره صبح مطلقاً وآخر سائر المكتوبات أي باقيها للنازلة وهو: اللهم اهدنا الخ في أن أل في القنوت للعهد والله أعلم.

وفي رواية أنه يدعو على الذين أصابوا أصحابه في الموضعين، أي بئر معونة والرجيع دعاء واحداً، لأنه جاءه خبرهما في وقت واحد كما تقدم، وأدمج البخاري رحمه الله بئر معونة مع بعث الرجيع لقربهما في الزمن، أي ففيه مكث يدعو على أحياء من العرب على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان، أي وهو يقتضي أنهما شيء واحد وليس كذلك، وقد علمت أن بني لحيان قتلوا أصحاب الرجيع ومن قبلهم قتلوا أصحاب بئر معونة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 166

سرية محمد بن سلمة إلى القرطاء

بالقاف المفتوحة وبالطاء المهملة، وهم بنو بكر بن كلاب. بعث محمد بن مسلمة إلى القرطاء في ثلاثين راكباً أي وأمره أن يسير إلى الليل ويكمن النهار، وأمره أن يشن عليهم الغارة فصار الليل وكمن النهار، قال: وصادف في طريقه ركبانا نازلين، فأرسل إليهم رجلاً من أصحابه يسأل من هم؟ فذهب الرجل ثم رجع إليه، فقال: قوم من محارب، فنزل قريباً منهم، ثم أمهلهم حتى عطنوا: أي بركوا الإبل حول الماء، أغار عليهم، فقتل نفرًا منهم أي عشرة وهرب سائرهم، واستاق نعماً وشاء، ولم يتعرض للظعن أي النساء انتهى ثم انطلق حتى إذا كان بموضع يطلعه على بني بكر بعث عابد بن بشير إليهم وخرج محمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه في أصحابه فشن عليهم الغارة، فقتل منهم عشرة واستاقوا النعم والشاء، ثم انحدر رضي الله تعالى عنه إلى المدينة فخمس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به وعدل الجزور بعشرة من الغنم، وكان النعم مائة وخمسين بغيراً، والغنم ثلاثة آلاف شاة، وأخذت تلك السرية ثمانية بن أثال الحنفي من بني حنيفة أي سيد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه، وحيء به إلى رسول الله، فقال لهم: أتدرون من أخذتم، هذا ثمانية بن أثال الحنفي، فأحسنوا إيساره أي قيده () فربط بسارية من سواري المسجد.

قال: وقيل إن هذه السرية لم تأخذه بل دخل المدينة وهو يريد مكة للعمرة فتحير في المدينة، وقد كان جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا من عند مسيلمة وأراد اغتياله، فدعا ربه أن يمكنه منه، فأخذ وحيء به إلى رسول الله، فربط بسارية من سواري المسجد، فدخل على أهله فقال اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه، وأمر له بناقة يأتيه لبنها مساءً وصباحاً، وكان ذلك لا يقع عند ثمامة موقعاً من كفايته: أي وجاء إليه رسول الله، فقال: ما لك يا ثمام: هل أمكن الله منك؟ فقال: قد كان ذلك يا محمد. وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه فيقول: ما عندك يا ثمامة، فيقول: يا محمد عندي خير، إن تقتل تقتل ذا كرم. وفي لفظ: ذا دم، وإن تعف تعف عن شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت ففعل ذلك معه، ثلاثة أيام، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: فجعلنا أيها المساكين أي أصحاب الصفة نقول: نبينا ما يصنع بدم ثمامة، والله لأأكله جزور سميئة من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة.

وفي الاستيعاب أنه انصرف عن ثمامة وهو يقول: اللهم أكلة لحم من جزور أحب إلي من دم ثمامة، ثم أمر به فأطلق، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الثالث قال: أطلقوا ثمامة فقد عفوت عنك يا ثمامة، فأطلق، فانطلق إلى ماء جار قريب من المسجد فاغتسل وطهر ثيابه، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 171

أي وهذا يخالف ما ذكره فقهاؤنا من الاستدلال بقصة ثمامة علي أنه يستحب لمن أسلم أن يغتسل لإسلامه، ثم رأيت بعض متأخري أصحابنا أجاب بأنه أسلم أولاً، ثم لما اغتسل أظهر إسلامه.

وفي الاستيعاب: فأسلم، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يغتسل كما في رواية أخرى أنه قال: يا محمد والله ما على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، والله ما كان على الأرض من دين أبغض إلي من دينك، فقد أصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلي، ثم شهد شهادة الحق، فلما أمسى جيء له بما كان يأتيه من الطعام، فلم ينل منه إلا قليلاً. ولم يصب من حلاب اللقحة إلا يسيراً، فعجب المسلمون. قال وقال: يا رسول الله إني خرجت معتمراً، وفي لفظ في الصحيح: فإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فأمره أن يعتمر، فلما قدم بطن مكة لبي، فكان أول من دخل مكة ملبياً، فأخذته قريش، فقالوا: لقد اجترأت علينا، أنت صوت يا ثمامة. قال: أسلمت وتبعني خير دين محمد، والله لا يصل إليكم حية من حنطة: أي من الإمامة من أرض اليمن، وكانت ريفاً لأهل مكة حتى يأذن فيها رسول الله، فقدموه ليضربوا عنقه، فقال قائل منهم: دعوه فإنكم تحتاجون إلى الإمامة فخلوا سبيله، فخرج ثمامة إلى الإمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً حتى أضرب بهم الجوع، وأكلت قريش العلهز وهو الدم يخلط بأوبار الإبل فيشوى على النار كما تقدم، فكتبت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألسنت تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين، فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا. فكتب رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى ثمامة رضي الله تعالى عنه أن يخلي بينهم وبين الحمل. وفي لفظ: خل بين قومي وبين ميرتهم، ففعل، فأنزل الله تعالى: {ولقد أخذناهم بالعذاب} الآية.

هذا والذي في الاستيعاب أن ثمامة لما دخل مكة وقد سمع المشركون خبره، فقالوا: يا ثمامة صبوت وتركت دين أبائك، قال: لا أدري ما تقولون، إلا أنني أقسمت برب هذه البنية يعني الكعبة لا يصل إليكم من اليمامة شيء مما تنفعون به حتى تتبعوا محمداً من آخركم، وكانت ميرة قريش ومنافعهم من اليمامة، ثم خرج رضي الله تعالى عنه فمنع عنهم ما كان يأتي منها. فلما أضرب بهم ذلك كتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم وتحث عليها وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا وأضرب بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن خل بين قومي وبين ميرتهم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 171

ولما عجب المسلمون من أكله بعد إسلامه رضي الله تعالى عنه، لكونه دون أكله قبل إسلامه قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: مم تعجبون؟ أمن رجل أكل أول النهار في معنى كافر وأكل آخر النهار في معنى مسلم، إن الكافر ليأكل في سبعة أمعاء، وإن المسلم يأكل في معنى واحد انتهى.

أي وقد وقع له ذلك مع جهجاه الغفاري رضي الله تعالى عنه فإنه أكل مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو كافر فأكثر، ثم أكل معه وقد أسلم فأقل، فقال النبي: «المؤمن يأكل في معنى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء» ولعل المراد بالأكل ما يشمل الشرب، ثم رأيت في الجامع الصغير: «إن الكافر ليشرب في ستعة أمعاء والمسلم يشرب في معنى واحد» والمراد أنه يأكل ويشرب مثل الذي يأكل ويشرب في سبعة أمعاء.

وكان رضي الله تعالى عنه مقيماً باليمامة، ولما ارتد أهل اليمامة ثبت ثمامة في قومه على الإسلام، وكان ينهاهم عن اتباع مسيلمة لعنه الله، ويقول لهم: إياكم وأمرًا مظلمًا لا نور فيه، وإنه لشقاء كتبه الله على من اتبعه منكم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 171

سرية عكاشة بن محصن رضي الله تعالى عنه إلى الغمر يفتح الغين المعجمة وسكون الميم والراء: ماء لبني أسد: أي جمع من بني أسد:

وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عكاشة بن محصن الأسدي رضي الله تعالى عنه في أربعين رجلاً منهم ثابت بن أرقم رضي الله تعالى عنه، وقيل إن ثابتاً رضي الله تعالى عنه هو الذي كان الأمير على هذه السرية، فخرج يسرع في السير إلى أن وصل إلى الماء المذكور، فوجد القوم علموا بهم فهربوا ولم يجدوا في دارهم أحداً، فبعث شجاع بن وهب طليعه يطلب خيراً ويرى أثراً فأخبر أنه رأى أثر نعم قريباً، فخرجوا فوجدوا رجلاً نائماً، فسألوه عن خبر الناس: فقال: وأين الناس، لقد لحقوا بعليات بلادهم، قالوا: فالنعم؟ قال:

معهم، فضربه به أحدهم بسوط في يده، فقال: تؤمنوني علي دمي وأطلعكم على نعم لبي عم له لم يعلموا بمسيركم إليهم، قالوا نعم، فأمنوه فانطلقوا معه، فأمعن: أي بالغ في الطلب حتى خافوا أن يكون ذلك غدرًا منه لهم. فقالوا: والله لتصدقنا أو لنضربن عنقك، فقال: تطلعون عليهم من هذا المحل، فلما طلغوا منه وجدوا نعمًا رواتع، فأغاروا عليها، فاستاقوها، فإذا هي مائة بعير وشردت الأعراب في كل وجه ولم يطلبوهم، وانحدروا إلى المدينة بتلك الإبل، وأطلقوا الرجل الذي أمنوه، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 174

سرية محمد بن مسلمة رضي الله تعالى عنه لذي القصة بفتح القاف والصاد المهملة المشددة، وهو موضع قريب من المدينة.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة في عشرة نفر لبي ثعلبة وبنو عوال من ثعلبة بذي القصة، فورد عليهم ليلاً، فكمن القوم وهم مائة رجل لمحمد بن مسلمة وأصحابه، وأمهلوهم حتى ناموا وأحدقوا بهم: أي فما شعروا إلا وقد خالطهم القوم، فوثب محمد بن مسلمة فصاح في أصحابه: السلاح، فوثبوا وتراموا ساعة، ثم حمل القوم عليهم بالرمح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، فضربوا كعبه فلم يتحرك فظنوا موته، فجردوه من الثياب وانطلقوا، ومر بمحمد وأصحابه رجل من المسلمين فاسترجع، فلما سمعه محمد رضي الله تعالى عنه يسترجع تحرك له، فأخذه وحمله إلى المدينة. فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارعهم فلم يجدوا أحداً. ووجدوا نعماً وشاء، فانحدروا بها إلى المدينة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 174

سرية أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه إلى ذي القصة أيضاً بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه في أربعين رجلاً إلى من بذي القصة: فإنه بلغه أنهم يريدون أن يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى يومئذ بمحل بينه وبين المدينة سبعة أميال فصلوا المغرب، ومشوا ليلتهم حتى وافوا ذا القصة مع عمابة الصبح، فأغاروا عليهم: فأعجزوهم هرباً في الجبال: وأسروا رجلاً واحداً، وأخذوا نعماً من نعمهم، ورثة: أي ثياباً خَلِقة من متاعهم، وقدموا بذلك إلى المدينة، فخمسه رسول الله، وأسلم الرجل، فتركه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 175

سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه إلى بني سليم بالجموح بفتح الجيم، وهو اسم لناحية من بطن نخل.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى بني سليم، بالجموح، فسار حتى ورد ذلك المحل. فأصابوا امرأة من مزينة فدلتهم على محلة من محال القوم، فأصابوا في تلك المحلة إبلاً وشاء، وأسروا منها جماعة من جملتهم زوج تلك المرأة، وانحدروا بذلك إلى المدينة، فوهب رسول الله صلى

الله عليه وسلم لتلك المرأة نفسها وزوجها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 175

سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما إلى العيص وهو محل بينه وبين المدينة أربع ليال.

بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام، فبعث زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب ليعترضها، أي وكان فيها أبو العاص بن الربيع، وقدم به وبتلك العير المدينة، فاستجار أبو العاص بزوجه زينب رضي الله تعالى عنها، فأجارته ونادت في الناس حين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر: أي دخل في الصلاة هو وأصحابه، فقالت: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي لما سلم وأقبل على الناس وقال: هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا نعم، قال: أما والذي نفسي بيده ما علمت بشيء من هذا، أي ثم انصرف فدخل على ابنته وقال: قد أجرنا من أجرت. قال: وقال: «المؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم» أي وفي الصحيحين: «ذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلماً أي أزال خفارته: أي نقض جواره وعهده» فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» ثم دخلت عليه زينب رضي الله تعالى عنها فسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه، فأجابها إلى ذلك، وقال لها: «أي بنية أكرمي مثواه ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له»: أي لتحريم نكاح المؤمنات على المشركين أي كما تقدم في الحديثية.

وبعث للسرية فقال لهم: إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي فاء عليكم، فأنتم أحق به، فقالوا: يا رسول الله بل نرد عليه، فرد عليه ما أخذ منه.

وهذا السياق يدل على أن ذلك كان قبل صلح الحديبية ووقوع الهدنة، لأن بعد ذلك لم تتعرض سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش، وهو يخالف قوله لها: «لا يخلص إليك، لأن تحريم نكاح المؤمنات على المشركين إنما كان في الحديثية».

وقد ذكر بعضهم أن ذلك كان قبيل الفتح سنة ثمان، ومن ثم ذكر الزهري وتبعه ابن عقبة رحمهما الله تعالى أن الذين أخذوا هذا العير وأسروا من فيها أبو بصير وأبو جندل وأصحابهما رضي الله تعالى عنهم، لأنهم كانوا في مدة صلح الحديبية، من شأنهم أن كل عير مرت بهم لقريش أخذوها بغير معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم، فلما أخذوا هذه العير خلوا سبيل أبي العاص لكونه صهر رسول الله . وقيل أعجزهم هرباً، وجاء تحت الليل فدخل على زوجته زينب رضي الله تعالى عنها فاستجار بها فأجارته، ثم كلمها في أصحابه الذين أسروا، فكلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، فخطب الناس وقال: إنا صاهرنا أبا العاص فنعم الصهر وجدناه، وإنه قد أقبل من الشام في أصحاب له من قريش، فأخذهم أبو جندل وأبو بصير وأسروهم، وأخذوا ما كان معهم، وأن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتني أن أجيرهم فهل أنتم مجيرون أبا العاص وأصحابه؟ فقال الناس: نعم، فلما بلغ أبا جندل وأبا بصير وأصحابهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم ردوا الأسرى، وردوا عليهم كل شيء حتى العقال.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 175
وصوب في الهدى هذا الذي ذكره الزهري، أي لما علمت أن مما يؤيد ذلك قوله
لبنته زينب: ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له، لأن تحريم نكاح المؤمنات على
المشركين إنما كان بعد الحديبية.

وذكر أن المسلمين قالوا لأبي العاص: يا أبا العاص إنك في شرف من قريش
وأنت ابن عم رسول الله، أي لأنه يلتقي مع النبي صلى الله عليه وسلم في
جده عبد مناف، فهل لك أن تسلم فتغنم ما معك من أموال أهل مكة، فقال:
بئسما أمرتموني أفتتح ديني بغدرة: أي بالغدر وعدم الوفاء، ثم ذهب أبو العاص
إلى أهل مكة فأدى كل ذي حق حقه، ثم قام فقال: يا أهل مكة هل بقي لأحد
منكم مال لم يأخذه، هل وفيت ذمتي؟ فقالوا اللهم نعم، فجزاك الله خيراً، فقد
وجدناك وفياً كريماً، فقال: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده
ورسوله، والله ما منعني عن الإسلام عنده إلا خشية أن تظنوا أنني إنما أردت
أن أكل أموالكم.

ثم خرج حتى قدم المدينة على النبي، فرد له رسول الله صلى الله عليه وسلم
زينب رضي الله تعالى عنها على النكاح الأول ولم يحدث نكاحاً، وذلك بعد ست
سنين وقيل بعد سنة واحدة انتهى.
أقول: وفي رواية بعد سنتين. والمتبادر أن السنة أو السنتين من إسلامها دونه،
وهو مخالف لما عليه أهل العلم من أنه لا بد أن يجتمع الزوجان في الإسلام
والعدة، ومن ثم قالت طائفة منهم الترمذي: هذا حديث ليس بإسناده بأس،
ولكن لا يعرف وجهه.

وفي كلام بعض الحفاظ: يمكن أن يقال قوله بعد ست سنين ولم يقل من
إسلامها دونه صيره مجهول تاريخ الابتداء فلا يصح الاستدلال به.
وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
رد بنته زينب على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد. قال بعضهم:
وهذا في إسناده مقال، وقال غيره: هذا حديث ضعيف، وقال آخر: لا يثبت»
والحديث الصحيح إنما هو أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرهما على النكاح
الأول.

وقال ابن عبد البر: حديث أنه أقرهما على النكاح الأول متروك لا يعمل به عند
الجميع. وحديث ردها بنكاح جديد عندنا صحيح يعضده الأصول، وإن صح الأول
أريد به على الصداق الأول وهو حمل حسن، هذا كلامه.

قال بعضهم: تصحيح ابن عبد البر لحديث إنه ردها بنكاح جديد مخالف لكلام
أئمة الحديث كالبخاري وأحمد بن حنبل ويحيى بن سعيد القطان والدارقطني
والبيهقي وغيرهم، هذا كلامه.

وفي كون زينب رضي الله تعالى عنها كانت مشركة وأسلمت قبل زوجها
المشعر به قول بعضهم ولم يقل من إسلامها - نظر، لأنها اتبعت ما بعث به
أبوها من غير تقدم شرك منها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 175
لا يقال: فحيث كانت مسلمة فكيف زوّجها من أبي العاص وهو كافر. لأننا نقول
على فرض أنه زوّجها له بعد البعث فقد زوّجها له قبل نزول قوله تعالى: {ولا
تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا} لأن تلك الآية نزلت بعد صلح الحديبية كما
علمت. على أن ابن سعد ذكر أنه زوّجها له في الجاهلية: أي قبل البعثة، والله
أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 175
سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما إلى بني ثعلبة
أي بالطرف ككتف: اسم ماء.
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة في خمسة
عشر رجلاً: أي بالطرف، فأصاب عشرين بغيراً وشاء، واقتصر الحافظ
الدمياطي على النعم، ولم يذكر الشاء ولم يجد أحداً، لأنهم ظنوا أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم سار إليهم، فصيح زيد رضي الله تعالى عنه بالنعم والشاء
المدينة، أي وقد خرجوا في طلبه فأعجزهم () وكان شعارهم الذي يتعارفون
به في ظلمة الليل «أمت أمت».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 178
سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما إلى جذام
محل يقال له جسمى بكسر الحاء المهملة وسكون السين على وزن فعلى.
وهو موضع وراء وادي القرى، يقال إن الطوفان أقام بذلك المحل بعد نضوبه:
أي ذهابه ثمانين سنة.

وسببها أن دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه أقبل من عند قيصر ملك الروم،
أي وكان وجهه إليه () كذا قيل، ولعله من تصرف بعض الرواة، أو أنه أرسله إليه
بغير كتاب، وإلا فأرساله إليه بالكتاب كان بعد هذه السرية، لأنه كان بعد
الحديبية.

ولما وصل رضي الله تعالى عنه إليه أجازه بمال وكساء فأقبل بذلك إلى أن
وصل ذلك المحل، فلقية الهنيد وابنه في ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق
وسلبوه ما معه، ولم يتركوا عليه إلا ثوباً خلقاً، فسمع بذلك نفر من جذام من
بني الضبيب: أي ممن أسلم منهم فنفروا إليهم، واستنقذوا لدحية رضي الله
تعالى عنه ما أخذ منه، وقدم دحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم
فأخبره بذلك، فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل وردّ معه دحية، وكان زيد
رضي الله تعالى عنه يسير بالليل ويكمن بالنهار ومعه دليل من بني عذرة
فأقبل حتى هجم على القوم: أي على الهنيد وابنه ومن كان معهم مع الصبح،
فقتلوا الهنيد وابنه ومن كان معهم، وأخذوا من النعم ألف بغير، ومن الشاء
خمسة آلاف، ومن السبي مائة من النساء والصبيان. قال: ولما سمع بنو
الضبيب بما صنع زيد رضي الله تعالى عنه ركبوا و جاؤوا إلى زيد وقال له رجل
منهم: إنا قوم مسلمون، فقال له زيد اقرأ أم الكتاب فقراها، ثم قدم منهم
جماعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه الخبر وقال بعضهم: يا
رسول الله لا تحرم علينا حلالاً، ولا تحل لنا حراماً، فقال: كيف أصنع بالقتلى؟
فقال: أطلق لنا من كان حياً ومن قتل فهو تحت قدمي هاتين، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: صدق، فقالوا: ابعث معنا رجلاً لزيد رضي الله

تعالى عنه، فبعث معهم علياً كرم الله وجهه يأمر زيداً أن يخلي بينهم وبين حرمهم وأموالهم، أي فقال علي: يا رسول الله إن زيداً لا يطيعني، فقال: خذ سيفي هذا، فأخذه وتوجه، فلقي علي كرم الله وجهه رجلاً أرسله زيد رضي الله تعالى عنه مبشراً على ناقة من إبل القوم، فردها علي كرم الله وجهه على

القوم، وأردفه خلفه، ولقي زيداً فأبلغه أمر رسول الله . قال: وعند ذلك قال له زيد، ما علامة ذلك؟ فقال: هذا سيفه فعرف زيد السيف وصاح بالناس فاجتمعوا، فقال: من كان معه شيء فليرده، فهذا سيف رسول الله ، فرد الناس كافة كل ما أخذوه انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 179
أقول: وهذا السياق يدل على أن جميع ما أخذه من النعم والشاء والسبي كان لمن أسلم من جذام من بني الضبيب، وإن بعض من قتل مع الهنيد وابنه كان مسلماً، وفي ذلك من البعد ما لا يخفى، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 179
سرية أمير المؤمنين أبي بكر الصديق رضي الله عنه لبني فزارة كما في صحيح مسلم بوادي القرى

عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله تعالى عنه إلى فزارة وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشنينا الغارة فوردنا الماء. فقتل أبو بكر: أي جيشه من قتل، ورأيت طائفة منهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل، فأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا وفيهم امرأة: أي وهي أم قرفة عليها قشع من آدم: أي فروة خلقة معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر رضي الله تعالى عنه ابنتها، فلم أكشف لها ثوباً، فقدمنا المدينة، فلقيني رسول الله ، فقال: يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك: أي أبوك لله خالصاً حيث أنجب بك وأتى بمثلك، يقال ذلك في مقام المدح والتعجب: أي وقد كان وصف له جمالها، فقلت: هي لك يا رسول الله، فبعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا في أيدي المشركين.

وفي لفظ: فدى بها أسيراً كان في قريش من المسلمين، كذا ذكر الأصل أن أمير هذه السرية: أي التي أصابت أم قرفة أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وأنه الذي في مسلم.

وذكر في الأصل قبل ذلك عن ابن إسحاق وابن سعد أن أمير هذه السرية، أي التي أصابت أم قرفة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما، وأنه لقي بني فزارة وأصيب بها ناس من أصحابه، وانفلت زيد من بين القتلى: أي احتمل جريحاً وبه رمق، فلما قدم زيد رضي الله تعالى عنه نذر أن لا يمسه رأسه غسل من الجنابة حتى يغزو بني فزارة، فلما عوفي أرسله إليهم، فكمنوا النهار وساروا الليل حتى أحاطوا بهم، وكبروا وأخذوا أم قرفة وكانت أم قرفة في شرف من

قومها، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفاً كلهم لها محرم، وكان لها اثنا عشر ولداً. ومن ثم كانت العرب تضرب بها المثل في العزة، فتقول: لو كنت أعز من أم قرفة، فأمر زيد بن حارثة أن تقتل أم قرفة، أي لأنها كانت تسب النبي . وجاء أنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها وقالت لهم: اغزوا المدينة واقتلوا محمداً، لكن قال بعضهم: إنه خبر منكر () فربط برجليها حبلين ثم ربطا إلى بعيرين وزجرهما، أي وقيل إلى فرسين، فركضا فشقاها نصفين، وقرفة ولدها هذا الذي تكنى به قتله النبي صلى الله عليه وسلم وبقيّة أولادها قتلوا مع أهل الردة في خلافة الصديق فلا خير فيها ولا في بنيتها، ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بآبنة أم قرفة، وذكر له جمالها، فقال لابن الأكوغ: يا سلمة ما جارية أصبتها، قال: يا رسول الله جارية رجوت أن أفدي بها امرأة منا في بني فزارة: فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام مرتين أو ثلاثاً، فعرف سلمة أنه يريدّها، فوهبها له، فوهبها النبي صلى الله عليه وسلم لخاله حزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بمكة، وكان أحد الأشراف، فولدت له عبد الرحمن بن حزن، وإنما قيل لحزن خاله لأن فاطمة أم أبي النبي صلى الله عليه وسلم هي بنت عائذ كما تقدم، وعائذ جد حزن لأبيه، وفي لفظ بنت عمرو بن عائذ.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 180

وفي كلام السهيلي أن رواية الفداء لمن كان أسيراً بمكة أصح من رواية أنه وهبها لخاله حزن.

وجمع الشمس الشامسي بين الروايتين حيث قال: يحتمل أنهما سريتان اتفق لسلمة بن الأكوغ فيهما ذلك، أي إحداهما لأبي بكر، والأخرى لزيد بن حارثة، ويؤيد ذلك أن في سرية أبي بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث ببنت أم قرفة إلى مكة ففدى بها أسرى كانوا في أيدي المشركين. أي وفي سرية زيد وهبها لخاله حزن بمكة. قال: ولم أر من تعرض لتحرير ذلك انتهى. أقول: في هذا الجمع نظر، لأنه يقتضي أن أم قرفة تعددت، وأن كل واحدة كانت لها بنت جميلة، وأن سلمة بن الأكوغ أسرهما، وأنه أخذهما منه، وفي ذلك بعد، إلا أن يقال: لا تعدد لأم قرفة وتسميه المرأة في سرية أبي بكر أم قرفة وهم من بعض الرواة. ويدل عليه أن بعضهم أوردوها ولم يسم المرأة أم قرفة، بل قال فيهم امرأة من بني فزارة معها ابنة لها من أحسن العرب، فنفلني أبو بكر بنتها فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً، فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق مرتين في يومين، فقال: يا سلمة هبني المرأة، فقلت: هي لك، فبعث بها إلى مكة ففدى بها ناساً كانوا أسرى بمكة. ثم لا يخفى أن ما ذكره الأصل عن ابن إسحاق وابن سعد من أنه أرسل زيد بن حارثة إلى وادي القرى، أي غازياً لبني فزارة، وأنه لقيهم وأصيب بها ناس من أصحابه، وأفلت زيد من بين القتلى جريحاً الخ يخالفه ما ذكره عن ابن سعد مما يقتضي أن زيد بن حارثة في هذه لم يكن غازياً، بل كان تاجراً، وأنه لم يرسل لبني فزارة وإنما اجتاز بهم فقاتلوه.

والمذكور عن ابن سعد ما نصه: قالوا: خرج زيد بن حارثة في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي، فلما كان دون وادي القرى لقيه ناس من فزارة فضربوه وضربوا أصحابه، أي فظنوا أنهم قد قتلوا وأخذوا ما كان معهم، فقدموا المدينة، ونذر زيد أن لا يمس رأسه غسل من جنابة حتى يغزو بني فزارة، فلما خلاص من جراحته بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية لهم، وقال لهم: اكمنوا النهار وسيقروا الليل، فخرج بهم دليل من بني فزارة وقد نزر بهم القوم، فكانوا يجعلون له ناظوراً حين يصبحون فينظر على جبل يشرف على وجه الطريق الذي يرون أن المسلمين يأتون منه، فينظر قدر مسيرة يوم، فيقول اسرحوا فلا بأس عليكم، فإذا أمسوا أشرف ذلك الناظر على ذلك الجبل فينظر مسيرة ليلة، فيقول ناموا فلا بأس عليكم في هذه الليلة، فلما كان زيد بن حارثة وأصحابه على نحو مسيرة ليلة أخطأ بهم الدليل الفزاري طريقهم، فأخذ بهم طريقاً أخرى حتى أمسوا وهم على خطأ، فعابنوا الحاضر من بني فزارة، فحمدوا خطأهم فكمن لهم في الليل حتى أصبحوا فأحاطوا بهم ثم كبر زيد وكبر أصحابه إلى آخر ما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 180

ولما قدم زيد بن حارثة المدينة جاء إليه وقرع عليه الباب، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم عريانياً يجر ثوبه واعتنقه وقبله، وسأله فأخبره بما ظفره الله تعالى به.

وحينئذ يشكل قوله في الأصل: ثبت عن ابن سعد لزيد بن حارثة سريتين بوادي القرى. إحداهما في رجب والأخرى في رمضان، فإنه بظاهره يقتضي أنه أرسل غازياً المرتين لبني فزارة بوادي القرى. وقد علمت أن كلام ابن سعد يدل على أن زيد بن حارثة في السرية الأولى إنما كان تاجراً اجتاز ببني فزارة بوادي القرى فقاتلوه هو وأصحابه وأخذوا ما معهم.

ثم رأيت الأصل تبع في ذلك شيخه الحافظ الدمياطي حيث قال سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى في رجب: قالوا: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيدا رضي الله تعالى عنه أميراً. ثم قال: سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بناحية وادي القرى في رمضان. وفيه ما علمت. ثم لا يخفى أن في هذا إطلاق السرية على الطائفة التي خرجت للتجارة ولا يختص ذلك بمن خرج للقتال أو لتجسس الأخبار، وقد تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 180

سرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه إلى دومة الجندل بضم الدال المهملة وفتحها، وأنكره ابن دريد لبني كلب. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه، فأقعده بين يديه وعممه بيده، قال أي بعد أن قال له: تجهز فإني باعثك في سرية من يومك هذا أو من الغد إن شاء الله تعالى. ثم أمره أن يسري من الليل إلى دومة الجندل في سبعمئة وعسكروا خارج المدينة. فلما كانت وقت السحر جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وكان عليه عمامة من كرابيس: أي غليظة قد لفها على رأسه، فنقضها رسول الله صلى

الله عليه وسلم بيده ثم عممه بعمامة سوداء وأرخى بين كتفيه منها أربع أصابع أو نحواً من ذلك. ثم قال: هكذا يا بن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف.

ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء فدفعه إليه، وقام فحمد الله، ثم صلى على نفسه، ثم قال: خذه يا بن عوف انتهى، وقال: اغز بسم الله وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، ولا تغلّ، أي لا تخن في المغنم ولا تغدر، أي لا تترك الوفاء، ولا تقتل وليداً وفي رواية: لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تنكثوا، ولا تملوا، ولا تقتلوا وليداً: أي صبياً، فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم ثم قال له: إذا استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم، فسار عبد الرحمن بن عوف حتى قدم دومة الجندل، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وهم يابون ويقولون: لا نعطي إلا السيف. وفي اليوم الثالث أسلم رأسهم وملكهم الأصعب بن عمرو الكلبي وكان نصرانياً: قال في النور: لم أجد أحداً ترجمه، والظاهر أنه ما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فهو تابعي، وأسلم معه ناس كثير من قومه، وأقر من أقام على كفره بإعطاء الجزية: أي وأرسل رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه بذلك وأنه يريد أن يتزوج فيهم. فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تزوج بنت الأصعب، أي فتزوجها رضي الله تعالى عنه، وبنى بها عندهم، وقدم بها المدينة، وهي أم ولده سلمة بن عبد، الرحمن بن عوف، وهي أول كلبية نكحها قرشي، ولم تلد غير سلمة وطلقها عبد الرحمن في مرض موته ثلاثاً ومتعها جارية سوداء، ومات وهي في العدة، وقيل بعد انقضاء العدة فوزّتها عثمان رضي الله تعالى عنه.

قال: وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما أنه قال: «سرت لأسمع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فإذا فتى من الأنصار أقبل يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جلس، فقال: يا رسول الله أيّ المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقاً، ثم قال: وأي المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً قبل أن ينزل بهم، أولئك الأكياس. ثم سكت الفتى وأقبل رسول الله ، فقال: «يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا نزلت بكم، وأعوذ بالله أن تدركوهن، إنه لن تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا. وما نقص المكيال والميزان في قوم إلا أخذهم الله بالسنين، ونقص من الثمرات، وشدة المؤنة، وجور السلطان لعلهم يذكرون. وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عنهم قطر السماء ولو لا البهائم لم يسبقوا وما نقص قوم عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذ ما كان في أيديهم. وما حكم قوم بغير كتاب الله إلا جعل الله تعالى بأسهم بينهم» وفي رواية: «إلا البسهم الله شيعاً وأذاق بعضهم بأس بعض».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 183

وفي الأصل ذكر ابن إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه لدومة الجندل في سرية. زاد في السيرة الشامية

على ذلك قوله: كما سيأتي.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 183

سرية زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما إلى مدين قرية سيدنا شعيب صلوات الله وسلامه عليه، وهي تجاه تبوك فأصاب سبياً، وفرقوا في بيعهم بين الأمهات والأولاد، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون، فقال: «ما لهم؟» فقيل: يا رسول الله فرق بينهم: أي الأمهات والأولاد، فقال رسول الله: «لا تتبعوهم إلا جميعاً».

قال في الأصل: وكان مع زيد رضي الله تعالى عنه في هذه السرية ضميرة مولى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكذا أخوه رضي الله تعالى عنه، وأخ له وهو تابع في ذلك لابن هشام. وردّ بأن مولى عليّ هذا الذي هو ضميره لم يذكر في كتب الصحابة وكذا أخوه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 185

سرية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى بني سعد بن بكر بفدك

وهي قرية بينها وبين المدينة ست ليال، أي وفي لفظ: ثلاث مراحل، وهي خراب الآن. وفي الصحاح: فدك قرية بخيبر.

وسببها أنه بلغه أن لبني سعد جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، وأن يجعلوا لهم تمر خيبر: أي ما يوجد من غلتها، فبعث إليهم علياً كرم الله وجهه في مائة رجل، فسار الليل وكمن النهار إلى أن نزلوا محلاً بين خيبر وفدك، فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم؟ أي فقال: لا علم لي، فشيدوا عليه، فأقر أنه عين: أي جاسوس لهم، وقال: أخبركم على أن تؤمنوني؟ فأمنوه، فدلهم، فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن، فعزل علي كرم الله وجهه صفي رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوحاً: أي حلوباً () قرية عهد بنتاج تدعى الحفدة بفتح الحاء وكسر الفاء وفتح الدال المهملة لسرعة سيرها، ومنه في الدعاء: إليك نسعى ونحفد ثم عزل الخمس وقسم الباقي على أصحابه.

أقول: قوله يريدون أن يمدوا يهود خيبر، يقتضي بظاهره أن ذلك كان عند محاصرة خيبر أو عند إرادة ذلك، وفيه ما لا يخفى لما تقدم، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 185

سرية عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه إلى أسير بضم الهمزة وفتح السين، ويقال أسير بن رزام اليهودي بخيبر.

لما قتل الله أبا رافع بن سلام بن أبي الحقيق عظيم يهود خيبر كما تقدم، أمروا عليهم أسير بن رزام، قال: ولما أمروه عليهم، قال لهم: إني صانع بمحمد ما لم يصنعه أصحابي، فقالوا له: وما عسيت أن تصنع؟ قال: أسير في غطفان فأجمعهم لحربه، قالوا: نعم ما رأيت، وكان ذلك قبل فتح خيبر انتهى. فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله، فبلغ ذلك رسول الله، فوجه إليه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر سراً يسأل عن خبر أسير وعرته،

فأخبر بذلك، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس لذلك، فانتدب له ثلاثون رجلاً، وأمر عليهم عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه، وقيل عبد الله بن عتيك، فقدموا على أسير، فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له. قال: نعم ولي منكم مثل ذلك، فقالوا: نعم، فقلنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنا إليك لتخرج إليه فيستعملك على خيبر ويحسن إليك فطمع في ذلك: أي واستنثار يهود في ذلك فأشاروا عليه بعدم الخروج وقالوا: ما كان محمد ليستعمل رجلاً من بني إسرائيل، قال: بلى قد ملّ الحرب. قال في النور: هذا الكلام لا يناسب أن يقال قبل فتح خيبر، فالذي يظهر أنها بعد فتح خيبر. وأقول: يجوز أن يكون المراد باستعماله على خيبر المصالحة وترك القتال، ومن ثم أجاب بقوله إنه: قد ملّ الحرب، والله أعلم.

فخرج، وخرج معه ثلاثون رجلاً من يهود مع كل رجل منهم رديف من المسلمين، قال عبد الله بن أنيس، كنت رديفاً لأسير، فكان أسيراً ندم على خروجه معنا، فأهوى بيده إلى سيفي، ففطنت بفتح الطاء له، وقلت أغدر عدو الله أغدر عدو الله أغدر عدو الله ثلاثاً؟ فضرته بالسيف فأطحت عامة فخذة فسقط، وكان بيده مخدش من شوحط فضرني به على رأسي فشجني مأمومة، وملنا على أصحابه فقتلناهم إلا رجلاً واحداً أعجزنا جرياً. ثم أقبلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثناه الحديث، فقال: «قد نجاكم الله من القوم الظالمين وبصق في شجتي فلم تقح عليّ ولم تؤذني». قال: وفي رواية زيادة على ذلك، وهي وقطع لي قطعة من عصاه، فقال: أمسك هذه معك علامة بيني وبينك يوم القيامة أعرفك بها، فإنك تأتي يوم القيامة متخضراً، فلما دفن عبد الله بن أنيس جعلت معه على جلده دون ثيابه انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 186

أقول: تقدم نظير ذلك لعبد الله بن أنيس هذا لما أرسله لقتل سفيان بن خالد الهذلي وجاء برأسه إلى رسول الله، فيحتمل أن هذا وهم من بعض الرواة، ويحتمل تعدد الواقعة: أي أعطاه عصاه أولاً في تلك، وأعطاه أخرى ثانياً في هذه، وجعل العصا بين جلده وكفنه، ولا مانع منه، لكن ربما تتشوف النفس للسؤال عن حكمة تكرير ذلك لعبد الله بن أنيس وتخصيصه بهذه المنقبة دون بقية الصحابة، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 186

سرية عمرو بن أمية الضمري وسلمة بن أسلم بن حريش رضي الله عنهما بالحاء المهملة وكسر الراء وسين مهملة، وكل ما في الأنصار حريش بالسين المهملة إلا الحريش فإنه بالشين المعجمة، وقيل بدله جبار بن صخر إلى أبي سفيان بن حرب بمكة ليغتاله.

وسببها أن أبا سفيان رضي الله تعالى عنه قال لنفر من قريش: ألا أحد يغتال لنا محمداً فإنه يمشي في الأسواق وحده، فأتاه رجل من الأعراب، وقال يعني نفسه: قد وجدت أجمع الرجال قلباً، وأشدهم بطشاً، وأسرعهم عدواً، فإذا أنت فدينتي خرجت إليه حتى أغتاله فإن معي خنجراً يفتح الخاء المعجمة كجناح النسور، وإنني عارف بالطريق، فقال له: أنت صاحبنا، فأعطاه بغيراً ونفقة، وقال له: اطو أمرك، وخرج ليلاً إلى أن قدم المدينة، ثم أقبل يسأل عن رسول الله فدل عليه، وكان في مسجد بني عبد الأشهل، فعقل راحلته وأقبل على رسول الله، فلما رآه، قال: إن هذا يريد غدراً، والله حائل بينه وبين ما يريد، فجاء ليحني على رسول الله، فجذبه أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه بداخلة إزاره: أي بحاشيته من داخل، فإذا بالخنجر فأخذ أسيد يخنقه خنقاً شديداً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أصدقني، قال: وأنا آمن؟ قال: نعم، فأخبره بأمره فحلى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم، أي وقال: يا رسول الله ما كنت أخاف الرجال، فلما رأيتك ذهب عقلي وضعفت نفسي، ثم اطلعت على ما هممت به، فعلمت أنك على الحق، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم.

فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري ومن تقدم إلى أبي سفيان بمكة. أي وذلك بعد قتل خبيب بن عدي رضي الله تعالى عنه وصلبه على الخشبة.

ومضى عمرو بن أمية رضي الله تعالى عنه يطوف بالبيت ليلاً، فرآه معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنهما فعرفه، فأخبر قريشاً بمكانه، فخافوه لأنه كان فاتكاً في الجاهلية وقالوا: لم يأت عمرو بخير، واشتدوا في طلبه.

قال: وفي رواية لما قدما مكة حبساً جملتهما ببعض الشعاب، ثم دخلا ليلاً، فقال له صاحبه: يا عمرو لو طفنا بالبيت وصلينا ركعتين ثم طلبنا أبا سفيان، فقال له عمرو: إنني أعرف بمكة من الفرس الأبلق، أي وإن القوم إذا تعشوا جلسوا على أفئيتهم، فقال: كلا إن شاء الله، قال عمرو: فطفنا بالبيت وصلينا، ثم خرجنا لطلب أبي سفيان، فلقيني رجل من قريش فعرفني، وقال: عمرو بن أمية فأخبر قريشاً بي، فهربت أنا وصاحبي انتهى أي وصعدنا الجبل، وخرجوا في طلبنا، فدخلنا كهفاً في الجبل، ولقي عمرو رجلاً من قريش فقتله: أي قتل ذلك الرجل عمرو، فلما أصبحنا، غدا رجل من قريش يقود فرساً ونحن في الغار، فقلت لصاحبي: إن رأنا صاح بنا، فخرجت إليه ومعني خنجر أعدته لأبي سفيان فضربته على يده فصاح صيحة أسمع أهل مكة، فجاء الناس يشتدون فوجدوه بأخر رمق فقالوا: من ضربك؟ قال عمرو بن أمية، وغلبه الموت فاحتملوه، فقلت لصاحبي، لما أمسينا: النجاة، فخرجنا ليلاً من مكة نريد المدينة، فمررنا بالحرس الذين يحرسون خشبة خبيب بن عدي رضي الله تعالى عنه، فقال أحدهم: لولا أن عمرو بن أمية بالمدينة لقلت إنه هذا الماشي، فلما حاذيت الخشبة شددت عليها، فحملتها واشتديت أنا وصاحبي فخرجوا وراءنا، فألقيت الخشبة فغيبه الله عنهم، كذا في السيرة الهشامية.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 187

وتقدم أنه أرسل الزبير والمقداد لإنزاله وأن الزبير أنزله فابتلغته الأرض. وتقدم عن ابن الجوزي مثل ما هنا من أن الذي أنزله عمرو بن أمية رضي الله

تعالى عنه، فيحتاج إلى الجمع على تقدير صحة الروايتين. ويقال إن عمراً قتل رجلاً آخر سمعه يقول:
ولست بمسلم ما دمت حياً
ولست أدين دين المسلمينا

ولقي رجلين بعثتهما قريش إلى المدينة يتجسسان لهم الخبر، فقتل أحدهما وأسر الآخر ثم قدم رضي الله تعالى عنه المدينة، وجعل يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم يضحك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 187

سرية سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه

وقيل كرز بن جابر رضي الله تعالى عنه وعليه الأكثرون. ومن ثم اقتصر عليه الحافظ الدمياطي، أي وقيل جرير بن عبد الله البجلي. ورد بأن إسلام جرير بن عبد الله المذكور كان بعد هذه السرية بنحو أربع سنين () إلى العرنيين. وسببها أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر: أي ثمانية من عرينة، وقيل أربعة من عرينة وثلاثة من عكل، والثامن من غيرهما مسلمين، نطقوا بالشهادتين، كانوا مجهودين قد كادوا يهلكون أي لشدة هزالهم وصفرة ألوانهم وعظم بطونهم، وقالوا: يا رسول الله أونا وأطعمنا، فأنزلهم عنده: أي بالصفة ثم قال لهم: أي بعد أن ذكروا له أن المدينة وبئة وخمة، وأنهم أهل ضرع ولم يكونوا أهل ريف: لو خرجتم إلى ذود لنا: أي لقاخ وكانت خمسة عشر فيشرتم من ألبانها وأبوالها، أي لأن في لبن اللقاخ جلاء وتليينا وإدراراً وتفتيحاً للسدد، فإن الاستسقاء وعظم البطن إنما ينشأ عن السدد وأفة الكبد. ومن أعظم منافع الكبد لبن اللقاخ، لا سيما إن استعمل بحرارته التي يخرج بها من الضرع مع بول الفصيل مع حرارته التي يخرج بها ففعلوا ثم لما صحت أجسامهم كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعيها وهو يسار مولى النبي، ومثلوا به: أي قطعوا يديه ورجليه، وغرزوا الشوك في لسانه وعينه حتى مات واستاقوا اللقاخ.

وفي لفظ أنهم ركبوا بعضها واستاقوها، فأدركهم يسار ومعه نفر، فقاتلهم فقطعوا يده ورجله، الحديث.

ويبلغه الخبر، فبعث في آثارهم عشرين فارساً، واستعمل عليهم من تقدم، وأرسل معهم من يقص آثارهم، فأدركوهم فأحاطوا بهم فأسروهم ودخلوا بهم المدينة فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم: أي غورت بمسامير محماة بالنار، وألقوا بالحرة: أي وهي أرض ذات حجارة سود كأنها أحرقت بالنار، يستسقون فلا يسقون. قال أنس رضي الله تعالى عنه: ولقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه من العطش ليجد بردها لما يجده من شدة العطش حتى ماتوا على حالهم () وأنزل الله فيهم: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله} الآية، ولم يقع بعد ذلك أنه سمل عيناً. وفي لفظ أنهم لما أسروا ربطوهم وأردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة، فخرجوا بهم نحوه،

فلقوه بمجمع السيول، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسملت أعينهم، وصلبوا هنالك، وأنه فقد من اللقاح لقحة تدعى الحفيا، فسأل عنها، فقيل نحروها، كذا في سيرة الحافظ الدمياطي، وقدم فيها هذه السرية على سرية عمرو بن أمية الضمري رضي الله تعالى عنه.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 189
سرية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى طائفة من هوازن

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ثلاثين رجلاً إلى عجز بفتح العين المهملة وبضم الجيم وبالزاي: محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء، يقال له تربة بضم المثناة فوق وفتح الراء ثم موحدة مفتوحة ثم تاء. وأرسل دليلاً من بني هلال فكان يسير الليل ويكمن النهار فأتى الخبر لهوازن فهربوا، فجاء عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه محالهم، فلم يجد منهم أحداً، فانصرف راجعاً إلى المدينة، فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل: هل لك جمع آخر من خثعم، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: لم يأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم، إنما أمرني بقتال هوازن.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 191

سرية أبي بكر رضي الله تعالى عنه إلى بني كلاب
عن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وأمره علينا، فسبى ناساً من المشركين، فقتلناهم، فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات من المشركين، وما زاده الأصل على هذا من قوله إن سلمة بن الأكوع قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله تعالى عنه إلى فزارة الخ نسب فيه للوهم، لأن ذلك كان في سريته لبني فزارة بوادي القرى، وقد تقدمت، فهما قضيتان مختلفتان جمع بينهما، أي وهذا الذي في الأصل تبع فيه شيخه الحافظ الدمياطي، وفيه ما علمت.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 191

سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله تعالى عنه إلى بني مرة بفدك

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بشير بن سعد في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة بفدك وتقدم أنها قرية بينها وبين المدينة ستة أميال، فخرج فلقي رعاء الشاء، فسأل عن الناس؟ فقيل في بواديهم، فاستاق النعم والشاء، وانحدر إلى المدينة، فخرج الصريخ إليهم فأدركه منهم العدد الكثير عند الليل فباتوا يترامون بالنبل حتى فني نبل أصحاب بشير، أي فلما أصبحوا حملوا علي بشير وأصحابه، فقتلوا منهم من قتلوا، وولى من ولى منهم، وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى ارتث: أي جرح وصار ما به رمق، وضربت كعبه اختباراً لحياته فلم يتحرك، فقيل مات، فرجعوا بنعمهم وشياهمهم، وجاء إليه خبرهم ثم جاء بشير رضي الله تعالى عنه إلى المدينة بعد ذلك، أي فإنه استمر بين القتلى إلى الليل، فلما أمسى تحامل حتى انتهى إلى فدك فأقام بفدك عند يهودي أياماً حتى قوي

على المشي، وجاء إلى المدينة.
أقول: وهذا يدل على أن بني مرة الذين توجه إليهم بشير لم يكونوا يفدك، بل
بالقرب منها، فيكون قوله أوّلاً لبني مرة بفدك فيه تسميح، وأن بشيراً حصلت
له هذه الحالة مرتين، فليتأمل.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 192
سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله تعالى عنه إلى بني عوال وبني عبد
بن ثعلبة بالميفعة، اسم محل وراء بطن نخل

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثي رضي الله
تعالى عنه في مائة وثلاثين رجلاً لبني عوال وبني بن ثعلبة بالميفعة، ودليلهم
يسار مولى رسول الله، فهجموا عليهم جميعاً ووقعوا في وسط محالهم،
فقتلوا جمعاً من أشرفهم واستاقوا نعماً وشاء، ولم يأسروا أحداً وفي هذه
السرية قتل أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما الرجل الذي قال: لا إله إلا
الله، وهو مرداس بن نهيك. وفي سيرة الحافظ الدمياطي نهيك بن مرداس،
والأول هو الذي في الكشف، وقال له النبي: «هلا شققت عن قلبه أصادق هو
أم كاذب؟» فعن أسامة رضي الله تعالى عنه: «بعثنا رسول الله، فصبحنا
القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما أعينناه قال: لا
إله إلا الله، فكف الأنصاري، وطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا على رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال: «يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟
قلت: إنما قالها متعوّذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل
ذلك اليوم» أي تمنيت أن أكون أسلمت اليوم فيكفر عني ما صنعت، قال: كذا
وقع في الأصل أن قتل أسامة للرجل الذي قال لا إله إلا الله كان في هذه
السرية، وقد تبع في ذلك ابن سعد.

وإنما كان ذلك في سرية أسامة بن زيد للحرقة بضم الحاء المهملة وفتح الراء
وبالقاف ثم تاء تانيث بطن من جهينة، وسيأتي عن أسامة «بعثنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة، فصبحناها، فكان رجل يدعى
مرداس بن نهيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم علينا، وإذا أدبروا كان من
حاميتهم فهزمناهم، فتبعته أنا ورجل من الأنصار، فرفعت عليه السيف، فقال لا
إله إلا الله» وزاد في رواية: «محمد رسول الله، فكف الأنصاري، قطعنته
برمحي حتى قتلته، ثم وجدت في نفسي من ذلك موجدة شديدة حتى ما أقدر
على أكل الطعام، حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلني
واعتقني» قال بعضهم: «كان إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه، ويحب
أن يثنى عليه خيراً، فلما رجعوا لم يسألهم عنه، فجعل القوم يحدثون رسول
الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة
ولقيه رجل، فقال الرجل لا إله إلا الله، فشد عليه أسامة فقتله وهو يعرض
عنهم، فلما أكثروا عليه رفع رأسه الشريف لأسامة فقال: يا أسامة أقتلته بعد
ما قال لا إله إلا الله، فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟ فقال
أسامة رضي الله تعالى عنه: إنما قالها خوفاً من السلاح» وفي رواية: «إنما

كان متعوّذاً من القتل، قال أسامة رضي الله تعالى عنه: ولا زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرر عليّ حتى تمنيت أني لم أسلم إلا يومئذ» انتهى.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 192

والذي في الكشف في تفسير قوله تعالى: {ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً} أصله أن مرداس بن نهيك رجل من أهل فدك أسلم ولم يسلم من قومه غيره فغزتهم سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عليها غالب بن فضالة الليثي رضي الله تعالى عنه، فهربوا وبقي مرداس لثقتة بإسلامه. فلما رأى الخيل ألجا غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد، فلما تلاحقوا وكبروا كبر ونزل وقال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» السلام عليكم، فقتله أسامة بن زيد واستاق غنمه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فوجدوا وجداً شديداً وقال: قتلتموه إرادة ما معه، ثم قرأ الآية على أسامة، فقال: يا رسول الله استغفر لي، قال: فكيف بلا إله إلا الله؟ فما زال يكررها حتى وددت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ، ثم استغفر لي وقال: أعتق رقبة، وسيأتي نحو ذلك في سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى مصاب بشير بن سعد.

ويبعد تعدد هذه الواقعة سيما في مواطن ثلاثة أو أربعة، وكون يسار مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دليلاً في هذه السرية يقتضي أنها متقدمة على سرية العرنيين، فقد تقدم أنهم قتلوه ثم رأيت في النور قال: ولعل هذا غير ذلك، لكن لم أر له ذكراً في الموالي إلا أن يكون أحد موالي أقاربه عليه الصلاة والسلام فنسب إليه، ومن ثم لم يشهد أسامة رضي الله تعالى عنه مع علي كرم الله وجهه قتالاً، وقال له: لو أدخلت يدك في فم تنين لأدخلت يدي معها، ولكنك قد سمعت ما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قتلت ذلك الرجل الذي شهد أن لا إله إلا الله وقلت له: أعطي الله عهداً أن لا أقتل رجلاً بقول لا إله إلا الله، والله أعلم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 192

سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله تعالى عنه إلى اليمن بفتح الياء آخر الحروف وقيل بضمها، أو يقال أمن بالهمزة مفتوحة وسكون الميم، وجبار بفتح الجيم: واد قريب من خيبر.

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من غطفان قد واعدتهم عيينة بن حصن: أي قبل أن يسلم رضي الله تعالى عنه، ليكون معهم على رسول الله ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشير بن سعد، فعقد له لواء، وبعث معه ثلاثمائة رجل، فساروا الليل وكمنوا النهار حتى أتوا المحل المذكور، فأصابوا نعماً كثيراً، وتفرق الرعاء بكسر الراء والمد، وذهبوا إلى القوم، وأخبروهم فتفرقوا ولحقوا بعلياً بلادهم، وعلياً بضم العين وسكون اللام مقصوراً: نقيض السفلى، فلم يظفر بأحد منهم إلا برجلين أسروهما فرجع بالنعم والرجلين إلى المدينة، فأسلم الرجلان، فأرسلهما قال: والرجلان من جمع عيينة، فإن المسلمين لما قالوا جمع عيينة انهزموا أمامهم وتبعوهم أخذوا

منهم ذينك الرجلين انتهى، أي وعينه بن حصن كان يقال له الأحمق المطاع، لأنه كان يتبعه عشرة آلاف قناة، وقيل له عيينة، قال في الأصل: لأن عينه حجلت: أي عظمت وكبرت، فلقب بذلك رضي الله تعالى عنه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 194

سرية ابن أبي العوجاء السلمى رضي الله تعالى عنه إلى بني سليم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أبي العوجاء رضي الله تعالى عنه السلمى في خمسين رجلاً إلى بني سليم، فكان لهم جاسوس مع القوم، فخرج إليهم وسبق القوم وحذرهم، فجمعوا لهم جمعاً كثيراً، فجاؤوا لهم وهم معدون لهم فدعوههم إلى الإسلام، فقالوا: أي حاجة لنا بما تدعونا إليه؟ فتراموا بالنبل ساعة، وجعلت الأمداد تأتيهم، وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية، فقاتل المسلمون قتالاً شديداً حتى قتل عامتهم، وأصيب ابن أبي العوجاء جريحاً مع القتلى، ثم تحامل حتى أتى رسول الله .

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 195

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله تعالى عنه إلى بني الملوح بضم الميم وفتح اللام وتشديد الواو مكسورة ثم حاء مهملة بالكديد، بفتح الكاف وكسر الدال المهملة.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم غالب بن عبد الله الليثي في بضعة عشر رجلاً قال: وما نقل عن الواقدي أنهم كانوا مائة وثلاثين رجلاً فذلك في سرية لغالب غير هذه انتهى.

أقول: وهي المقدمة التي توجهت لبني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة، والله أعلم. وأمر غالب بن عبد الله وأصحابه أن يشنوا الغارة على القوم، فخرجوا حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثي فأسروه، فقال: إنما خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد الإسلام، فقالوا له: إن كنت مسلماً لم يضرك ربطننا لك يوماً وليلة، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك، فشده وثاقاً، وخلفوا عنده سويد بن صخر. أي وفي لفظ: خلفوا عليه رجلاً أسود منهم، وقالوا له: إن نازعك فاحترز رأسه، وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس، فكمنوا في ناحية الوادي. قال جندب الجهني: وأرسلني القوم جاسوساً لهم، فخرجت حتى أتيت تلا مشرفاً على الحاضر: أي القوم المقيمين بمحلهم، فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر، إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته: إني لأنظر على هذا الجبل سواداً ما رأيته قبل، انظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئاً. فنظرت فقالت: والله ما فقدت من أوعيتي شيئاً، فقال: ناوليني قوسي ونبلي، فناولته قوسه وسهمين، فأرسل سهماً، فوالله ما أخطأ بين عيني، فانتزعته وثبت مكانه، فأرسل آخر فوضعه في منكبى، فانتزعته وثبت مكانه، فقال لامرأته: والله لو كان جاسوساً لتحرك، لقد خالطه سهمان لا أبالك: أي بكسر الكاف: أي لا كافل لك غير نفسك وهو بهذا المعنى يذكر في معرض المدح، وربما يذكر في معرض الذم وفي معرض التعجب لا بهذا المعنى، فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب ثم دخل، فلما اطمأنوا وناموا شنينا عليهم الغارة، واستقنا النعم والثناء بعد أن قتلنا المقاتلة وسبينا الذرية، أي ومروا على الحارث الليثي، فاحتملوه واحتملوا صاحبهم الذي تركوه عنده، فخرج صريخ القوم في قومهم، فجاء مالا

قبل لنا به، فصار بيننا وبينهم الوادي، فأرسل الله سحاباً فأمطر الوادي ما رأينا مثله، فسال الوادي بحيث لا يستطيع أحد أن يجوز به، فصاروا وقوفاً ينظرون إلينا ونحن متوجهون إلى أن قدمنا المدينة.
أي وفي لفظ آخر: فقلنا القوم ينظرون إلينا، إذ جاء الله بالوادي من حيث شاء يملأ جنبه ماء، والله ما رأينا يوماً سحاباً ولا مطراً، فجاء بما لا يستطيع أحد أن يجوزه فوقفوا ينظرون إلينا، وقد وقع نظير ذلك: أي سيل الوادي لقطنة بن عامر حين توجه إلى بني خثعم بناحية تبال كما سيأتي.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 195

سرية غالب بن عبد الله الليثي رضي الله تعالى عنه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد رضي الله تعالى عنه أي في بني مرة بفدك لما قدم غالب من الكديد مؤيداً منصوراً بعنه في مائتي رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد، وذلك في بني مرة بفدك، وكان قبل قدوم غالب هياً الزبير لذلك وعقد له لواء، فلما قدم غالب رضي الله تعالى عنه قال للزبير اجلس، فصار غالب رضي الله تعالى عنه إلى أن أصبح القوم فأغاروا عليهم، وكان غالب رضي الله تعالى عنه قد أوصاهم بعدم مخالفتهم له، وأخى بين القوم، فساقوا نعماً وقتلوا منهم.

قال: لما دنا غالب منهم ليلاً، قام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإنني أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه «لا رأي لمن لا يطاع» وفي رواية: لا تعصوني، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يطع أميري فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني» وإنكم متى تعصوني فإنكم تعصون نبيكم، ثم ألف رضي الله تعالى عنه بين القوم، فقال: يا فلان أنت وفلان، ويا فلان أنت وفلان، لا يفارق رجل منكم زميله، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك؟ فيقول لا أدري، فإذا كبرت فكبروا، فلما أحاطوا بالقوم كبر غالب رضي الله تعالى عنه وكبروا معه وجردوا السيوف، فخرج الرجال فقاتلوا ساعة، ووضع المسلمون فيهم السيف، وكان شعار المسلمين «أمة أمة» وكان في القوم أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما، وتفقدته غالب رضي الله تعالى عنه فلم يره، وبعد ساعة: أي من الليل أقبل، فلماه غالب وقال: ألم تر إلى ما عهدت إليك، فقال: خرجت في أثر رجل منهم جعل يتهمك بي حتى إذا دنوت منه وضربته بالسيف قال: «لا إله إلا الله» فقال له الأمير: بئسما فعلت وما جئت به، تقتل أمراً يقول: «لا إله إلا الله» فندم أسامة وساق المسلمون النعم والشاء والذرية، فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة، وعدل البعير بعشرة من الغنم انتهى، وتقدمت الحوالة على هذه، وتقدم ما فيها.
وقوله هنا حتى إذا دنوت منه وضربته بالسيف قال: «لا إله إلا الله» يقتضي أنه إنما قال: «لا إله إلا الله» بعد ضربه بالسيف. إلا أن يحمل على الإرادة، وتقدم أنه طعنه برمحه، فليأمل.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 197

سرية شجاع بن وهب الأسدي رضي الله تعالى عنه إلى بني عامر

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب رضي الله تعالى عنه في أربعة وعشرين رجلاً إلى جمع هوازن: أي يقال لهم بنو عامر، وأمره أن يغير عليهم، فكان يسير الليل ويكمن بالنهار حتى أصبحهم وهم غافلون. أي وقد نهى أصحابه أن يمعنوا في الطلب، فأصابوا نعماً وثناءً، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، فكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيراً، وعدل البعير بعشرة من الغنم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 198

سرية كعب بن عمير الغفاري رضي الله تعالى عنه بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء وادي القرى في خمسة عشر رجلاً، فوجدوا جمعاً كثيراً، أي لأنه لما دنا كعب بن عمير رضي الله تعالى عنه من القوم ذهب عين لهم فأخبروهم بقلة المسلمين () فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا ورشقوهم بالنبل. فقاتلهم المسلمون أشد القتال حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن عمير فإنه ظن قتله، فلما أمسى تحامل حتى أتى رسول الله ، فشق ذلك عليه، فهمم بالبعث إليهم، فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر، فتركهم. أقول: لم أفق على السبب الذي اقتضى البعث إلى ذلك المحل، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 198

سرية عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه إلى ذات السلاسل أرض بها ماء يقال له السلاسل، بضم السين الأولى وكسر الثانية. أي وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى. المشهور أنها بفتح الأولى، قيل سمي المكان بذلك، لأنه كان به رمل بعضه على بعض كالسلسلة، يقال ماء سلسل وسلسال: إذا كان سهل الدخول في الحلق لعذوبته وصفائه، وتلك الأرض وراء وادي القرى، وقيل لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا.

أقول: ولخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه في زمن الصديق غزاة مع أهل فارس يقال لها ذات السلاسل، لكثرة من تسلسل فيها من الشجعان خوفاً الفرار، فقتلوا آخرهم لأن السلاسل منعتهم الهزيمة. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاسل إلى الصديق رضي الله تعالى عنه، والله أعلم. بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جمعاً من قضاة قد تجمعوا يريدون المدينة، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، أي وذلك بعد إسلامه بسنة، وعقد له لواءً أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه في ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً. وأمره أن يستعين بمن يمر عليهم، فسار الليل وكمن النهار حتى قرب من القوم، فبلغه أن لهم جمعاً كثيراً، فبعث رافع بن كعب الجهني رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في مائتين من سراة المهاجرين والأنصار منهم أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وعقد له لواء، وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا، فلحق بعمرو أبو عبيدة، وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت عليّ مدداً وأنا الأمير، قال: وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبي عبيدة لعمرو: أنت أمير

أصحابك وهو أمير أصحابه، فقال عمرو: أنتم مدد لنا، فلما رأى أبو عبيدة الاختلاف، قال: لتعلم يا عمرو أن آخر شيء عهد إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك، قال: فإني الأمير عليك، فقال: فدونك اهـ () أي لأن أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه كان حسن الخلق لين العريكة فكان عمرو يصلي بالناس.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 198

أي وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، قال: بعث إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي. فقال: يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك؟ فقلت: إني لم أسلم رغبة في المال، قال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» ورأوا جمعاً كثيراً، فحمل عليهم المسلمون فتفرقوا. قال: وأراد المسلمون أن يتبعوهم، فمنعهم عمرو رضي الله تعالى عنه، وأرادوا أن يوقدوا ناراً ليصطلوا عليها من البرد فمنعهم عمرو، أي وقال: كل من أوقد ناراً لأقذفه فيها، فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد، فكلمه بعض سراة المهاجرين في ذلك فغالظه عمرو في القول، وقال له: قد أمرت أن تسمع لي وتطيع؟ قال نعم، قال: فافعل. ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه غضب وهم أن يأتيه، فمنعه أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب فسكت، واحتلم عمرو رضي الله تعالى عنه وكانت تلك الليلة شديدة البرد جداً، فقال لأصحابه ما ترون؟ قد والله احتلمت، فإن اغتسلت مت، فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس اهـ ثم بعث عمرو عوف بن مالك مبشراً للنبي بقدمهم وسلامتهم. قال: قال عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه: جئته وهو يصلي في بيته، فقلت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، فقال: عوف بن مالك؟ فقلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: أخبرني، فأخبرته بما كان من مسيرنا وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح وبين عمرو، ومطاوعة أبي عبيدة لعمرو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح، وأخبرته بمنع عمرو رضي الله تعالى عنه للمسلمين من اتباع العدو، ومن إيقاد النار، ومن صلاته بأصحابه وهو جنب، فلما قدم عليه عمرو كلمه في ذلك قال: كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم، فحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عليه وسلم أمره. قال عمرو: وسألني عن صلاتي فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فقلت: والذي بعثك بالحق إني لو اغتسلت لمت، لم أجد برداً قط مثله، وقد قال الله تعالى: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} فضحك اهـ.

أي ويحتاج أئمتنا إلى الجواب عن صلاة الصحابة خلفه، فإني لم أقف على أنه أمرهم بالقضاء.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 198

سرية الخبط وهو ورق السمر
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة رجل
من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى حي
من جهينة في ساحل البحر، وقيل ليرصدوا عيراً لقريش، أي وعليه فتكون هذه
السرية قبل الهدنة الواقعة في الحديبية، لما تقدم أنه بعد الهدنة لم يكن يرصد
عيراً لقريش إلى الفتح، وتعدد سرية الخبط بعيد، فلا يقال يجوز أن تكون سرية
الخبط مرتين: مرة قبل الهدنة، ومرة بعدها، ومن ثم حكم علي هذا القول بأنه
وهم. فأقاموا بالساحل نصف شهر، فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط: أي
كانوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تفرحت أشداقهم. فإن أبا عبيدة رضي الله
تعالى عنه كان يعطي الواحد منهم في اليوم والليلة ثمرة واحدة يمصها ثم
بصرها في ثوبه.

أي وعن الزبير رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: كيف كنتم تصنعون بالتمر؟
قال: نمصها كما يمص الصبي ثدي أمه، ثم نشرب عليها الماء فتكفينا يومنا إلى
الليل، لأنه زودهم جراباً من تمر، فجعل أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه يقوتهم
إياه، حتى صار يعدّه لهم عدّاً، حتى كان يعطي الواحد ثمرة كل يوم ثم بعد
التمر أكلوا الخبط.

ولما رأى قيس بن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنهما ما بالمسلمين من
جهد الجوع أي مشقته، أي وقال قائلهم: والله لو لقينا عدوّ ما كان منا حركة
إليه لما بالناس من الجهد، قال: من يشتري مني تمرأ أوفيه له في المدينة
بجزر يوفيهما إلي ههنا؟ فقال له رجل من أهل الساحل: أنا أفعل، لكن والله ما
أعرفك، فمن أنت؟ قال: أنا قيس بن سعد بن عبادة، فقال الرجل: ما أعرفني
بسعد، إن بيني وبين سعد خلة سيد أهل يثرب، فاشترى خمس جزائر كل جزور
بوسق من تمر. والوسق: بفتح الواو وكسرهما ستون صاعاً، وجمع الأوّل أوسق،
والثاني أوساق، فقال له الرجل: أشهد لي، فقال أشهد من تحب، فأشهد نفرأ
من المهاجرين والأنصار من جملتهم عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.
وقيل إن عمر رضي الله تعالى عنه امتنع من أن يشهد، وقال: هذا يذآن ولا مال
له إنما المال لأبيه. فقال الرجل: والله ما كان سعد ليخني بابنه، أي لا يوفي
عن ابنه ما التزمه، فكان بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ له قيس الكلام، وأخذ
قيس رضي الله تعالى عنه الجزر فنحر لهم منها ثلاثة في ثلاثة أيام، وأراد أن
ينحر لهم في اليوم الرابع، فنهاه أبو عبيدة وقال له: عزمت عليك أن لا تنحر،
أتريد أن تخفر ذمتك، أي لا يوفى لك بما التزمت ولا مال لك. فقال له قيس
رضي الله تعالى عنه: أترى أبا ثابت، يعني والده سعداً يقضي ديون الناس
ويطعم في المجاعة ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 201

وفي البخاري أن قيساً رضي الله تعالى عنه نحر لهم تسع جزائر كل يوم ثلاثاً،
ثم نهاه أبو عبيدة.

أي ومما يؤيد ما ذكر من أن الجزر كانت خمسة، وأنه نحر لهم ثلاثة أيام كل
يوم جزوا ما جاء في بعض الروايات أنه بقي معه جزوران قدم بهما المدينة
يتعاقبون عليهما فلينظر الجمع.

ثم إنَّ البحر ألقى لهم دابةً هائلةً يقال لها العنبر بحيث إنَّ أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه نصب لهم ضلعاً من أضلاعها. وفي لفظ: من أضلاعه ومُرَّ تحته أطول رجل في القوم: أي وهو قيس بن سعد بن عبادة راكباً على أطول بعير لم يطأطىء رأسه.

وعن جابر رضي الله تعالى عنه، أنه قال: دخلت أنا وفلان وفلان وعدّ خمسة نفر عينها ما رأنا أحد. أي وفي لفظ. ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينها، فأكلوا منها أياماً: أي نحو شهر وكانوا ثلاثمائة. فعن بعضهم: لما تقرّحت أشداقنا من الخبط انطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه: ميتة، ثم قال: اضطررتم فكلوا، فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمننا، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه الدهن بالقلال.

وفي رواية: فأخرجنا من عينه كذا وكذا قلة ودك، وصحبوا من لحمها إلى المدينة، أي وقيل لها العنبر لأنها تتلع العنبر.

فعن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه. قال: سمعت من يقول: رأيت العنبر نابتاً في البحر ملتويّاً مثل عنق الشاة، وفي البحر دابة تأكله، وهو سم لها فيقتلها فيقذفها البحر فيخرج العنبر من جوفها.

وقيل العنبر اسم لسمة مخصوصة في البحر هائلة الخلقه طولاً وعرضاً، وقد أخبرني بعض السفار أن جملاً مات على شاطئ البحر، فألقي في البحر، فابتلعت سمكة، فوقفت أخفاف يديه في حلقها، فجاءت سمكة فابتلعت تلك السمكة.

وفي زمن الحاكم يأمر الله وجدت سمكة بدمياط طولها مائتا ذراع وعرضها مائة وستون ذراعاً، وكان يقف في حلقها خمس رجال بالمجاريف يجرفون الشحم، وأقام أهل دمياط يأكلون من لحمها خمسة أشهر.

ولما بلغ سعد بن عبادة ما حصل للمسلمين من المجاعة قبل قدومهم قال: إن يكن قيس، يعني ولده كما أعهد فلينحر للقوم. فلما قدم قيس قال له سعد: ما صنعت في مجاعة القوم؟ قال: نحرت، قال أصبت، قال: ثم ماذا؟ قال: نحرت، قال: أصبت، قال: ثم ماذا؟ قال: ثم نهيت، قال: ومن نهاك؟ قال أمير أبو عبيدة، قال: ولم؟ قال: زعم أنه لا مال لي، إنما المال لأبيك، فقلت له: أبي يقضي عن الأبعاد ويحمل الكل ويطعم في المجاعة ولا يصنع هذا لي؟ فلان لموافقتي، فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع، فقال سعد لولده قيس ذاك أربع حوائط، أي بساتين، أدناها ما يتحصل منه خمسون وسقاً. ثم إن قيساً رضي الله تعالى عنه وفي الرجل صاحب الجزر، وحمله: أي أعطاه ما يركبه، وكساه، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما فعل قيس، قال: إنه في بيت جود. إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 201

أي ومن ثم قال بعضهم: لم يكن في الأوس والخزرج مطعمون يتوالدون في بيت واحد إلا قيس وأبوه سعد وأبوه عبادة وأبوه دليم، كان في كل يوم يقف

شخص على أطم ينادي: من يريد الشحم واللحم فعليه بدار أبي دليم.
أي وكان أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالاثنين
والرجل بالجماعة، وأما سعد فينطلق بالثمانين.
وعن سعد بن عبادة: «زارنا النبي صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال:
السلام عليكم ورحمة الله، ثم قال: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد
بن عبادة.»
قال: ويذكر أن سعداً جاء إلى النبي، فقال: من عذيري من ابن الخطاب يبخل
عليّ ابني، أه.
ويذكر عن سعد بن عبادة أنه كان شديد الغيرة، لم يتزوج إلا بكرّاً، وما طلق
امرأة وقدر أحد أن يتزوجها.

وعن جابر رضي الله تعالى عنه: فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله صلى
الله عليه وسلم أمر العنبر، فقال: رزق أخرجته الله تعالى لكم، لعل معكم من
لحمه شيء فتطعمونا، فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه
فأكله أي ولم يكن أروح، بدليل أنه قال: لو نعلم أنا ندركه لم يروّح لأحبينا لو
كان عندنا منه، قال ذلك ازدياداً منه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 201

سرية أبي قتادة رضي الله تعالى عنه إلى غطفان أرض محارب
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة في خمسة عشر رجلاً إلى
غطفان، وأمره أن يشن الغارة عليهم، فصار يسير الليل ويكمن النهار، حتى
هجم عليهم، وأحاط بهم، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا الإبل والغنم،
فكانت الإبل مائة بعير، والغنم ألفي شاة، وسبوا سبايا كثيرة، فأصاب كل رجل
بعد إخراج الخمس اثني عشر بعيراً، وعدل البعير بعشرين من الغنم. ووقع في
سهم أبي قتادة رضي الله تعالى عنه جارية حسنة وضيئة، فاستوهبها منه،
فوهبها له، ثم وهبها لشخص، أي كان وعده بجارية من أول فيء يفيء الله به،
فجاء ذلك الشخص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله
إن أبا قتادة قد أصاب جارية وضيئة وقد كنت وعدتني جارية من أول فيء يفيء
الله به عليك، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي قتادة، قال:
هب لي الجارية، فوهبها له الحديث.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 204

سرية عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله تعالى عنه إلى الغابة
وهي الشجر الملتف.

قال عبد الله المذكور: تزوجت امرأة من قومي، فجئت رسول الله صلى الله
عليه وسلم أستعينه على ذلك، فقال: كم أصدقت؟ قلت: مائتي درهم. فقال:
سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم من بطن واديكم هذا. وفي لفظ: لو كنتم
تغرفونها من ناحية بطحان ما زدتم. والله ما عندي ما أعينك، فلبثت أياماً، فبلغ
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً يقال له رفاعة بن قيس أو قيس بن
رفاعة في جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول الله، فدعاني رسول الله

صلى الله عليه وسلم ورجلين من المسلمين، فقال: اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوني منه بخبر، ودفع لنا شارفاً عجفاء: أي ناقة مسنة، وقال: تبلغوا عليها، واعتقبوها، فركبها أحدنا، فوالله ما قامت به ضعفاً حتى ضربت، فخرجنا ومعنا سلاحنا النبل والسيوف، حتى إذا جئنا قريباً من القوم عند غروب الشمس، فكننت في ناحية وصاحبي في ناحية أخرى، فقلت لهما: إذا سمعتماني قد كبرت فكبرا، فوالله إنا كذلك ننتظر غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس أو قيس بن رفاعة المجمع للقوم خرج في طلب راع لهم أبطاً عليهم وتخوفوا عليه، فقال له نفر من قومه: نحن نكفيك ولا تذهب أنت، فقال: والله لا يذهب إلا أنا، فقالوا فنحن معك، فقال: والله لا يتبعني أحد منكم، وخرج حتى مر بي، فلما أمكنتني نفحته: أي رميته بسهم فوضعتة في فؤاده، فوالله ما تكلم، ووثبت عليه فاحتزرت رأسه، وشددت في ناحية العسكر وكبرت، وشدّ صاحباي وكبرا، فهرب القوم واستقنا إبلًا وغنماً كثيرة، فجئنا بها إلى رسول الله، وجئت برأسه أحمله معي إلى رسول الله، فأعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك الإبل بثلاثة عشر بعيراً في صداقي.

قال: وبعضهم جعل هذه السرية وسرية أبي قتادة إلى غطفان بأرض محارب التي قبل هذه واحدة، أي ومن ثم ذكرتها عقبها خلاف ما صنع في الأصل.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 205

قال: وبدل لكونهما واحدة ما نقل عن عبد الله بن أبي حدرج قال: لما طلبت منه الإعانة في مهر زوجتي، قال لي: ما وافقت عندنا شيئاً أعينك به، ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة في أربعة عشر رجلاً في سرية، فهل لك أن تخرج فيها فإني أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك، فقلت: نعم، فخرجنا حتى جئنا الحاضر: أي وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه، أي كما تقدم، فلما ذهب فحمه العشاء: أي إقباله وأول سواده، خطبنا أبو قتادة، وأوصانا بتقوى الله تعالى، وألف بين كل رجلين، وقال: لا يفارق كل رجل زميله حتى يقفل: أي يرجع، ولا يجيء إليّ الرجل فأسأله عن صاحبه، فيقول لا علم لي به، وإذا كبرت فكبروا، وإذا حملت فاحملوا، ولا تمعنوا في الطلب، فأحطنا بالحاضر، فجرد أبو قتادة سيفه وكبر وجردنا سيوفنا وكبرنا معه، وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل، فأقبل عليّ قال: يا مسلم هلم إلى الجنة يتحكم بي، فملت إليه فذهب أمامي: أي وصار يقبل عليّ بوجهه مرة ويدبر عني بوجهه مرة أخرى، فتبعته، فقال لي صاحبي: لا تتبعه فقد نهانا أميرنا أن نمعن في الطلب، ولا زال كذلك، وقال: إن صاحبكم لذو مكيدة، وإن أمره هو الأمر، فأدرسته فرميته بسهم فقتلته، وأخذت سيفه وجئت صاحبي فأخبرني أنهم جمعوا الغنائم، وأن أبا قتادة تغيظ عليّ وعليك، فجئت أبا قتادة فلامني فأخبرته الخبر، ثم سقنا النعم، وحملنا النساء، وجفون السيوف معلقة بالأقتاب، ثم لما أصبحنا رأيت في السبي امرأة كأنها طيبي تكثر الالتفات خلفها وتبكي، فقلت لها: أي شيء تنظرين؟ قالت: والله أنظر إلى رجل لئن كان حياً ليستنقذنا منكم، فوقع في نفسي أنه الذي قتلته، فقلت لها: والله قد قتلته، وهذا والله سيفه معلق بالقتب، فقالت: فإلى أيّ غمده، فقلت: هذا غمد سيفه، فلما رآته بكت ولبثت انتهى، ولا يخفى أن السياق في كل يبعد كونهما

واحدة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 205

سرية أبي قتادة رضي الله تعالى عنه إلى بطن أضم
اسم موضع أو جبل.

لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة رضي
الله تعالى عنه في ثمانية نفر من جملتهم محكم بن جثامة الليثي إلى بطن
أضم، ليظن ظان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إلى تلك الناحية
وتنشر بذلك الأخبار، فمّر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلم عليهم
بتحية الإسلام، فأمسك عنه القوم، وحمل عليه محكم فقتله، أي لشيء كان
بينه وبينه، وسلبه متاعه وبغيره، وعند وصولهم إلى المحل رجعوا، فبلغهم أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه إلى مكة، فمالوا إليه حتى لقوه،
قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحكم: أقتلته بعد ما قال أمنت
بالله؟ وفي رواية: بعد ما قال إني مسلم؟ أي أتى بما لم يأت به إلا مؤمن آمن
بالله وكان مسلماً، قال: يا رسول الله إنما قالها: أي تحية الإسلام متعوذاً، قال:
أفلا شققت عن قلبه؟ قال: لِمَ يا رسول الله؟ قال: لتعلم أصادق هو أم كاذب.
أي وفي رواية فقال: يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما في قلبه؟
فقال له: فلا أنت قبلت ما تكلم به، ولا أنت تعلم ما في قلبه، فقال: استغفر
لي يا رسول الله، فقال: لا غفر الله لك، فقام يتلقى دمه ببرده اهـ، وأنزل
الله تعالى فيه: {يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا
لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم
كثيرة} إلى آخر الآية.

وذكر ابن إسحاق في خبر محكم: أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بحنين
ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها، فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن
حصن يختصمان في عامر بن الأضبط، عيينة بن حصن يطلب دمه، أي ويقول:
والله يا رسول الله إني لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحر مثل ما أذاق نسائي،
والأقرع يدافع عن محكم، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول لعيينة ومن معه: بل تأخذون الدية خمسين في
سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا، وهو يأبى عليه، فلم يزل به حتى اتفقا على
الدية، ثم قالوا: إن محكماً يستغفر له رسول الله، فقام محكم وهو رجل آدم
طويل: أي عليه حلة قد كان تهيأ للقتل فيها حتى جلس بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم وعيناه تدمعان، فقال له: ما اسمك؟ قال: أنا محكم، قد
فعلت الذي بلغك، وإني أتوب إلى الله تعالى، واستغفر لي يا رسول الله، فرفع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال: اللهم لا تغفر لمحكم، قالها ثلاثاً
بصوت عال، فقام يتلقى دمه بفضل رداءه، فما مكث إلا سبعاً حتى مات
فلفظته الأرض مرات حتى ضموا عليه الحجارة وواروه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 206

أي ولما أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال لهم: إن الأرض

تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله يعظكم: أي وفي رواية: إن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله: أي حرمة من يأتي بها.

ولفظ الأرض له يراد ما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر له بعد دعائه عليه، إلا أن يكون المراد استغفر له بعد موته، ويوافق ما في بعض الروايات: أراد الله أن يجعله موعظة لكم لكيلا يقدم رجل منكم على قتل من يشهد أن لا إله إلا الله، أو يقول إني مسلم، اذهبوا به إلى شعب بني فلان فادفنوه فإن الأرض ستقبله، فدفنوه في ذلك الشعب، فيجوز أن يكون استغفر له حينئذ، وقيل إن الذي لفظته الأرض غير محكم، لأن محكماً مات بحمص أيام ابن الزبير رضي الله تعالى عنه، والذي لفظته الأرض اسمه فليت.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 206

سرية خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى العزى أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي حين فتح مكة الوليد في ثلاثين فارساً من أصحابه إلى العزى، وهو صنم كان لقريش، وكان معظماً جداً، وفي لفظ: العزى نخلات أي سمرة مجتمع، لأنه كان يهدى إليها كما يهدى إلى الكعبة، لأن عمرو بن لحي أخبرهم أن الرب يشتهي بالطائف عند اللات ويصيف عند العزى، فلما وصل إلى محلها أي وكان بناء على ثلاث سمرة، فقطع السمرة، وهدم ذلك البناء، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، فقال له: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فارجع إليها، فرجع خالد وهو متغيظ، فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء تأثرة الرأس: أي شعر رأسها منتشر تحثو التراب على رأسها، فجعل السادن يصيح بها: أي يقول: يا عزى عوربه، يا عزى خبليه، فضربها خالد فقطعها نصفين: أي وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك
إني رأيت الله قد أهانك

ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم تلك العزى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 208

سرية عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه إلى سواع

بالعين المهملة: أي سمي باسم سواع بن نوح عليه السلام، وكان على صورة امرأة وكان لقوم نوح، ثم صار لهذيل. كانوا يحجون إليه: أي قبل فتح مكة، وبعد ذلك أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص في جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله. قال عمرو رضي الله تعالى عنه: فاتتهيت إلى ذلك الصنم وعنده سادنه: أي خادمه، فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه، قال: لا تقدر، قلت لم؟ قال: تمنع. قلت: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك وهل يسمع أو يبصر؟ فدنوت منه فكسرتة، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيها شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 209
سرية سعد بن زيد الأشهلي رضي الله عنه إلى مناة
صنم كان للأوس والخزرج.
أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد الأشهلي في عشرين
فارساً إلى مناة ليهدم محله، فلما وصلوا إلي ذلك الصنم قال السادن لسعد:
ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد إلى ذلك الصنم،
فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء تائرة الرأس، تدعو بالويل وتضرب صدرها،
فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصيانك، فضربها سعد رضي الله عنه
فقتلها، وهدم محلها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 209
سرية خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى بني جذيمة
بناحية يلملم يدعوهم إلى الإسلام، أي ولم يكن علم بإسلامهم ولم يأمره
بمقاتلتهم، أي إذا لم يسلموا.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه في
ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار ومن بني سليم، أي وهو عليه
الصلاة والسلام مقيم بمكة إلى بني جذيمة، وكانوا في الجاهلية قد قتلوا الفاكه
عم خالد، وقتلوا أخاً للفاكه أيضاً في الجاهلية، وكانوا من أشدّ حي في
الجاهلية وكانوا يسمون لعقة الدم، وقتلوا والد عبد الرحمن بن عوف، فلما
علموا به وعلموا أن معه بني سليم وكانوا قتلوا منهم مالك بن الشريد وأخويه
في موطن واحد خافوه، فلبسوا السلاح، فلما انتهى خالد رضي الله تعالى عنه
إليهم تلقوه، فقال لهم خالد: أسلموا، فقالوا نحن قوم مسلمون. قال: فآلقوا
سلاحكم وانزلوا، قالوا: لا والله ما بعد وضع السلاح إلا القتل، ما نحن بآمنين
لك ولا لمن معك. قال خالد: فلا أمان لكم إلا أن تنزلوا، فنزلت فرقة منهم
فأسرهم وتفرقت بقية القوم.

وفي رواية: لما انتهى خالد إلى القوم فتلقوه، فقال لهم: ما أنتم؟ أي
أمسلمون أم كفار؟ قالوا: مسلمون، قد صلينا، وصدّقنا بمحمد، وبينا
المساجد في ساحتنا وأذنا فيها. وفي لفظ: لم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا،
فقالوا: صبأنا صبأنا، قال: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين القوم
من العرب عداوة فحفظنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح، قال: فضعوا السلاح
فوضعوا، فقال: استأسروا، فأمر بعضهم فكتف بالتخفيف بعضاً وفرقهم في
أصحابه، فلما كان في السحر نادى منادي خالد رضي الله عنه: من كان معه
أسير فليقتله، فقتل بنو سليم من كان معهم، وامتنع المهاجرون والأنصار رضي
الله تعالى عنهم، وأرسلوا أسراهم، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما
فعل خالد، أي فإن رجلاً من القوم جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره
بما فعل خالد، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هل أنكر عليه أحد ما صنع؟
قال: نعم، رجل أصفر ربعة، ورجل طويل أحمر، فقال عمر رضي الله تعالى
عنه: والله يا رسول الله أعرفهما، أما الأول فهو ابني فهذه صفته، وأما الثاني

فهو سالم مولى أبي حذيفة، فعند ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، أي قال ذلك مرتين، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فودى لهم قتلهم، قال له: يا علي اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، ودفع إليه مالاً: أي إبلاً وورقاً، يدي به قتلهم، ويعطيهم منه ما تلف عليهم من أموالهم، فودى قتلهم، وأعطاهم عوض ما تلف عليهم حتى ميغلة الكلب: أي الإناء التي يشرب فيها، حتى إذا لم يبق لهم دم ولا مال، قال: هل بقي لكم دم أو مال؟ قالوا: لا، قال: أعطيك ما بقي من المال احتياطاً بدل ما لا تعلمون: أي مما تلف من أموالكم، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر، فقال له رسول: أصبت وأحسنت أي وزاد.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 209

وفي رواية: والذي أنا عبده لهي أحب إليّ من حمر النعم، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستقبل القبلة شاهراً يديه يقول: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات انتهى.

ووقع بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما شر بسبب ذلك، فقال له عبد الرحمن: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، فقال له: إنما أخذت بثأر أبيك، فقال له عبد الرحمن: كذبت، أنا قتلت قاتل أبي. أي وفي رواية: كيف تأخذ مسلمين بقتل رجل في الجاهلية؟ فقال خالد: ومن أخبركم أنهم أسلموا؟ فقال: أهل السرية كلهم أخبروا بأنك قد وجدتهم بنوا المساجد وأقروا بالإسلام، فقال: جاءني أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أغير، فقال له عبد الرحمن بن عوف: كذبت على رسول الله، وإنما أخذت بثأر عمك الفاكه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحد ذهباً فأنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل منهم ولا روحته، أي والغدوة: السير في أول النهار إلى الزوال. والروحة: السير من الزوال إلى آخر النهار.

والمراد بأصحابه هنا السابقون إلى الإسلام ومنهم عبد الرحمن بن عوف، بل هو المراد كما تصرح به الرواية الآتية، فقد نزل الصحابة غير السابقين الذين يقع منهم الرد على الصحابة غير السابقين - لكون ذلك لا يليق بهم - منزلة غير الصحابة.

قال: ولما عاب عبد الرحمن علي خالد الفعل المذكور أعان عبد الرحمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرض عن خالد وقال: يا خالد ذر أصحابي. وفي رواية: «لا تسب أصحابي لو كان لك ذهباً فأنفقته قيراطاً قيراطاً في سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحه من غدوات أو روحات عبد الرحمن» انتهى.

أي ولا يخفى أنه يبعد أن خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إنما قتلهم لقولهم صباناً ولم يقولوا أسلمنا، إلا أن يقال: يجوز أن يكون خالد فهم أنهم قالوا ذلك على سبيل الأنفة وعدم الانقياد إلى الإسلام، وأنه إنما أنكر عليه العجلة وترك

التثبت في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم صبأنا، ثم لا يخفى أنه جاء:
«لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا
نصيفه» ونقل الإمام السبكي عن الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: فإنه كان
يحضر مجلس وعظه أن قوله: «لا تسبوا أصحابي كان خطاباً لمن يأتي بعده
من أمته، لأنه كان له تجليات، فرأى في بعضها سائر أمته الآتين من بعده، فقال
خطاباً لهم: لا تسبوا أصحابي، وأرتضي منه هذا التأويل اهـ. فالنهي والخطاب
بلا تسبوا أصحابي لغير الصحابة تنزيلاً للغائب الذي لم يوجد منزلة الموجود
الحاضر. وفيه أن هذا لا يساعد عليه المقام.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 209

وفي الحديث من التنويه برفعة الصحابة وعلو منزلتهم ما يقطع الأطماع عن
مداناتهم، فإن كون ثواب إنفاق مثل جبل أحد ذهباً في وجه الخير لا يبلغ ثواب
التصديق بنصف المد الذي إذا طحن وعجن لا يبلغ الرغبة المعتاد أمر عظيم.

أقول: ووقع لخالد رضي الله تعالى عنه نظير ذلك في زمن خلافة الصديق فإن
العرب لما ارتدت بعد موته عين خالداً لقتال أهل الردة وكان من جملةهم مالك
بن نويرة، فأسره خالد هو وأصحابه، وكان الزمن شديد البرد، فنادى منادي
خالد: أن أدفنوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد ادفنوا أسراكم: أي اقتلوهم،
فقتلوهم، وقتل مالك بن نويرة، فلما سمع خالد بذلك، قال: إذا أراد الله أمراً
أمضاه، وتزوج خالد رضي الله عنه زوجة مالك بن نويرة وكانت من أجمل
النساء. ويقال إن خالداً استدعى مالك بن نويرة وقال له: كيف تردت عن
الإسلام وتمنع الزكاة؟ ألم تعلم أن الزكاة قرينة الصلاة؟ فقال: كان صاحبكم
يزعم ذلك، فقال له: هو صاحبنا وليس هو بصاحبك، يا ضرار اضرب عنقه، وأمر
برأسه فجعل ثالث حجرين جعل عليها قدر يطبخ فيه لحم، فعل ذلك إرجافاً
لأهل الردة، فلما بلغ سيدنا عمر ذلك قال للصديق رضي الله تعالى عنهم
اعزله، فإن في سيفه رهقاً كيف يقتل مالكاً ويأخذ زوجته؟ فقال الصديق رضي
الله تعالى عنه: لا أعمد سيفاً سله على الكافرين والمنافقين، سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد
سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين والمنافقين» وقال الصديق
رضي الله تعالى عنه في حق خالد: عجزت النساء أن يلدن مثل خالد بن
الوليد.

وفي كلام السهيلي أنه روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر الصديق:
إن في سيف خالد رهقاً فاقتله، وذلك حين قتل مالك بن نويرة وجعل رأسه
تحت قدر حتى طبخ به، وكان مالك ارتد ثم رجع إلى الإسلام ولم يظهر ذلك
لخالد، وشهد عنده رجلان من الصحابة برجوعه إلى الإسلام فلم يقبلهما وتزوج
امرأته، فلذلك قال عمر لأبي بكر اقتله، فقال: لا أفعل لأنه متأول، فقال:
اعزله، فقال: لا أعمد سيفاً سله الله تعالى على المشركين، ولا أعزل والياً
ولا رسول الله .

قيل وأصل العداوة بين خالد وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنهما على ما حكاه الشعبي أنهما وهما غلامان تصارعا، وكان خالد ابن خال عمر، فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت.

ولما ولي سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه الخلافة أول شيء بدأ به عزل خالدًا لما تقدم، وقال: لا يلي لي عملاً أبداً. وقيل لكلام بلغه عنه، ومن ثم أرسل إلى أبي عبيدة: إن أكذب خالد نفسه فهو أمير على ما كان عليه، وإن لم يكذب نفسه فهو معزول، فانتزع عمامته وقاسمه ماله نصفين فلم يكذب نفسه، فقاسمه أبو عبيدة ماله حتى إحدى نعليه وترك له الأخرى وخالد يقول: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 209

ويُبلغه أن خالدًا أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف وقد قصده ابتغاء إحسانه، فأرسل لأبي عبيدة أن يصعد المنبر ويوقف خالدًا بين يديه وينزع عمامته وقلنسوته ويقيده بعمامته، لأن العشرة آلاف إن كان دفعها من ماله فهو سرف، وإن كان من مال المسلمين فهي خيانة، فلما قدم خالد رضي الله تعالى عنه على عمر رضي الله تعالى عنه قال له: من أين هذا اليسار الذي تجيز منه بعشرة آلاف؟ فقال: من الأنفال والسهمان، قال: ما زاد على التسعين ألفاً فهو لك، ثم قوّم أمواله وعروضه وأخذ منه عشرين ألفاً، ثم قال له: والله إنك عليّ لكريم، وإنك لحبيب، ولم تعمل لي بعد اليوم على شيء، وكتب رضي الله عنه إلى الأمصار: إنني لم أعزل خالدًا عن مبخلة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، أي وأن نصر خالد على من قاتله من المشركين ليس بقوته ولا بشجاعته، بل بفضل الله.

فالتّديق لم يعزل خالد بن الوليد مع فعله ما يكرهه بتأويل له في ذلك، كما أنه لم يعزله مع فعله لما كرهه حيث رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد، لكونه كان شديداً على الكفار، لرجحان المصلحة على المفسدة. وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه عزله لخوف افتتان الناس به، فعزله وولى أبا عبيدة بن الجراح.

قال بعضهم: كان الصديق رضي الله تعالى عنه ليناً وخالد بن الوليد شديداً، وعمر رضي الله تعالى عنه كان شديداً وأبو عبيدة ليناً، فكان الأصلح لكل منهما أن يولي من ولاه ليحصل التعادل، والله أعلم.

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان في القوم رجل قال لهم أنا لست من هؤلاء ولكنني عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها ثم افعلوا بي ما بدا لكم، ثم أشار إلى نسوة مجتمعات غير بعيد. قال بعضهم: فقلت: والله ليسير ما طلب، فأخذته حتى أوقفته عليهن فأنشد أبياتاً، ثم جئت به، فقدموه فضربت عنقه، فقامت امرأة من بينهن، فجاءت حتى وقفت عليه فشبهت بفتح الهاء شهقة أو شهقتين ثم ماتت. أي وفي رواية فأكبت عليه تقبله حتى ماتت انتهى. أي وفي رواية فانحدرت إليه من هودجها فحننت عليه حتى ماتت، فعند ذلك قال رسول الله: «أما كان فيكم رجل رحيم القلب».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 209

سرية أبي عامر الأشعري رضي الله تعالى عنه إلى أوطاس

لما انصرف من حنين وانهزم المشركون عسكر منهم طائفة بأوطاس، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عامر الأشعري عم أبي موسى الأشعري في جماعة فيهم أبو موسى الأشعري. ووقع في الأصل أن أبا عامر ابن عم أبي موسى الأشعري قال في النور وهو غلط، وإنما أبو موسى ابن أخي أبي عامر. فلحقوا بالقوم وتناوشوا القتال: أي تكافؤوا فيه، وبارز أبو عامر تسعة، ويقال إنهم إخوة وهو يقتلهم واحداً بعد واحد، أي وصار كل من برز له منهم يدعوهم إلى الإسلام فبابي فيقول اللهم اشهد ويحمل عليه فيقتله. ثم برز له أخوه العاشر فقتل أبا عامر، أي فإنه قال له أسلم فأبى، فقال: اللهم اشهد فقال: اللهم لا تشهد وفرش يديه، فظن أبو عامر أنه أسلم فكف عنه، فعاد إلى أبي عامر فقتله ثم أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه، وكان إذا رآه يقول: هذا شريد أبي عامر.

قال: وعن أبي موسى الأشعري قال: جئت لأبي عامر وفيه رمق فقلت: يا عم من رماك؟ فقال: ذاك، وأشار إلى شخص من القوم، فقصدته فلحقته، فلما رأني ولى، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي ألا تثبت؟ فثبت، فاختلفنا ضربتين فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قد قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم فنزعته، فقال: يا بن أخي بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مني السلام وقل له يستغفر لي، وقال: ادفع فرسي وسلاحه له انتهى، فليتأمل الجمع بين هذا وما قبله.

وقبل أن يموت أبو عامر رضي الله عنه استخلف ابن عمه أبا موسى ودفع الراية له. وفي لفظ: أن أبا عامر رماه واحد فأصاب قلبه، وربما آخر فأصاب ركبته فقتلاه، وولى الناس أبا موسى فحمل عليهما فقتلتهما: أي وفتح الله عليهما، وانهزم المشركون وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا.

ولما رجع أبو موسى رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بموت أبي عامر استغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: «اللهم اجعله من أعلى أمتي في الجنة» أي وفي رواية: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» ودعا لأبي موسى أي فقال: «اللهم اغفر له ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 214

سرية الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى ذي الكفين صنم عمرو بن حميمة الدوسي ليهدمه

لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسير إلى الطائف بعث الطفيل رضي الله تعالى عنه لهدم ذي الكفين، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وجعل يحثي النار في وجهه، وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعاً، فوافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مقدمة بأربعة أيام، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأزد من يحمل رايتكم؟ فقال الطفيل: من كان يحملها في الجاهلية النعمان بن الراوية، قال: أصبتم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 215

سرية عيينة بن حصن الفزاري رضي الله تعالى عنه إلى بني تميم أي وسببها أنه بعث بشر بن سفيان إلى بني كعب لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماء، فأخذ بشر صدقات بني كعب، فقال لهم بنو تميم وقد استكثرنا ذلك: لم تعطونهم أموالكم؟ فاجتمعوا وأشهروا السلاح، ومنعوا بشرًا من أخذ الصدقة، فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولا بد في ديننا من دفع الزكاة، فقال لهم بنو تميم: والله لا ندع يخرج بعير واحد، ولما رأى بشر رضي الله تعالى عنه ذلك قدم المدينة، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

فعند ذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم، وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة. وفي لفظ: إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً فجاء بهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فحبسوا في دار رملة بنت الحارث، فجاء في أثرهم جماعة من رؤسائهم، منهم عطار بن حاجب، والزبير بن بدر، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورياح بكسر الراء والمثناة تحت ابن الحارث، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري، فجاءوا إلى باب النبي، أي بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالاً يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله، فاستبطؤوه فجاءوا من وراء الحجرات، فنادوا: أي بصوت جاف: اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك فإن مدحنا زين وذمنا شين، يا محمد اخرج إلينا، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم أي وقد تأذى من صياحهم، وأقام بلال رضي الله تعالى عنه الصلاة، وتعلقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه، فوقف معهم: أي قالوا له: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ما بالشعر بعثنا، ولا بالفخر أمرنا، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر ثم جلس في صحن المسجد، أي بعد أن قالوا له ما تقدم، ومنه: إن مدحنا لزين، وإن شتمنا لشين، نحن أكرم العرب، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتم، بل مدح الله عز وجل الزين وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام، ثم قالوا له: فائذن لخطيبنا وشاعرنا، قال: أذنت فليقم. وفي لفظ: إني لم أبعث بالشعر، ولم أومر بالفخر، ولكن هاتوا، فقدموا عطار بن حاجب.

وفي لفظ قال الأقرع بن حابس لشباب منهم: قم يا فلان فاذكر فضلك وفضل قومك، فتكلم وخطب، أي فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظيماً، نفعل فيها المعروف. وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم عدداً، فمن مثلنا في الناس؟ ألسنا رؤوس الناس وأولي فضلهم؟ فمن فاجر فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لو شئنا لأكثرنا، وإنما أقول قولي هذا لأن يأتوا بمثل قولنا أو أمر أفضل من أمرنا، ثم جلس. أي وفي رواية أنه قال: الحمد لله الذي جعلنا خير خلقه، وأعطانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن

خير أهل الأرض، وأكثرهم عدداً، وأكثرهم سلاحاً، فمن أنكر علينا قولنا فليات
بقول هو أحسن من قولنا أو بفعال هي أفضل من فعالنا.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 216
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه، أي
قال له: قم فأجب الرجل في خطبته، فقام ثابت رضي الله تعالى عنه فقال:
الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه
علمه، ولم يكن شيء قط إلا من فضله، ثم إنه كان من فضله أن جعلنا ملوكاً،
وإصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمه نسباً وأصدقه قلباً، وأفضله حسياً،
فأنزل عليه كتابه، وإثمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا
الناس إلى الإيمان فأمن برسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرون من
قومه وذوو رحمته، أكرم الناس أحساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس
مقالاً، ثم كان أول الناس إجابة واستجابة لله حين دعاه رسول الله صلى الله
عليه وسلم نحن، فنحن أنصار الله ورسوله؟ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله
ورسوله، فمن آمن بالله ورسوله منع دمه وماله، ومن كفر جاهدناه في الله،
وكان قتله علينا يسيراً، أقول قولِي هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين
والمؤمنات، والسلام عليكم.

أي وفي رواية أنه قال: الحمد لله نحمده ونستعينه، ونؤمن به ونتوكل عليه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، دعا
المهاجرين من بني عمه، أحسن الناس وجوهاً، وأعظم الناس أحلاماً فأجابوه.
والحمد لله الذي جعلنا أنصاره ووزراء رسوله وعزاً لدينه، فنحن نقاتل الناس
حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع منا نفسه وماله، ومن أباه قاتلناه
وكان رغبة في الله علينا هيناً، أقول قولِي هذا، وأستغفر الله للمؤمنين
والمؤمنات.

ثم قال الزبير بن جراح: فقم يا فلان فقل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل
قومك، فقال أبياتاً منها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا

نحن الرؤوس وفينا يقسم الربع

إذا أبينا فلا يابى لنا أحد

إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليّ بحسان بن ثابت، فحضر، فقال
له: قم فأجبه، فقال: يسمعي ما قاله، فأسمعه فقال حسان رضي الله تعالى
عنه أبياتاً، منها:

نصرنا رسول الله والدين عنوة

على رغم عات من بعيد وحاضر

وأحيأونا من خير من وطىء الحصا

وأمواتنا من خير أهل المقابر

وثابت بن قيس هذا كان يعرف بخطيب رسول الله ، افتقده رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقال: من يعلم لي علمه؟ فقال رجل: أنا يا رسول الله، فذهب فوجده في منزله جالساً منكساً رأسه؟ فقال له: ما شأنك؟ قال: أخشى أن أكون من أهل النار لأنني رفعت صوتي فوق صوت النبي . فرجع الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه. فقال: اذهب إليه فقل له: لست من أهل النار. ولكنك من أهل الجنة، وقال : «نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس» قتل يوم اليمامة، وكان عليه درع نفيسة، فمر به رجل من المسلمين فأخذها، فبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له: إني أوصيك بوصية فأياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت مربي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى النابيس، عند خيائه فرس، وقد كفا على الدرع برمة وفوق البرمة رحل، فأت خالداً فمره فليأخذها، فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني أبا بكر رضي الله تعالى عنه فقل له: إن عليّ من الدين كذا وكذا وفلان من رقيقي عتيق، فاستيقظ الرجل فأتى خالداً فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتى بها بعد أن وجدها على ما وصف، وحدث أبا بكر رضي الله تعالى عنه برؤياه فأجاز وصيته. قال بعضهم: ولا يعلم أحد حدثت وصيته بعد موته سواه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 216

ووقعت مفاخرة بين الزبرقان بن بدر وبين حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه كل منهما يذكر قصيدة يذكر فيها فخراً، فمن قصيدة الزبرقان بن بدر وهو مطلعها:

نحن الكرام فلا حي يعادلنا
منا الملوك وفينا تنصب البيع
ومن قصيدة حسان رضي الله تعالى عنه وهو مطلعها:
إنا أبينا ولم يأبى لنا أحد
إنا كذلك عند الفخر نرتفع
وفيه أن هذا البيت من قول بعض بني تميم، وقد أسمعته لحسان كما تقدم فليتأمل.

ووقعت مفاخرة بين الأقرع بن حابس وبين حسان رضي الله تعالى عنه، فقال الأقرع بن حابس: إني والله يا محمد قد قلت شعراً فاسمعه، فقال له: هات، فأنشد:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا
إذا خالفونا عند ذكر المكارم
وإنا رؤوس الناس من كل معشر
وأن ليس في أرض الحجاز كدارم
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قم يا حسان فأجبه، فقال:
بني دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالأ عند ذكر المكارم
هبلتم علينا تفخرون وأنتم
لنا خول من بين ظئركم وخدام
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأقرع: لقد كنت غنياً يا أبا بني دارم

أن تذكر ما كنت ترى أن الناس قد نسوه، فكان هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد عليهم من قول حسان رضي الله تعالى عنه. وحينئذ قال الأقرع بن حابس: لخطيبي - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، أي ثم دنا من النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يضررك ما كان قبل هذا. ورأى النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن رضي الله تعالى عنه، فقال: يا رسول الله لي من الولد عشرة ما قبلت واحداً منهم، فقال رسول الله: «من لا يرحم لا يرحم».

قال ابن دريد رحمه الله: اسم الأقرع نواس، وإنما لقب الأقرع لقرع كان في رأسه، والقرع: انحصاص الشعر. وكان رضي الله تعالى عنه شريفاً في الجاهلية والإسلام، ونزل فيهم: {إن الذين يتنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم}.

ووقع أن عمرو بن الأهتم مدح الزبيرقان للنبي فقال: إنه لمطاع في أنديته، سيد في عشيرته، فقال الزبيرقان: لقد حسدني يا رسول الله لشرفي، وقد علم أفضل مما قال، فقال عمرو: إنه لزمر المروءة، ضيق العطن، لئيم الخال. وفي لفظ أن الزبيرقان قال: يا رسول الله أنا سيد تميم، والمطاع فيهم، والمجاب منهم، أخذ لهم بحقوقهم، وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك، يعني عمرو بن الأهتم، فقال عمرو: إنه لشديد العارضة، مانع لجانبه، مطاع في ناديه، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبيرقان: والله لقد كذب يا رسول الله، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد، فقال عمرو: أنا أحسدك؟ والله إنك للئيم الخال، حديث المال، أحقق الوالد، مبعوض في العشيرة، فعرف عمرو الإنكار في وجه رسول الله، فقال: يا رسول الله، والله لقد صدقت في الأولى وما كذبت في الثانية، رضيت فقلت أحسن ما عملت، وسخطت فقلت أقبح ما علمت. وفي رواية: والله يا رسول الله لقد صدقت فيهما، أرضاني فقلت أحسن ما علمت، وأسخطني فقلت أسوأ ما علمت، فعند ذلك قال النبي: «إن من البيان لسحراً» وجاء: «إن من البيان سحراً، وإن من العلم جهلاً، وإن من الشعر حكماً، وإن من القول عياً».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 216

قال بعضهم: أما قوله: «إن من البيان سحراً» فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق. وأما قوله: «إن من العلم جهلاً» فإن العالم يكلف ما لا يعلم فيجهله ذلك. وأما قوله: «إن من الشعر حكماً» فهو هذه المواضع والأمثال. وأما قوله: «وإن من القول عياً» فعرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه، هذا كلامه.

وفيه إن هذا بيان للسحر المذموم، وليس المراد هنا وإنما هو من السحر الحلال، ومن ثم أقرَّ عمرو بن الأهتم عليه ولم يسخطه منه، فالسحر المذموم أن يصور الباطل في صورة الحق ببيانه، ويخدع السامع بتمويهه وهو المراد عند

الإطلاق، والسحر غير المذموم فما كان من البيان على حق، لأن البيان بعبارة مقبولة عذبة لا استكراه فيها تستميل القلوب كما يستميل الساحر قلوب الحاضرين إلى ما مؤه به.

ثم إنه رد عليهم الأسارى والسبي وأحسن جوائزهم، قال: أي بعد أن أسلموا، وأعطى كل واحد اثني عشر أوقية، قيل إلا عمرو بن الأَهم فإن القوم خلفوه في ظهورهم، لأنه كان أصغرهم سنًا فأعطاه خمس أواق. وقد اختلف في عدد هذا الوفد، فقيل كانوا سبعين رجلاً، وقيل كانوا ثمانين، وقيل كانوا تسعين انتهى.

أي والذي في الاستيعاب: ثم أسلم القوم وبقوا في المدينة مدة يتعلمون الدين والقرآن، ثم أرادوا الخروج إلى قومهم فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم أسراهم ونساءهم، وقال: أما بقي منكم أحد؟ وكان عمرو بن الأَهم في ركبهم، فقال قيس بن عاصم وكان مشاحنا له: لم يبق منا إلا غلام في ركبنا وأزري به، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطاهم، وبلغ عمراً ما قال قيس في حقه، فأنشد أبياتاً تتضمن لومه على ذلك، وكان عمرو خطيباً بليغاً شاعراً محسناً، يقال إن شعره كان حلاًّ منثوراً، وكان رضي الله تعالى عنه جميلاً يدعى الكحيل لجماله، وهو القائل:

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

هذا كلامه، وأنزل الله تعالى: { لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً } قيل معناه لا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضاً فتؤخروا إجابته بالأعذار التي يؤخر بها بعضكم إجابة بعض، لكم عظموه بسرعة الإجابة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 216

سرية قطبة بن عامر رضي الله تعالى عنه إلى حي من خثعم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم، وأمره أن يشن الغارة عليهم، فخرجوا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فأخذوا رجلاً فسألوه فاستعجم عليهم: أي سكت ولم يعلمهم بالأمر، فجعل يصيح بالحاضر: أي وهم القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرتحلون عنه كما تقدم وبحذرهم، فضربوا عنقه، ثم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا الغارة عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى كثرت الجرحى في الفريقين، وساقوا النعم والشاء إلى المدينة، وجاء سهيل فحال بينهم وبين القوم، فلم يجد القوم إليهم سبيلاً وتقدمت الحوالة على هذا.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 221

سرية الضحاك الكلابي رضي الله تعالى عنه

في جمع إلى بني كلاب، فلقوهم ودعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم فهزموهم، وكان من جملة المسلمين شخص لقي أباه في جملة القوم، فدعاه إلى الإسلام فسبه وسب الإسلام فضرب عرقوب فرس أبيه فوقع، فأمسك أباه إلى أن أتى بعض المسلمين فقتله، أي وفي رواية أنه بعث لبني كلاب وكتب إليهم في رق فلم ينقادوا للإسلام، وغسلوا الخط من الرق، وخاطوه تحت دلوهم، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال: ما لهم؟ أذهب الله عقولهم، فصار لا يوجد أحد منهم إلا مختل العقل، مختلط الكلام بحيث لا يفهم

كلامه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 222

سرية علقمة بن مجرز رضي الله تعالى عنهما

بضم الميم وفتح الجيم وزاين الأولى مكسورة مشدودة المدلجِيّ: أي وهو ولد القائف الذي قاف في حق زيد بن حارثة وأسامة رضي الله تعالى عنهما وقال: إن بعض هذه الأقدام من بعض، فهو صحابي ابن صحابي، إلى جمع من الحبشة، بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ناساً من الحبشة تراءاهم أهل جدة: أي في مراكب، وجدة بضم الجيم وتشديد الدال المهملة: قرية، سميت بذلك لبنائها على ساحل البحر، لأن الجدة شاطئ البحر، فبعث إليهم علقمة بن مجرز رضي الله تعالى عنهما في ثلاثمائة، فخاض بهم البحر حتى أتوا إلى جزيرة في البحر فهربوا، أي ورجعوا، ولم يلق كيداً. ثم لما كانوا في أثناء الطريق أذن علقمة رضي الله تعالى عنه لجماعة أن يعجلوا وأمر عليهم أحدهم، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها، فقال لهم أميرهم: عزمت عليكم إلا توثبتم: أي وقعتم في هذه النار، فقام بعض القوم فحجزوا حتى ظن أنهم واثبون فيها، فقال: اجلسوا إنما كنت أضحك معكم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه».

قال: وعن علي كرم الله وجهه قال: «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً فأوقدوها، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لي ويطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنا فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار، فكان كذلك حتى سكن غضبه وطفئت النار، فلما رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا له ذلك، فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً. وقال: «لا طاعة في معصية الله، وإنما الطاعة في المعروف» انتهى، أي والضمير في «دخلوها» للنار التي أوقدت، والضمير في منها نار الآخرة، لأن الدخول فيها معصية والعاصي يستحق النار، فالمقصود من ذلك الزجر.

وفي رواية: «من أمركم منهم» أي من الأمراء «بمعصية الله فلا تطيعوه» وفي لفظ: «لا طاعة في معصية الله» ولا مانع من تكرار هذه الواقعة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 222

سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

إلى هدم الفلّس بضم الفاء وسكون اللام «صنم طيبىء» والغارة عليهم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً معه راية سوداء ولواء أبيض إلى هدم الفلج والغارة عليهم، فشنوا الغارة عليهم مع الفجر، فهدموا الفلج وأحرقوه، واستاقوا النعم والشاء والسبي، وكان في السبي أخت عدي بي حاتم الطائي، أي واسمها سفانة بفتح السين المهملة وتشديد الفاء وبعد الألف نون مفتوحة ثم تاء تأنيث، والسفانة في الأصل: هي الدرّة، وهذه أسلمت رضي الله تعالى عنها. قال بعضهم: ولا يعرف لحاتم بنت إلا هذه، ووجدوا في خزانة الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب، وهي: رسوب، والمخزم، واليماني، وثلاثة أدرع. وجعل الرسوب والمخزم صفيّاً لرسول الله، ثم صار إليه الثالث الذي هو اليماني.

قال: ومرو النبي صلى الله عليه وسلم بأخت عدي فقامت إليه، وكانت امرأة جذلة: أي ذات وقار وعقل، وكلمته أن يمن عليها، فمنّ عليها، فأسلمت رضي الله تعالى عنها، وخرجت إلى أخيها عدي فأشارت إليه بالقدوم على رسول الله، فقدم عليه كما سيأتي في الوفود.

ويذكر أنها قالت له: «يا محمد أرايت أن تخلي عنا، ولا تشمت بنا أحياء من العرب فإني ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشيع الجائع، ويكسو العاري، ويقري الضيف، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يردّ طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طيء، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق».

أي وفي لفظ: «قالت له: يا محمد أرايت أن تمنّ عليّ ولا تفضحني في قومي فإني بنت سيدهم، إن أبي كان يطعم الطعام، ويحفظ الجوار، ويرعى الذمار، ويفك العاني، ويشيع الجائع، ويكسو العريان، ولم يردّ طالب حاجة قط» أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها: هذه مكارم الأخلاق حقاً، ولو كان أبوك مسلماً لترحمت عليه، خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق».

وفي رواية: «أنها قالت: يا رسول الله، هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن عليّ منّ الله عليك. قال: ومن وفدك؟ قالت عدي بن حاتم، قال: الفارّ من الله ورسوله» أي لأنه هرب لما رأى الجيش كما سيأتي في الوفود «قالت: ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركني حتى إذا كان من الغد قلت له كذلك وقال لي مثل ذلك، ففي اليوم الثالث أشار إليّ رجل خلفه بأن كلميه فكلمته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد فعلت فلا تعجلي حتى يجيء من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك، فأذنيني أي أعلميني وسألت عن الرجل الذي أشار عليّ بكلامه، فقيل لي إنه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قالت: فصبرت حتى قدم عليّ من أثق به، فجئت رسول الله، وحملني، وأعطاني نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخي» انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 223

سرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج
بفتح الميم وإسكان الذال المعجمة ثم جاء مهملة مكسورة ثم جيم كمسجد:
أبو قبيلة من اليمن.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه إلى بلاد مذحج من أرض اليمن في ثلاثمائة فارس، وعقد له لواء وعممه بيده وقال: امض ولا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلونك، فكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد، ففرق أصحابه رضي الله تعالى عنهم، فأتوا بنهب بفتح النون وغنائم وأطفال ونساء ونعم وشاء وغير ذلك، وجعل على الغنائم بريدة بن الحُصيب يضم الحاء وفتح الصاد المهملتين، ثم لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة فصف أصحابه، ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان، ثم حمل عليهم فقتل منهم عشرين رجلاً فانهزموا وتفرقوا، فكف عن طلبهم، ثم دعاهم إلى الإسلام، فأسرع إلى إجابته ومتابعته نفر من رؤسائهم وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا، فخذ منها حق الله تعالى. وجمع عليّ كرم الله وجهه الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء، فكتب في سهم منها لله، وأقرع عليها فخرج أول السهام سهم الخمس، وقسم الباقي على أصحابه، ثم رجع علي كرم الله وجهه فوافى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة قدمها للحج، أي حجة الوداع.

وذكر بعضهم أنه بعث علياً كرم الله وجهه في سرية إلى اليمن، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله ، فلما قرأ كتابه خر ساجداً ثم جلس، فقال: السلام على همدان، وتتابع أهل اليمن إلى الإسلام. قال في الأصل: إن هذه السرية هي الأولى وما قبلها السرية الثانية.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 224

سرية خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وكان نصرانياً

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في أربعمئة وعشرين فارساً في رجب سنة تسع إلى أكيدر بدومة الجندل وقال له: إنك ستجده يصيد البقر، فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وكانت ليلة مقمرة صافية وهو على سطح له ومعه امرأته، فجاءت البقر تحك بقرونها باب الحصن، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله، قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل فأمر بفرسه فأسرح، وركب معه نفر من أهله فيهم أخ له يقال له حسان، فتلقتهم خيل خالد فاستأسر أكيدر، وقاتل أخوة حتى قتل، وأجار خالد أكيدراً من القتل حتى يأتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دومة الجندل، وكان على أكيدر قباء من ديباج مخرصة: أي فيها خوص منسوجة بالذهب مثل خوص النخل، فاستلبه خالد إياها، وأرسلها لرسول الله ، فتعجبت الصحابة منها. فقال: «لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» أي وقد تقدم. وصالح على أهل دومة الجندل بألفي بغير وثمانمئة رأس وأربعمئة درع وأربعمئة رمح.

ثم خرج خالد باكيدر وأخيه مصاد قافلاً إلى المدينة، فقدم بالأكيدر على رسول الله ، فصالحه على الجزية، وحقق دمه ودم أخيه، وخلي سبيلهما، وكتب له كتاباً فيه أمانهم وختمه يؤمئذ بظفره: أي ومن جملة الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام، وخلع

الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها» إلى آخره، وهذا كما لا يخفى يدل على أن أكيدر أسلم، أي وهو الموافق لقول أبي نعيم وابن منده بإسلامه، وأنه معدود من الصحابة وأهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم حلة، فوهبها لعمر بن الخطاب.

وذكر ابن الأثير: أي في أسد الغابة أن القول بإسلامه غلط فاحش، فإنه لم يسلم بلا خلاف بين أهل السير، أي وحينئذ يكون قوله في الكتاب حين أجاب إلى الإسلام أي انقاد إليه. وبعده قوله: وخلع الأنداد والأصنام فليتأمل، وأنه لما صالحه عاد إلى حصنه وبقي فيه على نصرانيته. ثم إن خالداً رضي الله تعالى عنه حاصره في زمن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما فقتله لنقضه العهد. قال ابن الأثير: وذكر البلاذري أن أكيدراً لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أسلم، ثم بعد موته ارتد، ثم قتله خالد: أي بعد أن عاد من العراق إلى الشام.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 225
قال: وعلى هذا القول لا ينبغي أن يذكر في الصحابة، وإلا كان كل من أسلم في حياته، ثم ارتد، أي ومات مرتداً يذكر في الصحابة، أي ولا قائل بذلك. ثم رأيت الذهبي قال في عمارة بن قيس بن الحارث الشيباني إنه ارتد، وقتل مرتداً في خلافة أبي بكر، وبهذا خرج عن أن يكون صحابياً بكل حال. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 225
سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه إلى أبنى بضم الهمزة ثم موحدة، ثم نون مفتوحة مقصورة: اسم موضع بين عسقلان والرملة.

وفي كلام السهيلي رحمه الله: وهي قرية عند مؤنة التي قتل عندها زيد بن حارثة، رضي الله تعالى عنهما. لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة أمر بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا أسامة ابن زيد فقال: سر إلى موضع قتل أبيك فاطوئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغز صباحاً على أهل أبنى، وحرقت عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن ظفرك الله عليهم فأقل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك.

فلما كان يوم الأربعاء بدأ به وجعه فحم وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد لأسامة لواء بيده، ثم قال: اغز باسم الله وفي سبيل الله، وقاتل من كفر بالله، فخرج رضي الله تعالى عنه بلوائه معقوداً فدفعه إلى بريدة، وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين والأنصار إلا اشتد لذلك، منهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنهم، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأولين والأنصار، أي لأن سن أسامة رضي الله تعالى عنه كان ثمان عشرة، وقيل تسع عشرة سنة، وقيل سبع عشرة سنة.

ويؤيد ذلك أن الخليفة المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية الذي ضرب به المثل في الذكاء وهو صبي وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالة. فقال المهدي: أف لهذه العثانين، أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث، ثم التفت إليه المهدي وقال: كم سنك يا فتى؟ فقال: سني - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - سن أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم لما ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً فيه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما. فقال: تقدم، بارك الله فيك، وكان سنة سبع عشرة سنة. ومما يؤثر عنه: من لم يعرف عيبه فهو أحق، فقيل له ما عيبك يا أبا واثلة؟ قال: كثرة الكلام، وقيل كان عمر أسامة رضي الله تعالى عنه عشرين سنة.

ولما بلغ رسول الله مقالته وطعنهم في ولايته مع حداثة سنه غضب غضباً شديداً، وخرج وقد عصب على رأسه عصاة وعليه قطيفة، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله وايم الله إن كان لخليفاً بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإنهما مظنة لكل خير، فاستوصوا به خيراً فإنه من خياركم، وتقدم أنه رضي الله تعالى عنه كان يقال له الحب ابن الحب. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح خشمه وهو صغير بثوبه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227

ثم نزل فدخل بيته وذلك في يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة، وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخرجون إلى العسكر بالجرف، وثقل رسول الله، فجعل يقول: أرسلوا بعث أسامة، أي واستثنى أبا بكر وأمره بالصلاة بالناس. أي فلا منافاة بين القول بأن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان من جملة الجيش وبين القول بأنه تخلف عنه، لأنه كان من جملة الجيش أولاً، وتخلف لما أمره بالصلاة بالناس.

وبهذا يرد قول الرافضة طعناً في أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه تخلف عن جيش أسامة رضي الله تعالى عنه، لما علمت أن تخلفه عنه كان بأمر منه لأجل صلاته بالناس، وقول هذا الرافضي مع أنه لعن المتخلف عن جيش أسامة مردود، لأنه لم يرد اللعن في حديث أصلاً.

فلما كان يوم الأحد اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه، فدخل أسامة من عسكره والنبي صلى الله عليه وسلم مغمور، فطأ رأسه فقبله وهو لا يتكلم، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة رضي الله تعالى عنه. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي، ورجع أسامة رضي الله تعالى عنه إلى عسكره، ثم دخل عليه يوم الاثنين. فقال له: اغد على بركة الله تعالى، فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرجيل، فبينما هو يريد الركوب إذا رسول الله أمه أم أيمن رضي الله تعالى عنها قد جاءه يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت.

وفي لفظ: فسار حتى بلغ الجرف فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول له: لا تعجل ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيل، فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنهم، فانتهاوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يموت، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاغت الشمس.

أي وفي لفظ أنه رضي الله تعالى عنه لما نزل بذي خشب قبض النبي ، فدخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريدة بلواء أسامة حتى أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغرزته عنده.

فلما بويح لأبي بكر رضي الله تعالى عنه بالخلافة أمر بريدة أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة وأن يمضي أسامة لما أمر به.

فلما مات ارتدت العرب، أي فإنه لما اشتهرت وفاة النبي ، ظهر النفاق، وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية، وصارت المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشتائية، وارتدت طوائف من العرب وقالوا نصلي ولا ندفع الزكاة وعند ذلك كلم أبو بكر رضي الله تعالى عنه في منع أسامة من السفر: أي قالوا له كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فأبى أي وقال: والله الذي لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرد جيشاً وجهه رسول الله ، ولا حلت لواء عقده. وفي لفظ: والله لأن تخطفني الطير أحب إلي من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله .

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227

أقول: ذكر بعضهم أن أسامة رضي الله تعالى عنه وقف بالناس عند الخندق وقال لسيدنا عمر: ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه أن يأذن لي أن أرجع بالناس، فإن معي وجوه الناس ولا آمن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون، وقالت له الأنصار رضي الله تعالى عنهم: فإن أبي أبو بكر إلا أن يمضي: أي الجيش فأبلغه منا السلام، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة، فقدم عمر على أبي بكر رضي الله تعالى عنهما وأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: والله لو تخطفني الذئب والكلاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله . قال عمر رضي الله تعالى عنه: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثب أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر وقال: ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه، فخرج عمر إلى الناس فقال: امضوا ثكلتكم أمهاتكم، ما لقيت اليوم بسبيكم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً، هذا كلامه.

وفيه أن هذا مخالف لما تقدم من صعوده المنبر وإنكاره على من طعن في ولاية أسامة، إذ يبعد عدم بلوغ ذلك للأنصار رضي الله تعالى عنهم، إلا أن يقال: لعل من قال لسيدنا عمر هذه المقالة جمع من الأنصار لم يكونوا سمعوا ذلك ولا بلغهم، أو جوزوا أن الصديق رضي الله تعالى عنه يوافق على ذلك حيث

رأى فيه المصلحة، وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه جوّز ذلك حيث لم يتكفل بالرد عليهم بأنه أنكر على من طعن في ولاية أسامة رضي الله تعالى عنه، فليتأمل، والله أعلم.

وكلم أبو بكر رضي الله تعالى عنه أسامة في عمر رضي الله تعالى عنه أن يأذن له في التخلف ففعل، ولعل ذلك كان تطبيقاً لخاطر أسامة، ومن ثم كان عمر رضي الله تعالى عنه لا يلقي أسامة إلا قال السلام عليك أيها الأمير كما يأتي، فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة خرج أسامة رضي الله تعالى عنه: أي في ثلاثة آلاف فيهم ألف فرس، وودعه سيدنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه بعد أن سار إلى جنبه ساعة ماشياً، وأسامة راكب، وعبد الرحمن بن عوف يقود براحلة الصديق، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله إما أن تتركب وإما أن أنزل، فقال: والله لست بنازل، وليست براكب ثم قال له الصديق، رضي الله تعالى عنه: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك.

وقد وقع نظير ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضي الله تعالى عنه إلى اليمن شيعه وهو يمشي تحت راحلة معاذ وهو يوصيه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227

ثم إن أسامة رضي الله تعالى عنه سار إلى أهل أبتى، فشن عليهم الغارة: أي فرق الناس عليهم، وكان شعارهم «يا منصور أمت» فقتل من قتل وأسر من أسر، وحرق منازلهم وحرق أرضها فأزال نخلها، وأجال الخيل في عرصاتها، ولم يقتل من المسلمين أحد. وكان أسامة رضي الله تعالى عنه على فرس أبيه وقتل قاتل أبيه رضي الله تعالى عنهما، وأسهم للفرس سهمين وللفارس سهمًا، وأخذ لنفسه مثل ذلك، فلما أمسى أمر الناس بالرحيل، وأسرع السير، وبعث مبشراً إلى المدينة بسلامتهم.

وخرج أبو بكر في المهاجرين والأنصار ممن لم يكن في تلك السرية يتلقون أسامة ومن معه، وسروا بسلامتهم، ودخل أسامة رضي الله تعالى عنه واللواء بين يديه حتى انتهى إلى باب المسجد ثم انصرف إلى بيته.

أي وكان في خروج هذا الجيش نعمة عظيمة، فإنه كان سبباً لعدم ارتداد كثير من الطوائف العرب أرادوا ذلك. وقالوا: لولا قوة أصحاب محمد ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، فثبتوا على الإسلام.

أي وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حتى بعد أن ولي الخلافة إذا رأى أسامة رضي الله تعالى عنه قال: السلام عليك أيها الأمير، فيقول أسامة: غفر الله لك يا أمير المؤمنين، تقول لي هذا؟ فيقول: لا أزال أدعوك ما عشت الأمير. مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت عليّ أمير. وفي السيرة الشامية سرايا آخر تركنا ذكرها تبعاً للأصل.

وفي السنة الثامنة أمر عتاب بن أسيد رضي الله تعالى عنه أن يحج بالناس وهو بمكة.

وقد كان استعمله عليها لما أراد الخروج إلى حنين، وقيل لما رجع من حنين. واستمر أميراً على مكة حتى توفي رسول الله، فأقره الصديق رضي الله تعالى عنه إلى أن توفي، وكانت وفاته يوم وفاة الصديق رضي الله تعالى عنهما، أي لأنه أطعم سم سنة في اليوم الذي فيه الصديق ذلك، وكان ذلك

الحج على ما كانت عليه العرب في الجاهلية من حج الكفار مع المسلمين، لكن كان المسلمون بمعزل عنهم في الموقف.

ولما دخلت سنة تسع استعمل أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه على الحج، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه بعشرين بدنة قلدها وأشعرها بيده الشريفة، وساق أبو بكر رضي الله تعالى عنه خمس بدنات، ثم تبعه عليّ كرم الله وجهه على ناقه رسول الله صلى الله عليه وسلم القصواء: أي بفتح القاف والمد. وقيل بالضم والقصر ونسب للخطأ، فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه استعملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس، وأنبذ إلى كل ذي عهد عهده، وكان العهد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين عاماً وخاصاً، فالعام أن لا يصعد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم كما تقدم، والخاص بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قبائل العرب إلى أجل مسماء.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227

وفي كلام السيدهي رحمه الله تعالى: لما أردف أبو بكر بعليّ رضي الله تعالى عنهما رجع أبو بكر للنبي وقال: يا رسول الله هل أنزل في القرآن؟ قال: لا ولكن أردت أن يبلغ عني من هو من أهل بيتي، فمضى أبو بكر رضي الله تعالى عنه فحج بالناس: أي في ذي الحجة لا في ذي القعدة كما قيل من أجل النسيء الذي كان في الجاهلية، يؤخرون له الأشهر الحرم، أي فإن براءة نزلت: أي صدرها، وإلا فقد نزل منها قبل ذلك في غزوة تبوك {انفروا خفافاً وثقالاً} الآيات، وكان نزول صدرها بعد سفر أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقيل له: لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي. ثم دعا علياً كرم الله وجهه، فقال: اخرج بصدر براءة وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، فقرأ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه براءة يوم النحر: أي الذي هو يوم الحج الأكبر عند الجمره الأول وقال: «لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان».

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «أمرني علي كرم الله وجهه أن أطوف في المنازل من منى ببراءة فكنت أصيح حتى صحل حلقبي، فقيل له: بماذا كنت تنادي؟ فقال: بأربع: أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وأن لا يحج بعد العام مشرك، وأن لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عهد فله عهد أربعة أشهر ثم لا عهد له، وأول تلك الأربعة يوم النحر من ذلك العام - ومن لا عهد له فعده إلى انقضاء المحرم».

وكان المشركون إذا سمعوا النداء ببراءة يقولون لعلي كرم الله وجهه: سترون بعد الأربعة أشهر، فإنه لا عهد بيننا وبين ابن عمك إلا الطعن والضرب. وإنما أمر بما ذكر، لأنهم كانوا يحجون مع المسلمين ويرفعون أصواتهم بقولهم: لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. أي وتقدم سبب الاتيان بذلك، ويطوف رجال منهم عراة ليس على رجل منهم ثوب بالليل، فيقول الواحد

منهم: أطوف بالبيت كما ولدتني أمي ليس عليّ شيء من الدنيا خالطه الظلم: أي وفي لفظ التي قارفنا فيها الذنوب.
وكان لا يطوف الواحد منهم بثوب إلا بثوب من ثياب الحمس وهم قريش، يستعيره أو يكتريه، وإذا طاف بثوب من ثيابه ألقاه بعد طوافه فلا يمسه هو ولا أحد غيره أبداً، فكانوا يسمون تلك الثياب اللعنى.
وفي الكشف: كان أحدهم يطوف عرباناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه، لأنهم قالوا لا نعبد الله في ثياب أذنبنا فيها.
وقيل تفاؤلاً بأن يعرفوا من الذنوب كما يعرفون من الثياب.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227
وكانت النساء يطفن كذلك، وقيل كانت الواحدة تلبس درعاً مفرجاً. وقد طافت امرأة عربية ويدها على قبلها وهي تقول:
اليوم يبدو بعضه أو كله
فما بدا منه فلا أحله
فأنزل الله تعالى: {يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق} فأبطلت ذلك سورة براءة في تلك السنة، أي وقيل الزينة المشط، وقيل الطيب.

وكان بنو عامر في أيام الحج لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجتهم، فقال المسلمون فإنما أحق أن نفعل ذلك، فقيل لهم: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}.
ويحكى أن بعض الأطباء الحذاق من النصارى، قال لبعض الحكماء: ليس في كتابكم من علم الطب شيء. والعلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان. فقال له: قد جمع الله الطب كله في بعض آية من كتابه، قال له: وما هي، قال: قوله: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا}، فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب؟ قال: قد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ بسيرة. قال: وما هي؟ قال قوله: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته». فقال ذلك الطبيب: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئاً.
وبينت براءة أن من كان له عهد فعهدته إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر. وفي لفظ: لما لحق علي كرم الله وجهه أبا بكر رضي الله تعالى عنه، قال له أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال: بل مأمور.
وزعمت الرافضة أنه عزل أبا بكر عن إمارة الحج بعليّ. وعبارة بعض الرافضة: ولما تقدم أبو بكر بسورة براءة رده بعد ثلاثة أيام بوحي من الله. وكيف يرضى العاقل إمامة من لا يرتضيه النبي صلى الله عليه وسلم بوحي من الله لأداء عشر آيات من براءة، هذا كلامه.
قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: وهذا أبين من الكذب، فإن من المعلوم المتواتر أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لم يعزل، وأنه حج بالناس، وكان عليّ كرم الله وجهه من جملة رعيته في تلك السفارة، يصلي خلفه كسائر المسلمين، ولم يرجع إلى المدينة حتى قضى الحج في ذلك العام.

وإنما أردف أبا بكر رضي الله تعالى عنه بعلي كرم الله وجهه لينبذ اليهود، وكان من عادة العرب لا ينبذ العهد إلا المطاع أو رجل من أهل بيته، أي فلو تلا أبو بكر رضي الله عنه ما فيه نقض عهد عاهد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما تعللوا وقال قائلهم: هذا خلاف ما نعرف، فزاح الله عللهم بكون ذلك على يد رجل من بني أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم الأدنى إليه ممن له ذرية وهو عبد المطلب، قال: وهذا غير بعيد من افتراء الرافضة وبهتانهم، أي وعلى عادة العرب بما ذكر جاء قوله: «لا يبلغ عني إلا رجل من أهل بيتي» كما تقدم. وفي لفظ «إلا رجل مني» أي لا يبلغ عني عقد العقود ولا حلها إلا رجل مني، أي من بني أبي الأدنى ولا أب له ذرية أدنى إليه من عبد المطلب.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227

ولا يجوز حمل ذلك على تبليغ الأحكام والقرآن، إذ كل أحد من المسلمين مأذون له في تبليغ ذلك عنه .

وفي هذه السنة التي هي سنة تسع تتابعت الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل لها سنة الوفود.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 227

باب يذكر فيه ما يتعلق بالوفود التي وفدت عليه

أي غير من تقدم، فقد تقدم أنه قدم عليه وفد هوازن بالجعرانة، وكذا وفد عليه بها مالك بن عوف النصري وذلك في آخر سنة ثمان: أي ووفد نصارى نجران، أي قبل الهجرة، ووفد بني تميم في سرية عيينة بن حصن. وذكر ابن سعد أن ذلك كان في المحرم سنة تسع.

ووفد عليه وفد نصارى نجران أيضاً بعد الهجرة وكانوا ستين ركباً ودخلوا المسجد النبوي، أي وعليهم ثياب الحبرة وأردية الحرير مختمين بخواتم الذهب، أي ومعهم هدية وهي بسط فيها تماثيل ومسوح، فصار الناس ينظرون للتماثيل فقال: أما هذه البسط فلا حاجة لي فيها، وأما هذه المسوح فإن تعطونيها أخذها، فقالوا نعم: نعطيكمها. ولما رأى فقراء المسلمين ما عليه هؤلاء من الزينة والزي الحسن تشوقت نفوسهم إلى الدنيا، فأنزل الله تعالى: {قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار} الآيات، وأرادوا أن يصلوا بالمسجد بعد أن حان وقت صلاتهم وذلك بعد العصر، فأراد الناس منهم، فقال: دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم، فعرض عليهم الإسلام تلا عليهم القرآن فامتنعوا وقالوا قد كنا مسلمين قبلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذبتكم، يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً: أي لأن أحدهم قال له: المسيح عليه الصلاة والسلام ابن الله لأنه لا أب له. وقال له آخر: المسيح هو الله لأنه أحيا الموتى، وأخبر عن الغيوب، وأبرأ من الأدواء كلها، وخلق من الطين طيراً. وقال له أفضلهم: فعلام تشتمه وتزعم أنه عبد؟ فقال: هو عبد الله {وكلمته ألقاها إلى مريم} فغضبوا، وقالوا: إنما يرضينا أن تقول إنه إله، وقالوا له: إن كنت صادقاً فأرنا عبد الله يحيي الموتى ويشفي الأكمه والأبرص ويخلق من الطين طيراً فينفخ فيها فتطير؟ فسكت عنهم، فنزل الوحي بقوله تعالى: {لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم}

وقوله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب} ثم قال لهم : إن الله أمرني إن لم تنقادوا للإسلام أن أباهلكم، أي ندعو ونجتهد في الدعاء باللعنة على الكاذب، فقالوا له: يا أبا القاسم نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك، فخلا بعضهم ببعض، فقال بعضهم: والله علمتم أن الرجل نبيّ مرسل، وما لاعن قوم قط إلا استؤصلوا: أي أخذوا عن آخرهم، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه وصالحوه وارجعوا إلى بلادكم، وفي لفظ: أنهم ذهبوا إلى بني قريظة: أي من بقي منهم وبني النضير وبني قينقاع واستشاروهم، فأشاروا عليهم أن يصلحوه ولا يلاعنوه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفي لفظ: أنهم وادعوه على الغد، فلما أصبح أقبل ومعه حسن وحسين وفاطمة وعلي رضي الله عنهم وقال: اللهم هؤلاء أهلي، أي وعند ذلك قال لهم الأسقف: إني لأرى وجوهاً لو سألو الله أن يزيل لهم جبلاً لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني، فقالوا: لا نباهلك. وعن عمر رضي الله عنه: «أنه قال للنبي: لو لاعنتهم يا رسول الله بيد من كنت تأخذ؟ قال: أخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين وعائشة وحفصة» وهذا أي زيادة عائشة وحفصة في هذه الرواية دل عليه قوله تعالى: {ونسأنا ونساءكم} وصالحوه على الجزية، صالحوه على ألف حلة في صفر، وألف في رجب، ومع كل حلة أوقية من الفضة، وكتب لهم كتاباً وقالوا له: أرسل معنا أميناً، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه، وقال لهم: هذا أمين هذه الأمة، أي وفي رواية: هذا هو القوي الأمين، وكان لذلك يدعى في الصحابة بذلك.

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أما والذي نفسي بيده لقد تدلى العذاب علي أهل نجران، ولو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير، ولأضرم الوادي عليهم ناراً، ولاستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على الشجر، ولا حال الحول على النصارى حتى يهلكوا».

ووفد عليه قبل الهجرة الداريون أبو الهند الداري وتميم الداري وأخوه نعيم، وأربعة آخرون، وسألوا رسول الله أن يعطيهم أرضاً من أرض الشام فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوا حيث شئتم، قال أبو هند: فنهضنا من عنده نتشاور في أي أرض نأخذ؟ فقال تميم الداري رضي الله تعالى عنه نسأله بيت المقدس وكورتهما، فقال أبو هند: هذا محل ملك العجم وسيصير محل ملك العرب، فأخاف أن لا يتم لنا، قال تميم: نسأله بيت جيرون وكورتها، فنهضنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا له، فدعا بقطعة من آدم وكتب لهم كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم للداريين إذا أعطاه الله الأرض وهب لهم بيت عينون وجيرون والمرطوم، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أبد الأبد، شهد بذلك عباس بن عبد المطلب، وخزيمة بن قيس، وشرحبيل ابن حسنة، وكتب: ثم أعطانا كتابنا، وقال: انصرفوا حتى تسمعوا أنني قد هاجرت، قال أبو هند: فانصرفنا، فلما هاجر إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يجدد لنا

كتاباً آخر، فكتب لنا كتاباً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أنطى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم الداري وأصحابه، إني أنطيتكم بيت عينون وجيرون والمرطوم، وبيت إبراهيم عليه الصلاة والسلام برمتهم وجميع ما فيهم نطية بيت ونفذت، وسلّمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد، فمن أذاهم أذاه الله، شهد بذلك أبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب نقل ذلك في المواهب وأقره.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وخطب خطبة، قال فيها: حدثني تميم الداري، وذكر خبر الجساسة: أي لأن تميمياً رضي الله عنه أخبره أنه ركب البحر فتاهت به سفينته. فسقطوا إلى جزيرة فخرجوا إليها يلتمسون الماء فلقي إنساناً يجر شعره، فقال له: من أنت؟ قال: أنا الجساسة، قالوا: فأخبرنا، قال: لا أخبركم ولكن عليكم بهذه الجزيرة فدخلناها، فإذا رجل مقيد، فقال: من أنتم؟ قلنا ناس من العرب، قال: ما فعل هذا النبي الذي خرج فيكم؟ قلنا قد آمن به الناس وأتبعوه وصدقوه، قال: فإن ذلك خير لهم، قال: أفلا تخبروني عن عين ذعر ما فعلت؟ فأخبرناه عنها، فوثب وثبة، ثم قال: ما فعل نخل بيسان العرب، هل أطعم بتمر؟ فأخبرناه أنه قد أطعم، فوثب مثلها، فقال: أما لو قد أذن لي في الخروج لوطنت البلاد كلها غير طيبة، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدث الناس، فقال: هذه طيبة وذاك الدجال، قال ابن عبد البر: وهذا أولى ما يخرج المحدثون في رواية الكبار عن الصغار، أي كما تقدم.
ووفد عليه وهو في خيبر الأشعريون صحبة أبي موسى الأشعري، صحبوا جعفر بن أبي طالب من الحبشة، وقال فيهم كما تقدم: «أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمانية» وقال في حق أهل اليمن: «يريد أقوام أن يضعوهم ويأبى الله إلا أن يرفعهم» والأشعري نسبه إلى أشعر، واسمه نبت بن أدد بن يشجب، وإنما قيل له أشعر، لأن أمه ولدت له والشعر على بدنه.

قال: ولما فتحت مكة ودانت له قريش عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بعداوتة، لأن قريشاً كانت قادة العرب ودخلوا في دين الله أفواجاً.
قال في النهاية: الوفد القوم يجتمعون ويردون البلاد واحدهم وافداً هـ. والوفد رسول القوم يقدمهم، وقد يراد به ما هو أعم من ذلك، فيشمل من قدم غير رسول الله، وحينئذ يكون من ذلك كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه فإنه قدم على رسول الله .

وسبب ذلك أن أخاه بجير بن زهير خرج يوماً هو وكعب في غنم لهما، فقال لأخيه كعب اثبت في الغنم حتى آتي هذا الرجل، يعني النبي صلى الله عليه وسلم فأسمع كلامه وأعرف ما عنده، فأقام كعب ومضى بجير، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع كلامه وآمن به، وذلك أن أباهما زهيراً كان

يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آن مبعثه ، ورأى زهير والدهما رضي الله تعالى عنهما أنه قد مد بسبب من السماء، وأنه مد يده ليتناوله ففاته، فأوله بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي يبعث في آخر الزمان وأنه لا يدركه وأخبر بنيه بذلك وأوصاهم إن أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلموا، ولما اتصل خبر إسلام بجير بأخيه كعب أغضبه ذلك، فلما كان منصرفه من الطائف كتب بجير رضي الله تعالى عنه إلى أخيه كعب بن زهير - وكان ممن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم - يخبره بفتح مكة وأنه قتل بها رجالاً ممن كان يهجوه من شعراء قريش، وهرب بعضهم في كل وجه كابن الزبير وهبيرة بن أبي وهب وأنه ، قال: من لقي منكم كعب بن زهير فليقتله: فإن كان لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، ولا يطالبه بما تقدم الإسلام، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجاتك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفي تصحيح الأنساب لابن أبي الفوارس أن زهير بن أبي سلمى قال لأولاده: أني رأيت في المنام سبباً ألقى إلي من السماء، فمددت يدي لأتناوله ففاتني، فأولته أنه النبي الذي يبعث في هذا الزمان وأنا لا أدركه، فمن أدركه منكم فليصدقته وليتبعه ليهتدي به، فلما بعث الله محمداً آمن به ابنه بجير وأقام كعب ابنه على الشرك والتشبيب بأم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال: لئن وقع كعب في يدي لأقطعن لسانه الحديث.

أي ولا مانع أن يكون ضم إلى هذا هجاء رسول الله ، فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض، وأرجف به أعداؤه، وصاروا يقولون هو مقتول لا محالة، فلم يجد بداً من مجيئه إلى رسول الله ، فعمل القصيدة التي مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر فيها إرجاف أعدائه به رضي الله تعالى عنه التي مطلعها:

بانث سعاد فقلبي اليوم متبول

ثم خرج رضي الله تعالى عنه حتى قدم المدينة فنزل على رجل كان بينه وبينه معرفة، فغدا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الصبح، فأشار له ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هذا رسول الله، فقم إليه واستأمنه، فقام إلى أن جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضع يده في يده وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ومن حضره لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، فقال: يا رسول الله أنا كعب بن زهير، فوثب رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعه عنك فإنه قد جاء تائباً نازعاً، فلما أنشد القصيدة المذكورة ومدح فيها المهاجرين ولم يتعرض للأنصار، قيل حمله على ذلك ما سمعه من ذلك الأنصاري مما غاظه، ولم يسمع من المهاجرين شيئاً يغيظه. وفيه أن هذا واضح إذا كان أنشأ ذلك في ذلك الوقت، وأما إذا كان عمله قبل مجيئه كما هو ظاهر ما تقدم أنه عمل تلك القصيدة التي من جملتها ما ذكر فلا،

فعند ذلك غضب الأنصار، فمدحهم بالقصيدة التي مطلعها.
من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقنّب من صالح الأنصار
أي ويقال إنه هو الذي حضه على مدحهم وقال له لما أنشد: بانت سعاد، ورآها
مشملة على مدح المهاجرين دون الأنصار: لولا: أي هلا ذكرت الأنصار بخير،
فإن الأنصار أهل لذلك؟ أي ولما أنشده بانت سعاد وقال:
إن الرسول لسيف يستضاء به

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

مهند من سيوف الله مسلول
ألقي بردة كانت عليه ، وقد اشتراها معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى
عنهما من آل كعب بمال كثير، أي بعد أن دفع لكعب فيها عشرة آلاف، فقال:
ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً، فلما مات كعب
رضي الله تعالى عنه أخذها من ورثته بعشرين ألفاً، وتوارثها خلفاء بني أمية،
ثم خلفاء بني العباس. اشتراها السفاح أول خلفاء بني العباس بثلاثمائة دينار
بعد انقراض دولة بني أمية، أي وكانوا يطرحونها على أكتافهم جلوساً وركوباً،
وكانت على المقتدر حين قتل وتلوّث بالدم.
ويقال إن التي كانت عند بني العباس بردته التي أعطاها لأهل أيلة مع كتابه
الذي كتبه لهم أماناً وذلك في غزوة تبوك، وحينئذ تكون بردة كعب رضي الله
تعالى عنه فقدت عند زوال دولة بني أمية. وأما هذه البردة فلعل فقدها كان
في فتنة التتار.

ثم رأيت ابن كثير رحمه الله قال: إن معاوية رضي الله تعالى عنه اشترى
البردة التي كانت عند الخلفاء من أهل كعب بأربعين ألف درهم توارثها الخلفاء
الأمويون والعباسيون حتى أخذها التتر منهم سنة أخذ بغداد. وقال: هذا من
الأمور المشهورة جداً، ولكنني لم أر ذلك في شيء من الكتب بإسناد أرتضيه.
وصار كعب رضي الله تعالى عنه من شعرائه الذين يذبون عن الإسلام كعبد
الله بن رواحة وحسان بن ثابت رضي الله تعالى عنهما الأنصاريين.

ولما قدم المدينة من تبوك في رمضان قدم عليه في ذلك الشهر وقد ثقيف.
وكان من خبرهم أنه لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
محاصرتهم تبع أثره عروة بن مسعود رضي الله تعالى عنه حتى أدركه قبل أن
يصل إلى المدينة فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له رسول
الله صلى الله عليه وسلم: إنهم قاتلوك، فقال له عروة: يا رسول الله أنا أحب
إليهم من أباكرهم: أي أول أولادهم. وفي رواية: من أبصارهم، فخرج رضي
الله تعالى عنه يدعو قومه إلى الإسلام رجاءً أن لا يخالفوه لمرتبته فيهم، أي
لأنه رضي الله تعالى عنه كان فيهم محبباً مطاعاً، فلما أشرف لهم على عالية
ودعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه رموه بالنبل من كل جانب فأصابه سهم
فقتله.

وفي لفظ: أنه رضي الله تعالى عنه قدم الطائف عشاء، فجاءته ثقيف يسلمون

عليه، فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم فعصوه وأسمعوه من الأذى ما لم يكن يغشاه منهم، فخرجوا من عنده حتى إذا كان السحر وطلع الفجر قام علي غرفة في داره وتشهد، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله، فقيل له قبل أن يموت: ما ترى في دمك؟ فقال: كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إلي فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يرتحل عنكم، فادفنوني معهم، فدفنوه معهم، وقال في حقه: «إن مثله في قومه كمثل صاحب يس إنه قال لقومه: {اتبعوا المرسلين} الآيات فقتله قومه» أي المذكورة في سورة يس وهو حبيب بن بري. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وقال السهيلي: يحتمل أن المراد به صاحب إلياس، فإن إلياس يقال في اسمه يس أيضاً. وقد قال مثل هذه المقالة في حق شخص آخر يقال له قره بن حصين أو ابن الحارث، بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى هلال بن عامر يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه، فقال: «مثله مثل صاحب يس».

ثم إن ثقيفاً أقامت بعد قتل عروة شهراً، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد أسلموا. فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً، فكلّموا عبد ياليل بن عمرو وكان في سن عروة بن مسعود رضي الله تعالى عنه في ذلك، فأبى أن يفعل، لأنه خشي أن يفعل به كما فعل بعروة. وقيل كلّموا مسعود بن عبد ياليل ونسب قائله إلى الغلط، فقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً فبعثوا معه خمسة أنفار منهم شرحبيل بن غيلان أحد أشرف ثقيف، أسلم غيلان بالغين المعجمة على عشر نسوة، وممن أسلم على عشر نسوة أيضاً عروة بن مسعود، وكذلك مسعود بن معتب، ومسعود بن عمير، وسفيان بن عبد الله، وأبو عقيل مسعود بن عامر، وكلهم من ثقيف.

ويقال: وقد عليه تسعة عشر رجلاً هم أشرف ثقيف، فيهم كنانة بن عبد ياليل وهو رأسهم يومئذ، وفيهم عثمان بن أبي العاص وهو أصغرهم، فلما قربوا من المدينة لقوا المغيرة بن شعبة الثقفي، فذهب مسرعاً ليشير رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمهم عليه، فلقيه أبو بكر رضي الله تعالى عنه فأخبره، فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أكون أنا أحدثه ففعل، فدخل أبو بكر رضي الله تعالى عنه علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بقدمهم عليه، ثم خرج المغيرة أي وعلمهم رضي الله تعالى عنه كيف يحيون رسول الله، فأبوا إلا تحية الجاهلية وهي عم صباحاً، ثم قدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب لهم قبة في ناحية المسجد: أي ليسمعوا القرآن وبروا الناس إذا صلوا، وكانوا يغدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص عند أسياهم، فكان عثمان إذا رجعوا ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن، وإذا وجد النبي صلى الله عليه وسلم نائماً ذهب إلى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وكان

يكتف ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحبه وكان فيهم رجل مجذوم، فأرسل يقول له: إنا بايعناك فارجع. وفي المرفوع: «لا تديموا النظر إلى المجذومين» وجاء: «كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين» هذا معارض بقوله: «لا عدوى ولا طيرة» وبما جاء في أحاديث أخر: «أنه أكل مع المجذوم طعاماً. وأخذ يده وجعلها معه في القصعة وقال: كل بسم الله، ثقة بالله، وتوكلاً عليه.»
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وأجيب بأن الأمر باجتنب المجذوم إرشادي، ومؤاكلته لبيان الجواز، أو جواز المخالطة محمولة على من قوي إيمانه وعدم جوازها على من ضعف إيمانه، ومن ثم باشر الصورتين ليقتدى به، فيأخذ القوي الإيمان بطريق التوكل، والضعيف الإيمان بطريق الحفظ والاحتياط.
وعند انصافهم قالوا: يا رسول الله: أمر علينا رجلاً يؤمناً، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لما رأى من حرصه على الإسلام وقراءته للقرآن وتعلم الدين، ولقول الصديق رضي الله تعالى عنه له: يا رسول الله إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على النفقة في الإسلام وتعلم القرآن.
وفي رواية أن عثمان بن أبي العاص قال: قلت: يا رسول الله اجعلني إمام قومي، قال: أنت إمامهم، وقال لي: إذا أمتت فأخف بهم الصلاة، واتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجراً، فكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كتب لهم كتاباً، وكان الكاتب له خالد المذكور. ومن جملة: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين، إن عضاه ووجّ وصيده حرام، لا يعضده شجره، ومن وجد يفعل شيئاً من ذلك فإنه يجلد وتنزع ثيابه. ووج: واد بالطائف، وقيل هو الطائف. والعضاه: كل شجر له شوك واحه عضه كشفه وشفاه.

وروى أبو داود والترمذي: «ألا إن صيد ووجّ وعضاهه حرام محرّم» وكانوا يطعمون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا. وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يترك لهم الصلاة. فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه. وفي لفظ: لا ركوع فيه. وأن يترك لهم الزنا والربا وشرب الخمر فأبى ذلك. وسألوه أن يترك لهم الطاغية التي هي صنمهم وهي اللات، أي وكانوا يقولون لها الربة، لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم له، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فلا زالوا يسألونه سنة وهو يأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم وأرادوا بذلك ليدخل الإسلام في قومهم ولا يرتاع سفهاؤهم ونساؤهم بهدمها، فأبى عليهم ذلك رسول الله .

أي وعند خروجهم قال لهم سيدهم كنانة: أنا أعلمكم بثقيف، اكنتموا إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمداً سألنا أموراً عظيمة ما أيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية، وأن نترك الزنا والربا وشرب الخمر، فلما

جاءتهم ثقيف وسألوهم قالوا: جئنا رجلاً فظاً غليظاً قد ظهر بالسيف ودان له الناس، فعرض علينا أموراً شداداً وذكروا ما تقدم، قالوا: والله لا نطيعه ولا نقبل هذا أبداً، فقالوا لهم: أصلحوا السلاح، وتهيؤوا للقتال، ورموا حصنكم، فمكثت ثقيف كذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب في قلوبهم وقالوا: والله ما لنا طاقة، فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فعند ذلك قالوا لهم: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا لهم: لم كتمتمونا؟ قالوا أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا ومكثوا أياماً، فقدم عليهم رسل رسول الله، بعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنهما لهدم الطاغية.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفي رواية: لما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين بعث معهم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية، فخرجوا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة رضي الله تعالى عنه أن يقدم أبا سفيان، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك، فلما دخل المغيرة علاها ليضربها بالمعول: أي الفأس العظيمة التي يقطع بها الصخر، وقام قومه دونه خشية أن يرمي كما رمي عروة، وخرج نساء ثقيف حسراً. أي مكشوفات الرؤوس حتى العواتق من الحجال يبكين على الطاغية.

قال: وفي رواية يظنون أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك، وأراد المغيرة رضي الله تعالى عنه أن يسخر بثقيف، فقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف، فألقى نفسه لما علا على الطاغية ليهدمها. وفي لفظ: أخذ يرتكض فصاحوا صيحة واحدة، فقالوا: أبعده الله المغيرة قتلته الرية، وقالوا: والله لا يستطيع هدمها.

وفي رواية لما أخذ المعول وضرب به اللات ضربة صاح وخرّ لوجهه، فارتجّ الطائف بالصياح سروراً، وإن اللات قد صرعت المغيرة، وأقبلوا يقولون كيف رأيت يا مغيرة؟ دونكها إن استطعت، ألم تعلم أنها تهلك من عادها؟ فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم: يا خبثاء، والله ما قصدت إلا الهزء بكم.

وفي رواية: فوثب وقال لهم: قبحكم الله، إنما هي لكاع، حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعيدوه، ثم أخذ في هدمها هدمها بعد أن بدأ بكسر بابها حتى هدم أساسها وأخرج ترابها لما سمع سادنها يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم وأخذ مالها وحليها، فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود أخاه من مال الطاغية، فقضاه، فإن أبا مليح بن عروة بن مسعود وقارب ابن عمه بن الأسود أخو عروة بن مسعود سألا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، وكانا قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين لما قتلت ثقيف عروة بن مسعود قبل أن تسلم ثقيف كما تقدم، وكان قد أجاب أبا مليح، فقال له نعم، فقال له ابن عمه قارب بن الأسود: وعن الأسود يا رسول الله، فإن عروة والأسود أخوان لأب وأم، فقال: إن الأسود مات مشركاً، فقال قارب: يا رسول الله إنما الدين عليّ وأنا الذي أطلب به.

ومن الوفود وفد بني تميم وقد تقدم ذكره: أي في الكلام على سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم، وفي ذلك الوفد عطار بن حاجب وعمرو بن الأهم والأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر.

وذكر في الاستيعاب أنه كان مع وفد تميم قيس بن عاصم فأسلم، وذلك في سنة تسع، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا سيد أهل الوب، وكان عاقلاً حليماً مشهوراً بالحلم. قيل للأحنف بن قيس - وكان من أحلم الناس: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، رأيت يوماً قاعداً بفناء داره محتبياً بحمائل سيفه يحدث قومه، فأتي برجل مكتوف وآخر مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قد قتل ابنك، قال: فوالله ما حل حبوته ولا قطع كلامه، فلما أتمه التفت إلى ابن أخيه، فقال: يا بن أخي بئس ما فعلت، أئمت بربك، وقطعت رحمك، وقتلت ابن عمك، ورميت نفسك بسهمك، ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحل كتاف ابن عمك، وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وكان قيس بن عاصم رضي الله تعالى عنه ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية. وسبب ذلك أنه سكر يوماً فغمز عكنة ابنته وسب أبويها، ورأى القمر فصار يخاطبه، وأعطى الخمار مالا كثيراً، فلما أفاق أخبر بذلك فحرمها على نفسه وقال في ذمها أبياتاً كثيرة.

ولما حضرته الوفاة دعا بنيه، فقال لهم: يا بني احفظوا عني فلا أحد أنصح لكم مني، إذا مت فسودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم فيسفه الناس كباركم وتهونوا عليهم. وعليكم بإصلاح المال فإنه منبهة للكريم، ويُسْتغنى به عن اللئيم. وإياكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب الرجل، فإذا مت فلا تنوحوا عليّ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينح عليه، وقد قيل فيه من جملة أبيات عند موته:

فما كان قيس هلكتك هلك واحد

ولكنه ببيان قوم تهدما

وتقدم أنهم نادوه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا ثلاث مرات، فخرج إليهم إلى آخر ما تقدم.

ومنها وفد بني عامر فيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس وجبار بن سلمى بضم السين وفتحها، وكانوا أي هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم، وكان عامر بن الطفيل عدو الله سيدهم، كان مناديه ينادي بسوق عكاظ: هل من راجل فنحمله، أو جائع فنطعمه، أو خائف فنؤمونه؟ وكان من أجمل الناس، وكان مضمراً الغدر برسول الله، فقال لأربد وهو أخو لبيد الشاعر: إذا قدمنا على هذا الرجل فإني شاغل عنك وجهه؟ فإذا فعلت ذلك فاعله السيف، وقد قال قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم، فقال: والله لقد كنت آليت: أي حلفت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقبي، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر بن الطفيل: يا

محمد خالني: أي اجعلني خليلاً وصديقاً لك، قال: لا والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، قال: يا محمد خالني، وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وينتظر من أريد ما كان أمره به فجعل أريد لا يأتي بشيء. وفي رواية لما أتاه عامر وسده: أي ألقى له وسادة ليجلس عليها، ثم قال له: أسلم يا عامر، فقال له عامر: إن لي إليك حاجة، قال: اقرب مني، فقربت منه حتى حنا على رسول الله، وهذا يدل على أن قوله خالني: أي اجعل لي منك خلوة، وهو المناسب لقول عامر لأريد إنني أشاغل عنك وجهه. قال: وذكر أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال له أسلم يا عامر، فقال: أتجعل لي الأمر بعدك إن أسلمت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك لك ولا لقومك: أي إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء: أي وقال له: يا محمد أسلم على أن لي الوبر ولك المدر، فقال: لا، فقال: ما لي إن أسلمت؟ فقال: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فقال: أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً، وفي رواية: خيلاً جرداً ورجالاً مرداً، ولأربطن بكل نخلة فرساً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يمنعك الله عز وجل.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

قال السيهلي: وجعل أسيد بن حضير رضي الله تعالى عنه يضرب في رؤوسهما ويقول اخرجها أيها الهجرسان: أي القردان، فقال له عامر: ومن أنت؟ فقال: أسيد بن حضير، فقال: أحضير بن سماك؟ قال نعم، قال: أبوك كان خيراً منك، قال: بلى أنا خير منك ومن أبي، لأن أبي كان مشركاً وأنت مشرك. ومكث أياماً يدعو الله عليهم ويقول: اللهم اكفني عامر بن الطفيل بما شئت وابعث له داء يقتله أه. أي ثم قال: والذي نفسي بيده لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزاحمت قريشاً على منابرها، ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا قوم آمنوا، ثم قال: اللهم اهد بني عامر، واشغل عني عامر بن الطفيل بما شئت وأنى شئت.

وفي البخاري: «أنه قال للنبي أخيرك بين ثلاث خصال: يكون لك أهل السهل ولي أهل الوبر، وأكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقراء، فلما خرجوا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عامر لأريد: ويلك يا أريد، أين ما كنت أمرتك به، والله ما كان على وجه الأرض من رجل أخافه على نفسي منك أبداً، وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً، فقال: لا أبالك، لا تعجل عليّ، والله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبين هذا الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟ أي وفي رواية: إلا رأيت بيني وبينه سوراً من حديد. وفي رواية: لما وضعت يدي على قائم السيف يبست فلم أستطع أن أحركها. وفي رواية: لما أردت سل سيفي نظرت فإذا فحل من الإبل فاغر فاه بين يديّ يهوي إليّ، فوالله لو سللته لخفت أن يتلع رأسي.

ويمكن الجمع بأن ما في الرواية الأولى كان بعد أن تكرر منه الهم، وما في الرواية الثانية كان بعد أن حصل منه هم آخر، وكذا يقال في الثالثة، وخرجوا

راجعين إلى بلادهم، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر بن الطفيل الطاعون في عنقه: أي وفي لفظ حلقه، أي وأوى لبيت امرأة سلولية من بني سلول، وكانوا موصوفين باللؤم. وفي كلام السيهلي: إنما اختصها بالذكر لقرب نسبها منه لأنها منسوبة إلى سلول بن صعصعة، والطفيل من بني عامر بن صعصعة أي فهي تأسف عليه، وصار يأسف الذي كان موته ببيتها، وصار يمس الطاعون ويقول: يا بني عامر غدة: أي أغدة كغدة البعير، وموتاً في بيت امرأة من بني سلول، أتتوني بفرسي، ثم ركب فرسه وأخذ رمحه، وصار يجول حتى وقع عن فرسه ميتاً أي ويذكر أنه صار يقول: ابرز يا ملك الموت. وفي لفظ: يا موت ابرز لي: أي لأقاتلك، وهذا يدل على أن موت عامر لم يتأخر سيما وقد جاء في رواية: فخرج حتى إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها سلولية فنزل عن فرسه ونام في بيتها، فأخذته غدة في حلقه فوثب على فرسه وأخذ رمحه، وأقبل يجول وهو يقول: غدة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية، فلم يزل على تلك الحالة حتى سقط عن فرسه ميتاً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ويحتاج للجمع بينه وبين قول الأوزاعي قال يحيى: فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحاً، وقدم صاحبه على قومهما، فقالوا لأريد: ما وراءك يا أريد؟ فقال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أني عنده الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جملة يتبعه فأرسل الله عليه وعلى جملة صاعقة أحرقتهما. أي وذلك في يوم صحو قائظ، وأنزل الله تعالى قوله: {وبرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء} وأما جبار بن سلمى الذي هو ثالثهم فقد أسلم مع من أسلم من بني عامر.

ومنها وفود ضمام بن ثعلبة، أي وقيل وفد في سنة خمس، بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه متكئاً جاءه رجل من أهل البادية قال فيه طلحة بن عبيد الله: جاءنا أعرابي من أهل نجد نثر الرأس نسمع دوي صوته ولا نفقه ما يقول، الحديث: أي جاء على جمل وأناخه في المسجد ثم عقله وقال: أيكم ابن عبد المطلب، أي وفي رواية: أيكم محمد؟ قالوا هذا الأمغر المرتفق: أي الأبيض المشرب بحمرة المتكىء على مرفقه، فدنا منه فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة قال: سل عما بدا لك. أي وفي رواية: لمغلظ عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك ما لا أجد في نفسي، فقال: سل ما بدا لك، فقال: يا محمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق، فقال: أنشدك بفتح الهمزة برب من قبلك ورب من بعدك. وفي رواية: بالذي خلق السموات والأرض، ونصب هذه الجبال، قال: اللهم نعم. قال: وفي رواية أنه قال له قبل ذلك: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان أبأؤنا يعبدون؟ قال: اللهم نعم انتهى. قال: أنشدك بالله الله أمرك أن نصلي خمس صلوات في كل يوم وليلة؟ قال اللهم نعم. قال: وأنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترده على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، قال: وأنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من اثني عشر شهراً؟ قال: اللهم نعم، قال: وأنشدك بالله الله أمرك أن يحج

هذا البيت من استطاع إليه سبيلاً، قال: اللهم نعم، قال: فأنا قد آمنت وصدقت وأنا ضمام بن ثعلبة.
أقول: وهذا السياق يدل على أن وفوده كان بعد فرض الحج، وهو يخالف ما سبق أنه كان في سنة خمس ومن ثم استبعده ابن القيم. قال: والظاهر أن هذه اللفظة مدرجة من كلام بعض الرواة.

وفيه أن الذي جزم به إسحاق وأبو عبيدة أنه وفد في سنة تسع وصوبه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، ومن ثم جاء ذكر الحج في مسلم، ويؤيد ذلك قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وأفداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم علينا الحديث، لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنما قدم المدينة بعد الفتح، فلما أن ولى ضمام رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقه الرجل: أي بضم القاف صار فقيهاً، وبكسرهما فهم. وفي لفظ: لئن صدق ليدخلن الجنة، وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: ما رأيت أحداً أحسن مسألة ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة. أي وفي لفظ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فما سمعنا بوافد وقد كان أفضل من ضمام.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ولما رجع ضمام رضي الله تعالى عنه إلى قومه قال لهم: إن الله تعالى قد بعث رسولاً، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه.
قال: وفي رواية أن أول شيء تكلم به أن سب اللات والعزى، فقال له قومه: مه يا ضمام، اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، فقال لهم: ويلكم، والله إنهما لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولاً إليّ آخر ما تقدم، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فلم يبق من القوم رجل ولا امرأة إلا وأسلم.

ومنها وفد عيد القيس وفيهم الجارود، وكان نصرانياً: أي قد قرأ الكتب فقال آياتنا مخاطباً بها النبي، منها:

يا نبي الهدى أتاك رجالاً
قطعت فدفاً وآلاً فالأ

تتقي وقع شر يوم عبوس
أوجل القلب ذكره ثم هالا

الفدفاً: المفازة، والآل: ما يرفع الشخوص في أول النهار وفي آخره، وقيل السراب. وقيل وكانوا ستة عشر، فعرض عليهم الإسلام، فقال: يا محمد إني كنت على دين وإنني تارك ديني لدينك فتضمن لي ديني؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: نعم أنا ضامن لك أن قد هداك إلى ما هو خير لك منه، فأسلم وأسلم أصحابه، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحملهم، فقال: والله ما عندي ما أحملكم عليه، فقال: يا رسول الله يحال بيننا وبين بلادنا ضوالاً من ضوال المسلمين أي من الإبل والبقر مما يحمي نفسه أفتبليغ عليها:

أي نركبها إلى بلادنا. قال: لا، إياك وإياها، وإنما تلك حرق النار أي لهيها كذا في الأصل.

وفي السيرة الهشامية أن الجارود إنما وفد مع حليف له يقال له سلمة بن عياض الأزدي وأن الجارود قال لسلمة: إن خارجاً خرج بتهمة يزعم أنه نبي، فهل لك أن تخرج إليه، فإن رأينا خيراً دخلنا فيه، وأنا أرجو أن يكون هو النبي الذي بشر به عيسى ابن مريم، لكن يضمركل واحد منا له ثلاث مسائل يسأله عنها لا يخبر بها صاحبه، فلعمري إنه إن أخبرنا بها إنه لنبي يوحى إليه، فلما قدما عليه قال له الجارود: بم بعثك به ربك يا محمد؟ قال: بشهادة أن لا إله إلا الله وأني عبد الله ورسوله، والبراءة من كل ند أو دين يعبد من دون الله، وبإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقها، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً بغير إلحاد {من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد} قال الجارود: يا محمد إن كنت نبياً فأخبرنا عما أضمرنا عليه، فخفق رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة كأنها سنة ثم رفع رأسه الشريف والعرق يتحدر عنه، فقال: أما أنت يا جارود، فإنك أضمرت على أن تسألني عن دماء الجاهلية، وعن حلف الجاهلية، وعن المنيحة. ألا وإن دم الجاهلية موضوع وحلفها مردود، ولا حلف في الإسلام. ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابة أو لين شاة، فإنها تغدو برفدة وتروح بمثله. وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت أن تسألني عن عبادة الأوثان، وعن يوم السباسب، وعن عقل الهجين. فأما عبادة الأوثان فإن الله تعالى يقول: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون} وأما يوم السباسب فقد أعقبه الله ليلة خيراً من ألف شهر، فاطلبوها في العشر الأواخر من رمضان، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ریح فيها، تطلع الشمس في صبيحتها لاشعاع لها. وأما عقل الهجين، فإن المؤمنين إخوة تتكافأ دمائهم، يجير أقصاهم على أدناهم، أكرمهم عند الله أتقاهم، فقالوا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبده ورسوله انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وذكر في السيرة الهشامية في وفد عبد القيس أنه كان قبل فتح مكة، وذكر ما حاصله: «أنه بينما هو يحدث أصحابه، إذ قال لهم: سيطلع عليكم من ههنا ركب هم خير أهل المشرق» وفي رواية: «ليستين ركب من المشرق لم يكرهوا على الإسلام قد أنضوا» أي أهزلوا «الركائب، وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس، فقام عمر رضي الله تعالى عنه، فتوجه نحو مقدمهم، فلقي ثلاثة عشر راكباً، وقيل كانوا عشرين راكباً، وقيل كانوا أربعين رجلاً، فقال: من القوم؟ قالوا: من بني عبد القيس، فقال: أما إن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكركم أنفاً، فقال خيراً، ثم مشى معهم حتى أتوا النبي، فقال عمر للقوم: هذا صاحبكم الذي تريدون، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم بباب المسجد بشباب سفرهم، وتبادروا يقبلون يده ورجله، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج، وهو رأسهم، وكان أصغرهم سناً، فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع،

وذلك بمرأى من النبي ، وأخرج ثوبين أبيضين لبسهما، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلها، وكان رجلاً دميماً ففطن لنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دمامته، فقال: يا رسول الله إنه لا يستقي أي يشرب في مسوك: أي جلود الرجال، وإنما يحتاج الرجل من أصغريه لسانه وقلبه. فقال له رسول الله: إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة، فقال: يا رسول الله أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما؟ قال: لا، بل الله تعالى جبلك عليهما، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله « والأناة على وزن قناة: التؤدة. وقد جاء: «التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة». وفي رواية: «أنهم لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: من القوم؟ قالوا: من ربيعة» أي وهو المراد بما في بعض الروايات ربيعة، فإنه من التعبير عن البعض بالكل.

وفي البخاري في الصلاة: «إن هذا الحي من ربيعة» أي إن هذا الحي من ربيعة وهو في الأصل اسم لمنزل القبيلة، سميت به القبيلة لأن بعضهم يحيا ببعض، قال: «خير ربيعة عبد القيس، مرحباً بالقوم» أي صادفتم رُحبا بضم الراء: أي سعة. وأول من قال مرحباً سيف بن ذي يزن، وقد تكررت هذه الكلمة منه ، قالها لابنة عمه أم هانئ رضي الله تعالى عنها. وقال لعكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه: «مرحباً بالراكب الهاجر» وقال لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها: «مرحباً بابنتي» وقال لشخص دخل عليه: «مرحباً، وعليك السلام».

ثم قال لهم : «غير خزايا، ولا ندامى» أي حالة كونكم سالمين من الخزي ومن الندم، وفي لفظ: «مرحباً بالوفد الذين جاؤوا غير خزايا ولا ندامى، أنا حجيج من ظلم عبد القيس، فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة» أي من سفر بعيد، لأن مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق. «وإنه يحول بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام» أي وفي لفظ: «إلا في هذا الشهر الحرام» «وهو كمسجد الجامع ونساء مؤمنات» وهو شهر رجب للتصريح به في بعض الروايات.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وقال بعضهم: وفي هذا دليل على أن الأعمال الصالحة تدخل الجنة إذا قبلت، وقبولها يقع برحمة الله، لأن مضر كانت تبالغ في تعظيم شهر رجب زيادة على بقية الأشهر الحرم ومن ثم قيل رجب مضر: «فأمرنا بأمر فصل» أي فاصل بين الحق والباطل «فقال: أمركم بأربع» أي بخصال أربع أو جمل أربع. ففي بعض الروايات: «قالوا: حدثنا بجمل من الأمر، وأنهاكم عن أربع: أمركم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمان بالله، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» أي وفيه أن القوم كانوا مؤمنين مقرين بكلمة الشهادة.

ووقع في البخاري في الزكاة زيادة واو قبل شهادة وهي زيادة شاذة لم يتابع عليها راويها: «وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من

المغرم الخمس» أي لأنهم كانوا بصدد محاربة كفار مضر، وهذا زائد على الأربع، ومن ثم قال بعضهم هو معطوف على قوله بأربع: أي أمركم بأربع وبأن تعطوا، ومن ثم غير في الأسلوب.

وفي مسلم: «أمركم بأربع: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا رمضان، وأعطوا الخمس من الغنائم» ولم يذكر الحج، لأنه لم يكن فرض على الصحيح كما قال الحافظ الدمياطي رحمه الله، وهو بناء على الأصح أنه فرض سنة ست. وقول الواقدي إن قدوم وفد عبد القيس كان في سنة ثمان ليس بصحيح، لكن ذكر بعضهم أن لعبد القيس وفدتين، واحدة كانت قبل فرض الحج، وواحدة بعده. ومن ثم جاء ذكر الحج في مسند الإمام أحمد، وهو «وأن تحجوا البيت» وأنه لم يتعرض في هذه الرواية لعدد: أي لقوله أربع، ثم قال لهم: «وأنهاكم عن أربع، عن الدبا» أي القرع: أي عما ينبذ فيها «والحنتم» وهو جرار مدهونة بدهان أخضر: أي عما ينبذ فيها: أي وقيل الحنتم جرار كانت تعمل من طين وشعر وأدم «والنقير» أصل النخلة ينقر وينبذ فيه التمر، أي ما ينبذ في ذلك «والمزفت» ما طلي بالزفت أي عما ينبذ فيه. وفي رواية زيادة على ذلك «والقير» ما طلي بالقار، وهو نبت يحرق إذا يبس وتطلى به السفن كما تطلى بالزفت، زاد في رواية: «وأخبروا بهن من وراءكم» أي من جئتم من عندهم، ومن يحدث من الأولاد «قالوا: فيم نشرب يا رسول الله؟ قال: في أسقية الأدم» أي الجلود التي يلاث: أي يربط على أفواهها «قالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذان»، أي الفيران: أي لا تبقى فيها أسقية الأدم، قال «وإن أكلها الجرذان، قال ذلك مرتين أو ثلاثاً» فقال له الأشج «يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة وخمة، وإننا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخص لنا في مثل هذه، فأوماً بكفيه

وقال له: يا أشج إن رخصت لك في مثل هذه شربته في مثل هذه وفرج بين يديه وبسطها» يعني أعظم منها: «حتى إذا ثمل» أي سكر «أحدكم من شراية قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف» وكان في القوم رجل وقع له ذلك أي وهو جهم بن قثم، قال: لما سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت أسدل ثوبي لأعطي الضربة وقد أبداها الله لنيبه، أي وفي كلام السهيلي: فعجبوا من علم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وإشارته إلى ذلك الرجل هذا كلامه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

أي وفي رواية: «أنهم سألوه عن النبيذ، فقالوا: يا رسول الله إن أرضنا أرض وخمة لا يصلحها إلا النبيذ، قال: فلا تشربوا في النقير، فكأنني بكم إذا شربتم في النقير قام بعضكم إلى بعض بالسيوف، فضرب رجلاً منكم ضربة لا يزال يعرج منها إلى يوم القيامة فضحكوا، فقال: ما يضحككم؟ قالوا: ولقد شربنا في النقير فقام بعضنا إلى بعض بالسيوف فضرب هذا ضربة بالسيف فهو أعرج كما ترى، ثم ذكر لهم أنواع تمر بلدهم، فقال: لكم ثمرة تدعونها كذا وتمر تدعونها كذا، فقال له رجل من القوم: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو كنت ولدت في جوف هجر ما كنت بأعلم منك الساعة، أشهد أنك رسول الله، فقال لهم رسول الله: «إن أرضكم رفعت إليّ منذ قعدتم، أي فنظرت من أدناها إلى أقصاها وقال لهم: خير تمركم البرني، يذهب بالداء ولا داء معه» أي

وإنما اقتصر في المناهي على شرب الأنبذة في الأوعية المذكورة مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم لكثرة تعاطيهم لها.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ومعنى النهي عن الانتباز في هذه الأوعية بخصوصها أنه يسرع فيها الإسكار، فربما يشرب منها من لا يشعر بذلك.

وكان في عبد القيس أبو الوازع بن عامر وابن أخته مطر بن هلال، ولما ذكروا للنبي أنه ابن أختهم قال: «ابن أخت القوم منهم» وكان فيهم ابن أخي الوازع وكان شيخاً كبيراً مجنوناً جاء به الوازع معه ليدعو له، فمسح ظهره ودعا له، فبرأ لحينه وكسي شباباً وجمالاً حتى كان وجهه وجه العذراء.
وجاء: «أنه زودهم الأراك يستاكون به وذكر أنه كان فيهم غلام ظاهر الوضوء فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم خلف ظهره، وقال: إنما كان خطيئة داود عليه الصلاة والسلام النظر».

ومنها وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب، قيل جاء بنو حنيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم مسيلمة الكذاب، يسترونه بالثياب، وكان رسول الله جالساً في أصحابه رضي الله تعالى عنهم معه عسيب من عسب النخل في رأسه خويصات، فلما انتهى مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يسترونه بالثياب، كلمه وسأله أن يشركه معه في النبوة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه.
وقيل إن بني حنيفة جعلوه في رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا في رحالنا يحفظها لنا فأمر له بمثل ما أمر به لواحد من القوم، وهو خمس أواق من فضة، وقال: أما إنه ليس بشركم مكاناً، فلما رجعوا إليه أخبروه بما قال عنه، فقال: إنما قال ذلك لأنه عرف أن لي الأمر من بعده، فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامة ارتد عدو الله وتبأ وكذب، وادعى أنه أشرك معه في النبوة وقال لمن وفد معه: ألم يقل لكم حين ذكرتُموني له: أما إنه ليس بشركم مكاناً ما ذاك إلا لما كان يعلم أنني أشركت معه في الأمر. أي وهو إنما أراد بذلك أنه حفظ ضيعة أصحابه، هذا.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفي الصحيحين: «أنه أقبل ومعه ثابت بن قيس بن شماس رضي الله تعالى عنه وفي يد النبي صلى الله عليه وسلم قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، أي فإنه بلغه عنه أنه قال: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته «وإني لأراك الذي منه رأيت» وهذا قيس يجيبك عني ثم إنصرف».
والذي راه منه أنه رأى في المنام أن في يده سوارين من ذهب قال: فأهمني شأنهما فأوحى الله إلي في المنام: أن انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي: أي وهما طليحة العبسي صاحب صنعاء، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، فإن كلا منهما ادعى النبوة في حياته. وكان طليحة العبسي يقول: إن ملكاً كان يقال له ذو النون يأتيني كما يأتي جبريل محمداً، فلما بلغه ذلك، قال: لقد ذكر ملكاً عظيماً في السماء يقال له ذو النون. وجمع

بعضهم بين هذا الذي في الصحيحين وما هنا بأنه يجوز أن يكون مسيلمة قدم مرتين: الأولى كان تابعاً ومن ثم كان في حفظ الرجال، والثانية كان متبوعاً ولم يحضر أنفة منه واستكباراً، وعامله معاملة الإكرام على عادته في الاستئلاف فأتى إلى قومه وهو فيهم كذا قيل.

ولا يخفى أن قوله ولم يحضر يقتضي أنه لم يجرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المرتين، وتقدم أنه جاء إليه وهم يسترونه بالثياب، وهذا: أي ستره بالثياب وهو المناسب لكونه متبوعاً ثم صار مسيلمة لعنه الله يتكلم بالهديان يضاهاه به القرآن. فمن ذلك قوله قبحه الله: لقد أنعم الله على الجبلي، أخرج منها نسمة تسعى من بين شغاف وحيشاً، وقال: والطاحنات طحناً. والعاجنات عجنناً. والخابزات خبزاً. والثاردات ثرداً. واللاقمات لقمياً. ووضع عنهم الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا. وقيل إنه لعنه الله طلب منه أن يتفل في بئر تبركاً ففعل فملح ماؤها. ومسح رأس صبي فصار أقرع قرعاً فاحشاً. ودعا لرجل في بنين له بالبركة فيهما، فرجع الرجل إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط في بئر والآخر أكلة الذئب. ومسح على عيني رجل للاستشفاء بمسحة فابيضت عيناه، فعل ذلك مضاهاة للنبي. وهذا السياق يرشد إلى أنه كان برأس ذلك الصبي قرع يسير فمسح عليه للاستشفاء، ثم أظهر معجزة بزعمه. وهو أنه أدخل بيضة في قارورة وافتضح بأن البيضة بنت يومها إذا ألقيت في الخل والنوشادر يوماً وليلة فإنها تمتد كالخيوط. فتجعل في القارورة ويصب عليها ماء فتجمد، وبهذا يرد على من رثاه من بني حنيفة بقوله:

لهفي عليك أبا ثمامة

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

كم آية لك فيهمو

كالشمس تطلع من غمامة

فيقال له: كذبت، بل كانت آياته معكوسة.

قال: وكتب مسيلمة قبحه الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً فقال: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد - فإني قد أشركت في الأمر معك وإن لنا نصف الأمر، وليس قريش قوماً يعدلون، وبعث رجلين. فكتب إليه رسول الله: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى. أما بعد - فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» ثم قال للرجلين: وإنما تقولان مثل ما يقول؟ قالوا نعم، قال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما انتهى.

ومنها وفد طييء، وفيهم زيد الخيل رضي الله تعالى عنه. وفد عليه، وفيهم قبيصة بن الأسود، وسيدهم زيد الخيل. قيل له ذلك، لخمسة أفراس كانت له: أي ولو كان وجه التسمية يلزم اطراده لقليل للزبرقان بن بدر زبرقان الخيل. فقد قيل: إنه وفد على عبد الملك بن مروان وقاد إليه خمسة وعشرين فرساً، ونسب كل واحدة من تلك الأفراس إلى آبائها وأمهااتها، وحلف على كل فرس

يميناً غير اليمين التي حلف بها على غيرها، فقال عبد الملك: عجبني من اختلاف أيمانه أشد من عجبني من معرفته بأنساب الخيل.

وكان زيد الخيل شاعراً خطيباً بليغاً جواداً، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم. وقال في حق زيد الخيل: «ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيتُه دون ما قيل فيه إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ أي ما قيل فيه كل ما فيه» وسماه زيد الخير، أي فإنه قال له وهو لا يعرفه: «الحمد لله الذي أتى بك من سهلك وحزنك، وسهل قلبك للإيمان، ثم قبض على يده، فقال: من أنت؟ قال: أنا زيد الخيل بن مهلهل، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، فقال له: بل أنت زيد الخير، ثم قال: يا زيد ما أخبرت عن رجل قط شيئاً إلا رأيتُه دون ما أخبرت عنه غيرك أي وأجاز كل واحد منهم خمس أواق، وأعطى زيد الخيل اثنتي عشرة أوقية ونشأ: أي وأقطعه محلين من أرضه، وكتب له بذلك كتاباً، ولما خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجهاً إلى قومه قال رسول الله: «إن ينجو زيد من الحمى» أي ما ينجو منها، ففي أثناء الطريق أصابته الحمى، أي وفي لفظ أنه قال له: يا زيد تقتلك أم ملدم يعني الحمى.

وفي رواية أن زيد الخيل لما قام من عنده وتوجه إلى بلاده، قال: «أي فتى إن لم تدركه أم كلبة» يعني الحمى، والكلبة الرعدة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفي رواية: «ما قدم عليّ رجل من العرب يفضله قومه إلا رأيتُه دون ما يقال فيه إلا ما كان من زيد، فإن ينج زيد من حمى المدينة فلأمر ما هو». قال: ولما مات أقام قبيضة بن الأسود الناحية عليه سنة، ثم وجه براحلته ورحله. وفيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أقطعه فيه محلين بأرضه، فلما رأت امرأته الراحلة ضرمتها بالنار، فاحترقت واحترق الكتاب انتهى.

وفي كلام السهيلي: وكتب له كتاباً على ما أراد وأطعمه قري كثيرة منها فذك، هذا كلامه. وقيل بقي إلى خلافة عمر رضي الله تعالى عنهما.

ومنها وفود عدي بن حاتم الطائي. حدث عدي رضي الله تعالى عنه قال: كنت أمراً شريفاً في قومي، أخذ المرباع من الغنائم كما هو عادة سادات العرب في الجاهلية: أي وهو ربع الغنيمة كما تقدم، فلما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم كرهته، ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به مني، فقلت لغلام كان راعياً لإبلي: لا أبا لك اعزل من إبلي أجماً ذلاً سماناً، فاحتسبها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فأذني ففعل، ثم إنه أتاني ذات يوم، فقال يا عدي ما كنت صانعاً إذا غشيك محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت آيات فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد. فقلت له قرب لي أجمالي، فقربها فاحتملت أهلي وولدي، والتحقت بأهل ديني من النصارى بالشام، وخلفت بنتاً لحاتم في الحاضر، فأصيبت فيمن أصيب: أي سبيت فيمن أصيب من الحاضر، فلما

قدمت في السبايا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم هربي إلى الشام من عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكساها، وحملها، وأعطاه نفقة، وخرجت إلى أن قدمت عليّ الشام، فوالله إني لقاعد في أهلي، إذ نظرت إلى طعينة تؤمنا، فقلت: ابنة حاتم، فإذا هي هي. فلما وقعت عليّ قالت: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك، وقطعت بقية والديك وعورتك، فقلت: أي أختة، لا تقولي إلا خيراً فوالله ما لي من عذر، ولقد صنعت ما ذكرت، ثم نزلت وأقامت عندي. فقلت لها وكانت امرأة حازمة: ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فأنت أنت. فقلت والله إن هذا للرأي، أي ولعلها لم تظهر له إسلامها لئلا ينفر طبعه من قولها له إن يكن نبياً أي على الفرض والتنزل تحريضاً له على اللحوق به، فخرجت حتى جئته بالمدينة فدخلت عليه. فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

وانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لقائدي إليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها. فقلت ما هو بملك، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من آدم محشوة ليفاً فقدمها إليّ وقال: اجلس على هذه. فقلت بل أنت فاجلس عليها، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض. فقلت والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال لي ما معناه: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم قالها ثلاثاً. فقلت: إني على دين، قال: أنا أعلم بدينك منك، فقلت أنت أعلم بديني؟ قال نعم ألسيت من الركوسية: ألسيت من القوم الذين لهم دين؟ لأنه تقدم أنه كان نصرانياً. فقلت بلى، فقال: ألم تكن تسير في قومك بالمرباع، أي تأخذ ربع الغنيمة كما هو شأن الأشراف من أخذهم في الجاهلية ربع الغنيمة؟ قلت بلى. قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك. فقلت: أجل والله وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل، ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن تفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، أتعرف الحيرة؟ قلت لم أرها وقد سمعت بها، قال: فوالله، وفي لفظ: فوالذي نفسي بيده ليتمن هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة تطوف بالبيت من غير جوار أحد.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفي رواية: ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية: أي وهي قرية بينها وبين الكوفة نحو مرحلتين - على بعيرها حتى تزور البيت، أي الكعبة لا تخاف - ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم. قال عدي: وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج بالبيت

وايم الله لتكونن الثانية ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.
ومنها وفود فروة بن مسيك المرادي، وقد على رسول الله صلى الله عليه
وسلم فروة مفارقاً لملوك كندة، وكان بين قومه مراد وبين همدان قبيل
الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا في يوم يقال الردم، وقال
له رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم.
فقال: يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الردم ولا
يسؤوه. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن ذلك لم يزد قومك
في الإسلام إلا خيراً، واستعمله على مراد وزبيد، وبعث معه خالد بن سعيد
العاص على الصدقة فكان معه في بلاده حتى توفي رسول الله ، وقال فروة
عند توجهه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:
لما رأيت ملوك كندة أعرضت
كالرجل خان الرجل عرق نسائها
فركبت راحلتي أوّم محمداً
أرجو فواصلها وحسن ثوابها

ومنها وفد بني زبيد بضم الزاي وفتح الموحدة. وفد بنو زبيد على رسول الله ،
وفيهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وكان فارس العرب مشهوراً بالشجاعة،
شاعراً مجيداً، قال لابن أخيه قيس المرادي: إنك سيد قومك وقد ذكر لنا أن
رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه نبيّ فانطلق بنا إليه
حتى نعلم علمه، فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يخفى عليك، وإذا لقيناه
اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه قيس ذلك وسفه رأيه. فركب
عمرو رضي الله تعالى عنه حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم
مع قومه فأسلم، فلما بلغ ذلك قيساً قال: خالفني وترك أمري ورأيي، وتوعد
عمراً، فقال عمرو في قيس أبياتاً منها:
فمن ذا عاذري من ذي سفاه
يريد بنفسه شدّ المزاد
أريد حياته ويريد قتلي
عذيرك من خليلك من مرادي
أي وبعد موته ارتد عمرو هذا مع الأسود العبسي، ثم أسلم وحسن إسلامه،
وشهد فتوحات كثيرة في أيام الصديق وأيام عمر رضي الله تعالى عنهما.
وعن ابن إسحاق: قيل إن عمرو بن معد يكرب لم يأت النبي ، وأسلم قيس بعد
ذلك، قيل له صحبة، وقيل لا.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ومنها وفد كندة، أي وله جدّة منهم، وهي أم جدّه كلاب. وفد عليه ثمانون، أي
وقيل ستون من كندة فيهم الأشعث بن قيس، وكان وجيهاً مطاعاً في قومه،
وفي الإمتاع وهو أصغرهم. فلما أرادوا الدخول عليه رجلوا: أي سرحوا
جمهم. أي شعور رؤوسهم، أي الساقطة على مناكبهم، وتكحلوا، ولبسوا
عليهم جبب الحبرة أي بوزن عنبه: برود اليمن المخططة، قد كفوها: أي

سجفوها بالحريز. فلما دخلوا على رسول الله ، أي وعند ذلك قالوا: أبيت اللعن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لست ملكاً أنا محمد بن عبد الله. قالوا: لا نسميك باسمك، قال: أنا أبو القاسم. فقالوا: يا أبا القاسم إنا خبان لك خبناً فما هو؟ وكانوا خبؤوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عين جرادة في ظرف سمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان الله، إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والكهانة والتمكهن في النار، فقالوا: كيف نعلم أنك رسول الله؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم كفاً من حصاء فقال: هذا يشهد أنني رسول الله، فسيح الحصى في يده، فقالوا: نشهد أنك رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني بالحق وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقالوا: أسمعنا منه، فتلا رسول الله: {والصافات صفا} حتى بلغ {رب المشارق} ثم سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسكن بحيث لا يتحرك منه شيء ودموعه تجري على لحيته، فقالوا: إنا نراك تبكي، أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟ فقال: إن خشيتي منه أبكتني، بعثني على صراط مستقيم في مثل حد السيف، إن زغت عنه هلكت، ثم تلا: {ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك} الآية، ثم قال لهم: ألم تسلموا؟ قالوا بلى، قال: فما بال هذا الحريز في أعناقكم. فعند ذلك شقوه منها وألقوه.

وفيه أن هذا يخالف ما قاله فقهاؤنا معاشر الشافعية من جواز التسجيف بالحريز، إلا أن يقال الجواز مخصوص، بأن لا يجاوز الحد اللائق بالشخص، ولعل سجفهم جاوزت الحد اللائق بهم وقد قال الأشعث له: نحن بنو أكل المرار وأنت ابن أكل المرار، يعني جدته أم كلاب، فقد تقدم أنها من كندة، وقيل إنما قال ذلك الأشعث، لأن عمه العباس بن عبد المطلب كان إذا دخل حياً من أحياء العرب، لأنه كما تقدم كان تاجراً، فإذا سئل من أين؟ قال: أنا ابن أكل المرار ليعظم، يعني انتسب إلى كندة، لأن كندة كانوا ملوكاً فاعتقدت كندة أن قريشاً منهم لقول العباس المذكور، فقال له: لا، نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أمنا ولا نتفي من آبائنا: أي لا نتسب إلى الأمهات ونترك النسب إلى الآباء.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

والأشعث هذا ممن ارتد بعد موت النبي، ثم دعا إلى الإسلام في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أي فإنه حوصر، ثم جيء به أسيراً، فقال للصديق حين أراد قتله: استبقني لحروبك وزوجني أختك، فزوجه أخته أم فروة فدخل سوق الإبل بالمدينة واخترب سيفه، فجعل لا يرى جملاً إلا عرقبه، فصاح الناس: كفر الأشعث، فلما فرغ طرح سيفه وقال: والله ما كفرت إلا أن الرجل يعني أبا بكر رضي الله تعالى عنه زوجني أخته، ولو كنا ببلادنا لكأنت لنا وليمة غير هذه وقال: يا أهل المدينة انحروا وكلوا، وأعطى أصحاب الإبل أثمانها، قال: وقال للأشعث: «هل لك من ولد؟ فقال: لي غلام ولد لي عند مخرجي إليك لوددت أن لي به لسبعة، فقال: إنهم لمجينة مبخلة محزنة، وإنهم لقرة العين، وثمره الفؤاد» انتهى.

ومنها وفد أزد شنوءة. وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدي أي وكان أفضلهم، فأمره على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، فخرج حتى نزل بجَرْش بضم الجيم وفتح الراء وباللثين المعجمة وهي مدينة بها قبائل من قبائل اليمن وحاصرها المسلمون قريباً من شهر ثم رجعوا عنها، حتى إذا كانوا بجبل يقال له شَكَر باللثين المعجمة والكاف المفتوحين، وقيل بإسكان الكاف، فلما وصلوا ذلك المحل ظن أهل جرش أن المسلمين رضي الله تعالى عنهم إنما رجعوا عنهم منهزمين، فخرجوا في طلبهم حتى إذا أدركوهم عطفوا عليهم فقتلوهم قتلاً شديداً.

وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة يرتدان: أي ينظران الأخبار، فينما هما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بأي بلاد الله شكر؟ فقام إليه رجلان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال له كشر، فقال إنه ليس بكشر ولكنه شكر، قال: فما شأنه يا رسول الله؟ قال إن بدن الله لتنحر عنده الآن، وأخبرهما الخبر، فخرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى قومهما فوجد قومهما قد أصيبوا في اليوم والساعة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال، وعند إخبارهما لقومهما بذلك وفد جرش على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مرحباً بكم أحسن الناس وجوهاً، وأصدق لقاءً، وأطيبه كلاماً، وأعظمه أمانة، أنتم مني وأنا منكم، وحمى لهم حمى حول بلدهم. ومنها وفد رسول ملوك حمير، وحامل كتابهم إليه، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول ملوك حمير وحامل كتابهم إليه بإسلام الحارث بن عبد كلال بضم الكاف.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وقد اختلف في كون الحارث له وفادة فهو صحابي أولاً، والنعمان ومعاقر بالفاء مكسورة وهمدان، أي بإسكان الميم وفتح الدال المهملة وهي قبيلة. وأما همدان بفتح الميم والذال المعجمة فقبيلة بالعجم، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال وإلي النعمان ومعاقر وهمدان، أما بعد: فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم: أي رجوعنا من غزوة تبوك، فلقيناه بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وإن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وأتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبي صلى الله عليه وسلم ووصفي، وما كتب على المؤمنين من الصدقة. أما بعد: فإن محمداً النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن. وفي الاستيعاب: زرعة بن سيف ذي يزن. وفي كلام الذهبي: زرعة بن سيف ذي يزن أن: إذا أتاكم رسلي فأوصيكم بهم خيراً: معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرارة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم بالخاء المعجمة جمع مخلاف، وأبلغوها رسلي، وأن أميرهم معاذ بن جبل، فلا ينقلبن إلا راضياً. أما بعد فإن

محمدًا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله. ثم إن مالك بن كعب بن مرارة قد حدثني أنك قد أسلمت من أول حمير وقتلت المشركين: فأبشر بخير، وأمرك بحمير خيراً، ولا تخونوا، ولا تخاذلوا بضم التاء المثناة الفوقية وكسر الذال. ويجوز أن يكون بفتح المثناة وفتح الدال محذوف إحدى التاءين، فإن رسول الله هو مولى غنيكم وفقيركم، وإن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هي زكاة يزكي بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وإن مالكا قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وأمركم به خيراً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ومنها وفد رسول بن عمرو الجذامي: وفد رسول الله فروة إلى رسول يخبره بإسلامه: وأهدى له بغلة بيضاء: أي يقال لها فضة وحماراً يقال له يعفور وفرساً يقال له الظرب وثياباً وقباء مرصعاً بالذهب. وكان فروة رضي الله تعالى عنه عاملاً للروم على ما يليهم من العرب، فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه وحبسوه، ثم ضربوا عنقه وصلبوه أي بعد أن قال له الملك ارجع عن دين محمد ونحن نعيدك إلى ملكك قال: لا أفارق دين محمد، فإنك تعلم أن عيسى عليه الصلاة والسلام بشر به، ولكنك تضنّ بملكك. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ومنها وفد بني الحارث بن كعب بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، وقال له: إن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد رضي الله تعالى عنه حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلموا، فقام فيهم خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنهم يعلمهم الإسلام، أي شرائعه، وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل ويقبل معه وفدهم. فأقبل رضي الله تعالى عنه ومعه وفدهم، وفيهم قيس بن الحصين ذو الغصة بالغين المعجمة. أي لأنه كان في حلقه غصة لا يكاد يبين الكلام منها. وهي صفة لأبيه الحصين. وربما وصف بها قيس. قال في النور: ويحتمل أن يقال له ذو الغصة وابن ذي الغصة لأنه وأباه كانت بهما الغصة وفيه بعد. وحين اجتمعوا به قال لهم: يمّ كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم. قال صدقتم. وأمر عليهم زيد بن الحصين، ولم يمكثوا بعد رجوعهم إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله .

ومنها أنه وفد عليه رفاعة بن زيد الخزاعي. وفد رفاعة بن زيد الخزاعي بالخاء المعجمة والزاي على رسول الله ، وأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً فأسلم وحسن إسلامه، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى قومه «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لرفاعة بن زيد إنني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل منهم ففي حزب الله وحزب رسوله، ومن أدير

فله أمان شهرين» فلما قدم رفاة رضي الله تعالى عنه على قومه أجابوا وأسلموا.
ومنها وفد همدان. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع من همدان فيهم مالك بن نمط وكان شاعراً مجيداً، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك، عليهم مقطعات من الحبرات بكسر الحاء المهملة: ثياب قصار. وقيل مخططة من برود اليمن. والعمائم العدنية نسبة إلى عدن مدينة باليمن، سميت بذلك لأن تبعاً كان يحبس فيها أرباب الجرائم. وفدوا إليه على الرواحل المهريّة والأرجبية. والمهريّة: نسبة إلى قبيلة يقال لها مهرة باليمن والأرجبية: نسبة إلى أرحب وصار مالك بن نمط يرتجز: أي يقول الرجز بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:
إليك جاوزنا سواد الريف
في هبوات الصيف والخريف
مخطمات بجبال الليف ومن شعره:
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235
حلفت برب الراقصات إلى منى
صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق
رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
فما حملت من ناقة فوق رحلها
أشد على أعدائه من محمد وقد أمره على من أسلم من قومه، وأمره بقتال ثقيف، فكان لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه كذا في الأصل.

وفي الهدى: روى البيهقي بإسناد صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى من ذكر يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه. ثم إنه بعث علياً كرم الله وجهه وأمر خالد بالرجوع إليه وأن من كان مع خالد إن شاء بقي مع عليّ وإن شاء رجع مع خالد، فلما دنا من القوم خرجوا إليه، فصف علي كرم الله وجهه أصحابه صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيديهم وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا جميعاً، وكتب بذلك لرسول الله، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه، ثم قال: السلام على همدان، السلام على همدان وهذا أصح، لأن همدان لم تكن تقاتل ثقيفاً، فإن همدان باليمن وثقيفاً بالطائف.
أي وجاء أنه قال: نعم الحي همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد. وفيهم أبدال وفيهم أوتاد.

ومنها وفد تُجيب أي بضم المثناة فوق وتحتية ويجوز الفتح، وهي قبيلة من كندة. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد تجيب وقد كانوا ثلاثة عشر رجلاً، وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأكرم مثواهم. وقالوا: يا رسول الله إننا

سقنا إليك حق الله في أموالنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ردوها فاقسموها على فقرائكم، قالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، أي وفضل بفتح الضاد وكسرهما، قال أبو بكر: يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد به خيراً شرح صدره للإيمان، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن، فإزداد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم رغبة، وأرادوا الرجوع إلى أهلهم فقيل له ما يعجلكم؟ قالوا: نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلاقينا إياه وما ورد علينا، ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود، ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً، قال: فأرسلوه إلينا، فأرسلوه فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله، وقال: يا رسول الله أنا من الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم، فاقض حاجتي؟ قال: وما حاجتك قال: تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، ويجعل غناي في قلبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ثم إنهم بعد ذلك وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنى في الموسم إلا ذلك الغلام، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟ قالوا: يا رسول الله، ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لولا أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعاً، فقال رجل منهم، أو ليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تَشَعَبَ أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل الأجل يدركه في بعض تلك الأودية فلا يزال الله عز وجل في أيها هلك.
ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام ذلك الغلام في قومه فذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد، وجعل أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يذكر ذلك الغلام ويسأل عنه، ولما بلغه ما قام به كتب إلى زياد بن الوليد أي وكان والياً على حضرموت يوصيه به خيراً.

ومنها وفد بني ثعلبة. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من الجعرانة أربعة نفر من بني ثعلبة: أي مقرين بالإسلام، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماء. قال بعضهم: فرمى ببصره إلينا فأسرعنا إليه وبلال يقيم الصلاة، فسلمنا عليه وقلنا يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا، ونحن مقرون بالإسلام وقد قيل لنا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم، أي ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا الظهر ثم انصرف إلى بيته فلم يلبث أن خرج إلينا فدعا بنا، فقال: كيف بلادكم؟ فقلنا مخصبون، فقال: الحمد لله، فأقمنا أياماً وضيافته

تجري علينا، ثم لما جاؤوا يودعونهم قال لبلال أجزهم، فأعط كل واحد منهم خمس أواق فضة أي والأوقية أربعون درهماً.

ومنها وفد بني سعد هذيم من قضاة. عن النعمان رضي الله تعالى عنه قال: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإفداً في نفر من قومي وقد أوطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد: أي جعلها موطأة قهراً وغلبة، وأزاح العرب: أي استولى عليها والناس صنفان إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف السيف، فنزلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى باب، فنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي على جنازة في المسجد، أي وهو سهيل بن البيضاء، لأنه لم يصل في مسجده على جنازة إلا عليه رضي الله تعالى عنه. وما وقع له في مسلم أنه صلى فيه على سهيل وأخيه نظر فيه مع أن فقهاءنا ذكروه وأقروه، فقمنا خلفه ناحية ولم ندخل مع الناس في صلاتهم. وقلنا حتى يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونبايعة. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ثم انصرف رسول الله ، فنظر إلينا، فدعا بنا فقال: ممن أنتم؟ فقلنا: من بني سعد هذيم، فقال: أمسلمون أنتم؟ قلنا: نعم، فقال: هلا صليتم على أخيكم؟ قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيما أسلمتم فأنتم مسلمون قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدينا على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبنا، فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام. فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا، وأنه خادمنا فقال «سيد القوم خادمهم، بارك الله عليه» قال النعمان رضي الله تعالى عنه: فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له، ثم أمره علينا فكان يؤمنا فلما أردنا الانصراف أمر بلالاً فأجازنا بأواق من فضة، لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا.

ومنها وفد بني فزارة. وفد عليه بضعة عشر رجلاً من بني فزارة فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن وابن أخيه الجد بن قيس بن حصن وهو أصغرهم مقرين بالإسلام وهم مستنون: أي توالى عليهم الجذب على ركائب عجاف: أي هزال، فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بلادهم؟ فقال رجل منهم: أي وهو خارجة: أسنتت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجذب جنابنا: أي ما حولنا وغرثت () أي جاعت عيالنا فادع لنا ربك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، وليشفع لنا ربك إليك فقال رسول الله : «سبحان الله ويلك يا هذا أنا أشفع إلى ربي عز وجل، فمن ذا الذي يشفع ربنا إليه! لا إله إلا هو العلي العظيم، وسع كرسيه: أي علمه، كذا قيل. وقيل موضع قدميه السموات والأرض: أي أحاط بالسموات والأرض، وهو دون العرش كما جاءت الآثار، فهي تتط: أي تصوت من عظمتة وجلاله كما يتط الرجل بالحاء المهملة» الحديث: أي من ثقل الحمل. وقال رسول الله «إن الله ليضحك من شغفكم وأزلكم: أي شدة ضيقكم وجدبكم، وقرب غيائكم، فقال الأعرابي: لن نعدم من رب يضحك خيراً، فضحك

رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله، وصعد المنبر فتكلم بكلمات، وكان لا يرفع يديه: أي الرفع البالغ في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء، فرفع يديه حتى رُئيَ بياض إبطيه. أي وفي النور: وقد جوزت وجهاً وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان يرفع يديه في الاستسقاء يعني ظهور كفيه إلى السماء كما في مسلم، أي فيكون التقدير: لا يرفع ظهور كفيه إلى السماء إلا في الاستسقاء. وأقول: فيه أن هذا يقتضي أنه يفعل ذلك، وإن كان استسقاؤه لطلب حصول شيء كما في دعائه في هذا الاستسقاء فإنه متضمن للحصول.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وقد ذكر في النور أن ما كان الدعاء فيه لطلب شيء كان يبطلون الكفين إلى السماء.

والظاهر أن مستند ذلك استقراء حاله في الدعاء في الاستسقاء وغيره فليتأمل، والله أعلم.

ومما حفظ من دعائه: «اللهم أسق» بقطع الهمزة ووصلها «بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحي بلدك الميت، اللهم اسقنا غيثاً» أي مطراً «مغيثاً مُزْبِئاً» بضم الميم وإسكان الراء، وبالموحدة مكسورة وبالعين المهملة: مسرعاً لإخراج الربيع/ «مرتعباً» بالتاء المثناة فوق من رتعت الدابة: إذا أكلت ما شاءت «طبقاً» أي مستوعباً للأرض منطبقاً عليها، واسعاً «عاجلاً غير أجل، نافعاً غير ضار. اللهم اسقنا رحمة، ولا نسقنا عذاباً، ولا هدماً، ولا غرقاً، ولا محقاً. اللهم أسقنا الغيث، وأنصرنا على الأعداء. فقام أبو لبابة رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله التمر في المرابيد، أي وتكرر ذلك منه ومن أبي لبابة ثلاث مرات، فقال رسول الله: «اللهم أسقنا الغيث حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مريده، أي المحل الذي يخرج منه ماء المطر بإزاره فطلعت من وراء سلع سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فوالله ما رأينا الشمس سبتاً» أي من السبت إلى السبت الآخر، وقام أبو لبابة رضي الله تعالى عنه عرياناً يسد ثعلب مريده بإزاره لئلا يخرج التمر منه.

وفي بعض الروايات: «فأمطرت السماء وصلى بنا رسول الله، ثم طاف الأنصار بابي لبابة رضي الله تعالى عنهم يقولون له: يا أبا لبابة إن السماء والله لن تقلع حتى تقوم عرياناً تسد ثعلب مريده بإزارك كما قال رسول الله، فقام أبو لبابة رضي الله تعالى عنه عرياناً يسد ثعلب مريده بإزاره فأقلعت السماء» وحينئذ يكون قول الراوي لئلا يخرج منه التمر بحسب ما فهم، ويكون قول الصحابة: فوالله ما رأينا الشمس سبتاً كان في قصة غيرها فخلط بعض الرواة: فجاء ذلك الرجل أو غيره. والذي في الصحيح أنه الرجل الأول.

وذكر بعض الحفاظ: «أنه خارجه بن حصن، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر، فدعا ورفع يديه حتى رُئيَ بياض إبطيه» وهو أي بياض الإبط معدود من خصائصه «ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الإكام» بكسر الهمزة، جمع أكمة: وهي التل المرتفع «والظراب» بكسر الظاء المشالة جمع ظرب

بفتحها: الروابي الصغار «وبطون الأودية، ومنابت الشجر فانجابت السحابة»
أي أقلعت عن المدينة انجياب الثوب.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235
أقول: لعل هذا المطر كان عاماً للمدينة وما حولها حتى وصل إلى محل هؤلاء
الوفد، وإلا فهم إنما طلبوا حصول المطر لمحلهم، ولا يلزم من وجوده بالمدينة
وجوده بمحلهم إلا إذا كان قريباً بالمدينة بحيث إذا وجد المطر بها يوجد بمحلهم
غالباً، وقد أشار صاحب الهمزية رحمه الله تعالى إلى هذه القصة بقوله:
ودعا للأنام إذ دهمتهم
سنة من مخولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيا
م عليهم سحابة وطفاء
تتحرى مواضع الرعي والسف
بي وحيث العطاش توهي السقاء
وأتى الناس يشنكون أذاها
ورخاء يؤذي الأنام غلاء
فدعا فانجلى الغمام فقل في
وصف غيث إقلاعه استسقاء
ثم أثرى الثرى وقرت عيون
بقراها وأحييت إحياء
فترى الأرض عنده كسماء
أشرقت من نجومها الظلماء
يخجل الدر واليواقيت من نو
ر رباها البيضاء والحمراء

ثم رأيت في الحدائق لابن الجوزي رحمه الله عن أنس رضي الله تعالى عنه
قال: «أصابت الناس سنة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيينا
رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة، فقام أعرابي
فقال: يا رسول الله هلك المال، وجاع العيال، فادع الله أن يسقينا فرفع رسول
الله صلى الله عليه وسلم يديه وما في السماء قزعة سحاب، فدار السحاب
أمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته
الشريفة، قال: فمطرنا يومنا ذلك. ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى
الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء،
وعرق المال، ادع الله لنا، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فقال:
اللهم حوالينا ولا علينا قال: فما جعل يشير بيديه إلى ناحية السماء إلا انفرجت
حتى صارت المدينة في مثل الجونة حتى سال الوادي شهراً فلم يجيء أحد من
ناحية إلا حدث بالجود.

ثم رأيت بعضهم قال: أحاديث الاستسقاء ثابتة في الصحيحين. وظهرها أنه
تعدد، ففي بعضها أنه وقع وهو في خطبة الجمعة، وفي بعضها أنه صعد المنبر
حين سُكي إليه فخطب ودعا.
وفي بعضها، أنه خرج إلى المصلى بعد أن وعد الناس يوماً يخرج فيه ونصب له
منبراً واستسقى وأجيب دعوته ونزل المطر وجاء إليه أعرابي. وقال له: يا

رسول الله أتيناك وما لنا بغير يئط، ولا صغير يغط، ثم أنشد شعراً يقول فيه:
 رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235
 وليس لنا إلا إليك فرارنا
 وأين فرار الناس إلا إلى الرسل
 فقام يجر رداءه حتى صعد المنبر فدعا فسقي، ثم قال : لو كان أبو طالب حياً
 لقرت عيناه، من ينشدنا قوله؟ فقام علي كرم الله وجهه فقال: يا رسول الله
 كأنك تريد قوله:
 وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
 ثمال اليتامى عصمة للأرامل
 الأبيات
 فقال : «أجل».

وفي رواية: «لما جاءه المسلمون: وقالوا: يا رسول الله، قحط المطر، وبس الشجر، وهلك المواشي وأسنت الناس، فاستسقى لنا ربك، فخرج والناس معه يمشون بالسكينة والوقار حتى أتوا المصلى، فتقدم فصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة وكان يقرأ في العيدين والاستسقاء في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب: {سبح اسم ربك الأعلى}، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب {هل أتاك حديث الغاشية}، فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه وقلب رداءه لكي ينقلب القحط إلى الخصب، ثم جثي على ركبتيه ورفع يديه وكبر تكبيرة، ثم قال: اللهم اسقنا، وأغثنا غيثاً مغيثاً رحيماً واسعاً وجداً، طبياً مغدقاً عاماً، هنيئاً مريئاً مربعاً مرتعاً وإبلاً سائلاً مسيلاً، مجللاً دائماً، دائراً نافعاً، غير ضار، عاجلاً غير آاب غيثاً. اللهم تحيي به البلاد، وتغيث به العباد، وتجعله بلاغاً للحاضر منا والباد. اللهم أنزل في أرضنا زينتها، وأنزل علينا سكنها. اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهوراً، تحيي به بلدة ميتة واسعة، مما خلقت أنعاماً وأناسي كثيراً، فما برحوا حتى أقبل قزع من السحاب فالتأم بعضه إلى بعض. ثم أمطرت سبعة أيام لا تقلع عن المدينة، فأتاه المسلمون فقالوا: قد غرقت الأرض، وتهدمت البيوت، وانقطعت السبل، فادع لله يصرفها عنا، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر حتى بدت نواجذه، تعجباً لسرعة ملالة ابن آدم. ثم رفع يديه، ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا. اللهم على رؤوس الظراب، ومنبت الشجر، وبطون الأودية، وظهور الأكام، فتفشعت عن المدينة ثم قال : لله در أبي طالب لو كان حياً قرت عيناه، من الذي ينشدنا قوله؟ فقام علي كرم الله وجهه فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله فقال الأبيات.

ومنها وفد بني أسد. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رهط من بني أسد، منهم ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد وطليحة بن عبد الله الذي ادعى النبوة بعد ذلك، ثم أسلم وحسن إسلامه، ومنهم معاذة بن عبد الله بن خلف. وقد استهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ناقة تكون جيدة للركوب والحلب، من غير أن تكون لها ولد معها، فطلبها فلم يجدها إلا عند ابن عم له،

فجاء بها إلى رسول الله ، فحلبها فشرب منها ثم سقاها، ثم قال: اللهم بارك فيها وفيمن منحها، فقال: يا رسول الله وفيمن جاء بها، فقال: وفيمن جاء بها. ومنهم حزمي بن عامر ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد مع أصحابه، فسلموا عليه، وقال شخص منهم: يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، وجئتك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً، ونحن لمن وراءنا.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

أي وفي لفظ إن حزمي بن عامر قال: أتيناك نتدبر الليل البهيم في سنة شهباء: أي ذات قحط ولم تبعث إلينا. وفي رواية: يا رسول الله أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب، فأنزل الله تعالى على رسوله {يؤمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين}.

وسألوه عما كانوا يفعلونه في الجاهلية، من العيافة وهي زجر الطير، والتخرص على الغيب، والكهانة، وهي الإخبار عن الكائنات في المستقبل، وضرب الحصاء، فنهاهم عن ذلك، فقالوا: يا رسول الله خصلة بقيت، فقال: وما هي؟ قالوا الخط: أي خط الرمل ومعرفة ما يدل عليه، قال: علمه نبي، فمن صادف مثل علمه علم. أي وفي رواية لمسلم: فمن وافق خطه، أي علم موافق خطه فذاك: أي يباح له وإلا فلا يباح له إلا بتبيين الموافقة.

أي وفي شرح مسلم أن محصل مجموع كلام العلماء فيه الاتفاق على النهي عنه، أي لأنه لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة، وكأنه قال: لو علمتم موافقته، لكن لا علم لكم بها، وأقاموا أياماً يتعلمون الفرائض، ثم جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فودعوه وأمر لهم بجوائز ثم انصرفوا إلى أهلهم. ومنها وفد بني عذرة: قبيلة باليمن، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنا عشر رجلاً من بني عذرة، أي وسلموا بسلام الجاهلية فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: من القوم؟ فقال قائلهم: من بني عذرة: أي أخو قصي لأمه: نحن الذين عضدوا قصياً، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبني بكر، فلنا قرابات وأرحام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مرحباً بكم وأهلاً: أي لقيتم رحباً وأتيتم أهلاً، فاستأنسوا ولا تستوحشوا، ما أعرفني بكم، قال: ثم قال لهم: فما يمنعكم من تحية الإسلام؟ قالوا: يا محمد كنا على ما كان عليه أبائنا، فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا، وقالوا إلام تدعو؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تشهدوا أنني رسول الله إلى الناس كافة، فقال متكلمهم: فما وراء ذلك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلوات الخمس تحسن ظهورهن وتصليهن لمواقبتهن فإنه أفضل العمل، ثم ذكر لهم باقي الفرائض من الصيام والزكاة والحج انتهى فأسلموا، وبشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الشام عليهم، وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده، ونهاهم عن سؤال الكاهنة: أي فقد قالوا: يا رسول الله إن فينا امرأة كاهنة قريش والعرب يتحاكمون إليها، أفنسألها عن أمور؟ فقال: لا تسألوها عن شيء. ونهاهم عن الذبائح التي كانوا يذبحونها إلى أصنامهم، وقالوا نحن أعوانك وأنصارك، ثم انصرفوا وقد أجزوا، أي وكسا رسول الله

صلى الله عليه وسلم أحدهم برداً.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ومنها وفد بني بليّ على وزن علي مكبراً، وهو حي من قضاة. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من بلي، منهم - وهو شيخهم - أبو الضبيب تصغير الضب: الدابة المعروفة، نزلوا على رويغ بن ثابت البلوي، وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: هؤلاء قومي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: مرحباً بك ويقومك، فأسلموا، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فمن مات منكم على غير الإسلام فهو في النار.

قال: وفي رواية عن رويغ رضي الله تعالى عنه قال: قدم وفد قومي، فأنزلتهم عليّ، ثم خرجت بهم حتى انتهينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في أصحابه، فسلمنا عليه، فقال: رويغ؟ فقلت: لبيك، قال: من هؤلاء القوم؟ قلت: قومي يا رسول الله، قال: مرحباً بك ويقومك. قلت: يا رسول الله قدموا وافدين عليك مقرّين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم، فقال رسول الله: «من يرد الله به خيراً يهديه للإسلام» فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فجلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنا وفدنا إليك لنصدّقك، ونشهد أنك نبي حق، ونخلع ما كنا نعبد وكان يعبد أبائنا، فقال: الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فكل من مات على غير الإسلام فهو في النار انتهى. وقال له أبو الضبيب: يا رسول الله إن لي رغبة في الضيافة، فهل لي في ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غنيّ أو فقير فهو صدقة، فقال: يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال: ثلاثة أيام فما بعد ذلك صدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحوجك: أي يضيق عليك، أي وفي لفظ: فيؤثمك: أي يعرضك للإثم: أي تتكلم بسوء القول، قال: يا رسول الله أرأيت الضالة من الغنم أجدها في الفلاة من الأرض؟ قال: هي لك، أو لأخيك، أو للذئب. قال: فالبعير؟ قال: ما لك وله؟ دعه يجده صاحبه. قال رويغ: ثم قاموا فرجعوا إلى منزلي، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي منزلي يحمل تمرًا، فقال: استعن بهذا التمر، فكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثة أيام، ثم ودعوا رسول الله، وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم.

ومنها وفد بني مرة. وفد عليه ثلاثة عشر رجلاً من بني مرة، رأسهم الحارث بن عوف، فقال: يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك، نحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للحارث: أين تركت أهلك؟ فقال: بسلاح وما والاها، فقال: كيف البلاد؟ فقال: والله إنا لمستنون، وما في المال مح: أي صوت يردده فادع الله لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اسقهم الغيث فأقاموا أياماً، ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم،

فجاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مودعين له فأمر بلالاً أن يجيزهم، فأجازهم بعشرة أواق من فضة، وفضل الحارث بن عوف فأعطاه اثني عشر أوقية، أي وهذا يفيد أن كل واحد أعطي عشر أواق، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البلاد مطيرة، فسألوا قومهم متى مطرتم؟ فإذا هو ذلك اليوم الذي دعا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخصبت لهم بعد ذلك بلادهم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ومنها وفد خولان، وهي قبيلة من اليمن. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من خولان، فقالوا: يا رسول الله نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، مصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك أباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها. وحزون كفلوس: وهو ما غلط منها، والمنة لله ولرسوله علينا، وقدما زائرين لك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ، فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك، فإنه من زارني بالمدينة كان في جوارى يوم القيامة. فقالوا: يا رسول الله، هذا السفر الذي لا توى عليه: أي والتوى بفتح المثناة فوق وفتح الواو مقصوراً: هو هلاك المال، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل عم أنس؟ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه، قالوا: بشرّ بدلنا الله تعالى ما جئت به، وقد بقيت منا بعد بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى فقد كنا منه في غرور وفتنة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟ قالوا: لقد رأينا بضم المثناة فوق، أسنتنا حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة، وتركناها يردّها السباع ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا الغيث يوارى الرحال ويقول قائلنا أنعم علينا عم أنس، وذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يقسمون لهذا الصنم من أموالهم من أنعامهم وحرثهم، فقالوا: كنا نزرع الزرع، فنجعل له وسطه، فنسميه له ونسمي زرعاً آخر حجرة: أي ناحية لله، فإذا مالت الريح بالذي سميناها له: أي لله جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح بالذي سميناها لعم أنس لم نجعله لله، فذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أنزل عليّ في ذلك {وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً} الآية، قالوا:

وكنا نتحاكم إليه فيتكمم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك الشياطين تكلمكم، وسألوه عن فرائض الله فأخبرهم بها، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاؤوا، وأن لا يظلموا أحداً، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ثم ودعوه بعد أيام وأجازهم: أي أعطى كل واحد اثنتي عشرة أوقية ونشأ، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس.

ومنها وفد بني محارب. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من بني محارب وفيهم خزيمة بن سواد، وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول

الله صلى الله عليه وسلم أيام عرض نفسه على القبائل في المواسم يدعوهم إلى الله تعالى، فجلسوا عنده يوماً من الظهر إلى العصر، وأدام النظر إلى رجل منهم، وقال له: قد رأيتك، فقال له ذلك الرجل: إي والله لقد رأيتني، وكلمتك بأقبح الكلام، ورددتك بأقبح الرد بعكاظ وأنت تطوف على الناس. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم، ثم قال: يا رسول الله ما كان في أصحابي أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام مني، فأحمد الله الذي جاءني حتى صدقت بك، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معي على دينهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذه القلوب بيد الله عز وجل. فقال: يا رسول الله استغفر لي من مراجعتي إياك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الإسلام يجب ما قبله: يعني الكفر، أي مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه خزيمة بن سواد فصارت له غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيز الوفود، ثم انصرفوا إلى أهلهم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

ومنها وفد صداء: حي من عرب اليمن. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر رجلاً من صداء.

وسبب ذلك أنه هياً بعثاً أربعمئة من المسلمين استعمل عليهم قيس بن سعد بن عبادة رضي الله تعالى عنهم، ودفع له لواء أبيض، ودفع إليه راية سوداء، وأمره أن يطأ ناحية من اليمن كان فيها صداء، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم رجل منهم، وعلم بالجيش، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله جئتك وافداً على من ورائي، فاررد الجيش، وأنا لك بقومي، فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم قيس بن سعد رضي الله تعالى عنهما وخرج الصدائي إلى قومه، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولئك القوم، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله دعهم ينزلون عليّ، فنزلوا عليه فحباهم بالموحدة: أعطاهم وأكرمهم وكساهم، ثم ذهب بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم: فبايعوه على الإسلام، وقالوا له: نحن لك على من وراءنا من قومنا فرجعوا إلى قومهم ففشوا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم منهم مائة رجل في حجة الوداع، وسمي ذلك الرجل الذي كان سبباً في رد الجيش ومجيء الوفد بزياد بن الحارث الصدائي، أي وذكر زياد أنه قال له: يا أخا صداء إنك لمطاع في قومك، قال: فقلت بلى من من الله عز وجل ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال وفي رواية: بل الله هداهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلا أؤمرك عليهم؟ فقلت: بلى يا رسول الله، فكتب لي كتاباً بذلك، فقلت: يا رسول الله مر لي بشيء من صدقاتهم، قال: نعم. فكتب لي كتاباً آخر انتهى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

قال زياد رضي الله تعالى عنه: وكنت معه في بعض أسفاره، وكنت رجلاً قوياً، فلزمت غرزه: أي ركابه، وجعل أصحابه يتفرقون عنه، فلما كان السحر قال: أذن يا أخا صداء، فأذنت على راحلتي، ثم سرنا حتى نزلنا، فذهب لحاجته ثم

رجع، فقال: يا أخا صداء هل معك ماء؟ قلت معي شيء في إداوتي: أي وهي إناء من جلد صغير. وفي رواية: لا إلا شيء قليل لا يكفيك، قال: هاته، فجئت به، قال: صب، فصببت ما في الإداوة في العقب، أي وهو القدح الكبير، وجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه في الإناء فرأيت بين كل أصبعين من أصابعه عيناً تفور، ثم قال: يا أخا صداء لولا أنني أستحي من ربي عز وجل لسقينا وأسقينا: أي من غير أصل، ثم توضع وقال: أذن في أصحابي: من كانت له حاجة في الوضوء بفتح الواو فليرد، قال: فورد الناس من آخرهم، ثم جاء بلال يقيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أخا صداء أذن، ومن أذن فهو يقيم فأقمت، ثم تقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بنا، فلما سلم: يعني من صلته قام رجل يشكو من عامله، فقال: يا رسول الله إنه أخذنا بذحول كانت بيننا وبين قوم في الجاهلية: أي وفي رواية أخذنا بكل شيء كان بيننا وبين قوم في الجاهلية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا خير في الإمارة لرجل مسلم، ثم قام رجل آخر، فقال: يا رسول الله أعطني من الصدقة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل لم يكل قسمتها إلي ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى جزأها ثمانية أجزاء، فإن كنت جزءاً منها أعطيتك، وإن كنت غنياً عنها فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن، فقلت: يا رسول الله هذان كتابك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم؟ قلت: إني سمعتك تقول: لا خير في الإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم، وسمعتك تقول: من سأل الصدقة وهو عنها غني فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن وأنا غني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن الذي قلت كما قلت، ثم قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: دلني على رجل من قومك أستعمله، فدلته على رجل منهم فاستعمله. قلت: يا رسول الله إن لنا بئراً إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، وإن كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه، والإسلام فينا قليل، ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ناولني سبع حصيات، فناولته ففركهن في يده الشريفة ثم دفعهن إلي وقال: إذا انتهيت إليها فآلق فيها حصاة حصاة وسم الله، قال: ففعلت، فما أدركنا لها قعراً حتى الساعة.

ومنها وفد غسان: اسم ماء نزل عليه قوم من الأزدي فنسبوا إليه، ومنهم بنو حنيفة، وقيل غسان قبيلة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر من غسان فأسلموا، وقالوا: لا ندري هل تبعدنا قومنا أم لا وهم يحبون بقاء ملكهم وقربهم من قيصر، فأجازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوائز، وانصرفوا راجعين إلى قومهم، فلما قدموا عليهم ولم يستجيبوا لهم كتموا إسلامهم.

ومنها وفد سلامان بفتح السين وتخفيف اللام. وفي العرب بطون ثلاثة منسوبون إليه: بطن من الأزدي، وبطن من طييء، وبطن من قضاة وهم هؤلاء. وقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة نفر من سلامان، فيهم خبيب بن عمرو السلاماني فأسلموا.

قال: وعن خبيب رضي الله تعالى عنه: صادفنا رسول الله صلى الله عليه

وسلم خارجاً من المسجد إلى جنازة دعي إليها، فقلنا: السلام عليك يا رسول الله: فقال: وعليكم السلام من أنتم؟ قلنا: نحن من سلامان قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبان غلامه، فقال: أنزل هؤلاء، وسألنا عن أشياء انتهى.

قال خبيب رضي الله تعالى عنه: قلت يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ قال: الصلاة في وقتها، وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر، ثم شكوا له جذب بلادهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اسقهم الغيث في دارهم، فقلت يا رسول الله ارفع يدك فإنه أكثر وأطيب، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قام وقمنا معه، وأقمنا ثلاثة أيام وضيافته تجري علينا، ثم ودعنا، وأمر لنا بجوائز، فأعطينا خمس أواق فضة لكل واحد واعتذر إلينا بلال رضي الله تعالى عنه وقال: ليس عندنا اليوم مال، فقلنا: ما أكثر هذا وأطيبه ثم رجعنا إلى بلادنا فوجدناها قد مطرت في اليوم الذي دعا فيه رسول الله .

ومنها وفد بني عيس. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة من بني عيس فقالوا: يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواش هي معاشنا، فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا من آخرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم أي ينقصكم من أعمالكم شيئاً وسألهم رسول عن خالد بن سنان هل له عقب؟ فأخبروه أنه لا عقب له كانت له ابنة فانقرضت، وأنشأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه عن خالد بن سنان وقال: إنه نبي ضيعه قومه، وجاء: «ليس بيني وبين عيسى عليه الصلاة والسلام نبي». أي وإذا صح شيء من الأحاديث التي ذكر فيها خالد بن سنان أو غيره يكون معناه: لم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام نبي مرسل، أي وتقدم ما في ذلك.

ومنها وفد النخع: أي بفتح النون والخاء المعجمة: قبيلة من اليمن، وهم آخر الوفود، وكان وفودهم سنة إحدى عشرة في النصف من المحرم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا رجل من النخع مقرين بالإسلام وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه، فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو: يا رسول الله إنني رأيت في سفري هذا عجيباً: أي وفي رواية: رأيت رؤيا هالتي، قال: وما رأيت؟ قال: رأيت أتانا نركبها في الحي ولدت جدياً: أي وهو ولد المعز أسقع أحوى، أي والأسقع الذي سواده مشرب بحمرة، والأحوى: الذي ليس شديد السواد ومن ثم فسر بالأخضر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تركت أمة لك مصره لك علي حمل؟ قال نعم، قال فإنها تلد غلاماً وهو ابنك قال: يا رسول الله، فما له أسقع أحوى؟ قال: ادن مني، فدنا منه، فقال: هل بك من برص تكتمه؟ قال: فوالذي بعثك بالحق ما علم به أحد ولا اطلع عليه غيرك، قال هو ذاك، قال: يا رسول

الله ورأيت النعمان بن المنذر أي وهو ملك العرب وعليه قرطان. والقرط: ما يكون في شحمة الأذن، ودملجان بضم الدال المهملة وضم اللام وفتحها، ومسكتان بضم الميم وسكون المهملة، قال: ذلك ملك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته، قال: يا رسول الله، ورأيت عجوزاً شمطاء: أي يخالط شعر رأسها الأبيض شعر أسود خرجت من الأرض، قال: تلك بقية الدنيا، وقال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، وهي تقول لظى لظى، بصير وأعمى أطعموني أكلكم أهلكم ومالككم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فتنة تكون في آخر الزمان، قال: يا رسول الله وما الفتنة؟ قال: يقتل الناس إمامهم ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس، ويشتجرون بالشين المعجمة وبالجميم: أي يشتبكون في الفتنة اشتباك أطباق الرأس، وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصبعيه، بحسب المسيء فيها أنه محسن، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أسهل. أي وفي لفظ: أحلى من شرب الماء البارد، وإن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أنت أدركها ابنك، فقال: يا رسول الله ادع الله أني لا أدركها، فقال له رسول الله

صلى الله عليه وسلم: اللهم لا يدركها، فمات وبقي ابنه عمرو، ولم يجتمع به، فهو تابعي وكان ممن خلع عثمان رضي الله تعالى عنه. قال: وفي رواية أن النخع بعثت رجلين منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم أرطاة بن شرحبيل من بني حارثة والأرقم من بني بكر، فلما قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرض عليهما الإسلام فقبلاه فبايعاه على قومهما، وأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم شأنهما وحسن هيتهما، وقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل خلفتما وراءكما من قومكما مثلكما؟ قالوا: لا يا رسول الله، قد خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلاً كلهم أفضل منا، وكلهم يقطع الأمر وينفذ الأشيء ما يشاء، فدعا لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقومهما بخير، وقال: اللهم بارك في النخع.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235

وعقد لأرطاة لواء على قومه، فكان في يده يوم الفتح، وشهد به القادسية، وقتل يومئذ رضي الله تعالى عنه اهـ.

وقوله وكان في يده يوم الفتح لا يناسب ما تقدم أن وفد النخع كان قدومه في سنة إحدى عشرة، إلا أن يقال هذين وفدا قبل وفود ذلك الجمع. وقد ترك الأصل التعرض لجملة من الوفود وذكرت في السيرة العراقية والسيرة الهشامية تركناها تبعاً للأصل.

منها أن عمرو بن مالك وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم، ثم رجع إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام، فقالوا: حتى نصيب من بني عقيل مثل ما أصابوا منا فكان بينهم وبين بني عقيل مقتلة، وكان عمرو بن مالك هذا من جملة من قاتل معهم، فقتل رجلاً من بني عقيل، قال عمرو: فشددت يدي في غل وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغه ما صنعت، فقال: إن أتاني لأضرب ما فوق الغل من يده، فلما جئت سلمت فلم يرد علي السلام وأعرض

عني، فأتيته عن يمينه فأعرض عني، فأتيته عن يساره فأعرض عني، فأتيته من قبل وجهه، فقلت: يا رسول الله إن الرب عز وجل ليرضى فيرضى، فأرض عني رضي الله تعالى عنك، قال: رضيت.
وتقدم أنه قد جاء في الصحيح: «لا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أغبر من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» والله أعلم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 235
باب بيان كتبه التي أرسلها إلى الملوكة وعوهم إلى الإسلام
أي في الغالب، وإلا فمنها ما ليس كذلك، وهذه غير كتبه التي كتبها بالأمان التي تقدم ذكرها.

أي ولما أراد أن يكتب للملوك قيل له: يا رسول الله إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا إذا كان مختوماً: أي ليكون في ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغي أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم. وفيه أن هذا واضح إذا كان الختم عليها بعد طيها، ويجعل عليها نحو شمع ويختم فوق ذلك. والظاهر أن ذلك لم يكن، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن التزوير لبعده مع الختم، فاتخذ خاتماً من فضة، أي بعد أن اتخذ خاتماً من ذهب، فافتدى به ذوو اليسار من أصحابه، فصنعوا خواتيم من ذهب. ولما لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك لبس أصحابه رضي الله تعالى عنهم خواتيمهم، فجاءه جبريل عليه السلام بعد من الغد بأن لبس الذهب حرام على ذكور أمتك، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الخاتم، فطرح أصحابه خواتيمهم، وكان نقش خاتمه الفضة ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر.
وفي حديث موضوع: كان نقش خاتمه صدق الله: وفي رواية شاذة أنه بسم الله محمد رسول الله، والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق، فمحمد آخر الأسطر، ورسول في الوسط، والله فوق، كذا قال بعض أئمتنا.
قال في النور: والذي يظهر لي أن هذه الكتابة كانت مقلوبة حتى إذا ختم بها يختم على الاستواء كما في خواتم الكبراء اليوم. وختم بذلك الخاتم الكتب وكان في يده الشريفة، ثم في يد أبي بكر، ثم في يد عمر، ثم في يد عثمان رضي الله تعالى عنهم، حتى وقع في بئر أريس في السنة التي توفي فيها عثمان رضي الله تعالى عنه، فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه.
وذكر أن هذا الخاتم الذي كان في يده ثم في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان رضي الله تعالى عنهم، كان الخاتم الحديد الذي كان ملوياً عليه الفضة، وأنه الذي كان في يد خالد بن سعيد، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما نقش هذا الخاتم، قال: محمد رسول الله، قال: اطرحه إليّ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبسه، فكان في يده ثم في يد أبي بكر الحديث.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: «أنه لبس خاتم فضة فصه حبشي أي من جذع» لأنه يؤتى به من بلاد الحبشة. وقيل صنف من الزبرجد، وأنه الذي نقش فيه «محمد رسول الله» وفي لفظ: «فصه منه» وفي لفظ «فصه من عقيق».

أي ولا ينافي ذلك وصفه بأنه حبشي، لأن العقيق يؤتى به من بلاد الحبشة، ولم يرد أنه لبس خاتماً كله عقيق. وفي الحديث: «تختموا بالعقيق فإنه مبارك، تختموا بالعقيق فإنه ينفي الفقر».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 281

قيل وكان خاتمه في خنصر يده اليسرى، وهو المروي عن عامة الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين.

وقيل كان في خنصر يمينه، وهو قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وطائفة، ومنهم عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتختم في يمينه وقبض والخاتم في يمينه، قال بعضهم: وهذا رواه عبيدة بن القاسم وهو كذاب: أي وهو يخالف ما جمع به البغوي بأنه تختم أولاً في يمينه ثم تختم به في يساره، وكان ذلك آخر الأمرين. وروى أشعب الطامع عن عبد الله بن جعفر: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتختم في اليمنى».

قال الإمام النووي رحمه الله: التختم في اليمين أو اليسار كلاهما صح فعله عن النبي، لكنه في اليمين أفضل، لأنه زينة واليمين بها أولى، هذا كلامه، أي ولأن ابن حاتم نقل عن أبي زرعة أنه كان في يمينه أكثر منه في يساره وكان يجعل فصه مما يلي كفه، وتقدم أن الخاتم الذي لبسه يوماً وألقاه كان من الذهب، وقيل كان ذلك الخاتم من حديد.

وقد قال للباس خاتم الحديد: «ما لي أرى عليك حلية أهل النار» فطرحة، ولعله لكون سلاسل أهل النار وأغلالهم وقيودهم من حديد، أي ثم جاء وعليه خاتم من صفر: أي نحاس فقال: «ما لي أجد فيك ريح الأصنام» ولعل الأصنام كانت تتخذ من نحاس غالباً، ثم أتاه وعليه خاتم من ذهب فقال: «ما لي أرى عليك حلية أهل الجنة» أي المختص بإباحتها بأهل الجنة في الجنة قال: «يا رسول الله: من أي شيء أتخذه؟ قال: من ورق ولا تتمه مثقالاً» أي وزن مثقال، لكن في رواية أبي دواد: «ولا تتمه مثقالاً ولا قيمة مثقال» وهي تفيد أن الخاتم إذا كان دون مثقال وزناً لكن بلغ بالصنعة قيمة مثقال كان منهياً عنه. وفي الحديث: «ما طهر الله كفا فيه خاتم من حديد» وهو يفيد كراهة لبس الخاتم الحديد.

وفي كلام الشمس العلقمي: ولا يكره كونه من نحو حديد ونحاس، لحديث الشيخين: «التمس ولو خاتماً من حديد» فليأمل. وعند عزمه على إرسال الكتب وتكلم مع أصحابه في ذلك خرج على أصحابه يوماً فقال: «أيها الناس إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدوا عني رحمكم الله، ولا تختلفوا عليّ كما اختلف الحواريون على عيسى ابن مريم عليه السلام، فقال أصحابه رضي الله تعالى عنهم: وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يا رسول الله؟ قال: دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضي وسلم، وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فكره وأبى، فشكا ذلك عيسى

عليه السلام إلى ربه عز وجل فأصبحوا وكل رجل منهم يتكلم بلغة القوم الذين وجه إليهم».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 281

ذكر كتابه إلى قيصر

المدعو هرقل ملك الروم على يد دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه، والدحية: بلسان اليمن الرئيس.

وقيصر معناه في اللغة البقير لأنه شق عنه، لأن أم قيصر ماتت في المخاض فشق عنه وأخرج فسمي قيصر، وكان يفتخر بذلك ويقول: لم أخرج من فرج، أي لأن كل من ملك الروم يقال له قيصر.

كتب كتاباً لقيصر يدعو إلى الإسلام، وبعث به دحية الكلبي رضي الله تعالى عنه، وأمره أن يدفعه إلى قيصر ففعل كذلك، أي بعد أن قال: «من ينطلق بكتابي هذا، فيسير إلى هرقل وله الجنة؟».

وقيل أمر دحية أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى قيصر.

ولما انتهى دحية رضي الله تعالى عنه إلى الحارث أرسل معه عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه ليوصله إلى قيصر، فذهب به إليه، فقال قومه لدحية رضي الله تعالى عنه: إذا رأيت الملك فاسجد له، ثم لا ترفع رأسك أبداً حتى يأذن لك.

قال دحية رضي الله تعالى عنه: لا أفعل هذا أبداً ولا أسجد لغير الله، قالوا: إذن لا يؤخذ كتابك، فقال له رجل منهم: أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له، فقال دحية رضي الله تعالى عنه وما هو؟ فقال: إن له على كل عتبة منبراً يجلس عليه، فضع صحيفةك تجاه المنبر فإن أحداً لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها ففعل، فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب، فدعا الترجمان الذي يقرأ بالعربية، ثم قال: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب رضي الله تعالى عنه بالشام، أي بغزة مع رجال من قريش في تجارة زمن هدنة الحديبية، أي وكان أولها في ذي القعدة سنة ست.

وقيل كتب إليه من تبوك، وذلك في السنة التاسعة. وجمع بينهما بأنه كتب لقيصر مرتين، والأول ما هو في الصحيحين، والثاني قاله السهيلي، واستدل له بخبر في مسند الإمام أحمد: أي وأغرب من قال إن الكتابة له كانت سنة خمس.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283

قال أبو سفيان: فأتانا رسول قيصر: أي وهو والي شرطته، فانطلق بنا حتى قدمنا عليه: أي في بيت المقدس، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله، فقال لترجمانه: أي وهو المعبر عن لغة بلغة وهو معرب. وقيل اسم عربي، سلهم أيهم أقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ أي وفي لفظ: لهذا الرجل الذي خرج بأرض العرب يزعم أنه نبي، فقال أبو سفيان، أنا أقربهم

نسباً إليه، لأنه لم يكن في الركب يومئذ من بني عبد مناف غيري: أي لأن عبد مناف هو الأب الرابع له وكذا لأبي سفيان، أي وزاد في لفظ: ما قرابتك منه؟ قلت: هو ابن عمي، فقال له: ادن مني ثم أمر بأصحابي، فجعلوا خلف ظهري ثم قال لترجمانه: قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم كي أسأله عن هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي، وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذباً إن قاله: أي حتى لا تستحيوا أن تشافهوه بالتكذيب إذا كذب، قال أبو سفيان: فوالله لولا الحياء يومئذ أن يردوا عليّ كذباً لكذبت، ولكنني استحييت، فصدقت وأنا كاره، أي وفي رواية: لولا مخافة أن يؤثر عني الكذب لكذبت: أي لولا خفت أن ينقل عني الكذب إلى قومي ويتحدثوا به في بلادي لكذبت عليه، لبغضني إياه ومحبتني نفسه، وبه يعلم أن الكذب من القبائح جاهلية وإسلاماً. ثم قال لترجمانه: قل له: كيف نسب هذا الرجل فيكم؟ قلت: هو منا ذو نسب. قال: قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله؟ قلت: لا قال: قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال؟ قلت لا. أي وفي رواية: هل كان حلاقاً كذاباً مخادعاً في أمره لعله يطلب ملكاً وشرفاً كان لأحد من أهل بيته قبله. قال: هل كان من آباءه ملك؟ قلت: لا، أي وزاد في رواية: كيف عقله ورأيه؟ قال لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً قط. قال: فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، أي والمراد بأشرف الناس أهل النخوة وأهل التكبر، فلا يرد مثل أبي بكر وعمر وحمزة رضي الله تعالى عنهم ممن أسلم قبل هذا

السؤال.

وعند ابن إسحاق رحمه الله تعالى: تبعه منا الضعفاء والمساكين والأحداث، وأما ذوو الأحساب والشرف فما تبعه منهم أحد، وهو محمول على الأكثر الأغلب: أي الأكثر والأغلب أن أتباعه ضعفاء. قال: فهل يزيدون أو ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه: أي كراهة له وعدم رضا به بعد أن يدخل فيه؟ قلت لا. ولا يقال هذا منقوض بما لعبد الله بن جحش حيث ارتد ببلاد الحبشة لأنه يرتد كراهية للإسلام بل لغرض نفساني كما تقدم. قال: فهل يغدر إذا عاهد؟ قلت لا ونحن الآن منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت نعم. قال: فكيف حربكم وحربه؟ قلت دول وسجال، ندل عليه مرة أي كما في أحد، ويدال علينا أخرى أي كما في بدر، وقد تقدم في أحد أن أبا سفيان رضي الله تعالى عنه قال يوم أحد يوم بيوم بدر والحرب سجال: أي نوب.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283

وفي لفظ قال أبو سفيان: انتصر علينا مرة يوم بدر وأنا غائب ثم غزوتهم في بيوتهم ببقر البطون وبجدع الأذان والأنوف والفروج، وأشار بذلك إلى يوم أحد. قال: فما يأمركم به؟ قلت: يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً أي والذي في البخاري يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وبينها عما كان يعبد أبائنا، ويأمرنا بالصلاة والصدقة. وفي لفظ: والزكاة. وفي لفظ جمع بين الصدق والصدقة والعفاف أي ترك المحارم وخوارم المروءة، ويأمرنا بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

فقال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فزعمت أن لا فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله تعالى. وسألتك: هل كان من أبائه ملك فقلت لا فلو كان من أبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل: أي لأن الغالب أن أتباع الرسل أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار. وسألتك: هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم. وسألتك: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به لا يسخطه أحد. وسألتك: هل قاتلتموه؟ قلت نعم، وإن حربكم وحربه دول وسجال يبادل عليكم مرة وتداولون عليه أخرى، وكذلك الرسل تبلى ثم تكون له العاقبة. وسألتك ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. أي وفي البخاري: وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر: أي لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذي لا يناله طالبيه إلا بالغدر، فعلمت أنه نبي. وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم، وإن كان ما حدثني به حقاً فيوشك: أي يقرب أن يملك موضع قدمي هاتين.

أي وذكر بعضهم أن هذا يدل على أن هذه الأشياء التي سأل عنها هرقل كانت عنده في الكتب القديمة من علامات نبوته .

وفيه أن هذا لا يأتي مع قوله ما تقدم إذ هو يقضي أن ذلك علامة على رسالة كل رسول ثم قال قيصر: ولو أعلم أنني أخلص أي أصل إليه لتجشمت: أي تكلفت مع المشقة لقيه. أي وفي لفظ آخر: لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: ولا عذر له في هذا، لأنه قد عرف صدق النبي صلى الله عليه وسلم وإنما شج بالملك، فطلب الرياسة وأثرها على الإسلام، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي وما زالت عنه الرياسة. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: لو تفتن هرقل لقوله في الكتاب إليه: «أسلم تسلم» وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل ما يخافه، ولكن التوفيق بيد الله.

ثم قال: ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه: أي مبالغة في خدمته والتعبد له، ولا أطلب منه ولاية ولا منصباً.

قال أبو سفيان: ثم دعا بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم فقريء عليه، فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى» أي ومن لم يتبع الهدى فلا سلام عليه،

فليس في هذا بداءة الكافر بالسلام «أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام» أي بالكلمة الداعية للإسلام وهي كلمة التوحيد أي إليها، فالباء موضع إلى «أسلم تسلم يؤتك الله أجره مرتين» أي لإيمانك بعيسى ثم بمحمد، أو لإيمان أتباعك بسبب إيمانك «فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين» أي فلاحى القرى: أي ومن ثم جاء في رواية: «إثم الفلاحين» وفي رواية «إثم الأكارين» والأكار: الفلاح، لأن أهل السواد وما والاهم أهل فلاحه، والمراد إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لأمرك. وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أسرع انقياداً من غيرهم، لأن الغالب عليهم الجهل والجفاء وقلة الدين، والمراد عليك مع إثمك إثم رعاياك، لأنه إذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا، فهو متسبب في عدم إسلامهم، والفاعل لمعصية المتسبب لارتكاب غيره لها عليه الإثم من جهتين: جهة فعله وجهة تسببه {وبا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} والواو في قوله: «وبا أهل الكتاب» عاطفة على مقدر معطوف على قوله أدعوك. والتقدير أدعوك بدعاية الإسلام، وأقول لك ولأتباعك يا أهل الكتاب.

قيل وهذه الآية كتبها قبل نزولها لأنها إنما نزلت في وفد نجران، وذلك في سنة تسع. وهذه القصة كانت في سنة ست، وقيل بعد نزولها لأن نزولها كان في أول الهجرة في شأن اليهود. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: وجوز بعضهم نزولها مرتين وهو بعيد كذا قال فلي تأمل.

قال أبو سفيان رضي الله تعالى عنه: فلما قضى مقالته وفرغ من الكتاب علت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم: أي أصواتهم التي لا نفهم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283

وفي البخاري: كثر عنده الصخب: وارتفاع الأصوات. والصخب. اختلاط الأصوات عند المخاصمة. زاد البخاري: فلا أدري ما قالوا وأمر بنا فأخرجنا، فلما خرجت أنا وأصحابي وخلصنا قلت لهم لقد أمر أمير ابن أبي كبشة: أي عظم أمره، هذا ملك بني الأصفر يخافه، فما زلت موقناً أن سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام، أي فأظهرت ذلك اليقين لأنه ارتفع. وفي لفظ: فما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت.

وقد تقدم الكلام على كبشة، وهو أن جد وهب لأمه أبو آمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم كان يكنى أبا كبشة. قال في شرح مسلم: وهو الذي كان يعبد الشعري، وأبو سلمة أم جده عبد المطلب كان يكنى أبا كبشة، وزوج مرضعته كان يكنى أبا كبشة، وتقدم الكلام أيضاً على بني الأصفر.

ويروى أن أبا سفيان رضي الله تعالى عنه قال لقيصر لما سأله: هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فقال: لا لكن أخبرك عنه أيها الملك خبراً تعرف به أنه قد كذب، قال: وما هو؟ قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح، فقال بطريق: أي قائد من قواد الملك كان واقفاً عند رأس قيصر: صدق أيها الملك، فنظر إليه

قيصر، فقال: ما أعلمك بهذا؟ قال: إني كنت لا أنام ليلة أبداً حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنني، فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرنني فلم نستطيع أن نحركه كأنما نزاول جبلاً، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا: لا نستطيع أن نحركه حتى نصبح، فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب. قال في النور: الذي يظهر لي أنه الصخرة: أي المراد بالصخرة في بعض الروايات كما قدمناه، وإذا فيه أثر مربوط الدابة فقلت لأصحابي: ما حبس هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر، فقال قيصر لقومه: يا قوم أستم تعلمون أن بين يدي الساعة نبياً بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم؟ قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله في غيركم، وهي رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء، أي وأمر بإنزال دحية وإكرامه.

وذكر أن ابن أخي قيصر أظهر الغيظ الشديد وقال لعمه: قد ابتداءً بنفسه وسماك صاحب الروم، ألق به: يعني الكتاب، فقال له: والله إنك لضعيف الرأي، أتري أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر؟ هو حق أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق، أنا صاحب الروم، والله مالكي ومالكه. أي وفي لفظ أن أخا قيصر لما سمع الترجمان يقرأ: «من محمد رسول الله إلى قيصر صاحب الروم ضرب في صدر الترجمان ضربة شديدة، ونزع الكتاب من يده، وأراد أن يقطعه، فقال له قيصر: ما شأنك؟ فقال: تنظر في كتاب رجل قد بدأ بنفسه قبلك وسماك قيصر صاحب الروم وما ذكر لك ملكاً؟ فقال له قيصر: إنك أحق صغير أو مجنون كبير، أتريد أن تمزق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه؟ ولعمري إن كان رسول الله كما يقول لنفسه أحق أن يبدأ بها مني، ولئن سماني صاحب الروم لقد صدق، ما أنا إلا صاحبهم وما أملكهم، ولكن الله سخرهم لي، ولو شاء لسلطهم عليّ كما سلط فارس على كسرى فقتلوه. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283 ولما جاء الخبر عن قيصر قال: «ثبت ملكه» وفي لفظ: «سيكون لهم بقية، ولقد صدق الله ورسوله».

فقد ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى أن الملك المنصور قلاوون أرسل بعض أمرائه إلى ملك المغرب بهدية فأرسله ملك المغرب إلى الفرنج في شفاعة فقبله وأكرمه وقال له لاتحفنك بتحفة سنية فأخرج له صندوقاً مصفحاً بالذهب وأخرج منه مقلمة، وفي لفظ قصبة من الذهب.

فعن السيهلي رحمه الله تعالى قال: بلغني أن هرقل وضع الكتاب في قصة من ذهب تعظيماً له، فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه، وقد ألصق عليه خرقة حرير، فقال: هذا كتاب نبيكم لجدّي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وذكر لنا أبائنا عن آبائهم أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزول الملك عنا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه، ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا، أي ولا ينافيه ما جاء: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده» لأن المراد إذا زال ملكه عن الشام لا يخلفه فيه أحد، وكان كذلك لم يبق إلا ببلاد الروم.

أي ويروى أن قيصر لما رجع من بيت المقدس إلى محل دار ملكه وهي حمص، أي فإنه لما ظهر على الفرس وأخرجهم من بلاده نذر أن يأتي بيت المقدس ماشياً شكراً لله، فلما أراد الذهاب إلى بيت المقدس ماشياً بسط له البسط وطرح له عليها الرياحين، ولا زال يمشي على ذلك إلى أن وصل إلى بيت المقدس كما سيأتي، فلما رجع إلى حمص كان له فيها قصر عظيم، فأغلق أبوابه وأمر منادياً ينادي: ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه، فدخلت الأجناد في سلاحها وطافت تريد قتله فأرسل إليهم: إني أردت اختبار صلابتكم في دينكم، فقد رضيت فرضوا عنه.

والذي في البخاري أن قيصر لما سار إلى حمص أذن لعظماء الروم في دسكرة له، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع، فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصه حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت، فلما رأى قيصر نفرتهم وأيس من الإيمان منهم أي وقالوا له اتدعوننا أن نترك النصرانية ونصير عبداً لأعرابي، فقال ردوهم عليّ وقال: إني قلت مقالتي أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه. وعند ذلك كتب كتاباً وأرسله مع دحية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه إني مسلم ولكنني مغلوب، وأرسل بهدية، فلما قرىء عليه الكتاب قال: كذب عدو الله، ليس بمسلم، وقبل هديته وقسمها بين المسلمين، ومصداق قوله: أن قيصر بعد هذه القصة بدون سنتين قاتل المسلمين بغزوة مؤتة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283

وفي صحيح ابن حبان عن أنس رضي الله تعالى عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليه أيضاً من تبوك يدعو له وأنه قارب الإجابة ولم يجب» وفي مسند الإمام أحمد: «أنه كتب من تبوك إلى النبي صلى الله عليه وسلم إني مسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كذب إنه على نصرانيته». وفي لفظ: «كذب عدو الله والله إنه ليس بمسلم».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فعلى هذا إطلاق صاحب الاستيعاب أنه آمن: أي أظهر التصديق، لكنه لم يستمر عليه ولم يعمل بمقتضاه، بل شح بملكه، وأثر العاقبة على العاقبة لعنة الله عليه، أي لأنه تحقق كفره أي وقد ذكر حامل كتابه إليه قال جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهراي أصحابه محتبياً، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: هو هذا، فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره، ثم قال: من أنت؟ قلت: أنا أحد تنوخ، قال: هل لك في الإسلام دين الحنيفية ملة إبراهيم؟ قلت إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: {إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين} فلما فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقاً، وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا قوم سفر، فقال رجل: أنا أجوزه، فأتى بحلة فوضعها في حجري، فسألت عنه؟ فقيل لي: إنه عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 283
ذكر كتابه إلى كسرى ملك فارس على يد عبد الله بن حذافة، أي لأنه كان يتردد عليه كثيراً

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن حذافة السهمي، وقيل أخاه خنيساً، وقيل أخاه خارجة، وقيل شجاع بن وهب، وقيل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم إلى كسرى، وبعث معه كتاباً مختوماً فيه «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وأمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس» أي الذين هم أتباعك. قال عبد الله بن حذافة رضي الله تعالى عنه: فأتيت إلى بابه وطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله، فقرأه عليه، فأخذه ومزقه.

أي وفي رواية: «أن كسرى لما علم بكتاب رسول الله، فأذن بحامل الكتاب أن يدخل عليه، فلما وصل أمر كسرى أن يقبض منه الكتاب، فقال: لا، حتى أدفعه إليك كما أمرني رسول الله، فقال كسرى ادنه، فدنا فناولته الكتاب، فدعا من يقرؤه، فقرأه فإذا فيه: من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى عظيم فارس، فأغضبه حين بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، وأمر بإخراج حامل ذلك الكتاب فأخرج، فلما رأى ذلك قعد على راحلته وسار، فلما ذهب عن كسرى سورة غضبه، بعث فطلب حامل الكتاب فلم يجده، فلما وصل إليه وأخبره الخبر قال: مزق كسرى ملكه».

وكتب كسرى إلى بعض أمرائه باليمن يقال له باذان: إنه بلغني أن رجلاً من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبي، فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إليّ برأسه، يكتب إليّ هذا الكتاب: أي الذي بدأ فيه بنفسه وهو عبدي، أي وفي رواية: إن تكفيني رجلاً خرج بأرضك يدعوني إلى دينه وإلا فعلت فيك كذا يتوعده، فابعث إليه برجلين جلدتين فيأتينني به، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع قهرمانه، وبعث معه رجلاً آخر من الفرس، وبعث معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فخرجا وقدا الطائف، فوجدا رجلاً من قريش في أرض الطائف. فسألاه عنه، فقال: هو بالمدينة. فلما قدما عليه المدينة قالوا له: شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتي بك، وقد بعثنا إليك فإن أبيت هلكت وأهلك قومك وخربت بلادك، وكانا على زي الفرس من حلق لحاهم وإعفاء شواربهم، فكره النظر إليهما، ثم قال لهما: ويلكما، من أمركما بهذا؟ قالوا: أمرنا ربنا، يعنينا كسرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولكن أمرني ربي بإعفاء لحيتي وقص شاربي، ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتياني غداً، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من

السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه يقتله في شهر كذا في ليلة كذا، فلما كان الغد دعاها وأخبرهما الخبر، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى باذان: إن الله قد وعدني أن يقتل كسرى يوم كذا من شهر كذا. فلما أتى الكتاب باذان توقف، وقال إن كان نبياً فسيكون ما قال، فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على يد ولده شيرويه، قيل قتله ليلاً بعد ما مضى من الليل سبع ساعات فيكون المراد باليوم في تلك الرواية مجرد الوقت: أي وفي رواية: قال لرسول باذان: اذهب إلى صاحبك وقل له إن ربي قد قتل ربك الليلة، ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكان كما أخبر، فلما جاءه

هلاك كسرى قال: «لعن الله كسرى، أول الناس هلاكاً فارس ثم العرب». رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 291

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما أنه قال: «لتفتحن عصابة من المسلمين أو المؤمنين أو رهط من أمتي كنوز كسرى التي في القصر الأبيض» فكانت أنا وأبي فيهم، وأصبنا من ذلك ألف درهم وقدم على باذان كتاب ولد كسرى شيرويه، فيه: أما بعد، فقد قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضباً لفارس فإنه قتل أشرفهم. فتفرق الناس، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان كسرى يكتب إليك فيه فلا تزعه حتى يأتيك أمري فيه، فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله، هذا. وفي رواية أنه قيل له: إن كسرى قد استخلف ابنته. فقال: «لا يفلح قوم تملكهم امرأة».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 291

ذكر كتابه للنجاشي ملك الحبشة على يد عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى النجاشي وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، سلم أنت: أي أنت سالم» لأن السلم يأتي بمعنى السلامة «فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة»: أي العفيفة: أي المنقطعة عن الرجال التي لا شهوة لها فيهم، أو المنقطعة عن الدنيا وزينتها، ومن ثم قيل لفاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم البتول «فحملت بعيسى. حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والمولاة على طاعته، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى» فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم ودعا بحق من عاج، أي وهو عظم الفيل، وجعل فيه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم.

أي وفي كلام بعضهم: بعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي فكان أول رسول، وكتب إليه كتابين يدعو بهما إلى الإسلام، وفي الآخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة، فأخذ الكتابين وقبلهما ووضعهما على رأسه وعينيه، ونزل عن سريره تواضعاً، ثم أسلم وشهد شهادة الحق.

وكتب إليه النجاشي: أي جواب الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من النجاشي أصحمة، السلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الذي لا إله إلا هو. زاد في لفظ: الذي هداني للإسلام. أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام، فورب السماء والأرض إن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعث به إلينا. وقد قرّبنا ابن عمك وأصحابه، يعني جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين رضي الله عنهم، فأشهد أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، أي جعفر بن أبي طالب، وأسلمت على يده لله رب العالمين. أي وعند ذلك قال: «اتركوا الحبشة ما تركوكم».

وذكر أن عمرو بن أمية رضي الله عنه قال للنجاشي. أي عند إعطائه الكتاب: يا أصحمة إن عليّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا من وكأنا في الثقة بك منك، لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا لنا، ولم نحفظك على شرّ قط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يردّ، وقاض لا يجور، في ذلك موقع الخير وإصابة الفضل، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وقد فرق النبي صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس، فرجاءك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه لخبر سالف وأجر ينتظر، فقال النجاشي: أشهد بالله إنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار كبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام براكب الجمل، وأن العيان ليس بأشقى من الخبر. زاد بعضهم: ولكن أعواني من الحبشة قليل، فأنظرنني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 293

أقول: كذا في الأصل، وهو صريح في أن هذا المكتوب إليه هو الذي هاجر إليه المسلمون سنة خمس من النبوة، ونعاه يوم توفي صلى الله عليه بالمدينة منصرفه من تبوك، وذلك في السنة التاسعة. والذي قاله غيره كابن حزم أن هذا النجاشي الذي كتب إليه الكتاب وبعث به عمرو بن أمية الضمري لم يسلم، وأنه غير النجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم الذي آمن به وأكرم أصحابه، وفي صحيح مسلم ما يوافق ذلك.

ففيه عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النجاشي الذي كتب إليه ليس بالنجاشي الذي صلى عليه. ويردّ بأنه يجوز أن يكون كتب للنجاشي الذي صلى عليه وللنجاشي الذي تولى بعده على يد عمرو بن أمية فلا مخالفة.

ومن ثم قال في النور: والظاهر أن هذه الكتابة متأخرة عن الكتابة لأصحة الرجل الصالح الذي آمن به وأكرم أصحابه هذا كلامه. وفيه أن رد الجواب على النبي صلى الله عليه وسلم بالكتاب المذكور ورده على عمرو بن أمية بقوله أشهد بالله إته النبي الذي ينتظره أهل الكتاب إلى آخره إنما يناسب الأول الذي هو الرجل الصالح ويكون جواب الثاني لم يعلم، وقد تقدم عن ابن حزم أنه لم يسلم.

وقال بعضهم: إنه الظاهر، وحينئذ يكون الراوي خلط فوهم أن المكتوب إليه ثانياً هو المكتوب إليه أولاً كما أشار إليه في الهدى، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 293

ذكر كتابه للمقوقس ملك القبط

وهم أهل مصر والإسكندرية وليسوا من بني إسرائيل - على يد حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه إلى المقوقس، أي فإنه عند منصرفه من الحديبية، قال: أيها الناس، أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله، فوثب إليه حاطب رضي الله عنه، وقال، أنا يا رسول الله، قال: بارك الله فيك يا حاطب، قال حاطب رضي الله عنه: فأخذت الكتاب وودعته، وسرت إلى منزلي، وشدت على راحلتي، وودعت أهلي وسرت.

زاد السهيلي: وأنه أرسل مع حاطب جبيراً مولى أبي رهم الغفاري، فإن جبيراً هو الذي جاء بمارية من عند المقوقس.

واعترض بأن هذا لا يلزمه أن يكون أرسل جبيراً مع حاطب للمقوقس، لجواز أن يكون المقوقس أرسل جبيراً مع حاطب. والمقوقس لقب، وهو لغة: المطول للبناء، واسمه جريج بن مينا. وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط» أي الذين هم رعاياك، و{يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} وختم الكتاب، وجاء به حاطب رضي الله عنه حتى دخل على المقوقس

بالإسكندرية: أي بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية، فأخبر أنه في مجلس مشرف على البحر، فركب حاطب رضي الله عنه سفينة وحاذى مجلسه، وأشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر باحضاره بين يديه، فلما جيء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه، وقال لحاطب: ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه: أي من قومه، وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلم عليهم، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب: ألسنت تشهد أن عيسى ابن مريم رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم قال له حاطب رضي الله عنه: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى يعني فرعون {فأخذه الله نكال الآخرة والأولى} فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم

دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمري ما بشاره موسى بعيسى عليهما

الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبي. ولسنا ننهك عن دين المسيح عليه السلام، ولكننا نأمرك به. فقال: إني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الصال ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء بفتح الخاء المعجمة وهمز في آخره: أي الشيء الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، أي يخبر بالمغيبات وسناظر، وأخذ كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وجعله في حق عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 295

ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية، فكتب إلى النبي: «بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك»، أي فإنه قد دفع له مائة دينار وخمسة أثواب «وبعثت لك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم» أي وهما مارية وسيرين بالسين المهملة مكسورة «وبثياب: أي وهي عشرون ثوباً من قباطي مصر» قال بعضهم: وبقيت تلك الثياب حتي كفن في بعضها. وفي كلام هذا البعض: وأرسل له عمائم وقباطي وطيباً وعوداً ونداً ومسكاً مع ألف مثقال من الذهب ومع قدح من قوارير، فكان يشرب فيه، أي لأنه سأل حاطباً رضي الله عنه فقال: أي طعام أحب إلى صاحبكم؟ قال: الدباء: يعني القرع، ثم قال له: في أي شيء يشرب؟ قال: في قعب من خشب، ثم قال «وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام عليك»، ولم يزد على ذلك، ولم يسلم.

ولا يخفى أنه سيأتي أنه أهدى إليه زيادة على الجاريتين جارية أخرى اسمها قيسر، وهي أخت مارية، ولعله إنما اقتصر على ذكر الجاريتين دون هذه الثالثة مع أنها أخت مارية لأنها دونهما في الحسن. وذكر بعضهم أن سيرين أيضاً أخت مارية، فالثلاث أخوات. وفي ينبوع الحياة لابن ظفر: فأهدى إليه المقوقس جوارى أربعاً، أي وبوافقه قول بعضهم: وأرسل إليه جارية سوداء اسمها بريقة. وفي كلام بعضهم أنه أهدى إحدى الجاريتين لأبي جهم بن قيس العبدى، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر. وأخرى أهداها لحسان بن ثابت، وهي أم عبد الرحمن بن حسان كما تقدم في قصة الإفك. وأهدى إليه المقوقس زيادة على ذلك خصياً: أي محبوباً: أي غلام أسود يقال له مأبور بإثبات الراء، وقيل بحذفها، وقيل هابو أي بالهاء بدل الميم وإسقاط الراء ابن عمّ مارية. وكونه كان محبوباً عند إرساله وكان المهدي له المقوقس هو المشهور.

وفي كلام بعضهم أن المهدي له جريح بن مينا القبطي الذي كان على مصر من قبل هرقل، وأنه لم يكن حال الإرسال محبوباً، وأنه قدم مع مارية فأسلم وحسن إسلامه، وكان يدخل عليها، وأنه رضي من مكانه من دخوله على سرية النبي صلى الله عليه وسلم أن يجبّ نفسه فقطع ما بين رجليه حتى لم يبق منه شيء فليتأمل، وسيأتي ما وقع له. وأهدى إليه المقوقس زيادة على البغلة وهي الدلدل، وكانت شهباء. والدلدل في اللغة: اسم للقفذ العظيم، وكانت أنثى، ولا يستدل بلحوق التاء لها لأنها للوحدة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 295

وفي كلام بعضهم: أجمع أهل الحديث على أن بغلة النبي صلى الله عليه وسلم كانت ذكراً لا أنثى، وأول من استنتج البغال قارون. قالوا: والبغل أشبه بأمه منه بأبيه.

قيل: ولم يكن يومئذ في العرب بغلة غيرها. وقد قال له سيدنا علي رضي الله عنه: لو حملنا الحمر على الخيل لكان لنا مثل هذه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون. قال ابن حبان: أي الذين لا يعلمون النهي عنه.

وفيه أن الله امتن بها كالخيل والحمير، ولا يقع الامتتان بالمكروه. وحمارا أشهب يقال له يعفوراً وعفير بالعين المهملة مضمومة. وضبطه القاضي عياض بالمعجمة وغلط في ذلك، مأخوذ من العفرة: وهي لون التراب، وفرساً وهو اللزاز، أي فإن المقوقس سأل حاطباً رضي الله عنه ما الذي يجب صاحبك من الخيل؟ فقال له حاطب: الأشقر، وقد يركب عنده فرساً يقال له المرتجز، فانتخب له فرساً من خيل مصر الموصوفة، فأسرج وألجم، وهو فرسه الميمون.

وأهدى له عسلاً من غسل بنها بكسر الباء الموحدة: قرية من قرى مصر، وأعجب به ودعا في غسل بنها بالبركة، لأنه حين أكل منه قال: إن كان غسلكم أشرف فهذا أحلى، ثم دعا فيه بالبركة.

وأهدى إليه مربعة يضع فيها المكحلة وقارورة الدهن والمشط والمقص والمسبوك، ومكحلة من عيدان شامية ومراة ومشطاً، أي فإن المقوقس سأل حاطباً عن النبي صلى الله عليه وسلم هل يكتحل؟ فقال له: نعم، وينظر في المرأة، ويرجل شعره، ولا يفارق خمساً في سفر كان أو في حضر، وهي: المرأة، والمكحلة، والمشط، والمدري، والمسبوك والمدري: شيء كالمسلة يفرق به بين شعر الرأس ويحك به لأن حكه بالأصبع يشوش الشعر ويلوي بها قرون شعر الرأس.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «سبع لم تفارق رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ولا حضر: القارورة التي يكون فيها الدهن، والمشط، والمكحلة، والمقراض»، أي المقص والمسبوك، والمرأة: زاد بعضهم «والإبرة، والخيط» ولعل عدم ذكر ذلك في الكتاب أنه لم يره شيئاً ينبغي ذكره.

أي وقد قال بعضهم: إن المقوقس أرسل مع الهدية طبيباً، فقال له النبي: «ارجع إلى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع». واعترض كون الحمار الذي أرسله المقوقس يسمى يعفوراً، بأن الحمار الذي يسمى يعفوراً أهده له فروة بن عمرو الجذامي عامل قيصر. وأهدى إليه أيضاً بغلة شهباء يقال لها فصة. وفرساً يقال له الطرب كما تقدم. ثم رأيت بعضهم سمى الحمار الذي أهده عامل قيصر عفيراً أيضاً، وعليه فتسمية حمار المقوقس عفيراً أيضاً كما في الأصل أن الحمار الذي أهده المقوقس يقال له يعفوراً وعفيراً من خلط بعض الرواة فلا منافاة. وفي هذا قبول هدية المشركين. وقد تقدم رده لهداياهم وقال: لا أقبل زيد المشركين. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 295

ومما يشكل عليه أيضاً أنه في هدنة الحديدية أهدى لأبي سفيان عجوة، واستهدها أدماً فأهداه إليه أبو سفيان وهو على شركه. وذكر أن المقوقس قال لحاطب رضي الله عنه: القبط لا يطاوعوني في اتباعه، ولا أحب أن تعلم بمحاورتي إياك، وأنا أضنّ: أي أبخل بملكي أن أفارقه، وسيظهر على البلاد، وينزل بساحتنا هذه أصحابه من بعده أي وكان كذلك، فإن المسلمين فتحوا مصر سنة ست عشرة ونزلها الصحابة. فارجع إلى صاحبك، وارحل من عندي، ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً. قال حاطب رضي الله عنه: فرحلت من عنده، أي وبعث معه جيشاً إلى أن دخل جزيرة العرب ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فردّ الجيش وارتفق بالقافلة. قال حاطب: وذكرت قوله للنبي، فقال: «صنّ الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه». ومن ثم ذكر بعضهم أن هرقل لما علم ميل المقوقس إلى الإسلام عزله، ويخالفه قول بعضهم: وبعث أبو بكر رضي الله عنه حاطباً هذا إلى المقوقس بمصر فصالح القبط، إلا أن يقال: يجوز أن يكون المقوقس عاد لولايته بعد عزله.

وذكر بعضهم أن باني الإسكندرية لما أراد بناءها قال: أبنى مدينة فقيرة إلى الله غنية عن الناس فدامت، وبنى أخوه مدينة قال عند إرادة بنائها: أبنى مدينة فقيرة إلى الناس غنية عن الله، فسלט الله عليها الخراب في أسرع وقت. ولما فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر وقف على بعض ما بقي من آثار تلك المدينة فسأل عن ذلك، فأخبر بهذا الخبر.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 295

ذكر كتابه للمنذر بن ساوي العبدي بالبحرين على يد العلاء بن الحضرمي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوي، وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوي، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد: فإني أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإنني قد شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام

على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية» أي وهذا جواب كتاب أرسله المنذر جواباً لكتاب أرسله له قبل ذلك يدعو إلى الإسلام، فأسلم وحسن إسلامه.

أقول: ولم أقف على ذلك الكتاب ولا على حامله. والظاهر أنه العلاء المذكور، فقد ذكر السهيلي رحمه الله أن العلاء قدم على المنذر بن ساوي، فقال له: يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغر عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين، ينكح فيها ما يُستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكره من أكله، وتعبدون في الدنيا ناراً تأكلكم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا نصدقه، ولمن لا يخون أن لا نأتمنه، ولمن لا يخلف أن لا نثق به، فإن كان هذا هكذا فهذا هو النبي الأمي الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به. فقال المنذر: قد نظرت في هذا الذي في يدي فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده. وإن من إعظام من جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر والله أعلم.

ومن جملة كتاب المنذر، أي الذي هذا الكتاب جوابه «أما بعد يا رسول الله، فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود فأحدث لي في ذلك أمر». وذكر ابن قانع أن المنذر المذكور وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فهو من الصحابة. قال أبو الربيع: ولا يصح ذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 300

ذكر كتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عُمان أي بضم العين المهملة وتخفيف الميم: بلدة من بلاد اليمن على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه.

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، سلام على من اتبع الهدى» أما بعد: فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلي تحل: أي تنزل بساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما» وختم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب.

قال عمرو: ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فعمدت إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلها خلقاً، فقلت: إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك، فقال: أخي المقدم عليّ بالسن والملك، وأنا أوصلك به حتى

يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده. وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ يعني العاص بن وائل، فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد، ووددت له لو كان آمن وصدق به، وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام فقال: متى تبعته؟ قلت: قريباً، فسألني أين كان إسلامي؟ فقلت: عند النجاشي، وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه قال: والأساقفة: أي رؤساء النصرانية والرهبان، قلت نعم؟ قال: انظر يا عمرو ما تقول؟ إنه ليس من خصلة في رجل أفصح له: أي أكثر فضيحة من كذب. قلت: وما كذبت وما نستحله في ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي. قلت له بلى، قال: بأي شيء علمت ذلك يا عمرو؟ قلت: كان النجاشي رضي الله عنه يخرج له خراجاً. فلما أسلم النجاشي وصدق بمحمد قال لا والله، ولو سألتني درهماً واحداً ما أعطيته، فيبلغ هرقل قوله، فقال له أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خراجاً ويدين ديناً محدثاً. فقال هرقل: رجل رغب في دين واختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو. قلت: والله صدقتك. قال عبد: فأخبرني: ما الذي يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبرِّ وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. فقال: ما أحسن هذا الذي يدعو إليه لو كان أخي يتابعني لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنباً: أي تابعاً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 301

قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم، قال: إن هذا الخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات في الأموال. أي ولما ذكرت المواشي قال: يا عمرو، يؤخذ من سوائم مواشينا التي ترعى في الشجر وترد المياه: فقلت نعم، فقال؟ والله ما أرى قومي في بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا. قال عمرو: فمكث أياماً بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه خبري، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعي: أي عضدي، قال: دعوه، فأرسلت، فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه كتاباً مختوماً، ففض خاتمه، فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه، ثم قال: ألا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: اتبعوه، إما راغب في الدين وإما راهب مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام، واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى إياهم أنهم كانوا في ضلال مبين، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه تطوُّك الخيل وتبيد خضراءك: أي جماعتك فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعني يومي هذا وأرجع إليَّ غداً. فلما كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يآذن لي، فرجعت إلى أخيه فأخبرته أنني لم أصل إليه، فأوصلني إليه، فقال: إنني فكرت فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلاً ما في يدي وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن

بلغت خيله ألفت: أي وجدت قتالاً ليس كقتال من لاقى. قلت وأنا خارج غداً، فلما أيقن بمخرجي خلا به أخوه، فأصبح فأرسل إليّ، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعاً، وصدقاً، وخلياً بيني وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكان لي عوناً على من خالفني.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 301

ذكر كتابه إلى هودة

بالذال المعجمة، وقيل بالذال المهملة . قال في النور: ولا أظنه إلا سبق قلم - صاحب اليمامة - أي وزاد بعضهم: وإلى ثمامة بن أثال الحنفيين ملكي اليمامة، وفيه نظر، لأن ثمامة رضي الله تعالى عنه كان مسلماً حينئذ على يد سليط بفتح السين المهملة بن عمرو العامري أي لأنه كان يختلف إلى اليمامة، وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هودة بن علي، سلام على من اتبع الهدى. واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر: أي حيث تقطع الإبل والخيل، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك» فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مختوماً أنزله وحياه، وقرأ عليه الكتاب فردّ رداً دون ردّ. فكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فأجعل إليّ بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطاً رضي الله تعالى عنه بجائزة، وكساه أثواباً من نسج هجر، فقدم بذلك كله على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم كتابه، وقال: لو سألتني سيابة، أي بفتح السين المهملة وتخفيف المثناة من تحت وموحدة مفتوحة: أي قطعة من الأرض ما فعلت، باد وباد ما في يديه. فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتح جاءه جبريل عليه الصلاة والسلام. فأخبره بأن هودة قد مات، فقال: أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ يقتل بعدي، أي فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت وأصحابك، فكان كذلك.

أقول: هذا يدل على أن القائل له ذلك هو خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، فإن أبا بكر رضي الله تعالى عنه وجهه أميراً على الجيش الذي أرسله لمقاتلة مسيلمة لعنه الله، وتقدم الخلاف في قتله. والمشهور أنه وحشي قاتل حمزة رضي الله تعالى عنهما، وكان سن هودة مائة وخمسين سنة.

ويذكر أن هودة هذا كان عنده عظيم من عظماء النصارى حين قال للنبي ما قال، فقال له: لم لا تجيبه؟ قال: أنا ملك قومي، ولئن اتبعته لم أملك، فقال: بلى والله لئن اتبعته ليملكنك، وإن الخيرة لك في اتباعه، وإنه النبي العربي الذي بشر به عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، وإنه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله الحديث.

أي وذكر السهيلي رحمه الله تعالى أن سليطاً قال له: يا هودة إنه سودتك أعظم حائلة: أي بالية، وأرواح في النار يعني كسري، لأنه الذي كان توجهه، وإنما السيد من متع بالإيمان، ثم تزود بالتقوى. وإن قوماً سعدوا برأيك فلا تشقين

به، وأنا أمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهي عنه، أمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن في عبادة الله الجنة، وفي عبادة الشيطان النار. فإن قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهو المطلاع، فقال هودة: يا سليط سوّدي من لو سودك تشرفت به، وقد كان لي رأي أختبر به الأمور ففقدته، فاجعل لي فسحة ليرجع إليّ رأيي فأجيبك به إن شاء الله تعالى .

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 303

ذكر كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أي وكان بدمشق: أي بغوطتها: أي وهو محلّ معروف كثير المياه والشجر. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني وبعث معه كتاباً فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إليّ الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وأمن به وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك» وختم الكتاب.

قال شجاع رضي الله تعالى عنه: فخرجت حتى انتهيت إلى بابه، فأقمت يومين أو ثلاثة فقلت لحاجبه: إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه: فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا، وجعل حاجبه يسألني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه، فكنت أحدثه فيرق حتى يغليه البكاء، ويقول: إني قرأت في الإنجيل وأجد صفة هذا النبيّ بعينه فكنت أراه: أي أظنه يخرج بالشام، فأراه قد خرج بأرض القرط: أي وهو ورق، أو ثمر السلم، فأنا أوّمن به وأصدق، وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني، فكان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي، ويخبرني عن الحارث باليأس منه. ويقول: هو يخاف قيصر، فخرج الحارث يوماً وجلس وعلى رأسه التاج وأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه، ثم رمى به، ثم قال: من ينزع مني ملكي، أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئت. عليّ بالناس. فلم يزل جالساً يعرض عليه حتى الليل وأمر بالخيل أن تتعل، ثم قال لي: أخبر صاحبك بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره الخبر وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبي رضي الله عنه، بعثه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لا تسر إليه واله عنه، أي لا تذكره، واشتغل بإيلياء: أي بيت المقدس، ومعنى إيلياء بالعبرانية بيت الله، والمراد باشتغاله بذلك أن يهيبء لقيصر الإنزال ببيت المقدس، فإنه نذر المشي من حمص، وقيل من قسطنطينية إلى بيت المقدس ماشياً شكراً لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس، وأظهر الله تعالى الروم على فارس، ففرشوا له بسطاً ونثروا عليها الرياحين وهو يمشي عليها حتى يبلغ بيت المقدس فجاء إليه كتاب قيصر: أي والذي فيه أنه يلهو عنه ولا يذكره وأنا مقيم فدعاني وقال متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً، فأمر لي بمائة مثقال ذهباً، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة، وقال لي ذلك الحاجب: اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام وأخبره

أني متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما كان من الحارث، قال باد: أي هلك ملكه، وأقرأته السلام من الحاجب وأخبرته بما قال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 304

وفي كلام بعضهم وبعض أهل السير على أن الحارث أسلم، ولكن قال: أخاف أن أظهر إسلامي فيقتلني قيصر. وذكر ابن هشام وغيره أن شجاع بن وهب إنما توجه إلى جبلة بن الأيهم.

ويقال إن شجاع بن وهب أرسل إلى الحارث وإلى جبلة بن الأيهم، وإن شجاعاً قال له: يا جبلة إن قومك نقلوا هذا النبي من داره إلى دارهم، يعني الأنصار، فأووه ومنعوه ونصروه، وإن هذا الدين الذي أنت عليه ليس بدين أبائك ولكنك ملكت الشام وجاورت الروم، ولو جاورت كسرى دنت بدين الفرس، فإن أسلمت أطاعتك الشام وهابتك الروم وإن لم يفعلوا كانت لهم الدنيا وكانت لك الآخرة، وقد كنت استبدلت المساجد بالبيع، والأذان بالناقوس، والجمع بالشعانيين، وكان ما عند الله خير وأبقى. قال جبلة: إني والله لوددت أن الناس اجتمعوا على هذا النبي اجتماعهم على من خلق السموات والأرض، وقد سرتني اجتماع قومي له، وقد دعاني قيصر إلى قتال أصحابه يوم مؤتة فابيت عليه، ولكنني لست أرى حقاً ولا باطلاً وسأنظر.

وفي كلام بعضهم أنه أسلم ورد جواب كتاب رسول الله، وأعلمه بإسلامه، وأرسل الهدية، وكان ثابتاً على إسلامه لزم عمر رضي الله عنه فإنه حج في خلافته.

أي وفي كلام بعضهم: لما أسلم جبلة بن الأيهم في أيام عمر رضي الله عنه وكتب إليه يخبره بإسلامه ويستأذنه في القدوم عليه، فسرت عمر بذلك، وأذن له، فخرج في خمسين ومائتين من أهل بيته، حتى إذا قارب المدينة عمد إلى أصحابه فحملهم على الخيل، وقلدها بقلائد الذهب والفضة، وألبسها الديباج وسرف الحرير، ووضع تاجه على رأسه، فلم تبق بكر ولا عانس إلا خرجت تنظر إليه وإلى زيه وزينته. فلما دخل على عمر رضي الله تعالى عنه رحب به وأدنى مجلسه، وأقام بالمدينة مكرماً، فخرج عمر رضي الله تعالى عنه حاجاً فخرج معه وحين تطوف بالبيت وطىء رجلاً من فزاره فأنحل، فلطم الفزاري لطمه هشتم بها أنفه وكسر ثناياه، أي ويقال فقا عينه، فشكا الفزاري ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه، فاستدعاه وقال له: لم هشمت أنفه، أو قال لم فقات عينه؟ فقال: يا أمير المؤمنين تعمد حلّ إزاري، ولولا حرمة البيت، لضربت عنقه بالسيف، فقال له عمر: إما أنت فقد أقررت، أما أن ترضيه وإلا أقدته منك. وفي رواية: وحكم إما بالعفو أو بالقصاص، فقال جبلة فتصنع بي ماذا؟ قال: مثل ما صنعت به. وفي رواية: أتقتص له مني سواء وأنا ملك وهذا سوقي؟ فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: الإسلام سوى بينكما، ولا فضل لك عليه إلا بالتقوى، فقال: إن كنت أنا وهذا الرجل سواء في الدين فأنا أت نصر، فإني كنت أظن يا أمير المؤمنين أنني أكون في الإسلام أعزمني في الجاهلية، فقال له عمر رضي الله تعالى عنه: إذا أضرب عنقك، فقال فأمهلني الليلة حتى أنظر في أمري، قال: ذلك إلى خصمك فقال الرجل: أمهلته يا أمير

المؤمنين، فأذن له عمر رضي الله تعالى عنه في الانصراف، ثم ركب في بني عمه وهرب إلى القسطنطينية أي فدخل على هرقل وتنصر هناك ومات على ذلك. وقيل عاد إلى الإسلام ومات مسلماً.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 304

وكان جبلة رجلاً طويلاً طوله اثنا عشر شبراً، وكان يمسح الأرض برجليه وهو راكب، فسّر هرقل به، وزوجه ابنته، وقاسمه ملكه، وجعله من سماره، وبنى له مدينة بين طرابلس واللاذقية سماها جبلة باسمه يقال إن فيها قبر إبراهيم بن أدهم.

وقيل المحاكمة كانت عند أبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه. أي فقد ذكر بعضهم أن جبلة لم يزل مسلماً حتى كان في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فبينما هو في سوق دمشق إذ وطىء رجلاً من مزينة فوثب المزني فلطم خدّ جبلة، فأرسله مع جماعة من قومه إلى أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم جبلة، قال: فليلطمه، قالوا: ما يقبل، قال: لا، يقبل، قالوا: إنما تقطع يده، قال: لا، إنما أمر الله بالعود، فلما بلغ جبلة ذلك، قال: أتروني أني جاعل وجهي نداءً لوجه؟ بئس الدين هذا، ثم ارتد نصرانياً وترحل بقومه حتى دخل أرض الروم على هرقل.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 304

حجة الوداع

ويقال لها حجة البلاغ، وحجة الإسلام، لأنه ودّع الناس فيها ولم يحج بعدها، ولأنه ذكر لهم ما يحل وما يحرم. وقال لهم: هل بلغت، ولأنه لم يحج من المدينة غيرها، قيل لإخراج الكفار الحج عن وقته، لأن أهل الجاهلية كانوا يؤخرون الحج في كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في هذه الحجة: «إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض» فإن هذه الحجة كانت في السنة التي عاد فيها الحج إلى وقته وكانت سنة عشر.
قال الجمهور: فرض الحج كان سنة ست من الهجرة أي وصححه الرافعي في باب السير وتبعه النووي.

وقيل فرض سنة تسع. وقيل سنة عشر انتهى، وبه قال أبو حنيفة، ومن ثم قال إنه على الفور. وقيل فرض قبل الهجرة واستغرب.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الحج وأعلم الناس بذلك، ولم يحج منذ هاجر إلى المدينة غير هذه الحجة، قال: وأما بعد النبوة قبل الهجرة فحج ثلاث حجات، أي وقيل حجتين: أي وهما اللتان بايع فيهما الأنصار عند العقبة. وفي كلام ابن الأثير: كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر. وفي كلام ابن الجوزي: حج قبل النبوة وبعدها حجاً لا يعلم عددها، أي وكان قبل النبوة يقف بعرفات ويفيض منها إلى مزدلفة، مخالفاً لقريش توفيقاً له من الله، فإنهم كانوا لا يخرجون من الحرم، فإنهم قالوا: نحن بنو إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وأهل الحرم، وولاية البيت وعاكفو مكة فليس لأحد من العرب منزلتنا فلا تعظموا

شيئاً من الحل أي كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فليس لنا أن نخرج من الحرم نحن الحمس، فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منه إلى المزدلفة، ويرون ذلك لسائر العرب: قال بعض الصحابة: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي وإنه واقف على بعير له يعرفات مع الناس من بين قومه حتى يدفع معهم منها توفيقاً له من الله عز وجل.

وعند خروجه للحج أصاب الناس بالمدينة جُدري بضم الجيم وفتح الدال وبفتحهما أو حصية، منعت كثيراً من الناس من الحج معه، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى، قيل كانوا أربعين ألفاً، وقيل كانوا سبعين ألفاً، وقيل كانوا تسعين ألفاً، وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، وقيل وعشرين ألفاً، وقيل كانوا أكثر من ذلك. وقد قال: أي عند ذهابه: عمرة في رمضان تعدل حجة، أو قال حجة معي، أي قال ذلك تطيباً لخواطر من تخلف. وصوب بعضهم أن هذا إنما قاله بعد رجوعه () أي إلى المدينة، قاله لأم سنان الأنصارية لما قال لها: ما منعك أن تكوني حججت معنا؟ وقالت: لنا ناضحان حج أبو فلان: تعني زوجها وولدها على أحدهما، وكان الآخر نسقي عليه أرضاً لنا. وقال ذلك أيضاً لغيرها من النسوة، قاله لأم سليم ولأم طلق ولأم الهيثم. ولا مانع أن يكون قال ذلك مرتين: مرة عند ذهابه لما ذكر، ومرة عند رجوعه لمن ذكر.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وكان خروجه يوم الخميس لست بقين من ذي القعدة أي وقيل يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة ورجحه بعضهم وأطال في الاستدلال له وذلك سنة عشر نهاراً بعد أن ترجل وادهن، وبعد أن صلى الظهر بالمدينة، وصلى عصر ذلك اليوم بذي الحليفة ركعتين، وطاف تلك الليلة على نسائه، أي فإنهن كن معه في الهداج وكن تسعة، ثم اغتسل، ثم صلى الصبح أي والظهر، ثم طيبته عائشة رضي الله تعالى عنها بذريعة: هي نوع من الطيب مجموع من أخلاط الطيب ويطيب فيه مسك، ثم أحرم أي وذلك بعد أن () اغتسل لإحرامه غير غسله الأول، وتجرد في إزاره وردائه، أي فقد روى الشيخان أنه أحرم في رداءه وإزاره، ولم يغسل الطيب بل كان يرى ويبص المسك في مفارقه ولحيته الشريفة، أي فإنه لبد شعر رأسه بما يلزق بعضه ببعض فلا يشعث.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «طيبته لحرمه وحله» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم لإحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت، رواه الشيخان. وعن عائشة قالت: «كنت أطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يطوف على نسائه، ثم يصبح محرماً ينضح طيباً» وبه ردّ علي ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قوله: لأن أصبح مطيباً بقطران أحب إليّ من أن أصبح محرماً أنضح طيباً. وبؤيد ما قاله ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ما تقدم في الحديث: من أمره من تطيب قبل

إحرامه بغسل الطيب وتقدم ما فيه، أي وصلى كما في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ركعتين أي قبل أن يحرم، وبه يرد قول ابن القيم رحمه الله تعالى: لم ينقل عنه أنه صلى للإحرام ركعتين غير فرض الظهر () وأهل حيث انبعثت به راحلته أي وهي القصواء () أي وهو يرد ما روي عن ابن سعد رحمه الله تعالى، حج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة قد ربطوا أوساطهم، ومن ثم قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنه حديث منكر ضعيف الإسناد، وإنما كان راكباً وبعض أصحابه مشاة: ولم يعتمر في عمره ماشياً، وأحواله أشهر من أن تخفى على الناس، بل هذا الحديث منكر شاذ لا يثبت مثله وكان على راحلته رحل رث يساوي أربعة دراهم وفي رواية: «حج على رحل وقطيفة تساوي أو لا تساوي أربعة دراهم، وقال: اللهم اجعله حجا مبرورا لا رياء فيه ولا سمعة وذلك عند مسجد ذي الحليفة، وأحرم بالحج والعمرة معاً فكان قارناً.»

قال: وقيل أحرم بالحج فقط فكان مفرداً، وقيل بالعمرة فقط، أي ثم أحرم بالحج بعد فراغه من أعمال العمرة فكان متمتعاً، أخذاً من قول بعض الصحابة إنه أحرم متمتعاً، وقيل أطلق إحرامه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وفي كلام السهيلي رحمه الله: واختلفت الروايات في إحرامه، هل كان مفرداً، أو قارناً، أو متمتعاً وكلها صحاح إلا من قال كان متمتعاً وأراد أنه أهل بعمرة.

قال الإمام النووي: وطريق الجمع أي بين من يقول إنه أحرم قارناً، ومن يقول إنه أحرم مفرداً، ومن يقول إنه أحرم متمتعاً أنه أحرم أولاً مفرداً: أي بالحج ثم أدخل العمرة، أي وذلك: أي دخول الأضعف وهي العمرة على الأقوى الذي هو الحج من خصائصه فصار قارناً، ويدل لذلك حديث البخاري «أنه أهل بالحج، فلما كان بالعقيق أتاه آت من ربه فقال له: صل بهذا الوادي المبارك، وقل لييك بحجة وعمرة معاً فصار قارناً بعد أن كان مفرداً.»

فمن روى القرآن اعتمد آخر الأمر، أي ومنه سيدنا أنس رضي الله عنه: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لييك عمرة وحجاً.»

ومن روى التمتع أراد التمتع اللغوي، وهو الانتفاع والارتفاق بالقران انتهى: أي بالقران المذكور الذي هو إدخال العمرة على الحج، لأنه يكتفي فيه الاقتصار على عمل واحد في النسكين، أي فلا يأتي بطوافين ولا بسعينين، أي وليس مراده التمتع الحقيقي، بأن أحرم بعمرة فقط، ثم بعد فراغه من أعمالها أحرم بالحج كما هو حقيقة التمتع. ومن ثم قال بعضهم: أكثر السلف يطلقون التمتع على القران.

ومن روى الأفراد اعتمد أول الأمر، ومنه قول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، وقد سئل عن ذلك «لبي بالحج وحده» أو أن ابن عمر سمعه يقول: لييك بحج ولم يسمع قوله وعمرة فلم يحك إلا ما سمع، وأنس رضي الله عنه سمع ذلك: أي سمع الحج والعمرة، أي فإن ابن عمر رضي الله عنه قيل له عن أنس بن

مالك «أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يلبي بالحج والعمرة فقال ابن عمر لبي بالحج وحده، فقيل لأنس عن ابن عمر ذلك، فقال أنس رضي الله عنه: ما يعدونا إلا صبياناً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لبيك لبيك عمرة وحجاً» أي يصرح بهما جميعاً وقال: «إني لرديف لأبي طلحة وإن ركبتني لتمس ركبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبي بالحج والعمرة، وذلك مثبت لما قاله ابن عمر وزائد عليه فليس مناقضاً له. أي ودليل من قال إنه أحرم مطلقاً ما رواه إمامنا الشافعي رضي الله عنه أنه: «خرج هو وأصحابه رضي الله عنهم مهلين: أي محرمين إحراماً مطلقاً ينتظرون القضاء» أي نزول الوحي لتعيين ما يصرفون إحرامهم المطلق إليه أي بإفراد أو تمتع أو قران» أي فجاءه الوحي أن يأمر من لا هدي معه أن يجعل إحرامه عمرة فيكون متمتعاً، ومن معه هدي أن يجعله حجاً فيكون مفرداً، لأن من معه هدي أفضل ممن لا هدي معه، والحج أفضل من العمرة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وبدل لكون الصحابة أطلقوا إحرامهم ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: «خرجنا نلبي لا نذكر حجاً ولا عمرة» لكن أجيب عن ذلك بأنهم لا يذكرون ذلك مع التلبية وإن كانوا سموه حال الإحرام هذا. وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أراد منكم أن يهلَّ بحج وعمرة فليفعل، ومن أراد أن يهلَّ بعمرة فليفعل» فليُنظر الجمع بين هذا وما قبله.

وجاء أنه قال لهم: «من لم يكن معه هدي وأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هدي فلا» أي فلا يجعلها عمرة بل يجعل إحرامه حجاً، ولم يذكر القرآن. وجاء في بعض الطرق: «أنه أمر من كان معه هدي أن يحرم بالحج والعمرة معاً». وفي بعض الروايات: «خرج من المدينة لا يسمى حجاً ولا عمرة ينتظر القضاء، فنزل عليه القضاء وهو بين الصفا والمروة، فأمر أصحابه من كان منهم أهلاً بالحج ولم يكن معه هدي أن يجعله عمرة». وفي الهدى: الصواب أنه أحرم بالحج والعمرة معاً من حين أنشأ الإحرام، فهو قارن، ولم يحل حتى حل منهما جميعاً وطاف لهما طوافاً واحداً وسعياً واحداً كما دلت عليه النصوص المستفيضة التي تواترت تواتراً يعلمه أهل الحديث. وما ورد أنه طاف طوافين وسعى سعيين لم يصح. قال: وغلط من قال لبي بالحج وحده ثم أدخل عليه العمرة: أي الذي تقدم في الجمع بين الروايات عن النووي رحمه الله تعالى. ومن قال لبي بالعمرة ثم أدخل عليها الحج: أي وهذا لم يتقدم. ومن قال أحرم إحراماً مطلقاً لم يعين فيه نسكاً ثم عينه بعد إحرامه أي وهو ما تقدم عن إمامنا الشافعي رضي الله عنه. ومن قال أفرد الحج، أراد به أنه أتى بأعمال الحج ولم يفرد للعمرة أعمالاً، وهذا محتمل ما في بعض الروايات، وأفرد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ولم يعتمر. على أن بعض الحفاظ قال: إنه حديث غريب جداً، وفيه نكارة شديدة.

ثم لبي أي بعد أن استقبل القبلة () فقال: لبيك اللهم لبيك، ® لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وروي أنه زاد على ذلك لبيك إله الخلق لبيك: أي وروي أنه زاد: لبيك حقاً، تعيداً ورقاً على تلييته المذكورة والناس معه يزيدون فيها وينقصون لم ينكر عليهم، وبه استدل أئمتنا على عدم كراهة الزيادة على تلييته المشهورة المتقدمة () فكان ابن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها: لبيك، لبيك وسعديك، والخير في يدك، لبيك والرغباء إليك والعمل.

وأناه جبريل عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية من شعائر الحج، فعن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال: مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية فإنها من شعائر الحج». رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

واستعمل على المدينة أبا دجانة رضي الله عنه، وقيل سباع بن عرفطة رضي الله عنه () وولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ولدها محمد بن أبي بكر رضي الله عنهما في ذي الحليفة، وأرسلت إليه فأمرها أن تغتسل وتستنفر، أي بخرق عريضة بعد أن تحشو بنحو قطن، وتربط طرفي تلك الخرق في شيء تشده في وسطها لتمنع بذلك سيلان الدم كما تفعل الحائض وتحرم.

ثم حاضت سيدتنا عائشة رضي الله عنها في أثناء الطريق بمحل يقال له سرف بكسر الراء، وكانت قد أحرمت بعمره، ففي البخاري: «أنها قالت: وكنت فيمن أهل بعمره فأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تغتسل وتدخل الحج على العمرة». أقول: وقد جاء: «أنها قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك يا عائشة؟» وفي لفظ «ما يبكيك يا هنتاه؟ لعلك نفسيت: أي حضت، قلت: نعم: والله لوددت أنني لم أخرج معكم عامي هذا في هذا السفر، قال: لا تقولي ذلك، فهذا شيء كتبه الله على بنات آدم».

أي استدل البخاري رحمه الله بهذا على أن الحيض كان في جميع بنات آدم، وأنكر به علي من قال إن الحيض أول ما وقع في بني إسرائيل، وفي لفظ: «قال: ما شأنك؟ قلت: لا أصلي، قال: لا صبر عليك، إنما أنت امرأة من بنات آدم، كتب الله عليك ما كتب عليهن، أهلي بالحج» وفي رواية: «ارفضي عمرتك»، أي لا تشرعي في شيء من أعمالها/ «وأجرمي بالحج فإنك تقضين كل ما يقضي الحاج» أي تفعلين كل ما يفعل الحاج وأنت حائض «إلا أنك لا تطوفين بالبيت، ففعلت ذلك؟ أي أدخلت الحج على العمرة، ووقفت المواقف» فوقفت بعرفة وهي حائض حتى إذا طهرت: أي وذلك يوم النحر، وقيل عشية عرفة طافت بالبيت وبالصفا والمروة «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد حلت من حجك وعمرتك جميعاً». وذكر بعضهم أن في هذه الحجة كان جمل عائشة رضي الله عنها سريع المشي مع خفة حمل عائشة، وكان جمل صافية بطيء المشي مع ثقل حملها، فصار يتأخر الركب بسبب ذلك فأمر أن يجعل حمل صافية على جمل عائشة، وأن

يجعل حمل عائشة على حمل صافية، فجاء لعائشة رضي الله عنها يستعطف خاطرها، فقال لها: يا أم عبد الله، حملك خفيف وحملك سريع المشي، وحمل صافية ثقيل وجملها بطيء، فأبطأ ذلك بالركب، فنقلنا حملك على جملها، وجملها على حملك ليسير الركب، فقالت له: إنك تزعم أنك رسول الله، فقال: أفي شك أني رسول الله أنت يا أم عبد الله؟ قالت فما لك لا تعدل؟ قال: فكان أبو بكر رضي الله عنه فيه حدة، فلطمني على وجهي، فلامه رسول الله، فقال: أما سمعت ما قالت؟ فقال: دعها فإن المرأة الغيرة لا تعرف أعلى الوادي من أسفله.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

قالوا: ولما نزلوا بمحل يقال له العرج فقد البعير الذي عليه زاملته وزامله أبي بكر، أي زادهما، وكان ذلك البعير مع غلام لأبي بكر. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه للغلام: أين بعيرك؟ قال: ضلته البارحة. فقال أبو بكر وقد اعترته حدة: بعير واحد تضله، وأخذ يضربه بالسوط ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع ويتبسم لا يزيد على ذلك، فلما بلغ بعض الصحابة أن زاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ضلت جاء بحيس ووضع بين يديه، فقال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه وهو يغتاط على الغلام: هون عليك يا أبا بكر، فإن الأمر ليس لك ولا إلينا. وقد كان الغلام حريصاً على أن لا يضل بعيره، وهذا غذاء طيب قد جاء الله به، وهو خلف عما كان معه، فأكل وأبو بكر ومن كان يأكل معهما حتى شبعوا، فأقبل صفوان بن المعطل رضي الله تعالى عنه وكان على ساقه القوم، أي لأن هذا كان شأنه كما تقدم في قصة الإفك والبعير معه وعليه الزاملة حتى أناخه على باب منزله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر: انظر هل تفقد شيئاً من متاعك؟ فقال: ما فقدت شيئاً إلا قعباً كنا نشرب فيه، فقال الغلام: هذا القعب معي. ولما بلغ سعد بن عبادَةَ وابنه قيساً رضي الله تعالى عنهما أن زاملته قد ضلت جاء بزاملة وقالوا: أي كل واحد منهما: يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة، وهذه زاملة مكانها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء الله بزاملتنا. فارجعا بزاملتكما. بارك الله لكما اهـ ثم نزل بذي طوى فبات بها تلك الليلة وصلى بها الصبح أي بعد أن اغتسل بها. أي ثم سار ونزل بالمسلمين ظاهر مكة ودخل مكة نهراً: أي وقت الضحى من الثانية العليا التي هي ثنية كداء بفتح الكاف والمد. قال أبو عبيدة: لا ينصرف، وهي التي ينزل منها إلى المعلاة مقبرة مكة، وهي التي يقال لها الآن الحجون التي دخل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كما تقدم، ودخل

المسجد الحرام صباحاً من باب عبد مناف، وهو باب بني شيبه المعروف الآن بباب السلام. وكان إذا أبصر البيت. قال: اللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً، وزد من شرفه وكرمه ممن حجه أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً.
وفي مسند إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه: أخبرنا سعيد بن سالم عن

جريح عن النبي : «كان إذا رأى البيت رفع يديه وقال: اللهم زد هذا البيت» الخ. وفي رواية: «كان إذا دخل مكة فرأى البيت رفع يديه وكبر وقال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام. اللهم زد هذا البيت» الخ.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وعند دخوله المسجد طاف بالبيت: أي سبعاً ماشياً، فعن جابر بن عبد الله رضي تعالى عنهما قال: «دخلنا مكة عند ارتفاع الشمس، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم باب المسجد فأناخ راحلته، ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر الأسود فاستلمه، وفاضت عيناه باليكاء، ثم رمل ثلاثاً ومشى أربعاً، فلما فرغ قبل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه» رواه البيهقي في السنن الكبرى بإسناد جيد.

وقيل طاف على راحلته الجداء، أي لأنه قدم مكة وهو يشتهي، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم مكة وهو يشتهي فطاف على راحلته، فلما أتى الركن استلمه بمحجن، فلما فرغ من طوافه أناخ فصلى ركعتين» رواه أبو داود، ورد بأن هذا الحديث تفرد به يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف.

على أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يذكر أن ذلك كان في حجة الوداع ولا في الطواف الأول من طوافاتها الثلاثة التي هي: طواف القدوم، وطواف الإفاضة، وطواف الوداع، فينبغي أن يكون ذلك في غير الطواف الأول، بأن يكون في طواف الإفاضة أو طواف الوداع، فلا ينافي ما تقدم عن جابر ولا ما في مسلم عنه أنه قال: «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على راحلته بالبيت ليراه الناس فيسألوه» وقوله: «ورمل في ثلاث منها» أي يسرع المشي مع تقارب الخطأ، ومشى: أي على هيئته في أربع يستلم الركن اليماني والحجر الأسود في كل طوفة، وابتداء الرمل كان في عمره القضاء لما قال المشركون: غداً يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ليرى المشركون جلدتهم» ومن ثم قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا كما تقدم، فلما كانت هذه الحجة فعلوا كذلك فصارت سنة.

قال: وثبت أنه قبل الحجر الأسود وثبت أنه استلمه بيده ثم قبلها. وثبت أنه استلمه بمحجنه فقبل المحجن، ولم يثبت أنه قبل الركن اليماني ولا قبل يده حين استلمه اهـ.

وعند إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه يستحب أن يقبل ما استلمه به. روى إمامنا الشافعي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: «استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه طويلاً، وكان إذا استلم الحجر قال: بسم الله والله أكبر، وقال بينهما: أي بين الركن اليماني والحجر {ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار} ولم يثبت عنه شيء من الأذكار في غير هذا المحل حول الكعبة، ولم يستلم

الركنين المقابلين للحجر، أي لأنهما ليسا على قواعد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وقال لعمر رضي الله تعالى عنه: «إنك رجل قوي لا تزاحم على الحجر» أي الأسود تؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وهلل وكبر» () وأخذ منه بعض فقهاءنا أن من شق عليه استلام الحجر الأسود يسن له أن يهلل ويكبر.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

ثم بعد الطواف ركعتين عند مقام سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، جعل المقام بينه وبين الكعبة: أي استقبال جهة باب المحل الذي به المقام الآن، وهو المراد بخلف المقام، قرأ فيهما مع أم القرآن {قل يا أيها الكافرون}؛ و {قل هو الله أحد} ودخل زمزم، فنزع له دلو فشرب منه، ثم مج فيه، ثم أفرغها في زمزم، ثم قال: لولا أن الناس يتخذونه نسكاً لنزعت. أي وتقدم في فتح مكة أنه قال: «لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لانتزعت منها دلوًا، وانتزع له العباس. ثم رجع إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا، وقرأ: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} ابدؤوا بما بدأ الله به، فسعى بين الصفا والمروة سبعاً ركباً على بعيره».

وعن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه، أن سعيه الذي طاف لقدمه كان على قدميه لا على بعير، أي فذكر البعير في هذا السعي غلط من بعض الرواة.

ثم رأيت بعضهم قال: بعض الروايات عن جابر وغيره يدل على أنه كان ماشياً بين الصفا والمروة. ولعل بين الصفا والمروة مدرجة، أو أنه سعى بين الصفا والمروة بعض المرات على قدميه، فلما ازدحم الناس عليه ركب في الباقي. ويدل لذلك أنه قيل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن قومك يزعمون السعي بين الصفا والمروة ركباً سنة، فقال: صدقوا وكذبوا، فقل: كيف صدقوا وكذبوا؟ فقال: صدقوا في أن السعي سنة، وكذبوا في أن الركوب سنة، فإن السنة المشي، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى في السعي، فلما كثر عليه الناس يقولون هذا محمد هذا محمد حتى خرج العواتق من البيوت، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يضرب الناس بين يديه، فلما كثر عليه الناس ركب، وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث الدالة على أنه مشى بين الصفا والمروة، والأحاديث الدالة على أنه ركب فيه وصار في السعي يخب ثلاثاً ويمشي أربعاً، ويرقى الصفا، ويستقبل الكعبة، ويوحده الله ويكبره ويقول: لا إله إلا الله والله أكبر، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، أي من غير قتال «ثم يفعل على المروة مثل ذلك».

واعترض بأن كونه كان يخب ثلاثاً ويمشي أربعاً كان في الطواف بالبيت لا في السعي بين الصفا والمروة، وهذا السياق يقتضي أنه سعى بعد طواف القدوم. وقد جاء أنه حج، فأول شيء بدأ به حين قدم مكة «أنه توضع ثلاثاً ثم طاف بالبيت ولم يذكر السعي» أي وفي مسلم في سبب نزول قوله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} أن المهاجرين في الجاهلية كانوا يهلون بصنمين على شط البحر يقال لهما إساف ونائلة، ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة، ثم يخلقون، فلما جاءهم الإسلام كرهوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة، يرون أن ذلك من أمر الجاهلية، فأنزل الله تعالى: {إن الصفا

والمروة من شعائر الله}.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وقيل إن سبب نزولها «أن الأنصار كانوا في الجاهلية يهلون لمناة، وكان من أحرم بمناة لا يطوف بين الصفا والمروة، وأنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك حين أسلموا، فأنزل الله تعالى: {إن الصفا والمروة من شعائر الله} الآية، ثم أمر من لا هدي معه بالإحلال، أي وإن لم يكن أحرم بالعمرة بأن لم يكن سمع أمره بأن من لا هدي معه يحرم بالعمرة، فأحرم بالحج قارناً أو مفرداً، قال السهيلي رحمه الله: ولم يكن ساق الهدى معه من أصحابه رضي الله تعالى عنهم إلا طلحة بن عبد الله، وكذا علي كرم الله وجهه جاء من اليمن وقد ساق الهدى معه، وبأتي ما فيه. أي وأمره من ذكر بالإحلال كان بعد الحلق والتقصير، لأنه أتى بعمل العمرة فحل له كل ما حرم على المحرم من وطء النساء والطيب والمخيط، وأن يبقى كذلك إلى يوم التروية الذي هو اليوم الثامن من ذي الحجة فيهل: أي يحرم بالحج. وقيل له يوم التروية لأنهم كانوا يتروون فيه الماء ويحملونه معهم في ذهابهم من مكة إلى عرفات لعدم وجدان الماء بها ذلك الزمن. وأمر من معه الهدى أن يبقى على إحرامه أي بالحج قارناً أو مفرداً، حتى قال بعضهم: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدى. قال: ويروى أن قائل ذلك هو، فعن جابر ابن عبد الله رضي الله تعالى عنهما أنه لما تم سعيه قال: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة» قال ذلك جواباً لقول بلغه عن جمع من الصحابة، ننطلق إلى منى وذكر أحدنا يقطر. وفي لفظ: وفرجه يقطر منياً، أي قد جامع النساء. أي وفيه أنهم لا ينطلقون إلى منى إلا بعد الإحرام بالحج، لأنهم يحرمون من مكة إلا أن يقال مرادهم أنا كيف نجتمع النساء بعد إحرامنا بالحج وكيف نجعلها عمرة بعد الإحرام بالحج كما سيأتي في بعض الروايات.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غضبان، فقلت: من أغضبك يا رسول الله أدخله الله النار، فقال: أو ما شعرت أنني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟». وقوله: «لو استقبلت الخ» تأسف على فوات أمر من أمور الدين ومصالح الشرع، كذا قال الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه، لأنه يرى أن التمتع أفضل. وردّ بأنه لم يتأسف على التمتع لكونه أفضل، وإنما تأسف عليه لكونه أشق على أصحابه في بقائه محرماً على إحرامه وأمره لهم بالإحلال. وقوله في الحديث الصحيح: «لو تفتح عمل الشيطان» محمول على التأسف على فوات حظ من حظوظ الدنيا فلا تخالف.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

ويروى «أنه لما بلغه تلك المقالة قام خطيباً فحمد الله تعالى، فقال: أما بعد، فتعلمون أيها الناس وأنا والله أعلمكم بالله وأتفاكم له، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت هدياً ولا حللت» وفي رواية: «قالوا: كيف نجعلها عمرة

وقد سمي الحج؟ فقال : اقبلوا ما أمرتكم به، واجعلوا إهلالكم بالحج عمرة، فلولا أنني سقت الهدى لفعلت مثل الذي أمرتكم به، ففعلوا وأهلوا، ففسخوا الحج إلى العمرة» وكان من جملة من ساق الهدى أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وعلي رضي الله تعالى عنهم، فإن علياً كرم الله وجهه قدم إلى مكة من اليمن ومعه هدي. وعن جابر رضي الله تعالى عنه: «لم يكن أحد معه هدي غير النبي صلى الله عليه وسلم وطلحة» وفي رواية: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي كرم الله وجهه: انطلق وطف بالبيت وجل كما أحل أصحابك، فقال: يا رسول الله أهلت كما أهلت، فقال له: ارجع فأحل كما أحل أصحابك، قال: يا رسول الله إني قلت حين أحرمت: اللهم إن أهل بما أهل به نبيك وعبدك ورسولك محمد، فقال: هل معك من هدي؟ قال لا، فأشركه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه وثبت على إحرامه، وهذا صريح في أن إحرامه كان بالحج.

ويمكن الجمع بين رواية أن علياً قدم من اليمن ومعه هدي، وبين رواية أنه لم يكن معه هدي بأن الهدى تأخر مجيئه بعده، لأنه تعجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف على الجيش رجلاً من أصحابه. ويؤيد ذلك قول بعضهم: كان الهدى الذي قدم به علي كرم الله وجهه من اليمن والذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مائة، أي وإلا فالذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وستون بدنة، والذي قدم به من اليمن لعلي كان سبعة وثلاثين بدنة، ولا يخالف ذلك إشراكه له في الهدى لأنه يجوز أن يكون فعل ذلك لاحتمال تلف ذلك الهدى وعدم مجيئه، والذي في البخاري لما قدم علي كرم الله وجهه من اليمن قال له النبي صلى الله عليه وسلم: بم أهلت يا علي؟ قال: بما أهل به النبي. قال: فأهدوا مكث حراماً كما أنت، أي فإنه تقدم أنه كان أرسل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه إلى اليمن لهدمان يدعوهم إلى الإسلام. قال البراء رضي الله تعالى عنه: فكنت ممن خرج مع خالد، فأقمنا ستة أشهر ندعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوا، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فأمره أن يقفل خالد بن الوليد ويكون مكانه، وقال: مر أصحاب خالد، من شاء منهم أن يعقب معك فليعقب، ومن شاء فليقفل، فكنت ممن أعقب مع علي كرم الله وجهه، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا، وصلى بنا علي كرم الله وجهه، ثم صفنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان السلام على همدان.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وكان من جملة من لم يسق الهدى أبو موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه: «فإنه لما قدم من اليمن قال له: بم أهلت؟ قال: أهلت كإهلال النبي، قال

له: هل معك من هدي؟ قال: قلت لا، فأمرني فطفت بالبيت والصفاء والمروة» ورواية الشيخين عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه: «أنه قال: له بم أهلت؟ فقلت: لبيت بإهلال كإهلال النبي صلى الله عليه وسلم قال: فقد أحسنت، طف بالبيت وبالصفاء والمروة وأحل» أي بعد الحلق أو التقصير. وفيه أنه كان مهلاً بالحج فقط أو مع العمرة، إلا أن يقال جوز لأبي موسى الفسخ من الحج إلى العمرة كما فعل ذلك مع غيره من الصحابة الذين أحرموا بالحج ولا هدي معهم. ومن جملة من لم يسق الهدى أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن فأحلن، أي لأنهن أحرمن إحرماً مطلقاً ثم صرفنه للعمرة، أو أحرمن متمتعاً أي بالعمرة، إلا عائشة رضي الله تعالى عنها فإنها لم تحل أي لأنها أدخلت الحج على العمرة كما تقدم.

وممن أحلت سيدتنا فاطمة بنت النبي، أي لأنها لم يكن معها هدي وأسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما، وشكا عليّ كرم الله وجهه فاطمة رضي الله تعالى عنها للنبي إذ أحلت، أي فإنه وجدها لبست صبيغاً واكتحلت، فأنكر عليها، فقالت رضي الله تعالى عنها: أمرني أبي بذلك، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم محرشاً له عليها رضي الله تعالى عنها، فصدقها عليه الصلاة والسلام في أنه أمرها بذلك، أي فإنه قال له: صدقت صدقت صدقت، أنا أمرتها بذلك يا علي.

وسأله سراقه بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال: يا رسول الله متعتنا هذه لعامنا هذا أم للأبد: فشبك أصابعه فقال: بل لأبد الأبد «دخلت العمرة في الحج هكذا إلى يوم القيامة» أي وفي رواية: «فشبك بين أصابعه واحدة في أخرى وقال: دخلت العمرة في الحج هكذا مرتين بل لأبد الأبد» بالإضافة أي إلى آخر الدهر، وهذا الجواب بقوله دخلت العمرة في الحج يدل على أن المراد السائل بالتمتع القران لا حقيقته الذي هو الإحرام بالحج بعد الفراغ من عمل العمرة، لكن قول بعضهم: لما كان آخر سعيه على المروة قال: «لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقه فقال: يا رسول الله ألعامنا هذا أم للأبد» الحديث، يدل على أن مراده بالتمتع حقيقته، لكن لا يحسن الجواب بقوله دخلت العمرة في الحج، إلا أن يقال المراد حصلت العمرة مع الإحرام بالحج لقلب الإحرام بالحج إلى العمرة لأن هذا كله يدل على أنه أمر من أحرم بالحج ممن لا هدي معه أن يقلب إحرامه عمرة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وأجاب عنه أئمتنا بأن ذلك: أي فسخ الحج إلى العمرة كان من خصائص الصحابة في تلك السنة ليخالفوا ما كان عليه الجاهلية: من تحريم العمرة في أشهر الحج ويقولون إنّه من أفجر الفجور، وبهذا قال أبو حنيفة ومالك وإمامنا الشافعي وجماهير العلماء من السلف والخلف رضي الله عنهم.

وفي مسلم عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه: «لم يكن فسخ الحج إلى العمرة إلا لأصحاب محمد» وخالف الإمام أحمد رضي الله عنه وطائفة من أهل الظاهر فقالوا: بل هذا ليس خاصاً بالصحابة في تلك السنة، أي بل باق لكل أحد يوم القيامة فيجوز لكل من أحرم بالحج وليس معه هدي أن يقلب إحرامه عمرة ويتحلل بأعمالها.

وبعضهم قال: إن قول سراقه رضي الله تعالى عنه معناه أن جواز العمرة في أشهر الحج خاصة بهذه السنة أو جائزة إلى يوم القيامة، وفيه أنه لا يحسن الجواب عنه بما تقدم من قوله: «دخلت العمرة في الحج». ثم نهض ونهض معه الناس يوم التروية الذي هو اليوم الثامن إلى منى وأحرم بالحج كل من كان أحل، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر بمنى، والعصر والمغرب والعشاء، وبات بها تلك الليلة أي وكانت ليلة الجمعة وصلى بها الصبح ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة. وأمر أن تضرب له قبة من شعر بنمرة، فأتى عليه الصلاة والسلام عرفة ونزل في تلك القبة حتى إذا زالت الشمس أمر بناقته القصواء بفتح القاف والمد، وقيل بضم القاف والقصر، وهو خطأ كما تقدم.

وفي كلام الأصل أن القصواء والعصباء والجدعاء اسم لناقة واحدة وفيه ما لا يخفى. فرحلت ثم أتى بطن الوادي فخطب على راحلته خطبة ذكر فيها تحريم الدماء والأموال والأغراض، ووضع ربا الجاهلية، وأول ربا وضعه ربا عمه العباس رضي الله تعالى عنه. ووضع الدماء في الجاهلية، وأول دم وضعه دم ابن عمه ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب قتلته هذيل فقال: هو أول دم أبدأ به من دماء الجاهلية، موضوع فلا يطالب به في الإسلام وأوصى بالنساء خيراً، وأباح ضربهن غير المبرح إن أتين بما لا يحل. وقضى لهن بالرزق والكسوة بالمعروف على أزواجهن. وأمر بالاعتصام بكتاب الله عز وجل، أي وسنة رسول، وأخبر إنه لا يضل من اعتصم به، وأشهد الله عز وجل على الناس أنه قد بلغهم ما يلزمهم، فاعترف الناس بذلك. وأمر أن يبلغ ذلك الشاهد والغائب.

ومن ذلك قوله: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب. فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنكم لتسألون عني فما أنتم قائلون؟ فالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس، اللهم فاشهد ثلاث مرات».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وجاء أنه أمر منادياً صار ينادي بكل ما قاله من ذلك: أي وهو ربيعة بن أمية بن خلف أخو صفوان بن أمية وكان صيّتاً. وصار يقول له: يا ربيعة قل: يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا كما تقدم، فيصرخ به وهو واقف تحت صدر ناقتة.

وربيعة هذا ارتد في زمن عمر رضي الله تعالى عنه، فإنه شرب الخمر، فهرب منه إلى الشام، ثم هرب إلى قيصر فتنصر ومات عنده.

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أنه طاف ليلة هو وعمر رضي الله تعالى عنهما للحرس بالمدينة فقرأوا نوراً في بيت، فانطلقوا يؤمونه، فإذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر رضي الله تعالى عنه لعبد الرحمن: تدري بيت من هذا؟ قال: لا، قال: هذا بيت ربيعة بن أمية،

وهم الآن شرب، فما ترى؟ قال: أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه {ولا تجسسوا} فانصرف عمر. ثم إن عمر رضي الله تعالى عنه غرب ربيعة إلى خيبر فكان ما تقدم. وقد رأى ربيعة قبل ذلك في المنام كأنه في أرض معشبة مخصبة وخرج منها إلى أرض مجدبة كالحة. ورأى أبا بكر رضي الله تعالى عنه في جامعة من حديد عند سرير إلى الحشر، فقص ذلك على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فقال إن صدقت رؤياك تخرج من الإيمان إلى الكفر، وأما أنا فإن ذلك ديني جمع لي في أشد الناس إلى يوم الحشر.

وبعثت إليه أم الفضل زوجة العباس أم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم لبنا في قدح شربه أمام الناس، فعلموا أنه: لم يكن صائماً ذلك اليوم الذي هو التاسع، أي لأنهم تماروا عندها في صيامه ذلك اليوم الذي هو يوم عرفة.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله: «أنه نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة» أي وبهذا استدل أئمتنا أنه لا يستحب للحاج يصوم يوم عرفة الذي هو التاسع من ذي الحجة.

فلما تم خطبته أمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً فصلاهما مجموعتين في وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين: أي لأنه لم يقم بمكة إقامة تقطع السفر لأنه دخلها في اليوم الرابع وخرج يوم الثامن، فقد صلى بها إحدى وعشرين صلاة من أول ظهر يوم الرابع إلى عصر الثامن يقصر تلك الصلوات، فالجمع للسفر كما يقول إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه كالجمهور لا للنسك كما يقول غيرهم.

أقول: وفيه أن فقهاءنا ذكروا أنه لم يصل الجمعة في حجة الوداع مع عزمه على الإقامة أياماً: أي تقطع السفر لعدم استيطانه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

ويردّ بأنه من أين أنه عزم على الإقامة بمكة المدة التي تقطع السفر هذه دعوى تحتاج إلى دليل. وأيضاً عزمه على ذلك إنما هو بعد عودته إلى مكة بعد فراغه من الوقوف والرمي، ولا ينقطع سفره إلا بوصوله إلى مكة.

والأولى استدلال فقهاءنا على وجوب الاستيطان في إقامة الجمعة بعد أمره لأهل مكة بإقامة الجمعة مع أنهم غير مسافرين لعدم استيطانهم للمحل. فما ذهب إليه إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه من أن الجمع للسفر لا للنسك في محله.

وقد رأيت أن مالكا رضي الله تعالى عنه سأل أبا يوسف وقد كان حج مع هارون الرشيد وذلك بحضرة الرشيد، فقال له: ما تقول في صلاة النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات يوم الجمعة، أصلى الجمعة أم صلى ظهراً مقصورة؟ فقال أبو يوسف: صلى الجمعة، لأنه خطب لها قبل الصلاة، فقال مالك: أخطأت، لأنه لو وقف يوم السبت لخطب قبل الصلاة، فقال أبو يوسف: ما الذي صلى؟ فقال مالك: صلى الظهر مقصورة، لأنه أسرّ بالقراءة فصوبه هارون في احتجاجه على أبي يوسف، والله أعلم.

ثم ركب راحلته إلى أن أتى الموقف، فاستقبل القبلة، ولم يزل واقفاً للدعاء من الزوال إلى الغروب. وفي الحديث: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي، أي في يوم عرفة» كما في بعض الروايات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». وجاء أن من جملة دعائه في ذلك اليوم: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن وسوسة الشيطان، ومن وسوسة الصدر، ومن شتات الأمر، ومن شر كل ذي شر».

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «كان فيما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريع، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلل لك جسده، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً. يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين» واستمر كذلك حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة.

أي وخطب على ناقته في ذلك اليوم. فعن شهر بن حوشب عن عمرو بن خارجة رضي الله تعالى عنهم قال: «بعثني عتاب بن أسيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف بعرفة قبلته ثم وقفت تحت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لعابها ليقع على رأسي، فسمعتة يقول: أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه. وإنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراس، وللعاهر الحجر. ومن دعي إلى غير أبيه أو مولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله له صرفاً ولا عدلاً، وجاءه جماعة من نجد فسألوه كيف الحج؟ فأمر منادياً ينادي: الحج عرفة. من جاء ليلة جمع، أي المزدلفة قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج» وجمع بفتح الجيم وسكون الميم أيام منى ثلاثة {فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه}، أي وقال «وقفت ههنا وعرفة كلها موقف» زاد مالك في الموطأ «وارفعوا عن بطن عرفة».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وفي كلام بعضهم نزلت: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} يوم الجمعة بعد العصر والنبى صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العضباء، فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحي.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: اتفق في ذلك اليوم أربعة أعياد: عيد للمسلمين وهو يوم الجمعة. وعيد لليهود. وعيد للنصارى. وعيد للمجوس، ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم قبله ولا بعده.

ولما نزلت بكى عمر رضي الله تعالى عنه، فقال له النبي: «ما يبكيك يا عمر؟ فقال رضي الله تعالى عنه: أبكاني أنا كنا في زيادة، أما إذا كمل فإنه لا يكمل شيء إلا نقص، فقال: صدقت». فكانت هذه الآية نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يعش بعدها إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، ولم ينزل بعدها شيء من الأحكام.

ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنه خلفه ودفن إلى مزدلفة وقد ضم زمام راحلته القصواء التي خطب عليها في نمرة حتى إن رأسها ليصيب طرف رجله، يسير العنق، حتى إذا وجد فسحة سار النص وهو فوق العنق، وهو يأمر الناس بالسكينة في السير، فلما كان في الطريق عند الشعب الأبر نزل فيه فبال وتوضأ وضوءاً خفيفاً، ثم ركب حتى أتى المزدلفة التي هي جمع، أي وتقدم أن وقوفه بعرفات وإفاضته إلى مزدلفة قبل أن يبعث كان مخالفاً في ذلك لقوله: «وصلى المغرب والعشاء مجموعتين في وقت العشاء» أي مقصورتين بأذن واحد وإقامتين، ثم اضطجع وأذن للنساء والضعفة: أي الصبيان أن يرموا ليلاً، أي أن يذهبوا من مزدلفة إلى منى بعد نصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة قبل الزحمة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصيهم أن لا يرموا جمرة العقبة حتى تطلع الشمس» فليتأمل ذلك. فعن عائشة رضي الله عنها «أن سودة رضي الله عنها: أفاضت في النصف الأخير من مزدلفة بإذن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأمرها بالدم ولا النفر الذين كانوا معها» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أنا ممن قدم النبي صلى الله عليه وسلم في ضعفه أهله وروى ذلك الشيخان. ولم يأذن للرجال في ذلك إلا لضعفائهم ولا لغير ضعفائهم، أي فالمراد بالضعفة الصبيان كما تقدم، وبهذا استدل أئمتنا على أنه يستحب تقديم النساء والضعفة بعد نصف الليل إلى منى أي وأن يبقى غيرهم حتى يصلوا الصبح مغسلين. وفي البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنه: «أنها قالت: فلأن أكون استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما استأذنت سودة أحب إلي من مفروح به، أي لأرمي الجمرة قبل أن يأتي الناس» وفي لفظ: «قبل حطمة الناس» لأن سودة رضي الله عنها كانت امرأة ضخمة ثقيلة، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تفيض من مزدلفة مع النساء والضعفة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وفي مسلم: «مضت أم حبيبة من جمع ليل» أي في نصف الليل. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال «أرسلني مع ضعفه أهله، فصلينا الصبح بمنى ورمينا الجمرة، فلما كان وقت الفجر قام وصلى بالناس أي بالمزدلفة الصبح مغسلاً ثم أتى المشعر الحرام فوقف به: أي وهو راكب ناقته، واستقبل القبلة، ودعا الله، وكبر، وهلل ووحده، ولم يزل واقفاً حتى أسفر جداً» وجاء: «أنه دعا بالمغفرة لأتمه يوم عرفة، فأجيب بأنه يغفر لها ما عدا المظالم، ثم دعا بذلك أي بالمغفرة لأتمه بمزدلفة، فأجيب إلى ذلك: أي إلى غفران المظالم، فجعل إبليس لعنه الله يحثو. التراب على رأسه، فضحك من فعله» وجاء ما بين أن المراد بالأمه من وقف بعرفة.

ثم إنه دفع: أي من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس: أي قال جابر رضي الله تعالى عنه: وكان المشركون لا ينفرون حتى تطلع الشمس، وأردف خلفه الفضل بن العباس. وجاءته امرأة تسأله، فقالت له: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الرحلة

أفأج عنه؟ قال: نعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فجعل يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر. وفي لفظ آخر: «فوضع يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر» وفي لفظ آخر: «أنه لوى عنق الفضل، فقال له أبوه العباس رضي الله عنهما: يا رسول الله لويت عنق ابن عمك؟ قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما الشيطان، فلما وصل إلى محسر حرّك ناقته قليلاً وسلك الطريق التي تسلك على جمرة العقبة، فرمى بها أسفلها سبع حصيات، التقطها له عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من موقفه الذي رمى فيه مثل حصى الخذف» يفتح الخاء المعجمة وإسكان الذال المعجمة، وهذا لا يخالف ما عليه أئمتنا من أن الأولى أن يلتقط حصى الرمي من مزدلفة.

ويكره أخذه من المرمى لجواز أن يكون التقط له ذلك من مزدلفة ثم سقط منه عند جمرة العقبة، فأمر ابن عباس بالتقاطه. لكن الذي في مسلم: «أنه لما دخل محسراً: أي الوادي المعروف، وهو أول منى قال: عليكم بحصى الخذف الذي ترمى به الجمرة، وهو يدل على أن أخذ الحصى من ذلك أولى، إلا أن يقال يجوز أن يكون قال ذلك لجماعة تركوا أخذ ذلك من مزدلفة، وأمر بمثلها ونهى عن أكبر منها، وقطع التلبية عند الرمي، وصار يكبر عند رمي كل حصاة وهو راكب ناقته». وفي رواية «على بغلة». قال بعضهم: وهو غريب جداً: «وبلال وأسامة أحدهما أخذ بخطامها والآخر يظله بثوبه، لا ضرب، ولا طرد، ولا إليك إليك».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وفي رواية: «فرأيت بلالاً رضي الله عنه يقود براجلته، وأسامة بن زيد رضي الله عنه رافعاً عليه ثوبه من الحر حتى رمى جمرة العقبة» وخطب علي بغلته الشهباء، وقيل على بعير بمنى خطبة قرر فيها تحريم الزنا والأموال والأغراض، وذكر حرمة يوم النحر، وحرمة مكة على جميع البلاد، فقال: «يا أيها الناس أيّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا، قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا» أعادها مراراً «ثم رفع رأسه وقال: اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» وأمرهم بأخذ مناسكهم عنه لعله لا يحج بعد عامه ذلك، وكان وقوفه بين الجمرات والناس بين قائم وقاعد. وجاء: «أنه خطب في اليوم الأول واليوم الثاني من أيام التشريق وهو أوسطها، ويقال له يوم النفر الأول لجواز النفر فيه كما يقال لليوم الثالث في أيام التشريق يوم النفر الآخر.

ثم انصرف إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثاً وستين بدنة، أي وهي التي قدم بها من المدينة وذلك بيده الشريفة لكل سنة بدنة. قال بعضهم. وفي ذلك إشارة إلى منتهى عمره، لأن عمره كان في ذلك اليوم ثلاثاً وستين سنة، فنحر بيده الشريفة لكل سنة بدنة، وطبخ له اللحم من لحمها، وأكل منه: أي أخذ من كل بدنة بضعة، فجعل ذلك في قدر وطبخ، فأكل من ذلك اللحم وشرب من مرقته،

ثم أمر علياً كرم الله وجهه فنحر ما بقي وهو تمام المائة، أي ولعله الذي أتى به عليٌّ كرم الله وجهه من اليمن هذا.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه حجة الوداع مائة بدنة نحر منها ثلاثين بدنة، ثم أمر علياً فنحر ما بقي منها وقال له اقسام لحومها وجلودها وجلالها بين الناس، ولا تعط جزاراً منها شيئاً، وخذ لنا من كل بعير جذية من لحم واجعلها في قدر واحدة حتى نأكل من لحمها ونحثو من مرقها ففعل، وأخبر أن منى كلها منحر، وأن فجاج مكة كلها منحر. ثم حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه الشريف: أي حلقه معمر بن عبد الله وقال له: هنا وأشار بيده إلى الجانب الأيمن، فبدأ بشقه الأيمن فحلقه ثم بشقه الأيسر، وقسم شعره فأعطى نصفه لأبي طلحة الأنصاري: «أي شعر نصف رأسه الأيسر» بعد أن قال: ههنا أبو طلحة» وقيل أعطاه لأم سليم زوج أبي طلحة رضي الله عنهما، وقيل لأبي كريب: «وأعطى من نصفه الثاني» أي الذي هو الأيمن: «الشعرة والشعرتين للناس».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وفي رواية: «ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة الأنصاري فأعطاه إياه، ثم ناول الحلاق الشق الأيسر فحلقه وأعطاه أبا طلحة، وقال: اقسامه بين الناس».

قال في النور: والحاصل أن الروايات اختلفت في مسلم. ففي بعضها أنه أعطاه الأيسر، وفي بعضها أنه أعطاه الأيمن. ورجح ابن القيم أن الذي اختص به أبو طلحة هو الشق الأيسر.

أقول: الذي في مسلم قال للحلاق: «ها وأشار بيده إلى جانبه الأيمن، فقسم شعره بين من يليه» وفي رواية: «فوزعه الشعرة والشعرتين، ثم أشار إلى الحلاق وإلى جانبه الأيسر فحلقه فأعطاه لأم سليم» وفي رواية: «قال ههنا أبو طلحة» وفي لفظ: «أين أبا طلحة فدفعه إلى أبي طلحة».

وفي رواية: «ناول الحلاق شقه الأيمن فحلقه، ثم دعا أبا طلحة فأعطاه إياه، ثم ناوله الشق الأيسر فحلقه وأعطاه أبا طلحة، فقال اقسام بين الناس» والجمع ممكن بين هذه الروايات، والله أعلم.

وعن بعضهم قال، شقت قلنسوة خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم اليرموك وهو في الحرب فسقطت فطلبها طلباً حثيثاً فعوقب في ذلك، فقال: إن فيها شيئاً من شعر ناصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنها ما كانت معي في موقف إلا نصرت بها.

وعن أنس رضي الله عنه، قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم والحلاق يحلقه وقد طاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل». ثم تطيب، طيبته عائشة رضي الله عنها بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف الإفاضة، ويقال له طواف الركن، ويقال له طواف الصدر، والأشهر أن طواف الصدر طواف الوداع. وحلق بعض أصحابه وقصر بعض آخر. وعند ذلك قال «اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: والمقصرين، فأعاد: وأعادوا ثلاثاً، وقال في الرابعة والمقصرين».

والصحيح المشهور أنه قال ذلك في هذه الحجة التي هي حجة الوداع كما قال ذلك في الحديبية كما تقدم، وقيل لم يقله إلا في الحديبية، وبه جزم إمام الحرمين في النهاية. وقال النووي: ولا يبعد أن يكون وقع ذلك منه في الموضوعين. قال في فتح الباري: بل هو المتعين لتضافر الروايات بذلك في الموضوعين، أي فإن في مسلم في حجة الوداع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله وللمقصرين، قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله وللمقصرين. قال: اللهم اغفر للمحلقين، قالوا: يا رسول الله وللمقصرين، قال. وللمقصرين، ثم نهض راكباً إلى مكة فطاف في يومه ذلك طواف الإفاضة قبل الظهر وشرب من نبيذ السقاية».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «مر النبي صلى الله عليه وسلم على راحلته وخلفه أسامة رضي الله عنه فاستسقى فأتيناه بإناء من نبيذ»: أي من سقاية العباس رضي الله عنه، فإنهم كانوا يضعون في السقاية التمر والزبيب كما تقدم، فشرب وسقى فضله لأسامة رضي الله تعالى عنه، وقال: أحسنتم وأجملتم، كذا فاصنعوا. ثم شرب من ماء زمزم بالدلو، قيل وهو قائم، وقيل وهو على بعير، والذي نزع له الدلو عمه العباس بن عبد المطلب» أي وفعل ذلك عند فتح مكة أيضاً كما تقدم، وقيل لما شرب صب منه على رأسه الشريف. وعن ابن جريح: «أنه نزع الدلو لنفسه». وقيل إن هذا يخالف ما تقدم من قوله: «لولا أن الناس يتخذونه نسكاً لنزعت» ومن قوله يوم فتح مكة: «لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها، ثم رجع إلى منى فصلى بها الظهر» كما اتفق عليه الشيخان، وقيل صلاة بمكة وبه انفرد مسلم ورجح بأمور.

وجمع بينهما بأنه يجوز أن يكون صلى الظهر بمكة أول الوقت ثم رجع إلى منى فصلاها مرة أخرى بأصحابه، أي الذين تخلفوا عنه بمنى، فإنه وجدهم ينتظرونه، فهي له معادة. قال بعضهم: وهذا مشكل على من لم يجوز الإعادة. وعورض هذا بأنه في ذلك اليوم رمى جمرة العقبة ونحر ثلاثاً وستين بدنة، ونحر علي كرم الله وجهه بقية المائة، وأخذ من كل بدنة بضعة، ووضعت في قدر وطبخت حتى نضجت، فأكل من ذلك اللحم وشرب من مرقه، وحلق رأسه، ولبس وتطيب وخطب فكيف يمكن أن يكون صلى الظهر بمكة أول الوقت، ويعود إلى منى في وقت الظهر.

على أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «أفاض رسول الله صلى الله عليه وسلم من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع إلى منى» رواه أبو داود. وأجيب بأن النهار كان طويلاً فلا يضر صدور أفعال منه كثيرة في صدر ذلك اليوم.

على أن ابن كثير رحمه الله، قال: لست أدري أن خطبته ذلك اليوم أكانت قبل ذهابه أو بعد رجوعه إلى منى؟. وأما رواية عائشة رضي الله تعالى عنها المقتضية لكونه صلى الظهر بمنى قبل أن يذهب إلى البيت. فأجاب بعضهم عنها بأنها ليست نصاً في ذلك بل تحتمل فليتأمل.

فإن قيل: روى البخاري وأهل السنن الأربعة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم أحرَّ الزيارة الى الليل» وفي لفظ: «زار ليلاً» قلنا المراد بالزيارة زيارة مجيئه، لا طواف الزيارة الذي هو طواف الإفاضة.
فقد روى البيهقي: «أنه كان يزور البيت كل ليلة من ليالي منى» وهو قول عروة بن الزبير إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحر الطواف يوم النحر إلى الليل، فقد أخذه من قول عائشة المتقدم، وقد علمت ما فيه.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307
وقد قال بعضهم: الصحيح. من الروايات وعليه الجمهور أنه طاف يوم النحر بالنهار. والأشبه أنه كان قبل الزوال هذا كلامه.

وطافت أم سلمة رضي الله عنها في ذلك اليوم على بعيرها من وراء الناس.
قالت: «وطفت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي إلى جانب البيت وهو يقرأ {الطور وكتاب مسطور}».
أي وعرض ذلك «بأنه أرسل أم سلمة رضي الله عنها ليلة النحر فرمت جمرة العقبة قبل الفجر ثم مضت فأفاضت» فكيف يلتئم هذا مع طوافه قبل الظهر؟ لأنه لم يكن ذلك الوقت بمكة.
ويجاب بأنه يجوز أن تكون أم سلمة أحرَّت طوافها لذلك الوقت وإن كانت قدمت مكة قبل الفجر.
وعرض بأنه لم يقرأ في ركعتي الطواف بالطور ولا جهر بالقراءة في النهار بحيث تسمعه أم سلمة من وراء الناس، هذا من المحال.
ويجاب بأن كونه لم يقرأ في ركعتي الطواف بالطور شهادة نفي على من يثبت. وأم سلمة رضي الله عنها لم تدَّع أنها سمعت قراءته. ثم رأيت ابن كثير رحمه الله قال: والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام صلى الصبح يومئذ، أي عند قدومه مكة لطواف الوداع عند الكعبة وأصحابه، وقرأ في صلاته (والطور) بكما لها. قال: ويؤيد ذلك ما روي عن أم سلمة قالت: «شكوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنني أشتكى، قال: طوفي من وراء الناس وأنت راكبة، ومضت ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي حينئذ إلى جنب البيت وهو يقرأ {الطور وكتاب مسطور}».
أي وحينئذ يكون ما تقدم من قول الراوي: «وطافت أم سلمة في ذلك اليوم الذي هو يوم النحر» وقوله في الرواية الأخرى: «أرسل أم سلمة ليلة النحر فرمت جمرة العقبة قبل النحر ثم مضت فأفاضت» أي طافت طواف الإفاضة. وما جاء عن أم سلمة: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة» قال بعضهم: ذكر يوم النحر غلط من الراوي أو من الناسخ، وإنما هو يوم النفر. ويقال بمثل ذلك فيما قبله فليتأمل، فإنه سيأتي في بعض الروايات أنه طاف طواف الوداع سحراً قبل صلاة الصبح.

إلا أن يقال إنه مكث بعد الطواف لصلاة الصبح حتى صلاها وفيه أن بعضهم ذكر أنه طاف بالبيت، أي طواف الوداع بعد صلاة الصبح، والله أعلم، وطافت في ذلك اليوم الذي هو يوم النحر عائشة رضي الله عنها بعد أن طهرت من حيضها

وكانت حائضاً يوم عرفة، أي كما تقدم. وطافت أيضاً صفة رضي الله عنها في ذلك اليوم.

وسئل في ذلك اليوم عما تقدم بعرضه على بعض من الرمي والحلق والنحر والطواف، فقال: لا حرج: أي لا إثم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

ففي مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بمنى على راحلته للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: يا رسول الله لم أشعر أن التحلل قبل النحر فحلقت قبل أن أنحر، فقال: اذبح ولا حرج، ثم جاءه رجل آخر فقال: يا رسول الله لم أشعر أن الرمي قبل النحر فنحرت قبل أن أرمي، فقال: ارم ولا حرج وجاءه آخر فقال: إني أفضت إلى البيت قبل أن أرمي، فقال: ارم ولا حرج، قال: فما سئل عن شيء قدم ولا آخر إلا قال افعل ولا حرج» ولذلك قال أيضاً في تقديم السعي بين الصفا والمروة قبل الطواف بالبيت «أي فمن شاء قدم السعي عقب طواف القدوم، ومن شاء أخره عن طواف الإفاضة» وقد تقدم أنه أتى بالسعي عقب طواف القدوم.

وأقام بمنى ثلاثة أيام يرمي الجمار: أي ماشياً في ذهابه وإيابه وأمر شخصاً أن ينادي في الناس بمنى إنها أيام أكل وشرب وباءة. ورمى لكل جمرة من الجمرات الثلاث بعد الزوال، أي قبل الصلاة للظهر سبع حصيات، يبدأ بالتي تلي مسجد منى: أي الخيف ويقف عندها للدعاء، ثم التي تليها وهي الوسطى ثم يقف للدعاء ثم جمرة العقبة، ولم يقف عندها للدعاء: أي وكان أزواجه يرمين بالليل. وخطبهم أي الناس في اليوم الأول من أيام منى كما تقدم» ويقال لذلك اليوم يوم القر لأنهم يقرون فيه في منى وهو يوم الرؤوس لأكلهم الرؤوس في ذلك اليوم، وفي اليوم الثاني من أيام منى وهو يوم النفر الأول، أي ويقال له يوم الأكارع: أي لأكلهم الأكارع في ذلك اليوم. وأوصى بذي الأرحام خيراً. فقد خطب في الحج خمس خطب: الأولى يوم السابع من ذي الحجة بمكة. والثانية يوم عرفة. والثالثة يوم النحر بمنى. والرابعة يوم القر بمنى. والخامسة يوم النفر الأول بمنى أيضاً. ثم نهض من منى في اليوم الثالث الذي هو يوم النفر الآخر ونفر معه المسلمون بعد الزوال أي وبعد الرمي.

واستأذنه عمه العباس رضي الله عنه في عدم المبيت بمنى في الليالي الثلاث من أجل السقاية فرخص له في ذلك.

وضربت له قبة بالمحصب وهو الأبطح، أي ضربها له أبو رافع رضي الله عنه، وكان على ثقله ولم يأمره بذلك. فعن أبي رافع رضي الله عنه: «لم يأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنزل بالأبطح، ولكنني جئت فضربت قبة، فجاء فنزل، وكان قال لأسامة رضي الله عنه: غداً ننزل بالمحصب إن شاء الله» وهو المحل الذي تحالف فيه قريش وكنانته على منابذه بني هاشم وبني المطلب حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه، أي وكان ذلك سبباً لكتابة الصحيفة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وفيه أنه تقدم في فتح مكة أنه نزل بالحجون عند شعب أبي طالب المكان الذي حصرت فيه بنو هاشم وبنو المطلب وأنه خيف بني كنانة الذي تقاسمت قريش فيه جملتهم.

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا على الكفر».

ولما نزل بالمحصب صلى به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقد رقدة، ثم إن عائشة رضي الله عنها قالت له: يا رسول الله أرجع بحجة ليس معها عمرة، فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقال: أخرج بأختك من الحرم، ثم افرغا من طوافكما حتى تأتياني ههنا بالمحصب، قالت: فقضى الله العمرة، وفي لفظ: «فاعتمرنا من التنعيم مكان عمرتي التي فاتتني، وفرغنا من طوافها في جوف الليل، فأتيناه بالمحصب فقال: فرغتما من طوافكما، قلنا نعم، فأذن في الناس بالرحيل» وفي رواية: «فلقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مصعد من مكة وأنا منهبطة إليها، أو أنا مصعدة وهو منهبط منها».

واعترض كيف يأتي قولها عمرتي التي فاتتني مع قوله: «قد حللت من حجتك وعمرتك» وكيف أقرها على ذلك.

وأجيب بأنها لما رأت صواحبها أتت بعمرتها ثم بحج وهي لم تأت إلا بحج أحبب أن تأتي بعمرتها أخرى زائدة على الحج وإن كانت العمرة مندرجة فيه، وأقرها تطيباً لخاطرها، لأنه كان معها إذا هويت الشيء الذي لا مخالفة فيه للشرع تابعها عليه. وبهذا استدل أئمتنا على جواز الإحرام بالعمرة قبل طواف الوداع. وأمر الناس أن لا ينصرفوا: أي إلى بلادهم حتى يكون آخر عهدهم الطواف بالبيت: أي الذي هو طواف الوداع.

ورخص في ترك المؤمنين ذلك للحائض التي قد طافت طواف الإفاضة قبل حيضها كصفية أم المؤمنين رضي الله عنها، فإنها حاضت بعد طواف الإفاضة ليلة النفر من منى. أي وقالت: ما أراني إلا حابستكم لانتظار طهري وطواف الوداع، فقال لها: أو ما كنت طفت يوم النحر؟ أو في لفظ: «ما كنت طفت طواف الإفاضة يوم النحر؟ قالت بلى، قال: لا بأس أنفري معنا» وفي رواية: «قال يكفيك ذلك» أي لأنه هو طواف الركن الذي لا بد لكل أحد منه، بخلاف طواف الوداع لا يجب على الحائض ولا يلزمها الصبر لتطهر وتأتي به، ولا دم عليها في تركه.

قال الإمام النووي رحمه الله: وهذا مذهبنا ومذهب العلماء كافة، إلا ما حكى عن بعض السلف وهو شاذ مردود.

ثم إنه دخل مكة في تلك الليلة، وطاف طواف الوداع سحراً قبل صلاة الصبح، ثم خرج من الثنية السفلى ثنية كدى بضم الكاف والقصر: وهو عند باب شبكية متوجهاً إلى المدينة: أي التي خرج منها لما فتح مكة كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

وكان خروجه من المسجد من باب الحزورة، ويقال له باب الحناطين. وجاء عن جابر رضي الله عنه: «أن خروجه من مكة كان عند غروب الشمس فلم يصل»

حتى أتى سرف» قال بعضهم: لعل هذا كان في غير حجة الوداع، فإنه طاف بالبيت بعد صلاة الصبح فماذا أخره إلى وقت الغروب هذا غريب جداً هذا كلامه. وما روي أنه رجع بعد طواف الوداع إلى المحصب غير محفوظ. أقول: هذا جمع به الإمام النووي رحمه الله بين الروايات المتقدمة عن عائشة حيث قال: ووجه الجمع أنه بعث عائشة مع أخيها بعد نزوله المحصب، وواعدها أن تلحقه بعد اعتمارها، ثم خرج هو بعد ذهابها فقصده البيت ليطوف طواف الوداع، ثم رجع بعد فراغه من طواف الوداع فلقبها وهو صادر وهي داخله لطواف عمرتها، ثم لما فرغت لحفته وهو في المحصب.

قال: وأما قولها فأذن في أصحابه فخرج ومر بالبيت وطاف فمتأول بأن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، وإلا فطوافه كان بعد خروجها إلى العمرة وقبل رجوعها، وأنه فرغ قبل طوافها للعمرة هذا كلامه فليتأمل، فكانت مدة دخوله إلى مكة وخروجه منها عشرة أيام، وهذا السياق يدل على أنه لم يأت بعمرة بعد حجه، وهو لا يناسب القول بأنه أحرم مفرداً بالحج، بل يدل للقول بأنه أحرم قارناً أو نواهما بعد إطلاق الإحرام، أو أدخل الحج على العمرة. وفي كلام بعضهم لم يعتمر تلك السنة عمرة مفردة لا قبل الحج ولا بعده ولو جعل حجه منفرداً لكان خلاف الأفضل، أي لأنه لم يقل أحد إن الحج وحده من غير اعتمار في سنته أفضل من القران. وفي كلام بعض آخر: أجمعوا على أنه لم يعتمر بعد الحج، فتعين أن يكون متمتعاً تمتعاً قراناً. وقد يطلق الأفراد على الإتيان بأعمال الحج فقط وإن كان قد أحرم بهما معاً كما أن القران قد يطلق على الإتيان بطوافين وسعيين. فمن روى عنه أنه أفرد الحج أراد به أنه أتى بأعمال الحج ولم يفرد للعمرة أعمالاً. ولم أقف على أنه دخل الكعبة في هذه الحجة التي هي حجة الوداع. ولما طاف سبعاً وقف في الملتزم بين ركن الحجر وبين باب الكعبة فدعا الله وألزم جسده: أي صدره الشريف ووجهه بالملتزم. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

أي ولما وصل إلى محل بين مكة والمدينة يقال له غدير خم بقرب رايغ جمع الصحابة وخطبهم خطبة بين فيها فضل علي كرم الله وجهه، وبراءة عرضه مما تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظننها بعضهم جوراً وبخلاً، والصواب كان معه كرم الله وجهه في ذلك فقال «أيها الناس إنما أنا بشر مثلكم، يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب» أي وفي لفظ في الطبراني «فقال: يا أيها الناس إنه قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا نصف عمر الذي يليه من قبله، وإني لأظن أن يوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول، وإنكم مسؤولون فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وجهت ونصحت، فجزاك الله خيراً، فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنته حق وناره حق، وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من

في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد» الحديث «ثم حض على التمسك بكتاب الله ووصى بأهل بيته، أي فقال: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ولن تتفرقا حتى تردا عليّ الحوض»، وقال في حق علي كرم الله وجهه لما كرر عليهم: ألسنت أولى بكم من أنفسكم ثلاثاً، وهم يجيبونه بالتصديق والاعتراف، ورفع يد علي كرم الله وجهه وقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، وأعن من أعانه، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار» وهذا أقوى ما تمسكت به الشيعة والإمامية والرافضة على أن علياً كرم الله وجهه أولى بالإمامة من كل أحد، وقالوا هذا نص صريح على خلافته سمعه ثلاثون صحابياً وشهدوا به، قالوا: فلعلي عليهم من الولاء ما كان له عليهم، بدليل قوله: «ألسنت أولى بكم» وهذا حديث صحيح ورد بأسانيد صحاح وحسان، ولا التفات لمن قدح في صحته كأبي داود وأبي حاتم الرازي. وقول بعضهم إن زيادة اللهم وال من

والاه إلى آخره موضوعة مردود، فقد ورد ذلك من طرق صحح الذهبي كثيراً منها.

وقد جاء أن علياً كرم الله وجهه قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنشد الله من ينشد يوم غدیر خمّ إلا قام، ولا يقوم رجل يقول أنبتت أو بلغني إلا رجل سيمعت أذناه ووعى قلبه، فقام سبعة عشر صحابياً وفي رواية ثلاثون صحابياً، وفي المعجم الكبير ستة عشر. وفي رواية اثنا عشر، فقال: هاتوا ما سمعتم، فذكروا الحديث، ومن جملة «من كنت مولاه فعليّ مولاه» وفي رواية «فهذا مولاه» وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه: وكنت ممن كتم، فذهب الله ببصري، وكان علي كرم الله وجهه دعا علي من كتم. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

قال بعضهم: ولما شاع قوله «من كنت مولاه فعليّ مولاه» في سائر الأمصار وطار في جميع الأقطار، بلغ الحارث بن النعمان الفهري، فقدم المدينة فأناب راحلته عند باب المسجد، فدخل والنبي صلى الله عليه وسلم جالس وحوله أصحابه، فجاء حتى جثا بين يديه، ثم قال: يا محمد إنك أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا ذلك منك، وإنك أمرتنا أن نصلي في اليوم والليلة خمس صلوات ونصوم شهر رمضان ونزكي أموالنا ونحج البيت فقبلنا ذلك منك، ثم لم ترض بهذا حتى رفعت بضبعي ابن عمك ففضلته، وقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء من الله أو منك؟ فاحمرت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: والله الذي لا إله إلا هو إنه من الله وليس مني، قالها ثلاثاً، فقام الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك» وفي رواية «اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً {فأرسل علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم}، فوالله ما بلغ باب المسجد حتى رماه الله بحجر من السماء فوق علي رأسه فخرج من دبره فمات، وأنزل الله تعالى {سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع} الآية، وكان ذلك اليوم الثامن عشر

من ذي الحجة» وقد اتخذت الروافض هذا اليوم عيداً فكانت تضرب فيه الطبول ببغداد في حدود الأربعمئة في دولة بني بوية. وما جاء: من صام يوم ثماني عشرة من ذي الحجة كتب الله له صيام ستين شهراً. قال بعضهم قال الحافظ الذهبي هذا حديث منكر جداً أي بل كذب. فقد ثبت في الصحيح ما معناه: «أن صيام شهر رمضان بعشرة أشهر» فكيف يكون صيام يوم واحد يعدل ستين شهراً هذا باطل، هذا كلامه فليتأمل. وقد رددت عليهم في ذلك بما بسطته في كتابي المسمى بالقول المطاع في الرد على أهل الابتداع لخصت فيه الصواعق للعلامة ابن حجر الهيتمي، وذكرت أن الرد عليهم في ذلك من وجوه:

أحدها: أن هؤلاء الشيعة والرافضة اتفقوا على اعتبار التواتر فيما يستدلون به على الإمامة من الأحاديث، وهذا الحديث مع كونه أحاد طعن في صحته جماعة من أئمة الحديث كأبي داود وأبي حاتم الرازي كما تقدم، فهذا منهم مناقضة، ومن ثم قال بعض أهل السنة: يا سبحان الله من أمر الشيعة والرافضة إذا استدللنا عليهم بشيء من الأحاديث الصحيحة قالوا هذا خير واحد لا يعني، وإذا أرادوا أن يستدلوا على ما زعموا أتوا بأخبار باطلة كاذبة لا تصل إلى درجة الأحاديث الضعيفة التي هي أدنى مراتب الأحاد التي منها أنه قال لعلي أخي ووصي وخليفتي في ديني بكسر الدال وخبر: أنت سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين. وخبر: سلموا على عليّ بإمرة الناس، فإنها أحاديث كاذبة موضوعة مفتراة عليه، عليه أفضل الصلاة والسلام. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

ثانيها: أن اسم المولى يطلق على عشرين معنى، منها: أنه السيد الذي ينبغي محبته ويجتنب بغضه، ويؤيد إرادة ذلك «أن سبب إيراد ذلك أن علياً كرم الله وجهه تكلم فيه بعض من كان معه باليمن من الصحابة وهو بريدة، قدم هو وإياه عليه في تلك الحجة التي هي حجة الوداع، وجعل يشكوه له لأنه حصل له منه جفوة، فجعل يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا بريدة لا تقع في علي، فإن علياً مني وأنا منه، ألسنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قال: نعم يا رسول الله، فقال رسول الله: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» فقال ذلك لبريدة خاصة. ثم لما وصل إلى غدير خم أحب أن يقول ذلك للصحابة عموماً أي فكما عليهم أن يحبوني فكذلك ينبغي أن يحبوا علياً. وعلى تسليم أن المراد أنه أولى بالإمامة، فالمراد في المال لا في الحال قطعاً، وإلا لكان هو الإمام مع وجوده، والمال لم يعين له وقت، فمن أين أنه عقب وفاته، وجاز أن يكون بعد أن يعقد له البيعة ويصير خليفة، ويدل لذلك أنه كرم الله وجهه لم يحتج بذلك إلا بعد أن آلت إليه الخلافة رداً على من نازعه فيها كما تقدم. فسكوته كرم الله وجهه عن الاحتجاج بذلك إلى أيام خلافته، قاض على كل من له أدنى عقل فضلاً عن فهم بأنه لا نص في ذلك على إمامته عقب وفاته. ثالثها: أنه تواتر النقل عن علي كرم الله وجهه، أنه لم ينص عند موته على خلافة أحد لا هو ولا غيره، فقد قيل له كرم الله وجهه كما يأتي: حدثنا فأنت

الموثوق به والمأمون على ما سمعت، فقال: لا والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه، لو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد في ذلك ما تركت القتال على ذلك ولو لم أجد إلا بردتي هذه. وفي رواية: ما تركت أخا بني تيم وعدي يعني أبا بكر وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما ينوبان على منبره ولقاتلتها بيدي.

رابعها: أن لو كان هذا الحديث نصاً على إمامته لم يسعه الامتناع من متابعة عمه العباس رضي الله تعالى عنه لما قال له العباس: اذهب بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا علمنا. وأيضاً لو كان الحديث نصاً لكان لما قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير، واحتج عليهم أبو بكر رضي الله تعالى عنه بأن الأئمة من قريش قالوا له: قد ورد النص بخلافة علي كرم الله وجهه، ولم يكن بين ذكر الحديث في غدير خم وبين ذلك إلا نحو شهرين، فاحتمال النسيان على عليّ والعباس وعلى جميع الأنصار رضي الله تعالى عنهم من أبعد البعيد. على أنه ورد أنه لما قيل لعلي إن الأنصار قالوا منا أمير ومنكم أمير قال كرم الله وجهه: هلا ذكرت الأنصار قول النبي «يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم» فكيف يكون الأمر فيهم مع الوصاية بهم، ودعوى الرافضة والشيعية أن الصحابة رضوان الله عليهم علموا هذا النص ولم يعملوا به عنادا غير مسموعة إذا هي ظاهرة البطلان، لأن في ذلك تضليلاً لجميع الصحابة وهم رضي الله تعالى عنهم معصومون عن أن يجتمعوا على ضلالة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

ومن العجب العجيب أن بعض غلاة الرافضة يقول بتكفير الصحابة بسبب ذلك، وأن علياً كرم الله وجهه كفر لأنه أعان الكفار على كفرهم.

وأما دعواهم أن علياً إنما ترك النزاع في أمر الخلافة تقيّة وامتنالاً لوصيته أن لا يوقع بعده فتنة ولا يسبل سيفاً فكذب وافتراء، إذ كيف يجعله إماماً على الأمة ويمنعه أن يسبل سيفاً على من امتنع من قبول الحق؟ وكيف منع سل السيف على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله تعالى عنهم مع قلة أتباعهم وكثرة أتباعه، وسله على معاوية رضي الله تعالى عنه مع وجود من معه من الألوّف، ولما ساع له أن يقول كما تقدم، لو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم وعدي ينوبان على منبره ، ولما بين سبب تركه لمقاتلة أبي بكر وعمر وعثمان ومقاتلته لمعاوية بأن أبا بكر اختاره لديننا فبايعناه فولاهنا عمر فبايعناه وأعطيت ميثاقي لعثمان، فلما مضوا بايعني أهل الحرمين وأهل المصريين البصرة والكوفة، فوثب فيها من ليس مثلي ولا قرابته كقرابتي ولا علمه كعلمي ولا سابقته كسابقتي وكنت أحق بها منه: يعني معاوية رضي الله تعالى عنه كما سيأتي. ومن ثم لما قيل للحسن المثنى ابن الحسن السبط إن خبر «من كنت مولاه فعلي مولاه» نص في إمامة علي كرم الله وجهه قال: أما والله لو يعني النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان لأفصح لهم ولقال لهم: يا أيها الناس هذا وال بعدي والقائم عليكم بعدي فاسمعوا له وأطيعوا، والله لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

عهد إليه في ذلك ثم تركه كان أعظم خطيئة.
وقد سئل الإمام النووي رحمه الله: هل يستفاد من قول النبي «من كنت مولاه فعليّ مولاه» أنه كرم الله وجهه أولى بالإمامة من أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما. فأجاب إنه لا يدل على ذلك، بل معنى ذلك عند العلماء الذين هم أهل هذا الشأن وعليهم الاعتماد في تحقيق ذلك «من كنت ناصره ومواليه ومحبه ومصافيه فعليّ كذلك».

وقد قيل في سبب ذلك أن أسامة بن زيد رضي الله تعالى قال لعلي كرم الله وجهه: لست مولاي، وإنما مولاي رسول الله، فقال رسول ذلك. ولما وصل إلى ذي الحليفة بات بها، أي لأنه كان كره أن يدخل المدينة ليلاً. ولما رأى المدينة كبر ثلاث مرات وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، أيون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم دخل عليه الصلاة والسلام المدينة نهاراً من طريق المعزّس بفتح الراء المشددة. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 307

باب ذكر عمره
قد اعتمر: أي بعد الهجرة أربع عمر. فقد قال بعضهم: لا خلاف أن عمره لم تزد على أربع أي كلهن في ذي القعدة، مخالفاً للمشركين، فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر الحج ويقولون هي من أفجر الفجور أي كما تقدم. وأول تلك الأربعة عمرة الحديبية، أي وكانت في ذي القعدة التي صده فيها المشركون عن البيت.

وثانيها: عمرته من العام المقبل، أي وهي عمرة القضاء، وكانت في ذي القعدة كما تقدم. وعن قتادة رضي الله تعالى عنه «كان المشركون فجرُوا عليه حيث رده في الحديبية وكان في ذي القعدة، فاقتص الله منهم وأدخله مكة في ذلك الشهر الذي هو ذو القعدة، وأنزل الله {الشهر الحرام بالشهر الحرام}. وثالثها: عمرته حين قسيم غنائم حنين، وكانت من الجعرانة، وكانت في ذي القعدة، ودخل مكة ليلاً، فقضى عمرته ثم خرج من ليلته فأصبح بالجعرانة كباثت بها. ومن ثم خفيت على الناس كما تقدم.

ورابعها: عمرته مع حجة الوداع: أي التي دخلت في الحج بناء على أنه أحرم قارنا أو التي أدخلها على الحج بناء على أنه أحرم بالحج خصوصية له، أو عينهما بعد أن أحرم مطلقاً على ما تقدم فإنه أحرم لخمس بقين من ذي القعدة. وقد قالت عائشة رضي الله تعالى عنها «اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثاً سوى التي قرنها بحجة الوداع».

وأخرج البخاري ومسلم «أنه اعتمر أربع عمر كلها في ذي القعدة إلا التي في حجته» أي فإنه لم يوقعها في ذي القعدة، بل أوقعها في ذي الحجة تبعاً للحج. وأما إحرامه بها فكان في ذي القعدة في خمس بقين منه كما تقدم. وأخرج أيضاً أن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: كنت أنا وابن عمر مستندين إلى حجرة عائشة رضي الله تعالى عنها وأنا لنسمع صوتها

بالسواك تستن، فقلت: يا أبا عبد الرحمن اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب؟ قال نعم، فقلت لعائشة: أي أمتاه ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: وما يقول؟ قلت: يقول اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب، فقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، ما اعتمر عمرة إلا وهو شاهدها، وفي رواية إلا وهو معه، وما اعتمر في رجب قط، أي وإنما اعتمر في ذي القعدة.

ولكن روى الدارقطني رحمه الله عنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمرة في رمضان فأفطر وصمت وقصر وأتممت» قال في الهدى إنه غلط عليها وهو الأظهر، فإنه ما اعتمر في رمضان قط. أقول: وزاد بعضهم أنه اعتمر أيضاً عمرتين عمرة في رجب وعمرة في شوال فيكون اعتمر ستة، إلا أن يقال: يجوز أن يكون مستند القائل اعتمر في رجب قول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما المتقدم، وقد تقدم رده وجاز أن يكون قوله اعتمر في شوال أي خرج للعمرة في شوال وهي العمرة التي كانت في ضمن حجة الوداع، والله أعلم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 340

باب ذكر نبذ من معجزاته

التي يمكن التحدي بها، سواء تحدى بها بالفعل كالقرآن وتمنى اليهود الموت أولاً. وتلك المعجزة اصطلاحاً هي الحاصلة له بعد البعثة إلى وفاته. وأما الأمور الحاصلة له بين يدي أيام مولده وبعثته، وقبل ذلك من الأمور الخارقة للعادة الغربية الموهنة للكفر، التي يعجز عن بلوغها قوى البشر، ولا يقدر عليها إلا خالق القوى والقدر، لأنها في الاصطلاح يقال لها إرهاصات وتأسيسات للرسالة، ولا تسمى في الاصطلاح معجزات.

وهي إذا تليت على قلب المؤمن زادته إيماناً، وإذا تفكر فيها ذو البصيرة واليقين زادته إيقاناً، فإن كل من أرسله الله عز وجل لم يخله من آية أيده بها مخالفة للعادات، لكون ما يدعيه من الرسالة مخالفاً لها، فيستدل بتلك الآية على صدقه فيما يدعيه، لأن اقترانها بدعواه الرسالة تصديق له فيها. وقد كانت للأنبياء: أي الرسل معجزات مختلفة، أي وهو أكثر الرسل معجزة، وأعظمهم آية، وأظهرهم برهاناً فقد جاء «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن عليه البشر»: أي آمنوا بسبب إظهاره «وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله عز وجل إليّ» وهو القرآن لأنه الذي تحداهم به «فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة».

أي فإنه لما غلب السحر في زمن موسى عليه الصلاة والسلام جاءهم بجنسه في معجزاته، فألقى العصا، وقلق البحر. ولما غلب الطب في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام جاءهم بجنسه، فأحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص. ولما غلبت الفصاحة وقول الشعر في زمن نبينا عليه الصلاة والسلام جاءهم بالقرآن. وهذا السياق يدل على أن المعجزة خاصة بالرسل عليهم الصلاة والسلام، ويوافق ذلك قول صاحب المواقف وشرحه، وهي: أي المعجزة بحسب الاصطلاح عبارة عما قصد به إظهار صدق من ادعى أنه رسول الله.

لكنه قال في شروط المعجزة: الرابع أن يكون أي الأمر الخارق للعادة ظاهراً على يد مدعي النبوة ليعلم أنه تصديق له انتهى. فيحتمل أنه أراد بالنبوة الرسالة. ويحتمل أنه أراد بها ما يعم الرسالة للشخص نفسه، لأن النبي غير الرسول مرسل لنفسه، ودعواه النبوة متضمنة لدعواه الرسالة لنفسه، فهو رسول إلى نفسه، فتكون المعجزة عامة في حق الرسول والنبي الذي ليس برسول.

ومما يؤيد هذا الثاني قول النسفي رحمه الله في عقائده: وأيدهم، قال السعد رحمه الله: أي الأنبياء بالمعجزات الناقضات للعادات. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ثم قال: وقد روي بيان عددهم في بعض الأحاديث. قال السعد على ما روي «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن عدد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. وفي رواية، مائتا ألف وأربعة وعشرون ألفاً» ويؤيده أيضاً قول الإمام السنوسي في شرح عقيدته الكبرى: إن معجزة النبي غير الرسول، يجوز أن تتأخر بعد موته، بخلاف معجزة الرسول فإن فيها خلافاً إلى آخر ما ذكر. ومما يؤيد هذا الثاني أيضاً ما نقله في الخصائص الصغرى عن بعضهم وأقره: فرض الله على الأنبياء إظهار المعجزات ليؤمنوا بها، وفرض على الأولياء كتمان الكرامات لئلا يفتتنوا بها انتهى. فقد قابل بين المعجزة والكرامة. وفيه تصريح بأنه يجب على النبي غير المرسل إظهار المعجزة.

وعن القرافي المالكي رحمه الله أنه يجب على النبي أنه يخبر بنبوته، وذكر في الأصل أن الغرض ذكر نبذة من معجزاته، وإلا فمعجزاته كالبحر المتدفق بالأمواج.

وقد ذكر بعض العلماء أن معجزاته لا تنحصر. وفي كلام بعض آخر أنه أعطى ثلاثة آلاف معجزة: أي غير القرآن، فإن فيه ستين، وقيل سبعين ألف معجزة تقريباً.

قال في الخصائص: قال الحلبي: وليس في شيء معجزات غيره ما ينجو نحو اختراع الأجسام، فإن ذلك من معجزات نبينا خاصة، هذا كلامه.

وفيه أن هذا معارض بقول الله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام {إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير} الآية. والغرض ذكر تلك النبذة مجموعة وإن كان أكثرها قد سبق لكنه مفرق، أي وأنه على ما تقدم بقولي أي كما تقدم، وأسكت عن ذلك فيما لم يتقدم.

فمن معجزاته وهو أعظمها القرآن، أي لأنه تعالى أتى به مشتملاً على أخبار الأمم السالفة وسير الأنبياء الماضية التي عرفها أهل الكتاب، وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، ولا عرف بمجالسة الكهان والأخبار، لأنه قد نشأ بين أظهرهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية والأمم السالفة التي اشتمل عليها، أي ومن كان من العرب يكتب ويقرأ ويجالس الأخبار لم يدرك علم ما أخبر به من القرآن خصوصاً عن المغيبات المستقبلية الدالة على صدقه، لوقوعها على ما أخبر به. وقد أعجز الفصحاء البلغاء، أي لحسن تأليفه والتأم كلماته، بهرت العقول بلاغته، وظهرت على كل قول فصاحته، أحكمت آياته وفصلت كلماته، فحارت فيه عقولهم، وتبلدت فيه أحلامهم، وهم رجال النظم والنثر، وفرسان

السجع والشعر.

وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم النثر، لأن نظمه لم يكن كنظ
الرسائل والخطب، ولا الأشعار وأسجاع الكهان.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وقد تحداهم ودعاهم إلى معارضته والإتيان بأقصر سورة منه، أي وهو دليل
قاطع على أنه لم يقل له ذلك إلا وهو واثق مستيقن أنهم لا يستطيعون ذلك،
لكونه من عند الله، إذا استحيل أن يقول ذلك وهو يعلم أنه الذي تولى نظمه
ولم ينزل عليه من عند الله، إذ لا يأمن أن يكون في قومه من يعارضه وهم أهل
فصاحة وشعر وخطابة قد بلغوا الدرجة العليا في البلاغة، وهو من جنس
كلامهم، فيصير كذاباً، ولو كان في استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن ذلك
إلى المحاربة التي فيها قتل صناديدهم ونهب أموالهم وسبى ذراريهم، أي لأن
النفوس إذا قرعت بمثل هذا استفرغت الوسع في المعارضة، فهو ممتنع في
نفسه عن المعارضة، خلافاً لمن قال إنما لم تقع المعارضة منهم لأن الله تعالى
صرفهم عنها مع وجود قدرتهم عليها، لأنه وإن كان صرفهم عنها فيه إعجاز لكن
الإعجاز في الأول أكمل وأتم، وهو اللائق بعظيم فضل القرآن.

ومن ثم لما جاءه الوليد بن المغيرة وكان المقدم في قريش بلاغة وفصاحة،
وكان يقال له ربحانة قريش كما تقدم، وقال له: اقرأ عليّ، فقرأ {إن الله يأمر
بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى
يعظكم لعلكم تذكرون} وقال له أعده، فأعاد ذلك قال: والله إن له الحلاوة،
وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر،
وإنه ليعلو ولا يعلى عليه. وفي رواية قرأ عليه {ح?م تنزيل الكتاب من الله
العزیز العليم غافر الذنب} الآيات فانطلق حتى أتى منزل أهله بني مخزوم
فقال: والله كلام محمد ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن إلى آخر ما
تقدم، ثم انصرف إلى منزله، فقالت قريش: قد صبا الوليد، والله لتصبأ
قريش كلها، فقال أبو جهل لعنه الله: أنا أكفيكموه، فقعد على هيئة الحزين
فمر به الوليد، فقال له: مالي أراك كئيباً؟ قال: وما يمنعني أن أحزن، وهذه
قريش قد جمعوا لك نفقة ليعينوك على أمرك، وزعموا أنك إنما زينت قول
محمد لتصيب من فضل طعامه، فغضب الوليد وقال: أوليس قد علمت قريش
أني من أكثرهم مالاً وولداً، وهل يشيع محمد وأصحابه من الطعام؟ فانطلق مع
أبي جهل حتى أتى مجلس بني مخزوم فقال: هل تزعمون أن محمداً كذاب
فهل رأيتموه كذبكم قط؟ قالوا: اللهم لا، قال: فترعمون أنه مجنون فهل
رأيتموه خرفكم قط؟ أي أتى بالخرافات من القول؟ قالوا: لا، قال: تزعمون
أنه كاهن فهل سمعتموه يخبر بما تخبر به الكهنة؟ قالوا: لا، فعند ذلك قالت له
قريش، فما هو يا أبا المغيرة؟ فقال: إن هذا إلا سحر يؤثر.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وقد سمع أعرابي رجلاً يقرأ {فاصدع بما تؤمر} فسجد، فقيل له في ذلك؟

فقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام. وسمع آخر رجلاً يقرأ { فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً } فقال: أشهد أن مخلوقاً لن يقدر على مثل هذا الكلام.

أي ولما سمع الأصمعي من جارية خماسية أو سداسية فصاحة فعجب منها، فقالت له: أو تعدّ هذا فصاحة بعد قوله تعالى { وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه } الآية فجمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين؟ ولما أراد بعضهم معارضة بعض سوره وقد أوتي من الفصاحة البلاغة الأوفى، فسمع صبياً في المكتب يقرأ { وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر } رجع عن المعارضة ومحا ما كتبه. وقال والله ما هذا من كلام البشر. قال بعضهم: ولم يتحدّ بشيء من معجزاته إلا بالقرآن. قال لبعضهم: كل جملة من القرآن معجزة، وحفظ من التبديل والتحرّف على ممر الدهور، وقارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل لا يزال مع تكريره وترديده غصّاً طرياً، تتزايد حلاوته، وتتعاظم محبته، وغيره من الكلام ولو بلغ الغاية يمل من الترداد ويعادي، إذا أعيد يؤنس به في الخلوات ويستراح بتلاوته من شدائد الأزمات، واشتمل على جميع ما اشتملت عليه جميع الكتب الإلهية وزيادة. وقد قال بعض بطارقة الروم لما أسلم لعمر رضي الله تعالى عنه: إن آية { ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقّه } جمعت جميع ما أنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام من أحوال الدنيا والآخرة. قال الحلّيمي في منهاجه: ومن عظم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوة وحجة، ولم يكن هذا النبي قط، إنما يكون لكل منهم دعوة، ثم يكون له حجة غيرها، وقد جمعهما الله تعالى لرسوله في القرآن، فهو دعوة وحجة، دعوة بمعانيه، حجة بألفاظه. وكفى الدعوة شرفاً أن تكون حجتها معها، وكفى حجتها شرفاً أن لا تنفصل دعوتها عنها. وجمع كل شيء أي خصوصاً الإخبار بالمغيبات، وتوجد على طبق ما أخبر به، والإخبار عن القرون السالفة، كقصة موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام، وقصة أهل الكهف، وقصة ذي القرنين. والأمم الماضية كقصص الأنبياء مع أممهم، وتيسره للحفظ، ولا تنقضي عجائبه، ولا تشيع منه العلماء، ولا تزيع به الأهواء.

ومنها شق صدره الشريف، أي والتأمه من غير حصول أدنى ضرر ولا مشقة مع تكرّر ذلك أربعاً أو خمساً كما تقدم.

ومنها إخباره عن صفة بين المقدس: أي لما أخبر قريشاً بأنه أسري به إلى بيت المقدس كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومنها إخباره بموت النجاشي يوم موته، وصلاته عليه مع أصحابه، فقال المنافقون: انظروا هذا يصلي على علق نصراني: أي لم يره قط، فأنزل الله تعالى { وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم } الآية.

ومنها إنشفاق القمر كما تقدم.

ومنها أن الملا من قريش لما تعاقدوا على قتله في دار الندوة، جاؤوا إلى منزله

، وقعدوا إليّ بابه، فخرج عليهم وقد خفضوا أبصارهم، وسقطت ذقونهم في صدورهم، وأقبل حتى قام على رؤوسهم قبضة من تراب، والقبضة بضم القاف: الشيء المقبوض، ويفتحها: المرة الواحدة، وقال «شاهت الوجوه» أي قبحت، وألقاها على رؤوسهم، فكل من أصابه شيء من ذلك قتل يوم بدر كما تقدم.

ومنها أنه هزم القوم يوم حنين بقبضة من تراب رمى بها في وجوههم كما تقدم له في بدر مثل ذلك.

ومنها نسج العنكبوت عليه في الغار، أي وعلى بعض أتباعه كما تقدم.

ومنها ما وقع لسراقة رضي الله تعالى عنه، من غوص قوائم فرسه في الأرض الجلد كما تقدم في خبر الهجرة.

ومنها در الشاة التي لم ينز الفحل عليها كما تقدم في قصة شاة أم معبد. وفي قصة أخرى عن أبي العالية قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبياته التسعة يطلب طعاماً وعنده ناس من أصحابه فلم يجد، فنظر إلى عناق في الدار ما نتجت قط، فمسح مكان ضرعها، فدفقت بضرع مدلى بين رجليها، فدعا بقعب فحلب فيه، فبعث إلى أبياته قعباً، ثم قعباً، ثم حلب فشرب وشربوا».

ومنها دعوته لعمر رضي الله تعالى عنه أن يعز به الإسلام فكان كذلك كما تقدم.

ومنها دعوته لعليّ أن يذهب عنه الحر والبرد فلم يشك واحداً منهما وكان كرم الله وجهه يلبس ثياب الشتاء في الصيف وثياب الصيف في الشتاء ولا يتأثر كما تقدم.

أي ومن ذلك ما حدّث به بلال رضي الله تعالى عنه قال: «أذنت في غداة باردة فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فلم ير في المسجد أحداً، فقال: أين الناس؟ فقلت: حبسهم البرد. فقال: اللهم أذهب عنهم البرد، قال: فلقد رأيتهم يتروّحون في الصلاة».

ومنها دعاؤه لعلي كرم الله وجهه وقد أصابه مرض واشتد به وسمعه يقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان متأخراً فاشفني، وإن كان بلاء فصبرني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف قلت؟ فأعاد ذلك عليه، فمسح بيده المباركة الشريفة، ثم قال: اللهم اشفه، فما عاد ذلك المرض إليه. أي ومنها دعاؤه لحذيفة رضي الله تعالى عنه في الخندق ليلة انهزام الأحزاب، بأن الله يذهب عنه البرد، فكان كأنه يمشي في حمام كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومنها أنه تفل في عيني علي كرم الله وجهه وهو أرمد، فعوفي من ساعته كما تقدم في خيبر.

أي ومنها أنه بصق في نحر كلثوم بن الحصين وقد رمي فيه بسهم يوم أحد فبرأ كما تقدم.

ومنها تفل على أثر سهم في وجه أبي قتادة في غزاة ذي قرد، فما ضرب عليه ولا قاح كما تقدم.

ومنها أنه تفل على شجة عبد الله بن أنيس فلم تؤلمه كما تقدم.

ومنها أنه نفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه يوم

خبير فبرئت كما تقدم.
أي ومنها أنه نفث على رجل ورأس زيد بن معاذ رضي الله تعالى عنه حين أصابهما السيف عند قتل كعب بن الأشرف فبراً كما تقدم.
ومنها أنه نفث على ساق بن علي الحكم يوم الخندق وقد انكسرت، فبراً مكانه ولم ينزل عن فرسه كما تقدم.
ومنها أنه نفث على يد معوذ بن عفراء وقد قطعها عكرمة بن أبي جهل يوم بدر، وجاء يحملها فألصقها رسول الله فالتصقت كما تقدم.

ومنها أن محمد بن حاطب يحدث عن أمه أنها ولدت بأرض الحبشة وأنها خرجت به، قالت: حتى إذا كنت من المدينة على ليلة أو ليلتين طبخت لك طعاماً ففني الحطب، فذهبت أطلب، فتناولت القدر فانكفأت على ذراعك، فقدمت المدينة، فأتيت بك رسول الله، فقلت: يا رسول الله هذا محمد بن حاطب، وهو أول من سمي بك: أي بعد الإسلام قالت: فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم في فيك ومسح على ذراعك ودعا لك ثم تفل على يدك، ثم قال: «أذهب الباس رب الناس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً» قالت: فما قيمت من عنده حتى برئت يدك.

ومنها أنه نفث على عاتق خبيب وقد أصيبت يوم بدر بضربة على عاتقه حتى مال شقه فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه، فالتصق كما تقدم.
ومنها رد عين قتادة بعد أن سألت على خده، فكانت أحسن عينيه كما تقدم.
ومنها أن ضريراً شكاً إليه ذهب بصره وأنه لا قائد له، فقال له: توضع وصل ركعتين ولقنه دعاء فدعا به فأبصر لوقته.

أي ومنها أن رجلاً أبيض عيناه، فكان لا يبصر بهما شيئاً، فنفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه فأبصر. قال بعضهم: رأيت وهو ابن ثمانين يدخل الخيط في الإبرة.

ومنها أن عتبة بن فرقد السلمي كان يشم منه رائحة الطيب ولا يمس طيباً، لكونه نفث في يده الشريفة ومراً بها على جسده. قال بعض نساء عتبة: كنا أربع نسوة مامنا امرأة إلا وهي تجتهد في الطيب لتكون أطيب من صاحبها وما يمس عتبة الطيب، وإذا خرج إلى الناس، قالوا: ما شممتنا ريحاً أطيب من ريح عتبة، فقلن له يوماً: إنا لنجهد في الطيب ولأنت أطيب ريحاً منا فمم ذلك؟ فقال: أخذني الشرا على عهد رسول الله، فشكوت إليه ذلك، فأمرني أن أتجرد فتجردت وقعدت بين يديه، وألقيت ثوبي على فرجي، فنفت في يده الشريفة وذلك بها الأخرى ثم مسح ظهري وبطني بيديه فعبق هذا الذيب من يديه يومئذ، وإلى ذلك أشار صاحب الأصل بقوله رحمه الله ورحمنا به:

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وعتبة لما مسه راح عاطراً

يضوع الشذا منه بأعطر ما يحوي

ومنها دعوته لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما بأن الله يعلمه التأويل والفقهاء في الدين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما «ضمني رسول الله صلى الله

عليه وسلم إلى صدره، وقال: اللهم علمه الكتاب»، وفي لفظ «الحكمة» وعنه رضي الله عنه، قال: «أتى النبي صلى الله عليه وسلم الخلاء فوضعت له وضوءاً، فلما خرج قال: من وضع هذا؟ فأخبر، فقال: اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس، قال: اللهم بارك فيه، وانشر منه فكان كما دعا». ومنها دعاؤه لجمل جابر رضي الله عنهما، فصار سابقاً بعد أن كان مسبوقاً كما تقدم.

ومنها دعاؤه لأنس بطول العمر وكثرة المال والولد فكان كما دعا. فقد ذكر أنه عاش فوق المائة، وأخبر عن نفسه أنه أكثر الأنصار مالاً، ولم يمت حتى رأى مائة ولد من صلبه، وقد كان دفن مائة وعشرين من أولاده حين قدم الحجاج البصرة، وولد له بعد ذلك.

أي ومنها دعاؤه لأم أبي هريرة رضي الله عنهما بالإسلام فأسلمت. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال «كنت أدعو أُمِّي للإسلام وهي مشركة فدعوتها يوماً فأسمعتني في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أكره، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي، فقلت: يا رسول الله قد كنت أدعو أُمِّي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم اهد أم أبي هريرة للإسلام، فخرجت مستبشرة بدعوة النبي، فلما جئت قصدت إلى الباب فإذا هو مجاف: أي مردود، فسمعت أُمِّي حسنٌ قدمي، فقالت: على رسلك يا أبا هريرة، وسمعت خضخضة الماء، فاغتسلت ولبست درعها، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وأنا أبكي من الفرح، فقلت: يا رسول الله أبشر فقد استجاب الله دعوتك، وهدى أمَّ أبي هريرة، فحمد الله وقال خيراً.

ومنها دعاؤه في تمر حائط جابر رضي الله عنه بالبركة، فأوفى منه ما عليه وهو ثلاثون وسقاً بسبب دين استدانه والده من يهودي، وفضل بعد ذلك ثلاثة عشر وسقاً. وفي رواية: سبعة عشر وسقاً، أي مع قلة ما كان فيه من التمر حتى قال جابر رضي الله عنه: كنت أود أن يؤدي الله دين والدي ولا أرجع إلى إخوتي بتمرة واحدة فإن النخل في ذلك العام لم يحمل إلا القليل، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم اليهودي في أن يصبر إلى عام قابل وهو يابى ويقول: يا أبا القاسم لا أنظره، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فطاف في النخيل، ثم قال: يا جابر جدّ، أي إقطع واقض، فأخذت في الجذاذ ووفيته ثلاثين وسقاً وفضل سبعة عشر وسقاً، فحجته فأخبرته فضحك، وقال: أخبر بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فذهبت فأخبرته فقال: لقد علمت حين مشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليباركنَّ فيها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وفي لفظ آخر عن جابر: توفي أبي وعليه دين فعرضت على غرمائه أن يأخذوا النخل بما عليه. فأبوا ولم يروا أن فيه وفاء، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك، فقال: إذا جذذته ووضعته في المربرد فأعلمني فجدذته، فلما وضعته في المربرد أذنت رسول الله، فجاء ومعه أبو بكر وعمر فجلس عليه ودعا بالبركة، أي وهذا محمل رواية: ودعا في تمر جابر بحذف حائط. وقد يقال: يجوز أن يكون طاف في النخل أولاً ودعا، ثم لما قطع التمر ووضع في المربرد جاء وجلس عليه ودعا فلا مخالفة، ثم قال: ادع غرماءك فأوفهم، فما تركت أحداً له دين إلا قضيته وفضل مثله، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشرته، فقال: أشهد أني رسول الله. ومنها استسقاؤه فأمطرت السماء أسبوعاً، ثم شكى من كثرة المطر فاستصحى لهم فانجاب السحاب كما تقدم.

ومنها أنه دعا على عتبية بالتصغير ابن أبي لهب بأن يسلط عليه كلب فافترسه الأسد من بين القوم كما تقدم، أي والأسد إنما يسمى كلباً لأنه يشبه الكلب في أنه إذا بال رفع رجله، ومن ثم قيل: إن كلب أهل الكهف كان أسداً. وحكي أنه كان رجلاً يسمى بالكلب لملازمته للحراسة. ويرده ما جاء ليس في الجنة من الدواب إلا كلب أهل الكهف، وحمار العزيز، وناقاة صالح، وتقدم ذلك مع زيادة. وأما عتبة مكبراً فقد أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه معتب هذا هو المشهور وبعضهم عكس، فقال: عتبة المكبر هو عقير الأسد، وعتبية المصغر هو الذي أسلم يوم الفتح.

ومنها شهادة الشجرة له بالرسالة في خبر الأعرابي الذي دعاه إلى الإسلام، فقال: هل من شاهد على ما تقول؟ قال: نعم هذه الشجرة ادعها، فدعاها فأقبلت فاستشهدها فشهدت أنه كما قال ثلاثاً ثم رجعت إلى منبتها. ومنها أمره للشجرتين اللتين كانتا بشاطيء الوادي أن يجتمعا ليستتر بهما عند قضاء الحاجة، فاجتمعا ثم افترقتا وذهبتا إلى محلهما كما تقدم في غزاة خيبر.

ومنها أمره أنساً أن يتلطف إلى نخلاته يقول لهن، أمركن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجتمعن ليقضي حاجته بينكن، فلما قضى حاجته أمره أن يأمرهن بالعود إلى أماكنهن فعدن كما تقدم.

ومنها مجيء الشجرة إليه لتظله وتسلم عليه. فقد جاء أنه نام: أي في الشمس فجاءت شجرة تشق الأرض حتى قامت عليه، فلما استيقظ ذكر له ذلك. فقال: هي شجرة استأذنت ربها عز وجل في أن تسلم عليّ فأذن لها. ومنها حين الجذع إليه كما تقدم. ومنها تسبيح الحصى في كفه كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

أي ومنها تأمين أسكفة الباب وحوائط البيت على دعائه آمين آمين آمين كما تقدم.

ومنها تسبيح الطعام بين أصابعه الشريفة. ومنها إعلام الشاة المسمومة له بأنها مسمومة كما تقدم. ومنها شكوى البعير له قلة العلف وكثرة العمل كما تقدم.

أي ومنها شكوى بعض الطيور له بسبب أخذ بيضه أو فراخه. فقد جاء: «أن حمرة جاءت فوق رأسه، فقال: أيكم فجع هذه؟ فقال رجل من القوم: أنا

أخذت بيضها، فقال: رده رده رحمة لها». وفي لفظ: «من فجع هذه بفرخيها؟ فقلنا: نحن، فقال: ردهما إلى موضعهما» ولا مانع من وجود البيض مع الفراخ.

ومنها سجود البعير له الذي استصعب على أهله وصار كالكلب الكلب لا يقدر أن يقرب إليه كما تقدم.

ومنها سجود الغنم له في بعض حوائط الأنصار كما تقدم.

ومنها تكليم الجمل له كما تقدم.

ومنها تكليم الحمار له في خيبر، وهو اليعفور كما تقدم.

ومنها شهادة الجمل عنده أنه لصاحبه الأعرابي دون من ادعاه. ففي المعجم الكبير للطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فبصرنا بأعرابي أخذ بخطام بعيره حتى وقف على النبي صلى الله عليه وسلم ونحن حوله، فقال: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم السلام. وجاء رجل آخر كأنه حرسى، فقال الحرسى: يا رسول الله هذا الأعرابي سرق سرب البعير، فرغا البعير ساعة وحنّ فأنصت له رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة فسمع رغاؤه وحنينه، فلما هدأ البعير أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال للرجل: انصرف عنه فإن البعير شهد عليك أنك كاذب فانصرف، وأقبل النبي صلى الله عليه وسلم على الأعرابي؟ فقال: أي شيء، قلت حين جئت لي، قال: قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّ على محمد حتى لا تبقى صلاة، وبارك على محمد حتى لا تبقى بركة، اللهم سلم على محمد حتى لا يبقى سلام، اللهم وارحم محمداً حتى لا يبقى رحمة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل أبداها لي والبعير ينطق بعذرك وإن الملائكة قد سدوا الأفق.

أي ومنها سؤال الظبية له، أن يخلصها لترضع ولدها وتعود، فخلصها، وعادت وتلطفت بالشهادتين. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظبية مربوطة إلى خباء، فقالت: يا رسول الله خلصني حتى أذهب فأرضع خشفي ثم أرجع فتربطني، فقال لها: صيد قوم وربطة قوم، ثم استحلفها أن ترجع، فحلفت له، فحلها فمكثت قليلاً ثم جاءت وقد نفضت ضرعها، فربطها رسول الله، ثم أتى خباء أصحابها فاستوهبها منهم فوهبها له فحلها.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وعن زيد بن أرقم نحو هذا، وزاد فأنا والله رأيتها لتسيح في البرية وتقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وذكر بعضهم أن حديث الغزاة موضوع:

أي ومنها شهادة الذئب له بالرسالة كما تقدم.

ومنها شهادة الضبّ له بالرسالة كما تقدم.

ومنها إخباره عن مصارع المشركين ببدر، فلم يعد أحد منهم من مصرعه كما تقدم.

ومنها إخباره بأن طائفة من أمته يغزون البحر، وأن أم حرام بالراء المهملة بنت ملحان منهم، فكان كذلك كما تقدم.
ومنها إخباره لعثمان بن عفان رضي الله عنه بأنه تصيبه بلوى شديدة فأصابته وقتل فيها.

ومنها قوله للأنصار: «إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني» والأثرة: بضم الهمزة وسكون التاء المثلثة: أي يستأسر عليكم غيركم بأمور الدنيا، فكان ما وقع في زمن معاوية في وقعة الجمل وصفين، وفي زمن ولده يزيد في وقعة الحرة كما تقدم.

ومنها إخباره بأنه لا يبقى أحد من أصحابه بعد المائة: أي من الهجرة. والذي ينبغي أن تكون المائة من حين وفاته، لأن أبا الطفيل رضي الله عنه آخر من مات من الصحابة فكان موته بعد المائة من الوفاة.

وعن أبي الطفيل رضي الله عنه قال: «وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسي، وقال: يعيش هذا الغلام قرنا فعاش مائة سنة».

ومنها إخباره بالمغيبات وهو باب واسع جداً.
فمن ذلك أنه جيء إليه برجل سرق، فقال: اقتلوه، فقيل له أنه سرق. فقال: اقطعوه، ثم أتى به بعد إلى أبي بكر رضي الله عنه وقد سرق فقطع، ثم ثالثة ورابعة إلى أن قطعت قوائمه، ثم جيء به إلى أبي بكر وقد سرق، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: لا أجد لك شيئاً إلا ما قضى به فيك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أمر بقتلك، فإنه كان أعلم بذلك، ثم أمر بقتله.

ومنها قوله لقيس بن خرخشة العبسي رضي الله عنه وقد قال له: «يا رسول الله أبايعك على ما جاء من الله، وعلى أن أقول الحق: يا قيس عسى إن مرّ بك الدهر أن يليك ولاة لا تستطيع أن تقول معهم الحق، فقال قيس: لا والله لا أبايعك على شيء إلا وفيت به، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذن لا يضرك شيء» وكان قيس رضي الله عنه يعيب زياداً وابنه عبيد الله بن زياد ومن بعده، فبلغ ذلك عبيد الله بن زياد، فأرسل إليه فقال له: أنت الذي تفتري على الله وعلى رسوله؟ فقال: لا والله ولكن إن شئت أخبرك بمن يفتري على الله ورسوله؟ قال: ومن هو؟ قال: من ترك العمل بكتاب الله وسنة رسوله، قال: ومن ذلك؟ قال: أنت وأبوك ومن أمركما. قال: وأنت الذي تزعم أنك لا يضرك بشر؟ قال نعم. قال: لتعلمن اليوم أنك كاذب، اتتوني بصاحب العذاب، فمال قيس عند ذلك فمات.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومن ذلك قوله لزوجاته: «أيتكن تنبجها كلاب الحوآب؟ وأيتكن صاحبة الجمل الأديب» بالبدال المهملة والفك لغة في الأدب بالإدغام: وهو كثير الشعر «يقتل حولها قتلى كثير وتتجو بعدما كادت» فكانت تلك عائشة رضي الله عنها، فإنه لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه كانت عائشة بمكة، لأنها خرجت إلى مكة وهو محاصر وكلمها مروان بن الحكم في عدم الخروج، وقال لها: لا تخرجي يا أماه، فجاء إليها طلحة والزبير رضي الله عنهما بعد أن بايعا علياً

على كرهه، واستأذنا علياً كرم الله وجهه في العمرة فأذن لهما فقدموا مكة، وخرجت بنو أمية من المدينة ولحقت بمكة قبل المبايعة لعلي، فخرج مروان وغيره من أهل المدينة، وجاء إلى عائشة رضي الله عنها يعلى بن أمية رضي الله عنه وكان عاملاً لعثمان باليمن. فلما بلغه حصار عثمان قدم لنصرته فسقط من على بغيره في أثناء الطريق فكسر فخذه، وبلغه قتل عثمان، فلا زالوا بعائشة حتى وافقت على الخروج إلى العراق في طلب دم عثمان رضي الله عنه، ودفع لها ذلك الجمل يعلى بن أمية اشتراه بمائتي دينار، وأعان الزبير بأربعمائة ألف دينار، وصار يقول: من خرج في طلب دم عثمان فعليّ جهازه، فحمل سبعين رجلاً من قريش، وطلبت عائشة رضي الله عنها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن يكون معها. فقال: معاذ الله أن أدخل في الفتنة، ويقال إن طلحة والزبير دعوا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما إلى الخروج معهم، فقال لهم: أما تخافون الله أيها القوم، وتدعوا هذا الأباطيل عنكم؟ وكيف أضرب في وجه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالسيف وقد عرفت فضله وسابقته ومكآنته من رسول الله، وإنكما بايعتماه وسألتماه القيام بهذا الأمر ثم نكثتما بعد أن جعل الله عليكم شهيداً، وإنه ما بدل ولا غير. والقاتل لعثمان رضي الله تعالى عنه أخو زعيمكم ورئيسكم يعني بعائشة وأخوها محمد بن أبي بكر رضي الله عنهم، فإنه أخذ بلحيته فضربها حتى تقلقت أضراسه وضربه بالمشقص،

فلما كانت عائشة رضي الله عنها في أثناء الطريق سمعت كلاباً تنبح، فسألت عن ذلك المحل، فقيل لها: هذا الحوآب، فأرادت الرجوع لما تذكرت ما قال لها رسول الله . أي فإنها صرخت وأناخت بغيرها، وقالت: والله أنا صاحبة الحوآب، ردوني ردوني ردوني. فعند ذلك يقال إن طلحة والزبير أحضرا خمسين رجلاً شهدوا أن هذا ليس بماء الحوآب، وأن المخبر لها كذاب. قال الشعبي: وهي أول شهادة زورت في الإسلام، وقال لها الزبير رضي الله عنه: ولعل الله أن يصلح بك بين الناس، فلما بلغ علياً كرم الله وجهه توجه عائشة ومن ذكر معها إلى العراق توجه إلى العراق بعد أن كان أراد الذهاب إلى الشام وقام في الناس، وقال: ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتي، وإني خارج إليهم، ثم جاءه الخبر أن ستين ألف شيخ تبكي تحت قميص عثمان، وهو منصوب على منبر دمشق ومعلق فيه أصابع زوجة عثمان، فقال: أمني يطلبون دم عثمان؟.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ولما أراد الخروج جاءه عبد الله بن سلام رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين لا تخرج منها: أي المدينة، فوالله لئن خرجت منها لا يرجع إليها سلطان المسلمين فسيبوه، وقالوا له: يا ابن اليهودية ما لك ولهذا الأمر؟ فقال لهم علي كرم الله وجهه: دعوا الرجل، فنعم الرجل من أصحاب محمد.

ثم إن طلحة والزبير وأم المؤمنين وصلوا إلى البصرة ووقع بينهم وبين أهل البصرة مقتلة كبيرة، بعد أن افترقوا فرقتين إحداهما تقول صدقت وبرت،

يعني عائشة وجاءت بالمعروف. وقالت الأخرى كذبت. ثم انحازت الأخرى إلى
عسكر أم المؤمنين وقهروا أهل البصرة، ونادى منادي الزبير وطلحة: ألا من
كان عنده أحد ممن غزا المدينة فليأت به، فجيء بهم كما يجاء بالكلاب وكانوا
ستمائة فقتلوا فما أفلت منهم من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير. وكتب
طلحة والزبير إلى أهل الشام: إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله،
فوافقنا خيار أهل البصرة وخالفنا شرارهم، ولم يفلت من قتلة أمير المؤمنين
عثمان من أهل البصرة إلا حرقوص بن زهير، والله مقيده إن شاء الله. وكتبوا
لأهل الكوفة بمثله وكتبوا إلى أهل اليمامة بمثل ذلك، وكتبوا إلى أهل المدينة
بمثل ذلك.

ثم سار علي كرم الله وجهه إلى البصرة، ثم أرسل إلى أهل الكوفة يستنفرهم
إليه فنفروا إليه بعد أمور يطول ذكرها، وكانوا سبعة آلاف. والتقى الجيشان
جيش علي كرم الله وجهه وجيش عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها،
بعد أن كتب لطلحة والزبير: أما بعد، فقد علمتما أنني لم أرد البيعة حتى أكرهت
عليها، وأنتما ممن رضي ببيعتي وألزمي إياها، فإن كنتما بايعتما طائعين فتوبا
إلى الله وارجعا عما أنتما عليه فإنك يا طلحة شيخ المهاجرين، وأنت يا زبير
فارس قريش، لو دفعتما هذا الأمر قبل أن تدخل فيه لكان أوسع لكما من
خروجكما منه والسلام.

وكتب لعائشة رضي الله عنها: أما بعد، فإنك قد خرجت من بيتك تزعمين أنك
تريدين الإصلاح بين المسلمين، وطلبت بزعمك دم عثمان وأنت بالأمس تؤلبيين
عليه فتقولين في ملاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتلوا نعتلاً
فقد كفر، قتله الله، واليوم تطلبين بثأره، فاتقي الله وارجعي إلى بيتك وأسبلي
عليك سترك قبل أن يفضحك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فلما قرؤوا الكتابين عرفوا أنه على الحق.
وعند ذلك خرج طلحة والزبير رضي الله عنهما على فرسين وخرج إليهما علي
كرم الله وجهه، ودنيا كل واحد من الآخر. فقال لهما علي: لعمرى لقد أعددتما
خيلاً ورجالاً وسلاحاً، فاتقيا الله ولا تكونا كالكثي نقصت غزلها من بعد قوة
أنكاثاً {ألم تكونا: أخوي في الله تحرمان دمي وأحرم دمكما؟ فقال له طلحة
رضي الله عنه: ألبت الناس على عثمان، فقال له علي كرم الله وجهه: أنتما
خذلتماه، حتى قتل، فسلط الله اليوم على أشرنا على عثمان ما يكره، ثم
توافقوا على الصلح، وقتل من كان له دخل في قتل عثمان رضي الله عنه.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وبات الفريقان على ذلك. وبات الذين أثاروا أمر عثمان بشر ليلة وباتوا
يتشاورون. ثم اتفقوا على إنشباب الحرب، فلما كان وقت الغلس ثاروا ووضعوا
السلاح، فثار الناس، فخرج طلحة والزبير في وجوه الناس. وقالوا: ما هذا؟
قالوا: طرقتنا جيش علي فقالوا: علمنا أن علياً غير سفيه حتى يسفك الدماء،
ويستحل الحرمه: فقام علي كرم الله وجهه في وجوه الناس. وقال: ما هذا،
قالوا: طرقتنا جيش عائشة. فقال: لقد علمت أن طلحة والزبير غير سفيهين

حتى يستفكا الدماء ويستحلا الحرمة، ونشبت الحرب فألبسوا هودج عائشة رضي الله عنها الدروع، ووقفت على الجمل، وصار كل من أخذ زمامه قتل، وقتل طلحة رضي الله عنه جاءه سهم غرب يقال أرسله له مروان بن الحكم وهو كان في جيش أم المؤمنين. وفر الزبير رضي الله عنه لما قال له علي كرم الله وجهه: يا زبير أتذكر لما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك تقاتلني وأنت ظالم لي؟ فقال: والله لو ذكرت ذلك ما قاتلتك ولا سرت سيرتي هذا، ولكن رجوعي عين العار فقال له علي كرم الله وجهه: ترجع بالعار ولا ترجع بالنار، فترك وذهب، وصار الهودج مثل القنفذ من كثرة النشاب. فعند ذلك عفروا الجمل، ووقع الهودج على الأرض، وجعلت تقول عائشة رضي الله عنها: يا بني اتبعه اتبعه.

وعند ذلك قال علي كرم الله وجهه لمحمد بن أبي بكر رضي الله عنهما، انظر أختك هل أصابها شيء؟ فلما جاءها وأدخل يده، قالت: من أنت؟ قال: ابن الخثعمية، قالت: محمد؟ قال نعم. قالت: بأبي أنت وأمي، الحمد لله الذي عافاك. وفي رواية قال لها: أخوك محمد البار، فقالت: بل مذمم العاق فضرب عليها فسطاطا، فلما كان من آخر الليل خرج بها، وأدخلها البصرة وأنزلها في دار صفية بنت الحارث أم طلحة الطلحات، وبكت عائشة رضي الله عنها بكاء كثيراً وقالت: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وقد قال علي كرم الله وجهه مثل ذلك لما رأي من كثرة القتلى، فقد قيل: إن القتلى بلغت عشرة آلاف، وقيل ثلاثة عشر ألفاً.

ثم إن علياً كرم الله وجهه صلى على القتلى من الفريقين، ثم دخل البصرة على بغلته متوجهاً لعائشة رضي الله عنها، فلما دخل عليها سلم عليها وقعد عندها ثم جهزها بكل شيء ينبغي لها، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وأمرهن بلبس العمائم وتقليد السيوف، ثم قال لهن: لا تعلمن أنكن نسوة وتلثمن مثل الرجال وكن حولها من بعيد ولا تقرننها، وقال لأخيها محمد: تجهز معها. وفي رواية جهز معها أخاها عبد الرحمن في جماعة من شيوخ الصحابة. فلما كان يوم خروجها جاء إليها علي كرم الله وجهه ووقف الناس وخرجت فودعها وودعتهم، وقالت: يا بني والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي عليه عندي لمن الأخيار، فقال علي: أيها الناس صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، وذهب معها نحو سبعة أميال: ثم ذهبت إلى مكة حتى حجت، ثم رجعت إلى المدينة وعلمت عند وصولها إلى مكة أن هؤلاء الرجال حولها نساء فأنهن كشفن عن وجوههن وعرفنهن الحال فشكرت وقالت: والله لا يزداد ابن أبي طالب إلا كرماً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وقيل إن كعب بن سعد أتى عائشة رضي الله تعالى عنها وقال: لعل الله أن يصلح بك، والأولى الصلح والسكون والنظر في قتلة عثمان بعد ذلك، فوافقت وركبت هودجها وقد ألبسوه الأدرع ثم بعثوا جملها وذهب إلى علي كرم الله

وجهه وقال له مثل ذلك، فقال له: قد أحسنت، وأشرف القوم على الصلح، فخافت قتلة عثمان رضي الله عنه فأشار عليهم ابن السوداء الذي هو السبائي الذي هو أصل الفتنة أن يفترقوا فرقتين تكون كل فرقة في عسكر من العسكرين، فإذا جاء وقت السحر ضربت كل فرقة منهما إلى العسكر الذي فيه الفرقة الأخرى فنادت كل فرقة في العسكر الذي هي فيه غررنا، ففعلوا ذلك، فنشبت الحرب وحصل ما تقدم.

ومن ذلك قوله في الحسن رضي الله عنه: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فصالح معاوية رضي الله عنهما، وحقق دماء الفئتين من المسلمين. أي فإن الحسن رضي الله عنه لما بويع له بالخلافة يوم مات أبوه كان في الخلافة سبعة أشهر، وقيل ستة أشهر. ولما سار إلى قتال معاوية كان معه أكثر من أربعين ألفاً، فلما سار عدا عليه شخص وضربه بخنجر في فخذه ليقتله، فقال الحسن: قتلتم أبي بالأمس، ووثبتم عليّ اليوم، تريدون قتلي، زهداً في العادلين، ورغبة في القاسطين، لتعلمن نبأ بعد حين.

أي ويذكر أنه بينما هو يصلي إذ وثب عليه شخص فطعنه بخنجر وهو ساجد، ثم خطب الناس، فقال: يا أهل العراق اتقوا الله فينا فأنا أمراؤكم ونحن أهل البيت الذين قال الله فيهم: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً} فما زال يقولها حتى ما بقي أحد من أهل المسجد إلا وهو يبكي.

ثم كتب إلى معاوية رضي الله عنهما بتسليم الأمر: أي بعد أن أرسل إليه معاوية رضي الله عنه رجلين يكلمانه في الإصلاح، فإن عمرو بن العاص لما رأى الكنائب مع الحسن أمثال الجبال، قال لمعاوية: إنني لأرى هذه الكنائب لا تولي حتى تقتل أقرانها، فخلع الحسن رضي الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية، تورعاً وزهداً، وقطعاً للشر، وإطفاءً لثائرة الفتنة، وتصديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله المتقدم، وغض منه شيعته حتى قال له بعضهم: يا عار المؤمنين سوّدت وجوه المؤمنين، فقال: العار خير من النار. وقال له بعضهم: السلام عليك يا مدل المؤمنين، فقال له: لا تقل ذلك كرهت أن أقتلكم في طلب الملك، وعند ذلك: أي لما انبرم الصلح طلب منه معاوية رضي الله عنهما أن يتكلم بجمع من الناس ويعلمهم أنه سلم الأمر إلى معاوية، فأجابه إلى ذلك وصعد المنبر وحمد الله إلي أن قال في خطبته: أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بأخرنا، إلا أن أكيس الكيس التقى، وأعجز العجز الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت أنا ومعاوية فيه إما أن يكون أحق به مني أو يكون حقي، فإن كان حقي فقد تركته لله ولصلاح أمة محمد وحقن دمائهم، ثم التفت رضي الله عنه إلى معاوية وقال {إن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين}، أي ثم انتقل من الكوفة إلى المدينة وأقام بها، وكان من جملة ما اشترطه على معاوية رضي الله عنه أن يكون الأمر شورى بين المسلمين بعده، ولا يعهد إلى أحد من بعده عهداً.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وقيل على أن يكون الأمر للحسن بعده فلما سم الحسن اتهم بذلك زوجته بنت الأشعث بن قيس، وأن ذلك بدسياسة من يزيد ولد معاوية، ووعدّها أن يتزوجها،

وبذل لها مائة ألف درهم حرصاً على أن يكون الأمر له، فإن معاوية عرض بذلك في حياة الحسن ولم يكشفه إلا بعد موته.

ولما جاء الخبر لمعاوية بموته رضي الله عنه قال: يا عجباً من الحسن بن علي شرب شربة مع غسل بماء رومة، يعني بئر رومة فقضى نحبه. وأتى ابن عباس رضي الله عنهما معاوية وهو لا يعلم الخبر، فقال له معاوية: هل عندك خبر المدينة؟ قال لا، فقال معاوية: يا ابن عباس احتسب الحسن، لا يحزنك الله ولا يسؤك، فأظهر عدم التشوش وقال: أما ما أبقاك الله لي يا أمير المؤمنين فلا يحزنني الله ولا يسوؤني، فأعطاه على تلك الكلمة ألف ألف.

وذكر بعضهم قال: كنا عند الحسن رضي الله عنه ومعنا الحسين رضي الله عنه، فقال الحسن: لقد سقيت السم مراراً وما سقيته مثل هذه المرة، ولقد لفظت طائفة من كبدي، فقال له الحسين: أي أخي ومن سقاك؟ قال: وما تريد؟ أتريد أن تقتله؟ قال نعم: قال لئن كان الذي أظن فالله أشد نقمة، ولئن كان غيره ما أحب أن يقتل بي بريئاً.

وكان الحسن رضي الله عنه رجلاً حليماً لم يسمع منه كلمة فحش، وكان مروان وهو وال على المدينة يسبه ويسب علياً كرم الله وجهه كل جمعة على المنبر، فقيل له في ذلك؟ فقال: لا أمحو عنه شيئاً بأن أسبه، ولكن مواعي وموعده الله، فإن كان صادقاً جازاه الله بصدقه، وإن كان كاذباً فالله أشد نقمة.

وأغلظ عليه رضي الله تعالى عنه مروان يوماً وهو ساكت، ثم امتخط مروان بيمينه، فقال له الحسن رضي الله تعالى عنه: أف لك، لك علمت أن اليمين لها شرف، فخجل مروان. وبكى مروان في جنازته، فقال له الحسين: أتبكيه وقد كنت تجرعه ما تجرعه؟ فقال: أني كنت أفعل ذلك إلى أحلم من هذا وأشار إلى الجبل.

ومن ثم لما وقع بين الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما بعض الشحاء فتهاجرا، ثم أقبل الحسن على الحسين فأكب على رأسه يقبله، فقال له الحسين: إن الذي منعني من ابتدائك بهذا أنك أحق بالفضل مني، وكرهت أن أنازعك ما أنت أحق به مني، وقد تقدم ذلك.

ومن شعر الحسن رضي الله تعالى عنه:
من ظن أن الناس يغنونه
فليس بالرحمن بالوائق

ومن ذلك إخباره بقتل الأسود العنسي الكذاب: أي الذي ادعى النبوة ليلة قتله بصنعاء وبمن قتله كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

أي ومنها إخباره بأن رجلاً من أمته يتكلم بعد الموت، فكان كذلك وهو زيد بن حارثة. وتكلم غيره أيضاً، فعن ابن المسيب أن رجلاً من الأنصار توفي، فلما كفن أتاه القوم يحملونه تكلم، فقال: محمد رسول الله، فلعل المراد بالرجل جنس الرجل.

ومنها إخباره بأن أمته تتخذ الخصيان، وأمرهم أن يستوصوا بهم خيراً، فقال: «سيكون قوم ينالهم الخصاء، فاستوصوا بهم خيراً» وهو يقتضي أن الخصاء لم يكن في غير هذه الأمة.

ومن ذلك إخباره بذهاب الأمانة والعلم والخشوع وعلم الفرائض أي قرب قيام الساعة.

ومن ذلك قوله لثابت بن قيس: «تعيش حميداً، وتقتل شهيداً»، فقتل رضي الله تعالى عنه يوم اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب لعنه الله.

وإخباره بالمغيبات باب واسع. منه الإخبار بالحوادث الكائنة بعده إلى آخر الزمان. والإخبار عن أحوال يوم القيامة من القضاء والحشر والحساب، والإخبار عن الجنة والنار.

فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه: «لقد حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يكون حتى تقوم الساعة» وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح يوماً وصعد المنبر فخطب حتى حضرت الظهر فنزل فصلى الظهر، ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر فخطب حتى غربت الشمس فأخبر بما كان وبما هو كائن.

ومن ذلك أيضاً قوله لمعاذ لما بعثه إلى اليمن في جماعة من المهاجرين والأنصار: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي غداً وقبري» وكان كذلك، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذ باليمن، ولم يتقدم إلا في خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

ومن ذلك قوله: «سنفتح عليكم مصر، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم رحماً وصهرأ، والمراد بالرحم، أم إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام جده فإنها كانت قبضية، والمراد بالصهر أم ولده إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأنها كانت قبضية كما علمت.

ومنها إجابة دعائه غير ما تقدم: فمن ذلك دعاؤه لثعلبة بن حاطب الأنصاري أي غير البدري، لأن ذاك قتل بأحد، وهذا تأخر إلى زمن عثمان رضي الله تعالى عنه كما سيأتي خلافاً لمن وهم في ذلك، لأن من شهد بدماء لا يدخل النار: وكثيراً ما يقع الاشتراك في الاسم واسم الأب كما قال بعض الصحابة، وهو طلحة بن عبيد الله: لئن مات محمد لأتزوجن عائشة من بعده، فأنزل الله تعالى: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله} الآية، ظن بعضهم أن المراد بطلحة هذا أحد العشرة المبشرين بالجنة، وحشاة من ذلك، وهو أجل مقاماً من أن يصدر منه مثل ذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ولما قال ثعلبة بن حاطب له: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال له: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه، ثم أتاه مرة أخرى فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال له: ويحك يا ثعلبة أما ترضى أن تكون مثل رسول الله، فوالذي نفسي بيده، لو سألت ربي أن يسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت، فقال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن

يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فاتخذ غنماً فصارت تنمى كما تنمى الدود، وضافت عليه المدينة فتحنى عنها فنزل وادياً من أوديتها، فكان يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك الجماعة فيما سواهما، ثم نمت وكثرت حتى ترك الجماعة فيما سوى الجمعة فإنه كان يشهدها مع النبي، ثم ترك الجمعة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما فعل ثعلبة؟ فأخبروه بخبره، فقال: يا ويح ثعلبة قالها ثلاثاً، فلما نزل قوله تعالى: {خذ من أموالهم صدقة} الآية بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة وكتب لهما فرائض الصدقة وأسنانها وقال لهما مرا بثعلبة، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب النبي، فقال: انطلقا حتى تفرغا، ثم تودا إليّ فانطلقا ثم مرّا عليه، فقال: أرياني كتابكما أنظر فيه، فنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخية الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي، فلما رآهما قال قبل أن يكلماه: يا ويح ثعلبة، فلما أخبراه بالذي صنع ثعلبة، أنزل الله تعالى: {ومنهم من عاهد الله} الآيات، وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة، فأرسل إليه بأن الله قد أنزل فيك قرآناً وهو كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه الصدقة فقال: إن الله منعني أن أقبل صدقتك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هذا عملك وقد أمرتك فلم تطعني، وأبى أن يقبل منه

شيئاً، فأتى أبا بكر رضي الله تعالى عنه حين استخلف فسأله قبول صدقته، فقال له: لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنا لا أقبلها، ثم فعل كذلك مع عمر رضي الله تعالى عنه، ثم مع عثمان رضي الله تعالى عنه، وكل يأبى أن يقبل صدقته، ومات في خلافة عثمان.

ومن ذلك قوله في رجل ارتد ولحق بالمشركين: اللهم اجعله آية. فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رجل من بني النجار حفظ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي، فارتد ولحق بأهل الكتاب، وكان يقول ما يدري محمد إلا ما كتب له، فقال اللهم اجعله آية، فأماته الله فدفنوه فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمد وأصحابه لما هرب منهم نبشوه وألقوه فحفروا له وأعمقوا ما استطاعوا، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا مثل الأول، فحفروا وأعمقوا، فلفظته الأرض في المرة الثالثة، فعلموا أنه ليس من فعل الناس. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومن ذلك قوله لرجل يأكل بشماله: «كل بيمينك، فقال: لا أستطيع» أي قال ذلك تكبراً وعناداً «فقال له: لا استطعت، فلم يطق أن يرفعها إلى فيه بعد». أي ومن ذلك المرأة التي خطبها فقال له أبوها إن بها برصاً ولم يكن بها برص، وإنما قال ذلك امتناعاً من خطبته، فقال: فلتكن كذلك، فبرصت. ومن ذلك «أن فاطمة رضي الله تعالى عنها جاءت إليه فنظر إليها وقد ذهب الدم من وجهها وغلبت الصفرة على وجهها من شدة الجوع، فقال لها: ادن مني يا فاطمة، فدنت منه، فرفع يده فوضعها على صدرها وفرج بين أصابعه، وقال: اللهم مشيع الجاعة، ورافع الوضيعة، ارفع فاطمة بنت محمد، فذهبت الصفرة عنها حالاً، ولم تشك بعد ذلك جوعاً».

ومن ذلك ما حدّث به وائلة بن الأسقع قال: «حضر رمضان ونحن في أهل الصفة فصمنا. فكنا إذا أفطرنا أتى كل رجل منا رجلاً من أهل الصفة فأخذه فانطلق به فعشاه فأتت علينا ليلة فلم يأتنا أحد، فأصبحنا صياماً، ثم أتت علينا الليلة القابلة فلم يأتنا أحد، فانطلقنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه بالذي كان من أمرنا، فأرسل إلى كل امرأة من نسائه يسألها هل عندها شيء؟ فما بقيت امرأة إلا أرسلت تقسم ما أمسى في بيتها ما يأكل ذو كبد، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجتمعوا فدعا رسول الله ، وقال: اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك فإنهما بيدك لا يملكهما أحد غيرك، فلم يكن إلا مستأذن يستأذن، فإذا بشاة مصلية ورطب، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت بين أيدينا فأكلنا حتى شبعنا». ومنها تساقط الأصنام حول الكعبة بإشارته إليها، أو طعنة فيها بقضيب كان في يده قائلاً: {جاء الحق وزهق الباطل} كما تقدم. ومنها تكثير الطعام، وقد وقع له ذلك في مواطن كثيرة. فمن ذلك إطعام ألف من صاع شعير في حفر الخندق فشبعوا والطعام أكثر مما كان كما تقدم. ومن ذلك إطعام أهل الخندق من تمر يسير كما تقدم. ومن ذلك جمع ما فضل من الأزواد ودعاؤه فيها بالبركة وقسمتها في العسكر، فقامت بهم كما تقدم في الحديدية وتبوك.

ومن ذلك دعاؤه لأبي هريرة في تمرات قد صفهن في يده، وقال ادع لي فيهن بالبركة، أي فدعا له بذلك، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: فأخرجت من ذلك التمر كذا وكذا وسقاً في سبيل الله، وكنا نأكل منه ونطعم حتى انقطع في زمن عثمان رضي الله تعالى عنه، أي بانقطاع المزود الذي أمره أن يكون به التمر. والمزود: وعاء من جلد يوضع فيه الزاد وقال له: إذا أردت شيئاً فأدخل يدك ولا تكفأ فيكفأ عليك، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه وكان لا يفارق حقوي، فلما قتل عثمان انقطع حقوي فسقط. وفي رواية: كان معلقاً خلف رحلي فوقع في زمن عثمان: أي في زمن محاصرته وقتله فذهب. وفي رواية: فلما قتل عثمان انتهب بيتي وانتهب المزود: أي بعد سقوطه من حقوه فلا يخالف ما سبق.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

وقد جاء في بعض الروايات عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بتمرات، فقلت: يا رسول الله ادع لي فيهن بالبركة، فصفهن ثم دعا فيهن بالبركة وقال: خذهن واجعل في مزودك ما أردت منهن، أي إذا أردت أخذ شيء منهن أدخل يدك فيه فخذه ولا تنثره نثرًا. أي وفي لفظ: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصاب الناس مجاعة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة هل من شيء؟ قلت: نعم شيء من تمر في المزود، فقال: ائني به فأتيته به فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها، ثم قال لي: ادع لي عشرة، فدعوت عشرة فأكلوا حتى شبعوا، فما زال يصنع ذلك حتى أطعم الجيش كلهم، ثم قال: خذ ما جئت به أدخل يدك فاقبض ولا تكفأه، قال:

فقبضت على أكثر ما جئت به، ثم أكلت منه حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أبي بكر وأطعمت، وحياة عثمان وأطعمت، وحياة عمر وأطعمت فلما قتل عثمان انتهب مني.

ومن ذلك تكثير الطعام الذي وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصابعه، فقد جاء: «أنه دعا أهل الصفة لقصعة ثريد، فأكلوا حتى لم يبق إلا اليسير في نواحيها، فجمعه فصار لقمة، فوضعها على أصابعه وقال لأبي هريرة رضي الله تعالى عنه» أي لأنه كان من أهل الصفة «كل بسم الله. قال أبو هريرة: فوالذي نفسي بيده ما زلت أكل منها حتى شبعت كما تقدم» قيل وكان أصحاب الصفة حينئذ تسعين، وقيل مائة ونيفاً، وقيل أربعمائة. ومن ذلك تكثير الطعام الذي جاء به أنس رضي الله تعالى عنه للنبي . فعنه رضي الله تعالى عنه قال «تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل بأهله. فصنعت أمي أم سليم حيساً فجعلته في تور، فقالت: يا أنس اذهب به إلى رسول الله ، فقل: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول لك: إن هذا لك من قليل، قال: فذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت له: إن أمي تقرئك السلام وتقول لك: إن هذا منا لك قليل، فقال: ضعه، ثم قال: اذهب فادع لي فلاناً وفلاناً وفلاناً ومن لقيت، فدعوت من سمى ومن لقيت. قيل لأنس: كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة، وقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس هات التور، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه، فأكلوا حتى شبعوا كلهم، ثم قال: يا أنس ارفع فما أدري حين وضعت كان أكثر أو حين رفعت».

ومن ذلك تكثير الطعام الذي صنعه أبو أيوب الأنصاري، فعنه رضي الله تعالى عنه قال: «صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله تعالى عنه طعاماً قدر ما يكفيهما فأتيتهما به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب فادع لي ثلاثين من أشرف الأنصار، قال فشق ذلك عليّ، ما عندي ما أزيده، فقال: اذهب فادع لي ثلاثين من أشرف الأنصار. قال أبو أيوب رضي الله تعالى عنه: فدعوتهم فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم اطعموا، فأكلوا حتى صدروا، ثم شهدوا أنه رسول الله قبل أن يخرجوا، ثم قال: اذهب فادع لي ستين من أشرف الأنصار، فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا، ثم شهدوا أنه رسول الله قبل أن يخرجوا، ثم قال: اذهب فادع لي تسعين من الأنصار، فدعوتهم فأكلوا حتى صدروا، ثم شهدوا أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرجوا، فأكل من طعامي ذلك مائة وثمانون رجلاً كلهم من الأنصار.

قال: ومنها تكثير اللبن في القدح. فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «أنه اشتد به الجوع يوماً، قال: فمر عليّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فقممت إليه وسألته عن آية من كتاب الله ليشبعني، فمرّ ولم يفعل، ثم مر عليّ عمر ففعلت معه وفعل معي كذلك، ثم مرّ، فتبسم حين رأني وعرف ما في نفسي، ثم قال: يا أبا هريرة» وفي لفظ: «يا أبا هر، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: الحق، فتبعته إلى أن دخل بيته وأذن لي، فدخلت فوجدت لنا في قدح، فقال: «أي لأهل بيته» من أين هذا اللبن؟ فقيل: أهدي لك، فقال: يا أبا هريرة، قلت لبيك يا رسول الله، قال: ادع لي أهل الصفة، فسأني ذلك، فقلت: ما هذا اللبن في أهل الصفة، وما أظن أن ينالني من هذا اللبن شيء» أي لأنهم كانوا أربعمئة على ما تقدم «فدعوتهم، فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت، فقال: يا أبا هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل، فيشرب حتى يروى، حتى لم يبق إلا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: اقعد فاشرب، فشربت فقال لي: اشرب فشربت، فما زال يقول لي اشرب فاشرب، حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلماً، فأعطيته القدح، فحمد الله عز وجل وسمى وشرب الفضلة» اهـ أي وتقدم ذلك. وفي لفظ: «حتى إذا لم يبق إلا أنا وهو فأخذ القدح على يده ونظر إليّ وتبسم، فقال: يا أبا هريرة، قلت لبيك يا رسول الله، قال: بقيت أنا وأنت، قلت صدقت يا رسول الله، قال: اقعد فاشرب» الحديث. وقد جاء: «أنه لما قال لأبي هريرة: يا أبا هر، قال إنما أنا أبو هريرة، فقال: الذكر خير من الأنثى».

ولما وقع القتال بين علي ومعاوية رضي الله تعالى عنهما كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يصلي خلف علي كرم الله وجهه، ويحضر طعام معاوية، وعند القتال يصعد على تل فقيل له في ذلك فقال: الصلاة خلف عليّ أقوم، وطعام معاوية أدسم، والقعود على هذا التل أسلم.

ومن ذلك ما حدثت به بنت خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنهما قالت: «خرج خباب في سرية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهدنا وكان لنا عنز، فكان يحلبها فيملاً حلابها جفنة لنا، فلما جاء خباب عاد حلابها لما كان عليه أولاً. فقلت لأبي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلبها فتمتلىء جفنتنا، فلما حلبتها رجع حلابها».

ومن ذلك ما حدث به بعض الصحابة أنه قال: «كنا زهاء أربعمئة رجل فنزلنا في موضع ليس فيه ماء فشق ذلك على أصحابه، فجاءت شويهة لها قرنان فقامت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلبها، فشرب حتى روي وسقى أصحابه حتى رووا ثم قال لي: املكها الليلة وما أراك تملكها، فأخذتها فوئدت لها وتداً ثم ربطتها بحبل، ثم قمت في بعض الليل، فلم أر الشاة، ورأيت الحبل مطروحاً فجئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال: ذهب بها الذي جاء بها».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومنها: «أن امرأة كانت أهدت للنبي سمناً في عكة فقبله، وترك في العكة قليلاً ونفخ فيه ودعا بالبركة، فكان يأتيها بنوها يسألونها الأدم، فتعمد إلى تلك العكة فتجد فيها سمناً، فما زالت تقيم بها آدم بيتها بقية حياته وأبي بكر وعمر

وعثمان، حتى كان من أمر على ومعاوية رضي الله تعالى عنهما ما كان» وفي رواية «أنها عصرتها فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: عصرتها؟ قالت نعم قال: لو تركتها ما زال دائماً» ويحتمل أن الواقعة تعددت.

وعن أم سليم أم أنس رضي الله تعالى عنهما، قالت: «كان لي شاة، فجمعت من سمنها ما ملأت به عكة وأرسلت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبلها، وأمر ففرغوها وردوها فارغة وكنت غائبة عن المنزل، فلما جئت رأيت العكة مملوءة سمناً، قالت: فقلت للتي أرسلتها معها: كيف الخبر؟ فأخبرتني الخبر فما صدقتها، وذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته، وقلت له: يا رسول الله وجهت إليك عكة سمن، قال: قد وصلت. فقلت: بالذي بعثك بالهدى ودين الحق لقد وجدتها مملوءة سمناً تقطر، قال: أفتعجبين أن أطعمك الله كما أطعمت نبيه: اذهبي فكلي واطعمي» الحديث. أي ومنها دعاؤه لفرس جعيل الأشجعي. فعنه رضي الله تعالى عنه قال: «خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته وأنا على فرس عجفاء ضعيفة فكنت في آخر الناس، فلحقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سر يا صاحب الفرس. فقلت: يا رسول الله عجفاء ضعيفة فرفع محقنة كانت معه فضربها بها. وقال: اللهم بارك له فيها، فلقد رأيتني ما أملك رأسها قدام القوم. ولقد بعث من بطنها باثني عشر ألفاً».

ومنها أن جليبيياً على وزن قنيديل الأنصاري، وكان قصيراً دميماً، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه، فقال: يا رسول الله إذا تجدني كاسداً، فقال: إنك عند الله لست بكاسد، فخطب له جارية من أولاد الأنصار، فكره أبو الجارية وأمها ذلك، فسمعت الجارية بما أراد رسول الله، فقالت قبلت: {وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} وقالت: رضيت وسلمت لما رضي لي رسول الله صلى الله عليه وسلم به، فدعا لها رسول الله، وقال: اللهم أصبب الخير عليها صاباً ولا تجعل عيشها كدأً، فكانت من أكثر الأنصار نفقة ومالاً مع كونها أيماً، فإنه رضي الله تعالى عنه قتل عنها في بعض غزواته معه بعد أن قتل سبعة من المشركين، ووقف عليه ودعا له، وقال: هذا مني وأنا منه، وحمله على ساعديه، ماله سرير غير ساعديه، ثم حفروا له فوضعه في قبره ولم يغسله ولم يصل عليه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومنها نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، حتى شرب القوم وتوضؤوا وهم ألف وأربعمائة. قال: وفي رواية ألف وخمسمائة. وفي رواية: فشربوا وسقوا وملؤوا قرايبهم، وكان في العسكر اثنا عشر ألف بعير، والخيل اثنا عشر ألف فرس، أي وهذه في غزوة تبوك، وقد تكرر ذلك منه عدة مواطن عظيمة تقدمت، وتكررت الروايات بحسب تكرر الوقائع، وهو أشرف المياه كما قاله السراج البلقيني ولم يسمع يمثل هذه المعجزة التي هي خروج الماء من بين الأصابع عن غير نبينا، وهي أبلغ من نبع الماء من الحجر الذي ضربه موسى

عليه الصلاة والسلام، لأن خروج الماء من الحجر معهود، بخلاف خروجه من بين اللحم والدم والعظم والعصب كما تقدم اهـ.

ومنها: أن الماء فار يغرز سهم من كنانته في محله. وقع له ذلك في الحديبية، وفي تبوك، فقد جاء: «أنه ورد في منصرفه من غزوة تبوك علي ماء قليل لا يروي واحداً، وشكوا إليه العطش، فأخذ سهماً من كنانته وأمر أن يغرز فيه، ففار الماء، وارتوى القوم، وكانوا ثلاثين ألفاً» كما تقدم.

قال: ومنها ما تقدم له مع عمه أبي طالب بذئ المجاز من ضربه الأرض أو صخرة برجله حين عطش فخرج الماء كما تقدم.

ومنها: ركوبه الفحل الذي قطع الطريق على من يمر لما سافر مع عمه الزبير بن عبد المطلب إلى اليمن كما تقدم.

ومنها: انقلاب الماء الملح عذياً ببركة ريقه الشريف. فقد جاء: «أن قوماً شكوا إليه ملوحة في ماء بئرهم، فجاء في نفر من أصحابه حتى وقف على ذلك البئر، فتفل فيه، فتفجر بالماء العذب المعين».

ومنها: «أنه كان باليمن ماء يقال له زعاق من شرب منه مات، فلما بعث وجه إليه: أيها الماء أسلم فقد أسلم الناس، فكان بعد ذلك من شرب منه حم ولا يموت».

ومنها: زوال القراع بمرور يده الشريفة. فقد جاء: «أن امرأة أتته بصبي لها أقرع، فمسح رأسه فاستوى شعره وذهب داؤه».

ومنها: إحياء الموتى له وسماع كلامهم. فمن ذلك: «أنه دعا رجلاً للإسلام فقال: لا أومن بك حتى تحيي لي بنتي، فقال: أرني قبرها، فأراه قبرها فقال: «يا فلانة، فقالت: لبيك وسعديك، فقال: أتحيين أن ترجعي إلى الدنيا؟ فقالت: لا والله يا رسول الله، إني وجدت الله خيراً لي من أبوي، ووجدت الآخرة خيراً من الدنيا».

ومنها: إبراء الأبرص، فقد روي: «أن امرأة معاوية ابن عفراء كان بها برص فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح عليه بعضاً، فأذهب الله».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342

ومنها: إبراء الرئة واللقوة والقرحة والسلعة والحرارة والديبيلة والاستسقاء، فإن ابن ملاعب الأسنان أصابه استسقاء، فبعث إلى النبي، فأخذ بيده الشريفة حثوة من الأرض فتفل عليها ثم أعطاها رسوله، فأخذها متعجباً يرى أنه قد هزىء به، فأتاه بها وهو على شفا، فشربها فشفاه الله وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزية بقوله:

وبكف من تربة الأرض داوي
من تشكي من مؤلم استسقاء

ومنها: أن أخت إسحاق الغنوي هاجرت من مكة تريد المدينة هي وأخوها إسحاق المذكور، حتى إذا كانت في بعض الطريق قال لها أخوها: اجلسي حتى أرجع إلى مكة، فأخذ نفقة أنسيته، قالت له: إني أخشى عليك الفاسق أن

يقتلك: تعني زوجها فذهب أخوها إلى مكة وتركها، فمر عليها راكب جاء من مكة، فقال لها: ما يقعدك ههنا؟ قالت: أنتظر أخي، قال لا أخ لك، قد قتله زوجك بعد ما خرج من مكة، قالت: فقامت وأنا أسترجع وأبكي حتى دخلت المدينة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ في بيت حفصة، فأخبرته الخبر، فأخذ ملء كفه ماء فضربني به، فمن يومئذ لم ينزل من عيني دمعة، وكانت تصيني المصائب العظام، غايته أن ينفر الدمع على مقلتي ولا يسيل على وجنتي.
ومنها: إبراء الجراحة كما تقدم.
ومنها: إبراء الكسر «فقد مسح على رجل ابن عتيك رضي الله تعالى عنه وقد انكسرت فأنها لم تكسر قط» كما تقدم.
ومنها: إبراء الجنون. أي ومنها أن امرأة جاءت به لابن لها لا يتكلم وقد بلغ أوان الكلام، فأتي بماء فمضمض وغسل يديه ثم أعطاها إياه وأمرها أن تسقيه وتمسه به، ففعلت ذلك، فبريء وعقل عقلاً يفضل عقول الناس.
ومنها: «أن بعض الصحابة ثبتت في كفه سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة فشكا ذلك له، فما زال يطحنها بكفه الشريفة حتى زالت ولم يبق لها أثر.
ومنها: «أنه أعطى جذلاً من الحطب فصار سيفاً» وقع ذلك لعكاشة بن محصن رضي الله تعالى عنه يوم بدر كما تقدم. ووقع ذلك لعبد الرحمن بن جحش أيضاً يوم أحد كما تقدم.

أي ومنها: انقلاب الماء لبناً وزيداً. ومنها: «أنه عرضت كدية بالخندق ولم يقدر أحد على إزالة شيء منها فضربها فصار كتيباً» كما تقدم.
أي ومن إجابة دعائه ما روي عن النابغة الجعدي رضي الله تعالى عنه قال:
أنشدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أبياتاً منها:
فلا خير في حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكذرا
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
حليم إذا ما أورد الأمر أصدارا
فقال النبي: «أجدت، لا أفضض الله فاك من هذه إشارة إلى أسنانه» قال النابغة رضي الله تعالى عنه: فلقد أتت علي نيف ومائة سنة وما ذهب لي سن. قيل عاش مائة واثنيتي عشرة سنة، وقيل مائة وثمانين سنة، أي كما تقدم. وفي لفظ: كان من أحسن الناس ثغراً، وكان إذا سقطت له سن نبت له أخرى. أي وعلى هذا الأخير فالمراد لا أخلى الله فاك من الأسنان.
ومن ذلك: أن امرأة بابن لها صغير، فقالت: «يا رسول الله إن بابني هذا جنوناً، وإنه يأخذه عند غدائنا وعشائنا فيفسد علينا، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه ودعا له، فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفي».
ومنها: إبراء وجع الضرس. فقد جاء: «أن بعض الصحابة شكوا إليه وجع ضرسه، فقال له: أدن مني، فوالذي بعثني بالحق لأدعون لك بدعوة لا يدعو بها مؤمن مكروب إلا كشف الله عنه كربه، فوضع رسول الله يده على الخد الذي فيه الوجع وقال: اللهم أذهب عنه سوء ما يجد وفحشه بدعوة نبيك المبارك المكين

عندك سبع مرات، فشفاه الله تعالى قبل أن يبرح» هذا ما يتعلق ببعض معجزاته التي يمكن التحدي بها، والحمد لله وحده.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 342
باب نبذة من خصائصه صلى الله عليه وسلم أي ما اختص به صلى الله عليه وسلم عن سائر الناس من الأنبياء وغيرهم

، وما اختص به عن غير الأنبياء، وفيما اختصت به أمته عن سائر الناس من الأنبياء وغيرهم، وفيما اشتركت فيه مع الأنبياء دون أممهم. لا يخفى أن ذكر خصائصه مندوب. قال في الروضة: ولا يبعد القول بوجوب ذلك ليعرف، فلا يتأسى به جاهل في ذلك. ثم لا يخفى أن الذي من خصائصه عن سائر الناس إما أن يكون اختص بوجوبه عليه لأن الله علم أنه أقوم به وأصبر عليه من غيره، ولأن ثواب الفرض أفضل من ثواب النفل غالباً. وقد جاء: «ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه» أو اختص بتحريمه عليه، لأن الله علم أنه أصبر على تركه ولمزيد فضل تركه، أو اختص بإباحته له تسهيلاً عليه، أو اختص باتصافه به ولمزيد فضله وشرقه. فمن القسم الأول صلاة الضحى: أي بما هو أقلها، وهو ركعتان، وركعتا الفجر وصلاة الوتر. قال: «ثلاث علي فرائض ولكم تطوع: الوتر، وركعتا الفجر، وركعتا الضحى».

أي وفي الإمتاع أن هذا الحديث ضعيف من جميع طرقه ومع ذلك ففي ثبوت خصوصية هذه الثلاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم نظر. فإن الذي ينبغي ولا يعدل عنه إلى غيره أن لا تثبت خصوصيته إلا بدليل صحيح. وفي البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها: «ما سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحة الضحى قط، وإني لأسبحها» وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي الضحى حتى نقول لا يدعها، ويدعها حتى نقول لا يصليها» وهذا يدل بظاهرة، ويقتضي عدم الوجوب، إذ لو كانت واجبة في حقه لكان مداومته عليها أشهر من أن تخفى هذا كلامه.

وفيه أنه لما صلى الضحى يوم الفتح في بيت أم هاني واطب عليها إلى أن مات، وأنه صلى ثمان ركعات. وجاء في حديث مرسل «كان يصلي ركعتين وأربعاً وستاً وثمانياً» وهل المراد بالوتر أقله أو أكثره أو أدنى كماله؟ والسواك قال في الإمتاع: وهل هو بالنسبة إلى الصلاة المفروضة أو في كل الأحوال المؤكدة في حقنا أو فيما هو أعم من ذلك. وغسل الجمعة والأضحية واستدل لوجوبهما بقوله تعالى: {إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي} إلى قوله: {وبذلك أمرت} قال في الإمتاع: والأمر على الوجوب، هذا كلامه؟ وفيه نظر، لأن أمر للوجوب والندب، والذي للوجوب إنما هو صيغة أفعل. قال في الإمتاع: إن الأمدي وابن الحاجب رحمهما الله عدا ركعتي الفجر من خصائصه ولا سلف لهما في ذلك إلا حديث ضعيف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372
واعترض كون الوتر واجباً عليه ، بأنه كما في الصحيحين صلاة على البعير، إذ لو كان واجباً لما صلاه على الراحلة. وأجاب النووي رحمه الله بأن جواز هذا الواجب على الراحلة من خصائصه وأجاب القرافي المالكي رحمه الله بأن الوتر لم يكن واجباً عليه إلا في الحضر، ووافقه على ذلك من أئمتنا الحلبي والعز ابن عبد السلام.
والعقيدة وأنه يجب عليه أن يؤدي فرض الصلاة كاملة لا خلل فيها، وأنه يجب عليه أن يصلي في كل يوم وليلة خمسين صلاة على وفق ما كان في ليلة الإسراء، كذا في الخصائص الصغرى للسيوطي.

والمشاورة في أمر الدين والدنيا لذوي الأجلام من الأمور الاجتهادية. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهما ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما نزلت هذه الآية: {وشاورهم في الأمر} قال النبي: «إن الله ورسوله غنيان عنها، ولكن جعلها الله رحمة في أمتي، فمن شاور منهم لم يعدم رشداً، ومن ترك المشورة منهم لم يعدم غياً» وقد وقيل: الاستشارة حصن من الندامة ومصابرة العدو وإن كثر.
وفي الحاوي للماوردي: «أنه كان إذا بارز رجلاً لا ينفك عنه قبل قتله» هذا كلامه، ولم أقف على أنه بارز أحداً.
وقضاء دين من مات معسراً من المسلمين، وأداء الجنايات والكفارات عن من لزمته وهو معسر، وتخيير نسائه بين الدنيا والآخرة أي بين زينة الدنيا ومفارقته، بين اختيار الآخرة والبقاء في عصمته، وأن من اختارت الدنيا يفارقها ومن اختارت الآخرة يمسكها ولا يفارقها: أي لأن الله تعالى قال لنبيه: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً}.
قيل اختلف سلف هذه الأمة في سبب نزول هذه الآية على تسعة أقوال: فقد قيل نزلت لما طلبن منه زيادة في النفقة، فاعتزلهن شهراً، ثم أمر بتخييرهن فيما ذكر كما تقدم.

عن جابر رضي الله تعالى عنه، قال: جاء أبو بكر رضي الله تعالى عنه يستأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوساً ببابه ليأذن لهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجدا النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه، أي قد سألته النفقة وهو حاجم ساكت لا يتكلم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لأقولن شيئاً أضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لو رأيت فلانة يعني زوجته سألتني النفقة فقمتم إليها فوجأت عنقها، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر رضي الله تعالى عنه إلى عائشة فوجأ عنقها وقام عمر رضي الله تعالى عنه إلى حفصة فوجأ عنقها، وكل يقول:

تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده، ثم أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجتمع بهن شهراً.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

فعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلا وودق عليه بابه وناداه، قال عمر: فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم. فقلت ماذا؟ أ جاءت غسان، لأننا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا، فقال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فقلت: خابت حفصة وخسرت، كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي ودخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله؟ قالت: لا أدري هو هذا معتزلاً في هذه المشربة، أي لأن نساءه لما اجتمعن عليه في طلب النفقة أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجده عليهن، قال عمر رضي الله تعالى عنه: لأقولن من الكلام شيئاً أضحك به النبي صلى الله عليه وسلم فأتيته غلاماً له أسود، فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج، فقال: قد ذكرت لك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المسجد قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيته الغلام فقلت استأذن لعمر فدخل ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرت لك له فصمت، فلما كان في المرة الرابعة وقال لي مثل ذلك وليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني، فقال: أدخل، قد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على زمل حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ قال: فرقع رأسه إليّ وقال لا فقلت: الله أكبر، ثم قلت: كنا معاشر قريش بمكة نغلب على النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم، فطفق نساؤنا يتعلمن منهن، فكلمت فلانة يعني زوجته فراجعتني فأنكرت عليها، فقالت تنكر عليّ أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لتراجعنه، وتهجره إحداهنّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك وخسر، أفتأمن إحداهنّ أن يغضب الله عليها بغضب زوجها، فتبسم رسول الله، فذهبت إلى حفصة فقلت: أتراجعن رسول الله؟ فقالت: نعم، وتهجره إحداها اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب

الله عليها بغضب رسول الله؟ لا تراجعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسألينه شيئاً، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم منك؟ يعني عائشة، فتبسم أخرى، فقلت: استأنس يا رسول الله قال نعم، فجلست وقلت: يا رسول الله قد أثر في جنبك زمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: أستغفر الله يا رسول الله () فلما مضى تسع وعشرون يوماً أنزل الله تعالى عليه أن يخبر نساءه في قوله تعالى: {يا أيها النبي قل لأزواجك} الآية، فنزل ودخل على عائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت له: يا رسول الله أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً وقد دخلت وقد مضى تسع

وعشرون يوماً أعددهن، قال: إن الشهر تسع وعشرون، وفي رواية: يكون هكذا وهكذا وهكذا، يشير بأصابع يديه، وفي الثالثة حبس إبهامه ثم قال: يا عائشة إني ذاك لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك. فقالت: وما هو يا رسول الله، فقراً: {يا أيها النبي قل لأزواجك} الآية. قلت، أفي هذا استأمر أبوي، فإني أريد الله، ورسوله والدار الآخرة. وفي رواية «أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟» بل أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم قلت له: لا تخبر امرأة من نساءك بالذي قلت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يعثني متعنتاً ولكن بعثني معلماً بشيراً. ثم فعل أزواجه مثل ما فعلت عائشة رضي الله تعالى عنهن. وقد ذكر الأقوال التسعة في الإمتاع وذكر فيه أن التخيير كان بعد فتح مكة، لأن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لم يقدم المدينة إلا بعد الفتح مع أبيه العباس رضي الله تعالى عنهما، وذكر أنه حضر الواقعة. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

ومن القسم الثاني تحريم أكل الصدقة واجبة أو مندوبة، وكذا الكفارة والمنذورة والموقوف عليه إلا على جهة عامة كالآبار الموقوفة على المسلمين، وبشاركه في الصدقة الواجبة آله دون صدقة التطوع على الجهة الخاصة دون الجهة العامة، والصدقة الواجبة هي المعنية بقوله: «إن الصدقة لا تبغى لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس» ولما سأله عمه العباس رضي الله تعالى عنه أن يستعمله على الصدقات قال: «ما كنت لأستعملك على غسلات ذنوب الناس» ولما أخذ الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: كخ، كخ، ارم بها، أما علمت أنا لا نأكل الصدقة» وفي رواية: «إن آل محمد لا يأكلون الصدقة». واختلف علماء السلف هل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تشارك النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك؟ فذهب الحسن رحمه الله تعالى إلى أن الأنبياء تشاركه في ذلك. وذهب سفيان بن عيينة إلى اختصاصه بذلك دونهم، وأن يعطي شيئاً لأجل أن يأخذ شيئاً أكثر منه، وأن يتعلم الكتابة أو الشعر وإنشاءه وروايته لا التمثل به، وأنه إذا لبس لامته للقتال لا يدعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه، وهذا الأخير مما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وخاتمة الأعين، وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر كما تقدم. وإمساك من كرهته، ونكاح الكتابية، قيل والتسري بها والراجح خلافه. ونكاح الأمة المسلمة لأنه لا يخشى العنت، أي الزنا.

ومن القسم الثالث القبلة في الصوم مع وجود الشهوة. فقد كان يقبل عائشة رضي الله تعالى عنها وهو صائم ويمص لسانها، ولعله لم يكن يبلغ ريقه المختلط بريقها. والخلوة بالأجنبية، وأنه إذا رغب في امرأة خلية كان له أن يدخل بها من غير لفظ نكاح أو هبة ومن غير ولي ولا شهود، كما وقع له في زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها كما تقدم، ومن غير رضاها، وأنه إذا رغب في امرأة متزوجة يجب على زوجها أن يطلقها له، وأنه إذا رغب في أمة

وجب على سيدها أن يهبها له. وله أن يتزوج المرأة لمن يشاء بغير رضاها، وله أن يتزوج في حال إحرامه، ومن ذلك نكاح ميمونة على ما تقدم. وأن يصطفي من الغنيمة ما شاء قبل القسمة من جارية أو غيرها.

ومن صفايه صفة وذو الفقار كما تقدم، وأن يتزوج من غير مهر كما وقع لصفية رضي الله تعالى عنها. وقد قال المحققون: معنى ما في البخاري وغيره أنه جعل عتقها صداقها أنه أعتقها بلا عوض وتزوجها بلا مهر، فقول أنس رضي الله تعالى عنه أمهرها نفسها معناه أنه لما لم يصدقها شيئاً كان العتق كأنه المهر وإن لم يكن في الحقيقة كذلك، وأن يدخل مكة بغير إحرام اتفاقاً، وأن يقضي بعلمه ولو في حدود الله تعالى.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

قال القرطبي في تفسيره: أجمع العلماء على أنه ليس لأحد أن يقضي بعلمه إلا النبي .

قال الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى: وجمع له بين الحكم بالظاهر والباطن معاً وجمعت له الشريعة والحقيقة، ولم يكن للأنبياء إلا إحداهما بدليل قصة موسى مع الخضر عليهما الصلاة والسلام، وقوله: إني على علم لا ينبغي لك أن تعلمه وأنت على علم لا ينبغي لي أن أعلمه هذا كلامه.

وكتب عليه الشهاب القسطلاني رحمه الله: هذه غفلة كبيرة وجراءة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذ يلزم منه خلو بعض أهل العزم عليهم الصلاة والسلام من علم الحقيقة الذي لا يجوز خلو بعض آحاد الأولياء عنه وإخلاء الخضر بل بقية بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن علم الشريعة. وأعجب من ذلك أنه بين له وجه الخطأ، فأجاب بقوله: مرادي الجمع بين الحكم والقضاء هذا كلامه.

وأقول: ذكر السيوطي في كتابه (الباهر في حكم النبي بالباطن والظاهر) هل يقول مسلم إن الذي خص به نبينا، أي عن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يورث نقصاً في حق سائر الأنبياء؟ معاذ الله، وكل مسلم يعتقد أن نبينا أفضل من سائر الأنبياء على الإطلاق، وذلك لا يورث نقصاً في حق أحد منهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهذا الاعتراض كان لا يحتاج إلى جواب عنه، لكن خشيت أن يسمعه جاهل فيؤديه ذلك إلى إنكار خصائص النبي صلى الله عليه وسلم التي فضل بها على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، توهماً منه أن ذلك يورث نقصاً فيهم، فيقع والعياذ بالله في الكفر والزندقة هذا كلامه.

ومما حكم فيه بالظاهر والباطن معاً، قوله في ولد وليدة زمعة والد سودة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها لما اختصم فيه سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه وعبد بن زمعة، فقال سعد: يا رسول الله هذا ابن أخي، عهد إلي أنه ابنه، انظر إلى شبهه به، وقال عبد بن زمعة، هذا أخي ولد علي فراش أبي من وليدته، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شبهه، فرأى شبهاً بينا بعته، ثم قال: «هو لك يا عبد الولد للفراش واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة» زاد في رواية: «فليس بأخ لك» فقد جعله أماً لسودة عملاً بظاهر الشرع، ونفى أخوته عنها بمقتضى الباطن. فقد حكم في هذه القصة بالظاهر والباطن

معاً.
وأما حكمه بالباطن فقد جاء في أمور متكررة.

من ذلك قتله الحارث بن سويد بقتله المجذر بن زياد غيلة من غير دعوى وارث ولا قيام بينة ولا قبل الدية كما تقدم.
رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372
ومن ذلك أنه قال لرجل مات أخوه: «إن أخاك محبوبس بدينه فاقض عنه، فقال يا رسول الله قد أدبت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة، قال أعطها فإنها محقة.»
ومن ذلك أن امرأة جاءت إلى أخرى وقالت لها: فلانة تستعيرك حليك وهي كاذبة فأعارتها إياه، فبعد مدة جاءت للمرأة تطلب حليها فقالت: لم أطلب حليك فجاءت للمرأة التي أخذته فأنكرت أخذه، فجاءت النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته القصة فدعاها، فقالت: والذي بعثك بالحق ما استعرت منها شيئاً، فقال: «اذهبوا فخذوه من تحت فراشها فأخذ وأمر بها فقطعت.»
وأن يقضي لنفسه ولولده، وأن يشهد لنفسه ولولده وأن يقبل الهدية ممن يريد الحكومة عنده، وأن يقضي في حال غضبه، وأن يقطع الأرض قبل أن يفتحها. ومما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذا القسم أن له أن يصلي بعد نومه غير متمكن، أي في النوم الذي تنام فيه عينه وقلبه، بناء على أنه كان له نومان، وحينئذ يكون قوله: «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا» والمراد به غالباً، إذ يبعد أن يكون بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس لهم إلا نوم واحد وله نومان.
وإباحة ترك إخراج زكاة المال، لأنه كبقية الأنبياء لا ملك لهم مع الله، وما في أيديهم من المال وديعة لله عندهم يبذلونه في محله ويمنعونه في غير محله، ولأن الزكاة طهرة وهم مبرؤون من الدنس كذا في الخصائص الصغرى نقلاً عن سيدي الشيخ تاج الدين بن عطاء الله.

وفيهما بعد ذلك أنه اختص بأن ماله باق بعد موته على ملكه ينفق منه على أهله في أحد الوجهين، وصححه إمام الحرمين، والذي صححه النووي الوجه الآخر، وهو خروجه عن ملكه، لكنه صدقة على المسلمين، لا يختص به الورثة، وما قاله ابن عطاء الله بنائه مذهب إمامه سيدنا مالك، ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى خلافه. ففي الخصائص الصغرى قبل هذا: وذكر مالك رضي الله تعالى عنه، من خصائصه أنه كان لا يملك الأموال، إنما كان له التصرف وأخذ قدر كفايته. وعند الشافعي رضي الله تعالى عنه وغيره أنه يملك هذا كلام الخصائص.

ومن القسم الرابع أنه أول من أخذ عليه الميثاق يوم {ألست بربكم} وأنه أول من قال بلى، أي وأنه خص بالبسملة: وفيه ما تقدم أن ذلك علي وجه وأن الأصح خلافه لما في القرآن في سورة النمل وفي المرفوع: «أنزل علي آية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري {بسم الله الرحمن الرحيم} وجاء: «بسم الله فاتحة كل كتاب» وفيه أن الإنجيل من جملتها وهو كتاب عيسى ابن مريم

وهو بعد سليمان عليهما السلام، وقد قدمنا ذلك عند الكلام على أوائل البعث وبفاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة {آمن الرسول} إلى ختامها وآية الكرسي أعطيها من كنز تحت العرش وكذا الفاتحة والكوثر. رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372
فقد جاء: «أربع نزلت من كنز تحت العرش لم ينزل منه شيء غيرهن أم الكتاب، وآية الكرسي، وخواتيم سورة البقرة والكوثر». وذكر الجلال السيوطي رحمه الله في الخصائص الصغرى، أن مما خص به أعطى من كنز تحت العرش ولم يعط منه أحد غيره والسبع الطوال والمفصل.

وأن دار هجرته التي هي المدينة آخر الدنيا خراباً، وأن جميع ما في الكون خلق لأجله، وأنه تعالى كتب اسمه على العرش وعلى كل سماء، وما فيها كما تقدم وعلى بعض الأحجار وورق الأشجار وبعض الحيوانات كما تقدم، قال بعضهم: بل وعلى سائر ما في الملكوت وذكر الملائكة له في كل ساعة، وذكر اسمه في الأذان في عهد آدم والملوك الأعلى كما تقدم. ومما اختص به عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنه يحرم نكاح أزواجه بعد موته حتى على الأنبياء بخلاف زوجات الأنبياء بعد موتهم لا يحرم نكاحهن على المؤمنين. قال شيخنا الشمس الرملي والأقرب عدم حرمتهم على الأتقياء من أممهم. وفيه أنه إذا لم يحرم على آحاد المؤمنين فعلى الأتقياء بطريق الأولى، إلا أن يقال الفرق ممكن، يدل عليه قوله: والأقرب وإلا فهذا مما يتوقف فيه على النقل.

وقيل ومن ذلك أنه يجب على أزواجه من بعده الجلوس في بيوتهن ويحرم عليهن الخروج منها ولو لحج أو عمرة والراجح خلاف ذلك، فقد حجج مع عمر رضي الله تعالى عنه وعنهن إلا سودة وزينب فخرجن في الهوداج عليهن الطيالسة الخضر. وعثمان رضي الله تعالى عنه يسير أمامهن يقول لمن أراد أن يمر عليهن إليك إليك. وعبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه خلفهن يقول لمن أراد أن يمر عليهن مثل ذلك، ولا ترى هوداجهن إلا مد البصر، ولما ولي عثمان رضي الله تعالى عنه حج بهن أيضاً إلا سودة وزينب. وأنه يحرم أيضاً رؤية أشخاص زوجاته في الأزور، وسؤالهن مشافهة أي من غير حجاب.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

ولا يجوز كشف وجوههن ليشهادة بلا خلاف، وأن الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق على سائر النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه إن أدركوه وأن يأخذوا العهد على أممهم بذلك كما تقدم، وأنه يحشر على البراق، فقد جاء: «تبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدواب وبيعت صالح على ناقته، ويحشر ابنا فاطمة رضي الله تعالى عنهم على ناقته العضياء والقصوى، وبيعت بلال رضي الله تعالى عنه على ناقه من نوق الجنة، وأن في كل يوم ينزل على قبره الشريف سبعون ألف ملك يضربونه بأجنحتهم ويحفون به، ويستغفرون

له، ويصلون عليه إلى أن يمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك كذلك حتى يصبحون لا يعودون إلى أن تقوم الساعة» وأنه شق صدره الشريف عند ابتداء الوحي، وأنه تكرر له ذلك خمس مرات على ما تقدم، وأن خاتم النبوة يظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره. وخاتم الأنبياء كلهم عليهم الصلاة والسلام كان في يمينهم كما تقدم، وتقدم ما فيه، وأن له ألف اسم، ونقل عن تفسير الفخر الرازي أن له أربعة آلاف اسم، وأنه تسمى من أسماء الله تعالى بنحو سبعين اسماً، وأنه رأى جبريل عليه السلام على الصورة التي خلق عليها مرتين كما تقدم، وغيره لم يره كذلك، وأنه عليه الصلاة والسلام يحكم بالظاهر والباطن كما تقدم، وأنه أحلت له مكة ساعة من نهار، وأنه حرّم ما بين لابتي المدينة كما تقدم، وأنه لم تر عورته قط، وأن من رآها طمست عيناه كما تقدم، وأنه إذا مشى في الشمس أو في القمر لا يكون ظل لأنه كان نوراً وأنه إذا وقع شيء من شعره في النار لا يحترق، وأن وطأة أثر في الصخر على ما تقدم، وأن الذباب لا يقع على ثيابه فضلاً عن جسده الشريف، ولا يمتص نحو البعوض والقمل دمه كما تقدم، وهذا لا ينافي كون القمل يكون في ثوبه، ومن ثم جاء: «كان يفلي ثوبه» وأن عرقه أطيب من ريح المسك كما تقدم.

وكان إذا ركب دابة لا تبول ولا تروث وهو راكبها، ولو بنى مسجده إلى صنعاء اليمن كان مسجده أي في المضاعفة خلافاً لجمع منهم ابن حجر الهيثمي. وقد قال الحافظ السيوطي: نص العلماء على أن المسجدين: أي المكي والدني، ولو وسعا لم تختلف أحكامهما الثابتة لهما. وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لو مدّ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي الحليفة لكان منه، فهذا الأثر مصرح بأن أحكام مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتة له، فالتوسعة لا تمنع استمرار الحكم، وتقدم ما في ذلك، وأنه يجب على أمته أن تصلي وتسلم عليه في التشهد الأخير وعند كل ما يذكر عند بعضهم، وأن القمر شق له كما تقدم، وأن الحجر والشجر سلما عليه، وشهادة الشجر له بالنبوة وإجابتها دعوته، وكلام الصبيان المراضع، وشهادتهم له بالنبوة كما تقدم، وأن الجذع اليابس حن إليه كما تقدم، وأنه أرسل للناس كافة الإنس والجن إجماعاً معلوماً من الدين بالضرورة فيكفر جاحد ذلك، وقد يتوقف في كفر العامي بجحد إرساله للجن وإلى الملائكة على ما هو الراجح كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

قال بعضهم والقول بمقابله مبني على تفضيل الملائكة على الأنبياء، وهو قول مرجوح ذهب إليه المعتزلة والفلاسفة وجماعة من أهل السنة الأشاعرة. واستدلوا بأمور كلها مردودة وتقدم عن البارزي رحمه الله أنه أرسل إلى الحيوانات والجمادات، لكن استدل له بشهادة الضب والشجر له بالرسالة. وقد يتوقف في الاستدلال بذلك.

وتقدم عن الحافظ السيوطي رحمه الله أنه أرسل لنفسه، وتقدم الفرق بين عموم رسالته عليه الصلاة والسلام وعموم رسالة نوح، وأنه بعث رحمة للبر

والفاجر، ورحمة للكفار بتأخير العذاب، وعدم معاجلتهم بالعقوبة بنحو الخسف والمسح والغرق كسائر الأمم المكذبة كما تقدم، وأن الله تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل خاطبه: {يا أيها النبي} {يا أيها الرسول} {يا أيها المدثر} {يا أيها المزمّل} وقال: {يا آدم} {يا نوح} {يا إبراهيم} {يا داود} {يا زكريا} {يا يحيى} {يا عيسى} وأن الله أقسم بحياته، قال تعالى: {لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون}.

وروى ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد» وأقسم الله على رسالته بقوله: {ي؟س والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين} وأن إسرافيل عليه السلام أهبط إليه ولم يهبط إلى نبي قبله كما تقدم، وأنه أكرم الخلق على الله، وأنه يحرم نكاح مواطواته من الزوجات والسراري إلا من باعه أو وهبه من السراري في حياته إن فرض ذلك، وذهب الماوردي إلى تحريمها.

وفي كلام بعضهم: وتحرم زوجاته على غيره ولو قبل الدخول ولو مختارة للفراق، خلافاً لما في الشرح الصغير للرافعي من حل المختارة للفراق، وأنه يحرم التزوُّج على بناته، وقيل على فاطمة خاصة رضي الله تعالى عنها. وأما التسري عليهن فلم أقف على حكمه، وما علل به منع التزويج عليهنّ حاصل في التسري إلا أن يفرق.

وأوتي قوة أربعين رجلاً من أهل الجنة في الجماع، وقوة الرجل من أهل الجنة كمائة من أهل الدنيا، فيكون أعطي قوة أربعة آلاف رجل، وسليمان صلوات الله وسلامه عليه أعطى قوة مائة رجل. وقيل ألف رجل أي من رجال الدنيا، وأن فضلاته طاهرة كما تقدم، وأنه كان له أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام كجعله شهادة خزيمة بشهادة رجلين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم ابتاع فارساً من أعرابي فاستبقه النبي صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم وتباطأ الأعرابي والفرس معه فساومه في الفرس رجال لا يعرفون أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتراه بزيادة عما اشتراه به فقال الأعرابي للنبي: إن كنت مبتاعاً لهذا الفرس فابتعه وإلا بعته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمع نداء الأعرابي: أو ليس قد ابتعته منك، فقال الأعرابي: لا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بلى قد ابتعته منك، فقال الأعرابي: شاهدان يشهدان أنني بعتك، فلما سمع خزيمة رضي الله تعالى عنه ذلك، قال: أنا أشهد أنك بعته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخزيمة: كيف تشهد ولم تكن معنا؟ فقال: يا رسول الله إنا نصدقك بخبر السماء أفلا نصدقك بما تقول، فجعل شهادته رضي الله تعالى عنه في القضايا بشهادة رجلين. ومنه أخذ جواز الشهادة له بما ادعاه.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

وترخيصة لأم عطية رضي الله تعالى عنها، ولخولة بنت حكيم رضي الله تعالى عنها في النياحة لجماعة مخصوصين.

وترخيصة لأسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها في عدم الإحداد لما قتل زوجها سيدنا جعفر بن أبي طالب حيث قال لها تسلي ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت. وتجوز التضحية بالعناق لأبي بردة ولعقبة بن عامر رضي الله تعالى عنهما. وزاد بعضهم ثلاثة آخرين.

وتزويجه لشخص امرأة على سورة من القرآن وقال: {لا تكون لأحد غيرك مهراً ولعل المراد مجهولة}، فلا يخالفه ذلك ما عند أئمتنا من جواز ذلك على معين من السور القرآنية.

وتزويجه أم سليم أبا طلحة رضي الله تعالى عنهما على إسلامه كما تقدم وإعادة امرأة أبي ركانة إليه بعد أن طلقها ثلاثاً من غير محلل.

وتخصيصه نساء المهاجرين بأن يرثن دور أزواجهن دون بقية الورثة وقد ألغز في ذلك بعضهم بقوله:

سلم على مفتي الأنام وقل له
هذا سؤال في الفرائض مبهم
قوم إذا ماتوا تحوز ديارهم
زوجاتهم فلغيرها لا تقسم
وبقية المال الذي قد خلفوا
يجري على أهل التوارث منهم

وأنه أول من ينشق عنه القبر، فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله، قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم أهل البقيع فيخرجون معي ثم أنتظر أهل مكة»، أي وفي رواية: «وأنا أول من تنشق عنه الأرض فأكون أول من رفع رأسه فإذا أنا بوسى عليه الصلاة والسلام أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أرفع رأسه قبلي أو كان ممن استثنى الله». وفيه أن الاستثناء إنما هو من نفخة الفرع التي هي النفخة الأولى التي يفرع بسببها أهل السموات والأرض، وتمر الجبال من السحاب، وترتج الأرض بأهلها رجاً فتكون كالسفينة في البحر تضربها الأمواج المعنية بقوله تعالى: {يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة} والمعنية بقوله تعالى: {يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم} الآية. قال: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشيء من ذلك، قلنا يا رسول الله فمن استثنى الله في قوله: إلا من شاء الله: قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفرع إلى الأحياء وهم {أحياء عند ربهم يرزقون}، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وأمنهم منه».

وفيه أن هذا يقتضي أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يفرعون لأنهم أحياء، ولم يذكرهم مع الشهداء، والقياس قد يمنع لأنه يوجد في المفضل ما لا يوجد في الفاضل. وأنه من يكسي في الموقف أعظم الحلل من الجنة، وأنه يقوم في المقام المحمود على يمين العرش، وأنه الذي يشفع في فصل القضاء بين أهل الموقف، وأنه له شفاعات في ذلك اليوم وهي إحدى عشرة شفاعة ذكرها في (مزيل الخفاء) وأنه صاحب لواء الحمد في ذلك اليوم، آدم فمن دونه تحت لوائه، وأنه خطيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإمامهم في ذلك اليوم كما تقدم.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

وأول من يؤذن له في السجود. وأول من ينظر إلى الرب عز وجل، وأنه يسجد أولاً فيقول له الرب جل جلاله، ارفع رأسك يا محمد، قل تسمع، وسل تعطى، واشفع تشفع، ثم ثانياً، ثم ثالثاً كذلك فيشفع.

وأنه أول من يفيق من الصعقة. وفيه أن نفخة الصعقة، وهي النفخة الثانية التي هي نفخة الموت لأهل السموات والأرض، إلا أن يقال المراد بالصعقة هنا نفخة رابعة أثبتها ابن حزم.

فقد قال الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله: وأغرب ابن حزم رحمه الله تعالى، فادعى أن النفخ في الصور يقع أربع مرات، فعليه تكون هذه النفخة ليست هي المذكورة في القرآن، وأنها تكون في الموقف بعد النفخة الثالثة التي هي نفخة البعث التي يسببها يكون القيام من القبور إلى المحشر المعنية بقوله تعالى: {ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون} وهذه النفخة الرابعة تسمى نفخة الصعق أيضاً، لأن بها يحصل لجميع أهل السموات والأرض في ذلك الوقت غشي وهو شبيه بالموت، ويكون أول من يفيق من تلك الصعقة هو ، وحينئذ يجد موسى عليه الصلاة والسلام أخذاً بقائمة من قوائم العرش، ويكون قوله: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكون أنا أول من رفع رأسه، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش» من تخطيط بعض الرواة. وحينئذ لا يحتاج إلى الجواب بأنه أخبر بقوله لا أدري قبل أن أعلمه الله تعالى بأنه أول من تنشق عنه الأرض على الإطلاق، وأن موسى عليه الصلاة والسلام سبقه إلى العرش لأنه بعد خروجه من الأرض ينتظر خروج أهل البقيع، ومجيء أهل مكة فليتأمل ذلك.

وأول من يمر علي الصراط، وأول من يدخل الجنة ومعه فقراء المسلمين، وأن له الوسيلة وهي أعلى درجة في الجنة. وقيل إنه في الجنة لا يصل لأحد شيء إلا بواسطته ، وأنه لا يقرأ في الجنة إلا كتابه، ولا يتكلم في الجنة إلا بلسانه. ومما شارك فيه الأنبياء في هذا القسم، أن من دعاه ، في الصلاة تجب عليه الإجابة قولاً وفعلاً ولو كثيراً، ولا تبطل صلاته بالنسبة لنيينا بخلاف غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنها تبطل. ومنه أيضاً العصمة من الذنب مطلقاً كبيراً أو صغيراً عمداً أو سهواً، وعدم التثاؤب والاحتلام، لأن كلا من الشيطان، ولم ير أثر لقضاء حاجته ، بل كانت الأرض تتلعه ويشم من مكانه رائحة المسك. قال: وأنه كان ينظر بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء.

واستشكل بما جاء: «أنه لما ابنتى بأم سلمة رضي الله عنها دخل عليها في الظلمة، فوطيء علي ابنتها زينب فبكت، فلما كانت الليلة القابلة دخل في ظلمة أيضاً فقال: «أنظروا ربائبكم لا أطأ عليها» وزينب هذه ولدتها من أبي سلمة بالحبشة، ودخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغتسل وهي إذ ذاك طفلة فنضح وجهها بالماء، فلم يزل ماء الشباب بوجهها حتى عجزت وقاربت المائة سنة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

وكان ينظر من خلفه كما ينظر أمامه، أي وعن يمينه وعن شماله، فقد جاء: «إني لأنظر إلى ما وراء ظهري كما أنظر إلى أمامي» فقيل كان له بين كتفيه

عينان كسم الخياط يبصر بهما لا تحجبهما الثياب، وقيل كانت تنطبع صورة المحسوسات التي خلفه في حائط قبلته كما تنطبع الصور في المرأة. وهذا يدل على أن ذلك خاص بالصلاة، وهو ظاهر أكثر الروايات أي وكانت تلك الصلاة إلى حائط فلي تأمل.

وكان يرى الثريا اثنا عشر نجماً وغيره لا يزيد على تسعة ولو أمعن النظر. واختصت هذه الأمة المحمدية بأمور لم يشاركها فيه من قبلهم من الأمم، وهي أنها خير الأمم، وأكرم الخلق على الله. قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}.

وفي الحديث: «إن الله اختار أمتي على سائر الأمم. وإن الله ينظر إليها في أول ليلة من رمضان» وأعطيت الاجتهاد في الأحكام، وأظهر الله ذكرها في الكتب القديمة كالطوراة والإنجيل، وأثنى عليها، وأعطيت الصلوات الخمس: أي جمعت لهم على ما تقدم، وأعطيت صلاة العشاء.

فقد أخرج أبو داود والبيهقي عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أنه قال: «إنكم فضلتم بها» أي بصلاة العشاء «على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم» وفيه ما تقدم.

وأعطيت افتتاح الصلاة بالتكبير. وأعطيت التأمين: أي قول آمين عقب الدعاء، فقد جاء: «أعطيت آمين ولم يعطها أحد ممن كان قبلكم إلا أن يكون الله أعطاه هارون فإن موسى كان يدعو ويؤمن هارون عليهما الصلاة والسلام» وتقدم أن آمين عقب الفاتحة ليس من القرآن اتفاقاً. وأعطيت الاستنجاء بالحجر. وأعطيت الأذان والإقامة والركوع في الصلاة، وأما قوله تعالى لمريم: {واركعي مع الراكعين} فالمراد بالركوع الخضوع كما تقدم، ويلزمه أنها أعطيت في الرفع منه «سمع الله لمن حمده». وفي الاعتدال «اللهم ربنا لك الحمد» إلى آخره. وأعطيت تحريم الكلام في الصلاة دون الصوم عكس من قبلهم. وأعطيت الجماعة في الصلاة. وأعطيت الاصطفاف فيها كصفوف الملائكة. وأعطيت صلاة العيدين والكسوفين والاستسقاء والوتر. وأعطيت قصر الصلاة في السفر، والجمع بين الصلاتين فيه على ما تقدم وفي المطر والمرض على قول اختاره جمع من العلماء ومنهم والدي رحمه الله. وأعطيت صلاة الخوف وصلاة شدته. وأعطيت شهر رمضان على ما تقدم. وأعطيت فيه أموراً منها تصفيد الشياطين. وقد سئلت: ما فائدة تصفيد الشياطين في رمضان مع وجود الفساد والشر وقتل الأنفس فيه؟ وقد أجبت عنه أربعة أجوبة، حاصلها أن فائدة ذلك قلة الشر لا نفيه بالكلية، وقد ذكرت ذلك في كتابي (إسعاف الإخوان في شرح غاية الإحسان) وهو كتاب ألفته في الصوم وما يتعلق به.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

ومنها صلاة الملائكة عليهم حين يفطروا. ومنها أن ريح فمهم بعد الزوال أطيب عند الله من ريح المسك، وفيه أن هذا لا يختص بصوم رمضان. ومنها أن الجنة تزين فيه من رأس الحول إلى رأس الحول، وتفتح أبواب الجنة، وتغلق أبواب النيران، وتفتح أبواب السماء في أول ليلة منه.

ومنها أنه يغفر لهم في آخر ليلة منه. وأعطيت العقيقة عن الأنثى. وأعطيت العذبة في العمامة. وأعطيت الوقف، والوصية بالثلث عند الموت. وأعطيت غفران الذنوب بالاستغفار، وجعل الندم توبة. وأعطيت صلاة الجمعة. وأعطيت ساعة الإجابة في يومها. وأعطيت ليلة القدر. وأعطيت السحور وتعجيل الفطر. وأعطيت الاسترجاع عند المصيبة. وأعطيت الحوقلة: أي لا حول ولا قوة إلا بالله. وأعطيت رفع الإصر عنها، ومنه وجوب القصاص في الخطأ والمؤاخذه بحديث النفس والنسيان وما وقع عليه الإكراه، وأن إجماعها حجة لأنها لا تجتمع على ضلالة: أي محرم. وأعطيت أن اختلاف علمائها رحمة، وكان اختلاف من قبلهم عذاباً، والمراد بعلماء الأمة المجتهدون، كما أن المراد ذلك بما رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. قال قال رسول الله «اختلاف أصحابي رحمة» أي ويقاس بأصحابه غيرهم ممن بلغ رتبة الاجتهاد. قال بعضهم: وما ذكره بعض الأصوليين والفقهاء أنه قال: «اختلاف أمتي رحمة» لا يعرف من خرّجه بعد البحث الشديد، وإنما يعرف عن القاسم بن محمد بلفظ: «اختلاف أمة محمد رحمة» قال الحافظ السيوطي: ولعله خرّج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا، وأن الطاعون لهم رحمة وكان على من قبلهم عذاباً. وأعطيت الإسناد للحديث. قال أبو حاتم الرازي رحمه الله: لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام من يحفظون آثار الرسل، أي وبأخذها واحد عن الآخر إلا في هذه الأمة، أي حتى إن الواحد منهم يكتب الحديث الواحد من ثلاثين طريقاً أو أكثر، وأن فيها الأقطاب والإنجاب والأوتاد، ويقال لهم العمدة والأبدال والأخيار والعصب، فالأبدال بالشام، واختلفت الروايات في عددهم: فأكثر الروايات أنهم أربعون رجلاً، وفي بعض الروايات أربعون رجلاً، وأربعون امرأة كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة، فإذا جاء الأمر قبضوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة.

وعن الفضل بن فضالة قال: الأبدال بالشام في حمص خمسة وعشرون رجلاً، وفي دمشق ثلاثة عشر، وفي بيسان اثنان. وفي رواية عن حذيفة بن اليمان: «الأبدال بالشام ثلاثون رجلاً على منهاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام».

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «لا يزال أربعون رجلاً قلوبهم على قلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يدفع الله بهم عن أهل الأرض، يقال لهم الأبدال».

وعن الحسن البصري رحمه الله: لن تخلو الأرض من سبعين صديقاً وهم الأبدال: أربعون بالشام، وثلاثون في سائر الأرض.

وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «ثلاث من كن فيه فهو من الأبدال الذين بهم قوام الدنيا وأهلها: الرضا بالقضاء، والصبر عن محارم الله، والغضب في ذات الله».

وجاء في وصف الأبدال: «إنهم لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن بسخاء النفس، وسلامة القلوب، والنصيحة لأئمتهم» وفي لفظ: «لجميع المسلمين».

وعن أبي سليمان: الأبدال بالشام والنجباء بمصر. وفي لفظ: الأبدال من

الشام والنجباء من أهل مصر. وفي رواية عن علي كرم الله وجهه أيضاً:
والنجباء بالكوفة، والعصب باليمن، والأخيار بالعراق. وفي لفظ: والعصب
بالعراق.

وعن بعضهم: النقباء ثلاثمائة وسبعون، والبدياء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد
أربعة، والغوث: أي الذي هو القطب واحد، فمسكن النقباء الغرب، ومسكن
النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سائحون في الأرض، والعمد في
زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة، فإذا عرضت الحاجة من أمر العامة ابتهل
فيها النجباء، ثم الأبدال، ثم الأخيار، ثم العمد، فإن أجيوا وإلا ابتهل الغوث، فما
تتم مسألته حتى يجاب.

وجاء عن علي كرم الله وجهه قال: قال رسول الله: «لم يكن نبي قط إلا
أعطي سبعة نجباء وزراء رفقاء، وإني أعطيت خمسة عشر: حمزة، وجعفر،
وأبو بكر، وعمر، وعلي، والحسن، والحسين، وعبد الله بن مسعود، وسلمان،
وعمار بن ياسر، وحذيفة، وأبو ذر، والمقداد، وبلال، ومصعب» وأسقط
الترمذي حذيفة وأبا ذر والمقداد.

وأنتهم: أي أمته يخرجون من قبورهم بلا ذنوب يحصها الله عنهم باستغفار
المؤمنين لهم، وأنها أول من يحاسب، وأنها أول من تنشق عنها الأرض، وأنها
في الموقف تكون على مكان عال مشرف على الأمم، وأنها أول من يدخل
الجنة من الأمم، وأن لكل منها نورين كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنها تمر
على الصراط كالبرق الخاطف وأنها تشفع في بعضها، وأن لها ما وسعت وما
سعى لها، وأنها اختصت عن من الأمم ما عدا الأنبياء بوصف الإسلام على
الراجح كما تقدم لأنه لم يوصف بالإسلام أحد الأمم السالفة سوى الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام، فقد شرفت بأن توصف بالوصف الذي توصف به الأنبياء
تشريفاً لها وتكريماً لها، فقد قال زيد بن أسلم أحد أئمة السلف العالمين
بالقرآن والتفسير: لم يذكر الله بالسلام غير هذه الأمة، أي وما ورد مما يوهم
خلاف ذلك مؤول.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372

وقد خصت هذه الأمة بخصائص لم تكن لأحد سواها إلا للأنبياء فقط، فمن ذلك
الوضوء، فإنه لم يكن أحد يتوضأ إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فعن ابن
مسعود رضي الله تعالى عنه مرفوعاً، في التوراة والإنجيل وصف هذه الأمة
أنهم يوضؤون أطرافهم.

وفي بعض الآثار: افترضت عليهم أن يتطهروا في كل صلاة كما افترضت على
الأنبياء لكن تقدم في الحديث: «أنه توضأ مرة مرة، فقال: هذا وضوء لا يقبل
الله الصلاة إلا به، ثم توضأ مرتين فقال: هذا وضوء الأمم من قبلكم، من توضأ
مرة آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثاً ثلاثاً، فقال: هذا وضوئي ووضوء الأنبياء
من قبلي ووضوء خليل الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين» وهذا
الحديث كما ترى يقتضي مشاركة الأمم مع هذه الأمة في أصل الوضوء،
والاختصاص إنما هو بالتثليث، وتقدم الكلام على ذلك، أي والغسل من الجنابة.

ففيما أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام في وصف هذه الأمة: «وأمرتهم بالغسل من الجنابة كما أمرت الأنبياء قبلهم، وأن منها سبعين ألفاً، مع كل واحد من هؤلاء السبعين ألفاً سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، أي وبإجلال الله تعالى توقيير المشايخ منهم، وأنهم إذا حضروا القتال في سبيل الله حضرتهم الملائكة لنصرة الدين، وأن الملائكة عليهم تنزل هليهم في كل سنة ليلة القدر تسلم عليهم، وأكل صدقاتهم في بطونهم، وإثابتهم عليها، وتعجيل الثواب في الدنيا مع ادخاره في الآخرة، كصلة الرحم فإنها تزيد في العمر ويثاب عليها في الآخرة وما دعوا به استجيب لهم. روى الترمذي رحمه الله: «أعطيت هذه الأمة ما لم يعط أحد بقوله تعالى {ادعوني أستجب لكم}» وإنما يقال هذا للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام في وصف هذه الأمة «إن دعوني استجبت لهم، فيما أن يكون عاجلاً، وإما أن أصرف عنهم سوءاً، وإما أن أدخر لهم في الآخرة» ومخالطة الحائض سوى الوطء وما ألحق به، وهو مباشرة ما بين سرتها وركبتها، وتقدم وصفهم في الكتب القديمة بما لا ينبغي إعادته هنا لطوله.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 372
باب ذكر أولاده

ولد له من خديجة رضي الله تعالى عنها قبل البعثة: القاسم، وهو أول أولاده، وبه كان يكنى، قيل عاش سنتين، وقيل سنة ونصف، وقيل حتى مشى، وقيل بلغ ركوب الدابة، وقيل عاش سبع ليال. وهو أول من مات من ولده قبل البعثة، ثم ولدت قبل البعثة أيضاً زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم رضي الله تعالى عنهن. وقيل أول بناته رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم رضي الله تعالى عنهن. وقيل أكبر بناته رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم ثم فاطمة. وقيل أول بناته زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة. وبعض الناس ذكر رقية بعد فاطمة. وبعد البعثة ولد له عبد الله، ويسمى الطيب الطاهر. وقيل الطيب والطاهر غير، عبد الله المذكور ولدا في بطن واحدة قبل البعثة. أي وقيل اللذان ولدا في بطن واحدة قبل البعثة الطاهر والمطهر. وقيل ولد له أيضاً قبل البعثة في بطن واحد الطيب والمطيب. وقيل ولد له قبل البعثة عبد مناف، مات هؤلاء قبل البعثة وهم يرضعون، أما عبد الله الذي ولد له بعد بعثته فكان آخر الأولاد من خديجة رضي الله تعالى عنها. وبهذا يظهر التوقف في قول السهيلي رحمه الله كلهم ولدوا بعد النبوة. وأجاب بعضهم بأن المراد بعد ظهور دلائل النبوة. وفيه أن دلائل النبوة وجدت قبل تزويجه بخديجة رضي الله تعالى عنها. وعند موت عبد الله هذا قال العاص بن وائل والد عمرو بن العاص. وقيل أبو لهب قد انقطع ولده: أي لا ولد له ذكر لأن ما عدا الذكر عند العرب لا يذكر فهو أبت، فأنزل الله تعالى: {إن شأنك هو الأبت}. أقول: في مسلم عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «بيننا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغفى إغفاءً ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله، فقال: أنزل عليّ آناً سورة فقرأ: {بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شأنك هو الأبت} ولا يخفى أن

هذا يقتضي أن السورة المذكورة مدنية، ثم رأيت الإمام النووي رجح ذلك لما ذكر.

وقد يقال: يجوز أن يكون {إن شائتك هو الأبتى} نزل بمكة وما عداه نزل بالمدينة وقد يعبر عن معظم السورة بالسورة. ثم رأيت في الإتيان ذكر أن مما نزل دفعة واحدة سوراً منها الفاتحة والإخلاص والكوثر. ثم رأيت الإمام الرافعي رحمه الله قال: فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاء، وقالوا: من الوحي ما كان يأتيه في النوم، لأن رؤيا الأنبياء وحي، وهذا غير صحيح، لكن الأشبه أن يقال: القرآن كله نزل يقظة، وكان خطر له في النوم سورة كوثر المنزل عليه في اليقظة: أي قبل ذلك.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 391
وفيه أن قوله أنفاً لا يناسبه، قال: أو يحمل الإغفاء على الحالة التي كانت تعتربه عند نزول الوحي. ثم رأيت الجلال السيوطي في الإتيان نظر في جواب الرافعي الأول بما ذكرته واستحسن الجواب الثاني.
وفي المواهب أن العاص بن وائل اجتمع هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في باب من أبواب المسجد فتحدثا وصناديد قريش جلوس في المسجد، فلما دخل العاص المسجد قالوا له: من ذا الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذاك الأبتى، يعني النبي، وقد كان توفي أولاده من خديجة رضي الله تعالى عنها أي الذكور، فرد الله سبحانه وتعالى عليه وتولى جوابه بقوله: {إن شائتك هو الأبتى} أي عدوك ومبغضك هو الذليل الحقير: أي باغضك هو الأبتى: أي المقطوع عن كل خير، أو المقطوع رحمه بينه وبين ولده، لأن الإسلام حزمهم عنه فلا توارث بينهم. فلا يقال العاص وأبو لهب لهما أولاد ذكور؟ فالأول له عمرو وهشام رضي الله تعالى عنهما. والثاني له عتبة ومعتب رضي الله تعالى عنهما. قيل وكان بين كل ولدين لخديجة سنة. وكانت رضي الله تعالى عنها تعق عن الغلام بشاتين، وعن الجارية بشاة، وكانت تسترضع لهم.

وذكر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وغيره في قوله تعالى: {يهب لمن يشاء إناثاً} كلوط عليه الصلاة والسلام كان له إناث ولم يكن له ذكور {ويهب لمن يشاء الذكور} كإبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإنه لم يكن له بنت {أو يزوجهم ذكراً وإناثاً} كنبينا {ويجعل من يشاء عقيماً} كيحيى وعيسى عليهما الصلاة والسلام، فإنهما لم يولد لهما ولد.

أما زينب رضي الله تعالى عنها، فتزوجها ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة شقيقتها، وهو العاصي بن الربيع كما تقدم. وذكر بعضهم يدل هالة هند. قال: وهالة صحابية، وهند لا أعرف لها إسلاماً. ويحتمل أن يكون أحدهما اسماً والآخر لقباً، فهما واحدة.

وفي سنة ثمان من الهجرة، أي من ذي الحجة ولدت له مارية القبطية رضي الله تعالى عنها - وكان معجباً بها، لأنها كانت بيضاء جميلة - ولده إبراهيم. وعق عنه بكبشين يوم سابعه، وحلق رأسه، وتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض، أي وغارت نساؤه ورضي عنهن من

ذلك ولا كعائشة رضي الله تعالى عنها حتى إنه قال لها: انظري إلى شبهه، فقالت: ما أرى شيئاً فقال. ألا تري إلى بياضه ولحمه، وكانت قابلتها سلمى مولاة رسول، أي وكانت قبل ذلك مولاة عمته صفية رضي الله تعالى عنها وهبتها له، وسلمى زوجة أبي رافع رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله، وكان لعمه العباس رضي الله تعالى عنه قبل ذلك، وهبه له واسمه إبراهيم وكان قبطياً. وقيل غير ذلك، أعتقه لما أخبره بإسلام العباس، وزوجه مولاته سلمى المذكورة. وقيل كان مولى لسعيد بن العاص، فورثه بنوه ثمانية فأعتقوه كلهم إلا ولده خالد فإنه لم يعتق نصيبه منه، فكلمه أن يعتق نصيبه أو يبيعه أو يهبه منه، فوهبه منه فأعتقه، قيل بعد أن سأله أبو رافع في ذلك، وبقي عقبه من أشرف المدينة.

رقم الجزء: 3 رقم الصفحة: 391
